الجواهر
في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الأول

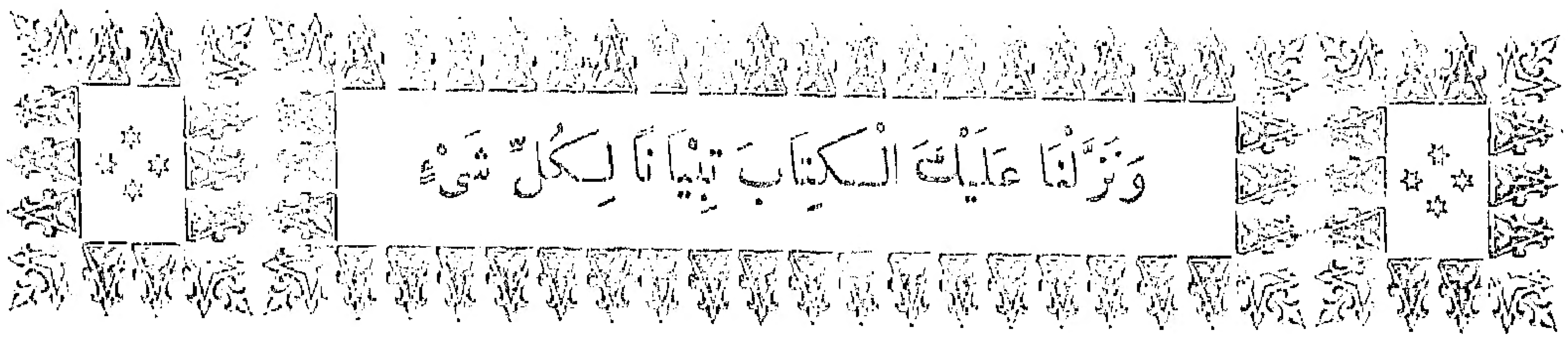
(تنبيه) ان شاء الله : بعد تمام طبع التفسير سنتبعه « بملحق » لتفصيل ما أجمل فيه من العلوم الكونية والأحكام الشرعية واختلاف المذاهب فيها . المؤلف

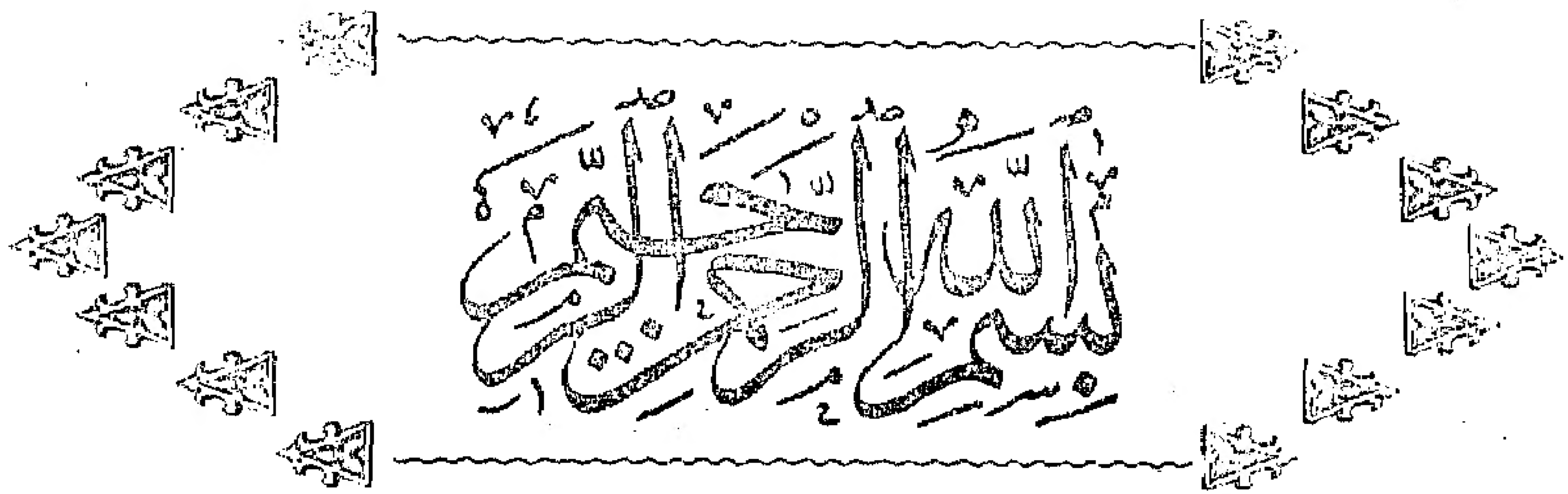
طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وباشر طبعه محمد أمين عمران

الطبعة الثانية - في شوال ١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١





الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

﴿ أما بعد ﴾ فانى خلقت مغرما بالعجائب الكونية ، معجبا بالبدائع الطبيعية ، مشوقا إلى ما فى السماء من جمال ، وما فى الأرض من بهاء وكمال ، آيات بينات ، وغرائب باهرات ، شمس تدور ، وبدر يسير ، ونجم يضيء ، وسحاب يذهب ويجيء ، وبرق يأتلق ، وكهرباء تخترق ، ومعدن بهي ، ونبات سني ، وطير يطير ، ووحش يسير ، وأنعام تسرى ، وحيوان يجرى ، ومرجان ودر ، وموج يمر ، وضياء فى مخارق الأجواء ، وليل داج ، وسراج وهاج ، وكتاب من العجائب مسطور ، فى لوح الطبيعة منشور ، وسقف مرفوع ، إن فى ذلك لبهجة لذوى البصائر ، ونورا وتبصرة لصادقى السرائر .

ثم إنى لما تأملت الأمة الاسلامية ، وتعاليمها الدينية ، ألفيت أكثر العقلاء ، و بعض أجلة العلماء ، عن تلك المعانى معرضين ، وعن التفرج عليها ساهين لاهين ، فقليل منهم من فكر فى خلق العوالم ، وما أودع فيها من الغرائب .

فأخذت أؤلف كتبا لذلك شتى ، كنظام العالم والأمم ، وجواهر العلوم ، والتاج المرصع ، وجمال العالم ، والنظام والاسلام ، ونهضة الأمة وحياتها ، وغير ذلك من الرسائل والكتب . ومزجت فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية ، وجعلت آيات الوحى مطابقة لعجائب الصنع ، وحكم الخلق ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، وتقبلها أجلة العلماء قبولا حسنا ، وترجم منها الكثير الى اللغة الهندية المسماة بالأوردية ، والى لغة القازان بالبلاد الروسية ، والى لغة جاوه فى الأوقيانوسية ، ولكن كل ذلك لم يشف منى الغليل ، ولم يقم على غنائه من دليل ، فتوجهت إلى ذى العزة والجلال ، أن يوفقنى أن أفسر القرآن ، وأجعل هذه العلوم فى خلاله ، وأتفيأ فى بساتين الوحى وظلاله ، ولكم طلبت منه جل جلاله بالدعوات فى الخلوات ، وابتهلت اليه وهو المجيب ، فاستجاب الدعاء .

وكان

وكان ابتداء التفسير : إذ كنت مدرّسا بمدرسة دار العلوم ، فكنت ألقى بعض آيات على طلبتها ، و بعضها كان يكتب فى مجلة الملاجئ العباسية ، وها أنا ذا اليوم أوالى التفسير مستعينا باللطيف الخبير ، مؤمّلا بما وقر فى النفس ، أن يشرح الله به قلوبا ، و يهدى به أمما ، وتنقشع به الغشاوة عن أعين عامّة المسلمين ، فيفهموا العلوم الكونية ، و إنى لعلى رجاء أن يؤيد الله هذه الأمّة بهذا الدين ، و ينسج على منوال هذا التفسير المسلمون ، وليقرأنّ فى مشارق الأرض ومغاربها مقرونا بالقبول ، وليولعنّ بالعجائب السماوية ، والبدائع الأرضية : الشبان الموحدون ، وليرفعنّ الله مدنيتهم الى العلا ، وليكوننّ هذا الكتاب داعيا حثيثا الى درس العوالم العلوية والسفلية ، وليقومنّ من هذه الأمّة من يفوقون الفرنجة ، فى الزراعة ، والطبّ ، والمعادن والحساب ، والهندسة ، والفلك ، وغيرها من العلوم والصناعات ؟ كيف لا ، وفى القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية ، فأما علم الفقه فلا تزيد آياته الصريحة عن مائة وخمسين آية .

واقد وضعت فى هذا التفسير ما يحتاجه المسلم : من الأحكام والأخلاق ، وعجائب الكون ، وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق : مما يشوّق المسلمين والمسلمات ، الى الوقوف على حقائق معانى الآيات البينات : فى الحيوان والنبات والأرض والسموات ﴿ ولتعلمنّ ﴾ أيها الفطن : أنّ هذا التفسير نفحة ربانية ، واشارة قدسية ، و بشارة رمزية ، أمرت به بطريق الالهام ، وأيقنت أن له شأنا سيعرفه الخلق ، وسيكون من أهمّ أسباب رقىّ المستضعفين فى الأرض « ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوىّ عزيز » ، وهذا أوان أن أشرع فى المقصود ، فأقول وبالله التوفيق .

سورة الفاتحة

وبيان آيات العلوم والأخلاق فيها

وهى مكية ، وآياتها سبع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ * آمين

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأبىّ ألا أخبرك بسورة لم ينزل فى التوراة والانجيل والقرآن مثلها ؟ قلت بلى يارسول الله ، قال فاتحة الكتاب ، انها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » نزلت هذه السورة لتعليم العباد : كيف يتبرّكون باسم الله عزّ وجلّ فى سائر أحوالهم ، وكيف يحمدونه و يستعينون به ؟ فيبتدئ القارئ قائلا : أقرأ متبرّكا باسم الله الرحمن المنعم بجلائل النعم : كالسموات والأرض والصحة والعقل الرحيم المنعم بدقائقها ، كسواد العين ، وتلاصق شعرات أهدابها المانعات من دخول الغبار المؤذى لها ، مع أن النور يلمع من خلالها ، و ينقل صور المرئيات الى حدقتها

فشبكيتها ، فالدماغ ، فهذه الدقة فى الصنع والحكمة فى الوضع التى أباحت لضوء الشمس والكواكب مثلا أن يلج ومنعت الغبار أن يدخل يعبر عنها بلفظ الرحيم تمما للنعمة ، وتكميلا للهناء والسعادة .

ولما كان أكثر الناس لايلحظون العجائب الكامنة فيهم ، ولايعرف نفسه إلا قليل منهم ، وهم أكابر الحكماء والأولياء ، وجب أن أبين فى هذا المقام بعض رحمة الله عزّ وجلّ فى العالم المشاهد : فمنها ما أشار اليه (العلامة الأستاذ ميلن ادوارد : أن حيوانا يسمى أكسيلوكوب) يعيش منفردا فى فصل الربيع ، ومتى باض مات حالا ، فمن رحمة الله وجميل صنعه ، ورأفته بالخلق أن ألهم هذا الحيوان أن يبنى بيتا قبل أن يبيض على منوال ما كانت تفعله عاد من اتخاذ البيوت بالحفر ، ولكن هذا فى خشب ، وأولئك فى صخر ، فيعمد ذلك الحيوان الى قطعة من الخشب ، فيحفرفيها حفرة مستطيلة ، ثم يجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ويحشو بها ذلك السرداب ، ثم يبيض على ذلك بيضة ، ثم يأتى بنشارة الخشب ويجعلها عجينة ، ويجعل منها سقفا لذلك السرداب ، والحكمة فى ذلك : أن هذه البيضة متى فقست وخرجت الدودة كفاها ذلك الطعام سنة ، وهى المدّة التى لاتستطيع تلك الدودة أن تحصل فيها قوتها ، ومتى أتم الحيوان ذلك صنع سردابا آخر فوقه على هذا المنوال ، وهكذا يضع جملة أدوار ، فانظر كيف شملت الرحمة ما خلق ومالم يخلق ، فان ذلك الطعام المخزون فى السرداب رحمة ألهمها ذلك الحيوان من الحشرات لولده الذى سيخلق .

﴿ومن هذه العجائب﴾ ماشاهده العلماء الباحثون فى أمر النحل والنمل والعنكبوت ﴿فأما النحل﴾ فتعجب كيف جعل الرحمن الرحيم له سبلا مذللة ، فانه متى فتح زهرة أوّل النهار لمتصّ رحيقها المختوم ويرجع به الى الخلية فيضعه فيها ، يلهم أن لا يفتح زهرة فى ذلك اليوم ، الا ما كان من جنس تلك الزهرة لرحمة النحل ورحمة الناس ، أما رحمة النحل ، فانه لا يعوزه أن يحتال فى فتح زهرات أخرى من نوع آخر ، فيطول عناؤه ، وأما رحمة الناس : فان مايعلق برجلى النحلة من حبوب طلع الذكور من النبات ، اذا وصل الى زهرة أنثى علق بها من ذلك الطلع بعضه ، فأثمر ذلك النبات لحصول الالقاح بهذه الرحمة العجيبة .

﴿وأما النمل﴾ فمن عجائب الرحمة الخاصة به : أن الله خلق له حشرة تسمى (افس) باللسان الافرنجى ، يحاربها النمل ويغلبها ، ومتى غلبها أخذ يستولدها ويربيها ويسيمها فى ورق الورد ، ومتى أكلت وشبعت أقبل النمل عليها وامتصّ منها مادّة حلوة . فكأنه بقر له يشرب لبنه .

﴿وأما العنكبوت﴾ فانها ألهمت النسج البديع بهندسة فاقت هندسة الانسان ، وعلل ذلك العلماء بقولهم : إنّ هندسته إلهية ، وهندسة الانسان بتعليم البشر ، فلذلك يغلط الانسان ، ولا يغلط العنكبوت فى الهندسة . ولما كان بيت العنكبوت أضعف بيت ألهمها الله أن تبحث عن صمغ وغراء من أماكنها وأشجارها وتلطخ بها خيوطها التى نسجتها فتكسبها لزوجة ، فلذلك لا تمزقها الرياح اذا فاجأتها ، ولا الأعاصير اذا ساورتها ، واذا مرّ بها الذباب التقطته بمادّتها اللزجة .

فانظر إلى آثار رحمة الله : كيف كانت المادّة الصمغية صائنة بيت العنكبوت الضعيف من التمزيق اذا هبت الزعازع ، واهتاجت الأعاصير مع أنها قد تقتلع الأشجار وتخرب المساكن ، ثم تكون شبكة صائد وحيلة محتال ، هذه هى الرحمة والحكمة . (١)

وهكذا ألهم الله الأنبياء وأوحى اليهم أن يعلموا العباد كيف يتبرّكون باسم الله فى أوّل أعمالهم ؟ كالقراءة والأكل ذاكرين ربهم ورحمته الواسعة التى عمت سائر العوالم ، فيمتلئ قلب العبد ايقانا بالرحمة ، واستبشارا بالنعمة ، وفرحا برحمة الرحمن الرحيم .

(١) سترى عجائب وصورا شتى فى سورة النحل والنمل والعنكبوت

فاذا

فاذا ابتدأ القارئ بالتسمية ، وامتلأ قلبه بتلك الرحمة ، فلا جرم ينطلق لسانه بالحمد ، بعد أن أفعم قلبه بالاجلال ، فيقول : الحمد لله ، يقول القارئ ها أنا ذا عرفت رحمة الله سارية فى سائر العوالم ، ولقد علمت أن كلّ من أنعم عليه بنعمة يشكر مسديها ، فالولد يشكر أبويه على التربية ، والضعيف الذليل يشكر القادر الشجاع الذى أنقذه من الذلة ، والمتعلم يشكر العالم الذى أسبغ عليه نعمة العلم .

إنّ الأمم كالأفراد ، فاننا نرى كلّ أمّة تمجد وتمدح وتحمد رجالها الذين أفادوها ورقوا صناعتها وتجارتها وثروتها فى التاريخ والمجامع ، وهكذا شجعانها الجحاجيح ، وأبطالها المقاديم ، وكذا أنبياؤها وحكماؤها الذين أضاءوها بنعمة العلم والدين .

فهذه نعم واصلة من المحسنين والشجعان والعلماء الى الأمم فاستحقوا بذلك الشكر ، ولا جرم أن الشكر يكون بالقلب ثم الجوارح ، وأهمها اللسان ، فينطق بالحمد : وهو الثناء بالجميل لأجل النعمة الواصلة بالاختيار من المنعمين .

يجيش فى نفس القارئ تلك الرحمات العامة ، فيشكر مسديها بقلبه وجوارحه ، وهى قسمان : رحمات واصلة على أيدى الناس : كالوالدين والشجعان والعلماء والأنبياء والمحسنين ، ورحمة واصلة من غيرهم ، كاشراق الشمس ، ونعمة السحاب ، وجريان الماء ، وعجائب النبات ، وجمال الطبيعة ، وبهاء النجوم ، وهذه النعم والرحمات بقسميها ، ليس لها مصدر إلا الله ، ولا جرم أن الحمد والثناء انما يكون للمحسن الحقيقى

﴿فالحمد إذن إنما يكون له سبحانه﴾ فاذا مدحنا الوالدين ، وحمدنا الشجعان ، وشكرنا العلماء والأنبياء ، فالحمد والمدح والشكر لله لأنه مولى هذه الرحمة ، واذا تمتعنا بنعمة السحاب ، والمطر ، وماء الأنهار ، ومعادن الجبال ، ونور الشمس ، فالحمد والشكر لمسديها : وهو الله ، فكأن القارئ يقول : ها أنا ذا عرفت أن الرحمة الواصلة للعباد مرجعها الله ، فليكن كل حمد صادر من الألسنة راجعا لله عزّ وجلّ ، لأنه هو المختصّ بالرحمة التى كانت سببا فى الثناء .

نسخ العادات العربية الجاهلية

من مدح المحسنين والملوك ، واختصاص الحمد والعبادة بالله اطلاقا للحرية والمساواة

اعلم أن العرب كان من عادتهم أن ينصتوا للشعراء ، ويسمعوا المدائح ، ويصغوا لمن هم فى كل واد يهيمون الذين يقولون مالا يفعلون ، وما كان أكبر سلطان الشعر عليهم وما أقساه وأقواه وأملكه لقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ومشاعرهم ، ولقد كان الشاعر يقول البيت من الشعر مدحا فيرفع القبيلة الوضيعة المنزلة ، ويشيد بذكرها ، ويقول بيتا ذمّا ، فيضع القبيلة الرفيعة ويميت ذكرها ، فمن الأوّل ماقاله الشاعر فى بنى أنف الناقة ،

قَوْمٌ هُمُ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمُ * وَمَنْ يُسَوِّى بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنَبَا

ومن الثانى قول جرير :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ * فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

ولقد كان ذكر بنى أنف الناقة مما يعير به ، فلما قيل هذا البيت رفعوا رؤوسهم وفخروا بلقبهم وشرفوا بنسبهم ، وكان الرجل منهم إذا سئل يقول : أنا من بنى أنف الناقة ويميل صوته عجبا وتيها وافتخارا ، وكذلك بنو نمير كانوا قبل هذا البيت يتكبرون ويفخرون بنسبهم ، فلما أن شاع البيت طأطأوا رؤوسهم وغضوا من صوتهم ، وانخذلوا أمام عدوّهم ، وصغروا فى المحافل ، ولقد كانت هذه حال العرب كما ترى فى شعر حسان مادح

ملوك الغسانيين ، وزهير بن أبي سلمى مادح هرم بن سنان ، والنابغة الذبياني مادح النعمان وغيرهم ، فترى النابغة يقول في النعمان :

كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ * إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

ويقول أيضا

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَاكَ سُورَةً * تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ

ويقول أيضا

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي * وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

ويقول زهير في هرم

قَدْ جَعَلَ الْمُبْتَغُونَ الْخَيْرَ فِي هَرِمٍ * وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طُرُقَا

وقال في قومه أيضا

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ * وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ

وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِّيَّ إِلاَّ وَشِيجُهُ * وَهَلْ نَبَتَتْ إِلاَّ بِمَغْرِسِهَا النَّخْلُ

يريد أنّ الفقراء منهم كرماء ، والأغنياء يعطون مايسألون ، ثم يقول وهل الرّماح الخطية التي تجلب من الخط ، وهو موضع ببلاد البحرين كانت ترد له الرماح تنبت إلا في شجرها ، وهل النخل ينبت إلا في منابته .

هذا قلّ من كثر ، ومثل من عادات العرب في الجاهلية ، فكانت المحامد من الشعراء تلقى إلى الملوك ، وكانت أنظارهم قاصرة على رؤسائهم ، فلما جاء القرآن فاجأهم بقوله : لاتحمدوا الملوك والمحسنين ولكن احمدوا الله ، كما قال الأعشى في قصيدته :

وَصَلِّ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى * وَلاَ تَحْمَدِ الْمُثْرِينَ وَاللهَ فَاحْمَدَا

أمر العرب أن يولوا وجوههم قبل الله وأن يصدّوا عن المدائح المالكية ولذوي الشرف إطلاقا لنفوسهم من الأسر ، ولعقولهم من الغفلة ، وتعويدا لهم على الحرية العقلية ، وأن ينسوا الاحسان القليل الصادر من المخلوق الضعيف ، وأن يطلبوا الخير والمعروف عند الله الذي هو المربي لجميع العالمين من الملوك والمثرين وغيرهم فاذا فعلوا ذلك أصبحوا سادة العالم ، لأنهم بنظارهم في العوالم ، وبحثهم في نظامها وعجائبها ، وما أودع فيها من حكمة وغنى وشرف ، ينالون الخير من المربي العظيم والخالق الحكيم بجدّهم واجتهادهم ، لا بالاستجداء من الملوك ولا بالتوسل للمحسنين ، ولقد حقق الله بعض ماذكرناه ألاترى أنهم فتحوا الأمم شرقا وغربا باتحادهم ونالوا من الخيرات فوق مايبتغون ، وفي هذه السورة أمر الله المسلمين أن يخصوا الله بالحمد و بالعبادة كما جاء في سورة البقرة اذ أمرهم أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم أو أشدّ ذكرا اذا قضوا مناسكهم : اذ قال «فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا» فرجع الأمر الى توجيه العبادة والحمد والذكر لله وتحريم عبادة المخلوق والخضوع فتتوفر الهمم على الأعمال العظيمة : ألاترى ماقاله النعمان بن مقرن الى يزدجرد ملك الفرس أيام حرب القادسية في زمن عمر رضي الله عنه (ان نبينا صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نبتدئ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الانصاف ، فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله فان أبيتم فأمر من الشرّ أهون من آخر شرّ منه الجزية فان أبيتم فالمناجزة الخ)

وتأمل

وتأمل قول زهرة لرستم قائد جيش الفرس إذذاك (انا لم نأتكم لطلب الدنيا إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة) فقال له رستم : مادين الاسلام ؟ (قال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) قال وأى شيء أيضا ؟ قال (إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، والناس بنوآدم وحواء إخوة لأب وأم) قال ماأحسن هذا ، ثم دعا رستم قومه فأنفوا من ذلك ، ثم طلبوا من سعد بن أبى وقاص رجلا آخر يكلمهم ، فأرسل ربعى ابن عامر ، فلما وصل إلى رستم داس بفرسه على النمارق والبسط والزينة والحرير ، وامتنع أن ينزع سلاحه ، وأخذ يمزق الوسائد والبسط ، ثم ركز رمحه على البسط ، ومما قاله (قد بعثنا الله لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام الخ) فأعجب بكلامه رستم وخلا بقومه . وقال لهم هل رأيتم كلاما أعز وأوضح من هذا ؟ فقالوا معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب . ثم أرسل لهم المغيرة بن شعبة ، فجلس مع رستم على سريره ، فأنزلوه ، فقال (ما أرى قوما أسفه أحلاما منكم انا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضا . وانى رأيت أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم) اهـ

ألست ترى أن هذه المحاورات والخطب تتقارب مع ماذكرناه فى فاتحة الكتاب ، وأن العبادة والحمد مختصان بالله عز وجل ، وأنه هو الذى يطلب منه الاعانة والهداية إلى الصراط السوى ، أولا ترى أن الاسلام كان له فى الصدر الأول معنى غير الذى يفهم المسلمون الآن ، وأن الأمة الاسلامية اليوم غير أولئك الذين كانوا فى القرون الأولى ، والا فكيف نسمع منهم العدل والمساواة ، وأن لا يستعبد بعضهم بعضا ، وأنهم خلفاء الله فى أرضه ليعطوا عباده الحرية : فالاسلام إذ ذاك مبنى على الفهم والعلم والعقل ، فأما الآن فانه مجرد ظواهر وأعمال لا تصل إلى أعماق القلوب ، فلذلك انحطت الأمة الاسلامية اليوم ، وقد آن أن ترجع الى عزها القديم ومجدها العظيم .

الشريعة الاسلامية والنظر فى الآفاق وفى الأنفس

قد تبين لك مما ذكرناه أن الحمد والعبادة مختصان بالله ، والقرآن طافح بهذه المعانى ، وقد ظهرت آثاره فى أقوال السلف الصالح كما رأيت : وهكذا كانت أفعالهم و بالشريعة من الحدود والأحكام والبيع والقرض والميراث وأحكام القضاء (التى تقوم مقام الجنايات والجنح والمخالفات بل هى أفضل منها) فى كتب الفقه ، حكموا الأمم وعدلوا ، فلكوا اشرقا وغربا بهذا كله بالشريعة ، وهى الأحكام الشرعية المعروفة التى تدرس فى بلاد الاسلام وآياتها محدودات ، فأما آيات العلوم الكونية ، فانها تبلغ نحو ٧٥٠ آية كلها فى عجائب هذا الكون ومنافعه وغرائبه ، والذى أراه أن المسلمين فى مستقبل الزمان سيقرءون هذه الآيات و يعرفون هذه العجائب ، وكما أن الذين قبلنا درسوا الشريعة وأحكموها وحكموا الأمم بها ، ثم دالت دولتهم ، فهكذا سيكون فى هذه الأمة من يرون الكون خلق الله وآياته وعجائبه وحكمه ، وقد ذكرها الله فى كتابه أكثر مما ذكر من الأحكام الشرعية ، والعناية الالهية توجهت اليها أكثر من توجهها إلى أحكام الفقه ، فيدرسون علوم الهيئة ، والفلك ، والحساب ، والهندسة ، وعلم المعدن ، والنبات ، والحيوان ، وسائر علوم هذه الدنيا ، و يرون أن ذلك من الدين ، فيكون علم الدين على قسمين حينئذ : العلم الأول علم الآفاق والأنفس : أى معرفة العوالم العلوية والسفلية المشروحة فى هذا التفسير ، وعلم النفس : والعلم الثانى علم الشريعة فترى العالم الدينى شارحا النبات ، والحيوان والآخر مديرا لمعمل الكيماوى ، وهذا من قوله تعالى «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد» ومن قوله هنا (الحمد لله رب العالمين) والعالم علوى وسفلى ، والله ربهما والمسلمون خلفاؤه فى الأرض بالقضاء والعدل بين الناس ، وبالبحث ومعرفة العوالم ، فكما برع آباؤنا فى القضاء ، والحكم بين الناس فلنقم نحن

بذلك وندرس علوم العوالم كلها باعتبار أن ديننا يأمرنا به ، والا فما الفرق بين «قل أنظروا ماذا في السموات والأرض» وبين قوله «فاستقم كما أمرت» كلاهما أمر ، والأمر للوجوب فاذا نحن قرأنا الأحكام الشرعية وقضينا بها فلنقرأ العجائب الكونية ، ولنعمل بها فنرقى الزراعة والصناعة والتجارة .

وانى أدعو جميع أمم الاسلام في مشارق الأرض ومغاربها أن يمعنوا النظر فيما أقول ، والا فكيف يقول الله تعالى «ليظهره على الدين كله» وكيف يظهر على الأديان إلا بهذه المزية ، وهي أن الديانات لاتتعرض لعلوم الكائنات ، والاسلام يدعو إليها و يأمر بها ، وهذه خاصة به لا يشاركه فيها دين من الأديان . ليعلم كلّ عالم أوملك أمّته جميع العلوم باعتبار أنها من الاسلام كما سيظهر ان شاء الله في هذا التفسير ، فاذا أبى المسلمون ماذكرناه فانى أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، وقد بدت بوادرها من الطيارات القاذفات على القرى ، والشيوخ ، والصبيان ، فمن تكاسل من المسلمين عن هذه العلوم فلا يلومنّ إلا نفسه «إنّ الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، و إذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له» ألا وان أرباب المذاهب من شيعة وسنية ، ومالكية ، وحنابلة ، وحنفية ، وشافعية ، وزيدية ، كان اختلافهم في مسائل من الشريعة المطهرة ، فاذا قرءوا علوم الآفاق التي أرشد إليها القرآن لم يكن بينهم اختلاف فيها ، لأنها مكشوفة ظاهرة ، والله هوالذى منحهم إياها ، فليقرأ المسلمون في الشرق والغرب جميع العلوم التي برع فيها الافرنج ، وهي علوم الأنفس والآفاق واذ ذاك يرون أن الخلاف بينهم في الشريعة يسير جدّا بالنسبة لما اتفقوا فيه .

إلى هذا أدعو جميع المسلمين ، والله يهدى إلى سواء الصراط ، ان علماءنا السابقين شرحوا هذا في كتبهم ودوّنوه في دفاترهم ، ولكنّ المسلمين كانوا في غفلة ساهين ، ليقف العالم بين الناس شارحا لهم جمال الزهر ، وبهجة القمر ، وبدائع النبات ، وغرائب الطب ، والمعادن ليفهم غيره ، وليكثر من هذا : أولا يرى علماء الاسلام من سنيين ، وشيعيين ، وزيديين وغيرهم ، أن علوم الخلق من العوالم العلوية والسفلية غذاء ، وأن علوم الشريعة ، وهي الأحكام الفقهية التي صرفوا فيها أعمارهم دواء ، وكيف يعيش الانسان الا بالغذاء ؟ وهو إذا تعاطى الدواء وحده هلك ، بل الغذاء هو الدائم الطلب ، أما الدواء فانما يكون عند انحراف الصحة .

فيأيها المسلمون : اطلبوا علوم الغذاء وعلوم الدواء : أى العلوم الكونية ، والعلوم الشرعية ، وجميعها يطلبها القرآن ، وقد اعتنى بعلوم الغذاء أشدّ من عنايته بالدواء فمالى أراكم عما قدمه الله معرضين ، وعلى ما أخره الله عاكفين ؟ قدّم تربيته للعالمين ورحمته للمخلوقين على العبادة وهداية الصراط المستقيم ، كأنه يشوقكم إلى دراسة رحماته ، ويأمركم بمعرفة كلماته الكونية ، وآياته الرحمانية ، وعجائبه الحكمية ، وبدائعه الفطرية ، وما ذرأ من البهجات ، وما زوّق من المصنوعات ، ولقد ساءنى والله ماأرى من إعراض بعض العلماء بالدين عن عجائب الخلق ، ولقد كنت أودّ أن أرى أولئك الذين نزحوا إلى أوروبا بعلم الطبيعة مغرمين ، والعجائب الخليقة مسارعين ، ولكنى رأيتهم منصرفين ، إلى الوظائف الوقتية ، والأعمال الادارية ، وما رأيت أحدا منهم بالعلوم الكونية مغرما ، فتشابه في بلادنا العلماء الدينيون ، والشبان الذين هم للكون دارسون ، فالأوّلون على أحكام الفقه مقتصرون ، وهؤلاء بالوظائف قانعون و «كلّ حزب بما لديهم فرحون» إلا قليلا من الفريقين نالوا حظا عظيما «وقليل ماهم . وقليل من عبادى الشكور» .

فاذا تأمّل المسلمون ماذكرناه كان حمدهم حقيقيا اذا عملوا بمقتضاه ، ولما كان كلّ حمد لابدّ له من سبب يستوجبه ، وقد ذكرنا السبب اجماليا ، وهو الرحمة ، وكان الاجمال لايغنى عن التفصيل ذكر الله أهمّ النعم ، وهي أنه مربى العالمين ، فقال (ربّ العالمين) أى مربى العوالم كلها ومرقيها من حال النقص الى حال الكمال وغايات التمام ، فهو الذى يتعهد النبات بالتغذية ، والانماء ، وهكذا الحيوان والانسان ، وكذا العوالم

العلوية

العلوية ، وهذه هي التربية التي كان مبدؤها الرحمة ، ولأذكرن لك مسائل من التربية .

المسألة الأولى : الذرة

ان المسلمين في أنحاء المعمورة يأكلون الذرة ويشاهدون مزارعها ، وأكثرهم يجهلون مادبر الله عزّ وجلّ فيها ، وكيف ربى الحبة الواحدة في (المطر) وهو المسمى (الكوز) عند العامة في بلادنا المصرية ، وهو مجمع الحب الذي يتكوّن حوله سطورا منظمة ، لو يعلم المسلمون كيفية تربية الله للحبة الواحدة لعجبوا من صنع ربهم ، وفهموا كيف يربى العوالم كلها ، ان لكلّ عود من أعواد الذرة ذكورا في أعلاه وإناثا في وسطه ، أما الذكور ، فهو مايسميه العامّة (الكذاب) وهو أغصان بيضاء فيها طلع مخفى عن الناس ذلك الطلع ينزل على ذلك (المطر) الذي هو مجمع الحبّ ، وله خيوط طويلات حريرية حمر أو بيض تلك الخيوط الدقيقة مثقوبة من أوسطها ثقبا ، لايشعر به الناس فينزل الطلع من أعلى العود الى تلك الخيوط التي يسميها العامة في مصر (شرابه) فيدخل ذلك الطلع في التجويف الذي في تلك الخيوط ، ويسرى حتى يصل إلى محل الأنثى في (المطر) أي محل الحبّ فتلقح تلك الأنثى فتخرج حبة واحدة بذلك التدبير ، فانظر وتعجب كم في ذلك المطر من حبة ، وكيف كان لكلّ حبة رحم مخصوص ولقح ينزل على ذلك الخيط حتى يصل في التجويف إلى الأمّ فتحمل بتلك الحبة ، ولقد ذكرت هذا في كتابي (جواهر العلوم) وأوضحته أيما إيضاح .

المسألة الثانية : حبة القمح

لقد توجهت إلى مدرسة الزراعة المصرية بالجيزة ، فأروني حبة القمح مكبرة مجسمة بشكل الكفرّى : أي الغلاف الذي في جوفه طلع ذكور النخل ، فرأيت أن لكل حبة من حبات السنبلة ثلاثة أغشية ملتفة حولها ، وفي أعلى تلك الأغشية (السفا) جمع سفاة ، كأنها أسنة تحمل أكياسا مملوءة طلعا كطلع النخل ، أو كطلع الذرة المتقدّم ، وهذه الأكياس المحمولة على تلك الأسنة تنزل ذلك الطلع على محل الأنثى ، وهي موضع تلك الحبة من السنبلة ، ومتى وقع طلع الذكور عليها حملت بتلك الحبة .

ألا فليعجب المسلمون من تربية الله مربى العالمين ، وكيف كانت عنايته تامّة بالحبة الواحدة من الذرة ومن القمح ، وكيف جعل لها أنثى وذكرا وألف بينهما ، وجعل الحبة نتيجة لتلك الحكمة ، وكيف يقرأ المسلمون في صلواتهم كلّ آن إن الله مربى العالمين ، وأكثرهم يجهلون تربيته ، انى لأعجب غاية العجب من أمّة يكون مبنى عبادتها ودينها على معرفة حكمة الله وتربيته ، ثم يجيء الفرنجة فيسبقونهم بتلك المعارف الشريفة العالية .

ياأمّة الاسلام كيف نقرأ في صلاتنا إن الله ربّ العالمين ، ونحن نجهل تلك التربية في صغيرات الأمور وكبيراتها ، واذا كانت عناية الله قد بهرت وظهرت في حبة ذرة وحبة قمح ، فكم من حبات فيهما يزدردها الانسان ، وهو أشبه بالبهائم ألا لافرق بين الانسان والحيوان إلا بهذه العلوم ، لوكان المدار على الخبز ، والماء والملابس ، والزينة ، لقال لنا الله الحمد لله الذي أروانا ، أو الذي أشبعنا ، أو الذي ألبسنا ، أو الذي جاء لنا بولد ، أو بمال ، بل قال لنا الذي شمل العالم بالتربية ، فكأنه يراد منا أن نكون مفكرين علماء ، لأن نأكل كما تأكل الأنعام ، ونموت كما يموت الدود ، ولوكان المراد أن نعرف الله بأنه مثيب ومعاقب على الحسنات والسيئات فقط ، لقال لنا الحمد لله ربّ الحسنات والسيئات : إن الله واسع الرحمة عظيم الهبة ، واسع العطايا فاقتصار الوعاظ على ذكر الثواب والعقاب قصورمعيب : اللهمّ إني أفرغت جهدى في إيقاظ الأمّة وأدّيت ماعلىّ وإنى أسألك أن تعينني على اتمام هذا التفسير إنك أنت السميع المجيب .

المسألة الثالثة : تربية الثمرة فى النخلة

ذلك أن النخلة تجذب مارقّ وراق من خلاصة العناصر الأرضية لتتغذى بها أجزاؤها فيرتفع ذلك الغذاء فيغذى جذع النخلة بما غلظ منه ، وأما خلاصته فتذهب صاعدة الى الجريد فيتغذى بها ، ويبقى ماهو ألطف من تلك الخلاصة فيرتفع إلى القنوان فيتغذى القنو بتلك اللطائف ، ثم مارق وراق من ذلك يرتفع الى شماريخ التمر فتتغذى به وترتفع الخلاصة الى التمرة فتقابلها فى أولها تلك التى على فمها المسماة بالقمع ، وذلك القمع مصفيا. تصفى الغذاء وتأخذ ألطفه وتوصله الى جرم التمرة ، وهذه الخلاصة المصفاة يؤخذ ماغلظ منها ، فيصير نواة ، ومالطف يكون جرم التمرة الحلو اللذيذ ، ثم جعل هناك منسوج حريرى رقيق صفيق فوق النواة فاصلا بينها و بين المادة الحلوة لئلا تصل المرارة من النواة إلى مافوقها فتذهب بالحلاوة ، وجعل فى شق النواة ذلك الفتيل الطويل ووظيفته إيصال الغذاء إلى سائر أجزاء التمرة .

فتأمل كيف صفى الغذاء سبع مرات حتى وصل الى مايأكله الانسان من التمر والرطب والبسر فتصفيه الجذور فى الأرض من خلاصة العناصر ، ثم جذع النخلة ، ثم الجريد ، ثم القنو ، ثم الشماريخ ، فالمصفاة ، فالنواة ، فتعجب من تربية الله للتمرة والرطبة ، وكيف راعاها حق رعايتها حتى صارت الى ماهى عليه الآن من اللذة والمنفعة .

المسألة الرابعة : تربية الله للؤلؤ فى البحر ، و يسمى الدرّ والجمان

وهو حيوان يعوم على وجه الماء ، ثم يهبط فى الأعماق ، وهو داخل صدف من المواد الكلسية وقاية له من الأخطار والدر يتكوّن فى لحمه . ومن عجيب صنع الله عز وجلّ أن يجعل هذا الحيوان مخالفا لما نعرفه من سائر الحيوانات : ان الحيوان يشم بأنف ويأكل ويشرب بفم ، ويتنفس بهما ، ويمنع المضار عنه بيديه وقرونه وقواه وحصونه وجيوشه . أما حيوان اللؤلؤ ، فان له شبكة دقيقة كشبكة الصياد متداخلة عجيبة النسج تكون مصفاة له ، فيدخل الى جوفه الماء والهواء ومواد الغذاء ، ويمنع الرمال وغيرها من المضار من الدخول فى جوفه ، وتحت تلك الشبكات أفواه لكل فم أربع شفاه تقبل الملائم من تلك المواد وتدفع غيره ، واللؤلؤ ينشأ من تجمع رمل أوحيوانات ضارة تدخل قسرا الصدفة ، فيفرز حيوانها مادة لزجة يغطيها بها ، ثم تجمد وتتحجر ، ومن اللؤلؤ ماهو أصغر من العدسة ، ومنه ماهو أكبر من بيضة الحمام ، و ينبت فى خليج فارس وخليج المكسيك وجزيرة سيلان ، فتعجب من تربية الله لحبة الذرة وحبة القمح والتمرة والدرّة فى البحر التى تتحلى بها الحسان وتيجان الملوك ، ألا وان حليتها فى صدور الحكماء ، وعلم ترتيبها فى أفئدة العلماء أبقى أثرا وأشرف ذكرا وأرفع مقاما ،

المسألة الخامسة : تربية الجنين فى بطن أمّه

ان للأجنة علما خاصا يدرس فى مدارس العالم الراقى ، وهى من التربية الالهية الداخلة فى قوله (رب العالمين) ان الحيوان المنوىّ الجارى من الحيوانات التى تعدّ بالآلاف ومئات الآلاف فى الماء المهين يسارع فى مجراه عندمصبه حتى يلاقى حيوانا من التى سارعت جارية من ماء الأناث فيلتقيان ويكوّنان خلية واحدة ، ثم تكبر بالانقسام ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ ٦٤ ١٢٨ وهكذا بطريق المتوالية الهندسية المحتوية على بيوت الشطرنج ذات الأسرار العجيبة فى علم الارتماطيق ، وهكذا التكاثر المنتظم السريع بهذه المتوالية يستمر الى تسعة أشهر . ومن عجب أن هذا الانقسام العددى فى الخلايا يتبعه نظام مدهش فى الأعضاء والشرايين والأوردة والعروق والرباطات واللحم والشحم والظفر والشعر والحواس المدهشة الدقيقة الصنع ، عجب وأىّ عجب . انقسام الخلية (المكوّنة من الحيوان المذكر ومن الحيوان المؤنث) الى المضاعفات بنظام تام آلافا

مؤلفة يتبعه نظام فى الأعضاء ، فكان ظفر ومخ وماء زجاجى فى العين : ان فى ذلك لعجبا عجابا ونظاما غريبا ، حرام على المسلمين أن يجهلوا تربية الله للأجنة فى بطون أمهاتها ،

حكاية

حكى فى أيامنا هذه أن رجلا أمريكيا أراد أن يستخرج الفراخ من بيض الدجاج بدون واسطة الدجاجات وحضنها للبيض ، فخطر له أن يجعل البيض فى حرارة تضارع الحرارة التى ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له ، فلما جمع البيض وابتدأ العمل قال له فلاح : يا أيها السيد لابدّ لك أن تقلب البيض كل أربع وعشرين ساعة مرة لأنى رأيت الدجاجة تقلبه هكذا ، فسخر منه ذلك العالم ، وقال له : أيها الفلاح ان الدجاجة تقلب البيض لتعطى الجزء الأسفل منه حرارة جسمها الذى حرمته : أما نحن فحرارتنا محيطة بالبيض من جميع جهاته فأنى يستوى عملنا وعمل الدجاجة ؟ ثم استمر فى عمله ، فلما جاء دور الفقس لم تفقس بيضة واحدة ولم ينل منها فرخا ، فقال لابد أن أفعل فى المرة الثانية ما أشار به الفلاح ، ثم صار يقلبه كما لقنه الفلاح ففقس جميع البيض وخرجت منه أفراخ كثيرة ، فطار الخبر فى انحاء المعمورة وطلب من العلماء تفسير هذه الحادثة ، وآخر مارأوه أن قالوا : ان الفرخ حينما يخلق فى البيض إذا بقى بدون تحريك انحدرت المواد إلى الجهة السفلى من جسمه فتتمزق أوعيته ، فاذا بقيت رأسه لم تحرك مثلا تمزقت من الأسفل لكثرة المواد فى الجهة السفلية ، وهكذا بقية الأعضاء ، فهذه وأمثالها مما لايتناهى يدلنا على أننا فى حومة الجهالة فى وسط بحر لجى من الحكمة لايعرف قراره ولايدرى منتهاه .

المسئلة السادسة : تربية الولد باللبن

خلق الله اللبن فى الثدى قبل أن يولد الطفل ، وكلما كبر الجنين ازداد اللبن فى الثدى حتى إذا ماتمّ حمله وكانت الولادة درّ له لبن مناسب لسنه ، فكلما كبر سنا اقترب اللبن من طبعه وتناسب مع قوّته ، حتى ان علماء الطبّ حرّموا أن يرضع حديث الولادة من امرأة قديمة العهد بها ، لأن الطفل لايتحمل لبنها ، وقالوا أيضا الأولى بكل طفل أمّه فى الرضاعة ، فان لبنها أنسب له ، وذلك من التربية التى تضمنها لفظ : الحمد لله رب العالمين « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » ومن عجب أن العجوز والصغيرة جدا لاتشتهيان ولا يقترب منهما الرجال لحكمة الله عز وجل ، لأنهما لاقبل لهما بالحمل ولا الولادة ولا الارضاع ، فهذه الحكمة ناطقة بلسان فصيح قائلة : ماجعل الذكر والأنثى فى الانسان والحيوان الا للانتاج ، فأما الشهوات واللذات فانما هى مقدمات وممهدات للنسل .

المسئلة السابعة : التربية الطبية

ولنذكر منها قليلا فنقول : قال الأطباء مراعاة الصحة أفضل من استعمال الدواء يعنى أنك اذا حافظت على جسمك وراعيت صحتك ونظمت أغذيتك لم تحتج الى الدواء . وقالوا : ان جميع الاستفراغات والمسهلات للبدن مثل الصابون للثوب اذا أكثر استعماله أبلاه سريعا وأكثر المسهلات سمية قاتلة اذا لم يعرف القدر المستعمل منها ، وربما يحرك المسهل أخلاطا رديئة كامنة فى الجوف فيثورمنها علل عظيمة وداء لادواء له ، فترك المسهل والاستفراغات جميعا أولى وأوفر ماوجد الانسان سبيلا الى السلامة الا عند الضرورة الملجئة ، فيستعمل منها القدر اليسير الأسلم . وقال الأطباء متى أمكنك أن تعالج المريض بالغذاء فلاتعطه شيئا من الأدوية ، ومتى قدرت أن تعالجه بدواء خفيف مفرد فلا تعالجه بدواء مركب ولاقوىّ ولاتستعمل الأدوية الغريبة المجهولة ماأمكنك الا أن يصح لك منها شىء بالتجربة ، واذامالت شهوة المريض الى غذاء لايوافقه فأعطه منه اليسير .

هذا ماأردت ذكره من تربية الله للناس بعلم الطب الذى لم تراع أصوله فى بلاد الاسلام ، والعالم كله لايزال فيه طفلا لايدرى مامنتهاه .

المسئلة الثامنة : التربية فى المدارس والتعليم

ان علم التربية فى المدارس يدرس للمدرسين ، ولأذكرن لك منه مسئلة واحدة ، لأنها من تربية الله للعالمين . اعلم أن الله تعالى خلق المخ وجعله مركز الفكر والخيال والتذكر والحس المشترك والحافظة ومادته سمراء من خارجها بيضاء من داخلها ، وقد ربى الله مخ الناس فجعل أدناهم يبلغ مخه نحو ست عشرة أوقية ، وأعلاهم وهم النابغون يبلغ المخ فيهم أربعا وستين أوقية ، وقد تبين لك فيما تقدم أن أجسامنا مركبة من خلايا كثيرة تتكاثر بالانقسام ، والمخ منها مركب من آلاف الآلاف من الخلايا الدقيقة ، وهذه الخلايا أشكالها صغيرة مستديرة حولها نتوآت صغيرات . فمن عجائب صنع الله عز وجل أن جعل هذه الخلايا لوحا محفوظا فى الدماغ لما يرد على النفس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس . فهناك خلايا مختصة بقبول المحسوسات . فمنها ماهو للسمع ، ومنها ماهو للبصر ، ومنها ماهو للشم وهكذا ، ومنها ماهو للتفكر والتعقل ، ومنها ماهو للتذكر ، ومنها ماهو للقوّة الناطقة ، ومنها ماهو للقوة الكاتبة والصانعة فى اليد ، فاذا اختل منها بعض الخلايا تعطلت القوّة الكامنة فيها ، ولا ينفع فيها التعليم ألبتة ، فلو أن الخلايا المعدّة لعلم الأعداد فقدت ، فانه لايمكنه أن يتعلمه . فكأنما هذه الخلايا المختلفة المتباينة رياض وغياض يخرج فيها مختلف الزرع والشجر والفاكهة والأب ، ولكل منطقة من مناطق الأرض مزارع خاصة بها كالقطن والنخل : فهكذا هنا فى خلايا المخ . ونتيجة هذه المعرفة فى التعليم أن المعلم اذا ألقى الدرس على التلميذ فنظره ببصره مكتوبا بخط جميل وسمع نطق المعلم ونطق به هو وكتبه بخط جميل فهناك تكون آثار أربعة : آثار البصر ، وآثار السمع ، وآثار النطق ، وآثار الكتابة كل ذلك فى المخ ، وهناك تتكيف الخلايا المختصة بها ويحصل بينها علاقات فتمتدّ خلايا النطق بخيوط رقيقة الى خلايا السمع ، وخلايا البصر ، وخلايا الكتابة : فتتعاون وتحفظ الكلمة فى ذهن التلميذ ويصير الدرس مفهوما جدّا ، وان قصر فى بعض هذه كأن قبح خط الكاتب أولم يصغ التلميذ أولم يكتب بيده كان الأثر فى العقل ضعيفا والحفظ ضائعا .

وهذه الخلايا المتصلة المتعاونة محالّ لما يسمى (الحس المشترك) الذى يجمع ماتأتى به الحواس ثم تأخذه القوّة المتخيلة فتحلل فيه وتركب ، ثم القوّة المفكرة فستنتج ، ثم القوّة الحافظة فتحفظه وهكذا ، فهذه المسئلة من علم (البيداجوجيا) وهو فنّ يعرف به كيفية تربية الناشئين على أكمل وجه ، وهو يستمدّ من علم التشريح وعلم النفس كما رأيت ، وهذه التربية داخلة فى قوله تعالى (ربّ العالمين)

المسئلة التاسعة : تربية الله للعقول الكبيرة بعلم المنطق لادراك العلوم العالية

فنقول : اعلم أن كل حاسة من الحواس الخمس لايمكنها أن تحكم بما ارتسم فيها ولكن الذى يحكم هو العقل : مثلا اذا رأى الانسان سرابا وسط النهار فليست الباصرة مخطئة فى رؤيته وانما المخطىء الفكر فى استنتاجه : اذ ظنه ماء وانما سبيل المفكرة أن تتربص وتنتظر حكم القوّة اللامسة والقوّة الذائقة فاذا لمسه باليد وذاقه باللسان فعرفه ماء ، فبها والا فلا : وهكذا اذا نظر الانسان بقوّة الباصرة تفاحة مصنوعة من كافور مصبوغة كلون التفاح فورد خبرها الى المتخيلة فالمفكرة فليس للمفكرة أن تحكم أن طعمها ورائحتها وملمسها مثل التفاحة فلابدّ لها أن تستخبر قوّة الذائقة والشامة واللامسة ، وحينئذ يمكن الحكم عليها بالاثبات أو النفى . هذه من تربية الله للعالمين العقلاء : فاذا سقط الفراش فى النار ومات فالعيب على ضعف قوّته المفكرة الضئيلة لأنها حكمت على ضوء النار أنه كضوء الشمس وقنعت بالقوّة الباصرة ، وهنا كان يجب أن يحكم القوّة اللامسة

ليعرف

ليعرف الحارّ من البارد : وهكذا ترى سائر البشر يذهبون فى الدنيا والدين ضحية جهلهم وحكمهم بأحكام مقدّماتها ناقصة ، وهـذا من قوله تعالى : رب العالمين .

الحمد يكون على مقدار علم الحامد

ألا وان الحامد كلما كان أعرف بصفات المحمود كان أصدق حمدا ، وكلما كان قليل العلم بها كان أقرب الى الكذب فى حمده ، ولذلك نجد الناس اذا أرادوا تأبين ميت أوتكريم حيّ جمعوا من الكتب ما كان له من محمدة ، واذا أرادوا ذمّا نقبوا عن الأعمال السيئة فهكذا هنا ، لن يعرف المسلمون محامد الله حتى يقرءوا نظام الطبيعة لأنها أفعاله وآثاره وعجائب صنعه ، وهى كتاب التاريخ الذى حفظ فى سجل الدهر ، فاذا أراد المسلمون أن يحمدوا الله حق حمده فليقرأ عقلاؤهم نظام الطبيعة وليعقلوها وليفهموا دقائق التكوين فلا يتركون علما الا درسوه ، ولافنا الا عرفوه ، وحينئذ يحمدون الله حق حمده كما تحمد الأمم رجالها وتمدح شجعانها بذكر مآثرهم التى انتفعوا بها : فاذا قالوا : الحمد لله كان ذلك على الحقيقة والواقع لا بمجرّد اللفظ ، ولعلك تقول ها أناذا قد عرفت أنه لابدّ من معرفة نعم الله حتى أكون حامدا له حق حمده بحسب طاقتى البشرية ، فما مجامع تلك النعم ؟ أقول : كل العلوم مجامع الحمد وسأفصلها لك فى التفسير ، بل كل ما أشار له القرآن هو مآثر تربية العالمين التى تستوجب الحمد ، ولأذكرنّ لك مجملها فأقول :

معنى العالمين

اعلم أن العالمين جمع عالم وهو ماسوى الله تعالى ، والعالم قسمان : عالم علوى وعالم سفلى ، والعلوى هو الكواكب والشمس والقمر والسيارات وأقمارها ، ولايتسنى لك معرفتها الا بضرب مثل : تصوّر امرأة جميلة الصورة طويلة القامة كثيرة الحلى والحلل مشرقة الوجه ، وهذه المرأة قد ولدت عشر فتيات وهنّ أقلّ منها قامة وحليا وحللا واشراق وجه ، وقد أحطن بها كالهـالة بالقمر وأخذن يدرن حولها بنسب معلومة ومواقيت محـدودة ، وكل واحدة من الفتيات العشر ولدت عشر فتيات أقـلّ منها قامة وحليا وحللا واشراق وجه وهنّ يدرن حولها بنسب محفوظة وأوقات معلومة ، ثم كل واحدة من هؤلاء ولدت عشر فتيات أقلّ منها طولا وجمالا واشراق وجه وحليا وحللا وهكذا ، فالجيل الأوّل عشر فتيات ، والثانى مائة ، والثالث ألف ، والرابع عشرة آلاف ، والعاشر عشرة آلاف ألف ألف ألف (عشرة بلايين) وكل جيل أقلّ مما قبله جمالا وقامة وحللا واشراق وجـه وأرقى مما بعده : فالمرأة الأولى ذات الجمال هى المجرّة التى ترى فى الليالى المظلمة مستطيلة فى السماء كسحابة بيضاء لبنية ، وهـذه أصل جميع الشموس ومنشؤها ومستقرّها ومستودعها ، وهى شموس لايعرف عددها ، بعدت عن الأبصار ، وتباعدت فى الأقطار حتى صغرت فى العيون وتضامّت ، فصار كل ألف ألف ألف منها يكاد يكون ذرّة من اللبن فى أعين الرائين ، فهذه المجرّة فيها هناك على أبعاد لايتصوّرها العقل أصل الشموس وأمّها التى عبرنا عنها بالمرأة الجميلة ، وحولها شموس كل شمس حولها شموس ، وهكذا الى أن ينقطع الفكر عن التصوّر ويقف العقل عن التعقل ، وآخر هذه الشموس مقابل للفتيات اللاتى فى الجيل العاشر ، وشمسنا كفتاة منهنّ لانعرف عـدد أترابها من الشموس كما كثر عـدد فتيات ذلك الجيل . واذا نسبت هـذه الفتيات فى الحسن والقامة والحلىّ والحلل والاشراق الى الأم الأولى كانت كالقردة بالنسبة الى الانسان بل أقلّ ، فهكذا نقول فى الشمس المضيئة عندنا انها بالنسبة الى الشمس الأولى كالفجر بالنسبة للنهار وفى الحجم كالبطيخة بالنسبة للجبل ، وسيأتى فى هـذا التفسير أن احدى شموس الجوزاء أكبر من شمسنا ٢٥ مليون من الشمس ، وضوءه بالنسبة لضوئنا كضوء الحباحب بالنسبة لضوء شمسنا ، وأنت تعلم أن الشمس أكبر من الأرض ألف ألف مرّة وثلثمائة ألف مرّة ، وفيها من الجمال والبهاء مايبهر العقول انها

ترسل ضوءها على الأرض فينير السبل ، و يوضح المسالك ، و يفتح الأعين ، فترى الصور المرسومة على سطح الهواء وخلال الأثير جلية واضحة وترسل الحرارة فيجرى الماء و ينمو النبات والحيوان والانسان وتصبح الأرض مخضرّة باجتماع الماء مع الشمس والعناصر والهواء ، ثم ان سيرها وانتقالها من مكان الى مكان بحساب متقن يعرّف الناس السنين والحساب فلا يضلون فى أحوالهم الزراعية والصناعية والمدنية ، هذه بعض محاسن الشمس ، وهذه من عجائب جمالها الذى لا نسبة بينه و بين جمال الشمس الأولى ، وقد قلنا ان لها نظائر تسير معها حول شمس أخرى ، وهذه الاخرى لها نظائر وهكذا فما مقدار السنة التى تسيرها حول شمس أخرى (فى الكواكب المسماة بالجاثى على ركبتيه) وربما كانت آلاف آلاف من السنين المعلومة فكيف يكون جمال الشمس الأولى ومقدار عظمتها و بعدها ، ان فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ، وهذه الشمس التى هذا وصفها حولها السيارات الثمانية ، وهى : نبتون ، وأورانوس ، وزحل ، والمشترى ، والمريخ ، والأرض والزهرة ، وعطارد : فأرضنا سيارة تسير حول الشمس ، فالشمس أمّ ، والسيارات فتيات حولها كما أنها فتاة لأمّ قبلها ، والأرض قد ولدت القمر : تجرى حولها كما أن زحل والمشترى وغيرهما لها أقمار تجرى حولها والأقمار أقلّ جمالا وحجما و بهجة من السيارات ، والسيارات أقلّ من الشموس ، والشموس ترتقى طبقا عن طبق الى الأم التى فى المجرّة ، وما يقال فى هذه المجرّة يقال فى مجرّات أخرى « وما يعلم جنود ربك الا هو » فتلك عرائس فى الجوّ سائرات وجنود مصطفات الى أن تقف العقول ، وهذه الشموس وحركاتها ونظامها لا يتسنى لك معرفتها الا بعلم العدد والحساب والهندسة وعلم الجبر والفلك «هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون» ولعلك تقول : انك ماقرأت مسئلة الشمس وأنها تدور حول شمس أخرى ، وهكذا دائرة بعد دائرة الى أن ينقطع الفكر و يقف العقل انك لم تقرأ ذلك الا من تعاليم الفرنجة وهم الذين قالوا ان تلك الشموس أكبر من شمسنا فهل ورد فى ديننا ما يؤيد ذلك ؟ فقلت : ان ديننا لا يمنع ذلك ولا يثبته ، وفيه « وما أوتيتم من العلم الا قليلا — و يخلق ما لا تعلمون — والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » الى هنا قد أجملنا الكلام على العالم العلوى (١)

العالم السفلى

العالم السفلى ما فى البحر من مخلوق حىّ ، وما على الأرض من معدن ونبات وحيوان وانسان ، فأما عالم البحر فقد جعل له العلماء فى هذه الأيام علما مستقلا ليطلع الناس على غرائبه ، ومما قرأناه عنهم أنهم استخرجوا من قاع البحار على بعد أميال حيوانا يعيش فى الظلمات فى تلك الأصقاع الغائرة ، وقد وجدوا له آلة للضوء اذا حركها أضاءت ما حولها ، وقد خلق لها على جسمها فى مقابلة تلك الآلة سطح قائم بزاوية مناسبة متى أشرق النور عكسه ذلك السطح فأبصر ذلك الحيوان المسالك البحرية ، فكأن ذلك الحيوان لما حرم ضوء الشمس خلقت له فى قاع البحار شمس خاصة به يفتحها متى شاء وأمامها سطح يعكس شعاعها فيرى المسالك والطرق « فتبارك الله أحسن الخالقين »

وفى البحر سمك شفاف سمين طوله نحو ثمانية قراريط وشحمه أبيض نقى يصيده سكان الاسكا و يجففونه ثم يوقدونه من ذنبه فينير بلهب صاف شديد اللمعان ، ومن السمك نوع ببحر الصين اذا أكله الانسان أخذ يضحك حتى يموت ، وهذا السمك يختص به الوزراء والعظماء اذا حكم عليهم بالاعدام فيشترونه سرّا و به

(١) إقرأ الكلام على عجائب السموات فى سور كثيرة كآية : « ان فى خلق السموات والأرض » فى البقرة وآل عمران وغيرهما مما سنبينه ان شاء الله فى ملحق هذا التفسير الذى عزمنا على إصداره كما ذكرناه قبلا

يموتون

يموتون من الضحك ، وحكومة الصين تمنع بيعه ، ومن عجائب البحر الدر والمرجان ، ثم من العالم السفلى عالم المعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد والخارصين والبلاتين والكبريت والزئبق والمغنيسيا والملح والزنك والرصاص وغيرها ، ثم الآثار العلوية من حوادث الجوّ وتغير الهواء من النور والظلمة والحرّ والبرد وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، ثم الأنهار وما يكون من الغيوم والضباب والطلّ والندى والأمطار والرعود والبروق والثلوج والبرد والهالات .

عالم النبات

ومن العالم السفلى عالم النبات وله علم يعرف به اختلاف أنواعه وأشكاله وألوانه وطعومه وروائحه وأوراقه وأزهاره وثماره وحبوبه وبزوره وصموغه ولحائه وبنية تكوينه ونتاجه وتربيته لأولاده .

عالم الحيوان

وله علم يعرف به صنوفه وأنواعه وأجناسه وسكان البرّ منه والتراب والهواء والبحر كالأنعام والحشرات والطير والسمك ومعرفة تزاوجها وتوالدها ومستقرّها ومستودعها ويتبع ذلك معرفة تشريح الانسان .

علم التشريح

يعرف منه أن أعضاء الانسان ٢٤٨ عضوا ، وتعرف أوردته وشرايينه وأعصابه والدورة الدموية والدورة التنفسية والدورة الغذائية والدائرة العقلية والحواس الخمس ونظامها والقوى الخاصة التى فى الدماغ ، وتقدّم الايماء اليها عند تفسير لفظ رب من (رب العالمين) وهى الحس المشترك والخيلة والمفكرة والذاكرة والواهمة هذه هى بعض العلوم الطبيعية فى العوالم السفلية . وأما العوالم الالهية فلها علوم خاصة بها تبحث فى أمر الملائكة كما ستراه فى سورة البقرة عند قوله تعالى « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة » فسيظهر هناك ان شاء الله أن فى معنى الخلافة مايفهم المقام من معرفة الله والملائكة وبهذه العلوم أيضا تعرف الأمور العامة والمقولات وتقسم العلوم ، انتهى الكلام على العالم السفلى ومابعده .

هذه هى العوالم العلوية والسفلية التى تضمنها لفظ العالمين ، والله هو المربى لها والمكمل لذواتها ، ألا فليعلم المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها أنهم لايحمدون الله حق حمده ولا يشكرونه حق شكره الا اذا درسوا هذه العلوم كلها وعرفوا ماتفرّع عنها وانتفعوا بها ونفعوا الناس بفوائدها ، واذن يحق لهم أن يقولوا : الحمد لله رب العالمين ، أما اذا بقوا على جهلهم ولم يعرفوا هذه العوالم ولا نظامها فليعلموا أن حمدهم لفظى وشكرهم ظاهرى . ولأضربنّ لك مثلا : اذا أنت مدحت امرأً فى مجلس وكان فيه من هو أعرف به منك وسألك عن بعض صفاته فوجدك بها جاهلا فانه لاجرم يقول أنت به جاهل ثم يشرح صفاته فتقرّ له بالفضل عليك .

يحكى أنه فى زماننا قدم مؤلف عظيم على رجل من رجال الجرائد وكان هو وزوجه لايتركان مجلسا الامدحا هذا المؤلف فيه ولا ناديا الا أثنيا عليه وهما فى كل واد يمدحان ويحمدان صنيع ذلك المؤلف وأنه أحسن الى أمته وأنالها شرفا عاليا ونخرا تالدا ، فلما أن حلّ بساحتهما وهما لم يرياه قبل ذلك فرحا به واستبشرا وأكرماه غاية الاكرام . ولما قاما الى بعض شأنهما نظر فوجد كتابه لم يفض ختامه ولا يزال ورقه متصلا غير منفصل دلالة على أنهما لم يقرآ منه حرفا ولم يعرفا منه كلمة ، فلما ودّعهما وانصرف أرسل لهما مقصا ليفهمهما أنه أدرك أن المدح والحمد كانا على جهالة عمياء وأن الثناء رياء وانقلب سروره غما وفرحه حزنا ، أفلا يكون نصيب المسلمين من ربهم نصيب ذلك الرجل وزوجته من المؤلف ، أفلا يقول الله للمسلمين : أنتم تحمدوننى ولكنكم

لا تعرفون من صفاتي وأفعالي الا قليلا فلأعطينكم من نعمي على مقدار ماعرفتم وأخذ يقص أرضنا معاشر المسلمين و يعطيها للأمم الأخرى التي درست العوالم . الله لم يرسل مقصا للمسلمين كما أرسل المؤلف ولكنه أرسل رجالا وأمما قصوا من أرضنا وحرمونا منها جزاء وفاقا ، وقد آن أن يرجع مجدنا ويبزغ نجمنا ونعرف ربنا وأن الأرض يرثها عباده الصالحون فأرض الجنة يرثها الصالحون لها بالعمل وأرض الدنيا يرثها الصالحون لها بالعمل والعمل يتقدمه العلم ، فكل أمة أعرف بهذا العالم فهي أحق به وأولى بالفضل وأعرف بالحمد .

أسباب الحمد : زيادة ايضاح لما سبق من قبل فيها

اعلم أن لكل حمد سببا كما أشرنا اليه آنفا ، فالجائع يقول : الحمد لله الذي غذاني ، والظمآن يقول : الذي أرواني والفقير يقول : الذي أغناني ، والجاهل يقول : الذي علمني ، وفي القرآن على لسان ابراهيم «الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسمعيل واسحق» وفيه على لسان يوسف «وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن» وهذه الجملة حمد على نعمة الخروج من السجن ولمّ شمل أسرة يوسف عليه السلام ، وقال الشاعر الجاهلي لما أسلم :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي * حتى اكتسيت من الاسلام سربالا

فأما الحمد في هذه السورة فسببه أن الله مربي جميع العوالم ، فاذا قال ابراهيم الخليل : أنا أحمد الله لأنه أعطاني ولدا أيام كبري ، يقول المسلم في صلاته : أنا أثني على الله لأنه هو الذي ربي جميع العوالم من العلويات والسفليات ان ابراهيم يعرف نعمة الله في ابنه ، والجائع يعرف نعمة الله في أكله ، والمسلم يجب أن يعرف نعمة الله في تربية العوالم ، وليس معنى هذا أن يكون جميع المسلمين حكماء فلاسفة ، وانما المراد أن يكون فيهم طائفة تقوم بجميع العلوم كالفرنجة أو أكثر ، ألا تراه يقول (اياك نعبد) ولم يقل أعبد للاشارة الى أن المقصود الجماعة .

واذا بقي المسلمون على ماهم عليه من الجهل بنظام الله في العالم فلا حظ لهم من حمد الله وشكره الا حظ الجائع من النسيم ، ولما عزّ الحامدون الحقيقيون الشاكرون العاقلون قل الله « وقليل من عبادي الشكور »

سؤال وجوابه وضرب مثل لحال القرآن بما أبدع الله في العالم

لعلك تقول : مالي أراك تحمل الفاتحة مالا تحتمل وتدخل فيها من العلوم مالا يعقل ؟ مع أن الناس يقرءونها ولا يلحظون ماتذكرون ويكررونها صباحا ومساء ولا يتهيأ لهم ماتصفون ، وانما أنتم تقولون هذا استطرادا لا استنباطا ، وتطويلا لا تأويلا ، وتعلما لا تفسيرا ، واكثارا لا استخراجا

أقول : على رسلك واصغ لما ألقي عليك من مثل أضرب به تذكرة لأولي الألباب : تأمل حال الرجل الزارع وقد استصحب دابته وولده الصغير ولما وصل الى الحقل رأى مهندسا للريّ وعالما طبيعيا وحكيما إلهيا ، فهل ترى أن هؤلاء والحقل أمامهم متفقون في الرأي متحدون في الفكر ، كلا ، فان الدابة لا ترى في الحقل الا حاجتها من البرسيم ليسدّ جوعتها والصبي يتعالى عن الدابة فينظر الى خضرة البرسيم والمزارع وترنحها يمينا وشمالا ويرى بهجة الزهر وجمال منظره وهبوب الرياح عليه ، والفلاح يتعالى عن ذلك ، فينظر في أمر الزرع والحصاد والمكسب والخسارة ، وريّ الأرض ، وحساب المزارعين وما شاكل ذلك ، والمهندس يتعالى بنظره إلى نظام الريّ العام في هذا الجدول وفي سواه من نظائره ، ويقارن المصارف والترع بعضها ، ويتسع نطاق عمله حتى يشمل آلافا من المزارع ليحفظها من العطب ، ويحرسها من الهلاك ، والعالم الطبيعي أو الزراعي يتأمل في العناصر كيف تكوّن منها النبات ، ويحللها ويعرف وزنها بالنسبة لبعضها كما سيأتي في سورة البقرة ، ثم يتولى عمل المناسبة بينها ويقول : ان السماد يكون على مقدار الحاجة ، فكل عنصر قلّ في الأرض يعاض عنه بآخر من السماد بوزن معلوم . ثم ان الحكيم الرباني يتعالى عن هذه الطبقات ، فيرى أن هذه النباتات كانت من من عناصر أرضية اختلفت طعومها ، وروائحها ، وأثمارها ، ولحاؤها ، وأوراقها ، وأزهارها ، وأعمارها ،

و بلدانها

و بلدانها ، وطقوسها ، ومناخها ، ومنافعها الطبية ، والعناصر واحدة لا تتجاز الثمانين عدّا منبثة فى الأرض والهواء والماء ، ثم ان تلك العناصر ترجع إلى مادة واحدة ، وهى الأثير الذى يكون ضوءا وكهرباء وحرارة ثم ان الجوهر الفرد الذى كان آخر آراء العلماء فيه أنه مكوّن من ذرّات كهربائية : منها الموجبة ، ومنها السالبة وهما نواة حولها ذرّات تدور كدوران السيارات حول الشمس ، ثم يقول ان هـذه كلها مرجعها حكمة وراءها وقدرة وعلم وذات مدبرة وإله منظم ، وإلا فما بالنا نرى نظاما عاليا وحكمة باهرة « وأن إلى ربك المنتهى » هذه هى النظرات فى الحقل .

فقس عليها نظرات الناس فى الفاتحة : إن الفاتحة كلام الله ، والحقل ومافيه من الزرع فعل الله أفلا ترى أن تختلف الأنظار فى الثانى كما اختلفت فى الأول . أو لست ترى أن حافظ القرآن الذى لا يعنيه إلا أن يعيش به كالحمار يحمل أسفارا ، وكالجاموسة فى المثال المتقدّم لم يعنها الا البرسيم ، أو ليس العامـة الذين يفرحون بنغمات القرآن فى مآتمهم وأعراسهم : أشبه بالصبى الذى راقه مناظر النبات وأزهاره ، أو ليس العابد الذى يخاطب ربه بالفاتحة ويثنى عليه ويتجه اليه بقلبه أشبه بصاحب الحقل المقبل على تنظيمه ، أو ليس المفسر للقرآن الناظر فى معانيه العامة ، وهو أرقى من العابد أشبه بالمهندس الناظر فى سائر الحقول ، أو لست ترى أن من يعرف هذه العوالم العلوية والسفلية ويدرك نظامها وجمالها ويعرف من كل فنّ طرفا أرقى من المفسر وأعلم منه ، وأنه أشبه بالرجل الطبيعى أو الزراعى الذى عرف نظام الزرع وتركيبه من العناصر ، أو ليس الذى يحمل الأمة على معرفة سائر العلوم ، فتكون راقية ذات مدنية ونظام وسعادة فى الدنيا لتحفظ كيانها وتصون بلادها وتستغنى عن غـيرها وتمدّ الأمم بعلمها وصناعاتها فضلا عن أنه عرف تلك العلوم ، أليس ذلك فى مثالنا كالحكيم الربانى فى المثال المتقدّم الذى وصل الى الله من طريق الحكمة والعلم .

وبهذا فلتفهم قوله صلى الله عليه وسلم «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا» فظاهره معلوم للناس والعامة ، وحقيقته ماذكرناه لك .

ألا إنما ذلك العالم العظيم والملك الكبير فى الاسلام الذى يحملهم على معرفة العلوم والصناعات ليحفظوا مدنيتهم ويقيموا الوزن بالقسط ويكونوا خلفاء الله فى الأرض فى المثال الثانى ، وذلك الحكيم العظيم الربانى فى المثال الأوّل الذى أدرك سر الخليقة بقدر طاقته ، هذان وأمثالهما هم أولياء الله وخلفاؤه فى الأرض وخلفاء أنبيائه . فلمثل هذا فليعمل العاملون . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون هؤلاء هم الذين يكونون فى أعلى الجنة . وقد تركوا أدناها للجهلاء كما فى الحديث « وعليون لأولى الألباب » فالجنـة مفتاحها المعارف وفاتحة الكتاب فاتحة المعارف «ومايعقلها الا العالمون» ❋ ها أناذا قد أبنت العوالم التى تولى الله تربيتها وترقيتها ، وأنت تعلم أن التربية يعوزها أمران : الرحمة والشدّة ، فاذا لم تكن رحمة أوعدم الجزاء والمكافأة بالاحسان والاساءة كانت التربية ناقصة ، ولقد جعل الله الأم أقرب إلى الرحمة والأب أقرب الى الشدّة والمجازاة ، فاذا فقد أحدهما ساءت التربية ، فأشار الى الأوّل بقوله (الرحمن الرحيم) وإلى الثانى بقوله (مالك يوم الدين) أعنى مالك الأمر فى يوم الجزاء ، أما الرحمة فقد عرفتها فيما تقـدم ، وأما الجزاء فانه تابع للأعمال كما قال تعالى « أفنجعل المسـلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون » ألا ترى أن الرجل الكاسل يصيبه المرض والفقر ويزدريه الناس وهكذا من يكره الناس أو يؤذيهم ، وترى حكومات الأرض قاطبة نصبت القضاة ، وأقامت الجند ، وجعلت لهـا دورا للحبس ، وأخرى لاكرام الوافدين من الأقطار ، ووضعت القوانين والحدود ، وذلك سائر على نظام فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولما كان القانون البشرى يلحقه الخطأ لخلل فيه أو لضلال القضاة والحكام أو جهلهم جعل الله الجزاء الأوفى يوم القيامة « لتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » فالله عزّ وجلّ

مالك جميع الأمور محيط بالخلق فى الدنيا والآخرة يثيب الطائعين والعاملين ، و يقهر العاصين والكاسلين ويذلّ الباغين ، إما فى الدنيا ، و إما فى الآخرة ، و إما فيهما معا ، و بهذا تمت التربية ونظم العالم : ان هذه الصفات التى حصرت الرحمة والملك فى ذات الله وأنه هو المربى للعوالم كلها المالك لها تحصر قلب القارئ والمصلى والذاكر فى الله تعالى وتجعل الحمد خاصا به ، فجميع المحامد التى يفوه بها الناس للمحسنين راجعة إليـه ، لأنه المحسن الحقيق ، وفوق الحمد يختصّ بالعبادة التى هى غاية الخضوع ، ومنه طريق معبد : أى مذلل ، فكأن القارئ يقول : يامن اتصف بهذه الصفات التى يمتاز بها عما عداه (إياك نعبد) أى نخصك بالعبادة والخضوع فضلا عن الحمد ، فالنصف الأوّل من السورة أحضر فى قلب القارئ الصفات المميزة للربوبية ، فلما تمثلت فى ذهنه تلك العظمة صارت كأنها مشاهدة أمامه ، فالتفت عن الغيبة إلى الخطاب ، وكأنه يشاهده و يراه ، وفى الحديث « اعبـد الله كأنك تراه » ولن يكون ذلك إلا باستحضار صفاته العالية فى قلبه ، والى هنا وصل القارئ الى آخر درجات التقرّب ، وهو الخضوع والتذلل كما فى قوله تعالى « واسجد واقترب » فلم يبق بعدها الا السؤال والطلب من المتقرّب اليه ، فقال (و إياك نستعين) فى أمورنا الدنيوية والأخروية كالصحة والغنى والمال والولد ، وأهمّ الحاجات أداء العبادات والهداية الى الصراط المستقيم ، فكأنه يقول : نحن نعبدك ولن نقدر على أداء العبادة إلا اذا أعنتنا ، ولما طلب العبد الاستعانة بالله ، كأنه قيل له ماأهمّ ما تستعين فيه ؟ فقال العبد (اهدنا الصراط المستقيم) والهـداية دلالة بلطف ، وهى على أقسام . الأوّل هداية الغريزة التى اهتدى بها الحيوان فى غـدوّه ورواحه ، والطفل لرضاع أمه ، والنحل لبناء المسدسات التى يجمع فيها العسل بنظام يحار فيه المهندسون . الثانى هداية العقلاء الأوّلية بأن يميزوا بين الحسن والقبيح والجال وضدّه وتعرّف الأوّليات ومبادئ العقول التى يرجع اليها فى العلوم ، مثـل الكلّ أعظم من الجزء ، والضدّان لايجتمعان . الثالث معرفـة العلوم وفهمها والتصرّف فى أصولها وفروعها . والرابع الملكة الراسخة بحيث تحضر العلوم والمسائل التى عرفت أنى شاء العارف و يتبع ذلك قوّة التصرّف والحذق فى الأمور والالهامات وسداد الرأى والوحى الخاص بالأنبياء ، والمراد بالهداية هنا هـذا الأخير وماقبله . فاما أن يقال أدمنا على الهداية ، واما أن يقال زدنا فى مراتبها لنرتقى الى أعلاها وننال الزلفى لديك والقربى . و يقرب من هـذا قوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لـكم فرقانا ويكفر عنـكم سيآتـكم » والمراد بالفرقان نور يقذفه الله فى قلب العبد يفرق به بين الحقّ والباطل ، والصراط المستقيم هو الطريق المستوى ، وهو مثله فى التذكير والتأنيث ، ثم أبان ذلك الصراط ، فقال (صراط الذين أنعمت عليهم) من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهم عظماء كلّ أمـة وأشرافها ، أو الذين أنعمت عليهم من الأمم وهم المسلمون (غـير المغضوب عليهم) وهم اليهود (ولا الضالين) وهم النصارى : وتبيانه أن يقال ان الصراط المستقيم يراد به هنا الطريق الوسط ، وهو فى علوم الأخلاق .

العفة ــ التى هى وسط بين الوقوع فى الشهوات والفسق والفجور ، و بين الجود والبخل والامساك والشح

والشجاعة ــ وهى وسط بين التهوّر ، والطيش ، والظلم ، و بين الجبن ، والخوف ، والحزن ، والجزع ، وأمثالها .

والحـكمة ــ وهى الوسط بين الجهل ، والغباوة ، والبلادة ، و بين المكر ، والخداع ، والاحتيال ، والطيش فى الآراء .

والعدل ــ وهو المساواة بين هذه الأمور .

وقد فرع العلماء على هذه الأربع فروعا شتى تربو على المائة ، وكلها داخلة فى الصراط المستقيم ، وهو

الوسط

الوسط ، وماجاوز الوسط ، فماالى زيادة فهوالتهوّر والطيش والتبذيروما أشبهها ، واما إلى نقص كالجبن والبخل والخوف وما أشبهها ، والمسلمون وسط فى أمر سيدنا عيسى عليه السلام إذ يعتقدون نبوّته . أما اليهود فانهم قد غضب الله عليهم لأنهم جعلوه ابن زانية . وأما النصارى فانهم أفرطوا فى اعتقادهم وجاوزوا الحد فى دينهم وغالوا فى أمر المسيح ، فقالوا انه إله ، فهؤلاء هم الضالون فى أمر عيسى ، فاعتقاد المسلمين صراط مستقيم ، واعتقاد اليهود تفريط ، واعتقاد النصارى افراط : أى مجاوزة الحد . وقد قلنا ان الحكمة وسط فلا تغالى كما قالت النصارى ، ولاجحود وانكار كما قالت اليهود ، ولقد ورد تفسير الصراط الخ بهذا المعنى مرفوعا الى النبى ﷺ ، وهذا الذى قلناه توجيهه ، وكأنه عليه الصلاة والسلام أراد بذلك ضرب مثل للصراط المستقيم والا فهذا الوسط فى الاعتقاد فى مسألة المسيح يماثله مسائل كثيرة كالكرم والشجاعة والعفة والصدق كما تقدم فافهم . وقوله (غير المغضوب عليهم) بدل من الذين أنعمت عليهم ، ولا فى قوله (ولا الضالين) للتأكيد (آمين) اسم للفعل الذى هو استجب ، وليس من القرآن بالاتفاق ، ولكن يسنّ ختم السورة به .

واعلم أن النعم اماما ل ، واما أصحاب وأهل وأعوان ، واما صحة بدن ، واما عقل وحكمة وصدق روية ، وكل نعمة مقدّمة لما بعدها ، فأعلاها العقل والحكمة ، وأدناها المال الذى لابد منه لحفظ الثلاثة بعده من الأصحاب والصحة والعقل ، والمراد بالنعمة هنا أعلاها التى تقوى وتبقى بما قبلها .

وقد يراد بالمنعم عليهم المطيعون ، وبالمغضوب عليهم العصاة ، وبالضالين الجهال .

واعلم أن المنعم عليهم هم الأنبياء وورثتهم والمخلصون من بنى آدم ، وهم الذين نصبوا أنفسهم لهداية الناس وارشادهم .

وكأنهم آباء والناس أبناؤهم ويتشبهون بالله فى أفعالهم وأقوالهم ويقودون الأمم إلى سبيل الرشاد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقال ان غاية الحكمة التشبه بالله ، فيعرفون نظام العالم وحكمة الخالق ويتركون آثارا فى البرايا ويتحملون ماينالهم من الآلام فى سبيل اسعاد الأمم ، فينالون أجرهم مرتين فهم فى الآخرة مكرمون ، وفى الدنيا مذكورون بالثناء والاكرام ، تشتاق اليهم النفوس ، وتحنّ اليهم القلوب ، وتطمئن اليهم الأفئدة ، وتذكرهم الأجيال .

وأضرب لك مثلين : الأول ماجاء فى القرآن فى سورة والصافات ، فانظر كيف ابتدأها بذكر أهل الجنة والنار وتوبيخهم ، فقال « ولقد ضلّ قبلهم أكثر الأوّلين » وأقام عليهم الحجة فقال « ولقد أرسلنا فيهم منذرين » وأخذ يذكرهم بالثناء واحدا واحدا فذكر نوحا بالثناء ، ولما انتهى من القصة قال « سلام على نوح فى العالمين » ثم ذكر ابراهيم وتاريخه ومالقى من المحن فى قومه وختمها بقوله « سلام على ابراهيم كذلك نجزى المحسنين » ثم ذكر موسى وهرون ونجاتهما من فرعون وقومه ، ثم ختمها بقوله « سلام على موسى وهرون انا كذلك نجزى المحسنين » ثم ذكر الياس وكيف كان يدعو قومه وختمها بقوله « وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إل ياسين انا كذلك نجزى المحسنين » ثم ذكر لوطا ونجاته ويونس وختم السورة بقوله « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » فانظر كيف ذكر المرسلين بالثناء فمن كان منهم أقوى عزما وأطول بلاء . قال فيه « وتركنا عليه فى الآخرين سلام على » فلان ، فكأن الله عز وجل يجعل الثناء الباقى فى الأعقاب للمجاهدين الأبطال من المكافآت للفضلاء .

وهذا هو الذى ينبغى أن يكون فى أمة الاسلام . يعلمنا الله بهذا أن نعلن فضل الفضلاء ، وعلم العلماء وحكمة الحكماء ، وجهاد الأبطال ، وننشر فضائلهم ليقلدهم من بعدهم وليؤخذ عنهم كما تفعل الأمم الغربية اليوم بكل مشهور الفضل ، ولو كان سفيه النفس سيء الخلق ضيق الفطنة ، ويذكرون علمه ليقتدى به

الناشئون . ولذلك تقول ما للفاتحة ولسورة الصافات ؟ . أقول : على رسلك ان الفاتحة تسمى أم الكتاب والمنعم عليهم والمغضوب عليهم ورد ذكرهم فى القرآن ؛ فهل هذه القصص واردة لغير غرض أم للهو واللعب أم لمجرد الحكاية ؟ كلا ؛ فالمنعم عليهم : مثنىّ عليهم ، والمغضوب عليهم : مذمومون ، وليس للمسلمين أن يعيشوا خامدين جامدين أمام القرآن والأمم الغربية ، فعليهم أن يتبعوا القرآن ، فمن رأوه يبذل مهجته فى خدمة الأمة ، أو ينشر العلم ، أو يضحى ماله ، فليرفعوا قدره ، بهذا أمرهم الله ، والا فكيف يقول فى سورة أخرى «واذكر فى الكتاب ابراهيم . واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد» ويقول «واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا . واذكر فى الكتاب مريم» أليس هذا أمرا بذكر الفضلاء المخلصين ونشر محاسنهم ، فليقم بذلك المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها والا فليبقوا جامدين جاهلين . الى هنا انتهى المثل الأول للمنعم عليهم . المثل الثانى : ماقرأناه فى كتب المتقدمين عن اليونان أن (سولون) الحكيم المولود سنة ٦٤٠ ق م المائت سنة ٥٥٩ ق م لما خرج من أثينا مغاضبا لقومه اذ عصوا نصيحته أرسل اليه الملك (كرسيوس) خطابا ، فلما قدم عليه حقر ماراه من الزينة والزخرف ، فقال له الملك : من أسعد الناس فى نظرك ؟ فقال له الملك طيلوس كان محببا الى أهل أثينا مسبغا النعم عليهم ، فلما أن مات حزنوا عليه كلهم أجمعون ، فتعجب كرسيوس من سولون وقال فمن بعده ؟ قال أخوان شابان كانا شجاعين أكرما أمهما ، ولقد كانت تغدو كل يوم للصلاة فى المعبد ، فاتفق أن سائق العربة لم يوافها يوما فجرّ الاخوان عربتها بدل الثورين فدعت الله لهما فعاشا قريرى العين وأحبهما الناس حبا جا ، ولما ماتا حزن عليهما أهل أثينا ، فقال الملك أفلا تعدّنى سعيدا ياسولون ، فقال أنت أسعد من كثير من الناس ، ولكن انتظر العاقبة فغضب الملك من سولون وأبعده ثم دارت رحى الحرب بين الملك و بين ملك العجم فوقع كرسيوس فى الأسر ، فأمر باحراقه وأوقدت النار ، فصاح كرسيوس سولون سولون ، فسأل فيروس ملك العجم مامعنى هذا ؟ فقصّ عليه القصص فرقّ قلب فيروس وأنعم عليه وواساه .

وانما ذكرت هذا المثل ليعلم المسلمون فى أقاصى الأرض أن الذين أنعم الله عليهم بحبّ الاخوان والصبر على أذاهم ، والزهد فى الدنيا ، ونشر الفضيلة والعلم ممدوحون على كل لسان أينما كانوا ، وأولئك المنعم عليهم شموس وأقمار ، فانظر كيف ذكر سولون أن السعيد هو الملك طيلوس ، لأن أهل أثينا حزنوا عليه لعموم نفعه لهم ، وأن الشابين اللذين أكرما أمهما أحبهما الناس ، ولما ماتا حزنوا عليهم ، لأن المحسنين محبوبون والنفوس الشريفة يشرق ضوؤها فى الأرض ، وتلك النفوس العالية إنما جاءت الى الأرض لتحرس أهلها وتخدمهم فاذا أدوا ماخلقوا له سارت بذكرهم الركبان ، فما أجمل العلم وماأجمل الحكمة .

الفاتحة أم القرآن

هذه السورة تسمى فاتحة الكتاب ، وتسمى سورة الحمد ، وتسمى أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى ، لأنها تثنى فى كل صلاة ، وتسمى الوافية والكافية . ولقد يعجب القارئ من تسميتها بأم القرآن و بأم الكتاب وبالكافية و بالوافية ، وكيف تقرأ فى كل صلاة ، فليعلم ذو اللب أن الذى يتلى على اللسان دائما ، و يتلوه الجاهل والعالم سرا وجهرا ، يصبح فى أنفس التالين من المألوفات التى لايسعى الى شىء وراءها وتصبح كالسمع والبصر والعقل والجسم الانسانى عند الجهلاء ، فالناس لما رأوا أجسامهم والأنهار والسماء والأرض لم يظنوا فيها عجائب ولاغرائب لأنها مكشوفة أمامهم معروضة كل حين ، كالعالم فى بلده والنبى فى قريته ، فهكذا فاتحة الكتاب يقرؤها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها وأكثرهم جاهلون لايعقلون ، ولذلك

داستنا الفرنجة فقتلت أبناءنا واستحيت نساءنا ونحن فى غفلة معرضون .

واعلم أن العلماء هم الذين يعرفون أسرار الأشياء ، فعالم النبات وعالم الطب يعقلان حكم النبات وعجائب الجسم ، فكذلك هنا المفكرون فى القرآن الدارسون للعلوم حديثها وقديمها هم الذين يعقلون الفاتحة وعلومها فاعلم أن الفاتحة تشتمل على الاشارات لجميع ماورد فى القرآن ، والذى ورد فى القرآن عشرة علوم عامة كما قاله الغزالى : وكل علم تحته علوم . الأول : معرفة ذات الله . الثانى : معرفة صفاته ، فأما الذات فبالتقديس والتنزيه فهو الذى ليس كمثله شيء ، وأما الصفات فانه قادر ومريد وعالم وحىّ وسميع الخ . الثالث : انه خالق العالم ومبدعه ، وهوالذى رفع السموات و بسط الأرض . الرابع : ذكر المعاد من الجنة والنار والثواب والعقاب . الخامس والسادس : ذكر الصراط المستقيم بترك الأفعال المخزية والأخلاق المزرية ، وبالتحلى بفضائل الأعمال والأخلاق الشريفة ونشر الفضيلة . السابع : ذكر المنعم عليهم ومدحهم والثناء عليهم . الثامن : ذكر الظالمين والطاغين والكافرين . التاسع : ذكر محاجة الكفار . العاشر : ذكر حدود الأحكام هذه هى العلوم التى ورد ذكرها فى القرآن ، والفاتحة قد اشتملت على ثمانية منها على رأى الامام الغزالى .

الأوّل : ذات الله تعالى فى قوله (بسم الله) . الثانى : الصفات بذكر (الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) فان الرحمة والملك يستلزمان القدرة والارادة والعلم ، وهى من الصفات الواردة فى أكثر سور القرآن كقوله : الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن الخ . الثالث : علم الأفعال وهو العلم الذى أشرت إليه فيما تقدّم المندرج فى قوله (رب العالمين) المنطوى تحته أكثر العلوم ، وقلت أن العالم قسمان علوىّ وسفلى ودخل فيهما أكثر العلوم لأنها كلها أفعال الله تعالى الداخلة فى آثار رحمته وتربيته للعالمين . ونقول الآن أيضا فوق ماتقدّم أن العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية اللتين دخلتا فى تربية العالمين يلحقهما صناعات كثيرة ، فنها علم البنكامات (آلات قياس الزمن كالساعات المعروفة) وعلم جرّ الأثقال : كقطر السكك الحديدية ، وعلم انباط المياه ، وعلم الآلات الحربية كالمجانيق وغيرها ، والغازات الخانقة الموقظة للأمم النائمة ، فأيقظت أهل الشرق من سباتهم . وهذا من عجائب التربية ، وكالمدافع الفتاكة بالغافلين ، وعلم المرايا المحرقة ، وعلم عقود الأبنية لتنضيد المساكن وشق الأنهار ، وعلم المناظر لمعرفة أشكالها وأوضاعها ، وعلم مراكز الأثقال ، وعلم المساحة ، وعلم الطب ، وعلم الزراعة . وهذان الأخيران يتبعان علوم الطبيعة ، وأما ماقبلهما فعن الرياضيات تتفرّع وكلها داخلة فى تربية العالمين . واعلم أن جميع الصناعات ما كان منها وما يكون ترجع إلى هذه الموجودات ، فاذا رأيت النجار ، والحداد ، والخراط ، والزجاج ، والجوهرى ، والصيرفى . فاعلم أن الأوّل تابع لعلم النبات ، لأن عمله فى الخشب . والثانى لعلم المعادن لأنه فى الحديد . والثالث فى النبات كالأوّل . والرابع فى المعدن لأنه فى الزجاج والزجاج رمل مخلوط ببعض المعادن . والخامس والسادس فى المعادن ، لأن الخامس فى الجوهر المستخرج من الصدف . والسادس فى الذهب والفضة ، هذا ماأردت ذكره فى العلم الثالث ، وهو علم الأفعال ، وقد دخل تحته أكثر العلوم والصناعات . العلم الرابع : ذكر المعاد وفيه الجنة والنار والنعيم والجحيم والثواب والعقاب والقرآن طافح بذلك ، وهو هنا فى قوله (مالك يوم الدين) . العلم الخامس والسادس (الصراط المستقيم) وهو قسمان . الأوّل : ترك الضلال والفسوق والعصيان كالكذب والخيانة والزنا . والثانى : التحلى بالطاعات كالكرم والعلم والمساعدة ونشر العلم وما أشبه ذلك . العلم السابع : قصص الأنبياء والصالحين والمؤمنين والفضلاء وهو داخل فى قوله (الذين أنعمت عليهم) . العلم الثامن : قصص المغضوب عليهم والضالين ، وفى القرآن كثيرا من قصص الغاوين وتاريخ أعمالهم التى أورثتهم البوار والخسار ، هذه هى العلوم التى اشتمل عليها القرآن ، ودخلت فى ضمن الفاتحة ، فهل اذا سميت أم القرآن ، أو الكافية ، أو الوافية ، لاتكون بذلك

حرية ؟ بلى ، فالفاتحة أم القرآن بما بيناه ، كافية بما أبرزناه ، وافية كما قررناه ، فتعجب من المسلمين . واعلم أن القرآن أشبه بضوء الشمس الذى يجرى فى الجو ولا يظهر الا على سطح الأرض أو على جسم قابل ، فأما الهواء فانه لا يعكس ضوءها ولا يراه الطائر فى جو السماء : كذلك الأفئدة الخالية من العلم والحكمة يمر بها القرآن وأم القرآن ، ولا تشعر بمعانيها والضوء المشرق فيها ، وهم يقرءونها صباح مساء كذلك الطائر فى الجو السائح فى مخارقه حتى اذا قرأ القرآن من يعرفه فهمه حق فهمه . واعلم أن هذا الزمان هو الصالح لظهور المقصود من القرآن فى بلاد الاسلام « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » .

ولم يبق من العلوم التى فى القرآن الا محاجة الكفار و يقوم مقامه علم التوحيد ، وعلم الأحكام الفقهية التى يقصد بها حفظ النظام الاجتماعى للأمة ، وانما احتيج لهذين العلمين لحفظ العقائد ولحفظ نظام المجموع ، ثم ان هذا التقسيم الأخير مستمدة أصوله من كلام الامام الغزالى مع زيادة وتصرف ، ومن هذا تعلم ان علم ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ، وهى العلوم المعروفة اليوم ، والصناعات مقدمات على علم الفقه وعلم التوحيد ، والأمم الاسلامية اليوم أحوج الى معرفة الكائنات لمعرفة الله ولبقائهم فى الدنيا ليزاحموا الأمم الغربية ، وهى أهم من معرفة علم الفقه وعلم التوحيد وجميع هذه العلوم فرض كفاية ، ولكن الفقه والتوحيد لم يظهرا ظهورا جليا فى الفاتحة : اللهم الا فى العبادات ، أما الفقه فيما عدا ذلك ، فلم تشتمل عليه ، والمسلمون يجب عليهم النبوغ فى علوم الكائنات لعناية القرآن بها والفاتحة خصوصا لدخولها ضمن تربية العالمين .

فاذا سمعت قول القائل : ان سر القرآن فى الفاتحة ، وقرأت الحديث المتقدم ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام لأبى « ألا أخبرك بسورة لم ينزل فى التوراة والانجيل والقرآن مثلها » ثم قال هى فاتحة الكتاب ، وهى السبع المثانى والقرآن والعظيم ، ثم قرأت ما كتبناه بامعان أدركت السر المصون وتجلت لك عظمة الفاتحة وعرفت معنى قوله صلى الله عليه وسلم فى الفاتحة « انها القرآن العظيم » وعسى أن يكون فتح لك باب قولهم : سر القرآن فى الفاتحة ، فمن هذا الطريق فلتسر ولتعلم أن ما كتبناه شذرة مما نعلمه ، ثم مانعلمه ذرة من علم العلماء ، ثم علم العلماء ذرة من علم الله عز وجل ، فتعجب للنبوة وحكمتها وعلمها الواسع . ان هذا يفتح لك أبوابا تدخل منها إلى سر عظمة الفاتحة ، وسرها أنها سبع آيات تؤدى معنى ست آلاف آية وهى جملة القرآن كله تقريبا ، ثم ان خروج الفقه والتوحيد من ضمن الفاتحة هو رأى الامام الغزالى ، ولكن عسى أن يكونا ضمن الصراط المستقيم أو التربية للعالمين ولو بطريق التبعية فتأمل فيما كتبناه فعسى أنك فى غضونه تلقاه ، هذا مافتح الله به وأردت إثباته فى تفسير الفاتحة « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

مقارنة فاتحة الكتاب بفواتح البلغاء وأصحاب المعلقات

لقد سبق الكلام على مافى الفاتحة من الاشارة إلى العلوم وما تضمنت من الحكمة ، فلنذكر الآن نبذة مما تضمنت من البلاغة لتكون تذكرة وتبصرة لذى لب ، وإنما قدمنا الكلام فى العلوم لأنها أعم وأهم وأدعى إلى رقى الأمم الاسلامية وأدنى إلى حاجتها وأقرب إلى سعادتها . فنقول :

تأمل أيها العاقل الفطن ، وانظر بعقلك وإياك والتقليد ، بل ليكن نظرك عقليا وفهمك نفسيا ، واحذر أن تكون إمعة ، فها أنا ذا سأتلو عليك من أقوال الشعراء فواتح المعلقات وماشا كلها لتقارن بصفاء ذهنك ونور عقلك وصادق سريرتك بينها و بين فاتحة الكتاب لتعرف الفرق بين كلام الوحى وكلام الشعراء الذين كان لهم القدح المعلى فى سوق عكاظ وذى المجنة وذى المجاز ، وهم الخافضون الرافعون بذمهم ومدحهم كامرىء القيس

وطرفة

وطرفة بن العبد وزهير بن أبي سلمى ولبيد بن ربيعة ومن على شاكلتهم ممن طأطأت لهم الرؤوس ، وخلا لهم الجوّ وخشعت لهم الأصوات ، وذلت لهم الرقاب ، وكانوا شموس الجماعات وسادات الشعراء :

ان للوحى لسمة ظاهرة وعلامة بينة ، ألا ترى أنه ينحو منحى الأمور العامة ، ويتعالى عن الجزئيات ومحقرات المقاصد ، فأما كلام الشعراء فى فواتحهم فهاك مقال امرىء القيس بن حجر بن حارث إذ ابتدأ قصيدته المعلقة ، وهى فاتحته فوصف أنه بكى واستبكى على حبيبته ومنزلها الذى بسقط اللوى بين الأماكن الأربعة ، وهى الدخول وحومل وتوضح والمقراة ، فقال :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ * بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فَتُوضِحَ فَالْمِقْرَاةُ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا * لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ

وطرفة بن العبد بن سفيان كانت فاتحة قصيدته أن قال ان خولة محبوبتى لم يبق لها الا آثار الديار الخفية التى صارت كآثار الوشم فى ظاهر اليد ، وهذه الآثار فى موضع ، وهو برقة ثهمد ، وهى مكان لبنى دارم اذقال :

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ * تَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

وزهير بن أبى سلمى من الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية كانت فاتحة قصيدته أن قال :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ * بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

أم أوفى كنية محبوبته والدمنة آثار الدار وما فيها من البعر والرماد وغيرها والحومانة ماغلظ من الأرض والدراج والمتثلم موضعان من العالية (يقول هل من منازل محبوبتى أم أوفى تلك الدمنة التى سألتها فلم تجبنى)

ولبيد بن ربيعة العامرى من الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية كانت فاتحة قصيدته أن قال : اندرست ديار محبوبتى وهى ماتحل فيه وتقيم ، وهى بالمكان الذى يسمى منى ، وقد توحش الموضعان اللذان فيها ، وهما الغول والرجام إذقال .

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا * بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا

وعمرو بن كلثوم كانت فاتحة قصيدته ، أن قال لجاريته : قومى من نومك ، واسقينى الخمر أوّل النهار بقدحك العظيم ولا تدخرى عنى شيئا من خمرة القرية المسماة الاندرين من قرى الشام كثيرة الخمر جيدته اذ قال :

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا * وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا

وعنترة بن شدّاد العبسىّ يقول : ماترك الشعراء شيئا يرقع الا رقعوه : أى ماتركوا فنا من فنون الشعر الا سلكوه ، ثم قال : أنا لم أعرف دار محبوبتى لطول عهدى بها إلا بعد عناء شديد اذ قال :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ * أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

والحارث بن حلزة اليشكرى قال : فى فاتحة معلقته فى حضرة الملك عمرو بن هند ، أعلمتنا أسماء بقرب ارتحالها فشق علينا ، ومن المقيمين من يملّ قربهم ، ولكن أسماء ماملناها اذ قال :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ * رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

والنابغة الذبيانى ، وهو زياد بن معاوية كانت فاتحة قصيدته أن قال :

يَادَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ * أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ

العلياء المكان المرتفع ، والسند حيث يسند الى الجبل : أى يرقى ، وأقوت خلت ، والأمد الدهر ، يخاطب دار محبوبته مية متوجعا متأسفا على ارتحالها عنها وابتعادها عنه ، والأعشى ميمون بن قيس بن جندل كانت فاتحة قصيدته أن قال :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا * وَبِتَّ كَمَا بَاتَ ٱلسَّلِيمُ مُسَهَّدَا

أرمد : أى رجل أرمد ، والسليم اللديغ ، والمسهد الذى شرّد عنه النوم ، يقول : انه أرق ليلة فلم تغتمض أجفانه ، كالأرمد الذى لا يطيق انطباق أجفانه من حرّ مابها من الألم ، ولم ينم كأنه لديغ ، وعبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلى أحد المعمرين ، يقال انه عاش عشرين ومائتى سنة كانت فاتحة قصيدته أن قال :

لَيْسَ رَسْمٌ عَلَى ٱلدَّفِينِ بِبَالِي * فَلِوَى ذِرْوَةٍ فَجَنْبَيْ ذِيَالِ

الدفين واد قريب من مكة ، واللوى منقطع الرمل ، وذروة وادلبنى فزارة ، وذيال رملة أخرى ، يقول ان الدفين ، والذروة ، وذيالا ، وهى منازل الاحبة لها آثار ظاهرة ورسوم شاخصة تذكرنا ماسبق لنا من لذيذ العيش . فهاأنا ذا أتيت لك بفواتح لعشرة من فحول شعراء الجاهلية ، وهل خرجت فواتحهم عن آثار الديار ، وفراق المحبوبة ، والتحسر ، والتوجع عليها ، وذكر سهر العين ، ورمدها وشرب الخمر بالقدح ، وهل رأيت الامدارا واحدا داروا جميعا فيه ، أو ليست الفواتح يكاد يتحد معناها ، وان اختلف مبناها ، وهل ترى هذه المعانى التى طرقوها فى فواتحهم رافعة رأس الانسانية ، أو بانية لها صرحا ، أو شائدة لها ذكرا ، أو ناظمة لها عقدا ، أو مربية لها أمة ، أو سانة لها قوانين ؟ كلا ، وانما هى كلمات محدودات فى معان ضئيلات يذكرها الفتى أيام صبوته ، ولا تبقى له أيام كهولته لم تخرج عن مداعبات غراميه ، وأنات شوقيه ، قد يقولها الشاعر تكلفا لا غراما واتباعا لا ابتداعا ، واحتذاء لا ابتداء ، فلعمرى لقد بهر العرب ، وسحرهم أن سمعوا هذه الفاتحة ، فقيل لهم أيها الناس تبركوا باسم إلهكم الرحمن الرحيم ، ولا تنزلوا الى صغائر الأمور بمدح الملوك وأربؤا بأنفسكم عن ذلك فأحمدوا من رفع السماء وبسط الارض ، وأطلبوا منه الهداية .

أقول أيها الذكى اللبيب بمثل هذا فلتعرف البلاغة فى القرآن ، وبهذه الطريقة وأمثالها تزن كلام القرآن وكلام العرب ، وقد مهدت لك الطريق ، وبسطت لك السنن فى البلاغة ، فانظر فى أوائل السور ، وأوائل قصائد الجاهلية مثلا ، وكذلك نمط القرآن فى المعانى والمقال ، ونمط كلام شعرائهم ، وهذا هو النمط الذى جرى عليه العرب فى تعظيمهم القرآن ، ألا ترى كيف يقول بعض سادات قريش ، لما أنطلق إلى رسول الله ﷺ ليفتك به ، فسمعه يقرأ « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول » وكان ذلك فى صلاة المغرب فلم يصبه بأذى ، ورجع إلى قومه ، وقال والله لو كان من كلام العرب لعرفناه ، وان أسفله لمغدق ، وان أعلاه لمثمر ، وانه يعلو ولا يعلى عليه الخ .

وتأمل فى قصة اسلام عمر رضى الله عنه أن رجلا من قريش لقيه فى بعض طرق مكة ، فقال أين تذهب ؟ إنك الصلب القوى فى دينك ، وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك (أى دين الاسلام) قال : وما ذاك ؟ قال أختك قد صبأت (خرجت عن دينك) فرجع مغضبا فقرع الباب على أخته فدخل عليها ، وقال يا عدوة نفسها قد بلغنى عنك أنك صبأت ، ثم لطمها لطمة شج بها وجهها وأمسك بلحية زوجها سعيد بن زيد وضرب به الأرض ، ولما رأت أخته الدم بكت وغضبت ، وقالت أتضربنى يا عدو الله على أن أوحد الله لقد أسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب فما كنت فاعلا فافعل . قال عمر رضى الله عنه فاستحييت حين رأيت الدم فقمت وجلست على السرير وأنا مغضب ، فنظرت فاذا كتاب فى ناحية البيت ، فقلت أعطونى هذه الصحيفة فأبت

أخته أن تعطيه إياها ، وقالت إنك رجس فانطلق فاغتسل فانه كتاب لا يمسه إلا المطهرون ، فلما اغتسل ناولته الصحيفة ، فاذا فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » . قال عمر ، فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدى ، وجعلت أفكر من أى شيء اشتق ؟ قال : ثم رجعت إلى نفسى وأخذت الصحيفة فاذا فيها « سبح لله مافى السموات والارض ، وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ، وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم . هو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الارض ومايخرج منها » الى قوله « إن كنتم مؤمنين » فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، واطلع على أخرى فوجد فيها « بسم الله الرحمن الرحيم : طه ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له مافى السموات وما فى الأرض ومابينهما وماتحت الثرى . وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » قال رضى الله عنه فعظمت فى صدرى ، وقلت من هذا فرت قريش .

قال مؤلف هذا الكتاب : وأنا أقول من هذا تعرف البلاغة ، وبهذا كان العرب يدركونها فانهم يعرفون الفرق بين قوله * ألاهبى بصحنك فاصبحينا * وبين قوله تعالى « له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » وكلاهما فى فاتحة الكلام ، ثم لما بلغ قوله تعالى « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » قال ماينبغى لمن يقول هذا أن يعبد غيره ، دلونى على محمد الخ .

ومن ذلك : أنه ﷺ ، ومعه أبو بكر لقى سادات بنى شيبان بن ثعلبة ، وهم مفروق بن عمرو وهانئ ابن قبيصة ، ومثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان مفروق بن عمرو أجلهم وجها وأفصحهم لسانا فعرفهم أبو بكر بشأن رسول الله ﷺ ، فقال مفروق إلام يدعو ؟ فتقدم رسول الله ﷺ ، وقال « أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأنى رسول الله وأن تؤوونى وتنصرونى فان قريشا قد تظاهرت : أى تعاونت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ـ والله هو الغنى الحميد » . قال مفروق وإلام تدعو أيضا ياأخا قريش ؟ فقال رسول الله ﷺ « قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » قال مفروق ماهذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه ، ثم قال وإلام تدعو أيضا ياأخا قريش ؟ فتلا رسول الله ﷺ « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » ، فقال مفروق : دعوت ، والله الى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم صرفوا عن الحق وكذبوك وظاهروا : أى عاونوا عليك .

آيات العلوم والاخلاق : فى سورة الفاتحة

سورة الفاتحة كلها آيات علوم ، ولنا أن نجعل القسم الثانى منها أخلاقا ، فان الهداية الى الصراط المستقيم وما بعدها تفيد تهذيب النفوس

تفسير سورة البقرة

مدنية ، وهى مائتان وستة وسبعون آية

(تقسيم سورة البقرة الى بابين عظيمين)

الباب الأول

من قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) الى قوله تعالى (ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر) .

وهذا القسم : غلب فيه التوحيد ومحاجة اليهود ، وفيه عشرة مقاصد ﴿والباب الثانى﴾ من قوله تعالى (ليس البرّ أن تولوا وجوهكم) الى آخر السورة ، وغلب فيه الأحكام الشرعية ، وفيه عشرة مقاصد

مقاصد الباب الأول

مدح القرآن . وبشارة المؤمنين . ذمّ المنافقين والكافرين . ضرب مثلين لحال الطائفتين المؤمنين والمنافقين . نداء عام للناس أن يؤسسوا الايمان على قاعدة النظر فى السموات والارض . كيف بدء الخلق . خلق آدم * وكيف تشير القصة الى قوّة الغضب والشهوة وقوّة العقل بابليس وحوّاء والعلم . ذكر بنى اسرائيل . وأنهم ضلوا واتبعوا الشهوات ، وذلك فى فصلين .

الفصل الأول وبه عشرة يواقيت

تذكيرهم بنجاتهم من آل فرعون . فرق البحر لهم . إغراق فرعون . إعطاء التوراة لموسى . توبة الله عليهم بعد الذنب . تظليل الغمام . إنزال المنّ والسلوى . الأعين المنفجرة . تعنتهم وطلبهم الشرف . مسألة البقرة وكيف ظهر بها القاتل .

« تلك عشرة كاملة » وهذا آخر يواقيت الفصل الأوّل من المقصد السابع فى الباب الأوّل من سورة البقرة .

الفصل الثانى من المقصد السابع من الباب الأول من سورة البقرة وبه خمسة مقاصد

المحرّفون لكتاب الله منهم وهم العلماء . المنافقون والأذكياء صرفوا ذكاءهم للمفسدة . الأمّيون ، وهم العامّة المقلدون . مجمل الآداب المنزلة على بنى اسرائيل وبها سعادة الأمم . تقريعهم على هنات ارتكبوها وارتطموا فى أوحالها ، وهذا الخامس يشتمل على ١٠ زبرجدات . قتلهم الأنبياء . إشرابهم العجل فى قلوبهم . دعواهم الاختصاص باليوم الآخر . عداوتهم لجبريل . نقضهم للعهود . كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد اعترفوا به . اتباعهم علم السحر . إيذاؤهم للنبى بلفظ راعنا . تأييد النسخ بالحجة وتعنتهم على النبى كما تعنتوا على موسى بقولهم : أرنا الله جهرة . إرادتهم السوء بالمؤمنين ، ودعوى النصارى واليهود أنهم هم الناجون لا غير ثم ذكر المساجد وظلم أهلها الخ .

المقصد الثامن

قصة ابرهيم الخليل واسمعيل و بناء الكعبة بعد ذكر اسحق و بنيه وكأنه هدم اليهودية بنحو عشرين برهانا ، وأخذ يؤسس الاسلام على قواعد ابراهيم ويذكر بناء الكعبة ، ولم يكن دين اليهودية دين ابراهيم ولا يعقوب ، ثم دعوة الناس جميعا لدين واحد اتفق عليه الأسباط ونبذ النصرانية والتعميد .

المقصد التاسع

ذكر الله قصص آدم وقصص بنى اسرائيل وهدم اليهودية و بناء الاسلامية عليها بين النداء الأوّل العام و بين النداء العام الثانى ، وهو (و إلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إنّ فى خلق السموات والأرض) فقد قال أوّلا (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) ثم أعاد الكرّة فأوضحه ، وقال (إنّ فى خلق السموات والأرض) ليبرهن بعلم الطبيعة .

المقصد العاشر

تقليد الرؤساء والآباء فى الدين والحلال والحرام جهلا ، وتقريع المقلدين الغافلين بعد تبيان الحقائق الناصعة فيما تقدّم نفيا واثباتا * وهنا تمّ بيان مجمل المقاصد فى الجزء الأوّل ، فلنشرع فى تفصيله .

ابتداء التفسير

المقصد الأول

﴿ مدح القرآن و بشارة المؤمنين فى قوله عز وجلّ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *

التفسير اللفظى

(ألم) ستقرأ الكلام عليها وعلى غيرها فى أوّل آل عمران وفى أوّل كل سورة مبدوءة بمثل هذه الحروف وسنستوفى الكلام على أسرارها الخاصة بهذه السورة فى الملحق

(ذلك الكتاب) القرآن (لا ريب) لا شك (فيه) أنه من عند الله (هدى للمتقين) يهديهم الى الحق ، وخص المتقين لأنهم المنتفعون به ، وان كانت دلالته عامّة لكل ناظر (الذين يؤمنون بالغيب) يصدّقون بما غاب عنهم كأمر البعث والحساب (ويقيمون الصلاة) يداومون عليها فى مواقيتها بحدودها

وإتمام أركانها ، وحفظها من أن يقع فيها خلل (ومما رزقناهم ينفقون) أى ومما أعطيناهم من الأموال يتصدّقون و يؤدّون زكاة أموالهم (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) كعبدالله بن سلام معطوف على الذين قبله (وبالآخرة هم يوقنون) الايقان : إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة (أولئك على هدى من ربهم) على رشاد ونور واستقامة (وأولئك هم المفلحون) الناجون الفائزون : نجوا من النار وفازوا بالجنة .

يقول عزّ وجلّ : إنى أرسلت رسولا حكيما ، فصيح اللسان كما ستررون فى هذه السورة من القصص ونتائجها ، والحجج و بدائعها ، والآيات وشرائعها ، وما فى هذه الآيات المنزلات الا جمل بليغات ، وهى حروف مركبات ال م ، فما منعكم أن تنسجوا على منواله ، وتبنوا مجدا كما بنى ذلك الكتاب يهدى المتقين الذين جمعوا ثلاث صفات . الحكمة والعلم ، واليهما الرمز بالايمان بالغيب ، وتسخير البدن فى العبادة كالصلاة . وبذل المال مما رزقوا ، ثم خصص طائفة منهم بالذكر تشريفا لهم ، وهم الذين آمنوا بما سبق انزاله من الكتب وما نزل من الدين ، وما سيكون من اليوم الآخر : أى الماضى والحال والاستقبال تلميحا الى أن الانسان صاحب الدهر ، وعليه النظر فى حقيقة جميع الاشياء .

المقصد الثانى : وفيه غرضان

الغرض الأوّل : ذمّ الكافرين ، وتبيان أن فريقا منهم حرموا من الهداية ، وسجل عليهم الحرمان والطرد ، فان أنذروا أولم ينذروا فهم لا يؤمنون ، وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم لاتمتاز عما للحيوان ولا تعلو بهم الى مصاف نوع الانسان فقد طبع على قلوبهم ، فهم لايفقهون الخير ، وعلى موضع سمعهم فلا ينتفعون بالحقّ ، وحيل بينهم و بين الانتفاع بما يبصرون : كأن على أعينهم أغطية . وهومعنى قوله تعالى .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *

التفسير اللفظى

(إنّ الذين كفروا) جحدوا وأنكروا (سواء عليهم) أى متساو لديهم (أ أنذرتهم) أى خوّفتهم وحذرتهم (أم لم تنذرهم لايؤمنون) لايصدّقون (ختم الله على قلوبهم) طبع عليها (وعلى سمعهم) أى وختم على موضع سمعهم ، فلا يسمعون الحق ولاينتفعون به (وعلى أبصارهم غشاوة) غطاء فلايرون الحقّ (ولهم عذاب عظيم) شديد فى الآخرة .

الغرض الثانى : بيان حال المنافقين ، وأنهم ذوو باطن وظاهر متناقضين ووجهين مختلفين ، وأطال فى وصفهم وشرح سوء طباعهم وخبث نفوسهم ، وكيف يظهرون مالايخفون ، و يضمرون مالايظهرون ، وكيف تسوء عاقبتهم وتخبو نارهم لنعتبر بذلك فلا نقع فيما يحتالون ، فكم جلب الصديق الملق اللسان ضررا لايجلبه الأعداء ، وكم للعدوّ من فضل على الصديق المنافق ، وما أقلّ الصديق وما أكثر المنافقين فى كل زمان وهو .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا
نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا
كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۞
وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
مُسْتَهْزِئُونَ ۞ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۞ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا
الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۞

التفسير اللفظى

(ومن الناس من يقول آمنا بالله) وهم المنافقون : كعبد الله بن أبىّ ابن سلول وأضرابه (وباليوم الآخر) وبالبعث بعد الموت (وما هم بمؤمنين) فى السرّ ولا مصدّقين (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) الخداع الحيلة والمكر ، والمخادع يظهر خلاف مايبطن ، وهؤلاء يخادعون رسول الله والذين آمنوا ؛ وضرر الخداع راجع اليهم . كما قال تعالى « ولايحيق المكر السيء إلابأهله » ، والمتمادى فى الذنوب المعتاد لها ، لايشعر بنتائجها الكامنة فيه البادية فى سائر أحواله ، فهؤلاء أصبحوا وقد أكل الحسد قلوبهم وأحاط الجهل بها ، فصار ذلك مرضا لازما لها (فزادهم الله مرضا) باعلاء شأن النبى ﷺ وتضاعف النصر وتكرار الوحى (واذا قيل لهم لاتفسدوا فى الارض) بالكفر وتعويق الناس عن دين محمد ﷺ (قالوا انما نحن مصلحون) يعنى يقولونه كذبا (ألا) كلمة تنبيه (انهم هم المفسدون) فى الارض بالكفر (ولكن لايشعرون) لأنهم يظنون أن نفاقهم صلاح (واذا قيل لهم) أى المنافقين (آمنوكما آمن الناس) يعنى المهاجرين والانصار (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) الجهال (ألا انهم هم السفهاء) الجهال (ولكن لايعلمون) أنهم كذلك (واذا لقوا الذين آمنوا) كأبى بكر وأصحابه (قالوا آمنا) كايمانكم (واذاخلوا) أى رجعوا (إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) الشياطين كبار المنافقين ، والمستهزئ المستخف (الله يستهزئ بهم) يجازيهم (ويمدّهم) يزيدهم ، والطغيان تجاوز الحدّ ، والعمه فى البصيرة كالعمى فى البصر (اشتروا الضلالة بالهدى) اختاروها عليه واستبدلوها به ، والربح فى الأصل الفضل على رأس المال .

(المقصد الثالث)

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي
ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۞ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۞ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ

ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۞ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞

التفسير اللفظى

(مثلهم) أى مثل المنافقين مع محمد ﷺ (كمثل الذى استوقد نارا) أوقد نارا (فلما أضاءت) أى النار (ماحوله) أى حول المستوقد (ذهب الله بنورهم) جواب لما والضمير للذى ، وجمعه للحمل على المعنى : كقوله « وخضتم كالذى خاضوا » (وتركهم فى ظلمات لايبصرن) الهدى (صم) عن سماع الحق (بكم) خرس عن النطق به (عمى) لابصائر لهم (فهم لايرجعون) عن ضلالهم ونفاقهم (أو كصيب) أى كأصحاب صيب ، وهو المطر (من السماء) من السحاب (فيه) أى الصيب (ظلمات) جمع ظلمة (ورعد) هو الصوت الذى يسمع من السحاب . اقرأ إيضاحه فى سورة الرعد (وبرق يجعلون اصابعهم فى آذانهم) الضمير لأصحاب الصيب (من الصواعق) جمع صاعقة ، وهى قصيفة رعد هائل معها نار ، وهذه المعانى كلها واضحة فى سورة الرعد مثل سابقتها فاقرأه هناك (حذر الموت) خوف الهلاك (والله محيط بالكافرين) عالم بهم وجامعهم فى النار (يكاد البرق يخطف أبصارهم) يختلسها (كلما أضاء لهم) البرق (مشوا فيه) فى نوره (واذا أظلم عليهم قاموا) بقوا فى الظلمة كذلك المنافقون (ولو شاء الله لذهب بسمعهم) بصوت الرعد (وأبصارهم) بوميض البرق (ان الله على كل شىء قدير) أى هو الفاعل لما يشاء اه التفسير اللفظى .

هاهنا أنشأ فصلا انتزعه من أصول هذه المشاهدات تخييلا لعقولنا وتدريبا على الأمثال وضربها وتشبيها للمعقول بالمحسوس ، مثل حال المنافقين وقد تبوّؤا الاسلام ، وأظهروا الايمان فسعوا فى الحياة بنوره ، وحرموا بعد الموت من ثمره لما أضمرته النفوس من الجهل والعداوة بحال قوم باتوا فى ظلام ، فأوقدوا نارا أضاءت لهم الحالك وأرتهم المسالك وشرحت صدورهم وآنستهم بوجهها الجميل ، ثم خبت نارهم وأظلمت سبلهم وحلك ليلهم ذلك مثلهم .

المثل الثانى : يقول انظر السحاب المعصرات وهى تمطر والظلمات حالكة والرعد يزمجر والبرق يخطف .

تصوّر السحاب مظلمة مخيمة فى جوّ السماء وقد اكفهرّ وجهها وأرعدت وأبرقت وأمطرت : ان هذا وصف حال القرآن والكافرين ، فالعلوم فى الكتاب كودق السحاب وتوصيف الكفر والنفاق وذمّ الأصنام أشبه بالظلمات والحجج العقلية ، والبراهين الطبيعية على صدق الايمان أشبه بالبرق الخاطف للأبصار ، والوعيد والتخويف أشبه شىء بالرعد القاصف ، فكأنما هذا الكتاب مع أولئك المنافقين سحاب نشر ملاءته على الأنظار والظلام حالك والرعد يزمجر والبرق يومض وهم بين حزن وفرح وخوف وطمع وادبار واقبال وظلام ونور ، وهذا من أعجب الأمثال ، فان سمعوا البراهين العقلية أصغوا اليها وكادت تخطف أبصارهم وتميل عقولهم ، وان سمعوا ذمّ الأصنام نفروا معرضين كما يفعل أولئك السائرون فى الظلمات اذا برقت لهم بارقة تبعتها ظلمة حالكة .

(المقصد الرابع)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۞ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۞ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۞

التفسير اللفظي

(يأيها الناس) خطاب لأهل مكة ، ويأيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة ، وهو هنا خطاب عام لسائر المكلفين (اعبدوا ربكم) وحدوه (الذى خلقكم) من نطفة (والذين من قبلكم) أى وخلق الذين من قبلكم (لعلكم تتقون) أى لكى تتقوا السخطة والعذاب (الذى جعل لكم الأرض فراشا) بساطا (والسماء بناء) سقفا مرفوعا (وأنزل من السماء) السحاب (ماء) مطرا (فأخرج به) بالماء (من الثمرات) من ألوان الثمرات (رزقا لكم) وعلفا لدوابكم (فلا تجعلوا لله أندادا) أمثالا (وأنتم تعلمون) بعقولكم أن هذه الأشياء والأمثال لايصح جعلها أندادا لله (وإن كنتم فى ريب) فى شك (مما نزلنا على عبدنا) محمد ﷺ (فأتوا بسورة من مثله) أى مثل القرآن ، أو من مثل محمد ﷺ ممن لم يحسن الكتابة ولم يجالس العلماء (وادعوا شهداءكم) استعينوا بآلهتكم (من دون الله) من غير الله (ان كنتم صادقين) فى مقالتكم (فان لم تفعلوا) فيما مضى (ولن تفعلوا) فيما بقى (فاتقوا النار) فاخشوا النار ان لم تؤمنوا (التى وقودها) حطبها (الناس) الكفار (والحجارة) حجارة الكبريت أو جميع الحجارة (أعدت للكافرين) هيئت لهم (وبشر الذين آمنوا) بمحمد ﷺ (وعملوا الصالحات) الطاعات (أن لهم جنات) بأن لهم بساتين (تجرى من تحتها الأنهار) أى من تحت شجرها ومساكنها (كلما رزقوا منها) أى كلما أطعموا من الجنة (من ثمرة رزقا) أى طعاما (قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) فى الدنيا

وقيل ان ثمار الجنة متشابهة فى الصورة مختلفة فى الطعم ، فاذا رزقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا أنها الأولى (وأتوا به) بالرزق (متشابها) فى اللون مختلفا فى الطعم ، وهذه الجملة اعتراضية لتقرير ذلك (ولهم فيها) فى الجنة (أزواج) حور (مطهرة) من الحيض ونحوه ومن كل دنس (وهم فيها) فى الجنة (خالدون) دائمون لايموتون (ان الله لايستحيى) لايمنعه الحياء (أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها) أى يبين للخلق مثلا فى بعوضة فكيف مافوقها ? يعنى الذباب والعنكبوت ، وذلك أن الكفار واليهود كانوا يقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، وكيف يذكر الله هذه الاشياء الخسيسة ، فرد الله عليهم بانه لايستحيى من ذلك ، وكيف يستحيى من ذكر شىء لو اجتمع الخلائق كلهم على تخليقه ماقدروا عليه ، واعلم أيها الذكى أن هذا المقام مشروح موضح بالتصوير الشمسى فى آخر سورة الحج ، وهناك ترى أسرار هذه الآية ، وكيف كانت الذبابة وتشريحها موضوع درس فى المدارس العظيمة فى زماننا ، ومنه استخرج تقسيم أنواع الحيوان فاقرأها هناك واعجب من جمال الله وبدائعه هناك ، وفى سورة العنكبوت وصورها الشمسيه وعجائب الخلقة والحكم المودعة فيها ، فهناك هناك ترى عجائب كتابنا المقدس « فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » (فأما الذين آمنوا) بمحمد ﷺ والقرآن (فيعلمون أنه) ضرب المثل (الحق) الصدق الثابت (من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) أى بهذا المثل (يضل به كثيرا) أى من الكفار لانهم يكذبونه فيزدادون به ضلالا (ويهدى به كثيرا) يعنى المؤمنين يصدقونه (ومايضل به) بالمثل (إلا الفاسقين) الكافرين والمنافقين واليهود ، ثم وصفهم فقال (الذين ينقضون عهد الله) أمر الله (من بعد ميثاقه) من بعد عقده وتوكيده (ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل) نقطع الأرحام والاعراض عن موالاة المؤمنين والتفرقة بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والكتب فى التصديق وترك الجماعات المفروضة وسائرمافيه رفض خير فذلك كله قطع الوصلة بين الله وبين العبد (أولئك هم الخاسرون) المغبونون حيث استبدلوا النقض بالوفاء ، والقطع بالوصل ، والفساد بالصلاح والعقاب بالثواب ، انتهى التفسير اللفظى المجمل .

إيضاح وتفصيل

قيل المراد بالحجارة الأصنام التى كانوا يعبدونها ليروا نقيض ماكانوا يتوقعون ، وقوله ـ هذا الذى رزقنا من قبل ـ أى ان الثمر الذى فى الجنة يشابه الذى كان فى الدنيا لأن النفوس توّاقة الى ما كانت تألفه ، ولتعلم أن ذلك أقرب لقوله تعالى (ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم) ولذلك أمر الناس بالعبادة ، وضروب الحكمة ليرتقوا الى الدرجات التى تناسب مارفعوا أنفسهم اليه فى الدنيا فتأمل ، وطهارة الازواج تكون من دنس الطبيعة وسوء الخلق ، وما يستقذر من أحوالهن كالحيض والنفاس كما تقدم .

عجب لهذا النظام ، وما أبدع هذا الترتيب ، انظر كيف ذكر المؤمنين والكافرين ، وأتبعهم بالمنافقين ، وجاء المثلان لتصوير حال المنافقين وشرح صورتهم الباطنة بالمشاهدات الطبيعية والعجائب الحكمية فى الآفاق وايضاح تلك المعانى التى خفيت فى النفوس بما يماثلها فى العالم المشاهد المحس من سحاب وماء وظلام وضياء فلا جرم أن ذلك دعاء حثيث الى تذكار العجائب الكونية وحب مافى العالم من البدائع الخلقية ، ذكر المثلين لتباين أخلاق المنافقين على نموذج البلغاء ، فتأمل كيف أتبعه بما هو المقصود الأتم ، والمنهج الأقوم من علم التوحيد وشرح عجائب الكائنات ، انظر وتعجب كأنه يقول : هاأناذا أبنت لكم سبل ذوى النفاق والكافرين وشرحت حالهم ، وليس ذكرها هو المعنى بذاته ، فلا تضع وقتك فى مناوشة الأعداء ، ومقاومة الخصماء وتعال عن تلك الطائفة العمياء ، واسلك سبل الحكماء ، وكأنما المثلان وسط متناسب بين المقامين ، مقام نبذ الضالين ، ومقام العلم والفضل المبين ، فقال (ياأيها الناس اعبدوا ربكم) يقول : اعبدوا ربكم فانه خلقكم

وخلق

وخلق آباءكم ، وجعل فوقكم سماء تظلكم ، وتحتكم أرضا تقلكم . وقال لكم هاهوذا سحاب يمطر ، وهذه الأرض تنبت وتثمر « ومنها تأكلون » يقول آويتكم الى بيتي فسكنتموه فسماؤكم ممطرة ماء وأرضكم مثمرة هاأنتم أولاء تبنون وتسكنون ، فهل تستطيعون أن تنزلوا من سمائكم ماء عند حاجتكم وأن تنبتوا من حجركم فتأكلون خبزا وفواكه ، تأكلون من تحت أرجلكم وتشربون من فوق رؤوسكم ، تنظرون فترون الأرض يابسة ، فما أسرع أن تكسى جلابيب سندسية ، وتفرش أنماطا ملوّنة زبرجدية ، ثم تمد لكم بما تأكلون ، وتعطيكم مابه تشفون ، الأرض مهاد لكم عليها تنامون وجمال لكم ولها تنظرون ، وغذاء منها تأكلون ، ودواء وجمال وحسن ونظام ، السماء قبة صافية ذات جلابيب زرقاء مرصعة بالدرارى الحسان ، والهواء بينهما يحمل الأضواء ، ويزجى السحاب ، ويقدر المطر ، وينزل الودق رحمة عظيمة وحكمة عميمة بهاء وجمال تخرّ لعظمتها العقول ، وتخضع لجلالها النفوس ، وتقرّ بأن هذه البدائع لامندوحة لها عن مبدع فطرها ، وحكيم نظمها وإله أتقنها (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) أيها الناس أنتم أسرة واحدة أسكنتكم دارى وآويتكم الى فراشى ، وكسوت الارض لكم حللا بهجة للناظرين ، وصبغتها من كل صبغ وزينتها بكل لون وأوسعت لكم الأمد والمدد والبلد ، وجعلت سقفكم بهجا أزرق بهيا لطيفا نظيفا لم تبنوه بأيديكم ، أليس من عجب أنه قديم حديث وجديد عتيق لم يتغير منظره ، ولم تقدم جدته ولم تهرم الحسان من نجومه الباهرات وان شاب الزمان وهرم الهرمان ، ومن ذا يتصور سقفا يبنيه بلا بناء ، وينظمه بلا عناء ، ويبقيه بلا فناء ، ويبقى حسنه بلا خفاء ، ألا ان نسبة المخلوق الضعيف للخالق العظيم ، كنسبة عمله الضئيل الى سقف السماء ذات الجمال والصفاء .

فصل آخر فى هذه الحكم الكونية

عجب أمر هذا الأسلوب من الكلام مثل للعلم والكفر ، والوعيد بذلك المثل مثل بديع رائع أراك السحاب والقطر والرعد والبرق جعلها مثلا لما عقلته النفوس وفقهته الفكر ، مثل الأنفس بالآفاق وتعالى على مانظمه الشعراء فى الجاهلية والاسلام ، ألم تر إلى امرئ القيس الجاهلى . وقد ضرب مثلا لقوة العقاب بقوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا ※ لدى وكرها العناب والحشف البالى

وحسده بشار حتى قال بيته المشهور :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا ※ وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

مثل الغبار . وقد علا تتخلله بيض السيوف بالليل الحالك تتساقط فيه الكواكب ، ولقد جاء من بعده ابن المعتز فى نحو القرن الثالث وأبدع فقال : ※ وساق صبيح للصبوح دعوته ※ إلى أن قال :

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا ※ على الجوّ كنا والحواشى على الأرض

يطرزها قوس السحاب بأصفر ※ على أخضر فى أحمر تحت مبيض

وصف السحاب بالسواد ، وأنها كست الجوّ وأسبلت حواشيها على الأرض . وقد زوّقت تلك الحواشى بقوس قزح ، وكان منه جدد بيض وحمر وصفر وخضر وبنفسجى وبرتقالى وأزرق ، هذا أحسن ماتخيله قدماء العرب والمحدثون وتبينه المتقدمون والمتأخرون . فأما القرآن فقد امتطى غارب البلاغة وتعالى فى الفصاحة وسما إلى مقام لايصله منطيق ولا يدركه مصقع لبيب ، ألا ترى أن مقالهم فى وصف عقاب ، أو خمر ، أو شراب ، أوحرب ، أو ضراب ، ولم تحم يوما هذه المعانى الشريفة بعقولهم ، ولم تسم قط اليها نفوسهم رقة المعانى وجزل اللفظ فى القرآن وحسن العبارات ، فمثل الأخلاق النفيسة وأبرزها فى صورة محسة مشاهدة تهدى

إلى هـدى وتدفع عن ردى وترفع أذى وتزيل غمة ، فيالله ماالذى يرفع من همـة انسان من وصف طعام وشراب وسحاب حالك وقت شراب الراح وتعاطى الأقـداح ، هاهنا تجلت البلاغة وسطعت شموسها ، ولما كان المثل المذكور مقتبسا من الـكون منظوما من المشاهدات معروفا من الحسات ، أخذ فيما بعد ينقل النفس من الخيال الى الحقيقة والوجدان . وقال نحن وان ضربنا لـكم الأمثال من الـكون فانا واصفوه لـكم لتفقهوه « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » الخ هذه هى العبارة الحـكمية ، والآيات العامية ، والعجائب الخلقية .

بدائع العلم

الأوّل : روى أن النبىّ ﷺ . قال لعمران بن حصـين كم لك من إله ؟ قال عشرة ، قال فمن لغمك وكربك ودفع الأمر العظيم إذا نزل بك من جاتهم ؟ قال الله ، قال عليه الصلاة والسلام مالك من إله إلا الله

الثانى : جاء جماعة من الدهرية لأبى حنيفة رضى الله عنه ، فقال ماتقولون فى خشب قطع من الاشجار بلا نجار ، واجتمع ثم كوّن سفينة تجرى فى البحر ، وهى مشحونة بالاحمال مملوءة من الأثقال قـد احتوشها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة ، وهى من بينها تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك فى العقل ؟ قالوا لا : هذا شىء لايقبله العقل ، فقال أبو حنيفة ياسبحان الله اذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر ، فـكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها ، وتغير أعمالها ، وسعة أطرافها ، وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ فبكوا جميعا ، وقالوا صدقت .

الثالث : سأل جماعة من الدهريين الشافعى رضى الله عنـه ، ماالدليل على وجود الصانع ؟ فقال ورقـة الفرصاد (التوت) طعمها ، ولونها ، وريحها ، وطبعها ، واحـد عندكم ؟ قالوا نعم : قال فتأكلها دودة القز فيخرج منها الابريسم والنحـل ، فيخرج منها العسـل والشاة ، فيخرج منها البعر ويأكلها الظبى فينعقد فى نوافجها المسك ، فمن الذى جعل هـذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده ، وهم سبعة عشر . قال أبو نواس :

تأمّل فى رياض الأرض وانظر * الى آثار ماصنع المليك
عيون من لجين شاخصات * وأزهار كما الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات * بأن الله ليس له شريك

الرابع : قال الفيلسوف هربرت سبنسر المتوفى فى بريطن مدينة من بلاد الانجليز سنة ١٩٠٣ فى كتابه فى التربية : العلم الطبيعى لايناقض الدين ، ونقل عن الأستاذ هكسلى مايأتى [العلم الطبيعى الصحيح والدين الصحيح توأمان اذا انفصل أحدهما من الآخر خاصر يعين وماتا حتف أنفهما] ثم قال سبنسر : متى اتفق العلم والدين نموا نموّا صحيحا ، فالدين نمو بامتداد جذوره و تغذية أصوله فى رياض العلم الصحيح ، والعلم الصحيح يؤيده الدين و يشد ازره ، فيكون قوّيا متينا .

ألا وان الفلاسفة الذين أثمرت أذهانهم أجل الأثمار ، وأفادوا النوع الانسانى بجميل علومهم انما كان ذلك بباعث دينى بعثهم على التفـكر والبحث ، وذلك أحرى من أن ننسبه لذلك الاذهان وحدها * ثم قال : من ذا الذى يرى منافاة الدين للعلم ، ألا انما المنافى للدين هو ترك العلم والجهل بما أحاط بنا من المخلوقات * ثم ضرب مثلا ، فقال لو أن الناس أخذت تمدح مؤلفا عظيم الشأن ، عالى الصيت ، رفيع المنزلة ، وهم لم يفتحوا له كتابا ، ولم يقرءوا له حرفا ، وانما كانوا ينظرون إلى ظواهر شـكله ، وتزويق جلده فما قيمة تلك المدائح ، وما معنى ذلك الثناء انما هذا هراء ، إذا عرفت هذا فالناس جميعا هم هؤلاء المادحون ، والله منظم الـكون

والـكون

والـكون تأليفه ، فلعمرى ماأجهلهم حين يثنون عليه ، وهم عن عجائبه معرضون ، وما كفاهم أن صرفت أذهانهم عن المعرفة حتى أخذوا يحقرون من أظهر اهتماما بشأنها وصرف وقته فى تحصيلها * ثم قال : لذلك أكرّر القول : ان مخالفة الدين ليست بدراسة العلم الطبيعى ، بل هى فى تركه والانصراف عنه .

ألا وان التوجه للعلم الطبيعى عبادة صامتة وتسبيح عملى * ثم قال : ان العلم الطبيعى موافق للدين ومقوّ له ومؤيد له من جهات كثيرة ، أولا يرى الانسان عالما منظما بحركات ثابتة جارية بقانون لاتتخطاه ، وناموس لاتتعداه ، وهذا النظام يدلّ على قوّة وراءه وحكمة أبدعته وسوّته أحسن تسوية .

العلم الطبيعى يعرفنا سبب الـكائنات معرفة صحيحة ، ويعرفنا أن النتائج تتبع المقدّمات والمسببات الأسباب وأن العقاب والثواب مرتبطان بالأعمال ارتباط المسببات بالأسباب فيوقن الطالب ايقانا تاما بهما ، وان ذلك ارتقاء فى معارج الـكمال والسعادة العليا .

والعلم الطبيعى يعرفنا أن لنا حدّا محدودا لانتجاوزه فى العلم ، فلا نتخطى الى معرفة السبب الأوّل وحقيقته ، فالعلم لايستبدّ بنا فى تعريفنا صانع الـكائنات ، ولـكنه يهدينا الى الحدود التى لانتجاوزها ونقف دونها ، فلا نصل الى كنهه ومعرفة حقيقته .

ان هذا العلم يرفعنا عن الوقوف أمام التقاليد الموروثة الخرافية ، ولـكننا عند مانصل الى حدود المحيط العامى الذى وراءه ذلك السبب الأوّل ، وهو صانع الـكون أقررنا بالتواضع ورجعنا بخفى حنين .

ثم قال : وإياك أن تظنّ أن عالم الطبيعة من يعرف التحليل الـكيماوى أو يقرأ الهندسة ، وانما نعنى به ذلك العالم الذى يتخذ أسافل الحقائق سلما لأعاليها حتى يبلغ الحقيقة العليا ، ومن ذاسواه يعرف الهوة السحيقة الفاصلة مابين ذلك الصانع الحكيم الذى جعل الطبيعة ، والحياة والعقل من مظاهر ذاته ، وبين العقل الآدمى والفـكر الانسانى ، ان الفرق لعظيم اهـ باختصار .

أقول : أيها الفطن اللبيب ، اعلم أنى عند كتابة هذا الموضوع فى هذه الأسطر كنت أشعر بألم فى النفس وأسف واعترتنى دهشة ما كنت أشعر بها واهتاجت أعصابى ، وقلت فى نفسى ياليت شعرى : أىّ الفريقين أحق بالشـكوى والأسف ، أنحن أم فلاسفة الانجليز كالعلامة سبنسر الذى نحن بصدد الـكلام فيه ، يقول ان أقواما يزدرون المبتهجين بالمعارف الطبيعية ولا يعبؤن بها فهم يصدون عن سبيل الهدى وهم لايهتدون يقول هذا شاكيا بائسا ، ولئن شكا مرّة لأشـكونّ ألفا كيف لا ؟ وأمّته عالمة ، وأمّتى جاهلة ، وأمّته حاكمة ، وأمّتى محكومة ، وأمّته قويّة ، وأمّتى ضعيفة ، وأمّته راقية فى التجارة ، والصناعة ، والزراعة ، والامارة ، والسلاح ، والـكراع ، وأمّتى على نقيض ذلك ، فهو يشـكو أمّته طالبا المزيد ، وأنا أشـكو لضنكها وضعفها أنا أحق بالجدّ والتشمير لذلك يشكو ، ودينه المسيحى لم يكن مؤسس القواعد على الطبيعة ، وأنا أشـكو لأن دين الاسلام مبناه الفطرة وعماده دلائل المخلوقات الطبيعية ، خالفنا الدين والعلم فـكنا أوّل فريسة للقانصين .

مالى أرى أمّة الاسلام نائمة مالى أرى سفينتها تجرى بلا ملاح ، أيجوز فى دين المروءة ، ومنهج العقل أن يسبقنا الفرنجة بذلك ، والعلم علمنا ، والدين ديننا ، ومن أعجب العجائب بل من أبكا المبكيات أن كثيرا من الشبان يحقرون الديانات اتباعا لسبنسر ، ويقولون أنه ينـكر الله أو ليس مما يذيب القلب ويوقع الأسى فى النفس أن بعض الشبان يجهلون العلوم التى عند الفرنجة ويدّعون أنهم بها عالمون يدّعون أنهم قرءوا مذهب سبنسر ، ومذهب داروين : وهم كاذبون فيما يدّعون ، فوالله ماأغرانى بقراءة الـكتب الانجليزية الا مارأيت من دعوى هؤلاء الجهال .

يقول سبنسر العلم الصحيح والدين توأمان ، أوليس هو دين الاسلام ، أوليس قوله تعالى فيما نحن بصدده

« ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم » ، ثم شرح الارض والسماء وجمالهما (علم الطبيعة) أو ليس دين الاسلام هو هذا العلم

يا أمة الاسلام ألهذا الحد وصل جهلنا بديننا انى أرفع صوتى أمامكم أيها المسلمون ، وأقول : أبعد تجارب ألف وثلثمائة سنة نكون أجهل الأمم بالدين ونجتزئ بعلم التوحيد ، وتلك الكلمات الجدلية فيه ، وهى - لاتسمن ولا تغنى من جوع - ولقد وضعت لغرض خاص ، فكيف تكون للعموم .

أيها المسلمون : ان الخزى الذى حاق بنا ، والسوء الذى أحاط بنا انما منشؤه جهلنا فى القرون الاخيرة ، ويقول سبنسر : ان الدين هو السبب فى سوق النفوس الى علم الطبيعة ، فيا للعجب انى قرأت التوراة والانجيل فلم أجد فيهما من علوم الطبيعة الا آثارا ضئيلة منحرفة ، والقرآن هو الذى يأمر بالطبيعة وفهمها ، فاذا كان الدين الذى لاعلم فيه يصبح غنيا بالفلاسفة والحكماء فما بالك بالقرآن الذى لوعلم حق علمه لكان أكثر أتباعه ربانيين منهم أكابر الحكماء ، أفلا ينبغى أن يكون أكثر العقول الكبيرة من أتباعه ، أو ليس قوله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » الى قوله « إنما يخشى الله من عباده العلماء » يشير إلى المعنى الذى قاله سبنسر : وأن علم الطبيعة به تكون العقول الكبيرة الناظرة فى الماء ، والأشجار ، والثمار ، والجبال ، واختلاف الألوان فتخشى الله وأولئك هم العلماء ، أفليس هذا هو دين الاسلام .

وأما المثل الذى ضرب به سبنسر بالمؤلف ومدح الناس له مع جهلهم بما فى الكتاب ، فلقد رأيت نظيره فى كتب أسلافنا ، كقول بعض القدماء فى إخوان الصفاء مامعناه : العلوم التى نقرؤها أربعة : كتاب الله ، وكتاب الطبيعة ، وكتب الحكماء ، وكتاب النفس الانسانية ، ومعرفة عجائبها .

وأما تعجبه من اعراض الناس عن العلم وعجائب الطبيعة فذلك كثير فى القرآن ، كقوله تعالى « وكم من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

وأما قوله ان العلم الطبيعى عبادة صامتة ، فاعلم أن هذا هو الذى عليه مدار الاسلام ، كقوله عليه الصلاة والسلام « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » وجاء فى حديث أن النبى ﷺ قال « لقد أنزلت علىّ الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتدبرها ويل له ويل له ، ثم قرأ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وماأنزل الله من السماء من ماء » الآية ، واعلم أن هذه الآية كانت السبب فى محبتى بحث الطبيعة ، وإنى وجهت وجهى تلقاءها فى أوائل أيام تعليمى ، ولولم أطلع عليها ماتوجهت هذا التوجه منذ أيام الشباب .

وأما قوله : العلم الطبيعى مقوّ للدين والدين مقوّ له ، فاعلم أن الامام الغزالى يقول الدين دواء والعلم غذاء ، وليس الدواء بمغن عن الغذاء ولا الغذاء بمغن عن الدواء .

وأما قوله ان علم الطبيعة يعرفنا بلا استبداد أن لنا حدا لانتجاوزه ، فلا نصل الى معرفة صانع العالم وحقيقته فهو الذى ورد فى الحديث « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فان التفكر فى ذات الله اشراك » وورد أيضا أنه ﷺ قال « إن الشيطان ليقول لأحدكم من خلقك ؟ فيقول الله ، فيقول ومن خلق الله ، فاذا قال ذلك فليقل أحدكم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لايعرف الله إلا الله » .

حكاية

سألنى تلميذ وأنا مدرس بالمدرسة الخديوية ، فقال وفى يده كتاب انجليزى ان سبنسر ينكر الله ، فقلت أسمعنى قوله ، فقال يقول : ان الله إمّا أن يكون خلق نفسه وامّا أن لايخلقه أحد ، فان كان الأوّل فهو

مستحيل

مستحيل لأن الشيء يكون متقدّما على نفسه وهو باطل ، وأمّا الثاني فباطل أيضا لأنه لاموجود بلا موجِد ، فقلت أو تظن أن هذا كفر ؟ قال نعم ، قلت كلا »

واعلم يابنيّ أن هذا شذرة من أقوال علمائنا ، بل قطرة من بحر وذرة من جبل ، فقد حققوا هذا المقام وأفرغوا فيه جهدهم ، فلقد برعوا في المباحث العقلية كما برع الفرنجة في الصناعات الحربية الآن ، ألا ترى ماقرّروه أن المعلومات التي تصل لنا لاتكون إلا من طرق أربع : طريق الحواس كالسمع والبصر ، وطريق ماندركه من أبداننا بالوجدان ، كالألم واللذة ، والجوع والعطش ، والفرح والحزن ، والغيظ والحقد والابتهاج ، وطريق العقل كالعلم ، بأنه إذا زيد على شيئين متساويين شيئان غير متساويين فالمجموعان يكونان غير متساويين ، وكذلك إذا نقص من المتساويين شيئان غير متساويين ، فالباقيان يكونان غير متساويين ، والطريق الرابع ماندركه مستنتجا بطريق المنطق من هذه الثلاثة ، فهذه الطرق الأربعة هي التي لاعلم للبشر بالتحقيق إلا منها ، وهنا يقال كيف عرف الناس الله ، أذاته تعالى عرفوا ، أم وجوده ، أم سائر صفاته ؟ وبالتحقيق أنه لم يعرف الناس إلا أنه موجود أوّلا ، وأنه دائم الوجود ثانيا ، وانه منزه عن المادة وجميع الحوادث ، وهي المسماة صفات الجلال ثالثا ، وأنه متصف بصفات الاكرام ، وهي صفات المعاني كالقدرة والارادة والعلم الخ هذه هي الصفات التي عرفها الانسان بالطرق المتقدّمة ، أما معرفتهم ذاته فذلك أمر غائب عن العقول لايتهيأ لها الوصول إليه ، وليس ذلك بداخل في الطرق المتقدّمة الأربعة للمعرفة فلا هي بطريق حواسنا ولا وجداننا ولا البديهيات ولا مايستنتج منها ، وهذه هي الطرق التي بها سائر العلوم والكشف والاختراع ، فأما ذات الله فلا تعرف بواحد منها .

وقالوا أيضا ان المعرفة على قسمين : معرفة ذاتية ، ومعرفة عرضية ، فاذا رأينا تمثالا هندسيا منظما متقنا جميل المنظر حسن الشكل بهيّ الطلعة حصلت لنا هنا معرفتان : معرفة ذاتية ومعرفة عرضية ، أما المعرفة الذاتية فانا نقول هذا اللون ، وهذا المقدار ، وهذا الشكل التي نظرناها بأنفسنا ، وهذه النعومة ، وهذه الخشونة ، وهذا الثقل ، وهذه الخفة التي لمسناها بأيدينا كلها حقائق ذاتية فانه لاحقيقة للون ولا للمقدار ، ولا للشكل ، ولا للنعومة ، ولا للثقل ، ولا للخفة ، إلا هذا الذي أدركناه ، وأما المعرفة العرضية فاننا نقول هذا الشكل الجميل لابدّ أن يكون له فاعل وعلمه وقدرته على مقدار مابرز لنا في صفاته المشاهدة فهذه معرفة عرضية فانا لاندري ذات ذلك الصانع ولاطوله ولاعرضه ولاأوصافه الظاهرية والباطنية ولاطباعه ، وإنما نعرف منه على مقدار ماوصل إلينا من ذلك التمثال فمعرفة الله لنا من القبيل العرضي ، وليس من الذاتي (هذه أقوال علمائنا رحمهم الله في اثباتهم العجز عن ادراك ذات الله تعالى) وهكذا ورد عن رسول الله ﷺ قال وكيف ذلك ؟ قلت لأن النبي ﷺ « يقول اللهم اني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لاأحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ومعنى هذا لايعرف قدرك إلا أنت ، فكيف يمكنني أن أعرف صفاتك ، بل أنت الذي تعرفها ، فيكون منك الثناء وإليك يعود : وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه « العجز عن الادراك إدراك » وأما قول سبنسر العالم الطبيعي ليس من يعرف التحليل والهندسة الخ ، وإنما هو من يرتقي في الأسباب فقصده بذلك العلم الأعلى في فنّ الفلسفة الذي حرمت منه الأمة الاسلامية نزاع الطلاب وتاهوا في بيداء الجهالة لأنهم قرءوا قشورا من العلوم الجزئية وجهلوا العلم الكليّ أو العلم الأعلى الذي يبحث في سائر العلوم وهي تستمد منه . وقال القدامى من علمائنا ان قراءة العلوم الجزئية تورث الضلال ، فأما قراءة العلوم الكلية فانها تعرّف الانسان ربه ، وقالوا أيضا في قوله تعالى « شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لاإله إلاهو العزيز الحكيم » ان مرتبة

الملائكة فى العلم بعد الله ، و يليهم أولو العلم الذين يعرفون نظام هذا العالم المتقن لمعرفتهم حقيقة هذه الصنعة وتركيبها وانها مسيرة بنظام متقن .

واعلم أن العلم المنتشر فى مدارسنا المصرية مبعثر منتثر لايهدى الطالب ولا ينير المسالك بخلوه من العلم الأعلى ، فتأمل وتعجب من أمة الاسلام النائمة . وقد آن أن تقوم من نومتها وتستيقظ من غفلتها ، وأما قول سبنسر : ان الثواب والعقاب نتائج للأعمال ونظام الطبيعة يعرفنا ذلك ، فقد شرحه أكابر علمائنا كالغزالى ، فما قال فى ذلك مامعناه : إياك أن تقول ان الله يغفر لى ، وانما الثواب والعقاب نتائج لابد من حصولها ه ، ولكن المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها نائمون ، اللهم اهد أمتنا وأيقظها من غفلتها انك أنت السميع العليم .

و إنما أطلت فى هذا المقام لنعلم أن أكثر الشبان المتعلمين فى ديار الاسلام لم يبقوا مع العامة مقلدين ولاهم من الحكماء المحققين ، وانما هم فى وسط الطريق ، فلا إلى العلو وصلوا ، ولا الى أسفل نزلوا فما أحراهم أن يمكثوا على العلوم حتى تطمئن نفوسهم وترتقى مدنهم و يتم نظامهم وتكون أمتهم من الأمم العظيمة القوية المتينة بهذا أمرنا الله بقوله « ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم » إلى آخر الآية .

ولما فرغ سبحانه من وصف الأرض والثمار والعجائب التى ذكرها والحكم التى صوّرها أخذ يذم الأصنام وينهى عن عبادتها .

تفصيل الكلام على الأنداد وعبادة الأصنام

أريد فى هذا المقام أن أشرح بقول وجيز مسئلة الأصنام وعبادتها كما شرحت فى أواخر سورة الفاتحة البلاغة ومقارنة القرآن بكلام العرب وكما سترى فى تفسير قوله « وأتوا به متشابها » مسئلة الجنة والنار ومراتب السعداء ومسئلة ترتيب النجوم فى عصرنا عند قوله « سبع سموات » ومسئلة نفس الانسان وجسمه عند قوله « خليفة » والكلام على الملائكة ، وهل هم يثبتون بالعقل أم يكتفى فيهم بالنقل بمناسبة قوله « واذ قال ربك للملائكة » حتى اذا طال الأجل ووصلنا فى التفسير إلى آيات أخرى فى هذه المعانى أشرنا إلى الرجوع إلى ماذكرهنا ليقل التكرار وليقف القارئ على عجائب العلم وغرائب الحكمة فى غضون التفسير والله يهدى من يشاء الى الصراط السوى ، فلنشرع فى موضوع الأوثان فنقول : لألخص لك ماعثرت عليه فى هذا المقام قديما وحديثا حتى لايشذ عنك شىء منها وتطلع على آراء الأمم والأجيال الغابرة والحاضرة .

اعلم أن عبادة الأوثان قديمة العهد بعيدة المدى درجت عليها الأمم البائدة واتبعتها الحاضرة ، وأنت لو سرت فى بلاد الصين واليابان والهند لرأيت الأوثان ماثلة أمامك معبودة ، والناس حولها ملتفون عابدون خاشعون حامدون راكعون ساجدون ، وأنت ترى أن أهل الصين قوم فيهم العلماء والحكماء قديما وحديثا وهكذا الهند ، واذا أبيت إلا المدنية الحديثة والنبوغ فى فنون القتال والحرب وجندلة الأبطال وغلبة الأمم والتفوّق فى الحرب ، فهاك أمة اليابان عابدة الأصنام كثيرة التماثيل ، تلك الأمة التى تعبد إلها له جوادان عليهما يركب ذلك الاله جاءان دائما بادارة المعبد بجوار تمثاله ، وهذان الجوادان من أسعده الحظ وقدم إليهما قبضة من شعير يوم خروجهما فى الأوقات المعلومة ، فقد نال حظا عظيما لأنه قبلت هديته لجواد الاله ، هذا مثل من أمثال عبادة الأوثان ببلاد اليابان اليوم . وهنا يقال هل يعقل ان أمرا تأباه الفطرة و ينقضه العقل وهو بديهى البطلان يبقى مع طول الزمان وفناء الأجيال و يعمر فى الأرض ويبقى هكذا الى يوم العرض : هل يعقل أن يكون هذا الانسان قد بلغ من البلاغة حدا : بحيث لايعرف أن هذا الحجر الذى نحت أمامى من الجبل لم يخلق السموات والأرض وما بينهما ولم يخلق أنفسنا ونحن الذين أوجدناه وهندسناه وأبرزناه .

ان العقل يأبى أن يصدّق أن هذه الأمم العظيمة الكبيرة الحكيم علماؤها تبقى مخدوعة هكذا : آلافا وآلافا من السنين ، إذن لابدّ أن يكون هناك أصول رجعت اليها وعوامل عوّلت عليها وأحوال فقهتها حتى بقيت تلك الديانات فيها ، وهل يدوم مالا أصل له ؟ وهل الخداع له ثبات ؟ ، فلأذكر ماعثرت عليه للجواب على هذا ، فأقول : يقول الامام الرازى : انه لم يكن فى الأرض أمّة تقول ان لله شريكا يساويه فى الوجود والقدرة والعلم والحكمة ، وهذا مما لم يوجد إلى الآن ، ولكن الثنوية يثبتون إلهين : أحدهما حليم يفعل الخير ، والآخر سفيه يفعل الشرّ ، وأما اتخاذ معبود سوى الله فى الذاهبين إلى ذلك كثرة اه ، وها أنا ذا ألخصها لك ، فأقول :

أوّلا : من الأمم من مات عندها العظيم الجليل القدر الكبير المنزلة ، وقد اعتقدوا فيه أنه مجاب الدعوة فعبدوه ليشفع لهم عند الله وعكفوا على قبره ، ثم اتخذوا له تمثالا ، ثم مضت الأجيال تلو الأجيال ، فصار معبودا ، وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم فهم دائبون على عبادته ، فانظر كيف كان أصله أنه آدمىّ مجاب الدعوة ، ثم انتهى الأمر بأن نسوا الأصل فهم ضالون .

ثانيا : ان الصابئين كانوا يرون أن الله عزّ وجلّ خلق ملائكة مجرّدة عن المادّة ، وهى المتصرّفة فى العالم ، وهذه الملائكة هى المسيرة للكواكب ، والكواكب مؤثرة فى الأرض وأهلها ، وقالوا ان الشمس والقمر والكواكب ترسل أشعتها إلى الأرض وأهلها ، وبها الحياة ، ولولا ضوء الشمس ماعاش حيوان ولا نبات على الأرض والكواكب الأخرى تساعدها فى ذلك ، وزعموا أن السعد والنحس للأشخاص تابعان لتلك الكواكب ، كما أن حياة الحيوان والنبات تابعة لضوء الشمس واشراقها على الأرض ، وهذه الأجرام المتلألئة المشرقة يحركها ويتصرّف فيها الملائكة فعبدوهم ليكونوا شفعاء عند الله ، ولما طال الأمد عبدوا نفس الكوكب الذى هو كجسم والملك روحه ، ثم لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم صوّروا للكوكب صورا على حسب ماتخيلوه لها من النعوت والأوصاف ، وهى الأصنام ، فعبدوها لتكون واسطة بسبب المناسبة بينها وبين الكواكب ، والكواكب واسطة للملك ، والملك واسطة لله ، ثم لما طال الأمد نسوا الكواكب وعبدوا نفس الصنم ولهم أبخرة خاصة واستحمامات ودعوات وملابس ، حتى أن حفلات (الزار) المعروفة فى مصر إنما هى صورة محورة من صوردين : الصابئين ، وهذه الطائفة تقول ان البشر لن يكونوا واسطة بين الله وخلقه ، وينكرون الأنبياء ويقولون لاواسطة إلا الملائكة ، ويقولون انهم أفضل من البشر لتجرّدهم عن المادّة ، وهناك محاورة بين هؤلاء ، وأتباع الأنبياء مذكورة فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى ، وختم القول فيها بفضل الأنبياء على الملائكة ، لأنهم جمعوا بين القوّة الروحية والقوّة الجسمية ، ومن جمع بين فضيلتين أفضل ممن له واحدة ، ولقد كان لقدماء المصريين من الأوثان والأصنام مايضرب به المثل بين الأمم ، ولقد كانوا يقولون ان الله هو الواحد الحقّ ، ورتبوا العالم بعده مراتب ، فالمادّة لها عدد ٢ وزحل ٣ والمشترى ٤ والمريخ له عدد ٥ والشمس لها عدد ٦ والزهرة لها عدد ٧ وعطارد له ٨ والقمر له ٩ ، وقد كانوا يجعلون لها مربعات يكتبونها فى صفائح من ذهب فى أوقات خاصة لمنافع زعموا أنهم ينالونها ، وتلك المربعات ناشئة من ضرب العدد فى نفسه ، فالله واحد مربعه ١ ، والمادّة ٢ مربعها ٤ ، وزحل مربعه ٩ ، والمشترى ١٦ ، وهكذا الى القمر ٨١ ، وكل هذه لها حساب بديع مربعات يكون طول أضلاعها الأفقية والرأسية والقطرية متساوية ، وهذه لعمرك عبادة يتقرّبون بها إلى الكواكب ، وان أردت الاطلاع على ذلك الحساب البديع فعليك بكتاب خواص الأعداد للمرحوم على مبارك باشا ، وهذا العلم نقله فيثاغورث وأدهشه عجائب خواص الأعداد ، فقال ان العدد أصل العالم .

ثالثا : دين التثليث . كان القدماء من الفلاسفة اليونانيين الذين نقل عنهم علماء الاسكندرية بعد المسيح واتصل بأسلافنا العرب يقولون : ان الله خالق العقل الأوّل ، لأنه لايليق بالمجرّد عن المادّة أن يخلق إلا ماهو أقرب اليه ، و بواسطة العقل الأوّل خلق الله النفس ، والنفس بها تحركت الكواكب ونظمت الطبيعة وكانت نفوسنا أشعة من تلك النفس ، ولذلك تراهم دائما يقولون : الله العقل النفس .

قال العلامة [دوان] كان القسيسون فى هيكل ممفيس يقولون للتلاميذ أن الله الأوّل خالق الثانى ، والثانى مع الأوّل خلقا الثالث ، وكانون يسمون الثانى [الكلمة] المعبر عنها بالعقل عند الفلاسفة ، ولما سأل الملك تولسيو ملك مصر الكاهن تنيشوكى أن يخبره هل كان قبله أحد أعظم منه ؟ أو يكون بعده أحد أعظم منه قال له الله ، ثم الكلمة ومعهما روح القدس ، وهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة وهم واحد بالذات ، وعنهم صدرت القوّة الأبدية ، فاذهب يافانى ياصاحب الحياة القصيرة ، والآلهة الثلاثة الهندية هم برهمه ، وفشنو وسيفا ، ويقولون لما أراد برهمه [خالق الوجود الذى لاشكل له ولاتؤثر فيه الصفات] أن يخلق الخلق اتخذ صفة الفعل وصار [برهمة الخالق] ، ثم زاد فى العمل فانقلب إلى الصفة الثانية ، فكان فشنو [الحافظ] ثم انقلب الى الصفة الثالثة فصار سيفا : أى المهلك ، و يسمونها [ترى مورتى) الأقانيم الثلاثة ويشبهونها بالنار ، وفشنو هو الابن ، وسيفا المهلك ، والمعيد وهو روح القدس ، وقد اطلعت فى بعض الكتب على صورة هذا التثليث منقولا من كتاب العلامة موريس فى آثار الهند القديمة ، وقال لقد وجدنا بأنقاض هيكل قديم دكته مرور القرون صنما له ثلاثة رءوس على جسد واحد ، والمقصود منه التعبير عن الثالوث ، وهكذا نجد عند البوذيين ثالوثا ، فانهم يقولون بوذا مثلث الأقانيم ، والصينيون يعبدون بوذا ويقولون مثلث الأقانيم ، ويرمزون للثلاثة بهذه الحروف الثلاثة [أوم] فالهمزة أوّلها والميم آخرها من أقصى الحلق الى الشفتين ، فهؤلاء هم الأوّل والآخر والظاهر والباطن ، وهكذا تعبر الهنود بنفس هذه الحروف عن برهمة ، وسيفا ، وفشنو ، وقد جاء فى الكتب الصينية الدينية أن أصل كلّ شيء واحد ، وهذا الواحد الذى هو أصل الوجود اضطر الى إيجاد ثان ، والأوّل والثانى انبثق منهما ثالث ، ومن هذه الثلاثة صدر كلّ شيء ، وهذا القول بالتوليد والانبثاق أدهش العلامة موريس ، لأن قائله وثنىّ ، ولقد تنزل الهنود بتثليثهم الى درجة مخجلة مخزية ، فقد رأيت لهم صورة هيكل مقدّس كشف حديثا مثلث يمثل برهما وهو بحالة الذكورة والأنوثة معا وعلامة التأنيث و بعبارة أوضح عضو التأنيث مع التناسل يفيد قوّة الايجاد ، وأنه خالق الأشياء فانظر كيف تنزلت الثلاثة عند بعضهم من رفيع مقام العقل والنفس الى ماتباشره الأنعام ، و يقولون ان هذا الثالوث المقدّس حاضر فى كلّ مكان بالروح والقدرة .

وقد وجد التثليث أيضا عند الفرس القدماء . قال العلامة هيجن : كان الفرس يدعون متروسا [الكلمة] والوسيط والمخلص ، وكان القدماء من اليونان يقولون ان الله مثلث الأقانيم ، وهذا التعليم الثالوثى أصله من مصر

وقال مؤلف كتاب [الخرافات ومخترعوها] كان الرومان يعتقدون التثليث قبل المسيح .

وقال العلامة [نيت] هكذا وجد سكان الجزائر فى الأوقيانوس والمكسيكيون الذين ظلمهم الاسبان فخرقوا كتبهم كان لهم دين يثبت ثلاثة آلهة : الأب والابن والروح القدس والابن اسمه [باكاب] مولود من عذراء وصنمهم المعبود يمثل ذلك ، وأهالى النيبال يعبدون إلها اسمه [اندرا] وهو كان مصلوبا كما صلب المسيح وسفك دمه بالصلب وثقب بالمسامير كى يخلص البشر من ذنوبهم ، وصورة الصلب فى كتبهم [أقول] وقد رأيت صورتها فى بعض الكتب المنقولة ، ويقول المصريون أوسيريس مخلص الناس و باخلاصه يقتل ، و يسمى الولد والفادى والولد الوحيد ، وكان قدماء اليونان يقولون ان الله مثلث الأقانيم ، وكان القسيسون

يرشون

يرشون المذبح بالماء المقدّس ثلاث مرات و يأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع ، وكان الفرس يعبدون إلهاً مثلث الاقانيم مثـل الهنود ، وهم أورموزد ، ومترات ، واهرمان . فأورموزد الخلاق ، ومترات ابن الله المخلص والوسيط ، واهرمان المهلك ، وسكان سيبيريا القدماء كانوا يعبدون ثلاثة آلهة ، فالأوّل خالق كلّ شيء والثانى إله الجنود ، والثالث روح المحبة السماوية .

وكلّ هذه الديانات قائمة بأوثان وأصنام وأنت ترى أن هذه الوثنية قسمان : قسم يرجع لعبادة الملائكة فالكواكب فالأصنام ، وقسم يرجع الى عبادة ثلاثة اتحدت فصارت واحداً ، ولها قوّة الخلق والحفظ والاهلاك والاعادة ، وهذا هو القسم الذى تنوّع حتى ملأ الكرة الأرضية فتراه فى الصين والهند وأوروبا بصور مختلفة وأحوال متباينة ، وكلّ يقول إنى أعبـد الخالق ، فتبين أن سائر الناس جعلوا الأوثان والأصنام من الوسائط لعبادة الله تعالى ، وهذا معنى قوله تعالى على لسان الكفار « مانعبدهم إلا ليقرّبونا الى الله زلفى » ، ولكن جاء فى القرآن مايفيد يا أيها الناس انكم تقيدون أنفسكم وتكونون عبيد الأصنام أرقاء الأوهام ، فكونوا أحرارا والأرض لله ، والله معكم أينما كنتم ، فلا تتقيدوا بصنم ولا حجر ولا تمثال ولا وثن ولكن انظروا [الى السماء كيف رفعت والى الأرض كيف سطحت ، اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم] فانظروا فى هذا الجمال وفيه من الصور والتماثيل وأنواع الجمال الدال على قدرتى وعلمى وحكمتى ولا تكونوا مقيدين بتلك التماثيل التى صنعها البشر فان جمالها ضئيل بجانب الجمال الذى أبدعتـه فى سمواتى وأرضى والجبال التى عليها والجمال الباهر فى محاسن الصور المنقوشة فى زينتها تبصرة لكم وتذكرة لأولى الألباب « فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم » .

الأصنام عند العرب الذين نزل بلغتهم القرآن

يقال ان عمرو بن لحىّ لما ساد قومه ورأسهم وولى أمر البيت الحرام اتفقت له سفرة الى البلقاء ، فرأى قوما يعبدون الأصنام ، فسألهم عنها ، فقالوا هـذه أرباب نستنصر بها فتنصرنا ونستسقى بها فنسقى ، فالتمس اليهم أن يكرموه بواحد منها ، فأعطوه الصنم المعروف (بهبل) فسار به الى مكة ووضعه فى الكعبة ودعا الناس الى تعظيمه ، وذلك فى أوّل ملك سابور ذى الأكتاف ، ومن بيوت الأصنام المشهور غمدان الذى بناه الضحاك على اسم الزهرة بمدينة صنعاء وخرّبه عثمان بن عفان رضى الله عنـه ، ومنها نوبهار بلخ الذى بناه منو شهر الملك على اسم القمر ، وكان لقبائل العرب أوثان معروفة : مثل ودّ بدومة الجندل لكلب ، وسواع لبنى هذيل ويغوث لبنى مذحج ، و يعوق لهمدان ، ونسر بأرض حمير لذى الكلاع ، واللات بالطائف لثقيف ، ومناة بيثرب للخزرج ، والعزى لكنانة بنواحى مكة ، وإساف ونائلة على الصفا والمروة ، وكان قصىّ جـدّ رسول الله ﷺ ينهاهم عن عبادتها و يدعوهم الى عبادة الله تعالى ، وكذلك زيد بن عمرو بن نفيل ، وهو الذى يقول :

أربا واحـدا أم ألف رب ☆ أدين اذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعا ☆ كذلك يفعل الرجل الخبير

والله فوق الجميع المحيط بالعالمين علما يخاطب الناس بقوله (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) .

ولما لم يكن عنـد المعاندين من العـقل والمعرفة ما به يعرفون نظام هذا العالم ، و يدركون أن الأصنام لا تستحق العبادة أخـذ يصف لهم ماجاء به على لسان الرسول من البلاغة ، و يتحدى بما يعجزهم ، كأنه يقول : اذا عجزتم عن إدراك ما أبدعته فى الأرض والسماء ، ولم تبلغ عقولكم كنهه ، وغلبت عليكم الجهالة

ولم تفهموا الا مادار فى أنديتكم : من أحاديث البلاغة ، وآيات الفصاحة ؟ فاسمعوا لهذا القرآن والا فأتوا بمثله ، فلما عجزوا أوعدهم بالنار ، ووعد المتقين بالجنة ، وأخذ يصف نعيمها ، وحورها ، وجمالها ، وبهاءها وثمارها من بعد ما قدم وصف العالم الدنيوى إيماء الى أن علم الحكمة يدعو الى النجاة ، ولا يرقى الى عليين إلا من نظر فى خلق العالمين :

فقال (فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين) فتحرق الأصنام معهم فى جهنم نكاية بهم ، وإذلالا لنفوسهم ، وتخييبا لآمالهم ، فقد كانوا يظنون أنها تشفع لهم ، نخاب فألهم وضلّ سعيهم ، وهذه هى الحسرات (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) أى ان الثمر الذى فى الجنة يشابه الذى كان فى الدنيا لأن النفوس توّاقة الى ما كانت تألفه ، وذلك أقرب الى نظم القرآن ونسقه ، والى علم الحكمة ، وفى هذه الآية مفتاح لعلوم الآخرة ، وأنها نتائج الدنيا والنتائج تتبع المقدّمات ، فاذا كانت الثمرات التى يتناولها أهل الجنة أشبه بما كانوا يتعاطونه فى الدنيا ليأنسوا به ، وليستلذوا بتناوله ، وليكون لهم نعيما وبهجة ، فذلك نموذج لما فى الآخرة والأولى من التناسب والتوافق والتشابه ، وبيانه أنا نرى أن درجات الانسان فى حياته متناسبة متشابهة فدور الصبا يتبعه الشباب ، فالفتوّة ، فالكهولة . فأن يكون شيخا فهرما ، وهو فى ذلك كله يحفظ صورته الأصلية وان اختلفت أحوالها : من مرض وصحة وهزال وامتلاء وشباب وشيب ، ونرى المتعلمين لايدرسون فى الثانوى : الا ما يناسب ما سمعوه فى الابتدائى ، والدراسة العليا تتبع الثانوية . ونرى علماء فنّ التربية يحرصون الحرص كله أن تضرب الأمثال للصبىّ فى أوّل حياته فى المدرسة بما يأنس به من هرّة يداعبها ، وشاة يلعب بها ، وكرة يضربها وما أشبه ذلك . ويقول علماء الحكمة : ان أحوال النفس بعد الموت لا تعدو هذا المنهج ولا تعدل عنه بوجه . فالجهال ، والفسقة ، وأهل الضغائن ، والمنافقون ، والكسالى وأهل الشره والحرص تكون أرواحهم بعد فراق الجسد فى جوّ من نار تلك الأخلاق والأعمال والجهالات .

وأهل الاحسان والفضل وألو الألباب والعلم وذو الاخلاص والصدق والاحسان للناس فى حال أشبه بما كانوا عليه فى الدنيا ، وجوّ من الصفاء والنضارة والجمال نتيجة لما كانوا يعملون ، ولم يكن الله ليعذب الكافر والفاسق تشفيا ، وانتقاما كما ينتقم أهل الأرض ، ويشفوا غيظهم الكامن فى نفوسهم من أعدائهم ؟ « تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا » وانما جاء ذلك فى القرآن ليفهم بألفاظ يعرفها الناس على قدر طاقتهم ، وانما ذلك العذاب جزاء من جنس العمل ، كما فى قوله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها » وقوله تعالى « إنما تجزون ما كنتم تعملون » وقوله « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ، وكقوله فى أهل النعيم « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون » وذلك بعد قوله « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » فكأنهم لما أنسوا بربهم وأحسوا بروح ولذة بالعبادة ، وذلك أمر لا يطلع عليه الا صاحبه : كان جزاؤهم نتيجة ملازمة لعملهم ملازمة الظلّ للشبح والهواء لسكان الأرض ، فقال « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين » وترى فى الدنيا أن أهل العلم يأنس بعضهم ببعض ويفرحون بالملاقاة والمحادثة والمشاكلة ، وترى قطاع الطرق والمجرمين يساقون الى السجون ، ويعاقبون على ذنوبهم فى الدنيا كما تكون حالهم فى الآخرة : إذ قال تعالى « فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفى ضلال مبين » .

ولذلك جاء فى علم الأخلاق أنه ينبغى للانسان أن لايجالس أربع فرق من الناس : الصبيان والنساء

والجهال

والجهال وذوى الأخلاق الفاسدة . اللهم إلا لتعليم أو تأديب أو حكم عليهم أو انعام أوما أشبه ذلك وورد فى الحديث «إنما أنت مع من أحببت» وفيه «إنما هى أعمالكم تعرض عليكم» وجاء فى الآية «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا» .

قال الامام الغزالى فى الاحياء ، وكما أنك فى الدنيا تجد من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح ، وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض ، وسائر الأمور الالهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعا ، فكذلك يكون فى الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم فى الدنيا ماوصفنا من إيثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب ، وسائر الخلق مشغولون به ، ولذلك لماقيل لرابعة ماتقولين فى الجنة ؟ فقالت الجار ثم الدار ، فبينت أنه ليس فى قلبها التفات الى الجنة ، بل الى رب الجنة ، وكل من لم يعرف الله فى الدنيا فلا يراه فى الآخرة ، وكل من لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا فلا يجد لذة النظر فى الآخرة ، إذ ليس يستأنف لأحد فى الآخرة مالم يصحبه من الدنيا ، ولا يحصد أحد الا مازرع ، ولا يحشر المرء الا على مامات عليه ، ولا يموت الا على ماعاش عليه : فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه فقط الا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق اذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته ، فان ذلك منتهى لذته ، وانما طيبة الجنة أن لكل واحد فيها ما يشتهى ، فمن لا يشتهى الا لقاء الله تعالى فلا لذة له فى غيره ، بل ربما يتأذى به ؟ فاذن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته . فأصل السعادات : هى المعرفة التى عبر الشرع عنها بالايمان اهـ .

وبالجملة : فما من حركة نفسية أو عمل أو خلق أو رأى الا لها آثار فى نفوسنا ، ويقول الحكماء : العلم والأخلاق الفاضلة : تكون سعادة وروحا وريحانا ، والجهل وسوء الخلق رأس الشقاء فى الدنيا والآخرة ، ولهذا الرمز يقول تعالى هنا (وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة) من دنس الأخلاق ورداءة الطباع وما ابتلى به نساء الدنيا من الحيض والنفاس والمرض مشاكلة لما كانوا يستلذون به فى الدنيا ، وان كان الفرق شاسعا بين الدارين أبعد مما بين السراج والشمس والذرّة والفيل .

ضرب الأمثال

واعلم أن فيما سبق من هذه السورة أمثالا منها ماهو ظاهر ، ومنها مايحتاج الى تأمل ، فأما ماهو ظاهر فقوله (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) وقوله (أوكصيب من السماء) ، ومن هذا القبيل قوله تعالى «مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا» وقوله «إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه» ، وهذه كلها أمثال مضروبة لأحوال الكفار ، وأما مايحتاج الى تأمل فأوصاف الآخرة وأحوالها ، فان قوله (قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) فيه المشابهة والمماثلة ، وأن عالم الآخرة يمثل له بعالم الدنيا ، ألا ترى الى قوله تعالى «مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى» فهناك صرح بأنها أمثال ، وأن هذه التى فى الدنيا مضروبة مثلا لأحوال الآخرة ، ولقد تعالى المعنى فى آية أخرى الى مافوق هذا فى قوله تعالى «فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرّة أعين» وجاء فى الحديث [ان فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر] وفى الحديث [أريت الجنة فاذا أكثر أهلها

البله ، وعليون لأولى الألباب] وفسره علماؤنا بأن المفكرين فى خلق السموات والأرض وذوى النفوس العالية هم الذين يزهدون فى الجنة الحسية ، ويرغبون فى جوار ربهم مع الأرواح الطاهرة الخالصة من المادة المبرأة من عيبها العارفة بنقصها ، فأما أولئك الذين لايعبدون الله الا لأجل الشهوات بعد الموت ، فان نفوسهم تحنّ هناك الى اللذات الحسية ، ومعلوم أن المرء يحشر على مامات عليه من خلق ورأى وعقيدة ، وأن العبادة الظاهرة الخالية من معرفة جلال الله وعظمته ، والتفكر فى هذا العالم ، وأن المادّة سجن للذين فيها لاينال المرء بها الا الجنة المحسوسة التى يرغب فى أعلى منها الأنبياء والحكماء وأصحاب النفوس الشريفة ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى « ولدينا مزيد » وبقوله « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » وقوله « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » فالزيادة : هى النظر لوجه الله الكريم ، وقد مثلوا لهذا بالقصر المشيد للملك ، وقد حضر فيه أقوام فذوو النفوس العالية والمقامات الشريفة لايفرحون الا بمجالسته ، فأما الصعاليك فلا يهتمون الا بما يسدّ جوعهم ويفرج كربتهم لاختلاف الناس فى معارفهم ، وفى الأمثال المضروبة : اعلم أن الناس مختلفو الأخلاق والمشارب والعادات والأحوال « ولكلّ وجهة هو موليها » ، ولولا اختلاف المشارب والاهواء ماانتظم هذا العالم فما يحبه زيد يكرهه عمرو وما يليق لأحدهما لايناسب الآخر ، ولهذا الاختلاف كان النظام عجيبا ، ولولا زهد زيد فى التجارة والصناعة ونحوها ما كان فقيرا عالة على الناس ، الناس مختلفون فى أكثر الأشياء ، وعلى ذلك نرى أناسا نبغوا فى اختراع ، أو علم ، أو تجارة ، أو عمل عام ، وقد كانوا قبل ذلك يستهزئ بهم أقرانهم ويسخر منهم أصحابهم ، ولم يكن نبىّ ، ولا عالم ، ولاصالح الا كان فى مبدأ أمره محل سخرية واحتقار وازدراء ذلك أن الناس قلما يفقهون مايفقهه هؤلاء فينالهم مقت واحتقار ، ومن هذا القبيل الأنبياء [ومنهم خاتمهم سيدنا محمد ﷺ] فكان عرضة للاستهزاء من الجاحدين والكافرين ، فلما سمعوا ضرب الأمثال بالنار وبالماء ، وبالذباب ، وبالعنكبوت عدّوها فرصة للسخرية وقالوا هل يضرب الله الأمثال بهذه المحقرات ، وهو العظيم العلىّ الكبير هذا لايعقل ، ولوأن الاستهزاء توالى على فاضل ولم يكن له عزيمة لانحلت عزيمته واختلت أعماله ، ولذلك نجد النابغين قليلا ، لأن الساقطين فى ميادين العمل المجندلين فى ساحات المناظرة والمباراة كثير وليس ينجو منهم الا القليل ومنهم الأنبياء فأخذ نبينا ﷺ يثابر على الردّ عليهم ونبذهم وقهرهم بالوحى ، ومنه ماجاء هنا إذ قال (إنّ الله لايستحيى أن يضرب مثلاما] أى أىّ مثل كان واذا كنتم تستصغرون التمثيل بالذباب والعنكبوت فالله لايستحيى أن يضرب مثلا بالبعوضة التى هى أقلّ من الذبابة ، بل بما هو أقلّ منها مقدارا وأعلى فى تمثيل الحقارة عند إرادة تحقير الأشياء ، فالنبوّة ورد فيها التمثيل بجناح البعوضة عند ذم الدنيا وأنتم أيها الناس قسمان : قسم يرى الأشياء بمنظار مظلم وعين عوراء ، وقد غشى على سمعه وبصره فيرى الخير شرّا والشرّ خيرا ، ولما رأيتم الرسول يعلمكم وقد دخل الحسد فى قلوبكم وأكل الغلّ أفئدتكم أبيتم واستكبرتم وأخذتم تعيبون الكتاب وتسخرون من القول ، والقسم الآخر متواضع لايتعالى عن الحقّ فيقبله ويسعى للنجاة من الجهل ، والاثم ، والعار ، والهلاك فى الدنيا والآخرة ، واذا سمع الأمثال اتعظ بها فهو من المفلحين .

أقول : ولأضرب لك مثلا تتبين منه اختلاف مشارب الناس فى الفهم ، فاعلم أن مايراه الانسان فى كلّ يوم من الأحوال الانسانية وغيرها فيه علوم جمة لمن تفكر وتدبر .

فتفكر فى حال امرأة جميلة فترى للناس فى شأنها طرقا شتى ولأذكر لك شيئا من هذه الطرائق فأمّها تنظر اليها نظر الاشفاق والعطف والودّ والحنان والرأفة والحزن لحزنها والفرح لفرحها ، وأبوها ينظر اليها نظر المساعدة الأبوية ، والأخ أقلّ منه ، وابنها نظره اليها من قبيل الالتجاء والاستعانة ، وأنها حصنه ومأواه

ومرجعه ، وزوجها ينظر اليها نظرة أخرى بامتزاج المصالح والمشاركة والمعاونة ، وخاطبها القديم ينظر اليها نظرة الحسرة والحرمان والغيرة والندامة وما أشبه ذلك ، فهذا مثل ضربته مما يراه الناس ، فهكذا كل حكمة وعلم ومحس ومعقول يدركها الناس على درجات شتى لاحصر لها ، وهذا سر الوجود ، فالأمثال التى جاء بها الأنبياء وورد بها القرآن يعتورها مايعترى الموجودات من اختلاف النظر ، فينظر الجاهل استهزاء ، وينظر العاقل اعتبارا ، ولقدورد من الأمثال نحوذلك من كلام العرب مثل : أسمع من قراد ، وأطيش من فراشه ، وأعز من مخ البعوض ، واذا اختلفت الانظار فى كلام الله كغيره لاجرم يضل به قوم ويهتدى به آخرون ، كماأن من النبات مايقتل ، ومنه مايشفى ، ومنه مايغذى ، وهو من فعل الله ، والقرآن من كلامه فكما يضر الله بالسم ، ويشفى بالسنا ، ويغذى بالحنطة يضل قوما بالقرآن اذا نقص استعدادهم وخبثت نفوسهم كما يمرض الرجل بشرب الشهد اذا كان محموما ويزيد الضعيف المعدة مرضا بالامتلاء من اللحم والمآكل الغليظة وشرب الماء المثلوج ، ومثال ذلك فى القرآن أن يقرأ أربعة علماء هذه الآية « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » ، ثم تطرح أمامهم ، مسئلة السلاح فى الحرب ، فيقول أحدهم ان لنا فى رسول الله أسوة حسنة فلا نخالفه ورسول الله انما حارب بالسيف والرمح فحرام علينا أن نغير سلاحه ، كما أخبرت بذلك عن بعض علماء التركستان منذ سنين إذ استفتاهم أمير بخارى فأجابوا بذلك ، وأفتوا بقتل التاجر الذى حضر من الروس إذ ذاك ، وقال ان لهم مدافع فلنقلدهم فحكموا بقتله فقتله الأمير ، ثم دخل الروس بعد خمس سنين ، ويقول الآخر : كلا فلنتوكل على الله والنبى ﷺ خلقه القرآن ، وقد أمره الله بالتوكل فعلينا أن نرضى بقضاء الله وقدره ، ويقول الثالث : كلا فلنقرأ البخارى وسورة يس ، وقد حصل ذلك فى بعض الحروب منذ عشرات السنين ، وهذان رأيان لذوى الكسل والبلاهة ، ويقول الرابع : كلا فالنبى ﷺ كان يحارب بالسلاح الذى يحارب به أعداؤه ، ولوأنهم حاربوا بالمدافع والطيارات لحاربهم بها ، وهذا هو الفقية النبيه ، فانظر كيف ضل ثلاثة واهتدى الرابع ، ولما كثر الضلال فى الأمة الاسلامية قل فيها النبوغ وساء مصيرها ، فليكن فيها المفكرون والمستبصرون والعقلاء المتدبرون ، فبذلك وحده تنجو من الخطر الداهم ، ولقد زارنى منذ عشرسنين أمير ، يقال له «جمال الدين» من مدينة مدراس على ماأذكر ومعه تراجمته ، فقال جئت لأسألك عن علم الجغرافيا والتاريخ فانى فتحت هناك مدرسة ، وقد حرم علماء الاسلام هناك أن يدرس هذان العلمان فعجبت كل العجب وكتبت له أن جميع العلوم والصناعات فرض كفاية على المسلمين ، فتى ترك المسلمون علما أو صناعة فالاثم واقع على جميعهم فى الدنيا والآخرة ، أمّا فى الدنيا فبالذلة والاختلال والاحتلال ، وأما فى الآخرة فبعذاب النار « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » وقوله « ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون » وقوله « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » وهذا انما جاء من نقص العلم فى بلاد الاسلام ، وهذا داخل فى قوله (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ومايضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهدالله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) ولما كان أولئك الفاسقون منهم من يمكن اصلاحه أعقبه موبخا على عدم التفكر بقوله فى .

(المقصد الخامس)

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۞

التفسير اللفظي

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ سبع سموات وهو بكل شىء عليم) ذكر الناس بما كان من عدمهم ، ثم حياتهم ، ثم يموتون ، ثم يحيون ، ثم يحاسبون ، هذه قصة الانسان ومبدؤه ومنتهاه . وقص قصة العلم ، فذكر الأرض وما فوقها ، والسماء وزينتها ونظامها ، وكيف كانت هذه العوامل الكبيرة مسخرة للانسان ، ساعية لسعادته وهنائه ؟ فهل يجمل به أن يكفر بالله ؟ وهل يحسن بمن كان عدما فأصبح موجودا وهيئت له السموات والأرض ، وخدمته الأعوام والسنون وأفرغت النعم عليه ، ولم يكن له مال ولا حياة ؟ هل يحسن به أن يكفر بالله ، ويقطع رحم الفضيلة ، وينسى المنعم ، ولا يشكر المتفضل ؟ وهل يليق أن يكون من الضالين والفاجرين .

وقوله (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا) تسجيل على المسلمين فى أنحاء المعمورة ، فياليت شعرى : كيف يخاطبنا الله بقوله « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » ونحن أجهل الأمم بالأرض والسماء ، وكيف تكون المعادن فى باطنها والجبال عليها والغابات والممالك ، وكيف تكون الكهرباء شاملة لأجزائها والاضواء والحرارة والخواص الطبيعية الكامنة فى هذه المخلوقات ، ونحن لا نعرف منها الا ما جادت به علينا يد الأمم الغربية ، فو الله ان العلوم التى كشفوها فى الأرض والسماء لتسجل علينا الخزى والعار أمام الله والناس .

أيها الناس كيف يقرّ لكم قرار أو يكون عندكم اصطبار وربكم يخاطبكم ، فيقول « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » وأنتم لا تملكون قطميرا . منها المرجان النابت فى البحر فى يد غيركم ، والدرّ يصطاده سواكم ، والغابات لغيركم ، فهل ظننتم أيها الناس أن الموجه له كاف الخطاب : هم أمم الفرنجة ، فيقول (هو الذى خلق لكم) يا أمم الفرنجة : أو لستم داخلين فى كاف الخطاب : أليس من العار عليكم أن تجهلوا نعمة ربكم ، ولعمرى ان هذا لكفر للنعمة وقلة عقل وغاية الجهل ، وكيف نقول : انا لله شاكرون ، والشكر انما يكون باستعمال العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، والله قد صرح لنا بقوله : خلقت لكم ما فى الأرض جميعا ، واذا أنعم عليه الملك بنعمة فحقرتها كان غضبه عليك شديدا ، وها هو ذا إلهنا لما رأى اعراضنا عن نعمه فازدريناها ونسيناها وتجاهلناها غضب غضبة ، فسلط علينا الأمم ، وهذا جزاء الكافرين بالنعم ، ألم يأن لكم أن تخشع قلوبكم لذكر الله ، وما نزل من الحق ، أفيقوا أيها المسلمون من غفلتكم واستيقظوا من رقدتكم ، واعلموا أن ما فات فات وانقضى ، وأن الزمان قد استدار وستكونون علماء بهذا الوجود ، وستنالون منه حظا عظيما بفهم القرآن « ليظهره على الدين كله ، فاستبقوا الخيرات » وانظروا فى الأرض وما حوت ، والسماء وما وعت ، وتأمّلوا ما أتلو عليكم فى مسئلة السموات : إذ قال تعالى (ثم استوى الى السماء فسوّاهنّ سبع سموات ، وهو بكل شىء عليم) .

ايضاح هذا المقام

الكلام على السموات السبع

اعلم أننا على هذه الأرض محبوسون مغمورون فى حمأتها تحيط بنا أنواع الآلام والشهوات ، فتحجبنا عن معرفة العوالم وادراك حقائقها والتفرج على عجائبها . ولما كان عالم السموات أعظم مانشاهد ، وفيه أنواع

الجمال والضياء والبهجة والحسن : اتجهت إليه أنظار العقلاء ورجال الدين . وأقدم ماوصل الينا من العلم بذلك ماذكره اليونان وقفى على آثارهم علماء الأسكندرية أيام البطالسة واستقرت آراء هؤلاء على أن الأرض فى مركز العالم ، وأن القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشترى وزحل سيارات حولها ، وكل واحد منها فى فلك دائر حول الأرض من الشرق الى الغرب ، فأمّا السيارات فان لها سيرا خاصا بها ، تسير الى جهة الشرق عكس الحركة اليومية للأفلاك السبعة ، وتكون تلك الكواكب على أفلاكها أشبه بنملة دائرة على عجلة تسير فى طريق يخالف سيرها ، وبهذه الحركة الكوكبية يكون شهر القمر وسنة الشمس وسنون لسائر الكواكب ، ويقولون ان هناك فلكين آخرين يحيطان بالأفلاك السبعة ، وهما فلك الثوابت فالأطلس وقالوا نحن علينا أن نفرض فلكا ثامنا لتكون فيه الكواكب الثابتة ، وفلكا تاسعا يكون مبدأ الحركة اليومية ، وأما ترتيب الأفلاك على هذا المنوال فله أدلة مطولة لكنها ضعيفة جدّا ، حتى ان فلك الشمس لما جعلوه رابعا شبهوه بشمس القلادة فى جيد الحسناء لأنها تكون فى الوسط ، وأما بقية الأفلاك ، فقد يستدلون عليها بأن الكوكب الأسفل يكسف الأعلى ، والكاسف يكون تحت المكسوف هذا ملخص علم أولئك العلماء ، ولقد ظهر أثر هذا فى إنجيل (برنابا) وهو أقرب الأناجيل الى الحقّ .

قال المسيح : الحق أقول ان السموات تسع موضوعة بينها السيارات التى تبعد إحداها عن الأخرى مسيرة رجل خمسمائة سنة ، وكذلك الأرض على مسيرة خمسمائة سنة من السماء الأولى ، ولكن قف عند قياس السماء الأولى التى تزيد عن الأرض برمتها كما تزيد الأرض عن حبة رمل وهكذا تزيد السماء الثانية عن الأولى والثالثة عن الثانية ، وهلم جرّا حتى السماء الأخيرة كل منها تزيد عما تليها ، والحق أقول لك ان الجنة أكبر من الارض برمتها والسموات برمتها كما أن الأرض برمتها أكبر من حبة رمل ، ثم قال فى الانجيل حينئذ جاء الملاك جبريل ليسوع وأراه مرآة براقة كالشمس رأى فيها هذه الكلمات : لعمرى أنا الأبدى كما أن الجنة أكبر من السموات برمتها والأرض ، وكما أن الأرض برمتها أكبر من حبة رمل هكذا أنا أكبر من الجنة بل أكثر كثيرا من ذلك عدد حبوب رمل البحر وقطرات الماء فى البحر وعشب الأرض ، وأوراق الأشجار ، وجلود الحيوانات . بل أكثر من ذلك كثيرا عدد حبوب الرمل التى تملأ السموات والجنة بل أكثر اه ؟ هذا ما فى كلام القدماء وما فى الانجيل ، ثم ان فلسفة اليونان نقلت الى العربية على يدى الفارابى والشيخ الرئيس ابن سينا ، وقررت أن الأفلاك تسعة ، فوثق بذلك علماء الاسلام الذين درسوها ، وقالوا هى سبع سموات والكرسى والعرش فالسموات السبع تقدّم ذكرها ، والكرسى فلك الثوابت ، والعرش هو الفلك المحيط الذى به الحركة اليومية لسائر الأفلاك وبها الشروق والغروب .

مضت قرون فاستيقظ أجلة العلماء وكبار الحكماء من الأمة الاسلامية ورأوا أن هذا المذهب باطل لمخالفته الشرع والعقل . وقالوا ان القول بأن السموات سبع فى القرآن ليس حاصرا ، فالعدد ليس له مفهوم ، فاذا قال رجل : عندى فرسان لاينافى أن يكون عنده ألف ، وهذه الافلاك القديمة لا يمكن فناؤها عندهم ، وكذلك الكواكب ، وهذا يخالف العقل والدين معا . وقالوا ان الأرض تدور حول نفسها ، وليس هناك فلك أطلس ولاغيره ، وإنما هذه الكواكب دائرات فى الفضاء .

وهذه الآراء كانت فى القرن السادس والسابع أيام انقراض الدولة العربية وظهور الدول التركية وغيرها .

ولقد كان ذلك توطئة للرأى الحديث الذى ملأ الآفاق وعرفه الخاص والعام ، وملخصه :

أن هذه العوالم كلها من شموس وأقمار وأرضين كانت فى قديم الزمان كالدخان المنتشر سريعة الحركات فبسرعة الحركة آلاف آلاف من السنين تكوّنت الشموس ودارت ملايين من السنين ، ثم انفصلت عنها

السيارات وشمسنا إحدى تلك الشموس ، فولدت عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، والمشترى ، وزحل ، وأورانوس ، ونبتون ، فهذه ثمان سيارات ، ثم انهم وجدوا بين المريخ والمشترى نحو ٦٠٠ نجمة صغيرة جدا ولو اجتمعت كلها لم تصل لمقدار جرم القمر ، وأكبرها المسماة (سرس) لايزيد قطرها عن خمسمائة ميل و بعضها لايزيد قطره عن عشرة أميال ، وربما كان هناك نجمات أصغر منها لا يمكن رؤيتها .

ثم ان هـذه السيارات تدور حول الشمس ، فعطارد يتمّ دورته فى ٢٨ يوما من أيامنا ، والزهرة فى ٢٢٦ ، والمريخ فى ٣٢١ ، والأرض فى سنة ، والمشترى فى ١١ سنة و ٣١٣ يوما ، وزحل فى ٢٩ سنة و ١٦٧ يوما وأورانوس فى ٤٨ سنة و ٧ أيام ، ونبتون فى ١٦٨ سنة و ٢٤٨ يوما ، و يظن أن هناك سيارات أخرى حول الشمس لم تظهر .

ومن عجائب العلم وغرائبه : أن علماء العصر الحاضر بحثوا عن تلك النجيمات الصغيرات التى بين المشترى والمريخ بحسب القاعدة التى وضعوها لبعد السيارات عن الشمس فانهم رأوا أنها هكذا :

	العدد	يضاف اليه	يكون المجموع	يضرب فى	٩	مليون ميل
عطارد	٠	٤	٤	× ٩	= ٣٦	»
الزهرة	٣	٤	٧	× ٩	= ٦٣	»
الأرض	٦	٤	١٠	× ٩	= ٩٠	»
المريخ	١٢	٤	١٦	× ٩	= ١٤٤	»
....	٢٤	٤	٢٨	× ٩	= ٢٥٢	»
المشترى	٤٨	٤	٥٢	× ٩	= ٤٦٨	»
زحل	٩٦	٤	١٠٠	× ٩	= ٩٠٠	»
أورانوس	١٩٢	٤	١٩٦	× ٩	= ١٧١٤	»
نبتون	٢٨٤	٤	٢٨٨	× ٩	= ٢٥٩٢	»

هذه هى أبعاد السيارات عن الشمس : أى انها منظمة تنظما تقريبيا ، فاذا بعد عطارد عنها ٣٦ مليون ميل ، فقد فرضوا أن بعده ٤ بعد الصفر وهكذا الزهرة ٣ ، والأرض ٦ ، والمريخ ١٢ بطريق التضعيف ويضاف لكل ضعف ٤ ، وهذا العدد يضرب فى ٩ مليون ميل ، فلما وصلوا الى مابين المريخ والمشترى وجدوا هناك مكانا خاليا ، فكان يجب أن يكون فيه كوكب ، فلما وجدوا تلك النجمات المتقدّمة ظنوها شظايا من تلك النجمة البائدة ، واعلم أن هـذه الأرقام الدالة على الأميال تقريبية ، فان بعـد الزهرة ٦٧ و بعد الأرض ٩٣ ، و بعد المريخ ١٤٣ ، و بعد المشترى ٤٨٤ ، و بعد زحل ٨٨٧ ، و بعد أورانوس ١٧٨٢ و بعد نبتون ٢٧٩٢ ، وهى تختلف عن الجدول السابق قليلا ، وهذه الأعداد ملايين الأميال .

واعلم أن الزهرة وعطارد هما السياران الأدنيان ، لأن فلكهما ضمن فلك الأرض ، أما بقية السيارات فتسمى السيارات العليا ، لأن فلكها خارج عن فلك الأرض : هذا ما أردت ذكره فى المجموعة الشمسية .

أما الكواكب الثابتة ، فانها لايحصر عددها إلا الله ، ولقـد بحثها العلماء فوصلوا منها إلى معرفة مئات الملايين بالمنظار المعظم ، وبالآلة الراسمة المسماة فتوغرافيا .

واعلم أن نور الشمس يصل إلى الأرض فى ٨ دقائق و ١٨ ثانية ، ولو أن أسرع قطار جرى من الأرض إلى الشمس ليلا ونهارا لم يتمكن من وصوله اليها فى أقل من ثلثمائة وخمسين سنة ، وأنا ذكرت لك هذا لتعلم مقدار عظمة الله عز وجل ، وتفهم ماسأذكره لك فى أبعاد النجوم الثوابت .

واعلم

واعلم أن نور الشمس يسير فى الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل وفى السنة ٦ بليون .

واعلم أن أقرب نجم يصل نوره إلينا فى ٤ سنين نورية ، فاذا كان ضوء الشمس يصل لنا فى ٨ دقائق و ١٨ ثانية و بعدها عظيم جدا ، فمابالك بأقرب كوكب ثابت وهو ٤ سنين ، وأين ٨ دقائق من ٤ سنين ومن الكواكب مالا يصل ضوؤه إلينا فى أقل من ألف سنة نورية ، والشعرى العبور يصل ضوؤها إلينا فى ٩ سنين نورية ، والنسر الطائر يصل ضوؤه الينا فى ١٤ سنة نورية ، والنسر الواقع فى ٣٠ سنة ، والعيوق فى ٣٣ سنة ، والسماك الرامح فى ٥٠ سنة ، واعلم أنهم قسموا الكواكب الثابتة باعتبار ضوئها ، فما كان منها أضوأ سموه القدر الأوّل ومايليه القدر الثانى ، والقدماء أوصلوها الى ستة أقدار ، والمحدثون أوصلوها الى ٢٠

فالقدر الأوّل ضوؤه كامل ، وعدد نجومه ٤ منها : الشعرى العبور ، والنسر الواقع ، والسماك الرامح .

والقدر الثانى عدده ٢٧ نجما ، ومنها سعد السعود .

والقدر الثالث عدده ٧٣ نجما منها الفرقدان .

والقدر الرابع عدده ١٨٩ ، والقدر الخامس ٦٥٠ ، والقدر السادس ٢٢٠٠ : وهكذا يتزايد العدد ويقل الضوء ، فيكون القدر العشرون ٧٦ مليونا وضوؤها ضعيف جدا ، ومجموع الذى علمه نوع الانسان الى الآن ٢٢٤ مليونا من النجوم . وسيأتى فى بقية أجزاء هذا التفسير فى الطبعة الأولى ان الكشف أظهر أضعاف أضعاف هذه النجوم بعد طبع هذه السورة اهـ

هذا هو الذى عرفه الانسان من السموات . فقايس رعاك الله بين ماذكره علماء الأسكندرية وماجاء فى انجيل برنابا ، و بين ماعرفه الانسان الآن . ان عظمة الله تجلت فى هذا الزمان ، ألاترى الى ماجاء فى الانجيل مما أشبه كلام القدماء أنّ بين كل سماء وأخرى خمسمائة عام . وذكر ان السموات تسع ، وهى عند المسلمين سبع يزيد عليها الكرسى والعرش ، فيكون مجموع المسافات ٤٥٠٠ سنة بسفر الانسان ، وهو قدر يسير جدّا بالنسبة لما عرف الآن . ألا ترى أن هذه المسافة يقطعها الضوء فى أقل من أربع دقائق ، فكأن ملك الله المعلوم للناس فيما مضى لايزيد عن نصف المسافة بيننا و بين الشمس البالغة ٨ دقائق وثوانى ، وأىّ شىء بعد الشمس ، ان بعدها يسير جدّا ، ان الشمس لقريبة ، وأين ثمان دقائق من ٤ سنين التى هى لأقرب كوكب ثابت ، بل أين بعدها من بعد الكوكب الذى يستغرق ألف سنة فى وصول ضوئه الينا [تاهت العقول ، وزاغت الأبصار ، وحارت الأفكار] فأين ماذكره الأقدمون من عظمة الله تعالى التى عرفت ، وانك لو أردت أن تعرف مقدار الزمن الذى يصل فيه ضوء الكواكب الينا ، ونحن نشاهدها كل ليلة لم تشك أن كثيرا منها سافر ضوؤها الينا قبل خلق الأرض حتى وصل الى أعيننا الآن ، ومنها كواكب قد بادت وهلكت قبل خلق الأرض واندرست معالمها ومع ذلك نحن الآن نشاهد ضوءها الذى أرسلته قبل خفائها ، وهو مسافر الينا . إذن ماجاء فى الانجيل المذكور المبنى على علم علماء الاسكندرية أصبح لاقيمة له بالنسبة للكشف الحديث الذى يوافق القرآن ، إذن دين الاسلام صار الكشف الحديث موافقا له ، وهذه معجزة جديدة جاءت فى زماننا .

أسئلة وردت على المؤلف

ولما وصلت الى هذا المقام زارنى عالم فاضل ، فاطلع على ما كتبته فسرّ . وقال لله درك ، فقد أثبتّ جلال الله وجماله وعجائب صنعه ، ولكنك فى الحال قد خالفت القرآن ، فقلت وكيف ذلك ؟

قال انك ترى أن الكواكب تسير فى الفضاء ، لأن هذا هو الرأى الحديث . فقلت ان من يقول ان الكواكب تسير فى الفضاء ليس عالما بالرأى الحديث ولا القديم . أما القدماء فانهم أثبتوا أنه لافضاء موجود . وقالوا ان الخلاء مستحيل لأننا اذا تصوّرنا مكانا خاليا لايخلو : اما أن نتصوّره مضيئا . أو مظلما : والضوء والظلمة

إما عرضان . أو جوهران . أو أحدهما عرض والثاني جوهر ، فان كانا جوهرين فبها ، وان كانا عرضين فالعرض لايقوم الا بجوهر ، وان كان أحدهما عرضا والآخر جوهرا ، فالأمر واضح ، فثبت أنه لافراغ موجود فى الكون .

وأما المحدثون فقالوا ان الضوء يصل من الكواكب الى الأرض ولابدّ أن يكون محمولا على جرم [وعلى هذه النظرية اخترعوا التلغراف الذى لاسلك له] فثبت أنه لافراغ فى الكون عند القدماء ولا عند المحدثين فمن قال ان الكواكب تسير فى فضاء ، فانه جاهل بعلوم العالم أجمع ، وهم صغار الطلبة المغرورون ، فقال سلمت أن الكواكب تجرى فى أجرام موجودة ، ولكن كيف يقول الله إن السموات سبع ؟ فقلت له إذا أثبتّ وجود الجرم الأثيرى اللطيف الذى تجرى فيه الكواكب ، فما أسهل فهم القرآن . واعلم أن العدد ليس له مفهوم ، و به قال أكابر المفسرين والحكماء ، فاذا قال الله سبع سموات ، فليس ذلك بمانع أن يكون العدد أكثر ، واذا عرفت أن هذا الجرم اللطيف العجيب الممتد الى أمد ينقطع الفكر دونه ، ومجال لايصل اليه الوهم فيه من العجائب والبدائع والكواكب والمخلوقات مالايحصى ، فسواء أكان سبعا أم ألفا ، فذلك كله من فعل الله دالّ على جماله وكماله ، وهو تجلياته وأنواره المشرقة المتلألئة الفائضة من مقام القدس الأعلى متنزلة فى العوالم ، وكل كوكب من الكواكب الجارية له مدار خاص به ، وكل شمس من الشموس التى ذكرناها لها مدار خاص وسياراتها كذلك ، والله هو الفاعل المختار مفيض الخيرات والجمال والحسن والاشراق . قال الامام الغزالى : فى كتاب [تهافت الفلاسفة] .

[اذا ثبت حدوث العالم ، فسواء أكان كرة أو مثمنا أو مسدسا وسواء أكانت السموات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة كما قالوه أو أقل أو أكثر ، فنسبة النظر فيه الى البحث الالهى كنسبة النظر الى طبقات البصلة وعددها وعدد حب الرمان ، فالمقصود كونها من فعل الله فقط كيفما كانت] .

أقول : اياك أن يصدّك أيها الفطن لفظ سبع عن البحث والتنقيب ، فالعدد ليس بقيد وانظر الى هذا الجمال ، ولا تكن من الخائفين الجبناء الذين يظنون أن هذا ينافى القرآن ، أو تكون من المساكين الذين يلحدون ويكفرون لسماع مثل هذا اللفظ ، وذلك لسخافة عقولهم ، وقلة علمهم ، وهذان الفريقان من الذين قال الله فيهم (يضل به كثيرا) فقال صاحبى إذن أنت تؤيد المذهب الحديث ، فقلت له حاشا لله أن أؤيد حديثا أوقديما ، وانما القرآن طبقناه على المذهب القديم ، ثم ظهر بطلان ذلك المذهب وجاء الحديث ، فوجدناه أقرب إليه ، والافهو أعلى منهما وأعظم ، ومايدرينا أن يكون هناك مذاهب ستحدث فى المستقبل ، فهل القرآن كرة طرحت بصولجة ، يتلقفها رجل رجل كلا إنما هذا التطبيق الذى ذكرته ليطمئن قلب المسلم ، وليعلم أن عمل الله وصنعه لاينافى كلامه ، فالتطبيق للاطمئنان .

فقال : ولم كان المذهب الحديث أقرب إلى القرآن ؟ قلت

أوّلا : جاء فى القرآن « ويخلق مالاتعلمون » والمذهب الحديث أرانا سعة مخلوقاته وانها لاتدرك .

ثانيا : كان القدماء يقولون : الكواكب والأفلاك لاتفنى ، والرأى الحديث يقول : ان الكواكب تتجدّد وتفنى كالانسان والحيوان . وقالوا انهم رصدوا كواكب لاتزال فى طور التكوّن ، وذكروا منها نحو ستين ألفا وأن كواكب قد فنيت يقول الله « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات » ومنها ذلك الكوكب الذى بين المشترى والمريخ ، وصار كواكب صغيرة جدّا ، فهذا أقرب الى القرآن لقوله تعالى « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) .

فقال صاحبى : ماملخص مامضى ؟ فقلت

أوّلا : أن السماء يراها الناس واحدة .

ثانيا : ان الدين جعلها سبعة ، والفلاسفة جعلوها تسعة :

ثالثا : المسلمون القدماء جعلوا سبعة منها سموات ، والكرسى والعرش : هما الفلكان الباقيان اتباعا للفلسفة القديمة ، وانجيل برنابا تبعها ، فقال تسع سموات ، والمذهب القديم أبطل فبطل تبعاله ماجاء فى انجيل برنابا وما جاء عن العلماء الذين صدقوه من المسلمين .

رابعا : أن المذهب الحديث أبان أن عظمة الله فوق ماذكره القدماء ، وأصبح ما كان عند القدماء بالنسبة للعلم الحديث أشبه بذرة بالنسبة للأرض والجبال والبحار ، بل أقل كثيرا جدا .

خامسا : العالم لافراغ فيه ، فالسموات موجودة فعلا ببراهين القدماء والمحدثين .

سادسا : وهى سبع سموات وذلك حق لأنها طباق بعضها فوق بعض

سابعا : المذهب الحديث يثبت فناء العالم ، وفناء الكواكب ، وهو موافق للقرآن فهو معجزة له .

ثامنا : ان ماقلناه ليس القصد منه أن نخضع القرآن للمباحث ، فانه ربما يبطل المذهب الحديث كما بطل القديم ، فالقرآن فوق الجميع ، وإنما التطبيق ليأنس المؤمنون بالعلم ولا ينفروا منه لمخالفته لألفاظ القرآن فى نظرهم .

فقال صاحبى قد أفدت إفادة تامّة ، ولم يبق عندى إلا سؤال واحد ، وهو لم عبر الله بسبع سموات ولم يعبر بسماء واحدة مع أن الناس لم يروا غيرها ؟

قلت : اعلم أن الله لوذكر سماء واحدة لوقفت عقول المسلمين عليها ، ولم يبحثوا عن غيرها ، ولكنهم لماسمعوها أخذوا يقرءون فلسفة اليونان ، ثم قرأنا الفلسفة الحديثة ، فعرفنا نعمة الله وحكمته ، والتعبير بالسبع امتحان وابتلاء من الله لأنها تحير عقول الباحثين ، فمن كان مريض النفس ، صغير العقل ، ضئيل الفكر جبن وجزع وخاف . وقال : انى أخاف الله رب العالمين ، فلا يبحث فى العوالم ، ويظن أن الله يغضب على من بحث من المؤمنين فى جمال جلاله ، ومن قويت عزيمته ، وعلت همته ، وارتقت نفسه ، فانه يبحث ويعرف فعل الله عز وجل ، ويقول فى نفسه : ان هذا فعل الله ، وأنا أقرأ كلامه ، وكلاهما دال عليه . وقوله لايناقض فعله الا عند الجاهلين .

أما أنا فانى أبحث صنعته ، وبعد ذلك أطبقها على كلامه ، بهذا فليرتق المسلمون وليتعلموا ، فكم من ذكى مسلم قرأ العلوم الحديثة وكفر بالدين ظانا أنه نال من العلم ماجهله الأنبياء ، وكم من غبىّ مسلم اطلع على هذه المباحث فنفر منها لاعتقاده أنها تنافى الدين [والحق أقول] ان قليلا من الأذكياء المسلمين من يصدّقون بالدين مع العلوم ، وأكثر المصدّقين بالدين من الجهلاء وعلماء الدين . أما أكثر المتعلمين العصريين ، فانهم يقولون : الدين شىء والعلوم شىء .

ولقد أفضت فى هذا المقام لدقته على الأفهام ، ولأنه فى أعظم النعم الالهية التى أنعم الله بها على الانسان وقد كفر بها مع وضوحها وظهورها ، فلذلك أعقبها بالكلام على قصة آدم فى المقصد السادس .

(المقصد السادس)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿

التفسير اللفظي

يقول تعالى (و) اذكر يا محمد (إذ قال ربك للملائكة) الأرضيين أوعموم الملائكة (إني جاعل في الأرض خليفة) وهوآدم ، وهكذا الأنبياء فهم خلفاء الله في سياسة العباد وهدايتهم لبعدمراتبهم عن الفيض الالهي فكان الأنبياء واسطة القبول من الحق والايصال للخلق كما كان الغضروف موصلا للعظم الغذاء الذي يعجز اللحم أن يوصله إليه لتباعد ما بينهما من المناسبة (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء) فتجعل أهل المعصية مكان أهل الطاعة (ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك) التسبيح : تبعيد الله عن النقصان ، من سبح في الماء والأرض ، وكذلك التقديس من قدّس في الأرض : اذا ذهب فيها وأبعد (قال إني أعلم مالاتعلمون) أعلم أن فيهم من يعبدني و يطيعني (وعلم آدم الأسماء كلها) تعليمه الأسماء كلها بأن خلق من أجزاء مختلفة وقوى متباينة وهو مستعدّ لادراك أنواع المدركات من المعقولات ، والمحسوسات ، والمتخيلات ، والموهومات ، وألهمه المعرفة والاختراع ، وسائر الصناعات ، وهو متى عرف الألفاظ كلها عرف المعاني كلها (ثم عرضهم على الملائكة) أى عرض المسميات على الملائكة وقال لهم تبكيتا (أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) فمن لم يقدر على معرفة مراتب الأشياء لايستحق أن يكون خليفة عليها (قالوا سبحانك لاعلم لنا إلاماعلمتنا) وهو اعتراف بالعجز ، وأمر آدم أن ينبئهم بأسماء الأشياء كلها ، فلما أعلمهم (قال) الله لهم (ألم أقل لكم) الخ وقوله (وأعلم ماتبدون) أى من قولكم «أتجعل فيها من يفسد فيها» (وما كنتم تكتمون) من قولكم انكم أحق بالخلافة (و إذقلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) سجود الملائكة لآدم تسخيرهم وانقيادهم للسعي لمنافع

آدم و بنيه فيما يكفل معاشهم فسجدوا وامتنع إبليس لأنه لايلهم بالخير كالملائكة ولا يسعى فى المنافع المعاشية فأبى امتنع باختياره ، وكان كفره فى علم الله ، ثم أمر آدم أن يسكن فى الجنة هو وزوجته وأن يأ كلا رغدا واسعا حيث يشا آن ، ونهيا عن الاقتراب من شجرة لايهمّ تعيينها للناس فحملهما الشيطان على الزلة بسببها (فأخرجهما مما كانا فيه) من الكرامة ، فأمر آدم وحوّاءوذرّيتهما بأن يهبطوا إلى الأرض وهم متعادون ولهم فى الأرض موضع استقرار وتمتع إلى وقت الموت (فتلقى آدم من ربه كلمات) .

منها أنه قال يارب : ان تبت وأصلحت أراجعى أنت إلىالجنة ؟ قال نعم فتابآدم فتاب الله عليه أى رجع عليه بالرحمة ، وقوله (فمن تبع هداى) الى آخره أى بانزال الرسل (فلاخوف عليهم) الى آخره ، و بقية الآيات واضحة انتهى التفسير اللفظى .

الايضاح

ماأعجب هذه الآيات وماأبدعها أنا الآن فى أوّل سورة قرآنية من حيث النظام والترتيب ابتدأ بآدم أبى البشر وجعله مبدأ لنظام الانسان وتعجب لِمَ يتقدّم عليها غيرها ولم يصدر القرآن من السير الا بها ولعلك تقول انها قصة أبيهم والأب مقدّم طبعا فقدم وضعا . أقول هذه أدلة المصنفين المحدثين ، وأجوبة بعض الخلف الجاهلين . وليست هذه النكات الصغيرة المبتذلة الضئيلة تليق برب الأرباب العالم بالجزئيات والكليات ، فاصغ لما أقول وارعه حق رعايته واعلم أن هذه القصة نموذج علم الأخلاق والحكمة . ولنقدّم لك مقدّمة فنقول .

اعلم أن الحكمة تنقسم إلى علمية وعملية ، والعلمية الرياضيات والطبيعيات والالهيات ، والعملية سياسة الشخص والمنزل والمدينة ، والطبيعيات قدم وصفها فى خلق الأرض والسماء والالهيات تلازمها ملازمة العرض للجوهر والظلّ للشبح والنتيجة للمقدمة والملزوم للازم . فأما الحكمة العملية وهى تدبير الشخص والمنزل والمدينة فلها أصول ثلاثة فى الانسان : وهى القوّة الشهوية . والقوّة الغضبية والقوّة العقلية ، فبالشهوة الطعام والشراب والتزوّج وبالغضبية الاقدام والحرب والكفاح والكبر والعجب والحسد وما أشبهها ، وبالقوّة العقلية الحكمة والعلم . ومن أعجب العجب أن تشتمل قصة آدم على هذا العلم بحذافيره ، ألم تر إلى حسد ابليس وطغيانه وتكبره واستعظامه واستطارة شرر النار من كبريائه وعظمته ، وكيف كان ذلك قبسا من القوّة الغضبية ، وشررا من نارها ولهبها ، وسعيرا من جهنمها ثم كيف حرم آدم وحواء من الجنة بثمرة أكلاها وطردا منها بنار جوعة أطفآها واستمرآ مرعاها فخرجا منها نادمين وكانا فى الجنة منعمين ، أليس أوّلهما اشارة لغضب الانسان ، وثانيهما لشهواته . وأما العلم فقد سطع نوره ونجم كوكبه و بزغت شمسه فى منازل قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة) نعم سخرت له السموات والأرضون والبرّ والبحر والروض والقفر والجبل والسهل فعلم الأسماء والصفات وخواص المخلوقات ليعرفها وتنفعه . ولذلك يقول (وعلم آدم الأسماء) الخ وحرىّ بمن سخرت له الافلاك وقامت بنظامها الاملاك ومن سجدت له العوالم سجود تسخير وقامت له تعظيما بالتدبير أن يتحلى بالعرفان ليفهمها و ينطق باللغات و ينظمها دعت حاجته الى العوالم فعرّفها له مبدعه فصوّرتها العقول وخزنتها القلوب ونطقت بها الألسن والشفاه فههنا ظهرت عجائب القرآن و بدائع الفرقان وكيف كان هذا القصص مبدأه انها لآية بديعة وحكمة عجيبة تدعو للنظر فى علم الأخلاق والبحث فى أغوارها والتنقيب عن أسرارها .

الله والملائكة وآدم خليفته

اعلم أن فى هذه القصة عجبا عجيبا ، ذلك أنه ذكر الربّ والملائكة وآدم وأنه خليفة فى قوله (واذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) فنحتاج أن نبين آدم وخلافته والملائكة فنقول : ان معرفة

الله عزّ وجلّ وملائكته تجلّ عن العقول ، وتدق عن الأفهام ، وليس يتمّ ذلك للانسان إلا بمثال يعرفه ، وشاهد يعقله ، ويحس به من نفسه لأننا فى هذه الدنيا محجوبون عن الملأ الأعلى ، وأقرب الأشياء الينا أنفسنا فمن فكر فيها رأى شواهد تشير بطرف خفيّ إلى مافى هذا العالم المشاهد والمعقول ، لذلك كان الانسان خليفة الله ، ومتى أدركنا أنفسنا عرفنا خلافتها واقتربنا من فهم الملائكة وتدبير الله للخلق — ولقد اعتاد الفلاسفة أن يبينوا ذلك بشواهد كما قال سقراط لتلميذه وقد سأله ماالذى يعرّفنا أن فى هذه العوالم عقولا ؟ فأجاب أليس جسمك مركبا من موادّ ترابية ، وأخرى مائيـة ، وهواء وحرارة ؟ قال بلى : قال فاذا كانت تلك الأجزاء الضئيلة التى تركبت منها صحبها عقل وخامرها فكر فكيف يحرم من العقل والفكر تلك العوالم الكبيرة من الماء والتراب والهواء وعالم النور والنار : لاجرم أن من حكم بأن له عقلا وقد علم أنه من موادّ ضئيلة لايستكثر على الأصول التى تركب منها أن يحكم أنه يحيط بها عقل — أما فى القرآن هنا فقد ذكر خلافة الانسان لله والخلافة تحتاج إلى شرح طويل ، وعلم غزير ، وانى سألخص لك أيها الفطن هنا قليلا من كثير لتكتفى به خيفة السآمة والتطويل .

اعلم أن علماءنا السابقين شرحوا جسم الانسان ونفسه فجعلوه مشبها للعوالم المحيطة بنا والنفس متصرّفة فيه كما تصرّف الله عزّوجلّ فى العوالم فقالوا : ان الجسم أربع طبقات . طبقة تشبه الأرض . وأخرى تشبه الماء المحيط بها . وأخرى تشبه الهواء . وأخرى أشبه بضوء الكواكب واشراقها ، فاذا كانت الأرض أسفل والماء يحيط بها والهواء يحويه والضوء مشرق فوق الجميع سائر من الشمس والكواكب الينا هكذا نرى الرجلين والفخذين يستقر عليهما مافوقهما مما فيـه الماء المخلوط بغيره : وهى الأمعاء والمعدة وفوق ذلك الهواء الداخل فى الرئتين وفوق الجميع نور العينين وسمع الأذنين وشم المنخرين وذوق اللسان ولمس اليد ونور الفكر وهذه هى المشرقات اشراقا على الجسم للاحساس والادراك كاشراق أضواء الكواكب ، بل هى أرق وأشرف ، واذا كان فى هذه العوالم بخارات ورياح وسحاب وأمطار وحيوان ونبات ومعادن ، هكذا نرى أنه من هذا الجسد يخرج المخاط والدموع والبصاق وفيه الرياح والرطوبات فالجسد كالأرض وعظامه كالجبال والمخ كالمعدن والجوف كالبحر والأمعاء كالأنهار والعروق كالجداول واللحم كالتراب والشعر كالنبات ومنبته كالتربة الطيبة ومالا نبات فيـه كالأرض السبخة وتنفسه كالرياح وكلامه كالرعـد وأصواته كالصواعق وضحكه كالضوء وبكاؤه كالمطر وبؤسه وحزنه كظلمة الليل والنوم كالموت واليقظة كالحياة وأيام صباه كفصل الربيع وشبابه كالصيف وكهولته كالخريف وشيخوخته كأيام الشتاء ، هـذه نبذة من الكلام على جسمه وبنية هيكله : أما نفسه فاعلم أن للنفوس قوى كثيرة لايحيط بها العدّ ولايعرفها إلا مبدعها وهى مختلفات .

فترى أن النفس أشبه بملك له خمس فرق موكلات بالأخبار كل فرقة تأتى بأخبار ناحيتها لاتشاركها الفرقة الأخرى ولاتعاونها ولاتعرف عنها شيئا ، فترى حاسـة البصر تدرك الألوان والحركات والسكنات والظلمات والنور والكواكب البعيـدة والاجرام المشرقة والأذن لاتعرف شيئا عنها ولاتدرك إلا حركات الهواء المسماة أصواتا من حيوان أو نبات أو انسان أو غيرهما ، وحاسـة الشمّ التى فى المنخرين ليست تعرف صورا ولا أصواتا ، ولكنها تدرك الروائح المنبثة فى الهواء الجارية فى الأنف السارية فى الحاسة المتصلة بالمخ ، ثم حاسـة الذوق التى تعرف الطعوم من الحلاوة والمرارة والحموضة والملوحة والدسومة والعفوصـة والحرافة والقبوضة والعـذوبة ، وهى لاتعـلم شيئا من الصور والأنوار والأصوات والروائح ، ثم حاسة اللمس التى تدرك الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة ، وليست تعرف شيئا عما تقدّم ، وكلّ حاسة من هـذه توصل أخبارها إلى أولئك الوزراء والكبراء والعظماء الذين هم متعاونون متشاركون متحابون ،

فأوّلها

فأولها القوّة المتخيلة التى تجتمع عندها هذه الصور من المرئيات والمسموعات والمشمومات والمذوقات وتسلمها الى القوّة المفكرة لتحكم بينها ، ثم تجعلها فى خزانة الى وقت الحاجة ، وهى القوّة الحافظة ، ثم يأتى الترجمان وهو اللسان فيعبر عنها جميعها بكلمات ، ثم تأتى قوّة أخرى أشبه بالوزير للملك ، وهى القوّة الصانعة فى اليد بالكتابة والصناعة ؛ فانظر أيها الذكى وتعجب أفلست ترى أن النفس الانسانية ذات ملك وسلطان على عالم جسمانى وآخر معنوى ، والجسمانى شابه العوالم المحيطة بنا وكأنه نموذج لها ، ولست أقول إنى أبنت لك كلّ شيء ، ولكنك تستدلّ به على الباقى بفكرك ودراستك ، واعلم أن الذين لم يمارسوا العلوم لا يعقلون ماذكرت إلا تخيلا ولايدركونه إلا من وراء حجاب .

اجتماع خصائص الحيوان فى الانسان

ان لكلّ نوع من أنواع الحيوان خاصية طبع عليها ، وكلها توجد فى الانسان فتراه يطلب المنافع تارة بالبصبصة كالكلب والسنور ، وتارة بالحيلة كالعنكبوت ، وتارة بالغلبة كالأسد ، وتارة يفرّ من الهلاك كالأرانب والظباء والطير ، وقد يدفع بالسلاح كالقنفذ ، وقد يتحصن فى الأرض كالفأر والهوام ، وهو شجاع كالأسد ، وجبان كالأرنب ، وسخى كالديك ، وبخيل كالكلب ، وعفيف كالسمك ، ونفور كالغراب ، ووحشى كالنمر ، وأنسى كالحمام ، ومحتال كالثعلب ، وسليم كالغنم ، وسريع كالغزال ، وبطىء كالدبّ ، وعزيز كالفيل ، وذليل كالجمل ، ولص كالعقعق ، وتائه كالطاووس ، وهاد كالقطا ، وضال كالنعامة ، وماهر كالنحل ، وحليم كالجمل ، وحقود كالحمار ، وشموس كالبغل ، ومستحيل كالذئب ، ومضرّ كالفأر ، وجهول كالخنزير وغير ذلك ، وهذه كلها راجعة الى أخلاقه التى اكتسبها بالبيئة والتعليم والميراث وغير ذلك ، ثم اعلم أن القوى المنبثة فى الجسم السارية فى الأعضاء وأجزائها من اللحم والعروق والأعصاب والعظام والدم والشعر والظفر كثيرة لايحصيها الانسان ، وأنها جميعها متصلة بالمخ الذى هو عرش النفس وسرير ملكها ، ألا ترى أنه لو قطع عصب العين فلم يتصل بالمخ لم ير الانسان الأشباح مع سلامة عينه وصحة جسمه ، أولا ترى أن الذى به شلل لايحسّ بوخز الأبر فى العضو الاشل ذلك لقطع الصلة بين ذلك العضو وبين المخ . هذه هى صورة الانسان الحسية والمعنوية ، وهو الخليفة لله ، وبمعرفة هذا الخليفة تتصوّر بعض صفات المستخلف وتدبيره وملائكته ، النفس واحدة تشرف على الجسم كذلك الله واحد يشرف على العالم ، النفس لها طبقات يابسة وأخرى مائية ، وأخرى هوائية ، وأخرى مضيئة ، هكذا كان لله أرض وماء وهواء وشمس وكواكب : النفس لها حواسّ كل منها له عالم مخصوص من العوالم وليس يدرك أحدها العالم الآخر ، هكذا خلق الله عزّ وجلّ أمما ودولا وجعل ديانات ومذاهب ولغات مختلفات ، وأمما من الحيونات وكلّ يعمل على شاكلته ولا يدرى الآخر مالديه كما لايدرى عالم الماء ولا عالم الأرض عالم الكواكب الأخرى ولا عالم القردة مثلا عالم الفراش ، ونرى أهل الأرض لايعرفون سكان أى عالم آخر ، وكلها عاملة ناصبة راجعة الى ربها كما رجعت الحواس الى نفوسنا هذا ولا أطيل عليك فى تعداد تلك المشاكلات فعقلك يفكر ونفسك تستبصر ، واذا كان فى سائر أعضاء الجسد قوى لطيفة معنوية منبثة سارية فى جميع الجسم مرتبطة بالنفس المستوية على عرش الجسم فى المخ ، هكذا نقول لله ملائكة مأمورون مقابلة لتلك القوى فى أجسامنا ، وبيانه أنك ترى الطعام يصير فى المعدة كيموسا ، ثم ينقلب دما فلحما فعظما الخ ، وتصوّر هناك صور منتظمة بدقة كطبقات العين والمخ ودقائق تركيبهما ، وهذه تكون بقوى لطيفة ، هكذا جرى الكواكب والشمس والقمر ونحو النبات والحيوان كلّ ذلك بعالم خفى عن الأبصار يسمى ملائكة مرسلة من الله فى العوالم كما نبتت تلك القوى فى أجسامنا من

عند أنفسنا ، وكما أن النفس تحس بكل حركة فى الجسم وألم فى العظام وفكر فى النفس ، هكذا الله تعالى يحيط بالعالم و يعلم سرّه وجهره : واعلم أن هذا مجرد تنظير والافالله ليس كمثله شيء ، هذا ولأكتف بهذا القدر فقد أبنت لك كيف كان الانسان خليفة بما أبنت من تشابه جسمه ونفسه للعالم المنظور والملائكة وعرفت أنه مثال لعلم الله كل شيء وتدبيره للعالم ووحدانيته ، وذلك بما تحسه من نفسك ، وانما ذكرت لك هذا لتكون تبصرة وذكرى عند ماتصل الى آيات أخرى فى القرآن كقوله تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ، وقوله « بل الانسان على نفسه بصيرة » وكأن الانسان فى الأرض عالم صغير يضاهى هذا العالم الكبير ، ولذلك سمى خليفة ، فكانت الخلافة المذكورة هنا ليكون منها استنتاج التبصر فى عالم الملائكة ومعرفة الله والتبنى المحاورة المذكورة عليها ، وهى (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيهامن يفسد فيها و يسفك الدماء) الخ واعلم أن هذه الآية كما جمعت ملخص علم النفس والتشريح فى لفظ خليفة جمعت علم الاخلاق فى هذه المحاورة ، وهى (أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك قال انى أعلم مالا تعلمون) .

تفصيل الكلام على الملائكة

ها أنا ذا قد أبنت لك طرفا من علم التشريح وعلم النفس ، وذكرت لك أن القوى التى فى نفوسنا تمثيل للملائكة ، وهذا ليس دليلا وانما هو استئناس بضرب الأمثال والمشابهات ، ولأسمعك دليلا اقناعيا لايقينيا على وجود عالم الملائكة قبل ذكر آراء نوع الانسان من الأمم المختلفة والأجيال البائدة ، وهذا الدليل استنتجه العقلاء من المشاهدات ومن العوالم المحيطة بنا . انظر الى عالم المعادن والنبات والحيوان والانسان ، فانها كلما انحطت فى دركات الجهالة كانت منازلها فى الدركات السفلى ، وكلما ارتقت إلى عالم العقل كانت فى أوج الكمال ، نخذ الحديد مثلا انه أدنى مرتبة من الحشرات والديدان ، وهى أقل مرتبة من الآساد والنمور وهى أقل كمالا من القردة ، وهى أنقص من المتوحشين من بنى آدم وهؤلاء يعلوهم النابغون من نوع الانسان وهؤلاء يسوسهم العلماء والحكماء والانبياء ، وهؤلاء أرقاهم مقاما وأحلاهم كلاما ، ولاجرم أن ذوى الشهوات من الانسان يشاركون نظائرهم من الغزلان والخنازير فى مآربهم ، و يعلوهم رجال الجيش والجنود المقابلون لنظائرهم من الآساد والنمور . وهؤلاء يسوسهم الملوك والحكماء والأنبياء ، فانظر كيف ترقى العالم المشاهد من من حشرة إلى غزال إلى أسد إلى قرد إلى إنسان إلى حكيم عالم .

واذا كان العلم والحكمة أقصى ماوصل اليه نوع الانسان ، وقد وجدنا الطرف الأدنى من المواليد فى غاية الخسة أفلا يقال على سبيل القياس ان الطرف الاعلى فى غاية الكمال وهى الملائكة ، ولا بد أن تكون قوّة الكمال الادراكى تامّة فيهم كما انتهى النقص إلى نوع الجماد ، أوالى الدود الذى هو من أخس أنواع الحيوان وبالاجمال نقول انا وجدنا ههنا شهوة بلا عقل فى البهائم ، ووجدنا شهوة وعقلا فى الانسان ، أفلا نقول ان فى الوجود عقلا كاملا بلا شهوة تزرى به .

آراء أهل الديانات والحكماء فى الملائكة

فمنهم من ظنها أجساما هوائية لطيفة قادرة على التشكل باشكال مختلفة مسكنها السموات .

ومنهم : من ظن أنها هى المرسلات النحوس والسعود من الكواكب ، والكواكب أحياء ناطقة كالانسان : ومدبراتها هى الملائكة كتدبير نفوسنا لأجسامنا .

ومنهم : من يرى الظلمة عنصر الشياطين ، والنور عنصر الملائكة .

ومنهم : من يرى أن الملائكة هى الأرواح البشرية الصافية ، وأن الشياطين هى الأرواح الانسانية الخبيثة

اذا فارقا أبدانهما .

ومنهم : من يرى أنها هي المدة لنفوسنا الناطقة ونسبتها اليها كنسبة الشمس إلى ضوئها وهناك ملائكة مستغرقة فى معرفة الله ، ونسبتها إلى الأولى المدة للا فلاك ولنفوسنا : كنسبة الأولى إلى نفوسنا . وهناك مدبرات لأحوال العالم السفلى ، فان كانت للخير ، فهى الملائكة ، وإن كانت للشر ، فهى الشياطين .

فالقول الأوّل لبعض علماء الاسلام . والثانى لطوائف من عبدة الأوثان . والثالث قول معظم المجوس والثنوية . والرابع للنصارى . والخامس للفلاسفة ، هذا .

ومن الناس من قال لاسبيل إلى اثبات الملائكة بالعقل . ومنهم من قال انهم به ثابتون ، والفلاسفة على هذا ، وقد نذكر أدلة إقناعية . منها أن الصناعات البشرية لن تتقن إلا بصانع ذى عقل عالم بها . والعالم المشاهد حولنا فيه ذلك الاتقان : كالنبات والحيوان ، فلا بدّ من نفوس تصوّرت تلك المصنوعات ، ونفوس أخرى عامت تلك الصناعة ، فالأولى تسمى نفوسا . والثانية تسمى عقولا . وذلك كما فى أحوال الناس ان كل ذى علم أو صناعة لابدّ أن يكون له معلم أعلى منه أخرج مافى القوة منه الى الفعل .

ويقول أصحاب المجاهدات أنهم أثبتوها من جهة المكاشفة ، فهى فى حقهم يقين وفى حق غيرهم اقناع ، وقد يستدل بالرؤيا الصادقة .

ولقد رأيت دليلا فى كتاب يسمى « راجايوقا » بالانجليزية مترجما من الهندية . قال ان الناس يصدّقون أصحاب العلوم وان لم يمارسوها لعلمهم أنهم ان سلكوا سبيل أربابها ، وصلوا الى ماوصلوا اليه ، ألاترى أن علماء الطب موثوق بهم فى عالم الحيوانات الصغيرة المسماة (بالمكروب) التى تفتك بالاجسام . وتأتى بأمراض الحصباء والجدرى والطاعون : كذلك يصدقون علماء الفلك فى أبعاد ومقادير الكواكب وتحليلها بطريق الضوء ، هكذا يقال : فى أمر الملائكة ، فقد أجمع المصفون نفوسهم ، والمجاهدون من سائر الملل والنحل : أنهم كشفوا ذلك العالم وعرفوه ، ومن ذوى الحاجات من اعتقد ذلك بما وصل اليهم من بلوغ مقاصدهم عند الاستغاثة بتلك النفوس الشريفة . هذا ملخص ماقرأته من كلام أهل النظر . أما الدلائل النقلية فلانزاع أن الأنبياء متفقون على إثبات الملائكة ، فلنبسط الكلام عليها الآن ليرجع إليه عند الوصول الى مكرراتها . وحاصله أنها مسوقة لعلم الأخلاق المرموز له بكبر ابليس ، وحرص آدم ، وحسد قابيل الآتى فى سورة المائدة .

بيان علم الأخلاق من قصة آدم وقابيل وهابيل

ان الأخلاق أربعة أنواع لاتزايل النفس بعد مفارقتها البدن ، وهذه الأربعة هى :

الأخلاق المكتسبة المعتادة . العلوم التعليمية . الآراء المعتقدة . الأعمال المكتسبة بالاختيار والارادة .

والاولى منها وهى : الاخلاق المكتسبة تنقسم الى قسمين : رديئة وجيدة ، والأخلاق الرديئة جميعها ترجع إلى ثلاثة أصول . كبر ابليس ، وحرص آدم ، وحسد قابيل ، وهذه الخصال الثلاث أمّهات جميع الخبائث والمعاصى ، وبيانه :

أن الكبر من أشكاله ومشابهاته : عجب المرء برأى نفسه ، والأنفة عن قبول الحق ، وترك الاقرار به ، والتعدّى والخروج عن الحد والظلم والجور عند القدرة فى الحكومة ، وترك الانصاف فى المعاملة ، والتهاون فى الواجبات ، والاعراض عن اللوازم من الحقوق والقحة والصلابة فى الوجه فى دفع الحق والفحش والسفاهة فى الخطاب والجدال واللجاج فى الخصومات والحزن والنزق فى العشرة والحدة ، والبطش فى التصرف ، والغش والمكر فى المعاملة ، والاستصغار والاحتقار لأبناء الجنس ، والاستطالة عليهم ، والافتخار فى الأمور بما خص

من المواهب ، والانكار لفضل من فضل عليه ، والبغى والعدوان وماشابه ذلك . هذا باب الكبر .

أما الحرص وهو الخصلة الثانية : فمن أشكاله وأمثاله ومشابهاته : الطمع الكاذب ، وشدّة الرغبة ، والطلب الحثيث ، والعجلة فى السعى ، وتعب البدن ، وعناء النفس ، وكدّ الروح فى الجمع ، والادّخار ، والاستكثار ، والاحتكار من خوف الفقر ، والبخل ، والمنع ، والشح ، واللؤم ، والنكد ومايتبعهما من الشؤم والخذلان ، وقلة الانتفاع بالموجود ، والحرمان للمذخور ، والمضايقة فى المعاملة ، والمناقشة فى الحساب ، وسوء الظنّ بالأمين ، والتهمة للثقات المؤتمنين ، والخيانة فى الأمانة ، وطلب الحرام ، وهتك الحرم ، وارتكاب الفحشاء ، واضمار القلب على الاصرار ، واظهار الكذب ، والحيل فى أسباب الطلب من البيع والشراء ، والغش فى الأمتعة ، وقلة النصيحة فى الصنائع ، والحلف واليمين الكاذبة عند الاعتذار فى الحكومات ، وأقاويل الزور فى أسباب الخصومات والعداوة والتعدى فى الحدود وما شاكلها من الخصال المذمومة ، والأخلاق الرديئة ، والأقاويل الباطلة ، والأفعال القبيحة ، والأعمال السيئة . هذا باب الحرص وأخواته .

أما الخصلة الثالثة ، وهى الحسد : فمن أشكاله الحقد ، والغلّ ، والدغل ، وهذه تدعو الى المكاشفة بالعداوة ، والبغضاء ، والبغى ، والغضب ، والحرص ، والتعدّى ، والعدوان ، وقساوة القلب ، وقلة الرحمة ، والفظاظة ، والغلظة ، والطعن ، واللغو ، والفحشاء ، وهى تكون سببا للخصومة ، والشر ، والحرب ، والقتال إن أمكن جهرا ، و إلا كان بالحيل ، والخداع ، والغدر ، والخيانة ، والسعاية ، والغيبة ، والنميمة ، والزور ، والبهتان ، والكذب ، والمداهنة ، والنفاق ، والرياء ، فيكون سبب تشتيت الشمل ، وقطيعة الرحم ، والبعد من الاخوان ، ومفارقة الالف ، وخراب الديار ، ووحشة الوحدة ، والحزن ، والغم ، وألم القلب ، وهموم النفس وعذاب الارواح ، وتنغيص العيش ، وسوء المنقلب ، وخسران الدنيا والآخرة : نعوذ بالله من هذه الخصال انتهى ملخصا من اخوان الصفا .

وأنا أقول تعجب : كيف فصل علماؤنا الاخلاق السيئة والاعمال القبيحة ، واستنتجوها من كبر ابليس وحرص آدم وحسد قابيل ، وانظر كيف كانت قصص القرآن لغايات سامية وعلوم عالية .

هذه قصة آدم كيف تكرر ذكرها فى القرآن وجاء فى سور مختلفة ليتلوها المسلمون صباحا ومساء ، وغاية القصد منها تطهير النفوس ، وصفاء القلوب ، وسعادة الحياة ، واتحاد الأمّة بمحاسن الاخلاق ، فأما العامّة وصغار العلماء والقراء والفقهاء ، فانهم لاحظ لهم منها الا أن يسمعوها بصوت حسن و يعربوها ، و يعرفوا صرفها واشتقاقها وما حوته من البلاغة والفصاحة ، وأن القرآن معجز للبشر [وانى لعلى ظن أن أمّة الاسلام ستنظر عما قريب فى مقصود القرآن] من هذه القصص وعجائبها ، ومافى باطنها من طهارة الأخلاق وجمال الشمائل فلعمرى لم أر فى بلادنا المصرية شركة تجارة رائجة ، ولا معاملة صادقة ، ولا أمانة فى بيع وشراء الا قليلا .

وأرى أمم الفرنجة هم أصحاب الحل والعقد فى البلاد سياسة وتجارة ، فتجارتهم رابحة ، وسياستهم قائمة ، وترى أماكنهم نظيفة ، وأسعارهم محددة ، ووجوههم باسمة ، ووعودهم صادقة ، فعلى العلماء الاسلاميين أن ينفضوا غبار الكسل عن أنفسهم ، ويدعوا الأمة الاسلامية للأمانة والصدق والاخلاص ، وعدم الحسد ، وطهارة القلوب ، هذا هو الطريق المستقيم لسعادتهم فى هذه الدنيا ثم الأخرى ، ولقد رأيت بعض المصريين المسلمين قد أخذوا يصدقون فى الموعد والمعاملة ، وسيقوم فى الأمة ان شاء الله رجال صادقون يرقون الأخلاق وسيظهر فضل الاسلام فى أقرب زمن والسلام [ولما كان بنو إسرائيل] من أقدم الأمم ، وهم بنو آدم أخذ يشرح حالهم و يذم صنعهم ، وهم ما اعتبروا بما أنزل على آدم من العبر ، وهم يقرءون ذلك فى التوراة وما حلى جيدها الا تذكرة لليهود ، وليعلموا أن من عصى وتكبر زالت نعمته ، ودامت حسرته .

المقصد السابع ، وفيه فصلان

الفصل الأوّل

ما اقترفه قدماء بنى اسرائيل اليهود وما أوتوا من نعمة فلم يشكروها .

مما جاء فى التوراة فى سفر الخروج وانزال القرآن مصدقا ، وهى عشرة يواقيت

الياقوتة الأولى

نجاة بنى اسرائيل من عذاب المصريين فى قوله تعالى :

يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿ يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿

التفسير اللفظى

(يابنى اسرائيل) أى أولاد يعقوب ، واسرائيل لقبه ، ومعناه بالعبرية صفوة الله ، و يقال عبد الله أيضا ، (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) من المال والولد والصحة والحواس ، وانى أنجيت آباءكم من فرعون وأغرقته وعفوت عنهم بعد اتخاذهم العجل ، ثم انى أرسلت لكم محمدا مصدّقا للتوراة ، فتفكروا فى ذلك كله واشكروا النعمة بالقيام بما وجب فيها بالأعمال الصالحة والنصيحة ، والايمان بالنبى الذى أرسلته (وأوفوا بعهدى) بالايمان والعمل الصالح بما نصبت من الدلائل الكونية ، والمعارف الالهية ، وما أنزلت من الكتب السماوية لاسيما آخرها ، وهو القرآن (أوف بعهدكم) فأدفع عنكم ما أثقلكم من الأغلال ، وأحسن لكم الاثابة والكرامة والنعيم المقيم (وإياى فارهبون) فى كل ماتتركون وما تفعلون ، فراقبونى فى حركاتكم وسكناتكم ، والرهبة خوف يصحبه احتراس (وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم) وهو القرآن ، وهذا تخصيص

بعد التعميم اهتماما بشأنه لانه أهم ماعوهدوا عليه ، فهو أولى بالوفاء به بأن يكونوا به مؤمنين لانه مصدق للتوراة وللانجيل مطابق لأوصافه المذكورة فيهما ، وموافق لهما فى تحريم الحرام واباحة مايحل مع مراعاة الزمان فى السابق واللاحق ، وفى التوحيد ، ونصب الدلائل ، وطلب الاستقامة ، وهداية الناس (ولا تكونوا أوّل كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) ولما كنتم أهل نظر وكتاب ، وقد بشرتم برسولى وجب أن تكونوا أوّل فريق مؤمن به فلا تكفروا به ، فكيف تكونون أوّل من كفروا به من أهل الكتاب ، وكيف تشترون أى تستبدلون بالايمان عرض الدنيا من الهدايا والتحف التى تنالونها من الناس بسبب مانلتم من الرياسة عليهم فى الدين وعرض الدنيا قليل ، والايمان لايدانيه شىء عندى (واياى فاتقون) بالايمان (ولا تلبسوا الحق بالباطل) ولاتخلطوا الحق الذى أنزلته بالباطل الذى تخترعونه (وتكتموا الحق) الذى تعلمونه عن الجاهلين به (وأنتم تعلمون) أنكم قد لبستم وكتمتم ، فان سكتم فمن الحق حتى لايعرف ، وإن نطقتم أتيتم بالباطل لتدحضوا به الحق ، وأنتم تعلمون أنكم فى الحالين حائدون عن الصراط السوىّ (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) كما أمرتكم بالايمان بالنبى وبالقرآن آمركم أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، ولتكن الصلاة جماعة ، فانها أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة لاجتماع النفوس واتحادها ، فتكون أقرب الى الله (أتأمرون الناس بالبر) التوسع فى الخير (وتنسون أنفسكم) وتتركونها من البر (وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) كان أحبار اليهود ينصحون سرّا باتباع محمد ﷺ ويأمرون الناس بالصدقات ، أما هم فكانوا لايتبعونه خوفا على الرياسة ولا يتصدّقون خيفة الفقر ، والتوراة بين أيديهم. وفيها الوعيد الشديد على من ترك البر وخالف قوله فعله ، فهلا منعتهم عقولهم وصانتهم ألبابهم عما يعملون من مخالفة الأقوال للأفعال ، وليس المراد أن يمنع الفاسق من النهى عن المنكر ، كلا ، وإنما تجب مطابقة الأقوال للأفعال ، والا فنحن مأمورون أن نترك المعصية ، وأن ننهى عنها ، وليس ترك أحدهما بمانع من القيام بالآخر ، فالآية تحضنا على الجمع بين الأمرين لأنها تمنعنا عن أحدهما اذا تركنا الآخر ، واذا كنتم أيها الأحبار شق عليكم ترك الرياسة ، وخشيتم الذلة والفقر باتباع القرآن والايمان بمحمد ، فلتعلموا أن الصبر والصلاة بهما تنالون الفرج ، فالصابر المنتظر الفرج من الله الذى يدعوه سبحانه وتعالى يجاب لمطالب مادام مضطرا كما قال « أمّن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض » ، وذلك قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) فتكون الصلاة بمعنى الدعاء ، والدعاء مستجاب لمن صدقت نيته وعزيمته ، وقد يراد بهما الصوم والصلاة الشرعيان (وانها لكبيرة إلا على الخاشعين) أى وان الاستعانة بالصبر وانتظار الفرج والدعاء مع توجه الهمة لثقيلة إلا على المخبتين الخاضعين ، ويصح رجوع الضمير للصلاة (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون) أى يتوقعون لقاء الله تعالى (يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) وهذا ظاهر مما تقدّم (وأنى فضلتكم على العالمين) أى عالمى زمانهم : أى تفضيل آبائهم على عالم زمانهم أيام موسى (واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) أى لايقبل من النفس العاصية شفاعة الشافعين ، ولا يؤخذ منها فدية ، ولا ناصر ينصرهم . وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية لنفى الشفاعة عن مرتكب الكبيرة ، وخصها الجمهور بالكفار لما ورد من الآيات والأحاديث فى الشفاعة (واذ نجيناكم من آل فرعون) من فرعون وقومه وأصل آل أهل ، ولذلك يصغر على أهيل ، ويخص استعماله بأولى الخطر كالملوك وأشباههم . وقوله (يسومونكم) حال من آل فرعون : أى يولونكم ، وقوله (سوء العذاب) مفعول ثان ليسومونكم ، ثم أبان سوء العذاب بقوله (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) يتركون بناتكم أحياء للخدمة (وفى ذلكم بلاء من ربكم

عظيم)

عظيم) محنة عظيمة ، أو نعمة كذلك : اذا أريد صنع فرعون فى الأولى ، أو أريد الانجاء فى الثانية ، والبلاء الاختبار والامتحان ، وهو شائع فيهما انتهى التفسير اللفظى .

ايضاح المعانى

اعلم أن هذه الآيات فيها الكلام على العهد وعلى الشفاعة وعلى تفضيل بنى اسرائيل ، فلنبسط الكلام عليها . فنقول :

اعلم أن العهد الذى أمر اليهود أن يوفوا به ، إمّا أن يكون المقصود به فعل الطاعات واجتناب المعاصى ، وامّا أن يكون المراد به ما أثبت فى الكتب السماوية فى نبوّة سيدنا محمد ﷺ . ولقد ذكر تلك العهود المفسرون ، كالامام الرازى اذا ثبت ماجاء فى الفصل التاسع من السفر الأوّل من التوراة وتبشير الملك هاجر أن يكون لها ولد فوق الجيع . وماجاء فى الفصل الحادى عشر من السفر الخامس . وماجاء فى السفر العشرين من هذا السفر وماجاء فى كتاب أشعياء فى الفصل الثانى والعشرين . ولما نظرت فى التوراة وجدتها قد حذفت منها تلك العبارات وطاحت تلك البشارات ولم يبق من الكتب السماوية كتاب لم تمتدّ اليه أيدى المغيرين الا انجيل برنابا الذى كان سرا مكتوما عند النصارى قديما [وقد ترجمه حديثا الدكتور خليل بك سعاده من الانجليزية] ونشره صديقنا العلامة السيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار .

قال فى الفصل الثانى والسبعين قال يسوع : لاتضطرب قلوبكم ولاتخافوا لأنى لست أنا الذى خلقتكم بل الله الذى خلقكم يحميكم ، أما من خصوصى فانى قد أتيت لأهيئ الطريق لرسول الله الذى سيأتى بخلاص للعالم لكن احذروا أن تغشوا لأنه سيأتى أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامى و ينجسون انجيلى ، حينئذ قال اندراوس : يامعلم اذكر لنا علامة لنعرفه ، أجاب يسوع انه لايأتى فى زمنكم بل يأتى بعدكم بعدّة سنين حينما يبطل انجيلى ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمنا فى ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذى تستقرّ على رأسه غمامة بيضاء يعرفه أحد مختارى الله ، وهو سيظهره للعالم وسيأتى بقوّة عظيمة على الفجار و يبيد عبادة الأصنام من العالم ، وانى أسرّ بذلك لأنه بواسطته سيعلن و يمجد الله و يظهر صدقى وسينتقم من الذين سيقولون انى أكبر من انسان ، الحق أقول لكم ان القمر سيعطيه رقادا فى صباه ومتى كبر هو فليحذر العالم أن ينبذه لأنه سيفتك بعبدة الأصنام ، فان موسى عبد الله قتل أكثر من ذلك كثيرا ولم يبق يسوع على المدن التى أحرقوها وقتلوا الأطفال ، لان القرحة المزمنة يستعمل لها الكىّ .

وسيجىء بحقّ أجلى من سائر الأنبياء ، وسيوبخ من لايحسن السلوك فى العالم ، وستحيى طربا أبراج مدينة آبائنا بعضها بعضا ، فتى شوهد سقوط عباد الأصنام إلى الأرض ، واعترف بأنى بشر كسائر البشر فالحق أقول لكم ان نبىّ الله حينئذ يأتى .

وقال فى الفصل الثانى والثمانين : ثم التفت الى المرأة ، وقال أيتها المرأة انكم أنتم السامريين تسجدون لما لاتعرفون ، أما نحن العبرانيين فنسجد لمن نعرف ، الحق أقول لك ان الله روح وحق ، ويجب أن يسجد له بالروح والحق ، لأن عهد الله انما أخذ فى أورشليم فى هيكل سليمان لافى موضع آخر ، ولكن صدقينى أنه يأتى وقت يعطى الله فيه رحمته فى مدينة أخرى ، و يمكن السجود له فى كل مكان بالحقّ و يقبل الله الصلاة الحقيقية فى كلّ مكان برحمته ، أجابت المرأة : اننا ننتظر مسيا فتى جاء يعلمنا ، أجاب يسوع أتعلمين أيتها المرأة ان مسيا لابدّ أن يأتى ، أجابت نعم ياسيد حينئذ تهلل يسوع ، وقال يلوح لى أيتها المرأة انك مؤمنة فاعلمى اذن أنه بالايمان بمسيا سيخلص كلّ مختارى الله اذن وجب أن نعرف مجىء مسيا ، قالت المرأة لعلك أنت مسيا أيها السيد ، أجاب يسوع انى حقا أرسلت إلى بيت إسرائيل نبىّ خلاص ، ولكن سيأتى بعدى مسيا المرسل

من الله لكل العالم الذى لأجله خلق الله العالم ، وحينئذ يسجد لله فى كل العالم ، وتنال الرحمة حتى ان سنة اليوبيل التى تجىء الآن كل مائة سنة سيجعلها مسيا كل سنة فى كل مكان ، حينئذ تركت المرأة جرتها وأسرعت إلى المدينة لتخبر بكل ماسمعت من يسوع .

وقال فى الفصل السادس والتسعين : ولما انتهت الصلاة . قال الكاهن بصوت عال : قف يايسوع لأنه يجب علينا أن نعرف من أنت تسكينا لأمتنا ؟ أجاب يسوع : أنا يسوع ابن مريم من نسل داود بشر مائت ويخاف الله وأطلب أن لا يعطى الاكرام والمجد الا لله ، أجاب الكاهن انه مكتوب فى كتاب موسى : ان إلهنا سيرسل لنا مسيا الذى سيأتى ليخبرنا بما يريد الله ، وسيأتى للعالم برحمة الله ، لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق ، هل أنت مسيا الله الذى ننتظره ، أجاب يسوع حقا ان الله وعد هكذا ، ولكنى لست هو لأنه خلق قبلى ، وسيأتى بعدى ، إلى أن قال لعمر الله الذى تقف بحضرته نفسى انى لست مسيا الذى تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلا بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ، ولكن عند مايأخذنى الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله فيتنجس بسبب هذا كلامى وتعليمى حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا ، حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذى خلق كل الأشياء لأجله الذى سيأتى من الجنوب بقوة وسيبيد الاصنام وعبدة الاصنام وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر ، وسيأتى برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به ، وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا إلى أن قال : ولكن تعزيتى هى فى مجىء الرسول الذى سيبيد كل رأى كاذب فى وسيمتد دينه ، ويعم العالم بأسره لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم ، وان مايعزينى هو أن لانهاية لدينه ، لأن الله سيحفظه صحيحا وبعد أسطر قال حينئذ الكاهن : ماذا يسمى مسيا ، وما هى العلامة التى تعلن مجيئه ؟ أجاب يسوع ان اسم مسيا عجيب ، لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها فى بهاء سماوى . قال الله اصبر يامحمد لأنى لأجلك أريد أن أخلق الجنة ، والعالم وجماغفيرا من الخلائق التى أهبها لك ، حتى أن من يباركك يكون مباركا ، ومن يلعنك يكون ملعونا ، ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولى للخلاص ، وتكون كلمتك صادقة حتى ان السماء والأرض تهنآن ، ولكن إيمانك لايهن أبدا ، ان اسمك المبارك محمد ، حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : ياألله أرسل لنا رسولك ، يامحمد تعال سريعا لخلاص العالم .

وقال فى الفصل السادس والثلاثين بعد المائة : وبعد هذه السنين يجىء الملاك جبريل إلى الجحيم ويسمعهم يقولون يامحمد أين وعدك لنا ان من كان على دينك لا يمكث فى الجحيم إلى الأبد ، فيعود حينئذ ملاك الله إلى الجنة ، وبعد أن يقترب من رسول الله باحترام يقص عليه ماسمع ، فحينئذ يكلم الرسول الله ويقول : ربى وإلهى اذكر وعدك لى أنا عبدك بأن لا يمكث الذين قبلوا دينى فى الجحيم إلى الأبد ، فيجيب الله : اطلب ماتريد ياخليلى لأنى أهبك كل ماتطلب .

وقال فى الفصل السابع والثلاثين بعد المائة ، فحينئذ يقول رسول الله : يارب يوجد فى الجحيم من لبث سبعين ألف سنة أين رحمتك يارب ؟ انى أضرع إليك يارب أن تعتقهم من هذه العقوبات المرة ، فيأمر الله حينئذ الملائكة الأربعة المقربين لله أن يذهبوا إلى الجحيم ويخرجوا كل من كان على دين رسوله ويقوده إلى الجنة ، وهو ماسيفعلونه ، ويكون من مبلغ جدوى دين رسول الله أن كل من آمن به يذهب إلى الجنة بعد العقوبة التى تكلمت عنها حتى لولم يعمل عملا صالحا لأنه مات على دينه اهـ .

أقول : وهذا القول وأمثاله ان ثبت يكون مؤولا ، والا فالله عز وجل يعلم كل شىء ، ونحن انما نقلنا هذا لاثبات مارأيناه فى الانجيل .

وجاء

وجاء فى الفصل الثانى والاربعين بعد المائة قال : الكتبة والفريسيون لرئيس الكهنة ماذا نفعل لو صار هذا الرجل ملكا حقا ان ذلك يكون وبالاعلينا ، فانه يريد أن يصلح عبادة الله على حسب السنة القديمة ، لأنه لايقدر أن يبطل تقاليدنا ، فكيف يكون مصيرنا تحت سلطان رجل هكذا ؟ حقا اننا نهلك نحن وأولادنا لأننا اذا طردنا من وظيفتنا اضطررنا أن نستعطى خبزنا ، أما الآن فالحمدلله لنا ملك ووال أجنبيان عن شريعتنا ولا يباليان بشريعتنا كما لانبالى نحن بشريعتهم ، ولذلك نقدر أن نفعل كلّ مانريد ، فان أخطأنا فان إلهنا رحيم يمكن استرضاؤه بالضحية والصوم ، ولكن إذا صار هذا الرجل ملكا علينا فلن يسترضى الا إذا رأى عبادة الله كما كتب موسى ، وأنكى من ذلك أنه يقول : ان مسيا لايأتى من نسل داود [كما قال لنا أحد تلاميذه الأخصاء] بل يقول : انه يأتى من نسل اسماعيل ، وان الموعد صنع باسماعيل لاباسحق ، فماذا يكون الثمر اذا تركنا هذا الانسان يعيش ، من المؤكد أن الاسماعيليين يصيرون ذوى وجاهة عند الرومانيين فيعطونهم بلادنا ملكا ، وهكذا يصير إسرائيل عرضة للعبودية كما كان قديما ، فلما سمع رئيس الكهنة هذا الرأى ، أجاب أنه يجب أن يتفق مع هيرودوس والوالى ، لأن الشعب كثير الميل اليه حتى أنه لا يمكننا اجراء شيء بدون الجند وان شاء الله نتمكن بواسطة الجند من القيام بهذا العمل .

وجاء فى الفصل الحادى والتسعين بعد المائة ، فقال من ثم الكاتب : لقد رأيت كتيبا قديما مكتوبا بيد موسى ويشوع [الذى أوقف الشمس] خادمى ونبيى الله ، وهو كتاب موسى الحقيقى ففيه مكتوب : ان اسمعيل أب لمسيا واسحاق أب لرسول مسيا ، وهكذا يقول الكتاب ان موسى قال : أيها الربّ إله إسرائيل القدير الرحيم اظهر لعبدك فى سناء مجدك ، فأراه من ثم رسوله على ذراعى اسمعيل ، واسمعيل على ذراعى ابراهيم ، ووقف على مقربة من اسمعيل اسحق ، وكان على ذراعيه طفل يشير بأصبعه الى رسول الله قائلا هذا هو الذى لأجله خلق الله كلّ شيء ، فصرخ موسى من ثمّ بفرح : يااسمعيل ان فى ذراعيك العالم كله والجنة اذكرنى أنا عبد الله لأجد نعمة فى نظر الله بسبب ابنك الذى لأجله صنع الله كلّ شيء .

وجاء فى الفصل الثانى والتسعين بعد المائة : لايوجد فى ذلك الكتاب ان الله يأكل لحم المواشى أو الغنم ، ولا يوجد فى ذلك الكتاب ان الله قد حصر رحمته فى اسرائيل فقط ، بل ان الله يرحم كلّ انسان يطلب الله خالقه بالحقّ ، لم أتمكن من قراءة هذا الكتاب كله ، لأن رئيس الكهنة الذى كنت فى مكتبته نهانى قائلا [ان اسماعيليا قد كتبه] فقال حينئذ يسوع : انظر أن لاتعود أبدا ، فتحجز الحق لأنه بالايمان بمسيا سيعطى الله الخلاص للبشر ولن يخلص أحد بدونه اه .

هذه هى البشارات الواردة فى انجيل برنابا ، وانما أثبتّ هنا هذه البشارات ، لأن هذا الكتاب قد ورد الأمر بعدم نشره وباحراقه فى بلادنا المصرية ، فانتهزت فرصة اطلاعى عليه ليبقى تذكرة لمن بعدنا ، ولقد طبع سنة ١٣٢٥ هجرية سنة ١٩٠٧ ميلادية ، ولم يبق منه الا نسخ تمحى بعد قليل من الوجود وتنساه الأجيال المقبلة ، ولقد اضطربت آراء الباحثين فى هذا الانجيل ، وقد ثبت ثبوتا لاشك فيه أن المسلمين جميعا من عصر النبوّة الى العصور الأخيرة يجهلونه حقّ الجهل ، ولم يتعرّض له أحد من الباحثين الذين يردّون على المسيحيين بكتابهم ، وقد جاء ذكر النبيّ ﷺ فيه صريحا مرارا ، ويقول بعض المعترضين : ان هذا هو الذى يورث الشك ، لأن الصراحة الى هذا الحدّ غير معروفة عن الكتب السماوية فى أمثال هذه البشارات ويقول المؤيدون له : انه لم يكتبه مسلم بدليل أنه لم يكن له ذكر فى فهارس مكاتب المسلمين ، ويقولون : ان البابا جلاسيوس الأوّل الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ ميلادية أصدر أمرا يعدّد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها ، وفى عدادها كتاب يسمى [انجيل برنابا] فيكون هذا الانجيل موجودا

قبل ظهور الاسلام بزمن طويل :

وأجمع الباحثون على أنه انجيل ملئ علما وحكمة وأخلاقا وعفة يضيء النفوس البشرية بأنواره ، وهو أفضل من الأناجيل ، ولقد قالوا أيضا : ان المسيح ليست عنده هذه الملكة العلمية والحكمة العالية الدقيقة وبالجملة فالكتاب نافع من حيث الاطلاع عليه والله أعلم ، ثم اعلم أن برنابا من حواريي عيسى ، وفى انجيله مخالفات للأناجيل ، مثل ان المسيح لم يصلب انما هو يهوذا الخائن الذى شبه به فجاء مطابقا للقرآن « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » ، ومثل قوله : إننى لست إلها ولست ابن الله ، وفى تصريحه بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

أما الشفاعة : فاعلم أن أهل السنة قالوا باسقاط العذاب عن المستحقين للعقاب . إما بأن يشفع لهم يوم القيامة فى العرصات حتى لايدخلوا النار ، وان دخلوا النار يشفع لهم حتى يخرجوا منها و يدخلوا الجنة ، وقالت المعتزلة انها تكون للمستحقين للثواب بأن تحصل لهم زيادة المنافع على قدر مااستحقوه ، واتفقوا على أنها ليست للكفار ، وقد كتبت فى هذا الموضوع مقالا مقتبسة أصوله من كلام الأستاذ محيي الدين بن عربى والامام الغزالى ، فأحببت ذكره هنا تذكرة للعقلاء وتبصرة للمسلمين وتقوية للتربية الاسلامية فى مستقبل الزمان :

مبحث الشفاعة

اعلم أن الأمة الاسلامية ، قد أجمعت أنه ﷺ يشفع فى أمته ، وهذا أمر مجمع عليه لافرق بين السنية والمعتزلة والفلاسفة منهم ، ولكنهم اختلفوا فى المقصود منها ، وها أنا ذا أذكر لك الحقيقة واضحة جلية خالصة ظاهرة ، ثم أطبق عليها سائر الأقوال ، والآيات ، والأحاديث ، بحيث يتفق المشرب الدينى ، والمنهج القويم للتربية الاسلامية ، وهذا هو الذى انشرح له صدرى وصرت موقنا به تحقيقا .

فاعلم أرشدك الله أن النبى ﷺ كالشمس المشرقة ، كما قال تعالى « وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » والشمس مشرقة على اليابسة ، والبحار ، والآكام ، والغياض ، والنبات ، والشجر ، والأرض السبخة والأرض الطيبة ، وكلّ من تلك المواضع يأخذ حظه من ضوئها على مقدار استعداده ، فأما البحر فانه يزجى السحب باشراق الشمس على أرجائه ، فيكون بخار فسحاب فمطر يحيى الأرض ، وأما الجبال فان ماعلى بعضها من الثلوج المتراكمة تنزل ماء شيئا فشيئا الى باطنها ، ثم تخرج ينابيع فتحيي الأرض ، وأما الهواء فيتمدّد وتكون منه الرياح ، والأعاصير ، والزعازع ، وأما الأرض الطيبة فتخرج زرعا مختلفا ألوانه ، وأما الأرض السبخة فلا تخرج شيئا ، وقد تخرجه نكدا ، هذا هو المثل الذى أردت ضربه لحال النبىّ ﷺ مع الناس ، فلنشبه القلوب النقية الطيبة بالبحار ، اذا سمعت الدين أزجت السحب ، ونفعت الناس وأحيت قلوبهم ، ولنجعل القلوب الطيبة كالصالحين ، والأرض السبخة كالفجار الذين لايرجى نفعهم ، والملوك والأمراء ورجال الدولة والوعاظ كتلك الرياح التى يهتز لها جميع ماعلى الأرض ، وفى الجوّ فتعتدل وتجود وتستقيم وتحوط الملوك العلماء ، والشعب بالجيوش محافظة عليهم ، فكما اختلف الزرع لونا ورائحة وطعما ، وهكذا الشجر ، والبرّ ، والبحر ، والشمس ، واحدة ، هكذا تختلف الأمّة التى تتبع نبيا فى أطوارها وأحوالها الدينية على حسب أمزجتها وأخلاقها وعوائدها و بيئتها ، فالله نور السموات والأرض أشرق نوره على رسول الله ﷺ ، وهو مشرق على الناس ، فلا جرم يختلفون فى قبوله اختلاف أحوالهم ، وتكون أحوالهم فى الآخرة على مقتضى ذلك الاختلاف ، فالمرسلون واسطة للتعليم ، والناس المرسل اليهم ، هم الذين يختلفون فى الاتباع باختلاف أطوارهم واستعدادهم ، وهم مسئولون يوم القيامة عن أعمالهم على مقتضى مابلغهم الواسطة ، فاذا كانت الأرض

الطيبة ، والأرض اليابسة ، والبحر اختلفت في القابلية ، والسبخة ، هكذا سيكون الناس في أحوال الآخرة على مقتضى ما كسبوا من الواسطة الشفيع لهم عند الله تعالى « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » ويقرب من هذا ما ورد ، فمن أبي موسى عبدالله ابن قيس الاشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ [ان مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله تعالى به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به] فهذا الحديث أفادنا أن اختلاف النتائج علما وعملا وجهلا لاختلاف الناس في أطوارهم ، كما اختلفت الأرض لما ورد عليها الماء في كيفية قبوله ، وكما قلنا باختلاف أحوال الارض وما عليها باختلاف قبولها لضوء الشمس ، فالفيض من الشمس ، ومن الغيث كامل غير منقوص ، والاختلاف انما جاء من الجهات القابلة للضوء والغيث .

واعلم ان للشفاعة بذورا ونباتا وثمرا ، فبذورها العلم ، ونباتها العمل ، وثمرها النجاة في الآخرة ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام علموا الناس في الدنيا ، وفيها غرسوا البذور ، والناس إذا عملوا بما سمعوا منهم ، ولم تكن تلك الشرائع منسوخة فقد استعدّوا للنتيجة ، ويوم القيامة ينالون تلك الثمرة ، وهي النجاة والارتقاء ، ولكن تلك الثمرات تختلف باختلاف أعمالهم وجدهم وحبهم للخير وأخلاقهم ، فمبادئ الشفاعة العلم ، وأوسطها العمل ، ونهايتها الفوز والرقى في الآخرة ، بل كثيرا ما تظهر بعض الثمرات في الحياة الدنيا بالتوفيق ، والنصر والعز ، وفي الحديث يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء ، فهذا يفيد أن الشفاعة تابعة للاقتداء ، فالأنبياء علموا العلماء والعلماء علموا الناس ، وأفضل الناس بعد الأنبياء العلماء ، فالشهداء : وهم بما قدّموا أنفسهم في سبيل الله أصبحوا قدوة للناس وأعطوهم درسا نافعا يتبعونهم فيه ، فكانوا بعد العلماء في هداية الناس لأن العلم أوسع والشهادة أقل ، ولكنها أنجع ، فمن لم يعمل بما أنزل الله وتجافى عن الحق فقد عطل ما وهب له من بذر الشفاعة ولم يسقه ولم يربّه ولم ينمه بالعمل ، فيحرم ثمرته مع أنه ساوى جميع المسلمين في حصول البذر عنده وخالفهم في قعوده عن استثماره ، ساواهم في نوال بذر الشفاعة وخالفهم ونقص عنهم فيما بعد ذلك ، وعلى هذا يحمل قوله عليه الصلاة والسلام في رواية أبي هريرة [لاألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يارسول الله أغثني ، فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك] فانظر في قوله صلى الله عليه وسلم قد بلغتك ، كأنه يقول له التبليغ بذر الشفاعة ، وعليك العمل يتبعه النجاة .

وعن أبي هريرة أيضا قال : قال عليه الصلاة والسلام [ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حرّا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يوفه أجرته] .

وروى عبد الرحمن بن سابط عن جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ قال [يا كعب بن عجرة يا كعب أعيذك بالله من إمارة السفهاء ، إنه سيكون أمراء من دخل عليهم فأعانهم على ظلمهم وصدّقهم بكذبهم فلست منه وليس مني ، ولن يرد على الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدّقهم بكذبهم ، فهو مني وأنا منه ، وسيرد على الحوض : يا كعب بن عجرة : الصلاة قربان ، والصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار : يا كعب بن عجرة لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت] .

وروى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام [دخل المقبرة ، فقال :

السلام عليكم دارقوم مؤمنين ، و إنا ان شاء الله بكم لاحقون ، وددت انى قدرأيت إخواننا ، قالوا يارسول الله ألسنا إخوانك ، قال بل أنتم أصحابى و إخواننا الذين لم يأتوا بعد ، قالوا يارسول الله كيف تعرف من يأتى بعدك من أمتك ، قال أرأيت ان كان لرجل خيل غرّ محجلة فى خيل دهم ، فهل لا يعرف خيله ، قالوا بلى يارسول الله ؟ قال فانهم يأتون يوم القيامة غرّا محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض ألا فليذادنّ رجال عن حوضى كما يذاد البعير الضالّ أناديهم ألا هلمّ ؟ فيقال انهم قد بدّلوا بعدك أقول : سحقا فسحقا] .

وهذه الأحاديث هى المناسبة لقوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا يره » ولقوله تعالى « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

فهؤلاء الذين أعانوا الأمراء على ظلمهم ، وأولئك الذين بدّلوا بعد نبيهم ، وأولئك الذين جاءوا يحملون شياها قد ظلموا فى حملها ، كلّ هؤلاء قد بذرت لهم بذور الشفاعة ، ولكنهم حرموا أنفسهم ثمرتها بتفريطهم فيها جزاء وفاقا ، فاذا قيل إنه يشفع فى أهل الكبائر ، أو فى زيادة الحسنات للمحسنين ، فقد دخل ذلك كله فى هذا الذى أوضحته لك ، و إذا سمعت عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال [قلت يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال لقد ظننت أن لا يسألنى عن هذا أوّل منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه] أخرجه البخارى ، فاذا سمعته فاعلم أن هذا قد نال من الشفاعة بذرها ، وهو العلم ، والعلم يتبعه العمل ، والثمرة نتيجة ، وهى النجاة فى الآخرة ولا جرم أن العمل لا يكون الا بعد العلم ، فاذا كان العمل مبنيا على جهل فلا يستحق شفاعة ، وأما صاحب العلم فان لديه أقوى ركنى الشفاعة ، وهو العلم ، ولم يبق الا استثماره ، فعلى هذا فقس فيما يرد عليك من الأحاديث ، واعلم أن هذا المعنى : أخذت أصوله من الفتوحات المكية لمحيى الدين بن عربى ، وكذلك يفيده كلام الامام الغزالى ، و بعض الأقوال التى أوردها الفخر الرازى .

قال الامام الغزالى فى الاحياء

فينبغى أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوّس ، ثم أمدّه بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه فى أوقاته ، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكلّ ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة الى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمى انتظاره رجاء ، وان بثّ البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب اليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم انتظر الحصاد منه سمى انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء ، وان بثّ البذر فى أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضا سمى انتظاره تمنيا لا رجاء ، فاذا اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات ، فالعبد اذا بثّ بذر الايمان ، وسقاه بماء الطاعات ، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك الى الموت ، وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا فى نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الايمان فى اتمام أسباب المغفرة الى الموت ، وان قطع عن بذر الايمان تعهده بماء الطاعات ، أوترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق ، وانهمك فى طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور . قال صلى الله عليه وسلم : « الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » وقال تعالى : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » وقال تعالى أيضا :

« فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا » وذمّ الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته و « قال ما أظنّ أن تبيد هذه أبدا وما أظنّ الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لأجدنّ خيرا منها منقلبا » فاذا العبد المجتهد فى الطاعات ، المجتنب للمعاصى ، حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة . وأما العاصى فاذا تاب وتدارك جميع مافرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة اذا كان كارها للمعصية تسوؤه السيئة وتسرّه الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهى التوبة ويشتاق اليها ، فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ، لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى الى التوبة ، وانما الرجاء بعد تأكد الأسباب ، ولذلك قال تعالى : « إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله ، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء ، لأن غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء . فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ؛ ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بثّ البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقى ولا تنقية اهـ

فهكذا ينبغى أن يقرر فى الأمة الاسلامية تعليم الأخلاق حتى يشب الشبان مجدّين ، وليعلموا أن الانسان تابع لعمله وأخلاقه ، وهذا هو الموافق للفطرة ولمقصود الاسلام ؛ ففى الحديث : « أنت مع من أحببت » والأنبياء يتبعهم العلماء حبا فى مناهجهم ، ويتبع العلماء العامّة ، فهؤلاء على مقدار اتصالهم فى الحياة الدنيا يتصلون يوم القيامة فلا يرد الحوض على النبى صلى الله عليه وسلم إلا من كان به فى الدنيا متصلا ، أى عاملا بشريعته ، سائرا على منهجه ؛ والناس يحشرون على حسب الأخلاق التى ماتوا عليها ، لأن الثواب والعقاب كما قاله المحققون نتائج وثمرات ، وليس الله عزّوجل يريد أن يشفى غيظه ، وانما هو مربى العالمين ، وتعالى الله عن صفات المحدثين ، والحياة الآخرة تابعة للحب ، ولا يحب المرء إلا من كان على شاكلته ، ومثل الآخرة كمثل الدنيا ، فكما أنك لا تعيش مع السمك فى البحر ، ولا يقدر السمك أن يعيش فى البرّ ، ولا يستطيع حيوان البحر وحيوان البرّ أن يطيرا فى جوّ السماء ، ولا يستطيع الطير أن يعيش فى البحر ، هكذا بنو آدم فى الآخرة كل يوضع فى المكان الذى استحقه ، ولا يقدر أن يتجاوزه ، على حسب الأخلاق التى اكتسبها ، وفى الحديث : « يحشر المرء على ما مات عليه » وفى الآية : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا » وهذا التفسير الذى اخترته للشفاعة كما جمع بين الأقوال كلها ، والأحاديث ، ونظام الله عزّوجل فى ملكه ، وآيات القرآن ؛ وعدل الله سبحانه وتعالى ، هكذا يناسب مايجب أن تكون عليه الأمة الاسلامية فى مستقبل الزمان ، فان الأمم كلها قد ارتقت بالعلم والحكمة ، وبقى المسلمون فى مؤخرهم ، بسبب جهل الوعاظ وتسهيلهم على الناس ، ولعمرى ان هذا ليجدّد النشاط ، والجدّ والعمل فى الأمة ، ويرقى المسلمين علما وعملا واذن يفهمون قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا يره » ويعرفون انه عزّوجل عدل ، ولن يخرج من بذر القمح إلا القمح ، ولا من النواة إلا ما كان من جنسها ؛ فالصدق مشاهد فى العالم الذى أمامنا ، ولولاه لاختلّ نظام الحياة ، فاذا زرعنا البرسيم للدواب ، أو الحنطة والتفاح للانسان ، جنينا الثمر على مقتضى البذر فأكلت الدواب والانسان ، ولو كان الأمر فوضى فأخرج البرسيم بدل التفاح ، والتفاح بدل الحنطة ، لحار الناس فى أمورهم ، ولضلوا سواء السبيل ، ولم تكن لهم حياة رشيدة ، وتخبطوا فى ديجور المذلة وسوء الحال ، وكانت الفوضى ، والناس لا يشعرون بهذا العدل وحسن النظام ، لأنهم فيه مغمورون لا ينظرون فيه وانما كل منهم مهتمّ بما يشبع بطنه ويوافى شهوته ، مشغول بجمع ذلك ليلا ونهارا وهم عن العلم بما حولهم غافلون « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » وهانحن أولاء

نرى طلوع الشمس وغروبها ، وكذلك القمر والكواكب الأخرى بنظام مرتب فى جداول يطلع عليها الناس وأكثرهم لايتعجبون من حكمته عزّوجل فى اتقان الحساب وحسن النظام الذى لواختلّ لحظة لهلك الحرث والنسل ، ولوأن الشمس تأخرت عن موعدها وقت الظهر دقيقة واحدة يوما ما فقط لضاع من نوع الانسان مئات الالوف ، ومن أموالهم مئات آلاف الآلاف ، فان هذا التأخير يحدث تصادما فى القطارات الجارية بالسكك الحديدية فيموت الراكبون ، وتختلّ مواعيد الأعمال فى التجارة ، صادرها وواردها ، فنحن هنا على الأرض مغمورون فى نظام تام لايعقله إلا العالمون ، واذا كان هذا فى الدنيا فان الآخرة أتقن نظاما ، والمنظم للدارين واحد ، أفلاتكون الأعمال لها نتائج كنتائج النبات والشجر ؟ أولا يكون الأنبياء والعلماء الذين اتبعوهم أشبه بضوء الشمس ، وقطرات الغيث على العقول فتكون الأعمال فالنتائج . هذا مافتح الله به وانشرح له صدرى .

حكاية

قد قدمت الى مصر سيدة روسية كانت تغشى الجمعيات العلمية فى برلين وباريس وفينا وسائرعواصم أوروبا وكانت من أهل العلم ، تحسن لغات كثيرة ، وكان أكثر ميلها الى علم التصوّف ، وقد أشار عليها أستاذها [ماركس الألمانى] أن تترجم كتابا فى علم التصوّف الى اللغة الفرنسية ، واختارمن بين الكتب رسالة القشيرى التى ألفها فى القرن الرابع فى هذا الفن لصوفية المسلمين ، ولما جاءت الى مصر طلب منى وزيرالمعارف إذ ذاك أن أساعدها فساعدتها فى فهم الكتاب عند الترجمة تسع سنين ، وكانت تعجب بعلوم المسلمين ، وذوقهم وآدابهم وفى أواخرالمدة قبيل الحرب الكبرى ، قالت لى يوما : انى بعد أن سافرت هذه السنة الى أوروبا تبين لى أن الدين الاسلامى على خلاف ما كنت أظن ، نعم هوحق ولكنه أقلّ من الدين المسيحى ، وهذا الاعتقاد خلاف ما كنت أعتقده من قبل ، فقلت : ولم ذلك ؟ فقالت : قابلنى شاب من الذين يتعلمون من الرهبان فى فى طورسيناء ، وعنده شهادات عالية من ألمانيا ، ويجيد بعض اللغات الاوروبية ، فأخذ يحدثنى عن الاسلام وهو يعرف ميلى إليه ، فقال : ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان وهوصغير تلوح عليه مخايل النبوّة ، ولما رآه بحيرا الراهب ، وأدرك فيه هذا المعنى ، قال فى نفسه : اذا كان هذا نبيا فخير لنا أن يكون مسيحيا ، فعلمه الدين المسيحى ، وأخطأ بحيرا فى بعض تعاليمه ، فانه أفهمه أن عيسى لم يصلب لجهله باللغة ، لأن بحيرا صالح ، ولكنه ليس مدققا فى اللغة ، فجاء دين الاسلام وليس فيه الصلب مع أن المسيح أوّل من مات فأحياه الله ، فيكون هذا برهانا على حياة الناس يوم القيامة ، فالمسيح الذى يفدى الناس قد صلب لهذه الحكمة ، قالت : فأنا على ذلك أصبحت أرى أن الاسلام حقّ ولكنه أقلّ من المسيحية التى آمنت بمن صلب ثم حي . فلما أتمت قولها قلت لها : هل تحبين أن تسمعى رأيى ؟ فقالت نعم وانى ماذكرت لك هذا إلا لأسمع رأيك ، فقلت : أما قول صاحبك ان المسيح أوّل من مات ثم حي ، فهذا لاحظ له من الحقيقة ، لأن فى التوراة أن قوما ماتوا ثم أحياهم الله لانهم كانوا قد فروا من الطاعون فليس المسيح على زعم من آمن بالصلب أوّل من حي وفى التوراة من ذلك كثير .

وأما قوله : ان عيسى يفدى الناس فهذا كلام له معنى غير مايفهمه الجهلاء من المسيحيين ، فقالت وكيف ذلك ؟ فقلت أرأيت لوأن رجلين أحدهما يعلم أولاده الأدب ، والثانى يقول : كونوا أحرارا ياأبنائى واقتلوا واسرقوا وأنا أدافع عنكم : فأىّ الأبوين أفضل ؟ قالت الأوّل : قلت هكذا يطلب منا علم التربية الحديثة والقديمة ، قالت نعم : قلت فهل المسيح ؟ وهو نبىّ فى اعتقادنا نحن معاشر المسلمين يقلّ فى العلم والتعليم عن أفضل الأبوين المذكورين ، قالت كلا ؟ بل هو أفضل منهما ، وهو معلمهما ، والمعلم أفضل من المتعلم ، وأعلم

منه : قلت اذن لايجوز فى علم التربية أن يقول نبىّ عن ربه افعلوا ماتشاءون وأنا سأكون فداء لكم ، و بعبارة أخرى ينقض شريعته بنفسه فأخذ منهم بالشمال ماأعطاهم باليمين ، قالت والله ان كلامك لحق ومعقول ، فقل لى اذن مايقصد بكون المسيح يفدى الناس فى نظرك ؟ فقلت أما دينى فينكر الصلب ؟ اذن أنا ليس لى نظر فى مسألة يخالفها دينى ، و إنما أقول : الحق أن العامّة يتكلون عليه فى تخليصهم من يد القضاء يوم القيامة ، و يكون الدين إذ ذاك هادما للانسانية مؤخرا للمدنية راجعا بالانسان القهقرى ، وهذا بعينه هو السبب فيما بلغنا لهذا العهد عن الاحصاء فى فرانسا لأحكام القضاة فانهم وجدوا أن الملحدين الكافرين بالله هناك أكثر صدقا وأقرب للعدل من المتدينين لانهم كانوا يسألونهم لم فعلتم ذلك ؟ فكانوا يقولون رجونا أن تشفع لنا العذراء أو القديس فلان ، وهكذا : ولذلك نرى أن الديانات التى طال عليها الأمد ، ولم تجد لها من يجدد أمرها تولاها الخور ، وقعدت بتابعيها عن الرقى وساءوا مصيرا ، وانما كان الملحدون فى فرانسا أرقى أخلاقا من المتدينين ، لان الأوّلين أثاروا عواطفهم وعقولهم وفطرهم التى فطرهم الله عليها ، وفيها أصول الأخلاق . أما الآخرون فانهم تركوا فطرهم وسلموا أنفسهم للدين ، والدين دخله التحريف والتخريف ، فنزل بأخلاقهم فسفلت فكانوا من الخاسرين ، فرأيتها أشرقت سرورا ، وأبرقت أسرتها واستبشرت ضاحكة ، وقالت نعم : لقد أفدت وأحسنت ونطقت بعلم اه .

فتأمّل أيها المسلم فى هذه الحكاية فانى ماقلتها لك اعتباطا ، و إنما ذكرتها لتنظر سيرة سيدنا محمد ﷺ وأخلاقه وآدابه ومعاشرته وسيره للحرب ومقارعته الابطال وغزواته ، ثم تتبعه فى أخلاقه ، وفى القرآن الذى أنزل عليه ، فأما إذا ظننت أن الشفاعة ترجع الى المعنى الذى يفهمه العامّة ، فان ذلك يقود الأمّة الى الانتكاس على أمّ الرأس و يبقى الدين من أسباب التأخر لا الرقى ، وقد آن أوان أن يعرف الناس مقام النبوّة الشريف ، و يتبعوا النبىّ ﷺ فى أعماله وأخلاقه ، وسيرته الصالحة ، وآدابه العالية ، ومعارفه الواسعة ودينه السمح المرشد الى السعادة ، والأعمال الشريفة ، وهذا أوان ارتقائه وزمان إسعاده « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

ايضاح للشفاعة

اعلم أن الناس اعتادوا أن يتقرّبوا للملوك والأمراء والأغنياء بمن لهم عندهم جاه ومنزلة ، فيكونون شفعاء لهم فى ايصال الخيرات من وظائف ومال . وأصل هذه الكلمة من الشفع الذى هو ضدّ الوتر ، كأن صاحب الحاجة كان فردا ، فصار الشفيع له شفعا : أى صارا زوجا ، وهذا فى الأمور المادّية التى يقدر عليها الناس . أما العلوم والمعارف ، فلو أن أعظم الملوك قدرا ، وأكثر الأغنياء مالا أحضر أساطين الحكماء ، وأكابر العلماء لولده الغبى وأغدق عليهم النعم ليصير عالما لم يقدروا على ذلك ، أما هو فيقدر أن يفيض المال على أىّ فقير فيصير غنيا فى الحال ، فشفاعة الأنبياء ليست من قبيل الهبات المالية ، ولا الوظائف الادارية ، وانما هى نفحات علمية ، وأخلاق حكمية ، وآداب نبوية ، فمن فقه ماقالوه ، واتبع مارسموه ، واستثمر من بذور الشفاعة مابذروه ، تمت له الشفاعة ، ودخل مع الجماعة ، أما أولئك الكسالى الجبناء المتواكلون ، فانهم يظنون أن مجرّد الاتباع اللفظى مع النوم والكسل الفعلى يجديهم نفعا كبيرا ، ويحسن لهم صنعا جميلا ، كلا : انهم لمخدوعون ، وليس هذا القول بمخالف أهل السنة ولا المعتزلة ، فان خروج العاصى من النار بالشفاعة أو ابعاده عنها قبل الدخول ، وكذلك زيادة الحسنات فى الأعمال للصالحين ، كل هذا جاء من شفاعته ﷺ ، واتباعه بل كل ثواب فانما هو بسبب ذلك ، وهكذا كل نجاة ، فانه صلى الله عليه وسلم لولم يأت لنا بالشريعة لكنا

أقرب الى الحيوان فصرنا باتباعــه داخلين فى شفاعته ، لأننا به صرنا شــفعا ، ولا يكون ذلك الا باتباعه ، ولا ننال الا ما استعددنا له .

ولأضرب لك مثلا بما عرفناه فى زماننا

أمّة تألبت عليها الجيران ، ووثبت عليها أمم الفرنجة من كل جانب ، وهى قليلة العدد ضعيفة العدد قلّ فيها المال والولد فاستسلموا للعدوّ خاشعين ، وانقادوا له صاغرين ، فقام منهم رجــل من قوّاد جيوشهم فهبّ فيهم صارخا ، وقال قوموا من مراقدكم ، والله ناصركم ، وأجمعوا صفوفكم فكم من فئة قليلة غلبت فئــة كثيرة باذن الله فأجاب دعاءه الرجال ، والنساء ، والأطفال ، والشــيوخ ، والشبان وقاموا قومة واحدة فانهزم العدوّ المغير ، ورجع وهو حسير ، فرجعت الأمم المغيرة إلى الخلف ، وثبت للضــعفاء النصر ، تلك الأمّة هى الأمّــة التركية فى هذه الأيام . أفترى أيها الذكى أن ذلك النصر يكون بالاتــكال على ذلك القائد المرشد النصيح ، فيقولون له أيدك الله قاوم العدوّ بهمتك ، وحاربه ببأسك وقوّتك ، انا مادحوك وداعون لك بخير وتابعوك . أم يقومون معه قومة رجل واحد ، و يتبعون سننه فى العمل فيهزمون العدوّ بتضافرهم وتآزرهم . لاجرم أنك تعلم أن النصر تابع لخير الأمرين ، وهو الوجــه الأخير ، فهكذا يكون الأنبياء مع أممهم ، فالأنبياء قوّاد فوق كلّ قائد يقودون الناس إلى سعادتهم وشفاعتهم لهم على خير الوجهين السابقين . فاذا سمعت قوله تعالى « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » وقوله «ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع» وقوله « ولايقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون » وقوله « من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة والــكافرون هم الظالمون » .

فاعلم أنها تلك الشفاعة الأولى فى المثال المتقدّم ، وهى أن يتــكلوا على الأنبياء وينامو انومة الاغبياء ، ولو كان الله يريد منا أن نــكل نفوسنا إليهم لأطال آجالهم جميعا ، وأنت ترى أن فى أمّتنا من طالت أعمــارهم أكثر من نبينا ، فمن حكمة موته فى سنه المعروفة أن تستقل الأمّة فى شؤونها ، وتقوم بأعبائها ، ولعلك تقول مالى أراك تخصّ الأنبياء بالاعظام والاجلال والاكبار ، وما أراك الامسايرا للجمهور . ولقد رأينا فى هــذه الأعصر من أضاءت الــكهرباء باختراعهم وابتدعوا فى الحروب ماشاءوا بذكائهم ومدّوا الاسلاك البرقية بعقولهم وفى الأرض فلاســفة وحكماء كسقراط وأفلاطون وروسو الفرنسى ، فــكيف تخصون النور بالأنبياء والارشاد للمرسلين ، وكيف تخصون نبينا بأنه سراج منير ، وأن العلماء يتبعون وأنه يشفع فى الناس بالمعنى الذى قرّرته مع أن كلّ الناس يعلمون و يتعلمون .

أقول : اعلم ان الله عزّ وجــلّ مشرق نوره فى العالمين ، فــكما أن الشمس ، والقمر ، والــكواكب ، والــكهرباء ، والبخار الناجم من الفحم ، وكذلك الزيت والشمع نــكون منها الأنوار الحسية التى أودعها الله فى المواد المحسوسة ، هكذا أودع نورا أتمّ وجمالا أبهى وأكمل واشراقا أتمّ وأعظم فى نفوسنا الانسانية وعقولنا وحواسنا وادراكنا ، وفى سائر الحيوان فلــكل حيوان هداية تمت بها سعادته ، والانسان من بين الحيوان هداه الله هداية أعلى ، وجعله فى مقام أتمّ وأكمل ، وألهم طوائف منه ، فــكانوا أكمل من غيرهم فيرشدون اخوانهم إلى ماهو أكمل وأشرف .

فقولك : ان فى الناس من هدوهم الى الــكهرباء والى مدّ أسلاك البرق وماشا كل ذلك ، فانى أقول لك ليست الهداية خاصة بهؤلاء فالهداية عامة فى الحيوان والانسان ، فأما ارشاد الناس الى الامور المعاشية بالأنوار وسرعة النقل وماشاكل ذلك فهى لم تخرج عن الهداية العامة ، فان الشمس مشرقة مبذولة ، فاذا زاد المخترع أنوارا للناس فهو خير من جنس مابذل لهم فى الطبيعة المعلومة الحسية . وأنت تعلم أن الهداية النفسية أرقى من الحسية فانه لولا ادراكنا وعقولنا لم نستفد من المادة شيئا ، والذين يهدون الناس بهذا المعنى أربع فرق : الحــكام

من

من الأمراء ، والملوك ، والوعاظ ، والحكماء ، والأنبياء ، فالوعاظ للعامة ، والحكماء للخاصة ، والأمراء للحكم على أجسام الناس لاعقولهم ، أما الأنبياء فانك تراهم قد اتبعهم الخاصة والعامّة والوعاظ وكانوا أعمّ من الجميع . وأنا لاأقول لك إلا ماهو حاصل فى النوع الانسانى ، وماهو واقع فعلا ، فسقراط لايعقل حكمته ولايفهم رأيه إلا الخواص ، وأما العامة فهم فى واد سحيق ، والوعاظ لا يكلمون إلا الجهال ، ونحن نرى أن الأنبياء اتبعهم من سائر هذه الطوائف ، فاذا كان الناس يهتدون بحواسهم و بعقولهم و بحكمائهم و بمخترعيهم و بقوّاد جيوشهم ، فانا نرى أن سائر الأنبياء قد اتبعهم كل هؤلاء ، وهاأناذا قلت لك ماتراه واقعا كما قدّمنا ، اذاعلمت هذا فهمت قوله تعالى للنبيّ صلى الله عليه وسلم « إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » وقد جاء فى ﴿ سورة النبأ ﴾ : « وجعلنا سراجا وهاجا » متلألئا وهو الشمس « وأنزلنا من المعصرات » السحائب « ماء ثجاجا » منصبا بكثرة « لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا » ملتفة بعضها على بعض ، وانما ذكر السحب بعد الشمس لأنها ناجمة من إثارة الحرارة للبخار من البحار فيكون مطرا فيحيي النبات كما قدمنا هذا فى العالم المشاهد المحسوس ، فهكذا جاء فى هذه السورة تشبيه القرآن بالمطر النازل من السماء ، وجاء فى سورة أخرى أن النبيّ سراج منير ، وجاء فى حديث البخارى المتقدّم : « ان مثل العلم الذى أنزل عليه عليه الصلاة والسلام كمثل الغيث » الخ فتشابه العالم الحسى والعالم المعقول ، فالعلم العام النبوى ينزل على صدور العلماء والعامة والخاصة فهوكالشمس ومن سواه لهم أعمال خاصة ، فالشفاعة العامةلهم مشرقة على الجميع ، ولكل امرئ ما اكتسب « ومايعزب عن ربك من مثقال ذرّة فى الأرض ولا فى السماء ولاأصغرمن ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » .

تفضيل بنى إسرائيل

وأما الكلام على تفضيل بنى اسرائيل فان الله يقول : يابنى اسرائيل انى قذفت فى قلوب أبنائكم الحمية والشهامة والعزّ بما أوحيت الى موسى أنه يقول لهم أنتم شعبى وأفضل العالمين كما هى السنة المرغوبة فى تمدين الشعوب أن يبتدأ بادخال الأمل وطرد اليأس وافهام الأبناء أنكم ذووشرف وعزّ وفضل ، ولعمرى ان هذا هوالسنن الوحيد والعلاج المفيد الناجع لاثارة الحركات العلمية والعملية فى الأمم التى أخلها الاهمال وأضاعتها يد الزمان ، وأنامها الحدثان ، كما كان فى بنى اسرائيل إذ ذبحت أبناؤهم ، واستحييت نساؤهم ، ابتلاء من الله وامتحانا ، وهذا هوالمذكور فى الاصحاح الأوّل فى سفرالخروج :

وكلم ملك مصر قابلتى العبرانيات اللتين اسم إحداهما سفرة واسم الأخرى فوعة ، وقال حينما تولدان العبرانيات وتنظرانهنّ على الكراسى اذاكان ابنا فاقتلاه ، وان كان بنتا فتحيياه ، وفى الاصحاح الثالث عشر انهم خرجوا من مصر فى شهر أبيب ، وأمرهم الله فى الاصحاح الثانى عشر والثالث عشر بعيد الفصح أن لايأكلوا مخمرا سبعة أيام ، ويكون السابع عيد الفصح شكرا لله تعالى كل سنة على نعمة أغدقها عليهم إذ أخرجهم من دارالهوان الى دارالحرّية والكرامة ، أليس من عجب هذا التهييج والحثّ على الحرّية للتنائى عن مقام الذل ، وليربؤا بأنفسهم أن يردوا ماء الحياة اذا مازجه صاب المذلة وعلقم الهوان .

وللموت خير من حياة دنيئة ❊ وللموت خير من مقام على الذل

ثم تعجب كيف جاء فى التوراة مرءوة هاتين القابلتين لم تخونا ولم تقتلا ولدا كيف خافتا ربهما وحفظتا أبناء بنى اسرائيل ، فتولى فرعون ذلك بنفسه وأمر المصريين فقتلوا ورموا كل مولود ذكر فى البحر ، ولما كان شأن الله أن يجعل من كل ضيق فرجا ، وأن بعد العسر يسرا ، نجاهم وأغرق فرعون وجيشه .

(الياقوتة الثانية ، والثالثة ، والرابعة ، والخامسة)

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .

التفسير اللفظي

يقول تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر) فلقناه (فأنجيناكم) من فرعون وقومه (وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) الى ذلك وتشاهدونه (واذ واعدنا موسى أربعين ليلة) وعد الله موسى أن يعطيه التوراة وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذى الحجة (ثم اتخذتم العجل) إلها (من بعده) من بعد انطلاقه الى الجبل (وأنتم ظالمون) بوضعكم العبادة فى غير موضعها (ثم عفونا عنكم) محونا ذنوبكم عنكم (من بعد ذلك) من بعد اتخاذكم العجل (لعلكم تشكرون) لكى تشكروا النعمة فى العفو عنكم (وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان) أى الجامع بين كونه كتابا منزلا ، وفرقانا يفرق بين الحق والباطل (لعلكم تهتدون) لكى تهتدوا بتدبر الكتاب (وإذ قال موسى لقومه ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم) ارجعوا الى خالقكم بالتوبة ، قالوا كيف نتوب ؟ فقال (فاقتلوا أنفسكم) أى ليقتل البرىء منكم المجرم (ذلكم خير لكم عند بارئكم) من الاصرار على المعصية (فتاب عليكم انه هو التوّاب) المفضال بقبول التوبة وان كثرت (الرحيم) بعفو الحوبة وان كبرت (واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك) أى لن نصدّقك (حتى نرى الله جهرة) معاينة ، وهؤلاء سبعون رجلا من خيارهم جاءوا الى الطور ليعتذروا عن عبادة العجل مع موسى لميقات ربه وسمعوه يكلم موسى فقالوا ذلك ، قال تعالى (فأخذتكم الصاعقة) الآتى شرحها فى ﴿سورة الرعد﴾ (وأنتم تنظرون) ما أصابكم (ثم بعثناكم من بعد موتكم) بسبب الصاعقة (لعلكم تشكرون) نعمة البعث (وظللنا عليكم الغمام) فى التيه ليقيكم حرّ الشمس . انتهى التفسير اللفظى الاجمالى .

ايضاح

أبان الله فى هذه اليواقيت ماقصه فى سفر الخروج فى التوراة ، وكيف أغرق فرعون وجنوده ، ونجى موسى وقومه ، كما جاء فى الاصحاح الرابع عشر من السفر المذكور ، فدفع الرب المصريين فى وسط البحر فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم فى البحر ، ولم يبق منهم ولا واحد ، وأما

بنواسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر والماء سورلهم عن يمينهم وشمالهم . انتهى بالحرف

وقال فى الاصحاح الثانى عشر : فارتحل بنو اسرائيل من رعمسيس ، وهى بلدة قريبة من السويس الى سكوت نحوستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد ، ثم قال : وأما اقامة بنى اسرائيل التى أقاموها فى مصر فكانت أربعمائة وثلاثين سنة ، ولقد حثهم على تذكار يوم الخروج ليستديموا الحرّية تذكرة للعاقلين ، وتبصرة للمسلمين الغافلين ، وقد قال تعالى لنا : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » عدولا ، وقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس »

فليبحث المسلمون عن أنفسهم ، ولينظروا أهم تلك الأمّة التى عناها الله بالخطاب ؟ أم قوم غيرنا سلفوا ؟ أم سيخلفونا ؟ وليعتبروا كيف قرع الله بنى اسرائيل ووبخهم إذ آتاهم التوراة على لسان موسى وقد دخل فى وسط السحاب ، وصعد الى الجبل ، وكان موسى فى الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة ، فاتخذوا العجل وعبدوه كما وضح فى التوراة فى نفس هذا السفر . وما مثل اليهود فى نبذ التوراة والعمل بها إلا كمثل المسلمين اليوم وجهلهم بما تضمنه القرآن من الحكم العجيبة ، والآيات البديعة ، ولما أعرضوا عن الصراط السوىّ عذبوا وأذيقوا طعم الموت ، فقتل المؤمنون الصابرون تلك الفئة التى عبدت العجل .

وفى التوراة : أن القتلى ثلاثة آلاف لاسبعون ألفا كما يقول بعض المفسرين ، قال فى الاصحاح الثانى والثلاثين وقف موسى فى باب المحلة وقال : من للرب فالىّ ، فاجتمع اليه جميع بنى لاوى ، فقال لهم : هكذا قال الرب إله اسرائيل ، ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومرّوا وارجعوا من باب الى باب فى المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه ، وكل واحد قريبه ، ففعل بنولاوى بحسب قول موسى ووقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل .

(الياقوتة السادسة ، والسابعة)

وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ✲ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ✲ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ✲

التفسير اللفظى

يقول تعالى (وأنزلنا عليكم) فى التيه (المنّ والسلوى) الترنجبين والسمانى ، والأوّل شىء يقع على الشجر طعمه كالشهد (كلوا من طيبات مارزقناكم) أى قلنا لهم ذلك فظلموا بأن كفروا هذه النعم (وماظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالكفران لأنه لايتخطاهم ضرره (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) أى بيت المقدس ، وقيل أريحاء أمروا به بعد التيه (فكلوا منها حيث شئتم رغدا) واسعا ، نصب على المصدر (وادخلوا الباب) أى باب القرية أو القبة التى كانوا يصلون إليها (سجدا) حال ، وهو جمع ساجد (وقولوا حطة) أى مسألتنا أن تحط عنا خطايانا (نغفر لكم خطاياكم) بسجودكم ودعائكم (وسنزيد المحسنين) ثوابا (فبدّل) فغير (الذين ظلموا قولا غير الذى

قيل لهم) إذ بدّلوا الحطة بالحنطة وقالوا مامعناه « حنطة حمراء » أونحوذلك استخفافا بأمرالله (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا) عذابا (من السماء) إذ أرسل الله عليهم طاعونا فهلك منهم كثير (بما كانوا يفسقون) أى يعصون ويخرجون عن أمر الله . انتهى التفسير اللفظى .

الايضاح

يقول تعالى : وأنزلنا عليكم فى التيه المنّ والسلوى وقلنا كلوا من هذه الطيبات ولاتدّخروا فكفروا النعمة وادّخروا فمنع عنهم ذلك الرزق وماظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، واذ قلنا لهم بعد خروجهم من التيه على لسان يوشع ادخلوا بيت المقدس الخ وقوله رغدا أى واسعا لاحجر فيه سجدا أى متواضعين خاشعين لله عزّوجل والمنّ هوالترنجبين كان ينزل كالندى من الفجر الى طلوع الشمس ، والسلوى هو طير السمانى .

قال فى الاصحاح السادس عشر من سفرالخروج : فكلم الرب موسى قائلا سمعت تذمر بنى اسرائيل كلهم قائلا : فى العشية تأكلون لحما ، وفى الصباح تشبعون خبزا ، وتعلمون أنى أنا الرب إلهكم ، فكان فى المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة ، وفى الصباح كان سقيط الندى حوالى المحلة ، ولما ارتفع سقيط الندى اذا على وجه البرية شىء دقيق مثل قشور كالجليد على وجه الأرض ، ثم قال لهم موسى : هوالخبز الذى أعطاكم الرب لتأكلوا هذا هوالشىء الذى أمر به الرب لتعطوا منه كل واحد على حسب أكله اه

وهذا قادهم الى سوء فعلهم وأضلهم جهلهم ، فبدّلوا قول الله عند دخول باب القبة التى كانوا يصلون بها « قولوا حطة » أى فاستهزءوا وقالوا « حنطة فى شعرة » على رأى غير ماتقدم ، يريدون أنهم لايعنيهم شأن الذنوب والخطايا ولاالتوبة ومأشبهها ، وانما همهم الطعام والغذاء ومستلذات الحياة ، فهذه المخازى الفاضحة ، والعيوب الواضحة ، سجلت عليهم فى التوراة والقرآن ، وحفظها لهم فى سجله الزمان ، عبرة للمذكرين ، وتبصرة للمسلمين .

(الياقوتة الثامنة ، والتاسعة)

وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ *

التفسير اللفظى

قال تعالى (واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر) أىّ حجركان ، فضرب (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) على عدد الأسباط (قد علم كل أناس) كل سبط (مشربهم) عينهم التى يشربون منها ، وقلنا لهم (كلوا) من المنّ والسلوى (واشربوا) من ماء العيون (من رزق الله) أى الجميع مما رزقكم الله (ولا تعثوا فى الأرض) لاتفسدوا فيها ، والعيث أشد الفساد (مفسدين) حال مؤكدة (و إذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد) وهو مارزقوا فى التيه من المنّ والسلوى (فادع لنا ربك) سله وقل له (يخرج لنا) يظهرلنا و يوجد (مما تنبت الأرض من بقلها) وهوما أنبتته الأرض من الخضر ، والمراد به أطايب البقول كالنعناع والكرفس والكراث ونحوها (وقثائها) معروفة ، وقيل هو الخيار (وفومها) هو الحنطة أوالثوم (وعدسها و بصلها قال أتستبدلون الذى هوأدنى) أدون قدرا (بالذى هوخير) يريد به المنّ والسلوى (اهبطوا مصرا) أى ان أبيتم إلا ذلك فأتوا مصرا من الأمصار (فانّ لكم) من نبات الأرض (ماسألتم وضربت عليهم الذلة) أى جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم (والمسكنة) الفقر والفاقة (وباءوا) رجعوا (بغضب من الله ذلك) أى ماسبق من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب (بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله و يقتلون النبيين بغير الحق) بسبب كفرهم بالمعجزات (ذلك) القتل والكفر (بما عصوا وكانوا يعتدون) يتجاوزون أمرى (إنّ الذين آمنوا والذين هادوا) أى اليهود (والنصارى والصابئين) قوم كانوا يعبدون الكواكب التى يزعمون أنها تقرّبهم إلى الله (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) أى من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدّقا بقلبه بالمبدأ والمعاد ، عاملا بمقتضى شرعه (فلهم أجرهم عند ربهم) الذى وعد لهم على ايمانهم (ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون) حين يخاف الكفار من العقاب (و إذ أخذنا ميثاقكم) عهدكم يامعشر اليهود (ورفعنا فوقكم الطور) يعنى الجبل العظيم لما عصيتم أن تقبلوا التوراة لما فيها من التكاليف الشاقة فصار كالظلة فوق رءوسكم وقلنا (خذوا ما آتيناكم) أى ما أعطيناكم (بقوّة) بجدّ واجتهاد (واذكروا مافيه) أى ادرسوا مافيه وتفكروا فيه (لعلكم تتقون) لكى تتقوا المعاصى (ثم توليتم من بعد ذلك) أى أعرضتم عن الوفاء بالميثاق (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) بتوفيقكم للتوبة (لكنتم من الخاسرين) المغبونين بالانهماك فى المعاصى (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت) وهو مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت ، وقد اعتدوا فيه أى جاوزوا ماحدّ لهم فيه من التجرّد للعبادة وتعظيمه ، واشتغلوا فيه بالصيد ، وسيأتى ايضاحه فى ﴿ سورة الأعراف ﴾ عند قوله تعالى « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر » الآية (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) جامعين بين القردية والخسوء ، وهو الصغار والطرد (فجعلناها) أى المسخة والعقوبة (نكالا) عبرة تنكل أى تمنع

المعتبر بها (لما بين يديها وما خلفها) أى لما قبلها و بعدها (وموعظة للمتقين) لكل متق سمعها . انتهى التفسير اللفظى .

الايضاح

لما أسلف الله ذكر إظلالهم بالغمام وإغداقه النعم عليهم بالغذاء ، وكيف أعرضوا كافرين ، وتولوا مشركين : أبان الله فى هذه الآيات كيف فجر لهم ينابيع الماء من الصخر ، وكيف تولوا بعد ذلك الانعام باظلال الغمام من الحر و إنزال المنّ والسلوى وتفجر الماء إذ ضرب موسى بعصاه ، ثم كيف سئموا النعمة و بطروا الفضل وجهلوه فلم يشكروه فطلبوا أن يستبدلوا الذلّ بالحرّية ، وطعام المدن بما أكرموا به فى البدو ، وهم فى أمن ودعة وراحة ، وكيف كفروا بالرحمن وقتلوا المصطفين الأخيار من الأنبياء والمرسلين ، وكيف عصوا أن يقبلوا التوراة فأرغموا على قبولها ، ورفع الطور فوق الرءوس فذلوا صاغرين ، وقبلوها مكرهين ، وكيف ضلّ منهم فريق أيام داود عليه السلام فى مدينة أيلة [العقبة] فصادوا السمك يوم السبت بحيلة دبروها وقشور شرعية من الجهل استخرجوها فمسخوا قردة فى أعمالهم وصاروا فى صورة انسانية ونفوس قردية . كما هو شأن المقلدين فى الباطل الغافلين الذين لا يفكرون .

و يقولون : قد أفتانا شيخنا فلان ، وما هو بمغن فتيلا ولا قطميرا «وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار . قال الذين استكبروا إنا كلّ فيها إنّ الله قد حكم بين العباد » فليعتبر المسلمون اليوم وليعلموا أنه لن ينفعهم أضاليل الدجالين ولا أكاذيب المرجفين لهم المسهلين طرق الكسل حتى ناموا على وساد الراحة وخمدوا خمود النار ضربها البرد بما أزجاه المثبطون للهمم ليتيموا الناس على مهد الرجاء فأصبحوا لا ترى الا جسومهم ، وهم غافلون عن الأعمال محرومون من الآمال .

ايضاح الكلام فى قوله تعالى « اهبطوا مصرا فانّ لكم ماسألتم » الآيات

اعلم أن هذه القصة وغيرها تعليم للمسلمين وتربية وتذكير لهم ، لأن بنى إسرائيل انقضى أمرهم ، وذهب ريحهم ، وفات دورهم . ذلك أنهم لما كانوا فى التيه ، وهواؤهم طلق : وهم فى البادية وشظف العيش تبرءوا من رجس المدنية وخبث المدن ، وفسق أهلها ومرضهم و بطنتهم وجشعهم ، وقلة أدبهم ، وسقوط أخلاقهم وكذبهم ، ونفاقهم ، وحمقهم ، وحرصهم ، وادّخارهم ، وكدحهم ليلا ونهارا ، فالشهوات الحارة تلدغهم وتحرقهم فيصطلون بنارها ، و يقارفون الفجور و يأكلون أكلا لما ويحبون المال حبا جما و يتخبطون فى دياجير الذنوب والمعاصى والعيوب ، ويكون رؤساؤهم أخسهم مقاما ، وأردأهم أخلاقا ، وأشدّهم نفاقا ، وأقربهم إلى الشرور وأبعدهم عن الخيرات ، وتقلّ بينهم الأمانات ، ولا يخافون ربّ العالمين ، بل سطوة الحاكمين ، وتكثر أمراضهم لكثرة الألوان فى طعامهم ، ويكونون جبناء هلعين فزعين ان فاجاهم عدوّ فرّوا خائفين ، وولوا هاربين . هذا شأن المدن ، وهذه سجية أهلها ، ولا تستثن منهم أحدا . إلا أن الممالك الكبيرة تكون لها جيوش مدرّبة على الحرب يحرسون بلادهم ويحاربون أعداءهم ، وهم فى أنفسهم خوّارون ، قتلتهم شهواتهم فلا ينفعهم فى قتال عدوّهم الامضاء أسلحتهم ، ووفرة مدافعهم ، وكثرة الطيارات فى جيوشهم . فأما أهل البادية الذين تنزهوا عن رجسهم ، وخلصوا من بطشهم ، وتجافوا عن جبنهم ، وقربوا من الفضيلة ، وابتعدوا عن الرذيلة وقويت أبدانهم ، وعظمت نفوسهم ، وهم شجعان كرماء فأولئك إذا أعطوا سلاح أهل المدن قاتلوهم فغلبوهم واستأصلوهم ، ولذلك ترى أن الأمم التى فى المدن إذا طال عليها الأمد غلبتها على أمرها تلك الأمم البدوية ، وورثت أرضها وديارها ، وحلت مكانها ، ثم يتناسل هؤلاء فى المدن جيلا بعد جيل ، و يتبعون سنن من قبلهم

شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، ثم يأتى آخرون فيغلبونهم على أمرهم « وتلك الأيام نداولها بين الناس » على ذلك درج الأمم قديما وحديثا . فدولة الرومان : لما استفحل أمرها ، وعلت كلمتها ، وخضعت لها الرقاب ، وذلت لها الأعناق ، هجمت عليها الأمم الوحشية البدوية العاتية الجاهلة العارية من سابغ الرغد ونعيم الحياة ففتكت بهم ، وورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهاهم أولاء اليوم أصحاب الحول والطول فى أوروبا . وقد مضى على ملكهم نحو ألف سنة ، وكأنهم أيضا أصبحوا وقد ملك رقابهم الترف وانغمسوا فى اللذات وغرقوا فى بحر لجى من الظلم والمعاصى والفتك فأصبحت مدارسهم لتعليم الاجرام ، والفتك والاغارة على الأمم ، وقد آن أوان أن تبيدهم أمم أبعد عن الترف ، وأقرب الى حال البداوة ، وتحل محلهم كما فعل آباؤهم مع دولة الرومان . وهكذا ترى أن الأمّة العربية ، لما نزل عليها القرآن أنار بصائرها ، وأغلى مراجلها ، وبعث الحرارة الدينية فى نفوس أبنائها فأخذت تمتد الى سائر الجهات ، فملكت دولة الفرس التى قتلتها البطنة والنعيم وامتدت من جهة أخرى إلى بلاد الروم وأحاطت بها وحلت محل الأمتين . ثم طال على الأمّة العربية الأمد وأسكرها النعيم فجاء إليها التتار من المشرق ، والفرنجة من المغرب فحلوا بساحتها وساء صباح المنذرين ، وصارعوها فصرعوها فنامت الى حين . ثم هى الآن تريد أن تأخذ مكانتها . وبالجملة ليس للأمم من سعادة الا بالتجافى عن اللذات والتباعد عن الشهوات ، والاقلاع عن البطنة ، والاقلال من دواعى الترف والنعيم ، فهؤلاء بنو إسرائيل لما كانوا فى مصر ذاقوا حلاوة المدنية ، ونعيم العيش فأنسوا باللذات واستخذوا للشهوات فذبح فرعون رجالهم واستحيا نساءهم ، فأمر موسى أن يخرج بهم فخرجوا وبعدما أمروا بقتال الجبارين ضلوا فى التيه وتاهوا فى بيدائه وجالوا فى فسيح هوائه الطلق وعاشوا فى صحراء قحلة تعلموا فيها ضروب الشجاعة والعفة والاعتماد على النفس فتربوا هناك أربعين سنة . يقول العلماء حضانة الأخلاق أربعون ، وحضانة العلم عشرون ، فلما أنسوا من أنفسهم القوّة وأحسوا بالمنعة ، وأنهم أقوى من آبائهم الذين ختم الترف ونعيم العيش فى مصر على قلوبهم راموا أن يتمتعوا بلذيذ العيش ونعيم المدن ، فقالوا (ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير) يقول الله أتذرون ماهو خير ، وتأخذون ماهو أدنى ، وكيف ترضون أن تتركوا عيشة البادية الهادئة الحرّة النقية الصافية التى تقلّ فيها الأطعمة فتصح الأبدان ، وتطول الأعمار ، وتقوى النفوس وتطوّحون بأنفسكم الى المدن التى تسقم الأبدان ، وتذلّ النفوس بالمرض ، واذلال الحكام ، وموت الشجاعة والاتكال على الجماعة ، وتكون حراسة المدن بطائفة من الجند ، والأمّة كلها عالة على حكامها عارية عن المنعة والقوّة يسامون الخسف ويلبسون لباس الذلّ . إذا أبيتم إلا ذلك ف(اهبطوا مصرا فانّ لكم ماسألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) ثم ان جميع ماخاطب الله به بنى إسرائيل لم يقصد به الا نحن أبناء العرب ، ومن معنا من الأمم ، وان جميع قصص الأنبياء تنبيه وارشاد . قال تعالى « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » وقال « اتبعوا أحسن ماأنزل إليكم من ربكم » وقال « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » ، وروى أن قتادة قال : ذكرلنا أن عمر بن الخطاب كان يقول : قدمضى والله بنواسرائيل وما يغنى ماتسمعون عن غيركم ، فليكن للسامين عبرة فى هذه القصة . وفى التاريخ : فان بنى إسرائيل لما دخلوا أرض كنعان واستفحل ملكهم مئات السنين أخذهم الترف وجاءهم بختنصر فأسرهم وأجلاهم وأخرب ديارهم ثم رجعوا بعد حين فأجلاهم الروم مرّة أخرى بعد المسيح ، وهاهم أولاء فى الأرض متفرّقون شذر مذر « فى كلّ واد يهيمون » .

الفوائد الطبية فى هذه الآية

لقد أظهر الطبّ الحديث فى هذا العصر مخزيات المدنية ، ومصائبها الطبية ، وأبان أن الاكثار من اللحم وشرب الخمر والتدخين بالتبغ ، وشرب القهوة ، والشاى ، والكاكاو ، وأضرابها من الممرضات والقاتلات .

وقال أساطين الأطباء : ان معيشة المدن اليوم أصبحت لاتطاق . فعلى الناس أن يقللوا من الأدوية التى فى الصيدليات المسماة [أجزاخانات] بل قال أكابرهم ان هذه ستمحى من الوجود لما فيها من الضرر بنوع الانسان ، وأثبتوا أن المآكل المركبة ، والتى هى كثيرة الغذاء ضررها كثير ، ومنعوا شرب الماء على الطعام وأكل الطعام وشرب الشراب الحارّين لضررهما بالأسنان والحلق واللسان . وقالوا ان أهل البادية أقوى أجساما وأصح عقولا لاقتصارهم على الحنطة والتمر ، وطلبوا من الناس الاقتصار على الحبوب والفاكهة ، وأن يقللوا ما استطاعوا لذلك سبيلا .

ويقول هؤلاء الأطباء العصريون : ان العناية الالهية تكفلت باصلاحنا . ألا ترى أن الجرح يأخذ فى الاندمال شيئا فشيئا بلا عمل من الانسان ، وهل ذلك الا للعناية الالهية التامّة فى الطبيعة ، فعلينا اذن أن يكون جلّ عنايتنا بالهواء النقىّ والرياضة والغذاء الصحىّ معرضين عن الأغذية المهيجة ، وعن اكثار اللحم ولنقصد العمل المعتدل ولنستحمّ بالماء البارد أو الفاتر ، حتى يقوى المريض على مكافحة المرض ، ونترك الأدوية المعتادة ماوجدنا الى ذلك سبيلا . وقد منع التداوى بالعقاقير المتراكمة فى الصيدليات الدكتور [غرانيشتاتن] وهو من عظماء الاساطين فى الطبّ بألمانيا . ومن العجيب أنه منع المداواة بها سواء أكانت جيدة أم رديئة ويقرب منه فى ذلك الدكتور كيسر الذى قال : يجب أن يعزل المريض عن الطبيب كما يجتنب السم القتال ، وإنما قال ذلك مبالغة ، يحرض الناس على حفظ صحتهم . وقال الأستاذ ستيفنس الأستاذ بالكلية الطبية فى نيويورك كلما كثر تجارب الأطباء ، قل اعتقادهم فى تأثير العقاقير ، وزاد اعتقادهم فى قوى الطبيعة ويقرب منه الدكتور سميث ، وقد قال مثل هذه الأقوال مايربو على ثمانين عالما من الأمم المختلفة فى زماننا .

واعلم أنى كنت فى زمن الشباب ، قد اعترانى مرض ولم أجد طبيبا يداوينى لأنى كنت فى بلاد الريف فوقع فى يدى كتاب يسمى الطب النبوى للشيخ الذهبى ، فكنت أستخلص منه فوائد أعمل بها . ومن عجب أن مانقلته لك عن أطباء أوروبا صورة مكبرة له ، ولست أقول انهم نقلوا عنه كلا ، وانما رأيت تشابه الأقوال فلقد قرأت فى هذه الكتاب ان الادوية ضارّة الاعندالاضطرار ، وأن المرض له نموّ كنموّ النبات ودور انحطاط بحقات معلوم والطبيب لاعمل له الا تلطيف المرض ، وفيه : إياك أن تقرب المسهل الاعند الضرورة ، واذاقدرت أن تتداوى بالغذاء فاحذر أن تتداوى بالعقاقير ، وحرّم الشرب على الأكل ، وقد عملت به إذ ذاك وانتفعت به وصح جسمى ، ولقد كنت أيام تلك الحمية كثيرا ما أترك الشراب بعد الأكل ثلاث ساعات أو أربعا كما قرأته فى كتب الطب القديمة التى لم أكن أعرف سواها ، ففيها أن ترك الشرب بعد الأكل من ساعة إلى أربع على حسب اختلاف الأمزجة ، أما علماء العصر الحاضر فقد توسطوا وقدّروها بساعتين اثنتين غالبا ، وقد انتفعت بتلك الحمية ولله الحمد ، ولكن لما طال الزمن لم أجد من الأطباء من يؤيد هذا فى عصرنا الا قليلا حتى قرأت هذا عن أطباء أوروبا فأوضحوا مناهجهم ، أوليست هذه المناهج هى التى نحانحوها القرآن ، أوليس قوله « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » رمزا لذلك ، كأنه يقول العيشة البدوية على المنّ والسلوى : وهما الطعامان الخفيفان اللذان لامرض يتبعهما مع الهواء النقىّ ، والحياة الحرّة أفضل من حياة شقية فى المدن بأكل التوابل واللحم والاكثار من ألوان الطعام مع الذلة ، وجور الحكام والجبن وطمع

الجيران من الممالك فتختطفكم على حين غفلة وأنتم لاتشعرون ، بمثل هذا تفسر هذه الآيات ، و بمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله ، و بهذا فليعملوا وليوصوا الابناء بالاقلال من اللحم وتحريم شرب غير الماء الا فى أحوال خاصة وأن يستنشقوا الهواء النقى ، و يروضوا أجسامهم بالتعاليم العسكرية ، وليكن جميع الشبان متمرّنين عليها ، وذلك لا يمنعهم من مزاولة أعمالهم فى الحقول والمدارس : ولتتعلم جميع الأمّة الأعمال العسكرية ، وليست فرق الكشافة فى المدارس بمغنية عن ذلك ، وليقللن من الاسراف والشهوات ، فالنعيم فى ترك النعيم والافليخافوا من قوله تعالى (اهبطوا مصرا فانّ لكم ماسألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) وتعاليم القرآن والسنة تنحو هذا المنحى والا فلم يقول الله « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق و بما كنتم تفسقون » ؟ أفلست ترى أن الطيبات وان كانت حلالا لنا إذا أكثر الناس منها ، كما قال الاطباء فى هذا المقام يمسهم المرض فى الاجسام ، والذلّ فى المدن ، والعذاب فى الآخرة ، والقرآن عبر عن هذا كله بقوله « فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق » أو ليس قوله « و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميرا » ينحو هذا المنحى ، وهو أن نفوسهم تمرض وتجبن وأجسامهم ينهكها الضعف وعدوّهم يقتلهم ، وهذا سرّ تلك المحاورة المشهورة بين ابن زياد وسيدنا عمر رضى الله عنه اذ قال ابن زياد : مامعناه لو اتخذت لك ياأمير المؤمنين طعاما طيبا ولحما طريا لكان أوفق لك ؟ فقال يار بيع لو شئت لاتخذت طعامى من الرقاق والصناب [وهو الزبيب المصنوع مع الخردل يقوى شهوة الطعام] ولكنى رأيت الله عير قوما ، فقال « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم » الآية .

وأقول : كرّة أخرى على المسلمين فى أقطار المسكونة أن يتعلموا الفنون الحربية تعلما اجباريا ، وأن يمنعوا من الكسل و يلزموا العمل ، وأن يربوا أبناءهم على الشهامة والمروءة والقناعة . ألم تر إلى أسلافنا العباسيين والأمويين إذ كانوا يرسلون أبناءهم فى صغرهم إلى البادية تقوية لأبدانهم واجادة لصحتهم ونموّا لعقولهم ، أو ليس أهل أمريكا اليوم يرسلون أبناءهم الى الجزر المتوحشين يعيشون معهم فى الجبال مكشوفين لضوء الشمس ونور القمر وجمال الكواكب ، هكذا فليفعل المصريون من أهل النعيم ، وليرسلوا أبناءهم إلى اخوانهم العرب المصريين ليتربوا هناك قبل دخولهم المدارس ليعيشوا فى جبال مصر وأوديتها لتقوى أبدانهم و يكون منهم شجعان أقوياء ، ولينح هذا المنهج جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولقد بلغنا أن اخواننا الفرس بلغوا فى ذلك مبلغا عظيما فى هذا الوقت الحاضر ، وأنهم يمرّنون أبناءهم من ابان صغرهم على الفروسية والاقدام ، وهذا من أعظم مقاصد الدين .

أما الاستخذاء للشهوات ، فانما هو الاستعباد بعينه والاسترقاق ، فان الترف داع إلى المعاصى والمحرمات وتجاوز الحدود والاعتداء ، وهذه تدعو الى ترك نصح الناصح والتمادى فى الضلال ، بل ربما فتك العصاة بمن نهاهم عن القبيح واسترسلوا فيه ، بل ربما قتلوا العلماء والحكماء ونفوهم عن الأوطان وشرّدوهم كلّ مشرد ، كما ترى فى زماننا أن الفسقة والفجار يخلعون العذار و يذمّون الأبرار ، واذا قدروا على سجنهم أو نفيهم أو قتلهم كان ذلك لامحالة ، وهذا قوله تعالى (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله و يقتلون النبيين بغير الحقّ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) فهى مراتب ثلاث بعد المعيشة فى البادية : الأولى الاسراف فى الترف ، الثانية العصيان والتعدّى ، الثالثة قتل الأنبياء ، وللأولى الاشارة بقوله (اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم) ، وللثانية الاشارة بقوله (ذلك بما عصوا) الخ ، وللثالثة الاشارة بقوله (و يقتلون النبيين بغير الحق) « والله يقول الحقّ وهو يهدى السبيل » انتهى .

ايضاح الكلام فى قوله تعالى : إنّ الذين آمنوا والذين هادوا . الآية

يقول « إنّ الذين آمنوا » بدين محمد بألسنتهم وفى قلوبهم الشك « والذين هادوا والنصارى » جمع نصران «والصابئين» وهم عبدة الملائكة فالكواكب فالأصنام ويقولون انها شافعة ، فالأصنام تقوم مقام الكواكب والكواكب كأنها أجسام ، أومحال التصرّف للملائكة ، والملائكة شفعاء عندالله ، كل هؤلاء « من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا » أى استكمل قوّتى العلم والعمل « فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون » والمراد باليهود والنصارى والمجوس الذين اتبعوا دينهم قبل النسخ ، أما اذا نسخ الدين فانه يتنزل بمن اتبعه الى أسفل . واعلم أن هذه الآية ترشدنا الى مكارم الأخلاق فى معاملة الناس ، فان الجاهل يحقد على من آذاه ، ولا يعفو ، وينتقم ولو بعد حين ، أما العاقل فانه اذا رجع المذنب عن ذنبه ، وانضمّ الى جانب من أذنب اليه قبله وانتفع به ، فالمنافقون وأهل الكتاب المعادون للأنبياء متى آمنوا وتابوا كان لهم مالنا ، وعليهم ماعلينا . ومن عجب أن هذا نفسه تفعله الدول ، فأىّ دولة غيرت سياستها مع أخرى بعد أن ذبحت رجالها ، واستحيت نساءها ، وقالت لها . ان مصلحتى أن أكون معك ، تبدّلت العداوة بالمحبة وتصافتا وتضامنتا ، وهذه هى السياسة التى يقوم بها السوّاس فى المدن التى يسير عليها مجموع كل دولة . وقد قال علماء الأخلاق : لتكن سياسة الانسان مقيسة على سياسة الأمة ، فالفرد كالأمة ، هذا كلام علماء الأخلاق ، فأما هنا فهى السياسة العليا ، والمثل الأعلى ، والمقام المحمود ، مقام النبوّة المنبثق نوره من الجلال الأقدس ، والنور الأعلى ، والجمال الأجلى ، والكمال الذى ليس فوقه كمال ، فتى تاب المرء ذهبت خطيآته كائنة ما كانت ، فلنسر على ماسنه الله ولانحمل الحقد على من قدّم لنا توبة خالصة ، ولنعامله ، ذلك هوالسنن والصراط المستقيم اهـ

(الياقوتة العاشرة من الفصل الاوّل)

قصة البقرة وما أودع فيها من الحكم :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ * قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ * قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا ٱلْآنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَٱدَّارَأْتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً

وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ☆

مقدمة لتفسير الآية

روى المفسرون حكاية عن بنى اسرائيل كانوا يتوارثونها كابرا عن كابر تهذيبا للنفوس ، وحبا للوالدين ، وطاعة لله تعالى ، ونحن نذكرها مختصرة للفائدة النافعة :

حكى أنه كان رجل صالح فى بنى اسرائيل ، وكان له طفل ، وله عجلة ، فانطلق بها الى غيضة ، وقال : اللهم انى استودعتك هذه العجلة لابنى حتى يكبر ، فلما مات الرجل وكبر الولد كان بارّا بأمه ، يقسم ليله ثلاثة أقسام يصلى ثلثا ، وينام ثلثا ، ويجلس عند رأس أمه ثلثا . وفى النهار يحتطب فيتصدّق بالثلث ، ويأكل الثلث ، ويعطى أمه الثلث ، فقالت له أمه يوما : يابنىّ انطلق الى غيضة كذا ففيها العجلة التى تركها لك أبوك ، وأفهمته علاماتها ، فلما ذهب الى الغيضة عرفها وقادها ورجع الى أمه ، فقالت له : بع البقرة فى السوق بثلاثة دنانير على شرط أن تشاورنى ، فذهب الى السوق ، فأعطى أكثر من ثلاثة ، فلم يرض إلا باستشارة أمه ، وقال لطالبها : لوأعطيتنى ملء جلدها ذهبا لم أبعها إلا باذن أمى ، فلما رجع الى أمه ، قالت : لاتبع هذه البقرة ، فسيكون لها شأن ، واتفق أنه كان فى بنى اسرائيل شيخ موسر فقتل بنوأخيه ابنه طمعا فى ميراثه ، وطرحوه على باب المدينة ، ثم جاءوا يطالبون بدمه ، وسألوا سيدنا موسى . انتهت المقدمة :

التفسير اللفظى

فلنشرع فى التفسير المبنى عليها . قال الله تعالى (وإذ قال موسى لقومه) لما سألوه أن يبين لهم ماأشكل عليهم من أمر القتيل (إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا) أى نحن نسالك أمر القتيل وأنت تستهزىء بنا وتأمرنا بذبح البقرة (قال) موسى (أعوذ بالله) أمتنع بالله (أن أكون من الجاهلين) بالجواب إذ يجعلونه غير موافق للسؤال (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى) ماحالها وصفتها (قال انه يقول انها بقرة لافارض ولا بكر) لامسنة ولافتية (عوان) نصف : أى وسط بين الصغير والكبير (بين ذلك) أى بين ماذكر من الفارض والبكر (فافعلوا ماتؤمرون) ولاتسألوا (قالوا ادع لنا ربك) سله (يبين لنا مالونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها) شديد الصفرة (تسرّ الناظرين) لحسنها (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى) أسائمة هى أم عاملة (إنّ البقر تشابه علينا) أى ان البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا (وانا ان شاء الله لمهتدون) الى المراد بذبحها (قال انه يقول انها بقرة لاذلول) لامذللة (تثير الأرض) تحرث الأرض (ولاتسقى الحرث) لايستسقى عليها بالسواقى الحرث (مسلمة) من كل عيب (لاشية فيها) لالون فيها غيرلونها (قالوا الآن جئت بالحقّ) بالبيان التام (فذبحوها وما كادوا يفعلون) أى وما قاربوا أن يفعلوا ما أمروا به قبل لغلاء ثمنها ، أولعزّة وجودها بهذه الأوصاف (وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها) اختصمتم فى شأنها (والله مخرج ماكنتم تكتمون) مظهره لامحالة ، ثم عطف على ادّارأتم قوله تعالى (فقلنا اضربوه) القتيل (ببعضها) أى بأىّ بعض كان ، فضربوه فحيى ، ثم خاطب الله من حضروا حياة القتيل ، أومن حضروا نزول الآية ، فقال (كذلك يحيي الله الموتى) للبعث (ويريكم آياته) دلائله على كمال قدرته (لعلكم تعقلون) تمنعون أنفسكم عن المعاصى (ثم قست قلوبكم) القساوة الغلظ مع الصلابة كما فى الحجر (من بعد ذلك) أى بعد إحياء القتيل (فهى كالحجارة) فى قسوتها (أوأشدّ قسوة) منها (وان من الحجارة لما يتفجر) يخرج (منه الأنهار وان

منها لما يشقق) يتصدّع (فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط) أى يتدحرج من أعلى الجبل الى أسفله (من خشية الله) وقلوبكم لاتتحرّك من خوف الله (وما الله بغافل عما تعملون) أى ان الله بالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم حافظ لأعمالهم حتى يجازيهم فى الآخرة . انتهى التفسير اللفظى .

ايضاح هذه الآيات وعجائبها

خالط بنواسرائيل الأمة المصرية ، وأشربوا فى قلوبهم العادات الوثنية ، والأخلاق الفرعونية ، فعبدوا عجولهم ، وقدّسوا أصنامهم ، ولصقت بهم عاداتهم ، ورسخت فى طباعهم رذائلهم كما هوشأن المغلوب مع الغالب والضعيف مع القوىّ ، والولد مع الوالد ، والتلميذ مع الاستاذ ، والجاهل مع العالم ، والفقيرالضعيف مع القوىّ الغنى ، وكما هوشأن الأمم التى استضعفها الأقوياء ، واستذلها الباطشون ، وشأن ضعاف الأمم الشرقية مع الأمم الغربية ، فانظركيف غلب على بنى اسرائيل ماعلق بأذهانهم ، ورسخ فى طباعهم من عبادة العجول حتى اتخذوا العجل وعبدوه كما كانوا يرون [ابيس] معبود المصريين ، وهذا شأن البشر يتخذون أوهام الغالبين الذين استوثق لهم الأمر ، وتمّ لهم النصر عليهم ، وماحال بنى اسرائيل فى التيه العابدين للعجل إلا كمثل من أذلهم المستعمرون الغاصبون ، فتعلقوا بأذيال ظالميهم ، وغرّهم سرابهم الخادع ، وهذا شأن البشر فى كل قبيل ، وكما يقول المتعلم الشرقى قال المسيو فلان والسير فلان ، وهم قد ضربوا بيد من حديد ، فلم يكن للنبى موسى عليه السلام بدّ من انتهاز فرصة القتيل الذى اشتجروا عليه وتخاصموا وكان من الأغنياء الموسرين فقال اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ، فضرب بحجرين ورمى الجهل بسهمين ، فأنساهم عبادة العجول ، وأراهم أن للأموات حياة و بعثا بعد أن أرهقهم بأمر الله بما وصف من البقرة النادرة العزيزة النظير بعد أن عبدوا العجل الذهبى وكيف وصف قلوبهم بأنها كالحجارة أوأشدّ قسوة وفضل الحجارة عليها بأن قال : « وان من الحجارة لما يتفجرمنه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء » .

لقد سبق أن ذكر الحجرالمضروب بالعصا وهومعجزة نادرة الوقوع صارت على يدنبىّ ، ولقدألمع فى هذه الى رحمة الله الواسعة ، وفضله العميم ، وخيره الجسيم ، إذ كانت الجبال كلها مخازن للماء الذى سلكه فى باطنها مما أمطره السحاب فأصابه البرد فصارثلجا يكسرالحجرالصلد ، والصفا الملد ، وتتفجرالينابيع .

يقول الله : لئن ضرب موسى الحجر بعصاه فعصاى التى أضرب بها ذلك الناموس العجيب ، والابداع الغريب ، والنظام البديع ، إذ جعلت للماء اذا جمد خاصة لايشركه فيها سواه ، وطريقة لايسلكها ماعداه ، ذلك أنه اذا جمد فصارثلجا أكبرت حجمه فكسرالصم الصلاب ، وفجرالأنهار ، تلك عصا ربك التى يكسربها الأحجار ، وهوعامّ الجود ، دائم المعجزات ، ماتوالى الحدثان ، وتناجى الفرقدان ، فالمعجزات الالهية لانهاية لعددها ولا آخرلمددها ، دائمة لاتبيد ، وقائمة لاتفنى ، خفيت على الجهلاء ، وظهرت للعلماء والحكماء « لايعقلها إلا العالمون » (بكسراللام) ولايدرك كنهها الغافلون ، ذلك داع حثيث الى النظر فى العلوم الطبيعية ، وعار على أمة الاسلام أن تجهل عصا الله الناموسية المفجرة للأنهار ، الكاسرة للأحجار ، كل ليل ونهار ، وكل صباح ومساء فى مشارق الأرض ومغاربها ، والافكيف اختص الحجر بالضرب : أليس ذلك تنبيها للغافلين وتذكيرا للجاهلين من المسلمين والأمم أجمعين ، وعدم نسيانهم مجد آبائهم وعلومهم كما نسى بنو إسرائيل التوراة المنزلة على موسى ، وهو رجل منهم ان الانسان ظلوم جهول [يقول الله] ان الماء مخزون فى الاحجار ومنها تنفجر الأنهار ، فهلا ضرب شجرة ، أو بقرة ، أو خيمة ، وإنما هداه الله بالوحى إلى مايبعث فى النفوس حكمة . وفى العقول فهما ليجدّ الناس فى العلوم . هذا هو السرّ فى قوله تعالى — وما نرسل بالآيات — [خوارق

العادات]

العادات] ــ إلا تخويفا ــ ثم يقول « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » .

بمثل هذا تكون الذكرى وبمثل هذا يستيقظ الساهون ويأخذون حظهم المنشود ويومهم الموعود .

تفجر الأنهار من الجبال والأحجار إنما كان بما اختصت به المياه من حكمة الانتفاخ إذا جمدت كما علمت ، وتعجب كيف ضربت الشمس الرياح وأرسلت عليها أشعتها فأجرتها فأخذت تعدو وتموج فى مخارق الجو وفسيح باحاته ، وهى تحمل قطرات الماء الخافية المسماة بالأبخرة الغاديات الرائحات حتى اذا اصطكت بالجبال الراسيات صدّتها وأرجعتها ، فحبست ورجعت وكوّنت سحابا فسقت الحقول والرياض ، فأحقل النبات وأثنى وأثلث وتشعب الشجر وفرش وأورق وأزهر وأثمر وأينع ، وما أشبه الجبال بالحبوس : أى السدود لتحفظ الماء حتى يسقى الحقل .

الجبل حبس الماء فاذاردّه وهو بخار نزل ودقا فسلك فى باطن الارض أياما حتى إذا أصابه برد تفجر ينابيع .

عجب للماء وأىّ عجب تجريه فى الجوّ الحرارة الشمسية ، وتزجيه الرياح ، ويحبسه الجبل ، ثم يخزنه فى كهوفه والمغاور المستكنة تحته ، والبرد يخرجه .

أليس من عجب أن الحرارة تجريه بخارا ، والبرد يجريه ماء .

هذه هى المعجزات ، وهذه هى الآيات ، فياحسرة على الساهين : نسوا حظهم من الحكمة ، ونسوا حقهم فى الوجود : ياحسرة على بلاد الاسلام جهلوا العلم وناموا فى المهود وسكنوا اللحود ، قوموا من مراقدكم وانظروا ماأبدع القرآن وكيف يقول (وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون) .

فان كنت جاهلا فلا تتعدّ حجر موسى وعصاه ، وان كنت عالما فانا أحرّاك أن تتغلغل فى الحكمة وتنظر فى العالم وماحواه وتردّد الطرف ، وتعلم أن الجبال كلها حجارة الله ، والنواميس الطبيعية عصيه واقرإ الطبيعة فلقد نبهك القرآن من ذكر الحجارة وتفجر الأنهار منها أن تنظر نظرات ولاتكن من أولى الجهالات .

عجائب القرآن وغرائبه

ان هذه القصة المحكية عن بنى اسرائيل معجزة لنبىّ الله موسى عليه السلام ذكرت هنا فى القرآن كسائر قصص الانبياء ، وهنا يتساءل الانسان قائلا : أىّ فائدة نجنيها من هذه القصة : اللهم إلا أن تتلى فى المحافل والمجالس الدينية ، ولكن القرآن إنما جاء ذكرى وعلما وحكمة ، فأين العلم وأين الحكمة هنا ، فربما يجاب كما أجبنا أن فيها فائدتين : الأولى أن البقرة عبدها المصريون ، فقد أراد سيدنا موسى أن يظهر لهم ان مايذبح ليس بمستحق العبادة . الثانية ان الأرواح أحياء بعد الموت ، فيكون ذلك دليلا على بقاء النفوس حية كما قلناه هنا ، ولكن هاتان الفائدتان ليستا بمقنعتين ، لأن عبادة البقرليست شائعة الآن فى الاسلام ، واحياء الميت بضربه ببعض البقرة أمر سماعى يأخذه المؤمنون بالتسليم ، فلا بدّ اذن أن يكون وراء هذا القصص أمر نافع .

أقول : اعلم أن معجزات الأنبياء لابدّ أن يكون لها عند الناس مبادئ بها نعقلها . ألا ترى أن الامام الغزالى يقول : لولا أن الناس يرون رؤيا صالحة بأنفسهم أو يسمعونها من غيرهم ، وانها وقعت كما رأوها ماصدقوا الأنبياء فى أخبارهم بالغيب . فاعلم أن هذا القرآن جاء للناس ، وهو يتلى صباحا ومساء وتمرّ عليه السنون والأعوام ، والناس يؤمنون به تقليدا وتصديقا واتباعا ، ولا يجسر أحد من المؤمنين أن يقول لم كان

كذا فيما لم يدركه فهمه حتى اذا جاء من يدرك المقصود منه عرفه فابرزه للناس . ان فى هـذه السورة أربع عجائب : عجيبة الربا ، وعجيبة الخمر ، وعجيبة احضار الأرواح ، وعجيبة التنويم المغناطيسى . أما عجيبة الربا فستأتى فى آخر السورة ، وقـد ظهر هناك أن الحرب الكبرى بين الألمان ، ودول أوروبا والشرق كانت من أجل رءوس الأموال التى كانت [البنوك] المصارف والربا أهمّ مقوم لها ، وهكذا استعباد الدول القوية للأمم الضعيفة ، وظهور [البلشفيك] فى بلاد الروس وقلبوا حكومتهم من أجل رءوس الأموال وأبطلوا الربا ، فسيأتى هناك فى الآية المذكورة فى الربا ، وقد كنا فسرناها قبل الحرب بثلاث سنين ، وقلنا قوله « فان لم تفعلوا فائذنوا بحرب من الله ورسوله » يفيد أن الحرب ستكون بين الدول لأجل رءوس الأموال . وبالأجمال أقول ان الربا ظهر ضرره باوضح معنى فى هذا العصر ، وقامت الروس بتحريمه ومنعه بتاتا ، والمسلمون فى جميع العصور لم يقدروا أن يستأصلوه ، بل انى رأيت من أفاضل المصريين المعاصرين لى من كانوا يرون أن القرآن فى تحريمه للربا كان من أسباب تأخر المسلمين ، فلما سمعوا بانقلاب دولة الروس وتحريم الربا ألجمت أفواههم بالأحجار .

وأما الخمر فسيأتى تحريمه فى هذه السورة ، وأنت ترى أن المسلمين كانوا يختلفون فى بعض أنواعه ، وهو النبيذ : وترى الأطباء قـد يبيحون تعاطيه لمرض ، والمسلمون فى أقطار الأرض يخالفون ، ومنهم من كانوا يتعجبون من القرآن ولم حرمه ، وأوروبا وهى أعلم منا تشربه ، حتى قامت أمريكا فى هذا العصر فمنعت شربه بجميع أنواعه ، وأسكتت جميع الأمم واتبعتها حكومة الترك ببلاد الأناضول التى يرأسها الغازى مصطفى كمال باشا ، وقد استولوا على الاستانة وحرّموا فيها الخمر تحريما باتا فى هذا الشهر عند كتابة هذه الأسطر ، فانظر كيف كان الخمر محرّما ألف سنة وثلثمائة فأكثر ، والناس منهمكون فى شربها والشعراء المسلمون يترنمون بها ، ولا تمنعهم الحكومات الاسلامية ولم تظهر الثمرة المطلوبة الاعلى يد أمم أخرى عرفته بعقولها لا بأديانها .

أما مسئلة التنويم المغناطيسى الذى عمّ الكرة الأرضية وصار علما يدرس رسميا و يستعان به فى علم الطبّ ، فسيأتى عند الكلام على هاروت وماروت .

وأما علم تحضير الأرواح فانه من هذه الآية استخراجه ، ان هذه الآية تتلى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم تحضير الأرواح بأمريكا أولا ، ثم بسائر أوروبا ثانيا . فلأذكر نبذة منه لنعرف كيف كان مبدأ هذا العلم وكيف كان انتشاره بين الأمم ، وفائدة هـذا العلم أن من صحت عنده أحوال الأرواح وظهورها أيقن بالآخرة وبالحياة بعد الموت ايقانا تاما . وأما من لم تصح عنده فانه مقلد كسائر الناس ، ولتعلم أن هذا العلم متشعب اختلط فيه الحق بالباطل ، والصدق بالكذب ، وصار الناس فيه طائفتين ، طائفة مكذبة ، وطائفة مصدّقة ، ولكل حجج ليس هـذا محلها ، ولكن بالاجمال أقول ان فى العلم التباسا كثيرا وشكوكا بسبب الأحوال الطارئة على المشتغلين به ، وكان الأولى بأمّة الاسلام أن تكون السابقة فى مضماره المجدّة فى تعلمه المتقدّمة على سائر الأمم فى تحصيله لتهدى الناس إلى سواء الصراط . أفلا يرى المسلم ماجاء فى هـذه السورة فى قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخـذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك ، ثم اجعل على كلّ جبل منهنّ جزءا ، ثم ادعهنّ يأتينك سعيا واعلم أنّ الله عزيز حكيم » وفعل إبراهيم ذلك ، وقطع الطير ودعاها فأجابت فاطمأن ، وهل نحن أكثر إيمانا من إبراهيم كلا ؟ فاذا كان إبراهيم يطلب اليقين بالمعاينة فنحن أولى ، والأنبياء أعلم منا ، فكان يجب على المسلمين أن يكونوا هم البادئين بعلم احضار الأرواح لا أمريكا ، لأن الله ذكر لنا فى سورة البقرة هنا أنهم ضربوا القتيل فحيى وأخبر بمن قتله ، وهو الذى كان وارثا له فحرم الميراث ، واذا صح هذا فى نفس واحدة فجميع الأنفس يجب أن تكون كذلك ،

وانها حية بعد الموت وليس يمكن أن يكون هذا يقينا إلا اذا رأيناه بأنفسنا فى زماننا بلا شك ، وأنى لنا ذلك الا بالكدّ ، والنصب ، والتعب ، والسهر ليلا ونهارا فى العلم والعمل .

ولقد ألفت كتابا سميته [كتاب الأرواح] ضمنته : ماورد إلينا من أوروبا وأمريكا من كيفية احضارها ، وهكذا مايقابل ذلك ، مما ورد فى القرآن والحديث وكلام الصالحين ، فرأيت اتفاقا بين الأمّتين ، فلأنقل لك الآن ماجاء فى التوراة من احضار الأرواح مثل مافى عصرنا تماما ، ثم أتبعه بنبذة مما فى كتاب الأرواح الذى ألفته فى تاريخ هذا العلم ولست أريد بذلك أن تقلد ماأقول ، ولكن أقول يجب أن يكون فى المسلمين جماعة صادقون مخلصون قاصدون وجه الله ، والدار الآخرة ، لاعرض الدنيا ينقطعون لهذا العلم ويحضرون الأرواح لأجل العلم والمعرفة ولايتكلون على أوروبا وأمريكا و يميزون الخبيث من الطيب . وطرق التحضير واضحة فى كتاب الأرواح المذكور ، فلأبتدئ لك الآن بماجاء فى التوراة فى سفر صموئيل الأوّل واليهود والنصارى معترفون بنبوّته مصدّقون به ويذكر فى هذا السفر أنه نصب لليهود ملكا ، يقال له طالوت وأمره الله بقتل العماليق ففعل الا أنه خالف من قبل مواشيهم وسقط عن مرتبة الملك ، ومات صموئيل وأقبل طالوت على قتل السحرة والعرّافين فقتل من قتل ، وهرب من هرب ، وأقبل أهل فلسطين لحاربته لجمع العرّافين لهم ، ودخل الرعب من كثرة الجيوش المنصبة عليه ، ولم يجد من يسكن الى قوله كعادته من نبيّ ، ولاساحر ، ولاعراف ، ولاحاكم فقلق لذلك . قال فى التوراة : ولما رأى جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جدّا ، فسأل من الربّ فلم يجبه الربّ لابالأحلام ولا بالأنبياء ، فقال لعبيده فتشوا لى على امرأة صاحبة جانّ ، فأذهب إليها وأسألها ؟ فقال له عبيده هاهوذا امرأة صاحبة جانّ فى عين دور فتنكر طالوت ولبس ثيابا أخرى ، وذهب هو ورجلان معه وجاءوا الى المرأة ليلا ، وقال اعرفى لى بالجانّ ، واصعدى لى من أقول لك ؟ فقالت له المرأة أنت تعلم مافعل طالوت كيف قطع أصحاب الجانّ ، والتوابع من الأرض فلماذا تضع شركا لنفسى لتميتها فحلف لها طالوت بالربّ قائلا حىّ هو الربّ لايلحقك اثم فى هذا الأمر ، فقالت المرأة من أصعد لك ، فقال اصعدى لى صموئيل ، فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم ، وكلمت المرأة طالوت قائلة لم خدعتنى ، وأنت طالوت ؟ فقال لها الملك لاتخافى فماذا رأيت ، فقالت المرأة لطالوت رأيت شيخا مهيبا مثل ملائكة الربّ مشتملا ببرنس قد صعد من الأرض ، فعلم طالوت أنه صموئيل أرسله الله ، فدخل إليه وسجد بين يديه ، فقال صموئيل ياطالوت لم أزعجتنى وأحييتنى ، قال لما ضاقت بى الأرض من أهل فلسطين ومحاربتهم إياى ، وزوال عناية الله عنى ومنعه الأحلام منى فدعوتك لأشاورك فى أمرى ، فقال صموئيل : ان الله تعالى قد نقل الملك عنك إلى صاحبك داود وغضب عليك ، وعلى بنى إسرائيل بمافعلتموه فى مواشى العماليق ، وهو ناصر فلسطين عليكم ومديلهم فتصير معى غدا فى الأموات فخرّ مغشيا عليه وعرفته الساحرة فأقبلت إليه ، ومن كان معه ولم يزالوا به حتى أفاق وألحت عليه المرأة والعبدان أن يأكل ، وهو يمتنع منتظرا الموت حزينا كئيبا فلم يزالوا به حتى رضى فذبحت عجلها المسمن فى البيت وصنعت فطيرا فأكل . ولما طلع النهار التحمت الحرب فوقعت الهزيمة على العبرانيين فأكثر القتل فيهم ، وقتل طالوت و بنوه الثلاثة ، وكان قتله هو أنه اتكأ على حربة فأخرجها من ظهره فاجتمع بنو إسرائيل على تمليك داود فدافع بهم من ناوأهم . هذا ماقرأته فى كتب أسلافنا عن التوراة . وقد وضعتها بين يدى عند كتابة هذه الحكاية ، فرأيت الموافقة تامة إلا فى بعض عبارات لاتضر بالمقصود جاءت من تحريف الناسخين ، هذا هو تحضير الأرواح فى التوراة .

أما ماجاء فى العصر الحاضر الذى يناسب مسألة القتيل الذى ضربوه ببعض البقرة ، ومسألة ابراهيم الخليل وقوله لله عزّوجل « ولكن ليطمئن قلبى » ومسألة صموئيل النبى مع طالوت المعبر عنه بلفظ شاول فى التوراة

الذى ذكرنا قصته الآن فيما كه . قلت فى كتاب الأرواح :

قال شبرمحمد : هل يذكر لى الاستاذ كيف كان بدء هذه الحركة فى العالم الحديث ؟ قلت : ان هذه الحركة بدأت مع الانسان على ظهر الأرض وعاشت مع الأمم دهورا وأحقابا ، فلما كانت هذه القرون الحاضرة وأظلمت الدنيا : واسودّ وجه الحقيقة ، وأخذ الناس يجهرون بالالحاد أرسل ربك لهم عجائب ، و بثّ لهم من الأرض غرائب ، انبعثت لهم من عوامل الغيب ، وسطعت الحقائق ، وأشرقت الأرض بنور ربها فى سنة ١٨٤٦ م ذلك أنه سمع فى تلك السنة طرقات متوالية فى بيت رجل يسمى [فيكمان] من قرية [هيدسفيل] فى نواحى ولاية نيويورك وتوالى ذلك ليالى ذوات عدد ، فذعرت تلك الأسرة ، وقذف فى أفئدتهم الرعب ، فهجروا المكان بعد أشهر ، فسكنت الدار أسرة [جون فوكس] المؤلفة من الرجل وامرأته وابنتيه ، فعادت الطرقات وتوالت الضربات ، وهرع الجيران لينقبوا عن تلك الأصوات المزعجة ، ثم اهتدوا الى سبيل الرشاد إذ علموا أن تلك أفعال ناجمة عن عقل ، فاصطلحوا مع مصدرها على لفظ نعم ولفظ لا بطرقتين وثلاث ، ففهموا أنها روح أصابها شرّ قد قتلها رجل فى هذا البيت والذى كشف ذلك [مدام فوكس] والقتيل الطارق يدعى [شارل ريان] قتل منذ أعوام عديدة فى ذلك البيت ، وكان فى حياته دوّارا قتله من كان يبيت عنده لسلب ماله ، وكان عمره إحدى وثلاثين سنة ، ثم شاع الخبر وذاع ، واستهزأ الناس بذلك وسخروا منها ، وقالوا : ان هذا لكذب مبين ، وانتقلت عائلة فوكس الى قرية [روستر] من الولايات المتحدة ، وشاع الخبر وذاع ، وثار علماء الدين والملحدون وسائر الشعب على المرأة وابنتيها ، وتعرّضن للموت مرارا ، فعين القوم لجنة من العلماء لكشف الحقيقة ، فأعلنت أنه لا أثر للشعوذة ولا للاحتيال . فهاج الشعب وعين لجنة أخرى ، فقرّرت كالأولى ، وعينوا ثالثة ، فأذعنت كسابقتيها ، فهمّ الطغام باهلاك الابنتين ، وسبوا وشتموا علماء اللجان المذكورة ، ولكن الابنتين لم يصبهما ضرر ، وقامت الجرائد والمجلات تنشر مقالات الهزؤ والسخرية بهذا العمل ، ومن العجب أنه لم يمض أربع سنين حتى فشا المذهب فى سائر الولايات المتحدة حتى لم يكن يخلو بيت من وسيط أو وسيطة تخابر القوم على يده الأرواح ، وقد يجلسون حول منضدة ، ويتلون أحرف الهجاء ، وعند وصولهم الى الحرف المقصود تطرق المائدة برجلها ، ولم تمض سنة ١٨٥٤ أى بعد الحادث بثمان سنين حتى أصبح أمر هذا الحادث من أعمال دار الندوة ومجلس الأعيان الملتئم فى مدينة وشنطون ، فقد رفعت عريضة طويلة مذيلة بخمسة عشر ألف اسم ، هاك صورتها صفحة ١٦ من كتاب « المذهب الروحانى » :

« نحن الواضعين أسماءنا بذيله أبناء جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية نعرض لمجلسكم الموقر أن حوادث طبيعية وعقلية لا يعرف لها مبدأ ظهرت منذ قليل فى هذه البلاد وفى أكثر أنحاء البلاد الاوروبية وتكاثرت هذه الحوادث السرّية فى شمالى الولايات المتحدة وغربيها ومتوسطها حتى أقلقت الرأى العام ، ولما كان الموضوع الذى نلتمس من جمهوركم الموقر الالتفات إليه لا يمكن شرحه فى هذه العريضة على اختلاف أنواعه نلخصه لكم بوجيز من الكلام فنقول :

أوّلا : ان ألوفا من العقلاء المدركين شهدوا قوّة خفية تحرّك أجراما ثقيلة وترفعها وتخفضها وتنقلها وتقلبها على أنواع مختلفة مناقضة فى الظاهر للنواميس الطبيعية ، ومتجاوزة حدود الادراك البشرى ، ولم يتوصل أحد حتى الآن الى ايجاد علة خصوصية أو مقاربة لهذه الحوادث .

ثانيا : ان أنوارا مختلفة الشكل والألوان تظهر فى الحجر المظلمة من دون أن يجد القاعدون فيها مادة قابلة لتوليد عمل كيماوى ، أو تنو يرفسفورى ، أو سيال كهربائى .

ثالثا : ان نوعا غريبا من هذه الحوادث نلتمس من مجلسكم الموقر الانتباه له وهو اختلاف الأصوات فى

تكرارها

تكرارها وأنواعها ، وأهمية معناها ، فبعضها طرقات سرية تدل على وجود عاقل غير منظور ، و بعضها تحاكى الأصوات التى تدوى فى بعض المعامل الميكانيكية ، أو تتحوّل الى دوى أشبه بصرير الريح العاصفة تتخللها فرقعة صوارى المراكب وملاطمة الأمواج لجدرانه حين هبوب العواصف ، وأحيانا تصير الأصوات شبيهة بقصيف الرعد واطلاق المدافع ، وترتج عندها الأشياء المجاورة ، بل البيت ذاته الذى تقوم فيه تلك الحوادث ، وفى بعض الأوقات تكون الأصوات شجية ، تماثل تارة الصوت البشرى ، وتارة آلات الطرب كالمزمار والطبل والبوق والقيثارة والعود والارغن تصدر إما جملة واما على حدة ، وتارة مع عدم وجود الآلات المذكورة ، وطورا مع وجودها ، ولكن تضرب من نفسها دون مس يد بشرية لها ، وتصدر هذه الأصوات وفقا للمبادئ العلمية المنوطة بقوّة السمع أى حدوث تموّجات هوائية تلتطم بأعصاب السمع ، وانما لم يتوصل الباحثون رغما مما بذلوه من الجهد فى استجلاء مصدر هذه التموّجات الهوائية ، ونرى من المناسب أن نشير الى المبدأين اللذين افترضا فى حل هذا المشكل ، فالأوّل اعزاء الحوادث الى أرواح الأموات ، وفعلهم فى العناصر الدقيقة الأوّلية المائلة والسارية فى كل الأشكال الهيولية ، وهذا ماشرحه العامل السرّى ذاته حين طلب إليه ايضاح ذلك وقد وافق على هذا الزعم عدد عديد من أبناء وطننا الممتازين بآدابهم ، وقوّة ذكائهم ، ومراكزهم الرفيع فى فى السياسة والهيئة الاجتماعية ، وأما أصحاب المبدأ الثانى ولأكثرهم أيضا رفيع المنزلة فى القوم فهم ينكرون الزعم الأوّل ، ويذهبون إلى أن مباحث العلماء لابدّ من أن تنير بقوّة المبادئ المعروفة من العلوم النظرية العقول بايجاد سبب حقيقى مستوفى الشروط لكافة الحوادث المنوّه عنها .

على أننا وان كنا لانوافق على رأى هؤلاء وقد توصلنا بقوّة البحث الى نتائج مخالفة لكل علة طبيعية للحوادث التى نحن بصددها نؤكد لجمهوركم الموقر أن الحوادث جارية حقا وصدقا ، وأن مصدرها السرّى وغرابة وقوعها ، وأهمية تأثيرها فى صوالح الجنس البشرى تستوجب بحثا عاميا مدققا لايعتريه الكلل ، ألايستطيع كل عاقل أن يفكر مامقدار الحوادث التى نحن بصددها من الاتيان للشعب الأمريكى بنتائج مهمة ثابتة تتعلق بأحواله المادّية والعقلية والأدبية ، ثم ماذا يكون لها من التأثير فى أصول الصحة والحياة ومبادئ الفكر والعمل حتى يمكنها أن تؤول الى تغيير أصول معيشتنا واصلاح مبادئ إيماننا وفلسفة عصرنا ، وتبديل هيئة إدارة العالم ، واذا كان من اللائق والمناسب لروح نظامنا أن نقصد دائما نوّاب الشعب فى المسائل التى يصدر عنها اكتشاف مبادئ جديدة تأتى بنتائج مذهلة للهيئة الاجتماعية ، أتينا نحن أبناء الوطن نلتمس بالحاح من جمهوركم الموقر إنارة بصائرنا فى هذه الظروف الغريبة ، وذلك بتعيين لجنة كاملة مهما يلزم لها من النفقات فى سبيل استجلاء هذه الغوامض ، واننا لمعتقدون أن صوالح الهيئة الاجتماعية سينالها الحظ الأكبر من نتائج أعمال اللجنة التى التمسنا إقامتها ، ولنا مزيد الثقة فى استصواب طلبنا ، واجابة ملتمسنا ، من لدن مجلسكم الموقر » مذيل بخمسة عشر ألف اسم اه

ثم اعلم أن هذا العلم عمّ الولايات المتحدة حتى صار المذهب يتبعه سنة ١٨٩٥ نحو ٢٠ مليونا فى الولايات المتحدة ، وعدد الشركات الروحانية سنة ١٨٧٠ عشرون شركة روحانية عمومية ومائة وخمس جمعيات خصوصية و٢٠٧ خطباء و٢٢ وسيطا عموميا ، ومن علمائهم الحاكم أدمون كان رئيس القضاة ، وانتخب مرارا فى مجلس الأعيان ، والعلامة روبرت هير الأمريكى الطائر الصيت وألف كتاب [أبحاث عرفية فى ظهور الأرواح] والعلامة روبرت دال أوين وألف كتابا سماه « عثار فى حدود عالم الغيب » وكان فى تلك البلاد فى آخر القرن الماضى نحو ٢٢ جريدة ومجلة تنقل الى القرّاء أخبار أعمالها ، ولم يكن ليبحث أحد من العلماء هذا البحث إلا لينقذ الناس من الضلال بما آتاه الله من العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ، ولما ملأ هذا

الحادث أرجاء الولايات المتحدة بلغ صدى صوتهم آذان الانجليز ، فقام العلماء والفلاسفة فيها للبحث والتنقيب عسى أن يخرجوا العالم الانسانى من الظلمات الى النور بتفنيد هذا السحر ، وإبعاد هذا الظلام ، وقشع السحاب الذى غشى على الانسان ، فحجب عنه نور العلم ، وأذاع فيه الخرافات والأكاذيب ، فقام العلامة الطائر الصيت وليم كروكس من أعظم الكيماويين والطبيعيين المكذبين بهذه الأساطير ، والعلامة الفرد [روسل والاس] قرين داروين الشهير والمساعد له فى أعماله . فقال شير محمد : قرين داروين ! فقلت نعم . فقال أفّ للمقلدين كيف يصبح والاس قرين داروين مؤمنا بالبعث ، وهؤلاء الذين يدّعون أنهم قرءوا مذهب داروين ينسبون كفرهم إليه ، ألا تعس الجاهلون الذين لا يعقلون . ثم قلت : ومنهم العلامة [أوجست دى مرجان] رئيس جمعية الرياضيات فى لوندره ، وكاتم أسرار المجمع العلمى الفلكى ، ثم السير [فارلى] مخترع آلة المستودع الكهربائى ، والمجمع العلمى المنطقى الذى تأسس فى لوندره سنة ١٨٦٧ قرّر فى جلسته المنعقدة فى ٦ كانون سنة ١٨٦٩ وجوب إقامة لجنة للنظر فى الحادث الروحانى ، والوقوف على صحة الأمر ودرسته ١٨ شهرا متوالية ، ولقد دهشت الأمة الانكليزية لما بلغها قرار اللجنة بصحة الحادث ، ولقد ألف والاس الآنف الذكر كتابه الذى سماه « عجائب الروحانية الحديثة » . ومن العلماء الذين كانوا من أشد المعاندين الدكتور جورج ساكستون الخطيب المصقع الذى بعد أن عاملها أخذ يدرسها ١٥ سنة وقال : لقد أيقنت بالروحانية ، وحادثت أقاربى وأصدقائى المتوفين ، وكذا الدكتور [شامبرس] والدكتور [هوغسون] والعلامة [ميرس] وهناك [جمعية المباحث النفسية] ولها مجلة تسمى [أشباح الأحياء] .

ولقد حصل فى فرنسا مثل ما كان فى أمريكا وانجلترا : فقد قام بالأمر منهم البارون [جيلد نستوبه] وألف كتابا سماه [حقيقة وجود الأرواح] ظهر فى سنة ١٨٥٧ أى بعد الحادث الأمريكى بنحو ١١ سنة وأجيسيت فاكيرى : ألف كتابا سماه [شتات التاريخ] على ذكر الامتحانات الروحانية ، وكذلك [فكتور هوجو] شاعر الفرنسويين اذ قال : ان من أعرض عن الحادث الروحى فقد أعرض عن الحقيقة وكذا المؤرّخ [أوجين بوشير] والعلامة فلامار يون الفلكى الطائر الصيت ، والعالم [موريس لاشاتر] مؤلف القاموس الذى باسمه ، والدكتور [جيبيه] الطبيب الشهير .

ثم فشت الروحانية فى ألمانيا وروسيا وايطاليا والبلجيك واسبانيا والبرتغال وهولانده وأسوج ونروج هذا ملخص ماجاء فى كتاب « المذهب الروحانى » الذى هو خير كتاب ألف بالعربية لعلم الأرواح فى هذا الزمان قد أبنت لك كيف كان انتشار هذا الحادث فى النصف الثانى من القرن الماضى .

هذا ما فى هذه العصور من العلوم الخاصة بالأرواح ، وتعجب من القرآن كيف ذكر مسائل الحياة بعد الموت فى قصة الخليل كما ذكرناه ، وانه أمر بتقطيع الطيور وخلط لحمها بعظمها وريشها ، ثم يدعوها فتحيا فى أواخر هذه السورة : وأنت تعلم أننا عن هذا عاجزون ، وهذه معجزات لنبىّ ، وذلك النبىّ أراد أن يطمئن قلبه بالمعاينة بعد الايمان ، ولا جرم أن ايماننا أقلّ من ايمان الأنبياء : فنحن أولى بطلب المعاينة ، وطريق الخليل فيها مقفل بابها علينا * فمن فضله تعالى ذكر هنا أن القتيل قد حيى بضربه ببعض البقرة ، وهذا فتح باب لاحضار الأرواح فكأنه يقول فى مسئلة ابراهيم : اطلبوا الحقائق لتطمئنوا ، وهنا يقول : اسلكوا السبل التى بها تستحضرونها ، ولا تنالون شيئا من هذا إلا بجدّكم وكدّكم ، فالعلم لا ينال إلا بالمشقة والنصب ، فاذا وجدتم أن طريق موسى فى إحياء الموتى يصعب عليكم فالتمسوا غيره « وأن ليس للانسان الا ما سعى » هذا ما بدا لى فى هاتين الآيتين للخليل وموسى الذى سار على قدم جدّه فى النبوّة ، فحيى الميت على يديه وفى السورة آيتان آخريان فى إحياء الموتى وهما (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت

فقال

فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم» والآية الأخرى نزلت فى العزير اذ قال فى بيت المقدس «أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام» ثم نظر الطعام الذى كان معه والشراب فرآهما على حالهما لم يتغيرا ، وصار ينظر الى حماره وهو يحيا وتتصل العظام ببعضها وتكسى لحما فعلم «أن الله على كل شىء قدير» .

فالمسلم اذا قرأ هذه الآيات التى حكيت عن بنى اسرائيل يقول فى نفسه : أنا آمنت ، فان كان من العامّة لم يطلب المزيد ، وان كان من الخاصة قال : أنا أطلب المعاينة والمشاهده ، والمشاهدة باحدى طريقتين : الطريقة الأولى : ماسلكه المجاهدون الزاهدون ، ولكنها محفوفة بالخطر ، ومن شاهد منهم شيئا لا يمكن لغيره التصديق به . الطريقة الثانية : طريقة استحضار الأرواح ، وهى عامّة كما تقدّم فى هذا المقام ، ولكن استحضار الأرواح أيضا على مايقولون صعب المنال ، ويقولون ان الأرواح النقية لاتخاطب إلا قلوبا نقية خالصة ، فرجع الأمر عند الصوفية وعند علماء العصر الحاضر من أوروبا الى أن المدار على الاخلاص والصدق ، وطلب الحقيقة والتوجه لله : فهذا هو الأصل عند الجميع . ولذلك ترى الذين يظنون أنهم استحضروا الأرواح متى غلب عليهم حب الدنيا تحضر اليهم أرواح كاذبة خاطئة على مقدار هممهم وتكلمهم بالأكاذيب والمواعيد العرقوبية كما أن المجاهد من الصوفية لاينال الزلفى الا باحتقار العالم الفانى ، ولما كانت السورة التى نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته ، وكذلك حماره ، ومسئلة الطير وابراهيم الخليل ، ومسئلة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الطاعون فماتوا ثم أحياهم ، وعلم الله أننا نعجز عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة فى السورة مايرمز الى استحضار الأرواح فى مسئلة البقرة كأنه يقول : اذا قرأتم ماجاء عن بنى اسرائيل فى إحياء الموتى فى هذه السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك فانى قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة و «اسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون» ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقىّ خالص على قدم الأنبياء والمرسلين كالعزير وابراهيم وموسى : فهؤلاء لخلوص قلوبهم وعلوّ نفوسهم أريتهم بالمعاينة ليطمئنوا ، وأنا أمرت نبيكم أن يقتدى بهم فقلت «فبهداهم اقتده» فاقتدوا بهم فى تعلم ماتطمئنون به وتوقنون ، ولكن قبل ذلك اقتدوا بالأنبياء فى طهارة القلوب وزوال الرجس من النفوس فان هذه الأمور انما تعرف بالتجربة والعمل ، لابالقياس العقلى ولا بالنظر والحدس الفكرى .

مراتب التصديق أربعة

الايمان : البحث العقلى بطرق الحكماء . طريق الصوفية . طريق استحضار الأرواح ، وأعمها الايمان ، وأهمها طرق الصوفية .

ولعلّ قائلا يقول : لقد اتبعت طرق الصوفية فلم أزد علما ، ويقول آخر : لقد أخذت فى طرق استحضار الأرواح فلم أحصل على طائل . أقول : أنتما تلميذان سقطا فى الامتحان ، وقد سمعت عن آلاف مؤلفة نالوا جوائز ، وأخذوا شهاداتهم بأيديهم : فنحن الى الأخذ بأقوالهم أميل ، وليس لكما الا أن تسلكا سبيل النظر والتعقل بطرق الحكماء ، فان قلتما أيضا . ليس لنا بها طاقة . أقول : لم يبق الا الايمان والأذكياء وأنتما منهم ، عليهم أن يبحثوا فليس لكما الاالالحاد والكفراللذان انما أنتجهما الكسل واللذات فأثمرا أمانىّ وضلالات ويأسا من الحياة . ولعلّ قائلا آخر يقول : مالنا ولهذه المباحث التى لاطائل تحتها ، ولا تجدى نفعا ، ولاتنفع جارا ، ولاتورى نارا أقول له : ليس لنا مانهتمّ به الا دوام حياتنا ، والناس ان لم يبحثوا فى هذا لم يفعلوا شيئا ، وكانت علومهم وممالكهم ودولهم ودياناتهم وفلسفتهم هباء منثورا فى الهواء : ألم تر الى قوله

تعالى «عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون» . والنبأ العظيم هو البعث ، و بعبارة أخرى : حياتنا بعد موتنا أعظم الأنباء ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

الفصل الثانى

الى هنا قد أتممنا القول فى الفصل الأوّل ويواقيته ، وقد آن أن نشرع فى الفصل الثانى وجواهره ، وهو شرح حال اليهود المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو خمس جواهر .

(الجوهرة الأولى ، والثانية ، والثالثة . قوله تعالى :)

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ☆ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ ٱللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ☆ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ☆ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ☆ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ ٱللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ☆ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ☆ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ☆

التفسير اللفظى

قال تعالى (أفتطمعون) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين (أن يؤمنوا لكم) لأجل دعوتكم و يستجيبوا لكم (وقد كان فريق منهم) طائفة فيمن سلف منهم (يسمعون كلام الله) أى التوراة (ثم يحرّفونه) كما حرّفوا صفة الرسول صلى الله عليه وسلم (من بعد ماعقلوه) علموه وفهموه (وهم يعلمون) أنهم يغيرونه ، ثم ذكر منافقى أهل الكتاب فقال (واذا لقوا الذين آمنوا) أى المخلصين من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام (قالوا آمنا) بأنكم على الحق وأن محمدا هوالرسول (واذا خلا بعضهم الى بعض) أى الذين لم ينافقوا الى الذين نافقوا منهم (قالوا) عاتبين عليهم (أتحدّثونهم) أتخبرون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (بما فتح الله عليكم) بما بين الله لكم فى التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم (ليحاجوكم به عند ربكم) ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم فى كتابه (أفلا تعقلون) أن هذه حجة عليكم (أولا يعلمون) أى هؤلاء المنافقون (أن الله يعلم مايسرّون ومايعلنون) ومن ذلك اسرارهم الكفر واعلانهم الايمان (ومنهم أمّيون

لا يعلمون الكتاب) جهلة لا يعرفون الكتابة فيطالعوا التوراة ويتحققوا مافيها (إلا أمانيّ) استثناء منقطع والأمانيّ جمع أمنية أي أكاذيب أخذوها تقليدا من المحرّفين (وان هم إلا يظنون) لا علم عندهم (فويل) شدّة عذاب (للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) من تلقاء أنفسهم من غير أن يكون منزلا (ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) أي المال كل والرشا (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ، وقالوا) أي اليهود (لن تمسنا) لن تصيبنا (النار إلا أياما معدودة) سبعة آلاف سنة على مقدار أيام الدنيا في زعمهم ، أو أربعين يوما عدد التي عبدوا فيها العجل (قل) يا محمد لليهود (أتخذتم عند الله عهدا) موثقا بذلك (أم تقولون على الله مالا تعلمون ، بلى) اثبات لما بعد حرف النفي أي تمسكم النار (من كسب سيئة) أي أشرك (وأحاطت به خطيئته) أو بقه شركه (فأولئك) أهل هذه الصفة (أصحاب النار) أهل النار (هم فيها خالدون) دائمون لا يموتون (والذين آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (وعملوا الصالحات) الطاعات فيما بينهم و بين ربهم (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) دائمون لا يموتون . انتهى التفسير اللفظي

الايضاح

يقول : « أفتطمعون » أي لا تطمعوا أيها المؤمنون أن يؤمن اليهود لكم ، وقد كانت طائفة منهم : وهم الأحبار يسمعون التوراة ، ثم يحرّفون كلامه من بعد مافهموه : وهم يعلمون أنهم مفترون ، و إذا لقي منافقو اليهود الذين آمنوا قالوا آمنا أن محمدا نبيّ ، كما ورد في التوراة واذا رجع بعضهم إلى بعض . قال الرؤساء للذين نافقوا أتحدّثون المؤمنين بما عرفتم في التوراة من نعت محمد ليقيموا عليكم الحجة به عند ربكم يوم القيامة في ترك اتباعه مع علمكم بصدقه أفلا تعقلون أنهم يحاجونكم ، ثم قال : أيلومونهم ولا يعلمون الخ ، ثم قال : ومن اليهود عوام لا يعلمون التوراة إلا أكاذيب ، وماهم في جحد نبوّة النبيّ وغيرها من المسائل الا يظنون ولا علم عندهم ، ثم قال : فويل ، أي شدّة عذاب لليهود الذين غيروا صفة النبيّ ﷺ من كونه ربعة جعد الشعر أكحل العينين الى كونه طويلا سبط الشعر أزرق العينين ، وقد كتبوه في التوراة بأيديهم و ينسبونه لله ليشتروا به ثمنا قليلا من المال ، فويل لهم من ذلك الاختلاق ، وويل لهم من المكسب وقالوا لن تصيبنا النار الا أياما قليلة أربعين يوما مدّة عبادة آبائنا العجل ، قل لهم يا محمد على سبيل الاستفهام « أتخذتم عند الله عهدا » والهمزة هنا للاستفهام ، وهمزة الوصل محذوفة ، والعهد الميثاق أم تقولون : أي بل أتقولون على الله مالا تعلمون وقوله « بلى » أي تمسكم النار وتكونون خالدين فيها من كسب شركا وأحاطت به خطيئته فاستولت عليه من كلّ جانب فمات مشركا الخ .

لاجرم أن لكلّ أمّة ثلاث طوائف (١) كبراء سادة (٢) أميون (٣) ذوولسن ماكرون ، و بعبارة أصرح علماء ، وذوومكر ، وأميون ، هكذا اليهود فان طوائفهم الثلاث من الأحبار ، والأميين وذوى الدهاء قاموا قومة رجل واحد لايذاء النبيّ ومعارضة دعوته كأنهم في حربهم السلمية بنيان مرصوص ، فأضل العلماء بالتحريف في معاني التوراة التي أيدت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكاد الماكرون ، ونافق الخادعون ، وقلد الأميون الذين تلقوا الأكاذيب فوعوها وسمعوا من الأفواه أراجيف فرعوها ، أتباع كل ناعق ، وأشياع كل غالب ، ووقود كل حاطب .

ولما كان العلماء قدوة الحزبين شدّد النكير عليهم ، وأنزل الصواعق من سحاب الغضب بهم ورماهم بشرر من عذابه ، فقال « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » الآية وكرّر الويل تكريرا وأعدّ لهم عذابا وسعيرا .

فـكر أيها الأخ فى هذه الآيات وتدبرها وكرّرها ، وتأمل كيف يضل علماء الدين أممهم لتسهيل الذنوب وتهوين القبائح والعيوب فيتخذون الشهوات ، ويرتطمون فى اللذات إذ يقولون لن تدخل النار الأربعين يوما إذ عبدنا العجل فيها أوسبعة آلاف سنة مدّة عمر الدنيا ، فيغترّ بها الجهلاء ، ولعمرى أين المناسبة بين عبادة كفر بها قدماؤهم ، وبين ذنوب اجترحوها وسيئات مكروها ، ولقد كذبوا فى الدعوتين كما كذبوا فى تحديد مدّة الدنيا ، وهى أضعاف أضعاف ماقالوا ، وقد آن أوان أن نفسر آيات الأخلاق التى عليها نظام الأمّة الاسرائيلية .

(الجوهرة الرابعة)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ ٱللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ✲ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ✲ ثُمَّ أَنْتُمْ هٰؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ✲ أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ✲

التفسير اللفظى

يقول تعالى (وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) الميثاق العهد المؤكد (لاتعبدون إلا الله) اخبار فى معنى النهى (و) أحسنوا (بالوالدين احسانا) برّا بهما ورحمة لهما (وذى القربى) القرابة (واليتامى) جمع يتيم وهوالذى فقد أباه قبل البلوغ (والمساكين) الذين أسكنتهم الحاجة (وقولوا للناس حسنا) قولا هو حسن فى نفسه لافراط حسنه (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم) عن الميثاق ورفضتموه (إلا قليلا منكم) وهم الذين أسلموا منهم (وأنتم معرضون) عادتكم الاعراض والتولية عن المواثيق (وإذ أخذنا ميثاقكم) فى الكتاب (لاتسفكون دماءكم) لايقتل بعضكم بعضا (ولاتخرجون أنفسكم) أى بعضكم بعضا (من دياركم) من منازلكم (ثم أقررتم) بهذا العهد أنه حقّ (وأنتم) يامعشراليهود (تشهدون) على ذلك (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم) يقتل بعضكم بعضا (وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) أى يخرج بعضكم بعضا من ديارهم (تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان) أى تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم (وان يأتوكم أسارى تفادوهم) بالمال وهواستنقاذهم بالشراء (وهومحرّم عليهم اخراجهم) الضمير مبهم يفسره مابعده (أفتؤمنون ببعض الكتاب) بفداء الأسرى (وتكفرون ببعض) بالقتال والاجلاء (فماجزاء من يفعل ذلك) أى الايمان ببعض والكفر

ببعض (منكم إلا خزى) فضيحة (فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون الى أشدّ العذاب) أى عذاب النار (وما الله بغافل عما تعملون) تأكيد للوعيد (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) آثروا الحياة الدنيا على الآخرة (فلايخفف عنهم العذاب) فلايهون عليهم (ولاهم ينصرون) بدفعه عنهم . انتهى التفسير اللفظى

الايضاح

لكل أمة ثلاث أحوال : أيام سعادة وهناء . وأيام اضطراب وعناء ، وأيام زوال وفناء .

هذا قانون عام وناموس لايتبدل وهو سنة الله « ولن تجد لسنة الله تحويلا » وقد أوضحتها هذه الآية وأبانتها وكشفت عنها القناع .

الحالة الأولى . أيام السعادة والهناء وذلك ثمانيــة أصول : عبادة الله ، وإكرام الوالدين ، وصلة الرحم وإكرام اليتيم ، وبرّ المسكين ، وحسن العشرة بالقول الجميل مع سائر الناس وإقامة الصلاة وهى داعية للائتلاف وكذلك الزكاة ، وهما عماد الائتلاف والمحبة فضلا عن القرب من الله .

الحالة الثانيــة : أيام الاضطراب ثم أنتم هؤلاء تقتلون ويأسر فريق منكم فريقا ثم تفدون الأسرى فاضطربت أحوالكم وتناقضت آراؤكم ، أفتأسرون وهو حرام وتفدون وهو مرغوب وههنا لامناص من خراب الديار وحلول الدمار : وهى الحالة الثالثة .

الحالة الثالثــة : (فما جزاء من يفعل ذلك منكم) إلا تشتيت جمعهم وتخريب دورهم ونهب أموالهم وضياع بلادهم ذلك لاضلال العلماء وظلم الكبراء .

لطيفة

لما كنت تلميذا بمدرسة دار العلوم فى السنة الرابعة أمرنى أستاذى المرحوم الشيخ حسن الطويل أن أكتب فى تفسير هذه الآيات مقالا فامتثلت أمره وكتبت نحو ما يأتى فلما عرضته عليه أقرّه ونشرته بعد ذلك فى جريدة اللواء ثم فى المؤيد وصارت فى ضمن المقالات التى فى كتاب النظام والاسلام فأحببت نشرها هنا لأنها بهذا المقام أليق فأقول :

كيف تجتمع الأمة وكيف تتبدد

من تأمّل فى آيات القرآن ومافى القصص وغضونها من الأسباب والنتائج وكيف تجتمع الأمة وكيف يتبدّد شملها رآها صرّحت أولوّحت بكل مايشاهد فى الغالبة والمغلوبة الآن ، ولنذكر منها آية ذكر فيها أخذ العهد على بنى اسرائيل وأمرهم باثنى عشر أمرا فلم يعملوا بها الا قليلا ولنقدّم قبل ذكرها مقدّمة فنقول :

لكل أمة ثلاث درجات ، الأولى أن تقوى بينها الوحــدة وتلتئم بعواطف المودّة والمحبة بصلة الأرحام والوالدين والأقربين والعطف على ضعفاء الأمّة من الفقراء والمساكين وحسن المعاشرة مع جميع الناس حتى يكون ذلك ملكة راسخة فى النفوس فيحب حكامها العدل محبة طبيعية وملكة راسخة ، الدرجة الثانية أن تقطع الأرحام من الوالدين والأقربين وتذهب العواطف القومية كما فى آية « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» ويدبّ فى الأمة داء الفساد فى القلوب ولكن تبقى فيها بقية من العقل العملى فتحافظ على كيانها العمومى ونظامها الدستورى فلا يقتلون ولايتخذون الأعداء أولياء ولا يفعلون مايخلّ بالنظام العمومى . الدرجة الثالثة أن تذهب منهم عاطفة القلوب ورابطة الأجسام معا فيسفك بعضهم دماء بعض ويوالون الأعداء ويخربون

بيوت اخوانهم بأيديهم ، وهذه الحالة تورث الخزى فى الدنيا بتفريق الجامعة ووقوعها فى سلطان من يسومهم الخسف « ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى » ولنتل عليك الآية الآن وهى (واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لاتعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فهذه الصفات الثمانية اشارة الى الدرجة الأولى فى الأمة ورفعة مكانتها بالتوحيد والاعتقاد والمحبة بين الأفراد وتوجه القلوب إلى ربهم بالعبادات والعطف على أبناء قومهم والشفقة والرحمة بهم ، ثم أعقبه بقوله (ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون واذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولاتخرجون أنفسكم من دياركم) أى لا يسفك بعضكم دماء بعض ولايخرج فريق الآخر (ثم أقررتم وأنتم تشهدون) وهذه إشارة إلى الدرجة الثانية ثم أعقبها بذكر الحالة الثالثة وهى تفريق الجامعة بعد ذهاب العواطف القومية ودثور النظامات الدستورية والأحكام العادلة فقال (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرّم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) ألا وإن اختلال الأعمال الناشىء من تفرّق القلوب موجب لوقوع الأمة فى سيطرة غيرها وهو بلا ريب موجب للخزى فى الدنيا والنكال فى الآخرة مع أنه من تمام نظام الحياة الدنيا إذ لايجوز أن تبقى الحكومة أمدا طويلا على الظلم والتخبط فى الأحكام ، إذ للناس رب أراد بقاءهم إلى أجل مسمى ، فمن لم يقوموا بما عهد إليهم من الملك وتركوا الناس يبغى بعضهم على بعض قيض الله لهم من يزيل الظالمين ويعدل بين الناس مهما كان دينهم « ان ربى على صراط مستقيم » فمثل الأمّة الجاهلة بتدبير شؤونها كمثل الدواب التى لاعلم لها بنظام نفوسها ، فسخر الله لها الانسان العاقل فقام بأمرها ، ولما كانت تلك سنة الله فى خلقه ومقتضى نظامه وطبيعة عمرانه أردف ماتقدم بقوله (فما جزاء من يفعل ذلك منكم الاخزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون الى أشدّ العذاب وما الله بغافل عما تعملون ، أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون) ومحصل ذلك أنهم عملوا ببعض الكتاب وهو فك الأسرى من اخوانهم وتركوا البعض الآخر : وهو النهى عن القتل والمظاهرة والاخراج من الديار ، وهذه كانت حال طائفتين من اليهود ، وهم بنو قريظة والنضير وكانوا حلفاء الأنصار فى المدينة وهم الأوس والخزرج فكانت قريظة حليفة الأوس ، والنضير حلفاء الخزرج ، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه فيقتلون معهم اخوانهم ويخرجونهم من ديارهم ويعينونهم عليهم ظلما وعدوانا ثم يفدون الأسرى بعد ذلك فتناقضت أفعالهم فقد آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض فكان جزاؤهم ماقصه الله تعالى ، وليس ذلك خاصا بأمّة اليهود ، بل هو مقتضى نظام الكون وليس أمرا من الخوارق .

صفة حكام الأمم الظالمة وعلمائها

وصف الله حكامها وعلماءها بأخذ الرشوة والاتكال على الله فى غفران الذنوب اتكال جهالنا اليوم على الله بأن يحسن حالهم ويأتى لهم برزقهم رغدا من كلّ مكان ، وتقوم جامعتهم ، وهم نائمون حيث قال « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحقّ ودرسوا مافيه » الآية وصفهم بالاتكال على المغفرة بالتوبة ومخالفة عهد الكتاب .

وصف حربهم

قال الله تعالى « لايقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا

وقلوبهم شتى » وصفهم بتفرق القلوب فلا يبرزون لعدوّ يقاتلونه حتى يدهمهم فى أماكنهم ، وهم لبعضهم مبغضون وذكر سببه ، فقال « ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » والمراد به العقل العملى لا النظرى المراد عند ذكر خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار .

الصفة العامة بعد الانحلال

قال الله تعالى « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » ومن العجيب أن أمة اليهود المرادة بهذه الآية لم يبق لها شوكة ، ولا ملك فى الأرض بعد ذكر هذه الآية فى القرآن ، وهذا الأمر ظاهر لمن عرف الأحوال الحاضرة والغابرة ، فهذه نبذة يسيرة ذكرناها تبصرة للقرّاء وذكرى لقوم ينظرون فى شريعتهم ، ولتعلموا أيها المسلمون أن هذه القصص لم تذكر فى القرآن لنا إلا تذكرة واعتبارا لا لمجرّد حكاية كما يظنه الأغبياء ، وهذا اجمال تفصله العقول وتوضحه النقول « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

وازن ماسمعت فى الآيات بما ترى من أحوال المسلمين اليوم اذ غلبت على العقول ترهات وخرافات تلقفها الناس ، وكيف يسندون ظلمهم للقضاء و يتكلون على الغفران ، وهل ذلك الا كقول اليهود أذاع ساداتهم فيما بينهم أن مدّة العذاب أربعون فظلوا للشرور يسارعون ، هكذا عبد المسلمون اليوم الأوهام فنسوا أنفسهم فحاق بهم العذاب الهون ، وقرءوا القرآن وهم لا يعقلون ، ووقفوا من العلم على قشوره وعدوا الحكمة ونبذوا علم الكائنات فى الأرض والسموات فسبقهم الغربيون ، وهم متقاطعون فحلّ عذاب الخزى بهم فى الحياة وما أشدّ عذاب الممات ، ولما أبان هلاك بنى إسرائيل ، وقد حاق بهم الخزى فى الحياة الدنيا أخذ يبين أسباب حلول العذاب بهم تفصيلا و يحذر المسلمين من اتباع خطواتهم ، فقال :

(الجوهرة الخامسة ، وفيها عشر زبرجدات)

« الزبرجدة الأولى »

وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ☆ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ☆ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ☆ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ☆ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ☆

التفسير اللفظى

يقول تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (وقفينا) أتبعنا (من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات) المعجزات الواضحة (وأيدناه بروح القدس) أى الروح المقدسة ، قيل جبريل أوالانجيل (أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى) بما لاتحب (أنفسكم استكبرتم) تعظمتم عن قبوله (ففريقا كذبتم) كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام (وفريقا تقتلون) كزكريا ويحيى (وقالوا قلوبنا غلف) جمع أغلف ، مغطاة بأغطية (بل لعنهم الله بكفرهم) خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم لقبول الحق (فقليلا ما يؤمنون) أى إيمانا قليلا يؤمنون ، وما زائدة للمبالغة ، ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم (ولما جاءهم) أى اليهود (كتاب من عند الله) القرآن (مصدّق لما معهم) من كتابهم (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) يستنصرون على المشركين اذا قاتلوهم ، وكانوا يقولون : « اللهم انصرنا بالنبىّ الذى يبعث فى آخر الزمان ، ونجد نعته فى التوراة » (فلما جاءهم ماعرفوا) من الحق (كفروا به) حسدا وخوفا على الرئاسة (فلعنة الله على الكافرين) أى عليهم (بئسما اشتروا به أنفسهم) أى بئس شيئا باعوا به أنفسهم ، فاشترا ما مميز لفاعل بئس المستتر ، وجملة اشتروا صفة له ، وقوله (أن يكفروا بما أنزل الله) هوالمخصوص بالذم (بغيا) طلبا لما ليس لهم وحسدا (أن ينزل الله) أى لأن ينزل أى حسدا على ذلك (من فضله) وهوالوحى (على من يشاء من عباده) على من اختاره للرسالة (فباءوا بغضب) لكفرهم بمحمد (على غضب) لكفرهم بعيسى (وللكافرين عذاب مهين) يهانون به (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله) أى بالقرآن (قالوا نؤمن بما أنزل علينا) وهوالتوراة (ويكفرون بما وراءه) أى بما سواه من الكتب (وهوالحق) أى القرآن (مصدّقا) موافقا بالتوحيد (لما معهم) من الكتاب (قل) لهم يامحمد (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) أى اذا كنتم آمنتم بالتوراة فكيف قتلتم الأنبياء من قبل ؟ وهل هذا مقتضى الايمان بها . انتهى التفسير اللفظى .

ايضاح

أخذ الله عزّ وجل فى تعذيبهم وتخويفهم ، والتنديد عليهم ، والتشنيع بأفعالهم ، إذ قتلوا المصلحين من النبيين ، فان كانت نصيحة نبذوها ، أوفضيلة تركوها ، فكم من نبىّ كذبوه كعيسى ، وكم من نبىّ قتلوه كزكريا ويحيى عليهم السلام ، وهاهم أولاء أخذوا يكذبونه صلى الله عليه وسلم ، ولعمرك لن تسعد أمة إلا أن تأخذ بيد مصلحيها ، وتعظم مرشديها ، فياحسرة عليهم اذا أهملتهم وشؤونهم ، والويل كل الويل لها ان ناصبتهم العداوة ، وراشت سهام الحرب لنزالهم ، وضيقت سبل العمل عليهم ، فما بالك اذا جرعتهم كأس المنون كما فعل اليهود إلا أن الميزان الصالح ومعيار الأمة أن تنظر فى تقديرها للمرشدين ، فان رأيتهم لهم مكرمين ، وعلى اتباع ارشادهم مكبين ، فاعلم أنها سائرة للعلاء ، متقدمة الى الأمام ، ساعية الى الفلاح ، وان كان الآخر والعياذ بالله فهنالك الدمار ، ولكنى أرى فى أمة الاسلام اليوم نزعة شريفة ، ونفوسا عالية ، وعقولا راقية ، وفى ظنى أنهم سيستردّون مجدهم ، ويرفعون ذكرهم ، وما شهدت إلا بما علمت ، لما أرى من اقبالهم على الحكمة واجلالهم للمصلحين ، وأخذهم بالتى هى أحسن ، ألا وانى أنخر بأمّتى ، وأفرح بشعبى ، وأعلن على رءوس الأشهاد أن السعادة قادمة عليهم ، والفلاح ناشر رايته اليهم ، فلقد بدأ الاصلاح ، وسينتهى الى غايته ، ويصل الى كماله ونهايته ، رغما مما بدا من سحابة الغرور والشرور ، وستنقشع السحابة ، وترجع الأمة الى العناية والسعادة اهـ

« الزبرجدة الثانية »

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (ولقد جاءكم موسى بالبينات) الآيات الواضحات : منها قلب العصا حية (ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون) أي عبدتموه بعد ذهاب موسى الى الطور ، فآباؤكم كانوا يكفرون بموسى وأنتم تكفرون بمحمد صلى الله عليه وسلم (وإذ أخذنا ميثاقكم) إقراركم (ورفعنا فوقكم الطور) هدّدهم بأن يقع عليهم الطور إذ رفعه فوق رءوسهم إن لم يقبلوا التوراة ، وقلنا (خذوا ما آتيناكم بقوّة) أي خذوا ما أمرتم به في التوراة بجدّ وعزيمة (واسمعوا) سماع طاعة (قالوا سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك (وأشربوا في قلوبهم العجل) أي تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب أعماق البدن (بكفرهم) بسبب كفرهم (قل بئسما يأمركم به إيمانكم) بالتوراة ، وهل في التوراة عبادة العجل ؟ (ان كنتم مؤمنين) تشكيك في إيمانهم وقدح في صحة دعواهم : انتهى التفسير اللفظي .

هذه الزبدة سبق ذكرها وأعيد تقريعا وتوبيخا ، ليرشد أمة الاسلام ألا تفكر بعقول غيرها ، ولا تنظر بعيون أعدائها كما فكر اليهود في العجل بعقول قدماء المصريين إلا أنهم ضلوا إذ أمرهم علماؤهم بتقديس العجول لبقاء نسلها تنمية للزرع ، وانتفاعا بالحرث ، فغلوا في دينهم ، وطغوا في غلوهم ، وعبدوا ما كانوا احترموا فقلدهم بنو اسرائيل فيما جهلوا وان كانوا لهم أعداء ، هكذا حال المصريين اليوم على الضد من القدماء ، إذ جهلوا أمر الحيوان النافع للزراعة ، فساءت الحال ، وجاء الوبال ، وعمّ الدمار ، ففقدوا الطير المسمى أباقردان آكل الدود والحشرات ، مبيد الأذى ، مغيث الزرع من الفاتكات ، فجهل المصريون اليوم بالتفريط والاهمال كما أهمل أسلافهم بالتغالي والاسترسال ، فمذب الفريقان ، وأهين الأوّلون والآخرون ، فأولئك بالوهم الذي أضناهم في واقعة قمبيز ، وهؤلاء بعموم الدودة في هذه الأيام . اللهم إني أضرع اليك أن ترجع العلم لبلادي ، وتردّهم الى الهدى ، وتبعد عنهم عاديات الدمار انك أنت الحليم الرحيم ، ولا تجعلهم كاليهود ، وعلمهم يارب أن الحيوان مكرم مصون ، وأن الطير في الجوّ يعوزه الشجر فليغرسوه ، وليحفظوا الطير ولا يقتلوه .

واعلم أني كنت كتبت هذا التفسير كما قدمت في أوّل الكتاب وأنا مدرّس بدار العلوم في نحو سنة ١٩١١ م ومن عجيب صنع الله عزّ وجل أني في تلك السنوات كتبت في مجلة [الملاجئ العباسية] التي كانت تنشر هذا التفسير مقالا مطوّلا في اجمال تفسير سورة يوسف ، قلت فيها ان الفراعنة كانوا أغزر علما من حكام مصر ، ومن علماء أوروبا الذين يحكم رجالهم بلادنا ، فشرحت من رؤيا الملك سبع بقرات سمان وسبع سنبلات اهتمامه بالزراعة ، وعطفت على مسألة الطيور ، ونبهت الحكومة والأمة ، فصدر الأمر عقبها سنة ١٩١٢ م بمنع صيد الطيور النافعة ، ومن أهمها [أبوقردان] المذكور ، وها أناذا أكتب تمام التفسير الآن سنة ١٩٢٢ م للطبع ، وقد رأيت بعيني رأسي أن الحكومة قدربت [أبا قردان] وانتشر في البلاد المصرية انتشارا كما كان سابقا ، فأحمد الله عزّ وجل على هذه النعمة وعلى حفظ الطيور ببركة الآيات القرآنية وآثارها في النفوس ، وحرام على من

عنده نصيحة أن يمسكها جبنا عن الجمهور فانها لابدّ نافعة عاجلا أو آجلا ، وان شاء الله اذا طال الأجل ووصلت إلى سورة يوسف أثبت تلك المقالات هناك اهـ

أقول : هاهو ذا التفسير الآن يطبع ويعاد طبعه سنة ١٩٣٢ وأذكر الآن نعمة الله عزّ وجل فأقول اللهمّ إنى أحمدك حمدا كثيرا فانك أنعمت علىّ بأن حييت حتى فسرت سورة يوسف ومابعدها ، وشرحت مسألة الطيور المذكورة ، ورسمت صورها هناك بوضوح وشرح وتفصيل ، وهـذه علامة أن هـذا التفسير عناية إلهيـة ، والحمد لله رب العالمين .

« الزبرجدة الثالثة »

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ *

التفسير اللفظى

يقول الله تعالى (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة) خاصة بكم كما قلتم « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أونصارى » (من دون الناس) سائرهم أو المسلمين (فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاقها وأحبّ التخلص إليها (ولن يتمنوه أبدا بما قدّمت أيديهم) من موجبات النار كالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وتحريف التوراة (والله عليم بالظالمين) تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون فى دعوى ماليس لهم (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) أى والله لتجدنّ يامحمد اليهود أحرص الناس على بقائهم فى الدنيا (و) أحرص (من الذين أشركوا) وهؤلاء لايؤمنون باليوم الآخر فكيف كان اليهود أحرص منهم على حياة غير باقية ، ثم استأنف ليصف حال المشركين الذين زاد عليهم اليهود فى الحرص على الحياة الدنيا فقال (يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة) أى يودّ أحد المشركين تعمير ألف سنة لافرق فى ذلك بين مشركى العرب و بين المجوس ، وقد اعتاد هؤلاء أن يقولوا فى تحياتهم : عش ألف نيروز ، أو ألف مهرجان (وماهو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) أى وما أحدهم بالذى يزحزحه من النار تعميره (والله بصير بما يعملون) لايخفى عليه خافية من أحوالهم . انتهى التفسير اللفظى

يقول تعالى : من أيقن بالسعادة فى ميعاده فما أحراه أن يلوى له العنان ، ويجدّ فى السعى لحصول المراد ، و ينبذ الدنيا ، ويحرص على الأخرى ، وأنتم أيها اليهود أحرص الناس على الحياة ، بل أنتم أحرص من المشركين وهم العرب والمجوس ، وكيف يطلب الآخرة من يتمنى عمرا طويلا ، ألا وان الحياة الآخرة أسها الحب وعمادها الشوق ، وسقفها الرحمة ، وأىّ محبوب بعد مفارقة المادة إلا الله والملائكة والصدّيقون ، وأنتم تكرهون النفوس المجرّدة وهى :

« الزبرجدة الرابعة »

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى : (قل من كان عدوّا لجبريل فانه) أى جبريل (نزّله) أى القرآن (على قلبك) يامحمد (باذن الله) بأمره (مصدّقا لما بين يديه وهدى) من الضلالة (وبشرى للمؤمنين) بالجنة ، واذا كانت هذه حال جبريل ، إذن ليس هو الذى ينزل بالحرب والشدة كما تقول اليهود ، فمن يعاديه يكون عدوّا لله ، ولذلك أعقبه بقوله تعالى (من كان عدوّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) أى ولجبريل ولميكال (فانّ الله عدوّ للكافرين) أى لهم . انتهى التفسير اللفظى

الايضاح وبيان السبب

دخل عمر بن الخطاب رضى الله عنه مدارس اليهود يوما فسألهم عن جبريل ؟ فقالوا ذاك عدوّنا ، يطلع محمدا على أسرارنا ، وانه صاحب كل خسف وعذاب ، وميكائيل صاحب الخصب والسلام ، فقال : ومامنزلتهما من الله ؟ قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، وبينهما عداوة ، فقال : لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوّين ، ولأنتم أكفر من الحمير ، ومن كان عدوّ أحدهما فهوعدوّ الآخر والله ، ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحى ، فقال عليه الصلاة والسلام : لقد وافقك ربك ياعمر ، هذا ولاجرم أن بين الملائكة والأنبياء صلة ووددا ، فلم يكن الكفر قاصرا على الملأ الأعلى ، واذا كفروا وتعدّوا الطور فى أولئك الذين اصطفاهم رسلا بينه وبين أنبيائه فما أحراهم بالكفر بمن هم بشر مثلهم ، وذلك فى الزبرجدات ٥ و ٦ و ٧ :

« الزبرجدات : الخامسة ، والسادسة ، والسابعة »

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ * أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ

بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَايَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (ولقد أنزلنا إليك) يامحمد (آيات بينات) واضحات (وما يكفر بها) يجحدها (إلا الفاسقون) المتمرّدون من الكفرة (أ) كفروا بالآيات (وكلما عاهدوا عهدا نبذه) نقضه ورفضه (فريق منهم) لأن منهم من لم ينقض ، ولليهود عهود كثيرة مأخوذة عليهم فى كتابهم ، ومنها الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد كانوا يقولون : قد أظلّ زمان نبىّ مبعوث وانه فى كتابنا (بل أكثرهم لايؤمنون) أى كفر فريق منهم بنقض العهد ، وفريق منهم بالجحد للحق (ولما جاءهم رسول من عند الله) وهو محمد صلى الله عليه وسلم (مصدّق لما معهم) مصدّق بصحة التوراة (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب) اليهود (كتاب الله) التوراة وهى مبشرة بمحمد صلى الله عليه وسلم (وراء ظهورهم) خلف ظهورهم لم يؤمنوا بما فيه من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ولم يبينوا (كأنهم) جهلاء (لايعلمون) أنه كتاب الله ، واكتفوا من الايمان بالتوراة بأنهم يقرءونها ولايعملون بما فيها ، ويحلونها بالذهب ، كما يكتفى كثير من جهلة المسلمين فى زماننا بالتعظيم الظاهر للقرآن ، والتلاوة بغير تدبر ، وقوله تعالى : « واتبعوا ماتتلوا الشياطين » أى نبذ اليهود كتاب الله واتبعوا كتب السحر والشعوذة التى كانت تقرؤها (على ملك سليمان) على عهد ملكه وفى زمانه ، وذلك أن الكهنة كانوا يدوّنون مايقذف فى قلوبهم من الأمانى التى تلقيها إليهم الشياطين ، وفشا ذلك فى زمن سليمان عليه السلام ، وقالوا : ان الجنّ تعلم الغيب ، بل قالوا فوق ذلك : ان سليمان ماتمّ ملكه إلا بعلم السحر ، وبه سخر الجنّ والانس والريح ، وهذه المقالة اليوم لاتزال شائعة فى بلاد الاسلام ، وقد نقلت كتب الأمم من الصابئين واليهود وغيرهم ، ومزجت بالآيات القرآنية ، وملأت أصقاع بلاد الاسلام كما فعله البونى وغيره من الأوفاق وغيرها فتقهقرت الأمة وهذا أوان نهوضها (وما كفر سليمان) تكذيب لمن زعم ذلك (ولكنّ الشياطين كفروا) باستعماله حال كونهم (يعلمون الناس السحر) قاصدين اغواءهم واضلالهم (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) عطف على ما كفر سليمان أى لم يكفر سليمان باعتقاد السحر والعمل به ولم ينزل على الملكين المذكورين اللذين حكاهما اليهود ، والملكان رجلان صالحان كانا يعلمان الناس السحر كما تدرس الأمم اليوم فى المدارس أنواع السم فى مدارس الطب ، والتنويم المغناطيسى ، وأنواع الغازات المهلكات اتقاء لشرّها ، وحفظا لكيان الأفراد والأمم (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة) يقولان نحن ابتلاء من الله ومحنة (فلاتكفر) أى لاتتعلم السحر لأجل أن تعمل به ، كما تفعل الآن عامة الدول والعلماء إذ يمنعون من يتعلمون عقاقير السم وغيرها من إيذاء النوع الانسانى كما سيأتى قريبا إيضاحه . يقول الله : إن السحر لم ينزل على هذين الرجلين الصالحين ، فهما كانا يعلمان الناس السحر ويحذرانهم من استعماله اتقاء لشرّه ، ولكن هؤلاء المتعلمون كانوا لايعملون بالنصائح (فيتعلمون منهما مايفرّقون به بين المرء وزوجه) فان من السحر ما يكون سبب تفريقهما ، وهو ماسيأتى شرحه قريبا (وماهم بضارّين به من أحد إلا باذن الله) وفى زماننا يحصل ذلك بالتنويم المغناطيسى كما ستراه فى الشرح (ويتعلمون

مايضرّهم)

ما يضرّهم) بالعمل به (ولا ينفعهم) من حيث الاقتصار به على دفع الأذى عن الناس كما يفعل الطبيب الصالح من ابعاد العقاقير السمية عن الناس بسبب علمه بها (ولقد علموا) أى اليهود (لمن اشتراه) استبدل ماتتلو الشياطين بكتاب الله كما يفعل من يقرأ علم الأوفاق والطلاسم فى كتاب [شمس المعارف الكبرى] للبونى وغيره (ماله فى الآخرة من خلاق) نصيب (ولو أنهم آمنوا) بالرسول والكتاب (واتقوا) بترك المعاصى (لمثوبة من عند الله خير) جواب لو أى لأثيبوا مثوبة من عند الله خيرا مما شروا به أنفسهم ، فحذف الفعل وركب الباقى جملة (لوكانوا يعلمون) يصدّقون بثواب الله ولكن لا يعلمون ولا يصدّقون . انتهى التفسير اللفظى

إيضاح

من اقتصر على التفسير اللفظى فبها ، ومن أراد المزيد فليقرأ هذا الايضاح فانه أوسع مجالا ، وهو : يقول تعالى كما كفروا بالملائكة كفروا بالأنبياء ، فلم يؤمنوا بمحمد ولا بعيسى ، وان عاهدوا نقضوا ، وان وعدوا غدروا وحوّلوا العقول عن فطرتها ، وأخذوا فى الخرافات ورجعوا للترّهات ، ونبذوا علم الحقائق وفهم الدقائق وصدقوا ما أذاعته الشياطين عن ملك سليمان ، وانه ماعظم إلا بالسحر ولا علم إلا بالعزائم والأباطيل ، وانما كفرت الشياطين كهاروت وماروت بجعلهما بدلا من الشياطين على رأى ، فهما اللذان علما الناس السحر ، وما أنزلناه على الملكين ان الملائكة منزهون عن الذنوب مبرءون من العيوب على أن هذين نصحا الأمة ، فقالا للمتعلمين إنما نحن فتنة فلا تكفروا ، وحاشا أن يكون سليمان مضلا للناس وهو نبىّ كريم ، فاتبع اليهود ماتلت الشياطين من الانس والجنّ على عهد ملك سليمان من الافك والسحر ، وأضلوا ونسبوها له وهو مبرأ من العيوب والاضلال والذنوب ، وانما الشياطين هاررت وماروت وغيرهما هم الكافرون ، لأنهم يعلمون الناس السحر ، وليس من الملائكة مضلون ، فسليمان والملائكة مبرءون ، وهاروت وماروت مضلان إذ يضلان الناس ابتلاء وامتحانا من الله ، فأخذ اليهود يشيعون الأحاديث الملفقة ونبذوا الوحى والدين كما يفعل المسلمون اليوم ، فانهم لايزالون يقرءون العلوم السحرية ويخضعون للدجالين الغاوين الكذابين الذين يدعون أنهم يفتحون الكنوز و يستخرجون الذهب من العناصر ، وقد خلط السحرة القرآن بالعزائم فضل المتعلمون سواء السبيل فى هذه الأمة كما ضلّ اليهود من قبلهم كذلك تراهم يقولون خاتم سليمان عليه السلام و ينسبون له ولد انيال وأرمياء وعلىّ بن أبى طالب ماليس لهم به علم فاستخذت الأمة للأباطيل واستوثق النصر للعدوّ المبين عليها جزاء بما كانوا يجهلون ، فأما ماحكى اليهود من أن الملائكة حقروا بنى آدم وأمرهم الله أن يختاروا اثنين ليكونا كبنى آدم فى الصورة . فكان هاروت وماروت ونزلا من السماء وقضيا بين الناس وأضلتهما امرأة وعرفت منهما الاسم الأعظم ، وصارت نجمة الزهرة وعذبا فى مدينة بابل إلى يوم القيامة ، وهما يعلمان الناس السحر ، فهذا خرافة وكيف تحمل الآية عليها ؟ ومقصود القرآن الكريم أن الأمم حين تتدهور فى الهاوية ترجع عقولها القهقرى وتأخذ فى الدين إلى الوراء وتتبع ماتملى عليهم الشياطين من الانس والجنّ ، فيكون الأستاذ هو الوسواس ، والدجال هو الفقيه ويذرون العلم والعلماء والدين والأنبياء ، ألم تر الى حكم سليمان فلننقل لك منها لتعلم قول الله تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) الخ .

قال فى التوراة فى سفر الأمثال فى الاصحاح الثالث : طوبى للانسان الذى يجد الحكمة وللرجل الذى ينال الفهم لأن تجارتها خير من تجارة الفضة وربحها خير من الذهب الخالص هى أثمن من اللآلئ وكل جواهرك لا تساويها ، ثم قال هى شجرة حياة لممسكيها والمتمسك بها مغبوط .

الربّ بالحكمة أسس الأرض وأثبت السموات بالفهم بعلمه أنشئت اللجج وتقطر السحاب ندى .

ومنها لاتمنع الخير عن أهله حين يكون فى طاقة يدك أن تفعله ، ومنها اذهب إلى النملة أيها الكسلان تأمل طرقها وكن حكيما ، ومنها الى متى تنام أيها الكسلان .

الرجل اللئيم الرجل الأثيم : يسعى باعوجاج الفم يغمز بعينه يقول برجليه يشير بأصابعه فى قلبه أكاذيب يخترع الشر فى كل حين يزرع خصومات لأجل ذلك بغتة تفاجئه بليته يكسر ولاشفاء .

وقال ليمدحك الغريب لافمك الأجنبى لاشفتاك ، وقال لاتفتخر بالغد لأنك لاتعلم ماذا يلده يوم ، وقال أيضا فى الجامعة باطل الأباطيل الكل باطل ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضى ودور يجىء ، والأرض قائمة الى الأبد ، والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق الخ ، وهذه كلها حكم دائرة على الزهد فى الدنيا واحتقارها واليأس منها . ومن هذه أخذ عمر الخيام رباعياته المشهورة فى أمريكا وأوروبا ، وترجمت حديثا الى اللغة العربية ، وهكذا أيضا أشعار أبى العلاء كلها تزهيد فى الدنيا كما فى الجامعة المذكورة لسيدنا سليمان عليه السلام ، فان شئت فاقرأها فى نفس التوراة نحو ١٢ صفحة اه .

فوازن رعاك الله هذه الحكم البديعة والأمثال العجيبة التى أبرزها النبى سليمان عليه السلام ، وهى تتلى فى التوراة الى يومنا هذا بما نسبه له اليهود من السحر ، وهو صفة العاجزين ، فهذه بعض أمثاله ، وهى طرق حكمه ، ومنها نعرف قوله تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون . ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) فاقرأ وتعجب وقايس حال المسلمين اليوم بحال اليهود زمن النبوة ، وكيف أصبح المسلمون كثيرى العدد قليلى الحكمة يأمر القرآن بحوز وفهم الحكمة والنظر فى العوالم ونظام المدن واعلاء شأن الزراعة والتجارة والصناعة كما تشير اليه سورة سبأ ، وترى كثيرا من الذين يقرءون الدين يجهلون نظام العالم وحكمة الله ، كأنهم لايعلمون وسطا الدجالون من المغاربة والساحرين على عقول المترفين ، فأصبحوا لايرى إلامساكنهم ، وهل أتاك حديث المغربى الذى ذهب إلى بلدة العصلوجى قرب بلدة الزقازيق ، وقال لرجل هناك إنى أجعل القطعة من الذهب أضعافها ، فجمع الرجل حلى النساء وأسلمه له ، فأعطاه عمودا مطليا بالذهب ، فلما حكه وجده نحاسا فسقط فى يده وضاعت ثروته ، وهى تساوى ألف جنيه أو تزيد ، وآخرون يدعون احضار الجان ويضحكون على الأذقان ويغرون النسوان بحيل دبروها ، ومكايد نصبوها ، وأشراك وضعوها ، ذلك والله عرفناه فى كتبهم قرأناه : اللهم أزل الجهل عن هذه الأمة ، واكشف الغطاء عن أبصارها ، وأنر بالعلم بصائرها إنك أنت الرحيم الغفور .

اعلم أنى بعد ما كتبت ماتقدم فى تفسير الآية ظهر لى وجه وهو مختار عند أفاضل المفسرين فيقال : واتبع اليهود ماتلت الشياطين من الانس افتراء على ملك سليمان وعلى ماأنزل من السحر على الملكين ببابل هاروت وماروت .

أما سليمان فانهم نسبوا إليه أمورا سحرية هو منها براء ، وقالوا ما كان ملكه إلا بسببها ترويجا لدعواهم فبرأه الله مما قالوا ، فقال (وما كفر سليمان) بعمل السحر ، وانما هم المفترون عليه بعمل السحر ، وهم الكافرون ، وذلك قوله « ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » ، وأما افتراؤهم على ماأنزل على الملكين ببابل ، وهما هاروت وماروت ، فذلك أنهما نزلا فى صورة رجلين ليعلما الناس السحر تفريقا بينه وبين المعجزة كما يتعلم رجال الجيش اليوم المواد الخانقة والمعمية وغيرها ويؤمرون بكتمها دفاعا عن حريتهم وعظمة دولهم ولايطلع عليها عامة الشعب ، وهكذا المواد السمية يتعلمها الأطباء ، ولكن يحرم عليهم استعمالها أو اعطاؤها لأحد من الناس إلا فى أحوال خاصة . قال الشاعر :

عرفت الشرّ لا للشـر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشرّ * من الناس يقع فيه

فاذا أخـذا يعلمان السحر الذى أنزل عليهـما حتى إذا جاء ساحر وادّعى النبوّة عارضوه وكذبوه ، ولذلك كان هذان الملكان يقولان للمتعلمين إنما نحن فتنة واختبار لكم لننظر أفى الخير أم فى الشرّ تستعملون السحر ، وذلك مثل جميع النعم الواردة على البشر ، فانها صالحة للخير وللشرّ ، كالقوّة والجمال والمال والولد والعلم والملك والحكم بين الناس ، كلّ هؤلاء مبتلون ومختبرون آلخير يصنعون أم الشرّ ؟ ولكن السحر المذكور أشدّ فتنة ، فأما اليهود فانهم أخذوا بشرّ الأمرين (فيتعلمون منهما مايفرّقون به بين المرء وزوجه) وذلك بنوع من التضليل والتلبيس ، وهو تعليق القلب ، فيدّعى الكاذب أنه عرف اسم الله الأعظم ، وأن الجنّ يطيعونه وينقادون إليه فى أكثر الأمور ، فاذا كان السامع ضعيف العقل قليل التمييز والقوى الحساسة ، تمكن ذلك الكذاب منه ، فأنام بصيرته وأيقظ خبله وغفلته والتعلق بحبال الخيال والخبال ، نخـدّر أعصابه وأحدث فى نفسه نوعا من الاستهواء ، وهو أشبه بالتنويم المغناطيسى .

ولقد ظهر هذا النوع بأجلى مظاهره فى ذلك التنويم فى عصرنا حتى أن الأمم الغربية حرّمت العمل به إلا فى الأعمال الجراحية ، فانهم رأوا أن الاستهواء وأخـذ الألباب قد كثر فى ديارهم ، فاذا قال المنوّم للمنوّم بالفتح بعد استيقاظك بثلاث ساعات مثلا أقتل فلانا ، فانه لابدّ فاعل ذلك ، وهكذا إذا قال لامرأة كونى معى بعد كذا وكذا ، فانها لاتعصى للقائل أمرا ، وهى لاتدرى من أين جاء لها هذا الغرام ولا تعلم من الذى أوحى اليها بذلك ، ولما كان المؤثر والمتأثر خاضعين لله قال الله (وماهم بضارّين به من أحد إلا باذن الله ويتعلمون مايضرّهم ولاينفعهم) .

إيضاح الكلام على السحر

لقـد ذكرت لك أن السحر المذكور كان من نوع تعليق القلب ، وانه من أنواع التنويم المغناطيسى ، وأقول الآن انى رأيت هـذه الأعمال فى المراسح العامة إذ كان المنوّم يوحى إلى المنوّم بالفتح بما يشاء فلا يجد الاطاعة عمياء ، فاذا أعطاه السكر وقال هو علقم لفظه من فيه لشدّة تأثر حاسة الذوق من البشاعة ، واذا أعطاه الحنظل ، وقال هذا سكر استمرأه واستحلاه ، وهكذا تراه قد ملك عليه سمعه وبصره ، ونحن نشاهد ذلك عيانا ، وكان يقول للرجل أنت امرأة راقصة فيرقص رقصها ويقول له أنت ملك ، فيفعل فعل الملوك ، وذلك اليوم شائع ذائع فى أوروبا ، ووصل الينا فى الشرق بعضه ، وهذا الذى ذكرته بعض ماوصل ، وكان فى تلك المجالس أطباء يمتحنون المنوّمين بالفتح لينظروا أهم نائمون ؟ فكانوا يشهدون بنومهم على مقتضى حركات النبض ، وهكذا كان معنا العلماء وكبار الأمة وعظماؤها وأمراؤها ومهندسوها وأنا أشاهد ذلك بنفسى ثم ان فى هذا العلم غرائب فوق هذا حتى أن الطبيب قد ينيم المريض ويعمل فيه أكبر عملية جراحية ويستيقظ ذلك المريض وكأنه شخص آخر ويساعد الطبيب وهو لايعلم أنه هو نفسه : يساعد فى تقطيع لحمه وبترعضوه بالسكين ، وهناك غرائب تجاوزنا عن ذكرها ، وبحار من العلم واسعة لاسبيل الى ذكرها هنا ، وانما الذى يهمنا فى تفسير الآية أن نقول : يجب على الحكومات الاسلامية وجوبا شرعيا أن تأمر طائفة من الأطباء بتعلم هذا الفن من التنويم كما فعل هاروت وماروت اللذان قصدا التفرقة بين السحر والمعجزة ، والا لادّعى الكذابون النبوّة وأتوا بشرائع فاجرة خاطئة ، ولقد بلغنا أن علم الكلدانيين قد عثر عليه الأمريكيون فى تلك البنايات الخربة فى بابل ونينوى وفى آثار الآشوريين والبابليين فانتشر هذا العلم كرة أخرى فى الشرق والغرب ، ولولا

أن الأمم اليوم مستيقظة لادّعت طائفة ممن يمارسون هذه العلوم النبوّة ، ولكنهم اقتصروا على مايدعونه من الاخبار بالحوادث ، وعلى أمور أخرى لانطيل بذكرها وفيها الضرّ والنفع ، فوجب أن تقوم طائفة لدرء المفاسد التي يلقيها هذا العلم على الناس ، وهذا هو السرّ في ذكر هذه الآية في القرآن بقيت ألفا وثلثمائة سنة لتكون تذكرة للناس وليحترسوا من الوقوع في شرك المضارّ الناجمة من تلك العلوم ، وتعليمها فرض كفاية كما في سائر الصناعات والعلوم ، ومنها الصناعات الحربية والعلوم جميعها ، ويحرم على من تعلم هذا العلم أن يستعمله الا فيما فيه الخير للأمة .

ولقد حصل في هذه الأيام أثناء تأليف هذا التفسير أن طبيبا في مصر استهوى فتاة يهودية فقيرة ونوّمها تنويما مغناطيسيا ، وصار يسأل هذه الجاهلة الأمّية الصغيرة الخادمة في حال ذلك النوم عن أمراض المرضى والعلاج الناجع ، فكانت تجيبه بأجوبة تامّة ، فكان هو يعمل بها ويداوي المرضى ، وأراحته من النصب والتعب في البحث والتنقيب في الكتب الطبية ، ثم ان نفسه الخبيثة سوّلت له أن يهتك سترها فطاوعها ، ثم افتضح أمره ، وانكشف سره ، وفشا خبره ، والبنت غافلة لاتعلم شيئا لأنه كان في حال النوم يوحي إليها أن الفاعل الظالم إنما هم الجنّ ، وليس هذا من فعل الآدميين ، ورفع الأمر أهلها إلى الحكومة المصرية ، فأمرت الحكومة الطبيب المصري ، فنوّم الفتاة وجاء القضاة والأمراء ، وكذلك المفتشون من الانجليز وأخذوا يمتحنون الفتاة وهي نائمة ، فيقول أحدهم ما الذي في يدي ؟ فتقول كذا وكذا ، ويقول الثاني من أنا ؟ فتقول أنت المفتش وفي كيسك كذا وفي يدك كذا ، وهكذا : فلما علموا صدق أخبارها وثقوا بما تقول ، فأخذت تقص قصص الطبيب معها ، وفسقه وفجوره وحيله ، وهي نائمة ، فحكموا عليه بالفسق ، وعاقبوه عقاب المجرمين .

وقد ألف الطبيب المذكور في هذه الحادثة كتابا منتشرا بين الناس اليوم في بلادنا . ومن عجب أن الفتاة اذا استيقظت لاتعرف شيئا عما جرى وما قالته ، وترجع كما هي ساذجة غافلة .

فتعليم هذا العلم واجب كما قلنا على كل حكومة سرت إليها علوم أمريكا وأوروبا ، ليحترس بعلماء الفن من الفاسقين الذين يفرّقون بين المرء وزوجه . وهذا سرذكرهذه الآية كما قلنا ، وإلا فبنواسرائيل كما قال عمر رضي الله عنه مضى أمرهم وانقضى خبرهم ولم يبق إلا الأحياء الآن ، فاليهم يساق الحديث . ولننقل لك شذرة في التنويم المغناطيسي من كتاب الأرواح الذي ألفته . قلت :

قال شير محمد : قدعرفنا إحضار الأرواح ونريد أن نعرف التنويم المغناطيسي . فقلت : اعلم ياشير محمد ان ذلك علم آخر يسمى السبات المغناطيسي أو التنويم ، وهو أن ينام الانسان بدرجات مختلفات لأسباب طبيعية أوكيماوية ، أو حيوية . فالأسباب الطبيعية : كالنور والصوت بأن يسمع صوتا متساوي اللحن . والسائل الكهربائي الخفيف ، والقطع الزجاجية اللامعة التي تنوّم من حدق نظره إليها ، والمؤثرات الكيماوية . هي الأثير ، والكلوروفورم ، والأزوت ، وهي تلقي آخذها في النوم وتفقده الاحساس . والمؤثرات الحيوية أخصها الارادة بأن يأمر باللسان ، أو السيال العصبي ، أو يحدق ببصره إلى الشخص المنفعل ، أو يبادئه بالاشارات والحركات المغناطيسية . هذه هي أسباب التنويم اجمالا ، أما درجات النوم فهي ثلاث .

أوّلا : أن يفقد الاحساس ويلبث شاخص العين يتلقى أوامر المنوّم ، وتلوح عليه الأمارات الدالة على قبوله لكل مايريد المنوّم بالكسر ، وفي هذه الحالة لو أدخل رجل المنوّم بالفتح في ماء مغلي ، أوقرص جسمه لم يحس كما جربه العلامة دي بوكاته في باريس لتلاميذه [وكما شاهدته هذه الليلة ليلة السبت السابع من شهر فبراير سنة ١٩٢٠ وأنا أكتب هذه القطعة عند إعادة طبع الكتاب ، فان المنوّم قدأنام في دار التمثيل العربي

شبانا ، وصار يلعب بحواسهم ، فيطعمهم المرز ، و يقول لهم هو حنظل فيلفظونه ، و يطعمهم الطماطم باسم التفاح فيستلذون طعمها ، و يسمى أحدهم باسم غير اسمه فيصدّق و يتسمى به ، وقد قال لشاب أنت اسمك لبيبة فأرنا رقصك ففعل وأمره أيضا بقلب النوم الصناعى طبيعيا ، ففعل وأبرز صورة الجرائم من المنوّمين ، وكيفية اقرارهم وما أشبه ذلك ، وكان يبكيهم تارة و يفرحهم أخرى ، و يلفق لهم تهمة ، ثم يفهمهم أنهم آثمون ظالمون فيندمون و يبكون بصوت عال الخ ولا جرم أن هذا مبدأ التنويم ، وقد صدق ظنى أن بلادنا ستنال حظها من علم الأرواح ، وهذا كتابنا فيه تجارب الأمم من حيث الثمرات ، وأنا لا أشك أن العقلاء سينظرون لثمرات التنويم واحضار الأرواح لارتقاء الانسان كما نقلناه فى هذا الكتاب .

ثانيا : أن يفقد الاحساس تماما و يغلق عينيه كالحال الاولى ، ولكن تمتاز هذه أنه يسمع و يبصر و يتكلم ويجيب بمعزل عن الحواس ، و يقرأ و يكتب كما يأمره المنوّم .

ثالثا : أن يحصل انخطاف روحى بأقصى درجاته ، و إذن يعرف النائم نفسه معرفة تامّة ، و يصف علل جسمه والعلاجات الملائمة ، و يشاهد أفعال الناس و يسمع كلامهم عن بعد سحيق ، و ينبئ عن حوادث مستقبلة ، و يتكلم بلغات شتى ، و يرى أرواح الأموات ، و يصف هيئتها ، و ينقل الى الجالسين أقوالها وهذه الدرجات الثلاثة تسمى هكذا بالترتيب :

الكاتالبسيا . الليثارجيا . السونانبيلزم .

وهاك بعض الحوادث لاثبات ماتقدم .

(١) قال العلامة شاردل فى تأليفه المدعو بالمغناطيسية الحيوانية : انه نوّم ابنة صحيحة البنية ، و بينما هى تلقنه وصف العلاج الذى يداوى به سألته ألا تسمع كيف يأمرنى بذلك ؟ فقال لها لا أسمع أحدا ، فقالت نعم لأنك نائم وأنا يقظانة حرّة ، فقال لها واعجبا لك ! أين حرّيتك وأنت مسخرة لارادتى . قالت له أنت تعرف ظاهر الشيء الخشن الغليظ ، أما أنا فأرمق باطنه البهى . فان نفسى منحلة من القيود مؤقتا . فأرى مالا تراه أنت وأسمع مالا تسمع أذناك ، وأدرك مالا تقوى على إدراكه ، وأرى النور يشع من أطراف أصابعك وأنت تمغطسنى ، وأسمع أصواتا من بعيد جدا ، وحديث من يتكلم فى بلد آخر ، فأنا أذهب الى الأشياء ، وليست هى التى يؤتى بها إلىّ . وحالى الآن يقظة تحاكى يقظة الانسان بعد الموت .

المثال الثانى : وصفت فتاة كان ينوّمها العلامة شاردل المذكور له الحال التى كانت عليها حين نومها ، فقالت : أحس أن جسمى يتمدد شيئا فشيئا حتى أفارقه وأراه بعيدا عنى باردا كجسم ميت ، وأرى نفسى كبخار وأدرك مالا أقوى على ادراكه فى اليقظة ، والنوم المغناطيسى الذى هو أقل من هذا ، وهذه الحال لاتدوم أكثر من ربع ساعة ، ثم يرجع الجسم البخارى شيئا فشيئا إلى جسمى الغليظ ، ثم أفقد الشعور .

المثال الثالث : أعمال الأكاديميا الطبية الفرنسية إذ خصصت لجنة طبية للنظر فى الحوادث المغناطيسية ولنذكر حادثة واحدة من حوادثها لتطلع ياشير محمد على عجائب العلم والحكمة ، ولتكون نموذجا من أعمال تلك اللجنة فى أشهر الممالك الأوروبية .

اجتمعت اللجنة فى ٦ تشرين الأوّل وقت الظهر ، والمريض هو المسيو [كازو] المصاب بداء الصرع والمنوّم هو المسيو [فرواساك] وجلس فرواساك فى حجرة أخرى ولم يعلم كازو أنه حضر ، وأرسلوا لفرواساك أن ينوّم كازو ، وعينوا له النقطة المحاذية له فى الحجرة ، فنام كازو بعد أربع دقائق ، فسألوه عن النوبات التى ستنوبه فعين منها اثنتين بدقائقهما وساعاتهما وأيامهما ، والنوبة الأولى بعد أربع أسابيع . والثانية بعد خمسة أسابيع ، فكتبوا التقرير وأعطوه لمن ينوّمه ، وهو المسيو فرواساك مبدلين المواعيد قصدا ، فلما نوّمه بعد أيام ليشفيه

من ألم الرأس أخبره بمواعيد للنوبة غير التى أخبرت اللجنة بها . فرجع الى اللجنة وأخبرهم أن التقرير الذى قدّموه له محرّف . فأصروا على قولهم ، ثم تمت النوبات فى الأوقات المعينة بالضبط على مقتضى ما أخبرهم كازو فى نومه . ثم أخبر بنوبتين أخريين فى موعدين معينين حصلت احداهما فى وقتها . أما الأخرى ، فقد سقط قبل وقوعها ، وهو يهدى حصانا وتهشمت رأسه على العجلة فمات انتهى .

وقد فصل القول العلامة [هيسون] من أعضاء اللجنة المذكورة فقال ان المريض أنبأ بحوادث النوبات قبل حدوثها فلم يخطئ ، والمغناطيسية الحيوانية أصلحت حاله وأزالت عنه أوجاع الرأس ، وكان يصف العلاجات وصفا دقيقا ، وكان يقول : إن هـذه النوبات تصيبه مالم ينوّمه قبل وقت حلولها ومع ذلك لم يخطر بباله أن حادثة ستصيبه فتقطع عليـه حياته ، وهذه أشبه بأمر الساعة فان الانسان يعرف مقادير قطع العقارب للميناء فيحدّدها بالتحقيق ولـكنه لا يدرى متى يفاجئها كسر أو تهشيم فتقف حالها .

ذكر ماقاله القدماء فى علم السحر

نذكر هـذا ليطلع القارئ على مامضى وانقضى من أنواع السحر على سبيل الرواية التاريخية ، السحر يطلق شرعا على كل ماخفى سببه ، و يتخيل على غير حقيقته ، ويجرى مجرى التمويه والخداع ، وعند الاطلاق يفيد ذم صاحبه . قال تعالى : « سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم » وهو أنواع :

أوّلا : سحر الـكلدانيين فى قديم الزمان ، كانوا يعبدون الـكواكب و يزعمون أنها مصادر النحس والسعد وكانوا يتوسلون إليها ، و يتقرّبون بالبخور والاستحمام ، وألوان الملابس المناسبة فى زعمهم لتلك الـكواكب والساعات المعينة كذلك .

ثانيا : سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية كالتى تحدث الاصابة بالعين فتؤثر فى الأشخاص ، وتحدث الضرر فى الأجسام كما ذكره كبار الفلاسفة ، و يقرّرون ذلك بأن تصوّر الانسان مؤثر فى نفسه ، ألا ترى أنه يؤثر فى جسمه حزنه وفرحه ورجاؤه وخوفه وعشقه وغرامه ، فهذه آثارها الحاضرة عندها ، فيجوز أن النفس اذا قويت أثرت فيما بعد عنها اذا تركت المألوفات ، ونبذت الشهوات ، كما هى عادة أولئك الذين يزعمون أنهم سحرة ، فتخلو نفوسهم من شواغل الجسد ، وتلمّ شعثها ، وترجع إلى عالمها الروحانى ، وتفعل الشرّ ، وتـكون ممقوتة عند الله والناس ، وللوهم آثار كمن يرى يمشى على جذع فوق الأرض فانه يسهل عليه ، واذا وضع هذا الجذع بين حائطين أو عمودين مثلا لم يقدر على المشى عليه ، ويخرّ صريعا لليدين والفم ، وماصرعه إلا وهمه . ونقل ابن سينا عن أرسطو أن الدجاجـة اذا تشبهت بالديكة فى الصوت وفى القتال معها نبت على ساقها مثـل الشىء النابت على ساق الديك ، وأيضا ان الدعاء مظنة الاجابة عند سائر الأمم .

ثالثا : الاستعانة بالأرواح الأرضية ، وهذا أقوى أنواع الخرافات .

رابعا : سحر التخيلات كما يفعله المشعوذ المسمى بالحاوى فى بلادنا المصرية .

خامسا : قد جعلوا ممـا يسمى بالسحر الآلات المتحركة بضروب هندسية وعجائب علم الـكيميا كظهور نار الفصفور الموضوع فى الماء ، وكالحرير الصخرى المعلوم الذى وضعته أنا وأنا مدرّس فى دار العلوم على النار فلم يحترق ، وهو كلما وضع عليها ازداد نظافـة ، وكان ذلك فى الدرس أمام التلاميـذ وهم يتعجبون ، وكالآلات البخارية الجارية الآن ، وأنت تعلم أن هذه كلها اليوم أصبحت فى عداد العلوم وخرجت من مسمى السحر لشيوعها ، وقد كان بعضها عند المتقدمين سرّا مكتوما .

سادسا : الاستعانة بخواص الأدوية كما حدث فى حرب الألمان المبتدأ سنة ١٩١٤ م انهم كانوا يلقون البخار على الأعداء ، فتارة يعمى أعينهم ، وتارة يخدّرهم ، وتارة يحدث فيهم جنونا ، وقد كان القدماء يقولون

« ان

« ان مخ الحمار اذا أكله انسان أورثه البلادة » وهذا منقول عن الكلدانيين ، وأنا أرى أن هذا القول خرافة والا فالناس تأكل مخ سائر الحيوان فما بالهم لم يصيروا كالغنم وكالدجاج !

سابعا : تعليق القلب الذى تقدّم ذكره ، وقد أطلنا فيه ، وهو من فنّ التنويم المغناطيسى .

ثامنا : النميمة ، والوشاية ، وضروب الأكاذيب ، المحوّلة للقلوب ، المضلة للنفوس ، التى يستعملها الضالون من الناس ليفرّقوا بين زيد وعمرو ، و بعض هذه الأنواع أصبحت لا تسمى سحرا اليوم وهى ٨ و ٦ و ٥ و بعضها أصبح خرافة ، و بعضها يجوز فى نفسه ، فأما وقوعه فى الخارج فيحتاج الى عيان ونحن لم نشاهده والله أعلم هذا وان اليهود كما آذوا سليمان بنسبته الى السحر تعدّوا الحدّ على النبىّ صلى الله عليه وسلم فنسبوه للرعونة استهزاء وسخرية اهـ

« الزبرجدة الثامنة »

يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا ٱنْظُرْنَا وَٱسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۞

التفسير اللفظى

يقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم) هذه واضحة : انهم كانوا ينطقون بالكلمة محرّفين المعنى الشريف الى معنى زائف ، إذ يقول المؤمنون راعنا أى راقبنا وتأنّ بنا حتى نفهم ماتلقيه علينا ، ويقولها اليهود لتكون من الرعونة ، يريدون سبه بالكلمة العبرانية التى كانوا يتسابون بها وهى راعينا ، فنهى المؤمنون عنها ، وأمروا بما يفيد تلك الفائدة من غير لبس وهو انظرنا أى انظر الينا ، وقوله « اسمعوا » أى أحسنوا الاستماع فلا تحتاجوا الى أن تعودوا الى ما نهيتم عنه (مايودّ الذين كفروا من أهل الكتاب) يعنى اليهود (ولا المشركين) أى عبدة الأوثان (أن ينزل عليكم) أى ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم من الوحى والنبوّة كما لا يحب ساسة الأمم المستعمرة فى زماننا أن تترقى الأمم المحكومة بالعلوم والصناعات حسدا و بغيا من الفريقين (من خير من ربكم والله يختصّ برحمته) يختار لدينه والنبوّة والاسلام والكتاب (من يشاء) من كان أهلا لذلك يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (والله ذو الفضل العظيم) ذو المنّ الكبير بالنبوّة والاسلام . انتهى التفسير اللفظى

« الزبرجدة التاسعة »

مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۞ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ

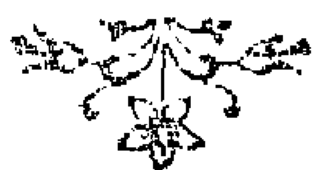
الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *

سبب نزول هذه الآية

نزلت هذه الآية لما طعن الكفار فى النسخ ، وقالوا : ان محمدا يأمر أصحابه اليوم بأمر ثم ينهاهم عنه ، ويأمر بخلافه ، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا ، نسخ الآية إما بانتهاء التعبد بتلاوتها ، واما بانتهاء الحكم المستفاد منها ، واما بانتهائهما ، وقرأ ابن عامر « ماننسخ » من أنسخ أى نأمرك أوجبريل بنسخها ، وقوله (أوننسها) أى ننس أحدا إياها ، وقرأ ابن كثير وأبوعمرو « ننسأها » أى نؤخرها من النساء (نأت بخير منها) وهوالأنفع للعباد فى سهولته ، أوكثرة الثواب عليه (أومثلها) من التكاليف والأجر ، فاذا بدّل الله حكما فى آية بحكم فى أخرى كآية الميراث بعد آية الوصية فان ذلك لحكمة تقتضيه ، وهكذا فعل الله فى السموات والأرض ، ألم تر الى أغذية الشتاء والصيف ، وأشجار الربيع والخريف ، والليل والنهار ، والصباح والمساء ، واذا نسخ آية الحب ففلقها ، والنوى فأنبتها ، والعامرات خربت ، والخربات فعمرت ، هكذا ينسخ آية بآية وحكما بحكم ، فهذا فعله ، وهذا قوله ، وكيف يراعى المصالح فى أفعاله ، ويدعها فى أقواله ؟ ولذلك قال (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ، ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ومالكم من دون الله من ولىّ ولا نصير)

الناسخ والمنسوخ

النسخ يطلق بمعنى الازالة ، ومنه قوله تعالى : « فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته » وبمعنى التبديل ، ومنه : « واذا بدّلنا آية مكان آية » وبمعنى التحويل كآية المواريث فيحوّل الميراث من واحد الى واحد ، وقد أكثر العلماء من الكلام فى الناسخ والمنسوخ ، والحقّ أن ذلك لايصح إلا فى قليل من الآيات ، ألاترى الى آيات الصفح والعفو والتجاوز فقد أكثر العلماء من قولهم انها منسوخة بآية القتال مع أن الصفح كان مؤقتا بزمن الضعف وقلة المسلمين فاذا كثروا وقووا جازلهم مالايجوز فى حال الضعف من القتال ، ألاترى الى قوله تعالى فى هذه السورة هنا (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) ولقد جاء الأمر بالقتال فلم تنسخ الأولى ، بل جاءت لزمنها ، وجاءت آية القتال منسأة أى مؤخرة ، وليس ذلك من النسخ كما فى قوله هنا : « ماننسخ من آية أوننسأها » نؤخرها ، وقدّرصاحب الاتقان هذه المسائل فجاءت عشرين موضعا فى بعضها خلاف :



المنسوخ	الناسخ
[آيات البقرة] (١) : كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت .	آية المواريث
(٢) : وعلى الذين يطيقونه فدية	فمن شهد منكم الشهر فليصمه
(٣) : كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم (مقتضى ذلك أنه يحرم الوطء والأكل بعد النوم)	أحلّ لكم ليلة الصيام الرّفث الى نسائكم
(٤) : يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه	وقاتلوا المشركين كافة
(٥) والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم . الآية	يتربصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرا
(٦) : وان تبدوا ما فى أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله	لا يكلف الله نفسا إلا وسعها
آية [آل عمران] (٧) : اتقوا الله حقّ تقاته	اتقوا الله ما استطعتم
[النساء] (٨) : والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم	وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض
(٩) واذا حضر القسمة أولوا القربى	آية الميراث
(١٠) : واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم	آية النور
[المائدة] (١١) ولا الشهر الحرام	أبيح القتال فيه بقوله : وقاتلوا المشركين كافة .
(١٢) فان جاءوك فاحكم بينهم أوأعرض عنهم	وأن احكم بينهم بما أنزل الله . الآية
(١٣) وآخران من غيركم	وأشهدوا ذوى عدل منكم
[الأنفال] (١٤) ان يكن منكم عشرون صابرون	الآن خفف الله عنكم . الآية
[براءة] (١٥) انفروا خفافا وثقالا	ليس على الأعمى حرج . الآية وآيات أخرى
[النور] (١٦) الزانى لاينكح إلا زانية الآية	وأنكحوا الأيامى منكم
(١٧) ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم	نسخت ، وقيل تهاون الناس فى العمل بها
[الأحزاب] (١٨) لايحلّ لك النساء من بعد	انا أحللنا لك أزواجك
[المجادلة] (١٩) اذا ناجيتم الرسول	الآية بعدها
[الممتحنة] (٢٠) فآتوا الذين ذهبت أزواجهم	آية السيف
[المزمّل] (٢١) قم الليل إلا قليلا	بآخر السورة ثم بالصلوات الخمس

فهذه إحدى وعشرون منها :

آية : « وعلى الذين يطيقونه » قيل انها محكمة ، أى وعلى الذين لا يطيقونه بحذف لا فهى مقدّرة .

وآية : « اتقوا الله حقّ تقاته » قيل انها محكمة .

وآية : « واذا حضر القسمة أولوا القربى » قيل محكمة وتهاون الناس فى العمل بها .

وآية : « ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم » قيل محكمة وتهاون الناس فى العمل بها .

وآية : « فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا » قيل انها من المحكم .

فالآيات التى فيها النسخ بغير خلاف تبلغ ١٦ وقد ضمّ الى المنسوخ عند ابن عباس قوله تعالى : « فأينما تولوا فثمّ وجه الله » وقال هو انها منسوخة بقوله : « فولّ وجهك شطر المسجد الحرام » . وقد نظم هذه الشيخ السيوطى فى الاتقان فقال مختارا عشرين منها :

قد أكثر الناس فى المنسوخ من عدد * وأدخلوا فيه آيا ليس تنحصر
وهاك تحرير آى لا مزيد لها * عشرين حرّرها الحذاق والكبر
آى التوجه حيث المرء كان وان * يوصى لأهليه عند الموت محتضر
وحرمة الأكل عند النوم مع رفث * وفدية لمطيق الصوم مشتهر
وحقّ تقواه فيما صحّ فى أثر * وفى الحرام قتال للألى كفروا
والاعتداد بحول مع وصيتها * وان يدان حديث النفس والفكر
والحلف والحبس للزانى وترك أولى * كفر واشهادهم والصبر والنفر
ومنع عقد لزان أو لزانية * وما على المصطفى فى العقد محتظر
ودفع مهر لمن جاءت وآية نجـ * واه كذاك قيام الليل مستطر
وزيد آية الاستئذان ما ملكت * وآية القسمة الفضلى لمن حضروا

هذا مالخصته لتعلم أيها الفطن الناسخ والمنسوخ فلا يشذ عنك شىء مما اتفق عليه القوم اهـ

لم كان الناسخ والمنسوخ ؟

وهنا يرد سؤال فيقال : مافوائد الناسخ والمنسوخ للأمم الاسلامية ؟ ولو أن الآيات وردت بلا ناسخ ومنسوخ ماضرّ ذلك ، ولكفينا مؤونة الردّ على اليهود ، وعلى المعترضين من الأمم على الاسلام وشريعته ، ولم يكن سبيل لوجوب الرد عليهم بقوله تعالى : « ماننسخ من آية » الآية ، ومالايحتاج الى جواب خير مما يحتاج إلى جواب ، وهذا كلام الله ، وهو سبحانه وتعالى أعلم من عباده ، واذا كان عباده يريدون مالاحيرة فيه فهو قادر على اقناعهم وتعليمهم بلا سؤال وجواب ، هذا الاعتراض يدور فى عقول الأذكياء وان كانوا لاينطقون به

الجواب

اعلم أن الناسخ والمنسوخ من أعظم الأسرار ، وأبهج الأنوار الالهية المشرقة على بنى آدم ، بل هما سرّ الترقى ، ومناط السعادة العصرية ، و بيانه أنه سبحانه وتعالى علم أن النوع البشرى ضعيف ، مغرم بالتقاليد ، لايتزحزح عنه إلا بعوامل عظيمة ، فأراهم أوّلا أن الليل والنهار ينسخ كل منهما الآخر ، ثم بين لهم اختلاف الزرع باختلاف الفصول ، فان أكثر العشب والكلأ والحشيش ينبت فى أيام الربيع لاعتدال الزمان ، وطيب الهواء ، وكثرة الأمطار المتقدمة فى الشتاء ، فأما الفصول الثلاثة فيزرع الناس فيها زرعا موافقا للزمان ، فالحنطة والشعير والباقلا والعدس وغيرها تزرع فى الخريف وتحصد فى الربيع ، والقثاء والخيار والباذنجان تزرع فى الشتاء

وتدرك

وتدرك فى الربيع ، والجزر والشلجم والكرنب والقنبيط تزرع فى الخريف وتستحكم فى الشتاء ، والسمسم والذرة والأرز تزرع فى الصيف وتحصد فى الخريف ، والقطن والقنب وأمثالها تزرع فى الربيع وتستحكم فى الخريف .

هذا كتاب الله المسطور ، فى رقه المنشور ، على سطح الأرض بحروف بارزة ، يراها جميع الناس والحيوان ولا يفهمها إلا الحكماء . بأن يحكموا عقولهم وآراءهم فى أمور الدنيا ، فيعطون كل زمن حكمه ، وكل مكان مايلائمه ، فاذا وجدوا أن الناس قد تقلدوا السلاح الأقوى بالطيارات والمدافع فليكونوا على استعداد لزمانهم ، وليقوموا بذلك ، واذا رأى المسلمون أن بلاد [الارجنتين] فى أمريقا الجنوبية مثلا قد اتخذوا آلات مدهشة للزراعة جارية بالسائل المسمى [بترول] تحصد القش وتصعده بنفسها الى أعلاها ، وتدرسه ، وتنزل القمح فى ناحية والتبن فى أخرى فى مخازن فى نفس الآلة ، و بينما هى تدرس ، وتميز التبن من القمح ، وتخزنها فى مخازنها تحرث الأرض وهى عاملة هذا كله ، ثم تذهب الى الضيعة فتضع أحمالها ، وتنزل أثقالها ، وترجع عاملة ناصبة حتى تتم الحقل كله فى يوم أو بعض يوم ، فتجد آخر النهار المزرعة التى كانت مزروعة أوّله محروثة فى آخره ، ومعدّة الى زراعة أخرى .

واذا رأى المسلمون أيضا أن هؤلاء القوم لهم عناية بالماشية لم تعهد عند المسلمين حتى ان البقر له سلالات كريمة لايهملون أمرها ، حتى ان الثور منها قد يباع بأربعين ألف جنيه ، ويحرصون عليها حرص العرب على كرائم الخيل وسلالاتها ، وانهم اعتنوا بترقية جميع المواشى ، و برعوا فى اراحتها ، حتى انهم قد استعملوا فى حلبها الكهرباء ، فتقف الاناث من البقر صفا واحدا ، و يوضع حبل طويل من الكاوتشوك المجوّف ، وله شعب وضعت فى كل ثدى من هذا البقر ، وقد اتصل الطرف الآخر بخزان كبير ، وفى هذا الطرف [طلمبة] أمامية كابسة اتصل بها تيار كهربائى ، وهناك يبتدئ عمل الجهاز ، يقوم بعملية الحليب ، و يصل باللبن الى ذلك الخزان ، فيسمع له خرير كخرير الماء فى الغدران .

اذا رأى المسلمون ذلك ورأوا غيره فليفكروا وليعلموا [كما سيأتى ايضاحه عند قوله تعالى فى هذه السورة « لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا »] أنهم خير أمة أخرجت للناس ، وأنهم هم الذين يقومون بسعادة النوع الانسانى عاجلا وآجلا ، فقد مهد الله لهم الطريق ، وكأنه يقول : أى عبادى أنا جعلتكم خير أمة أخرجت للناس ، وأنتم شهداء عليهم كما أن رسولكم شهيد عليكم ، وقد كتبت بحروف كبيرة فى آفاق السماء وأقطار الأرض فى الليل والنهار . والمزارع والحقول ، أن كلا منها ينسخ الآخر ويحل محله ، ثم انى ألهمت أقواما فى العالم ، فأخذوا ينسخون الأعمال الانسانية العتيقة ، ويحلون محلها أعمالا أرقى ، فقد نسخوا القديم البالى بالحديث القويم القوى ، فهذه ثلاث درجات قرأتموها فى السماء والأرض وأعمال البشر ، ان النسخ فى أعمالكم من سنتى القويمة ، لأنى لا أنام ، وأزيد فى الخلق ما أشاء ، ولما علمت أن الاسلام سيهبط إلى أمم عقولها لاتهضم هذه المشاهدات ، ولاتقوى على فهمها ، ويقولون : بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا ، ويجمدون على البالى العتيق أسمعتهم فى كتابى بحروف لفظية تعيها آذانهم ، وأنزلت على رسولى آية فى زمن ما كالآيات التى تمنع القتال زمن الضعف ، فلما كانت القوّة نسخت الأولى ، وأنزلت آية السيف ، وأمرتكم بقراءة الآيتين لتكون تلك الآيات حجة أمامكم ، ونبراسا لتعرفوا الحكمة ، وتقوموا بأعمالكم الدنيوية بما هو الأصلح ، ولا تتقيدوا بما فعله الآباء مع حفظ مجدهم وشرفهم ، والتمسك بفضائلهم ، كما أبقيت الآية المنسوخة تقرأ صباحا ومساء . واذا كنتم خير أمة أخرجت للناس ، وأنتم شهداء الله على الناس : فذلك سيدعوكم الى ماهو أعظم من ذلك ، فاذا قامت أوروبا وأمريكا بهذه الأعمال العظيمة فى الزراعة والتجارة والصناعة فلاجرم أنكم أنتم ستعلمون علمهم ثم تفوقونهم على مدى الأيام ، و يتحقق إذ ذاك معنى كونكم شهداء على الناس وأنكم خير الأمم

فتبين من هذا أن حكمة الناسخ والمنسوخ فوق مايتصوّره كثير من الناس لأن الحقول والكواكب وأعمال الأمم الحاضرة فى الرقىّ كانت بقدرة الله والقرآن من الله ، فالله كما نسخ فى أعمال القدرة فى كل حين نسخ فى التعليم ونشره بين المسلمين ليرتقوا فى الأسباب ولايقفوا .

ولما جهل المسلمون ذلك ، وجمدت قرائحهم ، وناموا نوم أهل الكهف ساط عليهم الفرنجة فملكوا أكثر بلادهم والتجارة فى أيديهم وهكذا السياسة فاذا لم يعرفوا ماتلوناه عليهم فى هذا المقام فلتبيدنهم الأمم المحيطة بهم كما أفنت أوروبا أهل أمريكا الأصليين لأنهم لايصلحون لهذا الزمان لقصورعقولهم واقتصارهم على تقاليد آبائهم الجاهلين ونبذ عقولهم كأنها لم تكن شيئا مذكورا ، فأبادهم الفرنجة إلا قليلا منهم لعلّ المسلمين يتعظون هكذا الأمم الاسلامية ان لم تساو الفرنجة فى جميع أنواع الحياة فلابدّ من انقراضهم جزاء جهلهم فان الله لم يترك لهم بابا إلا فتحه لهم فى الحقول والكواكب والأضواء وأعمال الأمم وانقراض أهل أمريكا ، وقد أسمعهم فى فى كتابه آيات النسخ ، ونسخ هو بنفسه لنقتدى به فأحجمنا عن ذلك ، ولم يكتف بذلك بل ألهم نبينا صلى الله عليه وسلم أن يسمع ماقاله سلمان الفارسى فى مسئلة الخندق ، وفعل مافعله الفرس من الأخذ بالأحسن ونسخ خطة حربية بخطة حربية ، والمسلمون مع هذا كله نائمون غافلون كأن هذا الدين ليس دينهم ، وكأن النبىّ ليس نبيهم والعقول نائمة ، وهذا أوان استيقاظهم ، وقيام مجدهم ، ورقىّ بلادهم وسعادتهم ، « ولتعلمنّ نبأه بعد حين » وسيقرأ هذا خلفنا ، و يرون أن ما أقوله عن المستقبل محقق لاشكّ فيه بطريق الالهام فى نفسى « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

هذا ولما كان اليهود لايفتؤن يعادون النبى صلى الله عليه وسلم قالوا له : أنزل علينا كتابا من السماء تعنتا [كما قال العرب] من قبلهم ، وقد كانوا تعنتوا على سيدنا موسى كذلك فقالوا أرنا الله جهرة نزل قوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم) أى بل أتريدون ، وسواء السبيل الطريق الحق ، وقوله . (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا) الخ . سبب نزول هذه الآية أن حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رضى الله عنهما بعد وقعة أحد قابلهما اليهود وقالوا : لوكنتم على الحقّ ماهزمتم فارجعا الى ديننا فنحن أهدى سبيلا منكم ، فقال عمار بن ياسر : كيف نقض العهد فيكم ؟ قالوا شديد ، قال انى عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ماعشت ، قالت اليهود : أما هذا فقد صبأ ، وقال حذيفة : أما أنا فقد رضيت بالله ربا ، و بمحمد رسولا ، وبالاسلام دينا ، وبالقرآن إماما ، وبالكعبة قبلة . وبالمؤمنين اخوانا ، ثم انهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصبتما الخير وأفلحتما ، فأنزل الله : « ودّ كثير من أهل الكتاب » الآية و بقية الآيات واضحة .

« الزبرجدة العاشرة »

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارٰى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلٰى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارٰى عَلٰى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارٰى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلٰى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ

مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ * لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ * وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى (وقالوا) أى اليهود والنصارى ، عطف على ودّ (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا) جمع هائد (أونصارى) ذلك أن كلا من الفريقين ادّعى أن دينه هو الحقّ وسواه باطل (تلك أمانيهم) شهواتهم الباطلة التى تمنوها (قل هاتوا برهانكم) على اختصاصكم بدخول الجنة (إن كنتم صادقين) فى دعواكم (بلى) إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة (من أسلم وجهه لله) أخلص نفسه له لايشرك به غيره (وهو محسن) فى عمله (فله أجره عند ربه) فى الجنة (ولاخوف عليهم) بخلود النار (ولاهم يحزنون) بذهاب الجنة ، ثم ذكر مقالة اليهود والنصارى فى خصومتهم فى الدين فقال (وقالت اليهود) يهود المدينة فى خصومتهم مع نصارى نجران (ليست النصارى على شىء) من دين الله (وقالت النصارى ليست اليهود على شىء) من دين الله ولادين إلا النصرانية (وهم يتلون الكتاب) أى والحال أنهم من أهل العلم بأحد الكتابين ، ومن حق من آمن بأحدهما أن لا يكفر بالباقى لأن كل واحد من الكتابين مصدّق للآخر (كذلك) أى مثل ذلك القول (قال الذين لايعلمون مثل قولهم) أى الجهلة الذين لاعلم عندهم ولا كتاب يقولون لكل أهل دين انهم

ليسوا على شيء (فالله يحكم) يقضي (بينهم) بين اليهود والنصارى (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) فيعاقب كل فريق بما يليق به ، ان النوع الانسانى درج على التقليد ، فالمتدين بدين يعتقد غيره دينا كاذبا والذى لادين له يحقر كل من هو على دين ، بهذا طغى أكثر هذا النوع الانسانى لجهلهم ، فمنع مشركو مكة النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام فى عام الحديبية كما فعل الروم من قبلهم لما غزوا بيت المقدس ، وضربوه وقتلوا أهله ، وهذا قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) وأن يذكر مفعول ثان لمنع (وسعى فى خرابها) بالهدم والتعطيل (أولئك) أى المانعون (ماكان لهم أن يدخلوها) أى ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله (إلا خائفين) أى على حال التهيب والخشوع ، أوما كان لهم فى حكم الله وقضائه ، فيكون وعدا بالنصر واستخلاص المساجد منهم ، وقد أنجز الله وعده ، وقيل معناه النهى عن تمكينهم من الدخول فى المسجد ، واختلف الأئمة فى ذلك : فجوّز أبو حنيفة ، ومنع مالك ، وفرّق الشافعى بين المسجد الحرام وغيره (لهم فى الدنيا خزى) قتل وسبى للحربى (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) أى النار :

ملخص ماتقدم

يقول الله : إن أرباب الديانات شغفون بالاضطراب ، مغرمون بالأخذ بالأذناب ، متعصبون لأهوائهم ، نابذون لنصائح أنبيائهم ، فتزعم اليهود كفر النصارى ، ويعكس النصارى عليهم القضية ، والتوراة والانجيل يدحضان الحجة ، ويزيلان الشبهة ، ومشركو العرب كفروا الطائفتين ، وكرهوا الحزبين كما فعل ذلك من قبل بختنصر إذ هدم بيت المقدس ، ومنع أن يذكر فيه اسم الله ، وهكذا أهل مكة صدّوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يحجوا عام الحديبية ، وهل من الأدب طغيانهم أم من الحكمة فعلهم ، وكان الأجدر أن يدخلوها خاشعين ، فلتخيفوهم بالجهاد ، ولتمنعوهم من ذلك الظلم ، ولقد أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بعد الفتح فنادى فى الناس : أن لا يطوف بالبيت عريان ، وأن لايحجّ بعد هذا العام مشرك ، ولما فتح عمر الشام ومدينة بيت المقدس منع المشركين من دخول بيت المقدس ، فهؤلاء لهم فى الدنيا خزى بالقتل والسبى والجزية ، ولهم فى الآخرة عذاب النار . انتهى ملخص ماتقدم .

ولما طعن اليهود فى نسخ القبلة وقالوا : ان محمدا يأمر أصحابه اليوم بأمر وينهى عنه غدا ، فقد صلوا لبيت المقدس ثم الى الكعبة نزل (ولله المشرق والمغرب) أى ومابينهما (فأينما تولوا فثمّ وجه الله) أى جهة رضاه وليس الله مختصا بمكان ، بل هو (واسع) الفضل (عليم) بتدبير خلقه ، قد جعل لنا الأرض كلها مسجدا وتربتها طهورا ، فكيف يجعل كالعباد يتخذ ولدا كما زعمت النصارى واليهود ومشركو العرب بزعمهم أن ولده المسيح أو عزير ، أو الملائكة بناته ، سبحانه تنزيها له ، وكيف يصحّ ذلك وله ملك السموات والأرض كل له مطيعون ! والولد لمن هو فى حاجة إليه ، على أنه مبدع السموات والأرض فضلا عن ملكه لهما يتصرّف فيهما كما يشاء وهذا قوله تعالى (وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه) تنزيها له عن ذلك (بل له مافى السموات والأرض كل له قانتون) منقادون لايمتنعون على مشيئته وتكوينه (بديع السموات والأرض) مخترعهما (واذا قضى أمرا) أى حكم أوقدّر (فانما يقول له كن فيكون) أى احدث فيحدث ، وليس المراد به حقيقة أمر وامتثال ، بل تمثيل حصول ماتعلقت به ارادته بلامهلة (وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله) أى هلا يكلمنا الله ، وهؤلاء هم كفار مكة يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم : متى نعلم أنك رسوله ؟ والأصحّ أن ذلك منسوب لليهود لأن السورة مدنية (أوتأتينا آية) نقترحها عليك برهانا على صدقك فأجاب الله عزّوجل تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ليثبت قلبه (كذلك قال الذين من قبلهم) من الأمم لأنبيائهم (مثل قولهم) فى التعنت (تشابهت قلوبهم) فى الكفر والعناد ثم قال (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) بك ولايتعنتون فلاتحزن ، ثم قال (إنا أرسلناك) يامحمد

(بالحق) أى الهدى (بشيرا) من أجاب بالجنة (ونذيرا) من لم يجب بالنار (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) ان عليك إلا البلاغ (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله) وهوالاسلام (هو الهدى) وماعداه ضلال (ولئن اتبعت أهواءهم) فرضا (بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى) يحفظك (ولا نصير) يمنعك ، وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) أى باقامة لفظه وتدبر معناه والعمل بمقتضاه ، مدحهم بأنهم المؤمنون إذقال (أولئك يؤمنون به) يصدقون به ، وهذاعام لكل مؤمن هذه صفته ، ولايختص بالسبب الذى ورد ، وهوأنها نزلت فى أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكانوا أربعين رجلا ، اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة ، وثمانية من رهبان الشام منهم بحيرا الراهب (ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) وختم هذه الزبرجده بأن ذكر بنى اسرائيل بالنعمة إذ قال (يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين) أى وتفضيلى إياكم على عالمى زمانكم ، ثم قال (واتقوا يوما) واخشوا عذاب يوم ، وهو يوم القيامة (لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولايقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولاهم ينصرون) لا تغنى نفس عن نفس شيئا ، ولايقبل منها فداء ، ولا تنفعها شفاعة ، ولاهم ينصرون ، أى يمنعون من عذاب الله ، وقد تقدم الكلام على الشفاعة فى أوائل السورة اهـ

تأمل المقصد السابع

وكيف كان بدؤه أن يذكروا أنهم ماانصل لهم ملك أيام مجدهم مايتوف ألف سنة إلا بما أودع فى قلوبهم من الحمية والشهامة ، وحب الأمة ، واعتقادهم العظمة فى نفوسهم ، والشرف فى قبيلهم ، وكيف أنفذ ذلك فى قلوبهم على لسان موسى والأنبياء بعده ، وسلكها فى أفئدتهم ، لتكون تلك العقيدة لهم نبراسا يهتدون بها عند الظلمات إيذانا للأمة الاسلامية أنهم لن يقوموا من نومتهم ، ولن يستيقظوا من غفلتهم ، إلا أن يؤملوا فى الشرف أملا ، ويقدموا له عملا .

انظرفيما فى الفصلين من تقريع اليهود بتلك اليواقيت والزبرجدات والجواهر وهى تنوف عن ٣٥ سجلها عليهم القرآن ، وعيرهم بأنهم ماصرفوا للعمل عنايتهم ، وقد سجلت التوراة عليهم ظلمهم فبكتهم الله فى القرآن ، وسفه أحلام أسلافهم ، وأخذ أنفاس خلفهم ، وختم بتذكير النعمة ، وأرى أن هذه معجزة وأى معجزة ؟ فكيف عرف مافى التوراة ؟ وكيف أخذ ينتقدهم ويقرعهم ، عالما منزلته وشرفه ، موقنا بصدق دعوته . ألاترى كيف جاء يحاسب أمة على ما اقترفت ، ويناوئها على ما اجترحت ، هذه حقيقة صفة الرسالة والرسول مرسل ليحاسب الأمم على جهلها ، والأفراد على ظلمها ولن يكون هذا من تلقاء النفس ، كيف لا ونحن نرى المرء تمر عليه السنون والأيام وهو يتعلم ثم لايخرج لعلم خلاصة ولاينشىء أمة .

الكلام على قوله تعالى : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم »

خصصت هذه الآية باقاضة الكلام فيها بعد ماختمت تفسير هذه الآيات لمافيها من الجمال والبهاء والعجائب ، وان كان الناس يمرون عليها مر الكرام ، فأقول ورد ذكرالمشرق والمغرب هنا ، وفى آية « رب المشرقين ورب المغربين » مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما ، وفى أخرى «رب المشارق والمغارب» باعتبار ان كل يوم له مشرق ومغرب خاص ، كما يعرفه من زاول علم الفلك بأدنى تأمل [والناس ثلاث درجات] جهال لايعرفون من الشروق والغروب الااسمهما فلايفكرون فى تنوعهما وتصرفهما وانتقالهما . ومتوسطون فكروا بعض التفكير فعرفوا بعض التغيرات واعتبروا بها . وفضلاء أدركوا أن لكل يوم مشرقا ومغربا خاصا بالتحقيق لا بالظن . وكلامنا الآن فى هذا المقام ، لماذا خص المشرق والمغرب ، ولم لهج القرآن بذكر الأنوار والظلمات ؟ فتراه يقول « الشمس والقمر بحسبان » ويقول « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره

منازل » ويقول « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها » ويقول « والضحى والليل إذا سجى » ويقول « ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » ويقول « وجعل الظلمات والنور » وهكذا من تلك الجواهر المتلألئة الباهرة البهية المشرقة [فأقول] : جوابا على هذا .

العرائس النفائس

تأمّل عروسا مشرقة جميلة بهية المنظر حسنة الشكل معتدلة القوام ، قد لبست سبع جلابيب ذات ألوان أحمر ، وبرتقاليا ، وأصفر ، وأخضر ، وزمرديا ، وبنفسجيا ، وأزرق ، وهذه الجلابيب من أرق ديباج وألطفه حتى ان العقل ليدهش حينما يسمع أنها كلها أصبحت حلة واحدة ألطف من الهواء وأرق من النسيم ، ثم ان هذه العروس قد ازينت بأحسن زينة ، واتسمت بأبهج الحلى ، وبهرت ناظريها بجميل صنعها فانها فوق هذا الجمال والحسن والزينة والحلى ، قد أعطت من زينتها زينة لكل غادة حسناء ، وجميلة هيفاء ، حتى تتزين للناظرين ، وتقرّبها أعين الرائين ، فهي الواهبة لهنّ الحسن والجمال والحلل النفائس والعطايا والمواهب ، بل ان كل جمال أشرق أمامها ، فانما هي له مسدية ، فهي مصدر الجمال والكمال والحسن والاحسان . ثم انها لاتهرم ، ولا تشيب ، ولا يستغني عن جمالها الشبان والشيب ، لايذبل في الظاهر بهاؤها وشبابها ، ولا يقل احسانها واعطاؤها . فانظر لوأن عروسا هذا وصفها لكانت من أجل النعم ، وأبهر العطايا ، ولكان ذكرها يولد في النفس حبا وغراما بمن جلاها لنا وأبرزها وأفرغ عليها الجمال والكمال ، ولكانت أجل مظهر من مظاهر الاحسان ممن زفها الينا وساقها لنحظى بجمالها ، وكلما ذكرت تهللت القلوب فرحا واشتاقت أن تشكر من أبدعها ورزقنا بها .

فاعلم أن تلك العروس : هي الشمس وجلابيبها السبعة ، هي الألوان الأحمر والبرتقالي والأصفر الخ . وقد ثبت في علم الطبيعة بالمشاهدة أن لون الشمس المشرق علينا الذي غشي وجه الأرض ، إنما هو مجموع تلك الألوان متعاشقة متداخلة . ألا ترى قطرات الماء ، ورشاشه في ضوء الشمس يلمع بهذه الألوان هكذا البلور فان النور يحلل داخلا فيه الى هذه الألوان ، وتراها جلية في قوس قزح الذي لا يكون إلا في مقابلة الشمس ، فان كانت مشرّقة كان مغرّبا ، وان كانت مغربة كان مشرقا دلالة على أن ضوءها حلله ماء المطر إلى الوانه السبعة كما كشفه علماء العصر الحاضر ، وكاد يعرفه القدماء لولا قلة الآلات العلمية ، فهذه الألوان السبعة صارت لونا واحدا ، فقد اتحدت فيه فأشرق على الأرض ، والماء ، والهواء ، والسهل ، والجبل . وقولنا ان العروس وهبت كل عروس الحسن والجمال وأعطتها زينة وحليا ، فذلك أن الكواكب السيارة التي تقدّم ذكرها كسبت نورها من الشمس وأشرقت ، وبهرت الناس بنورها في طلوعها وغروبها ، وهكذا يقول علماء العصر الحاضر : ان النبات ، والحيوان ، والانسان ، وكل ماعلى وجه الأرض لالون لها ، وانما ألوان الخضر ، والحمر ، والبيض والصفر من اشراق الشمس عليها ، وهي في أنفسها لالون لها وبرهنوا على ذلك بتجارب لامحل لذكرها مثل أن يأتوا بضوء أصفر يضيء على لباس أحمر فوجدوا أن ذلك الأحمر مسود الصفحة عديم اللون ، لأن النور المشرق عليه خال من النور الأحمر ، وعلى ذلك تكون ألوان الناس والمرجان والدر والعقيق وسائر الجواهر الجميلة وخضرة النبات ، وكل مايعجبنا نقشه ورقشه وتزويقه ، فانما هو أثر من آثار ضوء الشمس ، وهكذا كل عروس وما عليها من الحلى والحلل لايظهر لها بريق ، ولاجمال منظور الا باشراق نور الشمس ، والانوار الأخرى تابعة لها ، وماالكهرباء الا أثر من آثار الشمس ، لان الأرض منها ، وكذا بخار الفحم الحجري الجاري في الأنابيب ، فانما ذلك كله من نور الشمس أشرق على الفحم الحجري قديما نخزن فيه وظهر الآن . فهذا ايضاح ان الشمس مصدر ماتراه من البهجة ، والجمال ، والهناء ، والسعادة ، فاذا أشرقت فهذا دأبها ، واذا غربت

ظهرت عرائس الليل ، فأبهجت الناظرين تلك النجوم الباهرات المشرقات فى دجى الليل المطلات على عالمنا الارضى ، وهنّ قبلة الناظر ، وهدى السارين ، وكعبة الصادرين والواردين ، فهذه المشارق والمغارب للشمس والكواكب مظاهر الأنوار الساريات فى الكائنات بها نمو النبات ، و يعيش الحيوان ، و يجرى السحاب والبحار والرياح ، فهى اذن المظهر الالهى فى العالم العلوىّ والسفلى ، فالحرارة بها الحياة ، والأنوار بها الهدى والجمال فلا عجب إذا قال تعالى « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » وإذا قال « ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » وإذا قال « وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان مشهودا » وإذا قال « وأشرقت الأرض بنور ربها » وإذا قال « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » .

هاهنا اجتمع ارتقاء الفكر مع أفضل العبادة ، وههنا يتجلى النور العلمى الاسلامى وتشرق العقول ببدائع الحكم ، وروائع الفكر ، وغرائب العرفان ، هاهنا يكون منشأ الحكماء والكبراء فى أمّة الاسلام .

تأمّل النجوم والكواكب والشمس واشراقها يرفع العقول إلى أعلى مستواها ، فبينما هى فى معراجها صاعدة ، إذا هى فى محرابها الفكرى عابدة ، إذا هى فى مناهج المدنية وسلم الحضارة شاخصة ، وبهذا ترقت الأمم الفرنجية حولنا ونحن نائمون .

ولألق عليك ماذكره [اللورد افبرى] فى كتابه جمال الطبيعة لتنظر كيف كانت عناية الفرنجة بهذه البدائع العلمية ، ونحن ساهون لاهون .

قال لا يعرف الناس جمال الطبيعة لأنهم فيها مغمورون ، ولو أن الشمس تطاول عهدها بالشروق فطال الأمد ، والناس مشتاقون إليها ، ثم بعد اللتيا والتى طلعت عليهم أفلا تراهم يفتنون فى محاسنها و يسحرون بجمالها و يغرمون بعجائبها . ألا وان تلك الأشعة الذهبية البراقة الوضاحة الجبين كنز ثمين من الذهب وثروة طائلة أغدقت على الناس فأصبحوا لا يفطنون لهما « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » ثم قال ضاربا مثلا أشبه بما قاله أفلاطون فى كتابه المسمى [جمهورية أفلاطون] تصور قوما كانوا فى كهف تحت الأرض واسع الارجاء فيه القصور الفخمة والتماثيل ، وقد نقشت حيطانه وازينت بزينة ورياش وزخارف ، وقد انعكس عليها أضواء من خارجها أرسلتها أنوار مشرقة من نار ، وقد سمعوا بالله خفى عن الأبصار وغاب عن العيان . ثم أتيح لهم أن خرجوا من ذلك المكان فجأة كأن زلزلت الأرض فاذاهم فى متسع الفضاء وهناك شمس مشرقة ، وسحاب ، ورعد ، و برق فيذهلون لجمال الشمس ونورها ، فاذا غابت عن الأبصار وتوارت بالحجاب ظهرت الكواكب اللامعة طالعة فيعتريهم الذهول لجمالها وتتولاهم الدهشة لتلألئها و يرون القمر ظاهرا مشرقا حسن الطلعة ، فكيف يكون تعجبهم لهذه المحاسن البديعة و يقرّون بالله عظيم نظم هذه الدرارى فى آفاق المشرقين ، ورصعها فى عقود المغربين ، وسيرها فى الأبراج ، وفى المنازل انتهى .

هذه مقالة اللورد افبرى ، وهى وان كانت جميلة أجمل منها ما كتبه أفلاطون فى الجمهورية فانه فصلها تفصيلا أدقّ ، ولكن جوهر المعنى محفوظ .

ليس هذا المقال يدلك على ماللفرنجة من قدم راسخة فى هذه العلوم ، ونظر ثاقب فى مواقع النجوم ، ولعلك تقول ماذا يهمنا من مقال رجل افرنجى . أقول إنما ذكرته لغرضين : الاول ان رقىّ العقل الانسانى موقوف على استيعاب هذه المباحث النفيسة وهؤلاء القوم قد برعوا فيها . الثانى أن كثيرا من الشبان الذين درسوا اللغات الافرنجية استكبروا استكبارا وأعرضوا وقالوا لا نؤمن بالله لأن الفرنجة لا يؤمنون ، وقد تركوا

الديانات وعكفوا على درس السياسات ، وناموا عن العبادة ، وأنكروا الله ، ونحن لا نعرف الا ماتراه الأبصار وننكر ماوراء المادة لأن الفرنجة لذلك منكرون .

وأنا أقول لقد اطلعت على كتب أعاظم الفرنجة وحكمائهم ، فوجدت هؤلاء الشبان المارقين فى دعواهم كاذبين ، فان هذا البعض منهم قد درس قشور العلوم ولم يتجاوز كراسة معلمه ، وخرج من درسه مغرورا يقول قد عرفت علوم المشرقين ، وطالعت حكمة المغربين فلم أجد أهدى سبيلا ، ولا أقوم قيلا من جحود الاله والكفر بما لا أراه فذرهم يعيشون عيشة البهائم ، ويكتفون من العلم بدعواهم انهم ممتازون « صم بكم عمى فهم لا يعقلون » ، ومن عجب أن هذا المثال الذى اتخذه اللورد افبرى من كتاب أفلاطون هو الذى يقوله علماء الصوفية فى تمثيلهم ، وهو المذكور فى سورة الأنعام « و إذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين » ، وملخصه أنه لما جنّ عليه الليل رأى كوكبا فظنه ربه ، ثم رأى القمر بازغا فبهره جماله ، فقال هذا ربى ، ثم رأى الشمس بازغة فرآها أجل ، فقال هذا ربى هذا أكبر ، ثم لما أفلت رجع الى الله ، وقال « وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين » .

أيها المسلمون هذا التمثيل الذى ذكره أفلاطون وقفى على آثاره اللورد افبرى وجد فى نفس القرآن ، وهو الانتقال من جمال المشرقات الى مبدع السموات ، فكيف اذن يسود الفرنجة فى هذه العلوم ، ونحن عنها غافلون ؟ العلم علمنا والدين ديننا ، بل الشمس شمسنا أليس اشراقها فى بلاد الشرق أبهج ضوءا وأوضح نورا ، ومن ذا يقيس سناء الشمس فى انكلترا بسنائها على ضفتى النيل والاهرام و بلاد الشرق ، وكيف يغرم هؤلاء الذين يدّعى صغار العقول من الشبان أنهم منكرون للاله بهذه العجائب ، والتوراة والانجيل ، وهما الكتابان الدينيان لهم ليس فيهما من محاسن الطبيعة الاماظهر من الفلك على جرم السمك أثر ضئيل ونور حائل .

ألا فليستيقظ أهل الشرق ، فقد آن أن تبزغ شمس المعارف فى آفاقه وأن يتهيأ الشبان لزمان العرفان وأيام الهناء والسعادة وكأنى بالنابغين منهم ، وقد برعوا فى الفنون وذاقوا من أفاويقها مابه يسعدون .

ولعمرك لم أطل فى هذا المقام اعتباطا ولم أذكر ذلك الا لتعلم كيف كان ارتباط قوله تعالى « فأينما تولوا فثمّ وجه الله » بقوله « ولله المشرق والمغرب » .

أولست ترى أن حكاية الخليل ، وقد رأى النجم والقمر والشمس ثم اهتدى الى مبدع العالمين ، وكيف كان علماء الأمم يذكرون مبدع الكائنات بعد النظر فى الكواكب ان الكواكب والشمس والقمر باشراقها على الأرض تغشيها بملاءة بيضاء فأينما نولى وجوهنا يشرق النور علينا ، واذا كان المخلوق هكذا حاضرنا فى كل مكان فأحرى بنا أن نوقن أن الله الذى هو نور السموات والأرض ، وهو الذى أبدع النور معنا أينما كنا .

فبهذا فلنفهم كيف يقول تعالى « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » واياك أن تظن أن التسبيح ما يكرره الجاهلون وهم لا يعقلون ، و إنما ذلك المقرون بالفكر والعلم والنظر والحكمة كما قال تعالى « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا » فانظر كيف كان القرآن يدعو حثيثا الى هذه العجائب . وصغار العقول نائمون ، و بعض العلماء غافلون ، والمغرورون من متعلمى اللغات الافرنجية مفتونون ، وقد أقمت الحجة على الجميع من الكتاب ، وكلام الفرنجة عسى أن يكونوا من المفكرين والى هنا آن الشروع فى قصص الخليل عليه السلام ، وهو .

(المقصد الثامن)

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۞ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۞ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۞ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۞

التفسير اللفظى

قال تعالى (ابتلى) اختبر (كلمات) أوامر ونواه (فأتمهن) أدّاهن تامات (قال) أى الله (إماما) قدوة فى الدين (قال) ابراهيم (ومن ذريتى) أى أولادى اجعل أئمة (لاينال عهدى) أى بالامامة (الظالمين) الكافرين منهم (البيت) أى الكعبة (مثابة) مرجعا يرجعون اليه من كل جانب (وأمنا) مأمناهم من الظلم والاغارات ، كان الرجل يلقى قاتل أبيه فيه فلايهيجه (مقام ابراهيم) هو الحجر الذى قام عليه عند بناء البيت (مصلى) مكان صلاة بان تصلوا خلفه ركعتى الطواف (وعهدنا الى ابراهيم) الخ أى أمرناهما ب(أن طهرا بيتى) أى من الاوثان (والعاكفين) المقيمون فيه (والركع السجود) جمع راكع وساجد ، وقوله (اجعل هذا) أى المكان (بلدا آمنا) ذا أمن ، وقد استجيب الدعاء فجعل حرما لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده (أضطره) ألجئه و(المصير) المرجع (والقواعد) الأسس أو الجدر ، يقولان (ربنا تقبل منا) و(مسلمين) منقادين (أمة) جماعة (وأرنا) علمنا (مناسكنا) شرائع عبادتنا أو حجنا (وابعث فيهم) فى

أبناء ابراهيم من اسمعيل (رسولا) وقد حقق الله الدعاء بنبينا (منهم آياتك) القرآن (والكتاب) معانى القرآن (والحكمة) ماتكمل به عقولهم من المعارف والأحكام (ويزكيهم) يطهرهم من الشرك (العزيز) الغالب (الحكيم) فى صنعه (ومن يرغب عن ملة ابراهيم) ولا يرغب عن ملة ابراهيم الامن استخف بنفسه وامتهنها (ولقد اخترناه فى الدنيا) بالرسالة والخلة (وانه فى الآخرة) من الذين لهم الدرجات العلى ، واذكر (اذ قال له ربه أسلم) انقد لله وأخلص له دينك الخ (ووصى) بالملة (ابراهيم بنيه و يعقوب يابنىّ إن الله اصطفى لكم) الاسلام ، وقوله (شهداء) أى حضورا : و (إلها واحدا) بدل من إلهك (مسلمون) مخلصون له بالتوحيد والعبادة انتهى تفسير الألفاظ .

شرح وإيضاح

لقد مضى ذكر آدم وحواء وابليس ، وما كان من وضع أساس علم الأخلاق والنفس وتعقيب ذلك بمافعل اليهود السابقون واللاحقون وتقريعهم وتوبيخهم ، ان ذلك لأشبه بالتخلية ، ولم يبق الا التحلية بذكر العلم والحكمة والأخلاق والفضيلة التى تحلى بها ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ذلك الأب الأكبر الذى ولد القبيلتين العرب واليهود ، وفرع الشعبين الاسرائيلين والاسماعيليين . ابراهيم أبو اسحق واسماعيل واسحق قد ولد يعقوب ، وهو اسرائيل : أى عبدالله وأبناؤه الاسباط واسماعيل قد ولد العرب ، ومنهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد كان العرب يدينون بدين ابراهيم فجاء النبى ﷺ بدينه فطفق الله يذكر الأمة بدين أبيها ابراهيم بعد أن هدم بناء أسس على الجهل والتحريف ، فقال و إذا إبتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهنّ . ان أقصى ماذكره المفسرون . وقصارى مادوّنوه فى الكلمات يرجع الى العبادات والأخلاق الظاهرة والباطنة التى ترفع الرجل إلى رتبة الامامة وتزين الانسان ، وتسمه بالحكمة ولن يكون الانخصال شريفة ولاقدوة الا بآداب عالية يعلو بحسبها و يشرف بقدرها .

و إبراهيم أمر بآداب ظاهرة كالخمسة التى فى الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك وفرق الرأس ، وخمس فى الجسد من تقليم الأظافر ، ونتف الأبط ، وحلق العانة ، والختان ، والاستنجاء ، وهكذا ثلاثون خصلة خلقية ، وهى المفهومة من آية « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله و بشر المؤمنين » وآية « إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدّقين والمتصدّقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » وآية « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون » وهكذا مناسك الحج وابتلاه بالنظر فى الكوكب والشمس والقمر ، فأحسن النظر فيها ، و بذبح ولده فصبر ، و بالهجرة و بفراق الوطن فاحتسب ، و بالنظر فى العوالم السفلية كمسألة الطير ، وكيف يحيي الله الموتى فاحسنها و بلغ النهاية فيها ، فرجع أمره الى صدق النظر فى العوالم العلوية والسفلية من كوكب وقمر وشمس ، كما فى آية الأنعام وابادة الأصنام وتكسيرها وابانة الحجة على صحة الحياة الأخرى بالنظر فى العلوم الطبيعية ، ثم الأخلاق الظاهرة من المضمضة وما عطف عليها ، والباطنة من الايمان والصدق وماعطف عليهما ، وكذا الصبر على فراق الولد والوطن والالقاء

فى النار [صفات عالية ، ونفوس شريفة ، وأب كريم ، وشنشنة فاضلة] ذلك تضمنه معنى الكلمات التى ابتلاه الله بها فليست الكلمات حروفا يتحرك بها اللسان وتضطرب بها الشفتان . وهذه احدى نكبات المسلمين اليوم فلقد يغرّهم الجاهلون و يضحك على أذقانهم المغرورون ، فيقولون لهم من قرأ سورة كذا غفرالله له ، وأعطاه كذا فظنّ الناس أن المسئلة كلمات تكرر وحروف تصور . كلا : والله فقد أجمع المفسرون على أن ذلك عمل ، وأىّ عمل . انأ كثرالمسلمين أبناء إبراهيم . ومن المحزن أنهم جهلوا سبيله وضلوا طرقه وما قدروه قدره . وكيف يموتون ؟ وهم لا حظ لهم من نظره ، و يهلكون ، ولا نصيب لهم من عمله . أين مدارس الحكمة أين علم الفلك ، أين الصدق والوفاء ، أين الفضيلة ؟ هذا دين أبيكم إبراهيم دعا لكم له عربى مثلكم ، وهو النبىّ ﷺ ، ولو رجع الخليل للدنيا لأنكر ذريته ، و « قال لا ينال عهدى الظالمين » فليس الظلم قاصرا على التعدى على العباد ، كلا بل أقبح منه الجهل بنظام السموات والأرض والفضائل النفسية . وما أجهل المسلمين اليوم فاذا لم يكن لولد إبراهيم اليوم عهد الأمامة والرياسة فلا يلومون الا أنفسهم فقد أصبحوا عن عمله معرضين ، وقد كان النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قبل أن ينزل الوحى عليه يتعبد فى غار حراء بالنظر ، والفكر والتأمّل فى بدائع السموات ومحاسن العالم ، وهو دين الخليل عليه الصلاة والسلام فمن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه وجهل قدرها .

و يرجع مافى هذه الآيات إلى عشر زمردات : الزمردة الأولى طلب الأمامة لبنيه ، والخلافة لذريته بقوله « قال ومن ذريتى » فأجيب بأنه لا يدركها من جهلوا وظلموا .

(الزمردة الثانية)

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى

أنت تعلم : أن الخليل عليه الصلاة والسلام تحلى بالحكمة والعلم ، وازدان بالآداب والأخلاق ، فأمرنا باتخاذ الأماكن التى أمّها مصلى لنا وقبلة كالحرم والكعبة وأماكن المناسك كلها لنسير فى سبيله ، ونأخذ العهد بعده والمراد بالصلاة مايشمل الدعاء فى تلك الأماكن فليس الحج حركات عضلية كما أن الصلاة ليست كلمات وأفعالا بلا فكر ولا روية ، فهذا من عجائب القرآن ، و بدائع الفرقان ، وصلاة ركعتى الطواف من تلك الصلوات فلا تحجبك الأقوال .

(الزمردة الثالثة)

وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ

وهى ظاهرة (والعاكفين) المقيمون فيه (والركع السجود) مفهومان .

(الزمردة الرابعة والخامسة)

دعاؤه لابنائه ، وهو قوله تعالى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ

هذا الدعاء ظاهر واضح ، دعا إبراهيم أن تكون مكة بلدا آمنا لا يراق فيها دم ، ولا يصاد صيدها وأن يرزق

أهلها المؤمنون الثمرات احتراسا من أن يقع فيما وقع فيه نوح من الدعاء للابن الكافر ، فأراه الله أن الكافر لايحرم من النعمة والصحة والحياة وله عذاب مهين يوم القيامة . أليس من العجب أن يحرم الصيد بمكة ويحرم على رب الدم أن يقتل واتره ، ذلك أساس وضعه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فى مكة بأمر الله عسى أن تهتدى الأمم يوما ما الى السلامة ، وحفظ الأنفس من الهلاك ، والأجسام من سفك الدماء ، ان فى الاسلام لبذورا ستنمو وتفرخ وتتشعب وتفرش إذا جاء أجلها وحان حينها .

ثم بنى إبراهيم وابنه اسماعيل البيت ودعوا ربهما أن يتقبل البناء ويسمع الدعاء وأن يجعلهما مخلصين ، وأن يكون منهما ذرية تتبع آثارهما وتهتدى بهداهما ، وهذه القصة واردة فى الحديث البخارى ، وفيه وجاء بها : أى سارة وبابنها اسماعيل ، وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم اسماعيل ، وكان ما كان من تفويض أمرهما لله ، ووقوفه مستقبلا القبلة عند الثنية ، وقوله « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وهكذا ظمئت وظمئ ولدها ، وسعت بين الصفا والمروة طلبا للماء ، فشرع السعى ، وسمعت صوتا اذا هو جبريل يبحث بجناحه فظهر الماء وشرب فمرت رفقة من جرهم من طريق كداء ، وحطوا رحالهم حول زمزم وترعرع اسماعيل ومر أبوه ببيته ، وهو ذو أهل مرتين ، وفى المرة الثالثة قابله واعتنقا ، ثم بنيا البيت فجعل اسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى ، ووضع الحجر الأسود ، وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) أخلص ابراهيم لله ، فدعا أن يتقبل دعاءه ، ويجعله مخلصا لله ، ويتخذ من ذريته أئمة ، ويرسل لهم رسولا منهم يعلمهم ويطهرهم ، فهذا الدعاء شامل لخيرى الدنيا والآخرة .

ان أبناء اسمعيل هم العرب يقطنون اليوم أرض الحجاز ، واليمن وتهامة ، وأكثر جزيرة العرب ، والشام والعراق ، ومصر وشمال أفريقية : طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش ، وهل اتخذوا حظهم من علمه ، وقسطهم من حكمته ؟ هاهم أولاء أبناؤك ياأبانا إبراهيم اليوم فى شمال أفريقية ، وفى مصر ، وفى الشام ، وجزيرة العرب أجهل الأمم بعلمك وأبعدهم عن فكرك نظرت السموات وكواكبها ، والأرض ومناكبها ، والمناسك وفوائدها ، وحللت المركبات لتقف على أسرارها فى مسألة الطير وصبرت على النار وسعيرها ، والولد وفراقه ، والوطن وحبه ، وهاجرت لأرض الحرية بعد يأسك من إيمان الأمة التى أرسلت لها ، جاءهم الرسول الذى طلبت والكتاب الذى به دعوت فوحق شيبتك ووقارك ماعرفوهما الامعرفة الجاهلية ، وإنما قدسوهما غافلين ولاحظ لهم من القرآن الاحظ الجائع من النسيم ، والحمار من البرسيم فداستهم الأمم ، وأصبحوا طحين الطامعين ، ولم ينالوا الخلافة ، ولم يحظوا بالامامة . فهم مأمون لاأئمة ، وتابعون لامتبوعون . انهم ظالمون لاظلم المعاصى الظاهرية ، ولا الأمور الأخلاقية ، وإنما ظلموا بجهل العلم ، والصناعات ، وما أبدعه الله فى الأرض والسموات فلاتجزع يا أبانا ابراهيم ، فان أبناءك جهلوا قدرك وسفهوا أنفسهم ، ألاترى أنهم أعرضوا عن علومك وغفلوا عن نظرك . نظرت السموات وأغمضوا وفكرت فى الطبيعة وأعرضوا ، وصبرت على مايشرف قدرك وماصبروا ، وأحببت ذويك وكرهوا ، لاتأسف على أبنائك يا أبانا الخليل ، ولقد صدق قول الله فينا « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الامن سفه نفسه » فأبناؤك اليوم جهلوا أنفسهم ، فلاتبتئس بما كانوا يعملون ، وعسى الله أن يبدلهم بعد جهلهم علما ، وبعد خوفهم أمنا ألا وان هذا زمان الانقلاب ، وأيام الاضطراب ، ودوران الفلك بالعجائب والغرائب ، فقد انتعشت الافئدة وأشرقت الأرض بالنور وسيتبوأ أبناؤك فى القريب العاجل مقامهم الرفيع ، وينالون عزهم الشامخ ، وسيدركون معنى أبوتك وملتك . المسلمون جميعا أبناؤك من ترك وكرد

وصينيين

وصينيين وجاويين وهنود وغيرهم من الأمم والأجناس أبناؤك فى العلم والدين ، و بنوّة العلم أشرف وأبقى من بنوة النسب ، هؤلاء الأبناء جاء فيهم على لسان أفضل أبنائك نبينا ﷺ فى القرآن « ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس » فلقد سميتنا مسلمين فى الكتب السابقة وفى القرآن ، وأنا نكون شهداء على الناس ويكون الرسول علينا شهيدا فتكون نسبتنا الى الناس كنسبة الرسول لنا ، نحن شهداء الله على خلقه نحن هداة الأمم ، هكذا يجب أن نكون كما رسمت لنا أيها الأب الوقور .

لقد وقف الرسول الذى أرسله سعد بن أبى وقاص فى مجمع من الفرس فى حضرة الشاه تارة ، وفى حضرة رستم القائد العام تارة أخرى وهو يقول « لقد بعثنا لنخرج الناس من جور الاديان إلى عدل الاسلام ولا يتخذ بعض الناس بعضا أربابا من دون الله » لعمرى لقد فهم أولئك السلف حقيقة الاسلام وان المسلم شهيد على الناس كما أن رسوله أرسل رحمة للعالمين « وما أرسلناك الارحمة للعالمين » ولن نكون رحمة للعالمين الا اذا اتبعنا ملة أبينا ابراهيم فقرأنا سائر العلوم ، وأحطنا بالفنون كما شرحناه فى علومك السابقة . نظرت فى النجوم وصبرت وبحثت فى علم الحقائق واستبصرت فى كل شىء هكذا فليكن أبناؤك الذين هم أتباع دينك ، وكيف يكونون شهداء على الناس الا اذا درسوا العلوم وأطوار الأمم وأحوال الشعوب فالشاهد على قوم يكون عالما بما بين أيديهم وماخلفهم ، ولم يقتصر القرآن على اتصافهم بالشهادة على الأمم بل جعلهم ذوى اشراف على الجميع فى الارض اذقال « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولوآمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم » وقال فى آية أخرى : « وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » الأمّة الاسلامية جعلت ديارها بين ديار الأمم تتاخم الروم من جهة الغرب باوروبا وتصل بالصين والهند واليابان ، وماوراءها من أمريكا من جهة الشرق فكانها وسط بين الامكنة ورجالها وسط يعدلون فى قولهم وحكمهم ، فأهل الحل والعقد من هذه الأمّة متى جاء وقت منعتها وعزها ومجدها سيكونون مرجع المظلومين ومأوى الخائفين ، وأمان المذعورين وهم يكونون الآمرين الناهين وكما أرسل رسولهم رحمة للعالمين يكونون هم رحمة الأمم تبعا لنبيهم ، وهذا معنى « ليظهره على الدين كله » فالمسلمون بمنطوق هذه الآيات خير أمة أخرجت للناس ، ولاجرم أن هذا خبر لابدّ من تحققه ويظهر لى أنه قدآن أوانه وبدا كوكبه وانفلق عمود صباحه وانشق فجره .

إن أول اصلاح اسلامىّ فى الأرض أن زلزلت الأمم القديمة كفارس والروم وماج الناس بعضهم فى بعض وداخل الغربيون الشرقيين والشرقيون الغربيين وامتد الفتح الاسلامى الدينى فتعارفت الأمم واستفحل الاسلام فقام الملوك ببعض العدل فى حكمهم الأمم على قدر طاقتهم وماسمحت به أيامهم ، ثم دالت الدول الاسلامية وذهبت عنهم عزة المدنية . فدلف اليهم من الشرق المغول والتتر وورثوا الأرض والتحقوا بالدين ، وهذا من ثمرات الاسلام ، وجاء الغربيون ليحاربوا للدين فحملوا على قومهم قناديل تضىء على ديارهم وقبسا من العلم يهديهم الى هدى ويردهم عن ردى فظهر لوثر المصلح الدينى الشهير وصرخ فى قومه قائلا أيها الناس ان رجال الدين قدعثوا فى الأرض فسادا وأدخلوا فى الدين مالم ينزل الله به سلطانا فلاتجعلوا لكم ربا الا الله وذلك انما كان صدى قول الله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الاليعبدوا إلها واحدا » فلا اقرار لقسيس ، ولاطغيان فى معاملة ، ولاغفران لرئيس بل العبد يحاسب ضميره و يعلم أن الله مطلع عليه ، فأخذت العقول الغربية فى الهدى ، والعقول الشرقية فى الضلال والاضمحلال . وبهذه الحرية الاسلامية ، تحررت عقول الغربيين من الجهل الذى كان مخيما عليها أجيالا ، وقرونا فأخذوا

ينظمون

ينظمون البريد والقطر للمسافرين ، و يمدون الاسلاك فاتصل الغربي بالشرقي ، وعرف كل منهما بعض ماعند أخيه وانقلبت ممالك في الشرق والغرب وتقاربوا بعد التباعد وتعارفوا بعد الجهالة فاقتتلوا وأخذ القويّ منهما يدوس الضعيف بسنابك خيله ويذله ويشاركه ويعده ، ومايعد الشيطان الاغرورا ، وقد أحكمت حلقات التجارة فكانت أقوى رابطة فدعا ذلك التصادم في المصالح أن يحتدم بينهم القتال ، و يتراشقوا بالنبال و يتباروا في النضال ، ثم يكون الصلح العام والمسلمون في هذا كله وسط بين الجميع فعليهم اليوم أن يأخذوا دورهم في ترقية أنفسهم والشعوب الأخرى ونستأنف دورنا ونكون كما أخبر ربنا « وللآخرة خير لك من الأولى » ولتكونن نهضة الاسلام الآتية مبناها العلم وأسها البحث والتحقيق .

فليأخذ المسلمون مكانتهم في أنفسهم أوّلا ثم ليلموا شعثهم فليأتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى بالعلم والعرفان ، واذن يأمرون الأمم بالمعروف و ينهونهم عن المنكر لأنهم خير أمّة أخرجت للناس ، فأمّة الاسلام شهداء الله على خلقه لأنهم عدول وفوق ذلك يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر .

أبونا ابراهيم حمد الله على أن وهب له على الكبر اسمعيل واسحق ولاجرم أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا فكيف ذلك وكيف يكون أبو الانبياء وقدوة سيدنا محمد ﷺ مغرما بزينة الحياة الدنيا فحمده اذن على الولد أدنى مرتبة بل مراتب من حمد المسلم الذي يحمد الله على تربيته للعالمين كما قدمنا في سورة الفاتحة ، أقول انما حمد ابراهيم الله على ولدين هما نبيان : فاسمعيل مرشد مربّ للعالمين ، واسحق أبو الانبياء المرشدين المربين للأمم ، وقد جاء من ذرية اسمعيل نبينا ، فالحمد لله من ابراهيم على تربية الأمم وسعادتها بابنائه ، ومنهم أمّة الاسلام ، ألا تراه يقول هنا « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » وأكدها بقوله « انك أنت العزيز الحكيم » حمد الله ابراهيم على أن رزق اسمعيل واسحق ، وقدم اسمعيل لأن الحمد عليه أوفر . فان من ذريته من اتبعته هذه الأمّة المسلمة ، وهي خير أمة أخرجت للناس وهي وسط ورجالها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر هذه حقيقة الأمّة الاسلامية المستقبلة .

أيها المسلمون ارفعوا الايدي الضاغطة عليكم لتكونوا جميعا أمّة واحدة ، ثم لتنظروا في أحوال الأمم . ان الغربيين انقادقادتهم الى العامة الذين ينوبون عنهم في مجالس أهل الحل والعقد فيهم فهدوهم الى استعباد الأمم الاسلامية واستحلوا دماءنا وأموالنا ، فاذا جاء يومكم المعهود فلتكونوا خيرا منهم ، لتكونوا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ، وارفعوا حيف الأمم القوية عن الضعيفة على أيّ دين كانوا ، وأيّ ملة ، وأيّ لون ، انما أنتم رحمة العالمين ، تؤدّبون الظالمين بجيوشكم وسلاحكم ، ويجب أن يكونوا أقوى من أسلحة الأمم وجيوشها حتى يخشوا بأسكم ، ولا تظلموا أحدا ، وكونوا قادة وسادة ، وانظروا كيف كان نبينا شاهدا على الأمم فذم اليهود والنصارى بمخالفة كتابهم كما ترونه في هذه السورة من اتخاذ اليهود العجل معبودا مثلا ، ومن اتخاذ النصارى المسيح إلها ، فعيرهم بذلك و بغيره وأدّبهم ، فكان من ذلك مانرى من هذه المدنية الناجمة من الانقلاب الديني في الأرض ، هكذا فلتكونوا شهداء على الأمم تفعلون مافعل نبينا من الشهادة على الناس والأمر بالمعروف لهم والنهي عن المنكر بعد أن توطدوا أركان النهضة داخل بلادكم .

ذلك هو الذي انشرح له صدري في هذه الآيات ، وهذا الذي يطلبه القرآن ، والافلماذا نسمع قصة ابراهيم ألمجرّد التاريخ ؟ أم لحكاية تقال وتلاوة تسمع ؟ كلا والله ان ذلك لحكمة قد أوضحناها ، ونعمة سطرناها فمن قرأ هذا فلينشره بين المسلمين : « ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقويّ عزيز » . وهذا سرّ تكرار الصلاة والسلام على ابراهيم وآل ابراهيم ، لنذكر الحكمة والآداب الظاهرة والباطنة التي ذكرت عنه في القرآن اه

أيها المسلمون : انى أقول لكم لقد اقترب يوم نصركم ، وأوان عزكم ، وهل يكون أمركم للأمم بالمعروف ونهيكم عن المنكر وأنتم أذلة ! إن الله خلق الحيوانات فى الأرض على قسمين : قسم عزيز ، وقسم ذليل ، فالعزيز كالغزلان والآساد والذئاب والفيلة ، وهى الحيوانات التى تعيش فى القفر والفضاء الواسع ، قد جدّت لأنفسها ، وسعت لمعاشها ، واتكلت على ربها ، ولم يكفلها غيرها ، إلا أنها تمتع بالحرّية والاستقلال التام .

والقسم الذليل تلك الحيوانات التى أغدقنا عليها نعمنا ، وكفيناها العمل ، وأحطناها بقوّتنا ، وأرحناها من السعى لأنفسها ، والبحث عن كل ما يريحها و ينفعها من الغنم والبقر والابل والخيل وأمثالها ، فتلك تمتع بالنعيم وتتقلب فى العذاب تحت رحمتنا وعذابنا ، إن الله أعطى القسم الأول كالآساد قوّة المحافظة على أنفسها والحيلة لجلب ما تحتاج اليه ، وسلب القسم الثانى تلك المواهب ، فزادنا ما نقصها ، وأعطانا ما منعها ، فان كل موهبة استعملها الحىّ نمت ، وكل موهبة تركها ذهبت ولم تبق . هذه قاعدة عامة ألايبقى إلا النافع ؟

فنقول : أيها المسلمون أنكون كالفريق الأوّل أم نكون كالفريق الثانى ؟ إن الفريق الثانى لا يملك لنفسه نفعا ، انه ذليل ضعيف فاقد الحيلة ، أما الفريق الأوّل وهو الحرّ المستقل ، فهو أهل أن يحفظ نفسه و ينفع غيره ، المسلمون ما داموا تحت رحمة الأمم فليسوا خير أمة أخرجت للناس ، ولا عدولا ، لأن الأمة التى تكون خير الأمم وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر تكون حرّة ، وهل للذليل أمر أونهى ، أم هل له من علم وهو فى طاعة ساداته المالكين لأمره ، الذين يسخرونه لمآربهم ؟ فـاداموا تحت وصاية غيرهم فان الرجاء فيهم مفقود وانما هم أشبه بأدنى الحيوان الذى يقوده الانسان ويذبح أولاده ، و يشوى لحمه ، ويجزّ صوفه ، ويكون زينة له ومتاعا الى حين ، فهل مثل هؤلاء يكونون خير أمة أخرجت للناس ، أم مثلهم يسميهم الخليل مسلمين ؟ أم يكونون شهداء على الناس وهم لا يعرفون الناس ولا أنفسهم ، فليخرج المسلمون من مأزقهم الذى وقعوا فيه وليرجعوا الى سنن السلف الصالح من الحرّية والنجدة والنخوة والشمم والاباء ، وحينئذ يكونون خير أمة أخرجت للناس .

(الزمردة السادسة)

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، إلى قوله : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

ابراهيم أبو العرب واليهود ، وأبو نبىّ النصارى ، لأنه ابن مريم ، وهى من بنى اسرائيل ، ابراهيم ولد اسحق وولد اسماعيل ، اسحق أبو اليهود ، واسماعيل أبو العرب ، ودعا ابراهيم لأبنائه العرب بالبركة والنماء والعز والعلم والكتاب والحكمة ، وهاهوذا يذكر وصيته هو و يعقوب بعده ، كلاهما يقول لبنيه : ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون . ههنا وضح الحقّ ، واستبان السبيل ، وتجلى الأمر ، وسطع نور العلم ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب ، وهاهوذا ابراهيم يدعو للعرب ، و يوصى اسحق ، و يوصى اسحق يعقوب أن يتبعوا ملة ابراهيم ، وهى ما عرفت من النظر فى العالمين والآداب الظاهرة والباطنة ، فهل يجمل بعد هذا البيان أن يتقهقر الناس الى الوراء و يدينون بالنصرانية واليهودية (تلك أمة قد خلت) أى ابراهيم والمذكورون معه أمة قد سلفت (لها ما كسبت) من العمل (ولكم) أيها اليهود (ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) كما لا يسألون عن عملكم فلا تفتخروا بهم .

الزمردة السابعة

وهما فرعان لأصل وغصنان لشجرة ، ولاأصل إلا دين ابراهيم ، وهى قوله تعالى

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ☆

وقال اليهود (كونوا هودا) وهم يهود المدينة ، وقال نصارى نجران : كونوا (نصارى تهتدوا قل بل) نتبع (ملة ابراهيم) مائلا عن الأديان كلها الى الدين القيم ، وقوله (وما كان من المشركين) تعريض لليهود والنصارى بأنهم مشركون ، ألا ان الطريق المثلى ، والمثل الأعلى ، والحكمة المشرقة أن يرجع نوع الانسان الى الدين العام بلاقيد ولاشرط ، وهو :

الزمردة الثامنة

السلام العام بمشرق شمس الهداية ، ونور الحكمة من أفق الشرق ، وتبلج نور ابراهيم الخليل ، وحكمة ذلك الوقور الجليل ، وهى قوله تعالى :

قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ☆ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ☆

التفسير اللفظى

هذا خطاب للمؤمنين يقول (قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا) وهو القرآن (وماأنزل الى ابراهيم) من الصحف العشرة (وما أوتى موسى) من التوراة (وعيسى) من الانجيل (لانفرق بين أحد منهم) كما فعل اليهود ، وقوله (فان آمنوا) أى اليهود (بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق) خلاف معكم (فسيكفيكهم الله) يامحمد شقاقهم (وهو السميع) لأقوالهم (العليم) بأفعالهم ، وقد كفاه إياهم فقتل قريظة ونفى النضير ، وضرب الجزية ، هذه حجة الاسلام الباهرة ، وسيفه القاطع ، ونوره الساطع ، فنحن نؤمن بالمرسلين والنبيين ، ولا نكذب ماورث عنهم من حكمة ، وما أوتوا من علم ، لانفرّق بين رسول ورسول ، ولا بين نبىّ ونبىّ ، نحن نأخذ الحكمة أين وجدناها ، ونعظم سائر النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، عقولنا ميزان تزن ما ورد بالقسط ، ونبين بالحق ، كما فى آية : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » اذا آن أن ينبلج صبح ذلك اليوم المنشود و يعلم المسلم مافى هذه الآية و يكونون أرقى الأمم ، والآن هم فى غطاء عن الذكر ، وقلوبهم فى أكنة إلا من رحم ربك ، فمثل هذه الآيات لاتلج القلوب ولاتدخل الآذان ، هذا وقد أكد هذه الحكمة بما يقوّيها ، وزكاها بما يدعمها و يسميها ، وهو قوله عزوجل :

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ☆ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ☆

الايضاح

أى صبغنا الله صبغته ، وهى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وهدانا الله هدايتـه ، ولاصبغة أحسن من صبغته الظاهرة الأثر فينا ظهور الصبغ على المصبوغ (ونحن له عابدون) تعريض لهم بأنهم مشركون ، وروى أن أهل الكتاب قالوا : الأنبياء كلهم منا فلوكنت نبيا لكنت منا ، فنزل مامعناه : قل أتجادلوننا فى شأن الله فالنبوّة إما اختصاص من الله فهو ربنا وربكم ، فكما يختصّ منكم من يشاء يختص منا من يشاء ، وان كان ذلك بالأعمال فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن مخلصون له فى الايمان والطاعة ، صبغ النصارى بماء المعمودية الذى اتصـل بما غمس فيه المسيح عليه السلام ، فذلك حجر للنفس عن السلام العام ، والدين الحق أن يرجع الناس للسلام العام بالدخول فى الاسلام ، و يصبغوا بصبغة الاسلام ، لايتقيدون بالقيود الموهومة « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » ليس أمام المسلم إلا ربه وعمله « وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم » والناجون المفلحون هم المخلصون « ونحن له مخلصون »

(الزمردة التاسعة)

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّٰهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّٰهِ وَمَا اللّٰهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

ايضاح

أى بل أتقولون ، وقوله (أأنتم أعلم أم الله) أى الله أعلم ، وقد برأ ابراهيم من اليهودية والنصرانية بقوله « ما كان ابراهيم يهوديا ولانصرانيا » ولاأحد أظلم ممن أخفى شهادة عنده كائنة من الله وأولئك هم اليهود ، كتموا شهادة الله لابراهيم بالحنيفية ، وقوله (وماالله بغافل عما تعملون) تهديد لهم وتخويف ، وتكرارهذا ليعلم اليهود وجميع العالم الاسلامى أن الاحتجاج بالآباء أوالافتخار بهم ضرب من الجهالة وباب العماية ، فليس من حق اليهود الاحتجاج بالتاريخ الذى زوّروه ولو كان حقا لم يفدهم فلكل امرىء ما كسب وعليه ما اكتسب وكل امرىء عن عمله مسئول ، وملخص ذلك أن يقال : ليس ابراهيم يهوديا ولانصرانيا وانما دينه مطلق من القيود خال من السيئات أبيض ناصع على أنه لاعبرة بالمجد القديم ، والفضل الموروث ألا إنما المجد كل المجد أن يعمل الانسان بنفسه (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون)

الزمردة العاشرة

القبلة ومناسك الحج كالصفا والمروة التى كانت مناسك ابراهيم لتقتفى الناس أثره فى أعماله الظاهرة وآدابه الباطنة ونظره العام فى السموات والأرض وهو قوله تعالى

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلّٰهِ الْمَشْرِقُ

وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا
إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * قَدْ
نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ
مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ
أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ
أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ
فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *
وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي
وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا
عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا
تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ
قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُهْتَدُونَ * إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ *

التفسير اللفظي

لما كان الشعور بالمكروه قبل حصوله كالمرض يتقدم الموت يطمئن به القلب ، و يسهل المكروه قال الله تعالى (سيقول) الجهال من اليهود والمشركين : أى شيء صرف النبي ﷺ والمؤمنين (عن) استقبال (قبلتهم التي كانوا عليها) وهو بيت المقدس (قل) يامحمد (لله) الجهات كلها مشرقها ومغربها وما بينهما : فأى اعتراض عليه أن يأمر بالتوجه الى أى جهة شاء (يهدى من يشاء) هدايته (الى طريق مستقيم) أى دين الاسلام ، ومنه أنتم ، وانا كما هديناكم الى هذا الدين (جعلناكم) ياأمة محمد (أمة وسطا) خيارا عدولا (لتكونوا شهداء على الناس) فى الدنيا والآخرة وسيأتى توضيحه كما سبق بعض ذلك (ويكون الرسول عليكم شهيدا) أنه بلغكم ، وماصيرنا القبلة لك الآن الجهة (التي كنت عليها) من قبل وهى الكعبة اذ كنت تصلى اليها فلما كانت الهجرة أمرناك باستقبال بيت المقدس تألفا لليهود (الا لنعلم) علم ظهور (من يتبع الرسول) فيصدقه (ممن ينقلب على عقبيه) راجعا الى الكفر شكا فى الدين فيظن من فى قلبه مرض أن الرسول متحير فى أمره متردد فى فعله ، ولقد ارتد جماعة لذلك (وان كانت) أى التولية (لكبيرة) لشاقة على الناس (إلا على الذين هدى الله) منهم . ولما قال حي بن أخطب من عظماء اليهود للمؤمنين ان استقبالكم لبيت المقدس لايخلو إما أن يكون هدى ، فقد انتقلتم الآن الى الضلال ، واما أن يكون ضلالا فلم أقركم عليه ؟ ثم ان من مات قبل التحويل مات على الضلال وضاعت أعماله . شق ذلك على أقارب من ماتوا قبل التحويل فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى (وما كان الله ليضيع ايمانكم) وهو صلاتكم الى بيت المقدس (إن الله بالناس لرءوف رحيم) أما بالمؤمنين ففى أنه لم يضيع صلاتهم الى بيت المقدس ، وأما بالرسول فانه أجاب دعاءه وأعطاه طلبته ، اذ كان وهو يصلى الى جهة بيت المقدس يشم من اليهود الكره وكانوا يقولون ان محمدا يفارق ديننا و يصلى لقبلتنا ، وكان ﷺ يحب أن يصلى للكعبة حتى نزل عليه جبريل يوما فقال ياجبريل أود أن الله يحولنى لقبلة أبى ابراهيم فسل ربك ذلك ، فقال أنت أكرم على الله منى ثم صعد الى السماء فصار رسول الله ﷺ ينظر لجهتها منتظر الاذن فى ذلك فنزل عليه جبريل بعد ركعتين من صلاة الظهر فى رجب بالأمر بالتحويل للكعبة فتحول وتحول الناس معه ، وكان يوما مشهودا فافتتن اليهود وأهل النفاق ، ونزل قوله تعالى (قد نرى تقلب وجهك) الآية : أى قد نرى تصرف وجهك (فى) جهة (السماء) متطلعا الى الوحى ومتشوقا للاذن باستقبال الكعبة لأنها قبلة أبيك ابراهيم ولأن العرب يألفونها فيسلمون (فلنولينك قبلة) تحبها فاستقبل فى الصلاة نحو (المسجد الحرام و) أنتم أيها المؤمنون (حيثما كنتم فولوا وجوهكم) فى الصلاة (شطره وان الذين أوتوا الكتاب) وهم اليهود (ليعلمون) أن التولى للكعبة (الحق) الثابت (من ربهم) فان ذلك جاء فى نعت النبي أنه يتحول اليها (وما الله بغافل عما يعملون) أى اليهود من انكار أمر القبلة (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية) على صدقك فى أمر القبلة مايتبعون قبلتك عنادا منهم لك (وما أنت بتابع قبلتهم) لطمعه فى اسلامهم ولطمعهم أن يكون هو صاحبهم الذى كانوا ينتظرونه مؤيدا لهم وما اليهود بتابعين قبلة النصارى ، وهى مطلع الشمس التى ابتدعها لهم بولس القسيس . أنه بعد رفع عيسى قال لقيت عيسى عليه السلام فقال لى ان الشمس كوكب أحبه يبلغ سلامى فى كل يوم فرقومى ليتوجهوا اليها فى صلاتهم ففعلوا ذلك

وما النصارى بتابعين قبلة اليهود وهو بيت المقدس (ولئن اتبعت) يامحمد (أهواءهم) التى يدعونك إليها (من بعد ماجاءك) من الوحى الآية (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه) محمدا (كما يعرفون أبناءهم) كعبد الله بن سلام إذ قال لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ، ومعرفتى بمحمد أشدّ : فان الابن مظنون النسب : أما محمد فعرفته عن الله فى الكتاب (وان فريقا منهم ليكتمون الحق) نعت محمد (وهم يعلمون) ومعنى الممترين الشاكين (ولكل) فريق من الناس قبلة (هو موليها) وجهه فى صلاته . فبادروا الى الطاعات (أينما تكونوا) يجمعكم الله يوم القيامة (ومن حيث خرجت) لسفر الآية ، وقوله (لئلا يكون للناس) أى اليهود أو المشركين مجادلة فى التولى الى غير الكعبة : أى لينتفى قول اليهود يجحد ديننا و يتبع قبلتنا ، وقول العرب : أى المشركين منهم يدّعى ملة ابراهيم ويخالف قبلته (الا الذين ظلموا منهم) لأنهم يقولون ماتحوّل اليها الا ميلا منه الى دين آبائه فلا تخافوا جدالهم (واخشونى) بامتثال أمرى ، وعطف على قوله لئلا يكون قوله (ولأتمّ نعمتى عليكم) بالهداية الى معالم دينكم (ولعلكم تهتدون) الى الحق إتماما كاتمامها بارسالنا (فيكم رسولا منكم) وهو محمد ، وقوله (يزكيكم) يطهركم (ويعلمكم الكتاب) القرآن (والحكمة) مافيه من الأحكام (فاذكرونى) بالطاعة كالصلاة والتسبيح (أذكركم) بالثواب ، وفى الحديث عن الله « من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه » ، وفى الحديث أيضا « ان الله إذا أحبّ عبدا نادى جبريل فقال له ياجبريل إنى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل : ثم ينادى فى السماء : ان الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء : ثم يوضع له القبول فى الأرض » ثم قال تعالى (واشكروا لى) نعمتى بالطاعة (ولاتكفرون) بالمعصية (ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر) عن المعاصى وحظوظ النفس (والصلاة) إما أن تكون الدعاء ، و إما أن تكون الصلاة المعروفة (ان الله مع الصابرين) بالنصر و إجابة الدعاء .

ثبت بالتجربة التى قرأتها فى بعض الكتب واختبرتها أنا ان المتوجه لله بالدعاء مع الثقة بالاجابة واقناع القلب الدائم أن مطلوبه سيتم مع المواظبة فى ذلك لابد من الاجابة لدعائه (ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله) هم (أموات بل) هم (أحياء ولكن لاتشعرون) وحياتهم ليست جسدية من جنس حياة الحيوان ، والآية نزلت فى شهداء بدر وكانوا أربعة عشر ، وهذا دليل على أن ماقاله الفلاسفة من أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها باقية بعد الموت حق وصدق ، وهنا اتفق الشرع والعقل ، وسيأتى فى هذا المقام تفصيل أوسع من هذا (ولنبلونكم) ولنصيبنكم إصابة المختبر لأحوالكم هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء (بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات) والخوف امامن الأعداء بالاغارة والايذاء أومن الله ، والجوع بالقحط أوالصيام فى رمضان ، والنقص من الأموال امابالجوائح والمهلكات واما بالزكاة والصدقات ، ونقص الانفس بالأمراض والقتل والموت ، والثمرات بالآفات العارضة ، وانما فعلنا ذلك لننظر أتصبرون (و بشر الصابرين) على البلاء بالجنة (الذين اذا أصابتهم مصيبة) و بلاء (قالوا انا لله) ملكا وخلقا وعبيدا يفعل بنا مايشاء (وانا اليه راجعون) فى الآخرة فيجازينا ، والاسترجاع باللسان و بالقلب بحيث يتصور ماخلق لأجله وانه راجع الى ربه ويتذكر نعم الله عليه فيهون على نفسه ويستسلم له وفى الحديث « من استرجع عند المصيبة آجره الله فيها وأخلف عليه خيرا» وفى الحديث أيضا « ان مصباح النبى ﷺ طفىء فاسترجع فقالت عائشة انما هو مصباح فقال كل ماساء المؤمن فهو مصيبة» (أولئك عليهم صلوات من ربهم) أى تزكية ومغفرة (ورحمة) أى لطف واحسان (وأولئك هم المهتدون) للحق انتهى التفسير اللفظى

ايضاح وكشف

ههنا استقام الأمر ، واستوثقت الحجة ، وقام البرهان ، ووضح الدليل ان الدين الحق هو الحنيف الخالص من الكهانة والمعمودية وغيرها ، ولاسبيل لذلك إلا برجوع الناس لدين الخليل ، ومن آدابه الظاهرة أن يؤموا فى الصلاة الكعبة التى بناها ، والقبلة التى اصطفاها ، والأمة التى تتبع قبلته ، وتؤمّ طريقته ؛ وتسلك سبيل ملته ، من النظر فى السموات ، والتغلغل فى الطبيعيات والكيماويات ، والتنائى عن الأوهام كالأصنام ، والصبر على مابه تعلوا الهمم ، وتسموا الأمم ، لاجرم تكون وسطا وعدولا ، ورجالها خيارا ، وهداتها مزكين بالعلم العالى والعمل الشريف ، والفضل المنيف ، إذ يعلمون أن الله ماخلق الخلق سدى : « وان من أمّة إلا خلا فيها نذير . بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » فيشهدون على الأمم جميعا من خلا قبلهم ، ومن سيلحق بهم بعدهم ، ومن هم لهم معاصرون . ذلك شأنهم فى الآخرة . ان أمة محمد يشهدون على الأمم أن أنبياءهم بلغوهم فيؤتى بالنبىّ صلى الله عليه وسلم فيشهد أن أمته عدل . ذلك حالهم فى الآخرة . لاجرم أن الآخرة ثمرة الدنيا . فعلى المسلمين اليوم أن يسموا الى مرتبتهم . ويقوموا بما وجب عليهم فلقد صدقوا كل رسول ونبىّ . المسلمون اليوم وسط بين المشارق . والمغارب وسط بين الغرب والشرق الأقصى وأمريكا . المسلمون أمة بين المسيح وبوذا ، جعلهم الله بين الأمّتين الغربية والشرقية ، انهم يؤمنون بما أنزل الله على الأنبياء ، ومنهم من قصّ على نبيه ومنهم من لم يقص . وكأنهم أولى الأمم وأجدر الناس بالتغلغل فى العلوم . والترقى فى المعارف . يدعوهم دينهم وملة أبيهم ابراهيم لعلم كل شىء . والنظر فى دين كل أمة « لانفرّق بين أحد من رسله » فمركزهم إنما هو الاشراف على العالمين . والنظر نظرة عامّة للناس فى الدارين . فالعدل خبير بأحوال من شهد عليه وعلى الشاهد أن يؤدّى الشهادة عن عيان . ولئن قام بالأمر آباؤنا السابقون . وأسلافنا المؤمنون . فهل ورثنا مجدهم . وصرنا عدولا مثلهم ؟ أنا أشك فى قضيتنا ، واسأل العلم والحكمة لأمتنا ، حتى تنال صفة العدالة وترث أن تكون شاهدة عن عيان ووجدان . فليكن من المسلمين اليوم سياح وعلماء . وليقرءوا علوم المغارب والمشارق . ويجدّوا فى الصناعات . وبناء السفن الماخرات . حتى يجوسوا خلال البلاد . هذا مقتضى وصفهم بالعدالة . ولئن أعرض المسلمون اليوم عما رسمناه . واتكلوا على ماسمعناه . أصبحوا كأمة اليهود بشروا بأنى فضلتكم على العالمين . فلما أن أعرضوا قيل لهم : « كونوا قردة خاسئين » فلا يظن المسلمون أن الأمر فوضى وأن المسلمين ينالون تلك العدالة والشرف بلاثمن ولاعمل . كلا . فان لم يقوموا بالعلم مجدّين . وللعمل شاكرين . قلب الدهر لهم ظهر المجنّ . وأبدل بجنتهم العرفانية ذلة الأبد . وفقد الولد . وضياع البلد . وقلة العدد . ولقد ذكرنا قبل هذا فى الآيات السابقة عند ذكر الخليل عليه السلام ما كان من اخبار الله تعالى قائلا : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وأن المسلمين غفلوا وذكرت أنهم شهداء على الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

بشرى للمسلمين

ماكنت وأنا أكتب ماتقدّم . وأنا مهتمّ بالأمم الاسلامية . لائم لأهل العصر الحاضر على التوانى والكسل أظنّ أن فيهم من نبذوا الانزواء . وظهروا فى الميدان . وعرفوا قيمة أنفسهم . أفلا أعجب من حكمة الله عزّوجل أكتب هذا القول وأنا آسف على الأمة اذ الخبر السارّ الوارد فى الجرائد عن أهالى طرابلس وبرقة ينادون بالأمير محمد ادريس المهدى السنوسى أميرا على القطرين . وهذا نص ما كتبوه إلى سموّ مولانا الأمير الجليل السيد محمد ادريس حفظه الله ورعاه :

« تحية تليق بالمقام الرفيع ، والجناب الأسنى المنيع ، و بعـد فانه غيرخاف على سموّكم أن الخلاف لم يزل قائما بيننا و بين الحكومة الايطالية ، ذلك لأنها وجهت عزمها الى العبث بجميع حقوقنا شرعيها وساميها واداريها ، وجعلت من قوّتها مبرّرا للتصرّف فى مصيرنا وحقوقنا الطبيعية [ونحن خيرأمة أخرجت للناس] لاتتحملضيما ، ولانرضى أن تضمحل شريعتنا ، ولاأن يتطرّق الخلل إلى ديننا القويم الخ » انتهى المقصود منه

قرأت هذا اليوم وأنا أعجب سرورا وابتهاجا ، إذ أكتب هذا القول ومداده لم يجف ، وأرى أن هذه الأمة اليقظة الشريفة النبيلة المضيئة العريقة المجد الكريمة المحتد قد أخذت تضىء و يبهرسناها وتشرق على العالمين .

ياأيها العقلاء : ان هناك نورا أشرق من السماء وتقبـله كثير من العقول السليمة فى ديار الاسلام ، واذا أراد الله أمرا هيأ أسـبابه ، تلك كهرباء سرت فى قلوب استعدّت للحكمة فى مشارق الاسلام ومغاربه ، ان توافق الخواطر يبشر بالنجاح ، سيرجع المسلمون لمجدهم ويكونون رحمة للعالمين « ولتعلمنّ نبأه بعد حين »

انى لما ألفت « التاج المرصع » منذ نحو ١٨ سنة كنت أقول فى نفسى : « ستنبغ فى الاسلام دول قبل ثلاثين سنة » أما فى هذا الكتاب فانى أرى نورالله قد أشرق على القلوب ، وتواردت الخواطر « ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوىّ عزيز » وماكنت لأظنّ أن يقول أحد هذه الآية « كنتم خيرأمة أخرجت للناس » مستشهدا بها على الاستقلال السياسى . هـذه نزعة شريفة تبشر بالنجاح والفلاح . وهذا وحده منشأ عجبى وسرورى . انتهى

إيضاح الكلام فى أمر القبلة

ههنا بسط الله المقال فى أمر القبلة ، ولما تشوّف النبى صلى الله عليه وسلم لقبلة ترضيه ، وكانت الأمم تمتاز بقبلتها ، واحتج العرب واليهود على استقبال بيت المقدس وعابوا المسلمين والنبى ﷺ فى استقباله كررالأمر بالتولى ثلاث مرات لكل من الأسباب واحدة مقرونة بقوله « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها » والثانية مقرونة بقوله «ولكلّ وجهة هوموليها» والثالثة بقوله « لئلا يكون للناس عليكم حجة » ثم أبان أن ذلك الرسول الموعود ، والنبى المنشود ، الذى دعا به ابراهيم انما هومحمد صلى الله عليه وسلم بقوله « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا » وههنا أخذ يعطى ملخص دين الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأصوله الشريفة التى هى النقية البيضاء ، وهذه الاصول توافق دين ابراهيم الخليل وهوالدين العام فقال « فاذكرونى أذكركم » . يقول : هاأنا ذا ذكرتكم بارسال محمد الذى وعدت على لسان ابراهيم ، فكما ذكرتكم بذلك فاذكرونى أذكركم ، وههنا أخذ يعدّد تلك الاصول المرضية ، والحكم الشرعيـة ، فكان حاصلها يرجع الى علم وعمل وأخلاق نفسية ، فالعلم « وإلهكم إله واحد لاإله إلا هوالرحمن الرحيم . إنّ فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار » الآية وهى تقابل ماجاء فى سورة الأنعام من نظرات ابراهيم الخليل للعلويات والزهرة والقمر والشمس واستخراج الحكمة البالغة منها وهوالتوحيد ، والعمل أشارله بالأمر بالصلاة وبالسعى بين الصفا والمروة لأنهما من شعائر الله اتباعا لدين الخليل إذ كان يحجّ و يصـلى ، وهذه الأماكن مصـلاه ومناسكه ، وللأخلاق أشار بالصـبر على البلوى من القتل والخوف والجوع ونقص الأموال كما تجرّع ابراهيم مرارة فراق الوطن ، وقاسى الابتلاء والمحنة بالولد ، إذ أمر بذبحه ، وذاق الأمرّين ، إذ ألقى فى النار وابتليت هاجر بنقص الثمرات والجوع فلم يكن للمسلم بدّ من التغلغل فى العلوم الشريفة من علويات وسفليات ومن امتطاء غارب الجدّ فى فهم الكيمياء التى أشارلها تقطيعه للطير وتحليـله لأجزائها فيما يمرّ عليك فى هذه السورة ، وليكن المسلم مخلصا لله فلايرهب الموت فى سبيل الله ولايتحاشى نـكبة فراق الوطن العزيز اذا سيم خسفا وأرغم على الذلة ، فالصابرون لهم البشرى فى الدارين ، حياة المؤمن الحنيفى بين نعمة يشـكرها ونقمة

يصبر لها ، والشكر يشمل ترقية العقول بالعلوم والنظر ، والعلم والعمل ، والصبر فى الأخلاق ، كالملح فى الطعام فيه الشجاعة فى الجهاد ، والعفة للفقراء ، والقناعة للأغنياء ، وسكون النفس ، وثبات الجأش . الصبر إما عن مرغوب ، أوعلى مكروه ، أوفى عمل ونصب ، وللأول نقص الثمرات والأموال والجوع ، وللثانى هلاك الأنفس ، وللثالث الصلاة والنظر فى السموات والأرض والعلوم والحكمة .

الكلام على قوله تعالى : « ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لاتشعرون » وما مناسبتها لما قبلها ومابعدها ، وايضاح هذا الموضوع الذى ذكرت فيه هذه الآية

اعلم أن الانسان فى هذه الحياة خلق محبا لأن يعلو الى أقصى مقام من السعادة والشرف والراحة ، وأعظم السعادة أن يكون الحىّ منا شابا لايهرم ، وغنيا لايفتقر ، وصحيحا لا يمرض ، وحيا لا يموت ، وجيلا لايقبح ، وهذه مركوزة فى جبلة كل حىّ من بنى آدم وان لم ينطقوا بها ، وقد خلقنا فى الأرض وليس فيها ذلك ، فنحن عرضة للمرض والفقر والموت ، ونقص المال والأنفس والثمرات ، وموت الأولاد ، وفقد الأحباب ، وكل ذلك محن و بلايا ، ونحن اذا احتملنا فكالحيوان يموت ولده فيهلك حزنا عليه حتى اذا طال الأمد نسى الوالد الولد فذكرنا الله بهذه الآيات وقال : « و بشر الصابرين » الذين يفكرون فى أمر الدنيا و يعلمون ان الله هوالمعطى وهوالآخذ . هذا هوظاهرالقول ولكن سرّه الذى عرفه حكماء الاسلام وان كان ماخفى عليهم أعظم

ان الانسان يتحمل هذه المصائب و بتواليها عليه تقوى نفسه وترتفع وان لم تشعر بذلك ، ومن لم تصبه المصائب يكون أشبه بالذهب الذى لم تهذبه النار ، ولم تصغه حليا ولادينارا ، بل هوتبر فى التراب مدفون ، وعن الأنظار مكنون ، أما الرجل الذى أدّبه الدهرفانه تقوى عزيمته ، و يتخذ من الحوادث درعا تقيه العاديات ومجنا يقيه الكارثات ، و يرتقى الى ما استعدّ له من الدرجات ، وكلما كان الاحتمال أكثر كانت الروح أعلى وأشرف .

واعلم أن هذا التقرير الذى ذكرته لك ملخص كتب قرأتها عن اليونانيين والاوروبيين وأسلافنا ، ووالله انى لأعجب للقرآن كيف يأتى بتلك الثمرات الناضجة بحيث يتسنى للعامّة أن يفهموها ، وللعلماء أن يبحثوها ، يقول الله « و بشر الصابرين » وهذا هوالذى بحث عليه علماء الخافقين قبل نزول الانجيل فضلا عن القرآن وقال أكابر الحكماء : « السعادة منوطة بالمصائب وتحملها » . وقال أرسطاطاليس فى كتابه الذى أرسله إلى الاسكندر مامعناه : « ان الناس يتحملون المصائب ولكنهم لايحتملون النعم ، ان النعم ثقيلة على الناس تتعبهم » ثم أوضح ذلك فقال : « اذا رأيت أمة أغدقت عليها النعم ، وجانبها النصب والتعب ، وأبطرها الرخاء ، فلتعلم أن ساعتها قد اقتربت وأجلها قد أوشك أن ينتهى ، فأما تلك الأمة التى أصابها الجهد بسبب الحرب ومقارعة الأبطال فى الميدان ومحاربة عدوها الغادر الفاتك فانها تنشط من عقالها ، وتستعدّ لسعادتها ، وتبنى مجدها ، ومادامت عاملة ناصبة فان اتسع لها العيش واستراح بالها جرعتها الراحة كأس العذاب ، وذاقت من الذلة أنواعا ، ومن الهموم أوفى نصيب . وأنت ترى أن الذين ناصبهم دهرهم العداء فى أوّل حياتهم هم الذين قارعوا الأمم بأسهم ورفعوا أممهم ، والأمثال على ذلك كثيرة يعرفها كل ذى عقل وفكر منير » ثم تعجب كيف ذكر آية الذين قتلوا فى سبيل الله وأنهم ليسوا أمواتا بل أحياء فى غضون الكلام على الصبر على المكاره ، والابتلاء بالجوع والنقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، فما الحكمة فى ذلك ؟ واذا قلنا ان أمر القبلة انما هو لتصحيح عبادة وهى الصلاة ، وأن الصلاة ومامعها من أركان الاسلام يقصد بها تهذيب النفس ، وأن الصبر والابتلاء بالجوع ومامعه مقوّيات للنفس فوق العبادات ، فأىّ مناسبة لذكر أن الأموات أحياء ؟ .

أقول : اعلم أن هذه الآية ذكرت هنا لأمرين : الأوّل أن يتعزى المؤمن ، وهو فى حال الشقاء ، والنصب

والبلاء ، والمصيبة ، و يقول أنا الآن وان كنت فى بؤس ، ونقص فى الأموال والنفس ، وفى المصائب ، فان يوم الموت يكون سعادتى ، ويكون حظى موفورا فلا أحتاج للمال ، ولا يفارقنى الولد ، ولا يفاجئنى العدوّ وأكون بعيدا عن المصائب والبلايا ، وهو يوم سعادتى ، والثانى : ان هذه المصائب أشبه بالأجنحة تطير بها الروح فى عالم السعادة فى الدنيا والآخرة كما سأذكره فى لغز قابس ، فلما ذكر الروح حاطها بما يقوّيها من جانبيها كالطائر يطير بجناحيه ، فتأمل فى هذا الكلام كله تجده مخالفا للمألوف عند العامّة ، فبينما العامّة يقولون ان الرخاء سعادة ، يقول الحكماء والكتاب السماوى كلا فالبشرى للصابرين على المصائب ، و بينما الناس يقولون ان الموت مصيبة يقول الحكماء كلا فالموت خلاص من أسر الطبيعة وذل المادة ، و يقول القرآن : بل أحياء عند ربهم ، و يقول فى آية أخرى « فرحين بما آتاهم الله من فضله » الآية ، ولعلك تقول وهل فى هذه السورة من دليل أوشبه دليل يرجع إليه العقل عند ارادة التحقيق بالحكمة والبرهان العقلى ؟ أقول : اعلم أنه قد كنز الله لذلك فى هذه السورة كنزين عظيمين خبأهما عن الجهلاء ، وأراهما للعلماء هذان الكنزان متى كشف غطاؤهما أبصرت البرهان فيهما ، هذان الكنزان يكتنفان هذه الآية من بعد كما خبأ الله الكهرباء ، وأسرار العناصر الأرضية ، والتنويم المغناطيسى ، حتى جاء أجلها فابرزها للناس هكذا هنا فى هذه السورة أودع كنزين لسر الروح ، وقد أراد فى هذا الزمان ابرازهما ، والكشف عن حقيقتهما ليرتقى المسلمون فى أنواع العلوم الشريفة .

ماهما الكنزان

أما أحد هذين الكنزين فهو فى أوائل السورة فى قصة البقرة ، وقوله هناك « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى » ، وقد قدّمت هناك فى تفسير الآية ملخص علم استحضار الأرواح فلا أعيد ذكره ولذلك قال عقبها «و يريكم آياته» أى ان هذا العلم سيظهره الله للناس متى جاء وقته والا فلماذا يقول : و يريكم آياته عقب احياء الموتى ، ثم يقول لعلكم تعقلون : أى تدركون ان الأرواح حية بالمعاينة التى تعرف عقولكم بها حقيقة أن الأرواح حية ، وأما الكنز الثانى فهو ماسيأتى قبل آخر السورة ، وهى مسألة العزير وحماره ، وانه قال الله له وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس الخ ، ومسألة الخليل إذ «قال ربّ أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى» ثم أمره أن يبحث ويجدّ فى تشريح الطيور وتقطيعها وخلط لحمها بدمها ، وذلك أشبه بالتحليل والتركيب الكيماويين الدالين على نظام هذه المركبات وأنها مبدعة متقنة ، وفى ذلك من العجائب والبدائع مايحير الناظر حتى يقتنع بأن الذى أبدع هذه الصور ، وهى منظمة لايخلق هذه الأرواح سدى فيخلقها ثم يفنيها الى الأبد ، فذلك وان لم يكن وسيلة فى عمل الخليل الى رجوع الأرواح الى أجسادها ، ثم حييت الطيور فان تلك الوسيلة التحليلية من الدلائل الاقناعية وان لم تكن يقينية .

ولعلك تقول هذان ليسا كنزين ، لأن الناس جميعا يقرءونهما ومعناهما ظاهر ، أقول على رسلك وهل يدور فى خلد أكثر الناس أن الآية الأولى ، وهى التى فى قصة القتيل والبقرة ذكرت كالدليل العقلى على أن الأرواح أحياء ، كلا وإنما هى من الأمور السمعية المروية عن بنى إسرائيل ، وهذه لايعرفها العقل ألبتة ، فلما انتشر خبر استحضار الأرواح فى العالم المحيط بنا قلنا هذه تشير إلى الدليل العقلى ، لأن الاستحضار فى العالم الانسانى منتشر بطرق غير ماجاء فى القرآن فلننظر فى ذلك ، وهكذا من ذا الذى يدور بخلده من المتوسطين ، أن مسألة الخليل وتقطيعه للطير كالدليل الاقناعى على علم بقاء الأرواح باعتبار أن هذه الصور المتقنة لايتصوّر العقل أن تخلق عبثا فلا بدّ من بقائها والآيتان متباعدتان عن آيتنا إحداهما قبلها والأخرى بعدها مع البعد

الشاسع حتى لا يفطن لهما الا من هداهم الله ، فثبت أنهما كنزان لمن يعقلون ، واعلم أن هذه الآيات المكتوبات من أسطر تعد على الأصابع لا يعرف قدرها الاقليل .

وأقول : ان القرآن لن يعرف قدره الاأحد رجلين رجل اطلع على كتب أكابر الحكماء ، ورجل صفت سريرته ، فأدرك الحقيقة ناصعة نقية ، والدليل على ذلك أن هذه الآية احتوت على ما أطال به قابس اليونانى فى لغزه مع أن الآية أسهل لفظا ، وأقرب متناولا ، يدركها الخاص والعام .

لغز قابس وهو فيلسوف يونانى عاش قبل الميلاد بخمسمائة سنة

[محصل اللغز] : أن هذا الفيلسوف صوّر صوراترمز الى مايعانيه الآدميون من الآلام والآمال ، فمنها امرأة بكماء خرساء صماء رعناء جاهلة جالسة على حجر مربع ، وحولها قوم تأخذ من هذا ، وتعطى ذلك بلا عقل ولاروية فيفرح الآخذ ويحزن المعطى ، ومنها نساء جيلات حاليات بهيات ، قد حظى بهنّ أناس من أولئك الذين أخذوا من تلك الرعناء على سبيل المصادفة ، ومنها نساء باكيات حزينات لابسات ثيابا باليات ينتفن شعورهنّ ، ويلطمن خدودهنّ ، وقد نحلت الأبدان ، وتغيرت الألوان ، وحالت الأحوال ، ومنها نساء غير جيلات ، ولا عابسات يشرن إلى طريق فى الجبل ليهدين الناس إلى ارتقائه ، ومنها أناس قليلون طالعون هذا الجبل ، وقوم آخرون لم يقدروا على العروج إليه فرجعوا خائبين ، فأما المرأة البكماء ، فقال إنها الحظ فانه يكون للناس بلاقانون ، ولاقاعدة ، والحظوظ هى الأموال ، والولد ، والجاه ، والصحة ، والأصحاب ، والقدرة فكل ذلك يأتى و يذهب ، فمن حاز فرح ، ومن حرم من ذلك حزن ، وأما النساء الجيلات فانها تماثيل للذات والشهوات التى يتلبس بها من أعطته تلك الحمقاء حظا مما سلبته من غيره ، وأما النساء البائسات فانهنّ تمثيل لأولئك الذين أضاعوا المال والصحة فى نيل أوطارهم ، ثم أصابهم الفقر ، أو المرض ، أو الذل فانهم يندمون ويحزنون ، ثم يصيرون دجالين كذابين ، فهذه صورة ندمهم على أيام قدرتهم ، وأما النساء اللاتى يشرن إلى طريق فى الجبل فانه سماهنّ الأدب المزوّر : أى ان النساء تمثيل له ، والأدب المزوّر هو جميع العلوم التى يقرؤها الناس فى المدارس من فلك وطبيعة وأدب وشعر . قال : لأن أهل العلم لم يزيدوا عن أرباب المال شيئا ، وإنما العلم نوع من الثروة قال بدليل أنا نرى الشعراء ، وعلماء الفلك ، وعلماء الأدب واللغة وأمثالهم يكذبون ويغشون ويعثون فى الأرض فسادا فلنسمه الأدب المزوّر ، فاذا عمل العلماء بما علموا وصبروا فى هذه الدنيا على ماأصيبوا أصبحوا أحرارا ، وهذا هو المقصود من السعادة ، وأما الاشارة إلى طريق الجبل فان قليلا من أهل العلم من يعمل بما علم ، والمراد مما ذكرنا أن الصبر والتحمل والاستهانة بالمصائب هى التى تسعد المرء فى الدنيا فمن كملت نفسه ارتقى الجبل ، ولبس تاج السعادة ، ومن سئم العمل والمشقة رجع من نصف الطريق التى سلكها باشارة أولئك اللاتى هدينه إليها فصار التحمل والصبر سبيلى السعادة ، وقد يدركها الجاهل ويحرم منها العالم ، أما الصحة والمال والجمال وأمثالها ، فانها كالليل والنهار ، والشتاء ، والصيف تأتى على البر والفاجر ، والسعادة ماقرّرناه ، فانظر كيف أغنى الله المسلمين عن ذلك بهذه الآيات ، وجعل تلك السعادة قوله « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » فتعجب من العلم فى القرآن انتهى .

هذا تحقيق فى شأن الصفا والمروة

الصفا والمروة جبلان بمكة عليهما صنمان ، فعلى الصفا اساف ، وعلى المروة نائلة ، وكانا يعبدان فى الجاهلية فتحرّج المسلمون أن يسعوا بينهما وتجاوزهما الأنصار من قبل ذلك ، فلقد كانوا يهلون لمناة التى تجاه قديد

وهو موضع فى منازل طريق مكة ، ومناة كانت للأنصار ، والصفا والمروة كانا لأهل مكة ، وكان الأنصار لا يتطوّفون بالصفا والمروة كراهة ماعبده غيرهم ، فنزلت الآية للفريقين (ان الصفا والمروة من شعائر الله) الآية ، واجماع الأمة أن السعى مشروع فى الحج والعمرة . وقال أحمد انه سنة ، وبه قال أنس وابن عباس رضى الله عنهما لقوله (فلاجناح عليه) فانه يفهم منه التخيير ، وعن أبى حنيفة أنه واجب يجبر بالدم ، وعن مالك والشافعى أنه ركن لقوله ﷺ « اسعوا فان الله كتب عليكم السعى » .

(المقصد التاسع)

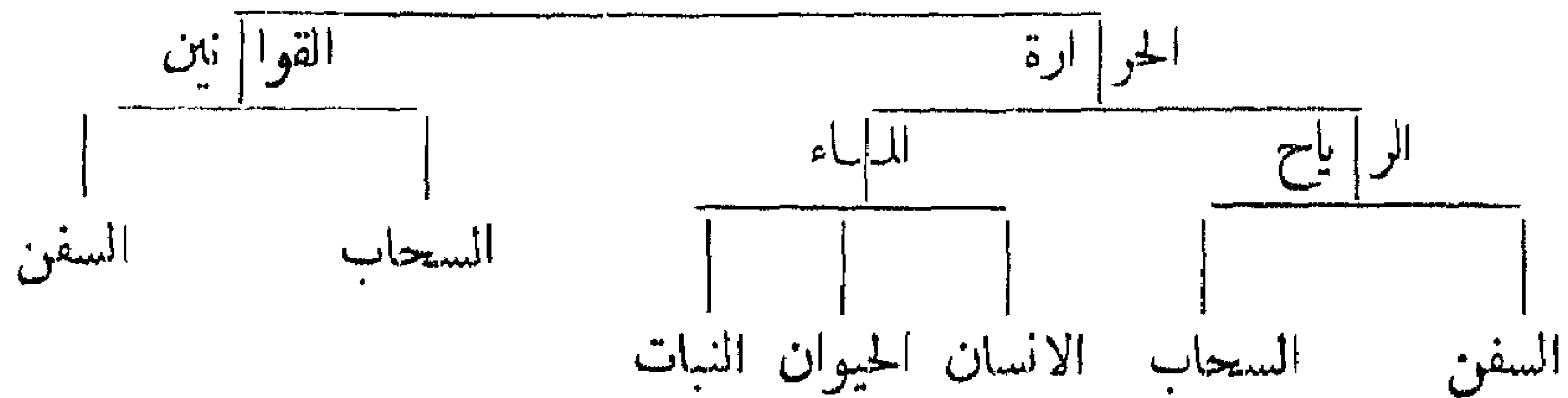
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى : (إن الذين يكتمون ماأنزلنا) كأحبار اليهود (من البينات) كالآيات الدالات على أمر محمد (والهدى) مايهدى إلى وجوب اتباعه (من بعد مابيناه للناس) لخصناه (فى الكتاب) التوراة (أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) أى من يتأتى منهم اللعن من الملائكة والثقلين (إلا الذين تابوا) عن الكتمان وسائر الذنوب (وأصلحوا) ما أفسدوه بالتدارك (وبينوا) مابينه الله فى كتابهم (فأولئك أتوب عليهم) بالقبول والمغفرة (وأنا التواب الرحيم) المبالغ فى قبول التوبة (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار) أى ومن لم يتب من الكاتمين حتى مات (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) استقرّ عليهم اللعن من الله ومن يعتدّ بلعنه من خلقه (خالدين فيها) أى فى اللعنة أو النار (لايخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) يمهلون (وإلهكم إله واحد) خطاب عام : أى المستحق منكم العبادة واحد لاشريك له يصح أن يعبد ، ويسمى إلها (لاإله إلا هو) تقرير للوحدانية (الرحمن الرحيم) أى المولى لجميع النعم كلها أصولها وفروعها ، ولما نزلت هذه الآية تعجب المشركون . وقالوا ان كنت صادقا فأت بآية نعرف بها صدقك فنزل (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) تعاقبهما كقوله تعالى « جعل الليل والنهار خلفة » واختلافهما بالطول والقصر والزيادة والنقصان بحيث يزيد النهار مانقص من الليل ، وبالعكس كما ستراه ، ومن عجب أن النهار فى السنة كلها والليل يتساويان : أى أن ساعات أحدهما فى السنة تساوى ساعات

الآخر (والفلك) السفن ، ويطلق على الواحد والجمع (التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) أى بالذى ينفعهم مما يحمل فيها * وقوله (وما أنزل الله من السماء من ماء) السماء هنا السحاب ، لأن كل ماعلاك فأظلك فهو سماء ، ومن الأولى للابتداء ، ومن الثانية للبيان * وقوله (فأحيا به الأرض بعد موتها) أى بالنبات * وقوله (وبث فيها من كل دابة) عطف على أنزل : كأنه استدلّ بنزول المطر وتكوّن النبات ، وبث الحيوان فى الأرض * وقوله (وتصريف الرياح) أى فى مهابها وأحوالها (والسحاب المسخر) المذلل * وقوله (بين السماء والأرض) أى فى الهواء * وقوله (لآيات لقوم يعقلون) يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون قلوبهم ، وعنه ﷺ « ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها » أى لم يتفكر فيها .

فى هذه الآيات وجوب نشر الفضيلة والعلم . وذكر الوعيد على من كتم العلم ، فمن كتمه فهو ملعون محروم مطرود من رحمة الله عزوجل ، ثم أعقبه بأجلّ العلوم وأشرف الحكمة ، وهو ان فى خلق السموات والأرض ، ولقد شرحنا هذه الآية فى كتاب التاج المرصع ، وأبنا كيف أبانت نظام العالم العلوى والسفلى وارتباطهما وتعاشقهما ، وكيف بدأ بالفلك وثنى بعلم الطبيعة وجعلها منظمة كأنها انسان واحد وحيوان واحد ونبات واحد فترى كل كائن مستمدا من سواه ، فاختلاف الليل والنهار بقرب الشمس وبعدها فى البروج الشمالية والجنوبية يدعو الى اختلاف الحرارة والبرودة فى الأقطار المتباينة وهبوب الرياح ، فترى الأمطار تتساقط من السماء تبعا لنواميس الحرارة والبرودة المسخرين لناموس الأفلاك وسير الشمس فى البروج فتنشأ ممالك النبات والحيوان والانسان من ذلك الماء وتهب الرياح فتسير السفن كما تسير السحب ، ولكل قوانين فى سيره ، فترى السفن لن تتجاوز مارسم الملاحون فى رسومهم من الخطوط البحرية ، ولن تعدو السحب طريقها المرسوم لها بالنواميس الطبيعية رحمة للناس ، وهذا جميعه مرتبط بالعلويات ، وكيف تسير السفن إلا بالقوانين البحرية المستخرجة من علم الأفلاك ومراقبة الأطوال والعروض والنجوم ، وسير الشمس ، وملاحظة الأجرام العلوية وتمغطس الابرة المتجهة الى القطبين ، أم كيف يتحرّك السحاب إلا بالرياح وهى المسخرة بالحرارة المنبعثة من الأجرام العلوية فرجع الأمر كله الى أصل نجم عنه فرعان كلاهما له فروع ، الأصل اختلاف الليل والنهار بالحركات الفلكية ، والفرعان القوانين المودعة فى الأجرام العلوية والحرارة المنبعثة على الكرة الأرضية ، ومن الأوّل نشأ فرعان : سير السحب وسير السفن بالقوانين البحرية لأجل التجارة وتبادل المنافع بين الأمم فيأخذ الشرقى ماينبت فى الغرب ويأكل الغربى ماينبت فى الشرق ، ومن الثانى فرعان : إثارة الهواء والماء فحرّك الهواء السحاب والسفن وتبخر الماء بالحرارة فعلا فى الجوّ فهبط ماء على اليابسة وكان الحيوان والنبات منه ، وهذه صورته :



فترى هذا العالم على هذا النسق كرة واحدة وشكلا واحدا يحتاج أدناه الى أعلاه والأعلى مفيد للأسفل والأسفل مستمدّ من الأعلى مستفيد منه كما ظهر فى هذا الشكل ، واذا كان هذا شكل النظام الذى فى عالمنا فمن الأقرب للعقول أن نهج النظم الأخرى على هذا النمط ، وعليه أصبح هذا العالم لدى العلماء والمفكرين كجسم واحد له روح وقلب وأعضاء متحركة وحرارة ، وهل دورة المياه والرياح لمسخرات ودورات الشموس والأقمار إلا كما يدور الدم فى أجسامنا ، فاذا أبصرنا بعقولنا أدركنا العالم كانسان واحد وحيوان واحد له رأس

وأعضاء رئيسة ومرءوسة « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » ولا يعقل هذا إلا من درس من كل فنّ طرفا ثم مزج العلوم وربطها ثم وازنها فهناك يدرك هذا القول ، ولاجرم أن الجسم الواحد مدبره واحد فارتباط العوالم واستمدادها يدل أن مدبرها واحد .

وتأمّل كيف يقول : « وإلهكم إله واحد » الخ ثم يعقبه بهذا الشكل المنتظم من الكائنات الصائرة مزاجا واحدا ، فهاهوذا يقول : إلهكم واحد ، ولن تستشعروا هذه الوحدة إلا اذا قرأتم العلوم وعشتم بها وصوّرت فى عقولكم شكلا منظما كما وضعناه فتدركون مزاجه وجسده ومنه تعرفون أن المدبر واحد ، ولقد رأيت علماء اليونانيين يطنطنون بأن العالم واحد ، و يبرهنون ببراهين قاحلة يابسة خالت من العلوم والحكمة على عادتهم فى مثل ذلك وقسموه أعراضا وأفلاكا وجواهر ، ثم يقولون : لن يمكن فى العقل وجود سوى ما رأينا ، فاذا كثرت العوالم فهى من هذه الأجزاء ، ولم أرهم يحومون حول ارتباطه الطبيعى ، ههنا دعا الله الناس للدين بالعلوم الكونية كما دعاهم أوّلا بها فى قوله : « ياأيها الناس اعبدوا ربكم » ومابينهما كان مناضلة اليهود بالحجة وتأسيس دين الاسلام على قواعد إبراهيم ، ومن هذا نحكم كيف أصبح المسلمون أبعد الأمم عن مطالب القرآن ومقصوده .

ايضاح الكلام على قوله تعالى : و إلهكم إله واحد الخ

أما الواحدانية فقد عرفناها فيما رأيت من النظام فى أحوال العالم فيما ذكرته فى هذا المقام ، وأما الرحمن الرحيم ، فقد مرّ الكلام عليهما فى أوّل الفاتحة ، وأما الكلام على السموات ، فقد تقدّم فى الكلام على قوله تعالى « ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ سبع سموات » ، أما الكلام على الأرض .

فاعلم أن كرة الأرض طبقات ساف فوق ساف متلبدة مختلفة التراكيب والخلقة .

فنها صخور ، وجبال صلبة ، وأحجار وجلاميد صلدة ، وحصى ملس ، ورمال جريشة ، وطين رخو وتراب لين وسباخ وشورج كل منها مختلط بالآخر أو مجاوره ، قال تعالى « وفى الأرض قطع متجاورات » ، وهذه القطع مختلفات الألوان ، والطعوم ، والروائح ، والمنافع ، ومن طينها وترابها ، وأحجارها ، وجبالها حمر و بيض وصفر ، وخضر ، وزرق اختلفت اختلاف الألوان المكوّنة للون الشمس المشرق عليها ، فقبل بعضها الحمرة و بعضها الصفرة ، وهكذا كما قبل قوس قزح تلك الألوان خلالها ، قال تعالى « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدوابّ والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إنّ الله عزيز غفور » ، ومن طينها وترابها ماهو عذب المذاق ومرّ الطعم ، أو مالح ، أو عفص ، أو حلو ، أوحامض ، ومنها ماهوطيب شمها ومنتن رائحتها ، ثم ان الأرض بجملتها كثيرة التخلخل ، والتجاريف والعروق ، والجداول ، والأنهار داخلها وخارجها كثيرة الأهوية والمغارات والكهوف ، وهذه مملوءة من المياه والبخارات ، وتكون طعوم تلك المياه ، وروائحها ، وغلظها ، ولطافتها ، وثقلها ، وخفتها بحسب تربة بقاعها وطين مكانها ، ووجود قرار مستنقعاتها ، وفيها من المعادن مايتكوّن فى الطين والتراب ويتمّ نضجها فى سنة أوأقلّ ، كالكبريت ، والملح ، والشب ، والزاجات وماشا كلها ، ومنها مايتكوّن فى قعر البحار ، ولايتمّ نضجها إلا فى سنة أو أكثر منها كالدّر والمرجان ، ومنها مايتكوّن فى كهوف الجبال ، وجوف الأحجار ، وخلل الرمال ولايتمّ نضجها إلافى السنين الطوال كالذهب ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص ، ومنها مالايتكوّن إلا فى آماد طويلة كالياقوت والزبرجد والعقيق وماشاكلها .

واعلم أن الناس على قسمين خاصة وعامّة ، فالعامّة لايعرفون من المطالب إلا مايحتاجون إليه من طعام وشراب ، ولباس ، ومسكن ، ودواء ، فالجوع ، والعطش ، والعرى ، والمرض التى تحدث لهم تلجئهم إلى طلب تلك المطالب ، وذلك الالجاء بما جبلت عليه النفوس الحيوانية عامّة من الاحساس بالآلام لفقد مايحفظ الحياة

من

من غذاء ودواء وحرارة وما أشبه ذلك ، وهذه الآلام يظنها الجاهل نقمة ، وهى فى الحقيقة نعمة وموهبة لسائر الحيوان لتحفظ أجسامها ويبقى كيانها ، وهذه المطالب اشترك فيها الحيوان والانسان ، وكذلك النبات ، وهناك مطالب شريفة ومنازل عالية نام عنها الحيوان والجهال وأغرم بها وعشقها الحكماء وأكابر الرجال ، ألا وهى مطالب العقول من العجائب والبدائع والنظام الجميل والجمال الابداعى ، فهذه المطالب غابت عن أبصار الجهال ، واشتاقها العلماء ، ولأضرب لك مثلا بالأرض التى ذكرنا بعض عجائبها ، ان الجاهل لايعبأ بها ويراها أمرا لاقيمة له مزدراة لانه لايفرح إلا بالممنوع عنه ، أما المبذول له الحاضر بين يديه فانه مبتذل مكروه منبوذ ، وكلما كثرت النعم وحضرت كان الشكر عليها أقل والفرح بهامعدوما ، وكلما تباعدت المطالب ، ووعرت طرقها كان الفرح بها والشكر عليها موفورين ، فالأرض والهواء وضوء الشمس وجمال النجوم والأنوار حاضرة عند الناس ، وهى النعم العظيمة والمواهب الكبيرة ، بل السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، والعقل والبصر كلها نعم مبذولة ، ولكن أكثر الناس لايعدّونها نعمة ، ولا يفرحون بها ، ولا يشكرون إلا بما تعسر ثم نالوه من طعام وشراب ودينار وامتياز الانسان عمن حوله بثوب ، أوملبس ، أوصاحب ، أوحبيب ، أوساطة عليهم الى غير ذلك ، وعلى ذلك ترى الأرض لايلتفت اليها الجهال ولا يعدّونها نعمة ، وغاب عنهم هذا الجمال البديع الذى يخرج منها ويصدرعنها ، فتلك المروج ، والنباتات ، وألوانها ، وبدائعها ، وتلك المعادن واختلافها والمياه وأنواعها كلها من نعمة الله فى خلق الأرض ، ولا يزال العالم يبحث فى عجائب أحجارها ومعادنها ويستخرج منها مواد البناء ، ومواد الصباغة ، والمعادن ، والأحجار النفيسة حتى تشرف نفسه بالعلم ، وتتحلى بالعرفان ، فالأرض منها الغذاء ، ومن النظر إليها العلم والعرفان ، والشكر للمنعم الحكيم العليم ، ولا يزال يرتقى فى العلم ، حتى يعرف أنها كوكب من الكواكب جارية كما تجرى تلك الكواكب السيارة ، وإذ ذاك يعرف أن ضوء الشمس اذا أشرق عليها انعكست أشعتها على عوالم أخرى : بل ان ضوء الأرض المنعكس منها على القمر يزيد عن ضوء القمر المنعكس منه على الأرض ، نحو أربع عشرة مرة ، وتصنع الأرض مع القمر من استقبال وتربيع وتثليث ومحاق مايفعل القمر مع الأرض ، فانظر كيف ارتقى العالم من النظر فى أحجارها ورمالها وألوانها ، وأنهارها ، وبحارها ، ومعادنها ، واختلاف مزارعها الى أن أدرك أنها من السيارات ، وعرف أنها مضيئة مشرقة اشراق الكواكب ، ورأى أن غيرنا ينظر اليها ويحنّ ويشتاق أن يرى ذلك الضوء البديع المنعكس منها الذى عكسه الماء المحيط بها ، والحصى ، والرمال ، والجبال ، فان الأرض عبارة عن كرة أحاط بها الماء ، وما اليابسة الاثلاثة أعشارها ، وهذه اليابسة فيها رمال وأحجار وثلج متراكم فوق الجبال ، وفى مناطق القطبين ، وكل ذلك يعكس ضوءا لامعا الى الكواكب الأخرى .

اتحاد المطالب الدينية والدنيوية فى هذا التفسير

اعلم أن هذا الذى أذكره فى تفسير القرآن قد اتحدت فيه مطالب الدين والدنيا والعقل والنقل كما اتحدت أضواء الشمس السبعة فصارت لونا واحدا فأشرقت الأرض بها ، ولقد أكثر الناس من قولهم هذا ينافى الدين ، وهذا ينافى العقل ، وذلك ناجم من قلة العلم ، ووفرة الجهل ، فمن جهل شيئا عاداه ، فالمتبحر فى العلوم ينفر من الدين لجهله به ظنا انه ينافى علمه ، والعالم بالدين الجاهل بما حوله الغافل عن خلق السموات والأرض وعجائبها يظنّ المسكين أن من عرف هذه العجائب كان عدوّ الله وان الله يغضب عليه ، ومادرى المسكين أن هذه السموات وهذه الأرض من خلق الله ، والله لايحب المعرض عن التفرج على صنعه ويحب المفكرين ويقول : ان فى خلق السموات والارض الخ . فانظر أيها الفطن كيف غفلت الأمم وعميت البصائر ، ووقع فى القلوب خلاف الحقائق ونام كثير من العقلاء أحقابا فى غفلاتهم تائهين فى سكراتهم كأنهم لايشعرون ، وذلك

النظر قد جمع المطالب الدينية ، والمطالب الدنيوية فأصبح ارتقاء الأمة فى دينها ودنياها وسعادتها بين الأمم ومغالبتها للفرنجة فى أوروبا ولأهل اليابان والأمم الشرقية ولأمريكا موقوفا على التبحر فى تلك المطالب ، وهى بعينها المخرجة للحكماء ، وللعلماء العارفين ، والأولياء ، وهى هى دين الاسلام ، فياحسرة على المسلمين ، ووا أسفا على ماضاع من شباب وشيب فى هذه الأمة ، وعلى أمم داستها الفرنجة وأذلها الطامعون لجهالة وعاظهم وظلم ملوكهم وغفلة عقولهم ونومهم أجمعين أكتعين أبصعين .

الكلام على اختلاف الليل والنهار

أما اختلاف الليل والنهار فانه ظاهر خفى : ظاهر للعقلاء خفىّ عن أنظار الغافلين ، يختلف الليل والنهار باختلاف الطول والعرض ، وذلك أن الشمس فى شروقها وغروبها تأتى على الأماكن الشرقية قبل الغربية ، وهناك يكون الاختلاف العجيب ، فاذا أشرقت أو غربت على الأقطار المصرية أوّلا مثلا ، فانها تفعل ذلك بعدها ببلاد مراكش ، فبحر الظلمات فأمريكا ، فالأقطار الشرقية كالهند والصين وهكذا ، ولكل دائرة ٣٦٠ درجة تقسم باعتبارها وللأرض درجات طول ودرجات عرض ، فدرجات الطول هى المشرقة المغربة ، ودرجات العرض تعتبر من خط الاستواء الى القطبين ، ثم ان خط الاستواء الذى يقسم الكرة بقسمين متساويين جنوبى وشمالى تقطعه دائرة وسط فلك البروج وهى دائرة عظمى مائلة على خط الاستواء بثلاث وعشرين درجة ونصف ، وهذه الدائرة تمتدّ الى دائرتين متوازيتين موضوع كل منهما على البعد بثلاث وعشرين درجة ونصف عن دائرة الاستواء وتسميان المدارين ، وهناك دائرتان قطبيتان تبعدان عن القطبين بثلاث وعشرين درجة ونصف ، وبهذه الدوائر تنقسم الأرض الى خمس مناطق : منطقة شديدة الحرارة ، ومنطقتان معتدلتان ومنطقتان شديدتا البرودة ، فالحارّة هى التى بين المدارين : مدار السرطان ومدار الجدى ، وهؤلاء يسمون أرباب الظلين ، لأن الشمس تارة تكون شمالهم كأولئك الذين فى السودان المصرى ، فيكون ظلهم إذ ذاك جنوبيا وتارة تكون جنوبهم وراء خط الاستواء فيكون ظلهم شماليا ، والمنطقتان المعتدلتان هما ما بين الدائرة القطبية الجنوبية ومدار الجدى جنوبا وما بين دائرة القطب الشمالى وما بين دائرة السرطان شمالا ، وهؤلاء لا تكون الشمس فوق رءوسهم ألبتة ، فيسمى هؤلاء أرباب اختلاف الظلّ لأن أرباب المنطقة المعتدلة الشمالية يرون الشمس فى الجنوب كأهل مصر وتونس ومراكش وأهل أوروبا وأرباب المنطقة المعتدلة الجنوبية كبلاد الرأس التابعة للانجليز وما والاها من البلدان يرون الشمس فى الشمال أبدا . فأما أرباب المنطقتين القطبيتين فيسميان أرباب الظلّ الدوّار ، وحركة الشمس عندهم كدوران الرحا ، والظلّ فى زمن صيفهم يدور حولهم .

والمهمّ فى هذا المقام أن نبحث فى اختلاف الليل والنهار . انك اذا نظرت الى حركة الشمس الظاهرية من المشرق الى المغرب ألفيت ما كان صبحا عند قوم هو نفسه ظهرا وعصرا ومغربا وعشاء ونصف ليل عند أقوام آخرين . فالشمس فى كل لحظة فى غروب وشروق وزوال وضحى ونصف ليل ، فاليوم بأكمله موجود أبدا . وهذا يعرف بأدنى تأمّل عند من درس قليلا من مبادئ علم الجغرافيا أو علم الهيئة . واذا نظرنا الى حركة الشمس السنوية بحسب الظاهر وهى تنقلها فى البروج وأنها تبعد تارة وتقرب أخرى منا فانها تعطى أياما على طول السنة مختلفة باختلاف الأقطار ، فأقصر الأيام قد يكون ساعة أو أقلّ ، وأطول الأيام يكون نصف سنة ، وأعدل الأيام ١٢ ساعة ، فالاعتدال فى الأيام عند خط الاستواء وأطول الأيام فى المنطقتين القطبيتين فالليل عند هؤلاء ستة أشهر والنهار ستة أشهر ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ السنة يوم وليلة فهى ستة أشهر مظلمة

وستة أشهر مضيئة ، فأما الأيام فيما بين خط الاستواء ومابين الدائرتين القطبيتين فانها تختلف من ١٢ ساعة إلى ٢٤ ساعة فتكون ١٢ ساعة عند خط الاستواء و ٢٤ عند الدائرة القطبية ، ثم تأخذ الزيادة فى الدائرة القطبية من ٢٤ ساعة الى شهر فشهرين الى ستة أشهر عند القطبين أنفسهما .

أوليس من العجب العجاب أن الشمس اذا جرت الأرض حولها تنظم حركاتها بنظام يتبعه هذه الحكم العجيبة ، فترى الصيف عند أهل الشمال كأهل مصر وأوروبا يكون شتاء عند أهل الجنوب كبلاد [الناتال] ، فترى السنة كلها فى وقت واحد حاضرة الصيف والشتاء والربيع والخريف كما كان فى ملاحظة الأيام فجر ومغرب وعشاء ، ثم يترتب على هذا الاختلاف فى الحر والبرد من النبات والحيوان والسحب والأمطار والرياح ومن المنافع والعجائب ماتخر له العقلاء سجدا ، وانظر : لوأن الشمس بقيت فى مكان واحد لاحترق ولم يعش فيه حى ، وتأمل ذلك وكيف يقول الله : « قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ولأذكرلك جدولا تعرف منه كل نهار وكل ليل من خط الاستواء الى القطبين مع ملاحظة أن أقصر وأقل مدة للنهار هى بعينها تكون لليل فى ذلك المكان وكذلك فى الأطول .

أقاليم يقع فيها التفاضل بنصف ساعة

أقاليم	ساعات	دقائق	عرض أرفع المتوازيات درج	دقائق
١	١٢	٣٠	٨	٣٤
٢	١٣	٠	١٦	٤٤
٣	١٣	٣٠	٢٤	١٢
٤	١٤	٠	٣٠	٤٨
٥	١٤	٣٠	٣٦	٣١
٦	١٥	٠	٤١	٢٣
٧	١٥	٣٠	٤٥	٣٢
٨	١٦	٠	٤٩	٢
٩	١٦	٣٠	٥٢	٠
١٠	١٧	٠	٥٤	٣٠
١١	١٧	٣٠	٥٦	٣٨
١٢	١٨	٠	٥٨	٢٧
١٣	١٨	٣٠	٦٠	٠
١٤	١٩	٠	٦١	١٩
١٥	١٩	٣٠	٦٢	٢٦
١٦	٢٠	٠	٦٣	٢٣
١٧	٢٠	٣٠	٦٤	١٠
١٨	٢١	٠	٦٤	٥٠
١٩	٢١	٣٠	٦٥	٢٢
٢٠	٢٢	٠	٦٥	٤٨
٢١	٢٢	٣٠	٦٦	٧
٢٢	٢٣	٠	٦٦	٣١
٢٣	٢٣	٣٠	٦٦	٢٩
٢٤	٢٤	٠	٦٦	٣٢

أقاليم يقع فيها التفاضل بشهر

أ ليم	أشهر	درج	دقائق
١	١	٦٧	٢٣
٢	٢	٦٩	٥٠
٣	٣	٧٣	٣٩
٤	٤	٧٨	٣١
٥	٥	٨٤	٥
٦	٦	٩٠	٠

هذا الجدول تعرف منه اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان فى الربع الشمالى من المسكونة ، فاذا كان الليل يساوى النهار وكل منهما ١٢ ساعة عند خط الاستواء فى نحو الكنغو وسومطره وغينيا الجديدة فان كلا منهما يزيد وينقص ساعة واحدة تقريبا فى أطراف الهند والصين وساعتين فى القاهرة وبعض البلاد الفارسية وبلاد السند وثلاث ساعات فى البحر الاسود وقرب القسطنطينية والبلاد المحاذية لها ، و ٤ ساعات تقريبا فيما يقرب من باريس وبرلين ونحو ذلك ، و ٥ ساعات فى بحر الشمال وماوالاه ، و ٦ ساعات فيما وراء ذلك و ٧ و ٨ و ٩ ساعات شمالى بحر البلطيق . وفيما بينه وبين رأس الشمال تصل زيادة كل منهما الى ١٠ و ١١ و ١٢ ساعة ثم يكون كل منهما شهرا فشهرين فى جنوب جزائر جرونلنده و ٣ و ٤ أشهر فى شمالها ثم فى القطب يكون كل منهما ٦ أشهر فيكون ليل القطب الجنوبى نهار القطب الشمالى ، ونهار القطب الجنوبى ليل القطب الشمالى وكل منهما ستة أشهر ، ثم اذا كان النهار فى مصر مثلا ١٤ ساعة فى زيادته كان فى نقصه ١٠ ساعات وهكذا الليل فهناك عدل تام فى الاضاءة والاظلام وعلى هذا فقس . ألا تعجب من هذا النظام الجميل وكيف ازدانت الأرض بهذه الأنوار المتلألئة المتألقة لبهجة المناظر أفلا ينظر الناس لهذا الجمال البارع والعدل والقسط والحكمة الباهرة ، اختلاف عظيم وعدل تام ، يكون الليل ١٣ ساعة عند زيادته فى البلاد التى حول البحر الاسود مثلا ، وشهرا فى أطراف جزيرة جرونلنده ثم يجىء النهار فى نوبته فيصل الى تلك الزيادة عينها أى ١٣ ساعة فى الأوّل وشهرا فى الثانى فيكون فى السنة ليلة هى شهر تام ، ونهار هو شهر تام ، وهذا هو العدل الحقيقى العملى « الشمس والقمر بحسبان » ، « والسماء رفعها ووضع الميزان » ، « إنا كل شىء خلقناه بقدر » ، « وان من شىء إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم » ، « والله يقدّر الليل والنهار » .

هذا الاختلاف باعتبار العرض ، فانظر الى الاختلاف باعتبار الطول فسأوضحه لك فأقول بعد الاجمال السابق :

اذا طلعت الشمس على آفاق مصر مثلا كان لها بعد طلوعها بالخليج الفارسى وماحوله ساعة وفى بلاد فارس ساعتان ، وفى السند ثلاث ساعات ، وفى غرب بلاد الصين أربع ساعات ، وفى أواسط بلاد الصين ٥ ساعات . وفى شرق بلاد الصين والبحر الأصفر ٦ ساعات . وفى بلاد اليابان ٧ ساعات . وفى شرق استراليا ٨ ساعات . وفى كاليدونيا الجديدة بالمحيط الهادى ٩ ساعات . وفى جزائر الملاحين بالمحيط الهادى ١٠ ساعات . وفى جزائر سندويش بالمحيط الأكبر ١١ ساعة . وفيما بين جزائر سندويش وكاليفورنيا من المحيط الأكبر ١٢ ساعة .

وعلى هذا اذا طلعت الشمس بمصر أول فصل الربيع الآتى ذكره قريبا أوالخريف كانت غاربة بين هاتين الجزيرتين بالمحيط الأكبر . ويكون قد مضى بعد غروبها ساعتان فى كاليفورنيا وغرب الولايات المتحدة و ٤ ساعات بالبلاد الواقعة حول خليج المكسيك وشرقى الولايات المتحدة و ٥ ساعات عند نيويورك بالولايات المتحدة . وست ساعات بناحية الأرض الجديدة شرقى أمريكا الشمالية و ٨ ساعات بالمحيط الاطلانطيقى غربى أوروبا . وعشر ساعات بباريس وجبال أطلس بالغرب و ١١ ساعة فى طرابلس والصحراء الكبرى

هذه هى الصورة التى يراها المفكر فى اختلاف الليل والنهار ، فبينما المصرى ينظر الشمس مشرقة فى أفقه يكون السندى والصينى فى وقت الضحى . ومن فى كاليدونيا الجديدة وقت العصر . ومن فى كاليفورنيا ساهرا مع صحبه . ومن فى نيويورك قد نام نوما عميقا . ومن فى طرابلس قام لصلاة الصبح .

واعلم أن ماذكرته لك من هذه الساعات لا يكون تاما من كل وجه إلا فى ٢١ مارس وفى ٢٣ سبتمبر من كل سنة لأن الأول أول فصل الربيع والثانى أول فصل الخريف . وهما اليومان اللذان يعتدل فيهما الليل

والنهار

والنهار . ثم ان أول الصيف ٢٢ يونيه وأول الشتاء ٢٢ ديسمبر . والأول يكون أطول أيام السنة كما أن الثانى يكون أقصرها والليل على عكس النهار « يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

عجائب العلم والسياسة فى القرآن

كما اختلف الليل والنهار اختلفت الدول والممالك ، فالأوّلان بالزيادة والنقصان ، والآخرون برفعة قوم وضعة آخرين . لقد سبق القول أن الشمس تشرق على أهل الشرق ، سائرة الى أهل الغرب ، جارية الى المحيط الاطلانطيقى ، ساعية الى أمريكا فالبحر الأعظم هناك فبلاد الشرق ثانيا ، وانه اذا نام قوم بإظلامها استيقظ آخرون بإضاءتها ، هكذا نرى العلم والحكمة والمدنية جرت مجرى الشمس ، ساعية بإذلة جهدها مجدة مشرقة على أهل الشرق فكانت الحكمة فى الهند ومصر ومابين النهرين فى أمم الكلدان والآشوريين والبابليين ، ومن أهل الشرق كالمصريين انتقل الى اليونان ومنهم الى الرومان ، ثم لما خمدت حركة النوع الانسانى قرعتهم قارعة الدين الاسلامى ، فأحدثت رجة عظيمة أطارت النوم من جفن الانسان ، وقضت على سير الحوادث القديم ، وأبدعت طريقا آخر بعد أن ضربت بإحدى يدى الدين دولة فارس وباليد الأخرى الروم ، ثم أحدثت هذه الحركة نارا حامية ولهبا ، فأما جمرها فبقى فى الشرق عند الأمم الاسلامية مدفونا فى عاداتهم وأخلاقهم الترابية ، وأما لهبها فاندلع الى أمم الغرب فأحرق الأفئدة ، وتأججت نيرانها ، وسعت الى نيل العلم والمدنية ، وشدّت إليها الرحال ، وأخذت تلك النار تمتدّ حتى طارت منها شرارة فعلقت بأذيال أمريكا والجزائر فى البحار ثم تخطت المحيط وعلقت بأذيال أمة شرقية كرة أخرى وهى اليابان ، وهاهى ذه تعيد سيرتها الأولى ، فهى تتخطى الى أفغانستان والهند والصين وبلاد سيبريا وبلاد الفرس والترك ومصر وسوريا ، ومعلوم أن المدنية والعلم لا يكونان فى الشرق والغرب على حدّ سواء ، فاذا زادا فى أحدهما نقصا من الآخر ، والذى يظهر أن الشرق اذا ارتقى هذه المرّة يأتى بالعجب العجاب ! لأن الغرب ليس منبع العلوم والحكم والمدنية .

ولقد وصل لنا من العلم عن قدمائنا أن العلم قد اعتنى به من الأمم الهند والفرس والكلدانيون والسريانيون والعبرانيون والروم وأهل مصر والعرب ، وأما بقية الأمم من يأجوج ومأجوج وبرطاس والخزر وجيلان وكشك والصقالبة والبلغر والروس والبربر ، وأصناف السودان والحبشة والزنج فلم تكن لهم عناية بالعلوم . وكانوا يسمون ملك الهند : ملك الحكمة ، وملك الصين : ملك الناس ، وملك الترك : ملك السباع ، وملك الفرس : ملك الملوك ، وملك الروم : ملك الرجال .

ولقد عرفنا أن مدينة « رومة » بنيت قبل قيام أغسطس أول ملوك القياصرة بنحو ٧٢٥ سنة على ماقيل فتكون تلك المدينة حديثة العهد جدا كما أن اليونان قد تعلموا من المصريين ، فأما فى بلاد الشرق فقد ظهر الكشف الحديث ، وأبان أن مدنية الهند لا يعرف لها أول ، فقد جاء فيه أن [سوريوشيدانتو] الفلكى الهندى الذى نسب فلكيو عصرنا أرصاده فى وضع النجوم وسيرها الى زمان لا يقلّ عن ثمان وخمسين ألف سنة قد تكلم عن أسفار [الفيدا] وانها كتاب قديم العهد جدا .

وقد جاء فى كتاب خطى كشف حديثا تاريخه قبل المسيح بأربعة آلاف سنة [فى عهد الدولة الرابعة] أن أبا الهول كان مطمورا تحت التراب ، ومنسيا منذ أجيال عديدة ، وقد كشف فى ذلك العصر على سبيل المصادفة ، ويقولون : ان التقاليد المصرية فى الكشف الحديث لم يوقف على مبدئها بل هى متوغلة فى القدم أكثر من ثلاثين ألف سنة كما أثبته العلامة [مانيتون] وقد ورثها المصريون من شعب منقرض هو الجنس الأحمر الذى منه هنود أمريكا ، وكان انقراضه بعد حروب هائلة ، وحصل إذ ذاك فى الأرض انقلاب عظيم

طبيعى ، ومن آثار هؤلاء المنقرضين [أبوالهول] الذى كانوا بنوه على شاطئ البحر الأبيض الملتصق إذ ذاك بالبرّ ، وهذه هى آراء العلامة [ليبلونجون وسافيـل] فى أمريكا الوسطى و[روازل وجو با نفيل] فى بلاد [الاتلانت] وهؤلاء عرفوه بطريق البحث والتنقيب فكشفوا ذلك وهو عجيب ، والذى يهمنا فى هذا المقام أن أهل الشرق هم أعرق الأمم فى المدنية ، ألاترى أنه ظهر منهم الديانات والحكمة والحكماء مثل [كونفوشيوس] و[بوذا] وأمثالهما والأنبياء كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وأوروبا لانبىّ منها ولاسابقة علم معروفة قبل الرومانيين واليونانيين الذين هم تلاميذ المصريين ، فثبت من هذا أن العلم قد استدار كما استدار الزمان ، وقد بدا دور الشرق بعد الغرب ، ولعلك بهذا تدرك السرّ فى قوله تعالى فى سورة آل عمران « قل اللهمّ مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير ، تولج الليـل فى النهار وتولج النهار فى الليـل وتخرج الحىّ من الميت وتخرج الميت من الحىّ وترزق من تشاء بغير حساب » .

وتعجب كيف ذكر ادخال الليل فى النهار وادخال النهار فى الليـل عقب ذكر عزّ الدول وذلها واعطاء الملك ونزعه ، وهذه الآية سيأتى ذكرها عند آية الكرسى من بذور القرآن التى ألهم الصالحون أن يقرءوها فى الأوراد ليفطن لها الخلف ، فيرون أمثال هذه المعانى النبيلة الشريفة ، ولعلّ الذى حفظ السماء أن تتداعى أقطارها حفظ علومها أن يدركها الغافلون إذ قال : « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » اهـ

الكلام على قوله تعالى : والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس

هذه نعم جليلة ، وآيات عظيمة تلك السفن الماخرات فى اليمّ الجاريات فى البحر ، والأنهار العجيبة الصنع الجارية من الشرق الى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب الموصلة منافع الناس ، وأقواتهم من بلد الى بلد ، ومن قطر الى قطر ، وبها التجارة ونقل الذخيرة ، والأخبار من أمة الى أمّة ، حتى ان أهل الكرة الأرضـية بهذه السفن أصبحوا كأنهم فى بلد واحد ، وأشبهوا هذا العالم كله فى أن كلا لكلّ مساعد ، والحق أن الوحدة شاملة لأهل الأرض كما هى شاملة للعالم كله ، والناس صائرون للاتحاد شاءوا أم أبوا ، وما الحروب والعداوات بينهم الا كما يقع الهضم فى الطعام فى جسم الانسان ، ولقد أخـذ الانسان يقترب بالأسلاك البرقية والعلوم والمعارف ، ومن عجائب السفن أنها تحمـل المدافع والحديد وأنواع المعادن وصنوف البضائع ، وهى تجرى فوق الماء ولا تغرق الالعارض ، واعلم أن هناك ناموسا ثابتا عاما به حفظ الله السفن من الغرق ، وأعطى السمك قوّة بها يطفو ويرسب ، وتلك القاعـدة أن الجسم اذا كان أخف من الماء المساوى له فى الحجم فانه يطفو ، وان كان أثقل منه كالحديد فانه يرسب ، وان كان مساويا فانه يكون بسطح الماء عند العوم فكانه ماء ، وهـذه هى التى أعطيت للسمك من المواهب العجيبة فللسمكة منفاخ تجده داخلها اذا شرحتها ، وهذا المنفاخ مملوء هواء ، فاذا أرادت أن تطفو على سطح الماء نفخته فكبر حجمها فطفت ، وان أرادت أن تنزل الى أسـفل ضغطت على ذلك المنفاخ فصغر حجمها ، فنزلت إلى أسفل لانها صارت أثقل من الماء المساوى لحجمها ، وهكذا تعلو وترسب على حسب حاجتها كما يضيق الانسان عينه ، ويوسعها على حسب النور قلة وكثرة ، وعلى هذه القاعدة جرت السفن فى البحار ، فاعلم أن السفينة الشراعية الجارية فى الأنهار اذا وزناها هى وما عليها كانت مساوية للماء الذى حلت مكانه فى البحر فان أثقلناها حتى زاد وزنها عن وزن الماء المساوى لحجمها غرقت ، والسفن الحاملات للمدافع والذخائر والبضائع على هـذا النمط فى البحار العظيمة الاطلانطيق ، والاطنـدى ، وبحر الصين ، والبحر الهـادى ، والاساطيل الجاريات كلها على هذه القواعد جاريات ، وكل سفينتين جاريتين فان نسبة سعة مقعر إحداهما الى سـعة مقعر الأخرى كنسبة ثقل إحداهما الى ثقل الأخرى ، ومعلوم أن حاصـل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسطين ، وهنا تكون النسبة الهندسية .

وأما

وأما قوله تعالى : وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها و بثّ فيها من كلّ دابة فاعلم أن الله عزّ وجلّ جعل اتحاد الماء بالعناصر الأرضية سببا لخروج النبات المختلف الأشكال والألوان والأزهار والأثمار ، فكان منه الرياض والجنان والرياحين والبهجة والرونق والحسن والجمال ، ومن عجب أن يكون الماء والأرض والحرارة باتحادها تحدث هذه العجائب التى لا يعرف آخرها ولا يدرى منتهاها .

والنبات منه الشجر والنجم والزرع والكلأ والحشيش ، وكلّ واحد متنوّع أنواعا كثيرة ، الشجر كلّ نبت يقوم على ساقه منتصبا أصله مرتفعا فى الهواء و يدور عليه الحول لايجف .

وأما النجم فهو كلّ نبت لايقوم أصله على ساقه مرتفعا فى الهواء ، بل يمتد على وجه الأرض أو يتعلق بالشجر و يرتقى معه فى الهواء كى يحمل عنه ثقل أثماره كشجر الكرم والقرع والقثاء والبطيخ ، واعلم : أن جميع النبات والشجر لايختلف الا لاختلاف المواد الداخلة فى تركيبه ، فترى القطن والقمح والبرسيم من البوتاسا والصودا والجير والمغنيسيا ، وحمض الفوسفوريك ، وحمض الكبريتيك والسلكا والكلور ، و إنما صار هذا قطنا نلبسه ، وهذا قمحا نأكله لاختلاف المقادير الداخلة فى تركيبها ، فقوله تعالى « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » ليس يستوعب علمها الا علماء اختصوا بهذه المباحث ، وسيرد عليك فى هذا الكتاب شذرات من هذه العجائب عند قوله تعالى « أو كالذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك » الآية فسترى هناك عجائب الكيمياء العضوية ، وكيف اختلفت المظاهر لاختلاف التركيب ، والمقادير إن الله سريع الحساب .

ولكن لابدّ أن أوقفك على بعض العجائب العامية هنا ليكون كالمقدّمة ، لما سأذكره هناك من مسائل الكيمياء العضوية ، وكيف كان اختلاف النبات لاختلاف التركيب فنقول : اعلم أن الله عزّ وجلّ خلق المادة ونوّعها أنواعا وأجناسا وفصائل ، فجعل منها النبات والحيوان ، وهما ممالك باهرة ، فمن نبات لا يكاد يرى وحيوان دقيق لاتدركه الأبصار الا بالمنظار الى شجر النخل ، وشجر الغابات العظيم ، والى الفيل عظيم الجثة كبير الجسم هائل القوّة ، و بين ذلك من الغرائب مايحير العقول حتى أنك لتجد أعلم الناس وأقدرهم على علوم الحكمة يقف مبهوتا حائرا أمام البقة والفيل ، ترى الناس يتعجبون من خلقة الفيل اذا رأوه ، وهم قد حملوا أبناءهم على العربات الى الحدائق التى فيها الحيوان لحديقة الجيزة ببلاد مصر ، و يقولون تفرج يابنىّ على هذا الفيل ، والأب والأمّ والخادم يضحكون ويفرحون و يمرحون ، وهم غافلون ، ولا يعرفون الا أن الفيل كبير الجثة له أربعة أرجل وخرطوم ونابان خارجان ، وقد فاتهم أن البقة الحقيرة القذرة الدنيئة المنزلة التى ينفر الانسان من منظرها وتؤذيه فى فراشه ، وهى من الدلائل على أن منزله قذر مع صغر حجمها أعجب خلقة وأظرف صورة ، فلهاستة أرجل ، وخرطوم ، وأربعة أجنحة ، وذنب ، وفم ، وحلقوم ، وجوف ، ومصارين وأمعاء ، وأعضاء أخر لايدركها البصر ، وهى متسلطة على الفيل بالأذية ، ولايقدر عليها ، ولا يمتنع بالتحرز منها ، وأيضا فان الصانع البشرى يقدر أن يصنع فيلا من الخشب والحديد والذهب وغيرها ، وهو عاجز كل العجز عن صنع بقة ، فثبت أن صنع البقة أدقّ وأظرف من صنع الفيل ، وفى الحيوان ، وفى النبات من العجائب مالا يدركه سائر الناس مهما عاشوا دهورا وأجيالا ، وتلك العجائب من نوعين على الأرض ، وكم عليها من معادن ، وأنهار ، و بحار ، وفوقها من هواء ، وسحب ، و يدور معها كواكب ، وشموس كلّ ذلك من المادة الأصلية فى الكون ، فنقول : لايقدر الناس أن يتصوّروا كيف خلق الخلق من مادة واحدة الا بمثال من أنفسهم وشاهد من عقولهم .

مثل المادة فى تنوعها كمثل الصوت وتنوعه فى الهواء

علم الله ضعف الانسان فألهمه أن يحرك الأسنان والشفتين والفم بالهواء الداخل والخارج لاصلاح الدم الفاسد فى الرئتين ليعطى له الأكسوجين ويأخذ بدله المادة الفحمية المسماة بالكربون فحين دخول النفس بالشهيق وخروجه بالزفير يحدث الانسان فيه حركات تسمى حروفا ، وهى تختلف باختلاف الأمم ، وهى فى العربية ٢٩ حرفا تتركب من تلك الحروف كلمات فتحدث الخطب والشعر والنثر والحكم والمواعظ والتفاهم والتجارات والسياسات والمنافرات ، وكتب الديانات والعلوم والمعارف ، هذه هى النتائج التى نظمت نوع الانسان وعلمته البيان ، وهى ليست شيئا سوى تنوّع فى الهواء الجوّى الذى له أعمال كثيرة غير هذه فانه كما قلنا دخل فى الرئتين للاصلاح : أى ادخال المادة المصلحة للدم مع أنه ترسم فيه صور المرئيات ، فيرى الانسان الاشباح والصور التى تأتى للأعين من المرئيات ، وفى الهواء الحرارة والبرودة والرائحة الطيبة والخبيثة ، وفيه بخار الماء الذى يكوّن السحب ، وهكذا الرياح ، وهو يحمل السحاب ، ويسير السفن فى البحار فليست صفة الكلام فى الانسان أوّل أعمال الهواء ولا آخرها ، بل من تنوّع الهواء تكون الموسيقى المطربة لقوم الشافية لآخرين المعلمة لقوم يعقلون ، إذا فهمت هذا فاعلم أن هذا مثل ضربه الله للناس لعلهم يعقلون كيف خلق العالم من مادة واحدة ليستدلوا على وحدته وقدرته ، وليعلم الناس أنه حاضر رحيم فمن رحمته هذا المثال .

اعلم أن المادة كما هو رأى علماء العصر الحاضر واحدة ، يقول علماؤنا الأقدمون ان جميع هذا العالم من الهيولى ، والهيولى كلمة عربية ، معناها القطن ، وانما سموها بهذا الاسم ، لان القطن يصلح لملابس شتى كثيرة التنوّع ، وقالوا هذه المادة الأصلية لا يمكن رؤيتها ، بل هى شىء أشبه بالأمور الروحية هذا كلامهم ، وقالوا أيضا ان هذا العالم أصله مادة واحدة متماثلة أشبه بما نرى ان الطعام بعد تناوله يصير فى المعدة كيموسا متشابه الأجزاء أشبه بمادة اللبن ، فهذه المادة المتشابهة فيها جميع مايصدر عنها من الأعضاء والحواس ، ففيها مادة العين ، والأنف ، والمخ ، والمصارين ، والبطن ، والجوف ، وهى تجمع مع لطافتها وتشابهها ما بين العظم الصلب ، وما بين الرطوبة الزجاجية فى العين ، ومادة المخ هذا كلام قدمائنا ، فهكذا يقولون ان المادة التى خلق الله منها العالم كانت هكذا واحدة ، ولكن قد كمن فيها الشمس والقمر والأرض والمعدن والنبات والحيوان .

أما علماء العصر الحاضر فقالوا نحو هذا ودققوا أشد تدقيق فقالوا ان أصل العالم مادة سديمية دارت وتكوّرت على مدى السنين فكان منها تلك الشموس والارضون الخ ومنها العناصر ، بمعنى أن الموجود المسمى بالأثير مما لاتراه العيون ولاتدركه الأوهام هو الاصل لهذه الموجودات وهذا الأثير الذى هو أرق من النور وألطف من الجمال وأقرب الى أن يكون شيئا روحيا كما قال أسلافنا منه تكوّنت المادة والكهرباء والمغناطيس وفيه الحرارة والضوء ، فهذه كلها صفات وتنوّعات فى المادة الاثيرية والمادة التى منها تكوّنت ، وبعبارة أخرى هى حركات من حركاتها لايدرى كيفيتها ، قد شكلت الى عناصر كالحديد والنحاس والذهب والفضة والراديوم والاوكسوجين والأدروجين والأوزوت والكربون . وبالجملة تلك العناصر تبلغ فوق السبعين نوعا كما تنوّعت الاصوات الخارجة من الفم فى المثال المتقدم الى الحروف الهجائية بحسب اختلاف الأمم فبلغت بتركيبها الى نحو أربعة آلاف لغة ذات فروع شتى وكلها ترجع الى تنوّعات الهواء فى الفم ، وبعبارة أخرى لاشىء سوى الهواء المتحرك فهذه العناصر المادية تركبت منها هذه المخلوقات التى نشاهدها على الارض بنسب محفوظة وحساب متقن ونظام بديع حارت فيه العقول ، وقد وصلنا الآن الى ما نقصده من عالم النبات ، والحيوان فانها عبارة عن تفنن فى المادة كما كان من الاصوات عجائب وبدائع ولم تزد عن كونها حركات فى الهواء ، فهكذا

هنا

هنا نرى أن جميع أنواع الحيوان والانسان تتركب من العناصر المتقدمة كما تركبت الكلمات من الحروف ، ومن طوائف النبات تكون المروج الواسعات والرياض الغناء تسر الناظرين وتحير المفكرين كما رأيت فى الكلام من الخطب والشعر والمقالات فالرياض الناضرات والمروج الواسعات شعر المادة كما كانت أقوال المتنبى وعمرو بن كلثوم وأشعار هوميروس وشكسبير شعر الهواء . ولعلك تقول كيف يكون النبات والحيوان من عناصر واحدة ؟

أقول : قد قدمت لك هذا القول وسأزيدك بيانا فأقول :

قد أثبت علماء الكيمياء أن النبات والحيوان يتركبان من الموادّ التى ليست حية وأخصها الاوكسوجين والأودروجين والأوزوت والكربون و بعض أملاح أخرى ، وهذه العناصر الاربعة بمقدار تنوّع المقادير فيها تتنوّع النباتات والحيوانات وأعضاؤها وأجزاؤها فيكون منها الدم والشحم والصفراء والاعصاب ومادة الدماغ والعود الاخضر والورق والثمر والحنظل والتمر والبرتقال والزيت والصمغ فلا حلاوة ولا حموضة ولا دسومة ولا مرارة الا كانت مشتقة من تلك المواد الجامدة ، و بعبارات أخرى هى كلمات من تلك الحروف لم تزد فى المادة شيئا فلا تزال المادة واحدة واختلاف المظاهر وقتىّ كاختلاف الكلمات والقصائد فى الهواء الجوّى

ان عصير العنب لايحوى خمرا ولامادة الخمر وهو (الكحول) انما يحوى ماء وسكرا فاذا تخمر انحلّ جزء من السكر وانفصل عنه مافيه من الاكسوجين والأودروجين والكربون وتتركب هذه بمقادير جديدة بنسب معلومة محدودة كالنسب التى ستراها عند قوله تعالى «وانظر الى حمارك» فى مسألة العزير وعند مسألة الطير وسيدنا ابراهيم الخليل ، واذن ينشأ عنه المادة الخرية المسماة (الكحول) فيصبح عصير العنب خمرا بدون أن يزاد شىء أو ينقص كما صار الهواء خطبا وقصائد بكونه صوتا وحروفا ولم يزد فى الهواء شىء ولم ينقص ، والخبز والفواكه التى نأكلها لاشىء من الدم فيها ولا اللحم ولا العظم ولا العروق ثم هى عند الهضم تتحوّل الى ذلك ، وهكذا الحب والنوى ليس فيهما من الورق والزهر شىء ولكن الامتصاص من العصارات الارضية والتنفس بهما يحدث تفاعل فتكون النتائج الباهرة ، لعلك أيها الفطن بهذا تعرف السر فى قوله تعالى «قل لوكان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولوجئنا بمثله مددا» فمن هنا فلتفهم الكلمات بالعلم والحكمة « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ومايذكر الا أولوا الألباب » اهـ

ولعلك الآن فهمت السرّ المصون والجوهر المكنون فى العناصر والحروف ، فالعناصر فى المادة والحروف فى الهواء ، فكما كانت لنا كلمات وخطب وقصائد فى حركات الهواء هكذا كان لله عزوجل عناصر تركبت معادن ونباتا وحيوانا وكما كانت اللغات كثيرة العدد وكلامها وقصائدها ليس لها عدّ ولا حدّ هكذا مركبات الطبائع لاتنحصر وكما أن الهواء فيه أحوال وأعمال كثيرة كالروائح والحرارة الخ غير الاصوات هكذا الاثير الذى تكوّنت فيه المادة فيه عجائب ومخلوقات لانعرفها فوق مانشاهد من السموات والارض وما بينهما «ومايعلم جنود ربك الاهو ، ويخلق مالاتعلمون»

ولعلك أيضا تعرف أن هذا التشبيه الذى أطلت لك فيه وجعلت كل مافى المادة أشبه بمركبات الحروف من القصائد والكلمات مأخوذ من قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين» فقوله : اختلاف ألسنتكم اشارة الى علوم اللغات ومافيها من المقالات ، وقوله : وألوانكم اشارة الى العناصر وماتركب منها ، أفلا تتعجب أيها القارىء أن يكون مقالى كله من كلمتين من القرآن وقرنتا معا فى جملة واحدة ليكون ذلك داعيا الى أن أشبه أحد الطرفين بالآخر أليس ذلك من العجب ؟

على أنك سترى ماهو أعجب انه يقول «ان فى ذلك لآيات» أى دلالات «للعالمين» بكسر اللام جمع عالم ، ولم

أرآية فى القرآن على ماأذكرجاء فيها ذكر العالمين على هذا النحو الاقايلا ، فكأنه يقول : ان هذا المقام دقيق لايفقهه الا المحققون فى العلوم الدارسون للعلوم الطبيعية العاشقون للعلم المغرمون بالحكمة ، فتأمل فى عجائب القرآن وكن على يقين أن نبوّة الانبياء لاتعرف عند أولى الالباب الا بمثل هذه الدقائق العلمية وكيف خصّ العلماء بالفهم فى هذه المسألة التى لا تعرف الافى هذا الزمان أشدّ معرفة ، لمثل هذا فليعمل العاملون ، و بمثل هذا فليعقل المفكرون .

عجائب التنوع والتشكل فى المادة الواحدة ايضاحا لما تقدم

وأنها دلائل التوحيد لاختلافها مع وحدة المادة

من المعلوم الشائع فى عصرنا الحاضر أن العناصر التى كشفها العلماء تبلغ فوق السبعين ، وهى مركبة من اجتماع الذرات الاصلية وهى الجواهر الفردة التى رجعت فى آخر أمرها الى حركات وتيارات يقف التعبير عندها لدقتها على العقول ، وهذه الذرات تجرى بنواميس كالتى نراها فى الكواكب والشموس أى انها عبارة عن دقائق جاريات بنسب مخصوصة على بعضها بنظام تام ، وبهذه النسب اختلفت أحوالها ، فالاختلاف فى العناصر راجع الى أنواع حركاتها لاغير ، فاذا رأيت الهواء والماء والحجر الصلد والذهب والحديد فذرّاتها جميعا عند البحث العلمى لافرق بينها من حيث انها متحركات فى أنفسها وان كانت ترى ساكنة فى الظاهر ، وليس المراد بتلك الحركات الهوائية والمائية بل هى حركات الذرات التى لايعرفها الا العلماء الأخصائيون بالبحث والتنقيب ، فتنوّع الحركات المذكورة جعل هذا سما وهذا غير سمّ وهذا أحمر وهذا أصفر وهذا ثقيلا وهذا خفيفا الى مالايتناهى ، ألاترى أن الفسفور أبيض سام سريع الالتهاب فاذا أحميته فى اناء محكم السدّ أو عرضته للنور فى أنبوب لاهواء فيه تغير لونه إلى الحمرة و يفقد خاصية السم ولايلتهب إلابالاحتكاك و إذاحللناه تحليلا كيمائيا لايختلف فى تركيبه عن الفسفور الاعتيادى ، وهكذا نرى الكربون على أشكال مختلفة فى الالماس والجرافيت والانتراسيت والكوك ولكل منها خصائص متميزة عن الأخرى ، فيالله هل يستوى الالماس الجميل المنظر الحسن الشكل الغالى الثمن البديع البهيج الذى يوضع فوق التيجان وتتحلى به الغانيات ، و به و بأمثاله يمتاز أهل الثروة والغنى والملوك عن غيرهم ، والكوك الذى يوقدونه فى أفرانهم وقطراتهم و يملكه الغنى والفقير ، كلا لايستويان ولكن العلم قد أوجب استواءهما وان كلا منهما مركب من الكربون وحده ، فالالماس كربون والكوك كربون لااختلاف بينهما ألبتة فى الحقيقة وهى أنها لاتذوب واذا أحرقت أنشأت حامض الكربونيك ، فأما هذه الاشكال والخواص من اللمعان والبهجة والحسن فى الألماس وضد ذلك فى الكوك فلم تكن الامن تغير طارئ على تحرك الذرات فحسب ، وتأمل فى التباين العظيم فيما بين المركبات وخواصها العجيبة . تأمل كيف اختلفت خواصها مع التركيب وهى واحدة ، فانظر خلاصة التربنتين ، والليمون ، والبرتقال ، والعبيثران ، والفلفل ، والريحان ، والبقدونس ، ان هذه الخلاصات مركبة تركيبا كيمائيا واحدا ، وهوستة عشر جزءا من الاودروجين مع عشرين جزءا من الكربون ، فيالله أين خلاصة الفلفل من خلاصة البرتقال والليمون ، وكيف كان كل منهما مركبا من كربون وأودرجين ، فالكربون معروف فى الكوك والالماس كما تقدّم والاودرجين هو الجزء المتمم لتكوين الماء ، فالأوّل نراه يحترق ، والثانى نراه يميت الحيوان إذا تنفس فيه كما يعرفه من درسوا علم الكيمياء ، وفوق ذلك نرى أن سائر الانسجة الحيوانية والنباتية التى كثرت أنواعها وأشكالها وأوصافها مركبة من أربعة عناصر ، وهى الاكسوجين ، والادروجين ، والكربون ، والأوزوت مع إضافة بعض الاملاح والجوامد .

فتعجب

فتعجب من المادة الواحدة التى رجع أصلها الى حركات كيف كانت بسائطها تتنوّع تنوّعا مدهشا لغير سبب معروف الا تنوّع حركاتها ، وهكذا مركباتها تنحو هذا المنحى كخلاصة البقدونس والفلفل وتركبها من عنصرين وكالحيوان والنبات وأنواعهما المركبات من أربعة عناصر مع مايضاف اليها ، أليس هذا يريك بأجلى برهان فى عصرنا الحاضر أن الوحدة ظاهرة فى العالم المشاهد ، أو ليس أنواع هذه المادة مع وحدتها تعرفنا حكمة الله ، وأن العناصر حروف والمركبات كلمات . والعالم المنظور قصائد وخطب نقرؤها مسطورة على لوح الطبيعة الجميلة البهجة ، أو ليست هذه كلمات الله ككلماتنا فى الهواء فتشابهتا فى أن تنوّعهما بتنوّع الحركات ، فهذه فى أثير ، وهذه فى هواء ، وأن هذا التنوّع عند الله كتنوّع الكلمات عندنا فى اليسر وعدم العسر ، ولذلك جاء فى القرآن «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون» . وفيه «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا» ، وإذا كانت هذه العوالم ناجمة عن مادة واحدة كان فاعلها واحدا فان ناظم القصيدة وقائل الخطبة يكون واحدا فاعلا بأعضاء فمه فى الهواء أفعالا مقصودة ينتج منها ذلك القول المسموع المنتظم ، فهذا العالم المنظم المكوّن من حركات صانعه واحد ، وهذا هو برهان التوحيد ، لأن الآية مسوقة للواحدانية « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » الخ فتعجب من العلم والدين كيف اتحدا وأتيا بالعجب العجاب ، وهذا هو بدء الخلق الذى أمرنا به فى قوله تعالى « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » هذا بدء الخلق وتكوين العناصر والمركبات ، وبهذه الآية يجب على المسلمين أن يعرفوا أصول جميع الأشياء من بسائط ومركبات ، كعلم الأجنة ، وعلم الحياة ، وعلم الكيمياء العضوية والكيمياء التحليلية ، والادام العذاب عليهم فى الدنيا أجيالا لعلهم يعقلون انتهى . انظر تفصيل تفسير « قل سيروا فى الأرض » الخ فى سورة العنكبوت .

لطائف فى علمى الحيوان والنبات

اللطيفة الأولى

شجر النارجيل ، وهو الجوز الهندى هيئة شجرته كهيئة النخل المعروف ويبلغ ارتفاعها تسعين قدما تنبت فى الأقاليم الحارة ولا سيما شواطىء بحورها ، وهى من أعجب ماخلق الله من النبات ففيها لأهل تلك الأقاليم غذاء وكساء ودواء ولبن وخمر وسكر وزيت وشمع وآنية ومساكن ودثر وفرش وحبال وأدوات وأسلحة وغير ذلك .

روى أحد الثقات أن مسافرا كان يجوب رمضاء تلك الأرض تحت أشعة شمسها المحرقة حيث يندر الظل فرأى بيتا تحيط به أشجار باسقة معتدلة الأجذاع على رءوسها أوراق جميلة تسرّ الناظرين ، فدنا من البيت فرأى فيه هنديا رحب به وأتاه بشراب شهىّ فيه طعم حموضة أروى ظمأه وأنعشه ، وبعد أن استراح دعاه الى الطعام فى صحون مختلفة فى جفنة [قصعة] سوداء مصقولة لامعة وسقاه خمرا لذيذا ولم يشرب مثل ذلك قط ، ثم أتاه بحلواء فاخرة ثم بغيرها ، فقال وقد دهش : من أين لك هذه كلها فى هذا القفر ؟ قال من شجرة النارجيل ، فالشراب الذى سقيتك إياه من جوزها قبل نضجه ، واللبن الذى استطبته من ذلك الجوز بعد النضج ، والطبيخ الذى لذّ لك من أوراق تلك الشجرة ، وتلك الخمرة من عصارة زهرها ، ومن هذه العصارة كل ماعندى من السكر ، وكل هذه الصحون والجفان والآنية التى رأيتها على المائدة من قشر جوزها ، وهذا البيت الذى أسكنه منها ، فجدرانه من خشبها ، وسقفه من نسيج أوراقها ، ومظلتى من نسيج هذه الأوراق ، والثياب التى علىّ من خيوط أليافها ، ومن هذه الألياف مناخلنا ، وحصرنا ، وقلاوعنا ، وحبالنا . والزيت الذى نوقده فى مصابيحنا عصير لب جوزها ، ولنا فيها مآرب أخرى ، فدهش المسافر ، ولما همّ بالانصراف سأله

الهندى أن يبلغ كتابه الى صاحب له فى المدينة التى يقصدها ، فقال : من أين لك الحبر والقرطاس ؟ قال من تلك الشجرة ، فالحبر من نشارة أغصانها ، والقرطاس من أوراقها ، فأخذ الكتاب وهو فى حيرة وعجب !

اللطيفة الثانية

نظر فى عمر بعض الأشجار فى اسكتلندا فكان أكثر من ثلثمائة سنة ، وأغرب من ذلك شجرة العندم [دم الاخوين] ويسمى [دم التنين] و[دم الثعبان] فى بلدة تسمى [أوروتاوا] فى جزيرة [تيناريف] احدى جزائر كناريا فى الاوقيانوس الاتلنتيك الذى كان يسمى عند أسلافنا بحر الظلمات من بعض جهاته لايحيط بساقها عشرة رجال يمدّون أيديهم حولها يمس كل منهم أنامل مجاوره بأنامله ، وقد انقضى منذ كشف تلك الجزيرة الى الآن ٤٨٢ سنة والشجرة بحالها ، وقد حسب العلماء الزمان الذى خلقت فيه على حسب نموّ جنسها فقال انها خلقت قبل خلق الله الانسان على الأرض .

اللطيفة الثالثة

من غرائب النباتات النباتات الهوائية وهى أعشاب لاأصول لها فى التربة تتعلق على غيرها من النبات وتتناول غذاءها من الهواء ، وتنمو فى الأقاليم الحارّة ، ومن عجيب أمرها أن زهرها يشبه الفراش والنحل وغيره من أنواع الذباب ، وهو حسن زاه يسحر الألباب ، و يسحر العقل أن يرى الانسان أزهارها على أعالى سوق كالأسلاك يحركها النسيم فيظنها فراشا يحوم على الأشجار ، أونحلا يبغى جنى العسل من الأزهار ، ومن أزهارها مايشاكل الرتيلاء ، ومنها مايشاكل الانسان الى غير ذلك « وفى الأرض آيات للموقنين » .

اللطيفة الرابعة : النباتات المفترسة

وسماها بعض النباتيين بالحامية ، فهذه تتشبث بغيرها من النبات ، وتغتذى بعصارته ، فتعيش على غيرها كما يعيش بعض الحيوانات على بعضها . انظر هذه النباتات وصورها البديعة فى [سورة الرعد] عند آية : يسقى بماء واحد الخ

اللطيفة الخامسة : الفجل والبصل والخس وما أشبهها
والنخل والعبل والسنط وما أشبهها

تأمّل أيها الفطن الذكىّ شجرة الفجل وشجرة البصل من جهة ، وشجرة الخس أيضا ، وشجرة النخل والعبل والتين وما أشبهها من جهة أخرى ، وشجرة تسمى [ثوب السيدة] من جهة ثالثة . تأمّل هذه الأنواع الثلاثة من الشجر ، وتعجب من أوراقها ، أوراقها مختلفة ، فترى ورق الفجل والبصل يتلقى المطر ويجمعه و يرسله الى جذر البصلة والفجلة ، وكذا ورق الخس وما أشبهه ، ينزل المطر فيجد الورق بوضع يصلح معه أن يجد سبيلا الى الاجتماع عند الجذر ، وكأن الورق مساق تصبّ ماءها عند الجذور ، ثم ترى ورق النخل وهو المسمى بالخوص ، وكذا ورق التين والرمان وما أشبهها لاتصلح لجمع المطر لينزل على جذع النخلة وأصل التين والرمان ، لم ذلك ؟ ولم هذا التباين ؟ ورق يجمع المطر ، وورق يفرّقه ، أما الجاهل فانه لايعنيه ، وأما العالم فان له فى كل نظرة حكمة ، وفى كل فكرة علما ، وفى كل نباتة جمالا ، وبهاء وسعادة ونورا . اجتمع المطر فى الفجل والبصل والخس عند رأس البصلة والفجلة والخسة ، لأن الجذور غير متشعبة ولامتفرقة وانما هى متجهة الى أسفل باستقامة ، فلذلك ينزل المطر عليها ليسقيها مجتمعا لاجتماع الجذر . أما فى النخل والعبل فان العروق الضاربة فى الأرض متفرّقة منبثة فى الجهات كلها ، فلذلك وضع الورق على حال لاتصلح لانحباس المطر فيسقط على الجذع ، بل يتفرّق حوله لتفرّق العروق . أما الشجرة المسماة [ثوب السيدة] النابتة فى جبال الألب التى ذكرها اللورد افبرى فى كتابه [جمال الطبيعة] صفحة ١١٣ فان المطر اذا نزل على أوراقها كان له عمل آخر ألا وهو أنه يكون خفيرا لها يحفظها من العطب كالعساكر والجيوش التى تحمى

الملوك

الملوك على العروش ، وذلك أن قطرات المطر أوالندى ترى متجمدة لشدّة البرد تلمع كحبات اللؤلؤ على تلك الأوراق ، فاذا رأتها الحيوانات السائمة كالغنم والغزلان ولت عن الشجرة ولم تقربها لتلك العساكر الجليدية الثلجية المتلألئة المانعة كل مايقرب الشجرة ، فتأمّل وتعجب كيف كان الورق جامعا للمطر تارة ومفرّقا له تارة أخرى وحارسا أمينا حينا ، كل ذلك والمسلمون يأكلون الفجل والبصر والتمر والبرتقال والليمون ، وهم نائمون عن حكمة ربهم ، وعجائب صنعه ، والفرنجة فيها مفكرون ، ياعجبا كل العجب لعالم أضاع حياته فى أقوال جدلية وكلمات لغوية ، وقد أغمض أجفانه ، وهو غافل عن هذه العوالم المشاهدة ، فلتفهم اذن قوله تعالى « و إن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وقوله « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » ، وقوله « وكل شيء عنده بمقدار » .

على نفسه فليبك من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولا سهم

ثم انظر ووازن بين عيون الحيوان فى محاولة الابصار ، و بين ورق الفجل والبصل وأمثالهما فى استقبال ماء المطر لسقى الرؤوس النازلة فى الأرض ، وكيف جعل النور المشرق من الكواكب والشمس والقمر كالقطرات النازلات من المطر كلاهما يخلق له فى الحيوان ، وفى النبات ما يناسبه للانتفاع به ، فبينما نرى أعين الحيوان مدوّرة الشكل محدبة الأعلى حاوية مادة زجاجية ، وأخرى تشبه العدسة المحدبة الوجهين ، وهذه الأشكال فى علم الضوء معدّة لقبول الضوء وجمعه مهيأة لحفظه فترسله إلى ماوراء الحدقة ، وهى الشبكية الموضوعة بنسبة مخصوصة لتقبل الصور التى حملها الضوء ، وتوصلها الى المخ الذى هو الناظر الحقيق ، ولو أنها وضعت أبعد من ذلك أو أقرب لم تظهر فيها الصور فاحتاجت إلى المناظير الزجاجية المعينة على إيضاح الصور واقرارها فوق تلك الاعصاب كما هو معروف عند أطباء العيون فى زماننا ، هكذا نرى ورق الفجل والخس والبصل ، قد وضع على هيئة حافظة للمطر بحيث يسقى الرأس ، ولم يجعل على هيئة مبعثرة له حتى لاتنتفع به أصولها « إنا كل شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » وما أحوج الشبان فى المدارس ، وفى المعاهد الدينية إلى ورود منا هل هذه الحكمة والارتواء منها « وفوق كل ذى علم عليم » .

اللطيفة السادسة : النبات المفترس للحيوان

قد ثبت للخاصة والعامّة أن النبات طعام الحيوان مسخر له ، ولكن لم يدر فى خلد انسان أن الحيوان طعام النبات ، وأن النبات يفترسه بحيل مدبرة وكيد خاص ، فاعلم أن نباتا يسمى [الديونيا] من نباتات أمريكا الشمالية له ورق يشبه مصيدة الفأر ، وفى وسط الورقة مفصل ، وتلك الورقة نابت عليها وبر ويحيط بها شوك ومتى لامست الورقة حشرة أحسّ بها الوبر فانطبقت الورقة حالا عليها ، وخرج منها مادة لزجة قائمة مقام لعاب الانسان لتمتص تلك الفريسة ، فانظر كيف كان المفصل لتتحرك الورقة ، وكيف قام الوبر بالاحساس كبصر الحيوان ، وكيف كان فيها ماهو كالريق وكالعصارة المعدية فى الحيوان انتهى . (والتفصيل الوافى فى سورة الرعد كما قدّمنا)

اللطيفة السابعة : أعمار الحيوان

يقال فى المبدأ المشهور أن عمر كل حى ثمانية أضعاف مدّة نموّه ، فسريع النموّ سريع الزوال ، وما يبلغ الكمال سريعا ينقص سريعا ، وعلى هذا المبدأ يكون فى استطاعة الانسان أن يعيش فوق المائة ، بل إلى المائتين إذا لم تصادفه تلك العقبات فى غذائه وأحواله ، فقد مات أحد الانجليز وعمره مائة وتسع وستون سنة ، وكذلك من آبائنا العرب ، عاش أحد بنى تميم نحو هذا القدر ، وهذا و إن كان لايعقل عادة يصلح فى قدرة الله تعالى أن يتمّ ، والامكان واسع ، ولكن العادة لاتبيح ذلك ، والحيوانات الجاء تعمر أكثر من القرناء ، والجريئة تحيا أكثر من الجبانة ، والمائية والبرية تعيش أكثر من الهوائية ، غير أن الرخمة ، والنسر ، والببغاء ، والغراب تعيش قدر ما يمكن أن يعيش الانسان .

اللطيفة الثامنة : القرود وتقليدها

ان جماعة من أهل العلم كانوا مشتغلين فى أمريكا الجنوبية بما يتوصل به إلى معرفة شكل الأرض فكانوا حين يبعدون عن الأدوات تأتى القرود وتنظر فى المنظار وتنصب الأخشاب وتأخذ الأقلام وتغمسها فى المداد وتخط على الورق ماتيسر .

ومن محاكاة القرد للانسان أنه تفشى الجدرى فى بعض السنين فى قرود بعض الآجام فى أمريكا الجنوبية فاتى [بنكرد] الطبيب بولدين ربط أيديهما وأرجلهما بالحبال ولقحهما بمادة الجدرى أمام قرد كبير حذاءه قرد صغير ، ثم ذهب بالولدين ، وترك مادة التلقيح والأدوات ، فطرح القرد الكبير القرد الصغير وربط يديه ورجليه ولقحه بالمادة كتلقيح الطبيب للولدين ، وحذا حذوه غيره من القرود .

اللطيفة التاسعة : عجائب الحرباء

هذا الحيوان بدنه كالاسطوانة ، وله رأس كبير ، وعنق فاحش القصر ، وذنب طويل كالحية ، وله براثن كمخالب الببغاء ، وهو يتلوّن ألوانا كثيرة ، وتقول فيه العرب [أصور من عين الحرباء] أى أبرد لاعتقادهم أنه يدور مع الشمس ويستقبلها بعينيه ليستدفئ ، وقدرآه الباحثون وراقبوه فوجدوه تارة يجعل جسده أخضر إذا كان على شجرة ، وقد يكون فى حال أخرى أصفر ، وإذا تهيج حصل فى لونه خطوط متقاطعة على ظهره ، ثم تمتد إلى سائر جسمه تقريبا ، فاذادام التهيج صار الجسم كله أسود هذا فى لونه ، أما حجمه فأعجب فتارة يجعل جسمه كأنه فأرة فى زاوية أخذ الرعب منها كل مأخذ ، وتارة ينشر ذنبه ويحنى ظهره ، فيكون كالأسد المزبئر ، وتارة يصير كورقة النبات ، ويرى خط أبيض مارّ ببطنه إلى طرف ذنبه كأنه ضلع الورقة ، ثم يرقّ كالسكين فينكر بذلك أعظم تنكر .

اللطيفة العاشرة : ذكاء الفيلة

مرضت فيلة مرضا شديدا فعالجها أحد العلماء فشفيت وبعد مضىّ خمس سنين رأته فى الطريق فذكرته فأسرعت إليه ، ووضعت خرطومها فى يده كأنها تحييه وتشكره على صنيعه ، ثم نظرته ثانية فدنت منه ومنطقته بالخرطوم كوالدة تضم ولدها بعد فراق طويل ، فانظر إلى عجائب الحيوان والنبات ، واعلم أن هذا وأمثاله مما أمر الله المسلمين أن يعلموه ، وأن يعملوا به فى الدنيا ويرقوا مدنهم فيكونوا شاكرين لله ، ومادام المسلمون لم ينظروا ، ولم يعلموا ، ولم يعملوا فى الحيوان والنبات باستخراج الثمرات والمنافع ، فانما هم كافرون لنعمته غير شاكرين لها ، فهذه من آثار قوله تعالى « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابة » ، واعلم أن الدين الاسلامى كما قال أحد العلماء الهولنديين كان عند أمة تعرفه فى صدر الاسلام فارتقت به ، فلما دخل فى هذا الدين أمم جاهلة عقولها غير ناضجة فهمته فهما معوجا فانحطت ونزلت أسفل سافلين . وها نحن أولاء أبناء محمد ﷺ وتابعيه نفسر القرآن على الوجه الذى نزل لأجله على قدر الامكان ، ونبشر الأمة بأيام سعادتها ، وأن هذا القول وأمثاله من أقوال العلماء سيسرى فى الأمة سريان الضياء والكهرباء ، فالدين ديننا ، وهاهو ذا العلم أمامنا ، واللغة لغتنا فما هى المسلمين وأذلهم الاجهل القائمين بأمرهم الجاهلين باللغة والقرآن الغافلين عن كلام أسلافنا الفضلاء مصابيح الدجى أولى الألباب .

اللطيفة الحادية عشرة

يروى أن واحدا قال لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه انى أتعجب من أمر الشطرنج فان رقعته ذراع فى ذراع ، ولولعب الانسان ألف ألف مرة لم يتفق مرتان على وجه واحد ، فقال عمر بن الخطاب ههنا ماهو أعجب من ذلك ، وهو أن مقدار الوجه شبر فى شبر ، ثم ان مواضع الأعضاء التى فيه كالحاجبين والعينين

والأنف

والأنف والفم لايتغير ألبته ، ثم انك لاترى شخصين فى الشرق والغرب يشتبهان فى الصورة .

اللطيفة الثانية عشرة : تعاون النبات والحيوان

السنط والنمل

هل سمعت أيها الذكى بملك فى قصره يحرسه آلاف الآلاف من الجنود ، وهم يجندلون كل يوم فى ساحات الوغى مئات الألوف من الأعداء يقتلونهم حفظا لشخصه وابقاء لذاته مدى الزمان ، وقد أحاط بقصره منازل خضر يأوى اليها الحراس ، وقد أعدّ لهم من الطعام كل مالذ ، وطاب من ألذ الطعام ، كلا انك لم تسمع به لافى الحقائق ولا فى الخرافات ، ولكن أسمعك الآن حقيقة واقعة مما نشاهده كل يوم ، والناس ساهون لاهون « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » ذلك نوع من السنط المدجج بالسلاح من السهام البيضاء تكون له قرون مجوّفة فارغة ، وعلى ورقه نقط من العسل وحوله آلاف الآلاف من النمل تؤمه للقوت تراها صاعدة نازلة لتأكل الحشرات والديدان والسوس والهوام المحيطات بالشجرة الضارات لها المؤذيات لنموّها وحياتها ، فهذا النمل يجندل تلك الجحافل ، ويميت تلك العساكر ، ويسكن تلك المساكن ، وهى القرون الخضر ، ويشرب ذلك العسل النقىّ ، وقد ذكر العلامة [فورل] أنه كان يرى نحو ٢٨ حشرة فى الدقيقة الواحدة يجلبها النمل لتكون غذاءه ، فانظر وتعجب كيف أصبح النمل فى هذا المقام حارسا للسنط الذى هو أغنى النبات بالسلاح ، وكيف احتاج هذا المدجج القوى البأس إلى تلك الجيوش الجرارة من النمل لتحفظ حياته بقتل أعدائه من الهوام والدود والسوس ، وبهذه الخصلة كان خشب السنط متينا جدا « إنّ ربى لطيف لما يشاء » وهذه من جنود الله . قال تعالى « ومايعلم جنود ربك إلا هو » ثم أردفها بما يفيد أنها مذكرات لنا ، فقال « وماهى إلا ذكرى للبشر » وانظر كيف يقول الله تعالى « وما من دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » ثم أفاد أن هذا كله فى علمه المكنون ولوحه المحفوظ ، فقال « مافرّطنا فى الكتاب من شىء » وقال أيضا « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إنّ ربى على صراط مستقيم » فلا يفتخر الانسان فالله تعالى مع كل نسمة ومع كل نبات « قال ربنا الذى أعطى كلّ شىء خلقه ثم هدى » .

اللطيفة الثالثة عشرة : تعاون النبات والحيوان أيضا

الزهر والحشرات

يطوف المرء فى الحقول ، والغابات ، والأشجار ، والبساتين الغناء ، وجمالها وعجائب خلقها ، وأزهارها الجميلة الفاتنة من أحمر قان ، وأصفر فاقع ، وأزرق زاهر ، وأبيض ناصع ذوات رائحة ذكية عطرية ، وفيها مادة حلوة عسلية ، والحشرات طائفات من زهرة إلى زهرة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهنّ مغنيات فرحات راتعات فى بحبوحة العيش ونعيم الحياة ، فما كان قصارى خيال الشعراء الا أن يتذكروا أحبابهم ، والوجوه الجميلة والقدود ، وأوقات الصفاء والهناء ، هذا مايدور بخواطر الشعراء ، وقد غفلوا عن الحكمة فى تلك الحشرات وطوافها والأزهار وألوانها والعسل فى أسافلها ، وكيف كان بعض الزهر يتفتح ليلا ، وهو بالنهار مغمض الأجفان فاذا جنّ الليل وأرخى سدوله ظهر بلونه الزاهى الأصفر ، وفاحت رائحته ، وعم شذاه العطر ، فاذا ماطلع الفجر رأيته ذابلا لاجمال فيه ، ولا رائحة ، ولا رونق ، فهو كالخفاش ينام نهارا ويقوم ليلا ، وهو نبات اسمه [القطرب] ثم كيف كان بعض الزهر يغمض أجفانه ليلا ويستيقظ نهارا مخالفا للأوّل موافقا للناس وأكثر الحيوان ، فهو بالنهار أنس وجمال ، وبالليل مسدل الستار غافل نائم ، وذلك هو [الأقحوان] ثم كيف كان بعض الأزهار يتفتح عند طلوع الفجر ، فاذا توسطت الشمس خط نصف النهار وقت الظهيرة أقفلت أجفانها ونامت إلى طلوع الفجر من اليوم الثانى ، ويسمونها فى بلاد الانجليز [ياولد اذهب ونم عند الظهر] ومن

الأزهار ماتفتح صباحا فى الساعة السابعة ، وتنام عند الخامسة مساء ، وهو نوع من الهندباء ، يطوف الانسان فى الحقول ، ويرى هذه العجائب ، وهو عنها غافل ، ثم يرى بعض الشجر كالصنوبر والزان والبوداق والسنديان أزهارها صغيرة ولا لون لها ولا رائحة ولا جمال ، فياليت شعرى جمال فتان فى بعض الأزهار ، وعدمه فى بعضها الآخر ، ونوم بالنهار ، ويقظة بالليل ، وعكس ذلك ، مافائدة ذلك كله ، وهل لهذا كله حكمة أم هو مما تموج به الطبيعة موجا بلا عقل يضبطها « ولا هدى ولا كتاب منير » .

أقول : اعلم أن هذا كله قد كشفه العلماء وبحثوا فيه فى عصرنا الحاضر فوجدوا أن النبات فيه الذكور والأناث وذلك كالقرع وقد أتى باللقح الذى فى الزهرة التى فيها الطلع المذكر ووضعه فى الزهرة الأنثى وطنينا عثمان باشا مرتضى وأرانيها فى حديقة قرب المنصورة فوجدت أن الزهرة فى اليوم الثانى قد حملت حملا خفيفا وقال لى ان الناس اذا ألقحوها على هذا المنوال أتت من القرع أضعافا مضاعفة ، وتارة يكون الذكر والأنثى فى زهرة واحدة ، ثم ان الذى ينقل طلع الذكور إلى الاناث اما أن تكون الرياح واما أن تكون الحشرات كالنحل وقد جعل الجمال والألوان الزاهرة فيها لجلب تلك الحشرات وهكذا الرائحة العطرة تشوّقها إلى ورود تلك المناهل ، وأما العسل فى داخل الزهرة فانما جعل ليكون غذاء الحشرة حاملا لها على دخولها فاذا دخلتها حملت على جسمها من ذلك الطلع الذى يرى على تلك الأعمدة التى كأنها مدقات فتطير إلى زهرة أخرى فيقع من جسمها عليها فاذا صادف ان كانت أنثى حملت بالثمرة المطلوبة وذلك الطلع كغبار الدقيق كما يرى فى طلع النخل ، وبهذا ثبت أن الذكورة والأنوثة عامة فى سائر النبات البالغة فصائله خمسمائة ألف .

ولقد بحث العلماء حبات اللقاح فى زهرة النبات المسمى عود الصليب فوجدوها من ٠٠٠ و ٠٠٠ و ٣ إلى ٠ ٠ ٠ و ٠ ٠ ٠ و ٤ أليس هذا مصداقا لقوله تعالى «وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج» ولقوله «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ولما كانت هذه العجائب مدهشة للب مطيرة للفؤاد حتى يتعلق بمن نظم هذه العجائب أردفه بقوله «ففرّوا إلى الله» قد قلنا ان الحشرات هى الحاملة للقاح من الذكور إلى الاناث ولذلك نراها طائفة فى الحقول والبساتين مغنية تجرى فى جوّ من الجمال والآمال تطلب العسل من الزهر وتشرب رحيقه المختوم تخدم أنفسها بالجمال والروائح العطرية وشرب العسل وهى تؤدى عملا نافعا للشجر فانها سبب فى بقاء نوعه ودوام جنسه وكأنها تغنى طربا كما تغنى النساء وهن يزففن العروس إلى بعلها وكأن هؤلاء وهؤلاء فرحات بنعمة البقاء والدوام التى تزف على أيديهن لأنواع المخلوقات ، فاما نوم الزهرات فى أوقات مختلفات فذلك مطابق لعادات الحشرات فالزهرات الساهرات تسهر حشراتها تبعا لها ، والنائمة ظهرا أو عند الغروب تكون هذه العادة نفس عادات الحشرات فثبت اذن أن هنا علما عجيبا ونظاما بديعا وبدائع وأعمالا متقنة ، وليس الالقاح خاصا بالحشرات فان الرياح تلقح كثيرا من الاشجار ، ولذلك ترى أن أزهارها لاجمال فيها ولا بهجة ولا رائحة ذكية ولا عسلا فان الريح لاتحتاج لشىء من ذلك ، وانما تؤدى عملها بلا شهوة ولا عقل فترى شجر السنديان والصنوبر والزان خاليا من جمال الزهر والحلية والزينة فان ذلك كله لاتحتاج إليه الريح ولا تعقله ولو أنّ الحشرات كانت موصلة للطلع فى تلك الاشجار لجمل الزهر وحسن شكله وظهر عسله وذكت رائحته فان الله تعالى لايخلق الأشياء الا لحكمة ولا حكمة فى جمال لا ناظر له ، ولا فى طعام لا آكل له ، ولا فى رائحة لاشامّ لها وهو هنا الرياح ، أوليس هذا مصداقا لقوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح » أولست ترى معى أن المسلمين قد قصروا وزادوا فى التقاعد والتقاعس والنوم والغفلة ، أوليس هذا من مقتضى دينهم ، وكيف يفوز الفرنجة بمعرفة الحقائق التى نطق بها كتابنا وهم لايعلمون أنها فيه ونحن أجهل منهم بحقائقه ، أفلست ترى أن المسلمين أولى بهذه العلوم وأحق بها ، اللهم انى نصحت أمتى وعملت جهدى وما كتمت العلم ، اللهم نور

بصائر أولى الألباب فيها ، وأرهم رشدهم ، واجعلهم نورا وهدى للعالمين .
وسترى فى « سورة الحجر » عند قوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح » عجائب الازهار والقاحها مما يدهش الألباب . وفى « سورة الشعراء » عند قوله تعالى « أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » فهناك ترى جنة عالية قطوفها دانية من المعارف الجيلة والمحاسن البهجة الشارحة للصدور ، المرقية للعقول . ولنختم الكلام فى هذا المقام ونبتدئ الكلام على :

تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض

اعلم أن كل هواء هبّ فانه يسمى ريحا ، ومن عجب أن السرعة فى الرياح على مقدار ثقلها فاذا كان ثقلها على القدم المربعة ٧٢ و ٠ من الدرهم كانت سرعتها ميلا فى الساعة وان كان ضغطها ٨٨ و ٢ من الدراهم كذلك كانت سرعتها ميلين واذا كانت ٤٨ و ٦ كانت سرعتها ثلاثة أميال ومعظم سرعة الريح المسماة زوبعة واعصارا والمسماة زعزعا وزعزاعا وزعزعانا ٨٤ ميلا فى الساعة الواحدة للاولى وواحد وتسعون ميلا للثانية وفى النادر أن تجرى فى الساعة مائة وعشرين ميلا أو أكثر .

الزوبعة أو الاعصار

ريح تصعد فى السماء بالمواد كأنها عمود تثير الغبار والسحاب وقد تخرب الديار وتقلع الاشجار وتحملها وتذرو أثمارها فى الآفاق فيظن الناس أن السماء أمطرت أثمارا وقد تحدث على وجه المياه وترتفع بعض حيواناتها فتمطر ضفادع وأسماكا وهى نتيجة ريحين عظيمتين متقابلتين متضادتين وقد يحدث بسببها أن يثور من السحاب مخروط معكوس تدور به فينحدر من الجوّ وتثير من البحر مخروطا مستقيما ، فاذا تلاقى المخروطان حدث ماتسميه العامة بالتنين ، وقد يكون قطر المخروط مائتى قدم .

عجائب السحاب وحكمه

تعجب كيف كان السحاب ليس يرتفع عن وجه الأرض فى الجوّ أكثر من ستة عشر ألف ذراع وان أقرب ما كان مماسا لوجه الأرض وذلك نادر فى بعض البلدان إذ لوكان السحاب فى كل وقت وفى كل بلد مماسا لوجه الأرض لأضرّ ذلك بالحيوان والنبات وأمتعة الناس كما يرى ذلك يوم الضباب وفى البلدان القريبة من السواحل مثل البصرة وانطاكية وطبرستان لقربها من البحار فبينما الناس فى غفلاتهم إذ فاجأهم الطلّ والمطر والضباب حتى يضيق الصدر ويأخذ النفس وتبتلّ الثياب والامتعة ولوكان السحاب دائما قريبا من وجه الأرض لأضر الرعد والبرق أبصار الحيوان وأسماعها ولوكان بعيدا شديد الارتفاع فى الهواء حتى لايرى لكانت الامطار والثلوج تأتى مفاجأة والناس والحيوان عنها غافلون لايتحرزون فيكون الضرر عاما كما قال تعالى « وان من شيء الاعندنا خزائنه وما ننزله الابقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وماأنتم له بخازنين » فتعجب كيف كان السحاب يأتى غالبا عند الحاجة إليه وليس يكون بعيدا جدا فلا نحترس منه ولاقريبا جدا حتى نستضرّبه فبعده وقربه بحساب وكثرته وقلته بحساب ولودام متواصلا لقتل الخلائق « وكل شيء عنده بمقدار » وانظر كيف جعل الله بعض الاماكن يقلّ فيها المطر ولاأنهار فيها لتكون فاصلا بين الممالك والقارات أولتكون ملتجأ ومأوى للفارين من الظلم وتكون ملطفة للهواء منقية لجفافها والالتعفن بتواصل العمران ولم يكن هناك خلاء نقيّ . ولما كانت هذه العجائب لايفهمها إلا العقلاء قال تعالى : « ان فى خلق السموات إلى قوله لآيات لقوم يعقلون » .

السحاب والسفن يجريان بالبخار وبالكهرباء

ذكر الله الفلك فى هذه الآية وذكر السحاب والرياح ولقد تشاركت السفن والسحب فى أنها جميعا تجرى بالرياح وبالكهرباء ، لقد أضأت لنا يا ألله السبل وأريتنا العجب وأسبغت علينا النعم فأريتنا السحاب تجرى بالرياح مسخرات فى جوّ السماء والهواء يسوقها لسقى الأرض فيخرج النبات ويحيى الحيوان . ولقد جعلت بحكمتك الأرض والجبال وطبقة الزمهرير الباردة أشبه بالحمام فالشمس المشرقة المحرقة الساطعة على البحار أشبه بالنار فى الحمام وماء البحر أشبه بالماء الذى يسخن فيه ، والبخار الصاعد من البحار فى الجوّ أشبه بالبخار الصاعد فى الحمام ، والجبال الشامخات المانعة للسحب أن تهيم على وجهها بل تحبسها فتسقى المروج والبطائح وراء الجبل كحيطان الحمام الحافظة للبخار ، والزمهرير الذى يعلو إليه البخار فيبرد فيتجمع ماء فينزل مطرا أشبه بسقف الحمام يتراكم عنده البخار الصاعد فيتساقط ، سبحانك ربنا أريتنا أن الجبال أشبه بالسدود وبالحبوس وهى التى يسميها العامة فى مصر بالخزانات تصدّ الرياح الجاريات بالسحب حتى لاتجاوزها فتحبس المطر أمامها فيسقى الزرع ويدرّ الضرع والجبل كما يحفظ الماء فى السحاب أن يجاوز البطائح التى أمامه ، هكذا نراه قد خزن الماء فى جوفه الذى ينزل من المطر أومن الثلج الذى سطعت عليه الشمس فذاب قليلا قليلا وخزن فى باطنه ثم برد فكسر الصخر كما ذكرناه قبلا فكان منه العيون الجاريات وبها تكون الأنهار ، فالجبل حفظ الماء فى الهواء وفى باطنه .

اطلع بعض المغرمين بالعجائب على السحب من فوق الجبال الشوامخ ، فرأوا أن السحابة قد تبلغ قاعدتها عشرين ميلا مربعا وسمكها ميل ، ورأوا السحب صاعدة من الحضيض جارية الى تحت أقدامهم ، ومن السحب مالايزيد سمكها عن عشرين قيراطا ، وأدنى السحب ماكثرت فيها الكهرباء ، ومسير السحب الرياح غالبا ، وكثيرا ماشوهد زمن سكون الرياح سحائب صغيرة متقابلة تجاذبت وكانت إحدى المتقابلتين كهربائيتها موجبة والأخرى سالبة فتقابلتا بذلك التجاذب . فانظر كيف أمر الله الكهرباء أن تقوم بتسيير السحاب اذا ركدت الرياح فجرت تلك السحب ، ثم كيف كانت السفن فى البحار تجرى بالرياح كالسحاب واستعملت الكهرباء أيضا فى تسييرها وجريها فى البحار ، أفليس حب الله الذى سأشرحه لك فى المقال الآتى يوجب على المسلمين أن يأخذوا بأسبابه ، وأسبابه كما سترى هو العلم بما صنعه المبدع الحكيم ، والانتفاع به ، وقبول نعمه بالعمل ، ويكون ذلك هو الشكر ، أرسل الله سبحانه الكهرباء فسخرها ، فجرى السحاب ، فجاء الانسان ونظر صنعة ربه فقلده ونقلها الى السفينة . ان ذلك يا ألله قبول منا لهديتك ، وشكر لنعمتك ، ألا وانى أشهد أننا معاشر المسلمين مقصرون فى حبك ، والاطلاع على عجائبك ، والولوع والغرام بمصنوعاتك .

جرت السفن فى البحار تارة بالرياح وتارة بالبخار وآونة بالمجاديف التى يقاوم الانسان بها الماء فتسير الى الأمام ووقتا سلط الانسان الطاقة الكهربائية المتولدة من الطاقة [الميكانيكية] [الحيلية نسبة لعلم الحيل] لما يسمونه بخار التربية على محركات السفينة وهى المجاديف أوالرفاصات ، وقد أسفر ذلك عن نجاح باهر كما ذكرته المجلات الانجليزية ، فجرت السفن كما جرت السحب بالكهرباء وبالرياح والبخار المتولد من الماء والحرارة بالفحم أوغيره كالهواء فى ضغطه فهو ملحق به معنى ، فسبحان الذى علم الانسان مالم يعلم ، ولقد جعلت يا ألله حركات الماء كلها بركات فاذا جرى فى الأنهار كانت قوّة اندفاعه من أعلى كما فى خزان [سداوعرم] اسوان بمصر فيها قوّة لواستعملت لولدت كهرباء أجرت جميع القطرات فى البلدان ، ولأنارت جميع القرى والمدن ، ولأغنتهم ولكن ما كل مايتمنى المرء يدركه ، فالحركة تولد الكهرباء بحيل علمية كما تكون منها الحرارة ، ومن الحرارة

الضوء وهكذا ، والماء بلطافته يندفع بخارا فيجرى السفن والقطرات ، فهو ماء مبارك ونعم عظيمة « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

ولقد جعلت يا ألله هذه السفن الماخرات فى اليمّ فى حاجة الى النجوم السيارة يعرفها العاملون فيها بجداول حتى يلاحظوها فى أسفارهم ومعهم البوصلة وهى بيت الابرة المعروف تكون فيه تلك الابرة المغطسة الناظرة فى اتجاهها الى الشمال والى الجنوب كأنها تقول : اذا غاب النجم الذى به تهتدون كما قال الله : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » فأنا أقوم مقامه ، وأهديكم فى ظلمات البحر ، لأن هداية الله تعمّ سائر الأقطار بالليل والنهار والظلمة والنور ، فعلم الكواكب وتقويمها من النعم ، والبخار من النعم ، والكهرباء من النعم ، وحركات الماء من النعم ، وعموم الكهرباء فى أجسام كثيرة من النعم . كل ذلك والمسلمون نائمون كأن هذا القرآن جاء لغيرنا ، وكأننا من سكان المريخ ، وكأن الذين يعقلون هذه الآيات غير المخاطبين ، فاليك يا ألله أضرع أن تقرّ عينى باستيقاظ المسلمين « ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوىّ عزيز » ، ان ذلك هو الحب ، فالحب والعشق والشوق كلها ترجع للعلوم . ولذلك ذكر آية الحب بعد هذا فقال :

(المقصد العاشر)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ ءامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ * يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءابَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ ءابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ

بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ *

التفسير اللفظي

قال الله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا) أى من الأصنام والرؤساء (يحبونهم) أى يطيعونهم و يعظمونهـم تعظيم المحبوب (كحب الله) كتعظيم الله والخضوع له ، أى يحبون الأصنام كما يحبون الله ، يعنى يسوّون بينه و بينهم فى محبتهم ، لأنهـم كانوا يقرّبون بالله و يتقرّبون إليه ، وقيل : يحبونهم كحب المؤمنين لله (والذين آمنوا أشدّ حبا لله) من المشركين لآلهتهم لأنهم لا يعدلون عنه إلى غيره بحال ، والمشركون يعدلون عن أندادهم الى الله عنـد الشدائد فيفزعون إليه ، وقوله (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب) أى لو يعلم هؤلاء الذين ظلموا باتخاذ الأنداد اذا عاينوا العذاب يوم القيامة (أن القوّة لله جميعا وأن الله شديد العـذاب) لو يعلمون شدّة عقابه للظالمين لندموا أشدّ الندم ، وقوله (إذ تبرّأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) بدل من إذ يرون (ورأوا العذاب) أى رائين العذاب والواو للحال ، وقد مضمرة ، وقيل عطف على تبرأ (وتقطعت بهم الأسباب) وهى الوصل التى كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد ومن الأنساب والمحابّ (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة) لو للتمنى وجوابه (فنتبرّأ منهم كما تبرّءوا منا كذلك) أى مثـل ذلك الابراء الفظيع (يريهم الله أعمـالهم) أى عبادتهـم الأوثان (حسرات عليهم) ندامات وهو مفعول ثان ليريهم ، ومعناه أن أعمـالهم تنقلب عليهم حسرات فلا يرون إلا حسرات (وماهم بخارجين من النار) بل هم فيها دائمون ، وقوله (ياأيها الناس كلوا ممـا فى الأرض حلالا طيبا) نزلت فى قوم حرّموا على أنفسهم أحسن الأطعمة والملابس ، والحلال المباح الذى أباحه الشرع وانحلت عقدة الحظر عنـه ، والطيب قيل المستلذ ، وهذا ليس بجيد ، لأن المدار فى الطعام على نفعه فى الجسم صحة واعتدالا (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) لا تقتدوا به فى اتباع الهوى تحريمـا وتحليلا ، والشيطان هو الشهوة والغضب عند قوم ، أو هو مخلوق حىّ يوسوس للناس وهو ظاهر الأحاديث (إنه لـكم عدوّ مبين) ظاهر العـداوة (إنمـا يأمركم بالسوء والفحشاء) بيان لعداوته ووجوب التحرّز من متابعته ، والفحشاء ما أنكره العقل ، وقوله (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) فى موضع الجر بالعطف على بالسوء أى و بأن تقولوا كأن تقولوا هذا حلال وهذا حرام بغير علم ، و يدخل فيه كل ما يضاف الى الله تعالى ممـا لا يجوز (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله) الضمير للناس وهم المشركون أو اليهود لمـا دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم الى الايمـان واتباع القرآن (قالوا بل نتبع ما ألفينا) وجدنا (عليه آباءنا) فانهم كانوا خيرا منا وأعلم فردّ الله عليهم بقوله (أ) يتبعونهم (ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا) من الدين (ولا يهتـدون) للصواب ، ثم ضرب لهم مثلا فقال (ومثـل الذين كفروا كمثل) بهائم (الذى ينعق بمـا لا يسمع إلا دعاء ونداء) النعيق التصويت ، يقال نعق المؤذن ونعق الراعى بالضأن ، والنداء ما يسمع ، والدعاء قد يسمع وقد لا يسمع ، والمعنى أن الـكفرة لانهماكهم فى التقليد لا يلقون أذهانهم الى ما يتلى عليهم ، ولا يتأملون فيما يقرّر معهم ، فهم فى ذلك كالبهائم التى ينعق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه ، وتحسّ بالنداء ولا تفهم معناه (صمّ بكم عمى) رفع على الذم (فهم لا يعقلون) الموعظة ، ثم بين أن ما حرّمه المشركون حلال بقوله (ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) أى من جيده فى منفعتكم وفيما هو أصحّ لأبدانكم أو حلالاتكم (واشكروا لله) على مارزقكم وأحلّ لـكم (ان كنتم إياه تعبدون) ان صحّ أنـكم تخصونه بالعبادة ، ثم بين المحرّم فقال (إنمـا حرّم عليكم

الميتة)

الميتة) وهوكل مافارقه الروح من غير ذكاته مما يذبح ، أى ماحرم عليكم إلا الميتة (والدم) أى السائل لقوله فى آية أخرى : « أودما مسفوحا » (ولحم الخنزير) أى الخنزير بجميع أجزائه (وما أهلّ به لغير الله) أى ذبح للأصنام فذكر عليه غير اسم الله ، وأصل الاهلال رفع الصوت ، أى رفع به الصوت للصنم ، وكانوا فى الجاهلية يقولون : باسم اللات والعزى (فمن اضطر) أى أُلجئ فأكل حال كونه (غير باغ) للذة أوشهوة أوللاستئثار على مضطر آخر (ولا عاد) متعد مقدار الحاجة وسدّ الرمق ، أوالجوعة ، أوغير باغ على الوالى ، ولا عاد بقطع الطريق ، فعلى هذا لايباح للعاصى بالسفر وهوظاهرمذهب الشافعى وقول أحمد رحمهما الله (فلا إثم عليه) فى تناوله (إنّ الله غفور) لما فعل (رحيم) بالرخصة فيه فيأكل الميتة عند الضرورة شبعا ولا يتزوّد منها ، ومعلوم أن الهدايا والمآكل والرشا التى يقدّمها المرءوسون للرؤساء الذين يضلون عن سبيل الله ليست حلالا كالتى يأخذها رؤساء اليهود ، فلذلك أعقبه بقوله (إنّ الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب و يشترون به ثمنا قليلا) عوضا حقيرا (أولئك ما يأكلون فى بطونهم) أى ملء بطونهم (إلا النار) لأنه اذا أكل مايتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه فكأنه أكل النار (ولايكلمهم الله يوم القيامة) كلاما يسرّهم ولكن استحقوا قوله : « اخسئوا فيها ولاتكلمون » (ولايزكيهم) ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم (ولهم عذاب أليم) مؤلم (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة) بكتمان نعت محمد ﷺ للمطامع والأغراض الدنيوية (فما أصبرهم على النار) تعجب من حالهم فى الالتباس بموجب النار من غير مبالاة (ذلك بأن الله نزّل الكتاب بالحق) أى ذلك العذاب بسبب أن الله نزل الكتاب بالحق فرفضوه بالتكذيب أوالكتمان (وان الذين اختلفوا فى الكتاب) أى فى جنس الكتاب فيقولون فى بعض كتب الله انها حقّ وفى بعضها باطل (لفى شقاق) خلاف (بعيد) عن الحق . انتهى التفسير اللفظى .

إيضاح

اذا قيل للمشركين اتبعوا القرآن جنحوا الى التقليد ، وهكذا اليهود ، وقوله « أولوكان آباؤهم » الهمزة للتعجب ، وهذه الآيات تدعو الى التنفير من الانقياد الأعمى للزعماء ذوى الأغراض الساقطة كملوك الاسلام السابقين فى الدول الاسلامية فان كل من أغرى قوما بما لاينبغى ثم وقعوا فى العذاب إما فى الدنيا بالأسروغيره واما فى الآخرة بجهنم تبرّأ المتبوعون من التابعين وندم التابعون على انقيادهم الأعمى ، وهذا هوالداعى لتأليف مجالس الشورى فى الاسلام ، لأن القادة لاينفعون الناس فى الحساب الدنيوى ولا الأخروى و يقع الذلّ على الأمة ، فتارة يفتكون بالقادة كما حصل فى اليونان أيام تأليف هذا الكتاب قتلوا وزراءهم لما أوقعوهم فى حرب كانت عليهم وبالا . وتارة ينجوالرؤساء كما هوغالب فى العالم مثل [ولسن] فى أمريكا أضرّ بأمته فى الصلح وخانهم ولم يقتلوه ، وقوله « ومثل الذين كفروا الخ » أى مثل داعى الذين كفروا الى الايمان كمثل الراعى الذى ينعق بغنمه وهى لاتسمع إلا دعاء ونداء فهى لاتعقل ، وقوله « إنما حرّم عليكم الميتة » أى أكلها « والدم » وقد كانت العرب تجعل الدم فى المصارين ثم تشويه وتأكله فحرّم ذلك .

هنا أبان أن دين الاسلام دين أساسه العلم ، وعماده النظر ، وسقفه الحكمة ، فمن قلدوا فى أعمالهم وآرائهم فأولئك هم الضالون ، إذ تبرّأ المتبوعون من التابعين ، وقد أحاط بهم العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب وقال التابعون : لقد ظلمتمونا بأقوالكم ، وآذيتمونا بإفككم ، وياليت لنا كرة الى الدنيا ورجعة الى الحياة فنتبرّأ منكم كما تبرّأتم منا ، وهذا المقام سنوفيه حقه قريبا لشدة حاجة الأمة الاسلامية اليه فى هذا الزمان ، وأكثر الناس فى الحياة صمّ عن أن يسمعوا النداء ، عمى فلايستطيعون الاهتداء ، فهم لايسمعون ولا يبصرون

واذا قيل لهم انظروا بعقولكم واتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما كان عليه الآباء ، أيكون ذلك ولوكان الآباء لا يعقلون ؟ ومن ذا الذى يقتدى بالعميان ! قتل الانسان ماأشد جهله ، وأقلّ علمه ، ولعمرك ماحرمت الأنعام وانما حرمت الميتة والدم ولحم الخنزير وماذكر اسم غير الله عليه ، ويحلّ ماحرم من ذلك للمضطر اذا لم يبغ على الرفقة الآكلين فيما يأكلون ولم يجاوز الحد فيملأ المعدة ولا يجتزئ بما يسدّ الرمق فهذان محرم عليهما الرخصة ، شأن الأمم اذا دنا أجلها وذهب مجدها أن تستبدل الترهات بالحكمة وأقوال الدجالين بالعلم كأهل سبأ إذ بطروا هررهم بجانب عرمهم لما أعرضوا عن حكمهم ، وجهلوا نظام العمران ، وهندسة البنيان ، وهكذا العرب الجاهلون لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم نسوا دين ابراهيم ، وماتت عقولهم ، وذلت نفوسهم ، وتخطفتهم الأمم المحيطة بهم من كل جانب لولاحمية جاهلية وشنشنة عربية ، فكانوا يحللون ويحرّمون بغيرعلم ولاهدى ولا كتاب منير ، والمسلمون اليوم حذوا حذوهم ، واتبعوا خطوات غيهم ، واعتزلوا عقولهم ، إلا من رحم ربك ولذلك أنزل الكتاب لهم . ولألخص الكلام فى مقامات ثلاث فى هذه الآيات . المقام الأوّل : الحب ، الثانى : الرؤساء والمرءوسون . الثالث : الحلال والحرام . وهاك بيانها :

المقام الأول : الحب ، والعشق ، والشوق ، ومامعنى حب الله

اعلم أن كل ماحولنا ونشعر به ونعامله بالنسبة لنا ينقسم قسمين : موافق ومنافر ، فكل موافق أحببناه ، وكل منافر كرهناه ، فالحب والبغض تابعان للموافقة والمنافرة ، لافرق فى ذلك بين الطيور فى وكناتها ، والآساد فى آجامها ، والحيات فى أوكارها ، والنحل فى بيوتها ، والناس فى منازلها ، والملوك على عروشها ، والأنبياء والحكماء ، قاعدة عامة لا يشذ منها حىّ فى العالمين . الحرير والورد والعسل ، والصور الجميلة ، والنغمات الموزونة مع الأصوات الحسنة نحبها لموافقتها لحاسة اللمس والشم والذوق والبصر والسمع . والشوك والروائح الخبيثة والحنظل ، والصور القبيحة ، والأصوات المنكرة ، نكرهها لمنافرتها للحواس المتقدمة على الترتيب المذكور . فهذه عشر صور خمس للمكروهات ، وخمس للمحبوبات ، وهكذا سائر ما حولنا من الناس والدواب والمعادن والنبات ملحق بهذه العشرة مقسم الى هذين القسمين .

الخيال والتصوّر

ثم اننا اذا غابت عنا تلك الصور الجميلة ، والنغمات اللذيذة ، والمطعومات الحلوة ، والمشمومات المرغوبة ، فانا نتصوّرها بقوّة الخيال ، ونستحضرها فى العقول ونتذكرها ، ولنا فيها مآرب شتى هناك فنستلذ بحضور صورها كأنها مشاهدة ، أو بالاستنتاج من أحوالها ، أو بتذكر ما كان منها ، وهذه لذة تحاكى لذة الاحساس ولكنها أضعف منها ، وهكذا الصور المكروهة نتصوّرها فتؤلمنا كأنها حاضرة ، ولكن الألم يكون أقلّ لأن هذا خيال وذلك حقيقة .

العلم

ثم اننا لا نقتصر فى الحب على المشاهد فاننا نحب المحسنين فى أىّ ملة ودين ونحلة ، ونحب الشجعان الذين حكيت لنا قصصهم وتواريخهم ، ونحب الحكماء والعلماء وأرباب الجمال وان لم نشاهدهم ، فاننا نرى أن العامّة الذين يسمعون قصة عنترة يهيمون غراما بعبلة وبزوجها ، ولا يهنأ لهم طعام ولاشراب إلا بذكر تلك الأسماء ومدحها واعظامها واجلالها . نرى المتعلمين العصريين يعجبون بنابليون لشجاعته وهمته . نرى فريقا من الناس يحب عيسى ، وفريقا يحب بوذا ، وفريقا يحب موسى ، وفريقا برهمة ، وفريقا كونفشيوس . كل ذلك تابع للعلم بتاريخهم ، والاطلاع على عملهم ، فالشجعان والعلماء محبوبون ، والمحسنون والصابرون والصادقون ،

ان ذلك راجع للجمال العقلى . وكل ذلك لموافقتــه لفطرنا ونفوسنا ، ونحن نـكره الفخر بين للأمم وننفر منهم مثل نيرون وقراقوش الظالمين ، ونـكره الجهال والجبناء والـكسالى ، لأن ذلك لايوافقنا .

وبالاجمال المحبوب والمكروه يكونان فى المحسوس والمعقول بهذا البرهان ، وبهذا تبين أن المحبة والبغض تابعان للعلم ، والعلم إما بمحسوس أومعقول .

العشق

فاذا ماتمادى الانسان فى حب شىء ودام على ذلك ، وغفل عما عداه ، وصارهوهمه الشاغــل له ، كان ذلك عشقا ، فالعاشق يكون مولعا بمعشوقه لايحب أن يفارقه ، والعشق الانسانى الذى هوالمظهرالمحسوس معروف متداول بين الناس ، والجهور لايفهم من العشق إلا هذا المعنى مع أنهم يجدون التاجر الذى نسى كل شىء إلا تجارته ، والصانع ، والمزارع ، والقائد ، والعالم ، والمهندس الذى خلبت الهندسة عقله ، وسلبت لبه ، حتى لايرى أجمل الصورأمامه لشدة شغفه بالهنــدسة ، فنحن نسمى المهندس والطبيب والتاجر والقائد الذين سلبوا حب كل شىء إلاماهم فيه من هندسة وطب وتجارة وحرب نسميهم عشاقا ، إذ القاعدة فى الحب والعشق أن ننظر الى مافضل على ماسواه عند المحب العاشق ، ونقيس نفسه بمن جلس على مائدة وأمامه التفاح والموز فننظر الى أيهــما تمتد يده فلاشك أنه يقدّم عنــد الأكل أشهاهمــا لنفسه فنقول : هذا يحب الموز أكثر من التفاح مثلا ، هكذا اذا رأينا رجلا يحدّث الجليسين ويقبل على أحدهما بوجهه أكثر علمنا أن حبه له أكثر من حبه للآخر ، ونرى الشاب القوىّ البنية له خطيبة جميلة مرغوبة قد يفضــل السفر والغربة الى أوروبا ليحيى قلبــه بالعلم ويتحمل مضض الفراق ، فنحكم بأن هذا الشاب فضل العشق العقلى وهوالرقىّ فى الحياة على العشق الحسى ، علمنامن هذا أن الحب يكون للعلم وللقدرة التى هى الشجاعة وللاحسان وللجمال ، فالعالم محبوب ، والشجاع محبوب ، والمحسن محبوب ، والجميل محبوب .

حب الله

وعندالنظر فى هذه العوالم المشاهدة ، والتأمّل فى جمالها وبهائها نجد هذا الجمال والبهجة والحسن فى الورد والزهر والشمس والقمر والكواكب والنجوم وجميع الصورالجميلة الخالبة للعقول الجاذبة للنفوس انما هى نقوش فى هذه المادة ، والمصوّر لها أجمل منها ، وهى مظاهر ذاته كما يقول الصوفية ، وكما رأيت فى كلام [سبنسر] وهكذا علم العلماء ، وحكمة الحكماء ، ونبوّة الأنبياء ، إنما هى من عنــده ، فهذه العوالم المشاهدة تدلنا أن صانعها أقدر من نابليون وعنترة ، وأعلم من عيسى ومحمد والجمال لعزة وليلى من جماله ، فالجمال له ، والعلم له ، والحكمة له ، والقــدرة له ، ونحن قد قررنا أن الحب يكون على مقدارالموافقة ، ولو أن المحبوب كان جميــل الصورة ، حسن النغم ، حسن الخلق ، عطرالرائحة ، فصيحا ذكيا عالما ، لـكان ذلك فوق كل جمال ، ومن عرف هذه الصفات فيه غاب عقله وفنى فيه وأصبح هائما ، بل ربما سلب لبه وعقله . هذا عنــد المدرك له ، لأن من ذاق عرف ، ومن عرف أحب ، ومن زاد حبه عشق ، ثم يكون الوله والفناء ، فأما من قلّ ادراكه فانه لايعرف إلا على مقدار ماوصله ، ألاترى أن الأعمى لايدرك الصورالجميلة ، والأصمّ لايعرف جمال النغمات فهذان لايمكن أن يعقلا أويتصوّرا صورالجمال وبهجة النغمات ، فالمدار على المعرفة فى المحبة ، ومن جهل شيئا عاداه ، ولذلك نجد الأمم تنشرلغاتها وعاداتها بين الناس لتحب ، فأما المجهول فهومنبوذ ، فمن تحقق فى الله أنه هوالمتصف بالجمال والقوّة والعلم والاحسان ذابت أمامه صورة عزة وليلى ، ورأى عنــده من العلم والقــدرة والاحسان مالايدانيه علم عالم ولانبىّ ولاحكيم ، ولااحسان محسن ، ولاقوّة شجاع ، وحينئذ يصبح هائما فى جماله وعلمه وقوّته واحسانه أكثر من كل جميل عالم مقتدر « وأن الى ربك المنتهى » .

الشوق

قد قدّمنا أن المحبوب اذا غاب عن عياننا حضر بصورته فى خيالنا ، ونقول الآن ان هذه الصورة تحثنا أن نستكمل مشاهدتها لأن حضور الصورة فى الخيال ناقص والنفس تحب أن تمتع بالرؤية التامة ، وهذا هو الشوق ، فالمشوق حاضر بعضه غائب باقيه ، والنفس لاتفتأ تجدّ حتى تستكمل التمتع بالجمال ، وعلى ذلك نشتاق الى المحبوب لنراه ونستكمل المشاهدة وهكذا اذا نظرنا وجه المحبوب تطلعت النفس إلى بقية جماله وماخفى وراء ذلك ، فالمطلوب للمشتاق إما غائب كان حاضرا واما حاضر ستر بعضه ، فهو يودّ استكمال باقيه بالمشاهدة ليكمل له ما أراد .

الشوق لله

ولا جرم أن هذا العالم المشاهد بهجة وجمال وحسن وكمال ، فالكواكب بحساب ، والنبات منظم عناصره الداخلة فيه ، وكلّ شيء بمقدار فى هذا العالم ، ومن ينظر ليلا للنجوم يجد من البهجة والحسن والنضارة مايذهل عقله ، وانما غاب هذا الجمال عن الجهال لأنهم أشبه بالعميان أمام الغادات الحسان ، وبالصمّ عند سماع الأوتار فى أيدى القيان ، ولم تفتق لهم الحاسة التى بها يدركون ، ومن الموانع لمعرفة هذا الجمال أنه مبذول لكل انسان ، ولقد قدّمنا فى هذا التفسير أن أكثر النوع الانسانى عبيد العصا فاذا قرعهم الله بعصاه وأدّبهم وأنزل عليهم البلاء ، ثم نفحهم رحمة من عنده حمدوه لأنهم لايعرفون النعمة الابعد البلاء كالحيوانات العجم ، هكذا لايعرفون الجميل الا إذا اختبأ عنهم وترفع فحينئذ يعزّعليهم و يعظم فى أعينهم ، فاما المبذول لهم فهو مبتذل والسماء وجمالها أجمل من الجواهر واليواقيت والصور البديعة المعلقة فى القصور ، ولكن الناس لجهلهم وقصورهم لايعقلون من الجمال الا ذلك الحقير الذى فى قصورهم أودورهم كالدرة والمرجانة ، ولعمرك ليس فى الأحجار الثمينة من الجمال إلا أثره بالنسبة للكواكب [وقال الامام الغزالى] مامعناه .

ان الناس لايفرحون بالكواكب لأنها مبذولة لهم ، وهى لانسبة بين جمالها ، وجمال الحدائق الغناء فى الأرض ، وتراهم إذا رأوا حديقة قدمنعوا من دخولها ازدحموا عليها لأنهم مغرمون بالممنوع معرضون عن المبذول .

أقول : ولذلك قلّ الأنبياء والحكماء فى نوع الانسان الذين أدركوا الجمال وتفرغوا لهداية الناس فهم المغرمون بالعجائب لأنهم عرفوا واشتاقوا فشوقهم لله يحثهم على البحث فى جمال العالم ولايزالون يجدّون ، وكلما وصلوا إلى جمال طمعوا فيماوراءه ، ولهذا تجد الحكماء يقرءون سائر العلوم ، وهى حقيقة الجمال ، ثم يطمعون فيما وراء ذلك من المباحث بأفكارهم ويجدون لذة لايعرفها سواهم كما لايعرف الأعمى جمال الصور ولا الأصم حسن النغمات ، فهؤلاء مدفوعون بحبّ الجمال هائمون ، وكذلك يريدون أن يستكملوا الجمال فانهم فى هذه الدنيا مغمورون فى المادة يقرءون العلوم ، و ينظرون جمال النجوم ، و يعلمون أن ذلك قشور ، وأنهم بالموت أو بالتجرّد من المادة يطلعون على حقيقة الجمال ولا يزالون يجدّون فى تصفية نفوسهم وتقوية ملكاتهم ، حتى إذا ماتوا وصلوا إلى الجمال الحقيقى كما أن العاشق إذا قابل من أحبه تمتع بالجمال الأكمل ، فههنا طلب العاشق الأمرين : زيادة الاطلاع على الجمال ، وحضور ماغاب من المحبوب كما فى العشق المادى الذى شرحناه [ان الناس] مغمورون فى الجمال من شمس ، وقمر ، وكواكب ، وعلوم ، ورياض ناضرات ، وحقول بهجات ، وأكثرهم نائمون ، فتبين أن حب الله راجع إلى الغرام بالعلم ، والغرام بالعلم رقى الأمم [ونتيجة القول] أن حب الله قليل بين المسلمين لأنهم عن العلم معرضون ، و بالجهل قانعون ، ولقد اكتفى الصوفية الصادقون منهم بمحبة الله الجزئية لاالكلية ، و بالفتوح فى الدوائر التى خلقوا فيها من تهذيب الأخلاق أو نحوها ، وهذا والله قصور وعيب

فالعلم

فالعلم بالتعلم ، وحرام على رجال الصوفية أن يقصروا فى حث تلاميذهم المستعدين على قراءة العلوم الغربية والشرقية ، والتفكر ، والتعقل ، وليكن ذلك على مقدار الاستعداد ، فحب الله يرقى المسلمين ، وبالأعراض عن حبه وجهلهم به أصبحوا عرضة للطامعين ، فأين حب الله أيها المسلمون ، وما الحب إلا نتيجة العلوم ، فأين العلوم ، وأين الحب « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

عجيبة

لعلك أيها الفطن تقول : وهل قوله تعالى « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشدّ حبا لله » يفيد هذا الذى أطلت به .

أقول : على رسلك لماذا جاءت عقب قوله : إن فى خلق السموات والأرض الخ أعنى لماذا ذكرها الله بعد أن ذكر السماء ، والأرض ، والليل ، والنهار ، والسفن ، والنبات ، والحيوان ، والرياح ، والسحب ، هل هذا الترتيب لغير فائدة كلا ، وإنما يقول ان حبى تبع للعلم ، فعلى مقدار العلم يكون الحب فتعجب من الترتيب العجيب ، وبهذا فلتعرف معجزة الأنبياء ، فلعمرك انها لمعجزات دائمة ، وقال ابن الفارض فيمن غرتهم العلوم اللفظية وأعرضوا عن الحقائق :

ولا تك ممن طيشته دروسه ٭ بحيث استخفت عقله واستقلت

وقال شكسبير الانجليزى شعرا ، وقد ترجمته من قبل إلى العربية :

إذا كان هذا الكون يكلؤه الذى ٭ براه فأولاه الجمال وتمما

فما ذا يراه عاقل غير أنه ٭ قصور جنان الخلد رصعن أنجما

وقال سنيكا الرومانى : « ماأعجب أمرك أيها الانسان وما أشدّ غفلتك ، لوأن امرأ وهب لك أيها الانسان قطعة من أرض محدودة لشكرت نعمته ولأوليته حمدا كثيرا ، أولم تعلم أن الله وهب لك الأرض بأقطارها وفجاجها المتسعة الأرجاء البعيدة المدى فهلا شكرته عليها وهلا عرفت نعمته ، ولو أن امرأ وهب لك نقودا من ذهب أو فضة لأكبرت فضله ولأجللته أعظم الاجلال ، أولم تعلم أن الله قد خزن لك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فى الجبال ، أفلا شكرت نعمته وأعظمت آلاءه ، ولوأن امرأ أهدى لك بيتا جميلا فخما لحسبت أنه خير المحسنين ، ولكنت مولاه ورهين إحسانه مدى الحياة ، أفلا تعرف نعمة الله عليك فى هذا البيت العظيم الذى أعطاكه سقفه القبة الزرقاء المرصعة بأجل الدرارى ، وأسفله هذه الأرض التى تسكنها ، ألم تر الشفق والبدر المنير ، قل لى بحقك من أين جاء النورلعينيك ، ومن ذا وهبك الدم فكنت به حيا ، أولم تحس بالجوع فأكلت فعرفت فضل الله عليك ، ألم يهب لك أنواعا من الأنعام ، وأصنافا من الحيوان غذاها بالكلأ وقوّاها بمرعاها ، أيها الانسان احمد الله الذى خلقك ، ولم تكن شيئا مذكورا ، وأخرجك من الظلمات وجعل لك نورا » هذا كلام [سنيكا الرومانى] وذلك كلام [شكسبير الانجليزى] .

أيها المسلمون أفلسنا نقول لهم نحن أحق بالله منكم نحن أرباب الديانات موسى ، وعيسى ، ومحمد عليه الصلاة والسلام ، فكيف يكون منهم من يهيم بفعل الله تعالى ويقلّ فينا مثلهم اليوم ، نقلت لك كلام [سبنسر] وهو فيلسوف الانجليز واللورد [افبرى ، وسنيكا ، وشكسبير] فى مواضع مختلفة ، أفليس المسلمون أولى بالعلم منهم ، هؤلاء عرفوا العلم بعقولهم ، ونحن لنا عقول ، ولنا نبىّ منا ، وقد جاء فى القرآن «يحبهم ويحبونه» وجاء هنا « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشدّ حبا لله » ، وإنما كان الذين آمنوا أشدّ حبا لله لأنهم هم الذين يعرفون العلوم فيدركون جماله ، وأين المدركون الجمال إلا القليل وسيكثر فينا هؤلاء ان شاء الله ، نعم فينا محبون عاشقون لله من طائفة الصوفية ، ولكن يجب أن يكون طوائف

من المسلمين منهم ، أو من غيرهم تدرس هذا الوجود كما درسه غيرنا ، فان التقصير فى ذلك نقص فى حب الله وعيب فاضح فى الأمة « والله هو الولىّ الحميد » .

ومن الغرام بالجمال والعلم والحكمة والنظام الذى امتاز به الناس عن الحيوان وازداد به الحكماء عن العامة ماجرى أثناء تأليف هذا التفسير من ذلك الحادث الجليل العجيب المدهش الذى ارتجت له الأرض وتجاوبت بذكراه أصداء البرق وخرت لعظمته الفحول من الحكماء سجدا وصار موضوع أعجاب العامة والخاصة ذلك هو كشف مقبرة بالوجه القبلى من بلادنا المصرية لملك تولى عرش مصر العليا والسفلى سنة ١٣٧٥ قبل الميلاد يسمى [توت عنخ أمون] فيكون قد مضى لها نحو (٣٢٠٠) سنة ووجدوا بها من التماثيل والأحجار الثمينة والصناعة الدقيقة مالا نظير له فى عصرنا وفى هذا الكنز لحم وفاكهة تملأ خمسا وعشرين حقيبة لاتزال حافظة شكلها ، وفيه مركبات [عربات] مرصعة باحجار ثمينة وعليها كتابة هيروغليفيه ومتكآت وثياب رقيقة وتيجان مرصعة بأحجار ثمينة مختلفة وعلى كل تاج ثعبان عجيب وهناك من الأدوات والزينة ودقة الصنعة مالم يحصر عند كتابة هذه الأسطر . وقال العارفون : ان جمال الصنعة والاتقان فى هذا الكنز أظهرت أن اليونان والرومان كانوا أطفالا بالنسبة لما شوهد فى هذه العجائب ، ان جميع العالم فى الشرق والغرب دهشون والكاشف له رجل انجليزى مغرم بالعلم والبحث فيكون هذا من أنواع الغرام بالجمال والحكمة والصناعة والرجل صرف مالا كثيرا لغرام بالعلم وقضى سنين وليس له من الكنز الا نشر العلم ، ولعلك تقول مالتفسير القرآن ولهذا الحادث ، أقول نحن الآن فى مقام حب الله تعالى وقد قررنا أن حب الله يدعو للبحث فى جمال صنعته واتقانها وكلما زدنا بحثا زدنا سعادة

وعلى تفنن واصفيه بحسنه ❊ يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

فاذا رأينا الناس يقدسون هذا الملك المصرى لظهور آثار دولته واتقان صنعته فما ذلك الا لتمنعها عن الناس واحتجابها قرونا طويلة فافتتن الناس بما منع عنهم كما قدّمنا فى شأن الناس أنهم يهرعون إلى ما بعد عنهم

أما جمال الله وصنعته فهما مكنونان فى جمال النجوم والقمر والشمس والنبات والحيوان ، وما الذهب الذى زين به عرش توت عنخ أمون الاقطع مما كنزه الله فى الجبال للناس ، فلما كان هذا شأن الناس فى كل جيل لايفرحون الا بالممنوع المحبوس عنهم غفل أكثرهم عن جمال الصنعة الالهية ولم تفتح عين أحد منهم إلى مشاهدتها إلا الحكماء من كل أمّة فأولئك لايزالون يفكرون و يبحثون و يعقلون وهم يزدادون عشقا ، وكلما فتحوا كنزا ازدادوا شوقا حتى يبهرهم الجمال و يفنوا بأرواحهم فى البهاء والنور والعرفان ، فلئن بهر الأمم اليوم مقبرة [توت عنخ أمون] فللحكماء كل يوم من ذلك كنز جديد وغرام وعشق وشوق يزداد جدة وما يعقلها إلا العالمون ، وقد صوّر الله الوجوه الجميلة وأبدعها فى منظرها البهيج وزوّق عقول الحكماء بأنواع الجمال العلمى وألهم الصناع النقش والتصوير وذوى الاصوات الجميلة التفنن فى الألحان وضرب العيدان الشجية الاصوات وحكم على كل عالم وصانع أن يودع علمه وصناعته بطون الكتب والطوامير والدفاتر وأمر الملوك السابقين بالقضاء الحتم أن يتركوا آثارهم لمن يأتى بعدهم ان كل ذلك إلا لتتزين بتلك الألوان من الجمال عقول الناظرين فى الجمال السامعين للنغمات القارئين للعلم والحكمة المطلعين على الآثار القديمة تمرينا على قبول الحكمة وتشويقا إلى الازدياد منها ، فلا تظنن أن الله ألهم القدماء أن يفعلوا هذا إلا لحكمة دبرها وعدة أبرزها فالجمال المنظور والمقروء والمسموع يحدث جمالا عند الناظر والقارئ والسامع وذلك كله تمهيد وتشويق للاطلاع على الجمال الأعلى الذى لايعقله إلا قليل فالجمال الأدنى داع إلى الجمال الأعلى فاذا كان الناس يسمعون النغمات و يرون الصور الجميلة و يهرعون إلى رؤية مقبرة الملك [توت عنخ أمون] فما ذلك إلا مقدمة لفهم « ان فى

خلق

خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر » الخ ، ففهم المقبرة والصور الجميلة والنغمات والصناعات يشترك فيها أكثر الناس ولكن هذا العالم لايعقله إلا العالمون [بكسر اللام]

الموضوع الثانى : الرؤساء والمرءوسون

اعلم أن الأمم والأفراد على قسمين قسم تفانى فى شهوات نفسه وتعامى عن المصالح العامة ولايعامل سواه من الأمم والأفراد إلا لحظ نفسه فترى الأمة تذكر الحرية والمساواة والعدل ثم تسوق تلك الأقوال إلى إحياء أنفسها بذبح الأمم الضعيفة وهـذا هو الذى عاشت به بعض الأمم الغربيـة بل أكثرها وترى الأفراد الذين هم أصحاب رؤوس الأموال أبدا لايوفون العامل أجره ولاينصفونه فى المعاملة ، فيقف الوزير وفى يده اليمنى سيف مصلت وفى يده اليسرى ذهب مضروب و يقول لرؤساء الأمم الضعيفة ان أطعتمونى أعطيتكم هـذا الذهب وأدخلتكم فى مصاف الأمم العظيمة مثلى ، وان عصيتمونى سلطت عليكم سيفى هـذا فمن أطاع من الأمم الضعيفة الشرقية ودخل فى حوزتهم عاملوه معاملة الحيوان أوأنزلوه منزلة الجماد ، ومن عصاهم أرغموه بالسيف فان قاومهم أصبح محترما معظما وعاملوه بالاكرام معاملة الانسان للآساد ، ويقول أصحاب رؤوس الأموال وفى أيديهم اليمنى سيوف مصلتة لطرد العمال من أعمالهم وفى أيديهم اليسرى دريهمات يعطونها أجرة ، ويقولون أيها العمال ان أطعتمونا أعطيناكم هذه الدريهمات لتعيشوا بها وان عصيتمونا طردناكم فان اتحد العمال وقاوموا نالوا حظا وان أطاعوهم طحنتهم رحى الأغنياء و باءوا بالنكال

أما الأمم الضعيفة فأولئك إذا سلموا لرؤسائهم وقد ملك الجبن أفئدتهم وسلط عليهم الظالمون من الأمم القوية أنواع النعيم والحظ وغمسوهم فى الترف وزجوهم فى الهوى والفسوق فلاشك أنهم يكونون على الأمم المسكينة أشدّ بطشا وأعظم خطرا من كل مصيبة وحينئذ يصبحون صعيدا جرزا تذروه الرياح وتعاملهم الأمم القوية معاملة الانسان للدجاج وللحمام تذبح أبناؤها ويحقر شأنها فهؤلاء الرؤساء لايزالون للظالمين ناصرين وللمظلومين آكلين حتى يأتى أجل هذه الأمة وتندمج فى الأمة الغالبة فيقول رجالها للذين استكبروا « إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا » فيقولون : ان الله قدحكم علينا و يتبرأ الرؤساء من المرءوسين ويقول كل منهم نفسى نفسى حين يرون العذاب المحيط بهم فيقول التابعون ليتنا تداركنا أمرنا وعصينا سادتنا وكبراءنا وقال تعالى « و إذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا إنا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد » وقال سبحانه وتعالى فى سورة أخرى «وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا الآية» وفى سورة أخرى « قالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا »وآيات كثيرة فى هذا المعنى ، إياك أن تظن انى أجعل معنى هذه الآيات التى هنا فى أحوال الدنيا ان هذه الآيات واردة فى أحوال الآخرة حقا وان الرؤساء والمرءوسين يتجادلون و يقع العذاب على الجميع ، وكل مسئول لافرق بين رئيس ومرءوس ، هذالاشك فيه ولكن الآخرة صدى صوت الدنيا والناس قد نراهم فى الدنيا على هذه الطريقة سالكين فالرؤساء والمرءوسون قد مثلوا هذا كله لاسيما فى أمم الشرق ، و بعبارة أخرى هذه سياستهم وهذا هو الذى رأيناه ، وقد قال تعالى « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى » فهذا وحقك هو العمى فى الدنيا وسيكون العمى فى الآخرة و يبقى الاحتجاج متصلا والظالمون والمظلومون فى الدارين يتجادلون وكل يجعل الذنب على صاحبه ، أفليس هذا مما يوجب أن يكون الأمر شورى بين المسلمين ، أوليس ماجرّ به المسلمون من استيلاء الرؤساء على أمورهم كافيا فى الرجوع إلى القرآن و ينظر فى سياستهم من هم أهل للحل

والعقد منهم و يجعلون بين أصحاب الأموال و بين العمال مودة ورحمة ، وقانونا يتفق مع المصلحة العامة حتى لا نقع فيما وقع فيه أهل الغرب فكانت البلشفية فليكن العدل قائما كأيام عمر ، أوليس ماتفعله الفرنجة معهم من أنهم يعرضون عليهم عذابا وجهنم فى أيمانهم ونعيما وجنة فى شمائلهم وان من أطاعهم عذب ومن عصاهم ينعم بالحرية أشبه بماورد فى صفة المسيح الدجال ان من أطاعه ودخل جنته وجدها نارا ومن عصاه ودخل ناره وجدها جنة ، أليس هؤلاء قد لبسوا لباس المسيح الدجال ، ولست أقول انهم هم نفس المسيح الدجال ولكن أقول هم جنوده هم أتباعه هم تلاميذه ، الدول الظالمة القوية المنتشرة فى الشرق هى هى الممثلة لذلك المسيح الدجال ، هى هى التى نقول فى صلواتنا صباحا ومساء « اللهم انى أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال» أو يظن المسلمون فى الشرق والغرب أن الصلوات التى تكرر صباحا ومساء وأدعيتها جاءت لغير معنى فتكون أقل من الحرف فى أقسام الكلمة [لأنه جاء لمعنى] فكيف يكون لنا نبىّ ولنا عقول وأسماع وأبصار ونكرر الألفاظ ولا نعقل لها معنى ، قدّمت لكم أننا نذكر إبراهيم الخليل ونصلى عليه فى كل صلاة كما نصلى على نبينا لنتذكر تكسيره للأصنام ورجوعه للعقل ونبذه التقليد ثم النظر فى العالم العلوى والسفلى وهكذا مما ذكرته هناك عند قوله تعالى « ومن يرغب عن ملة إبراهيم » فارجع إليها ، فهكذا أقول هنا هل ذكر المسيح الدجال لغير معنى ، ياقوم ان الدجالين قد أحاطوا بالعالم الانسانى فالرؤساء الذين استعملوا الشعب لشهواتهم دجالون ، والأمم التى تغوى أولئك الرؤساء دجالون وأصحاب رؤوس الأموال الظالمون للعمال دجالون والمنافقون والمخادعون والمخلفو الوعد دجالون ولأكرر القول كرة أخرى انهم ليسوا هم المسيح الدجال بل أتباع وجيوش أوأشباه أوقل ماتشاء ، وانما هذا قصد الدين من الدعاء طلب الله منا فى الصلوات أن ندعوه أن يخلع ربقة الكاذبين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل وهذا هو المقصود من ارسال سيدنا محمد رحمة للعالمين ، يريد الله أن نكون خير أمّة أخرجت للناس كما تقدم عند تفسير هذه الآية وأن نكون أمة عدلا وأن تكون الرحمة التى أرسل لأجلها نبينا ممثلة فينا ثم نبثها بين الأمم فنبتدئ بالرحمة فى عشائرنا ويسود الحب بقدر الامكان ويمتنع الفحش والخمر من بلاد الاسلام ونكلأ العاجزين الفقراء من مال الأوقاف والصدقات ، فلاسائل من المتسوّلين فى مصر والاستانة وعواصم الاسلام ونجعل كل قادر على العمل مشغولا به فلا بطالة ولا كسل هذا هو الذى سيكون فى مستقبل الزمان « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وهذه الأمّة التى تفعل ذلك هى القسم الثانى المقابل لقسم الظالمين فى أول هذا المقال .

القسم الثالث فى هذه الآيات الحلال والحرام

أجمعت الأمّة على تحريم أكل الميتة وعلى نجاستها ، واستثنى الشرع السمك والجراد والسمك الميت الطافى على وجه الماء حلله الشافعى ، وكرهه أبوحنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن جنى ، وحرمه سيدنا على وابن عباس وجابر بن عبد الله ، وأباحه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وقال أبوحنيفة فى الجراد يحل ماأخذته وماوجدته ميتا ، وحرّم مالك ماوجد ميتا ولم يحل عنده ماأخذ حيا إلا اذا ذكى ذكاة مثله بأن يقطع رأسه ويشوى فان غفل حتى يموت فلا يحل ، واتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لايؤكل ولا ينتفع به وحرّم الشافعى جميع الدماء المسفوح منها وغير المسفوح ، وقال أبوحنيفة دم السمك ليس بحرام ، قال لأنه اذا يبس يصير أبيض واستثنى الشارع من الدم الكبد والطحال ، ففى الحديث أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد والكبد والطحال

وأما الخنزير فقد أجمعت الأمّة على تحريم جميع أجزائه ، وجمهور العلماء أنه نجس ، وقال مالك بطهارته

فان

فان كل حيّ عنده طاهر ، ومذهب الشافعى الجديد أنه كالكلب إذا ولغ فى الاناء ، وفى القديم يكفى فى ولوغه غسلة واحدة ، وقوله تعالى « وما أهلّ لغير الله به » من العلماء من قال المراد بذلك ذبائح عبدة الأوثان التى كانوا يذبحونها لأصنامهم ، وهؤلاء جوّزوا ذبيحة النصارى إذا ذكروا اسم المسيح عليها لأنه من طعام أهل الكتاب ، وطعامهم حلّ لنا ، وهو مذهب عطاء ومكحول والحسن والشعبى وسعيد بن المسيب ، وقال الشافعى وأبو حنيفة لايحل ذلك لذكرهم اسم غير الله ، فأما سيدنا علىّ فقد قال اذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون لغير الله فلاتأكلوا ، واذا لم تسمعوهم فكلوا اه

الكلام على جلد الميتة وفيها سبعة اقوال

(١) يجوز استعمالها كلها قبل الدباغ و بعده ، وهوقول الزهرى .
(٢) تستعمل كلها بعد الدباغ ، وهو قول داود .
(٣) يطهر ظاهرها كلها بعد الدباغ لا باطنها ، وهو قول مالك .
(٤) تطهر كلها إلا جلد الخنزير ، وهو قول أبى حنيفة .
(٥) يطهر الكل إلا جلد الكلب والخنزير ، وهوقول الشافعى .
(٦) يطهر جلد مايؤكل لحمه فقط ، وهوقول الأوزاعى وأبى ثور .
(٧) لا يطهر منها شىء بالدباغ ، وهوقول أحمد بن حنبل .

الكلام على صوف الميتة وشعرها

يحرم الانتفاع بصوف الميتة وشعرها وعظمها عند الشافعى ، ويحلّ ذلك عند مالك ماعدا الانتفاع بعظمها خاصة ، وأما شعر الخنزير فأكثر الفقهاء وجمهورهم متفقون على تحريمه ، ولقد أتممنا المقال فى الباب الأوّل من « سورة البقرة » فلنشرع الآن فى الباب الثانى وهومقاصد .

الباب الثانى من سورة البقرة

وهو عشرون مقصدا

المقصد الأوّل : كمال الانسانية وهو من قوله « ليس البرّ » الى قوله « وأولئك هم المتقون »
المقصد الثانى : القصاص .
المقصد الثالث : الوصية
المقصد الرابع : الصوم والجهاد .
المقصد الخامس : الحج الخ .
المقصد السادس : الخمر والميسر .
المقصد السابع : اليتامى
المقصد الثامن : أحكام النكاح .
المقصد التاسع : المحيض .
المقصد العاشر : الحلف بالله .
الحادى عشر : الايلاء والطلاق .

الثانى عشر : الرضاعة وما بعدها .

الثالث عشر : عدّة المتعة وعدّة المتوفى عنها زوجها .

الرابع عشر : أسرار الجهاد وسافيه من قصص بنى اسرائيل وأعدائهم .

الخامس عشر : صفات الرسل وصفات ذات الله وفيها آية الكرسى .

السادس عشر : درجات ثلاث للعلم : الايمان بالفطرة ، ونور النبوّة كالعصر الأوّل للاسلام ، والايمان بالجدل كمسألة النمروذ وابراهيم الخليل والايمان بالمعاينة كمسألة الطير ومستقبل الأمة الاسلامية .

السابع عشر : ضرب الأمثال العجيبة الغريبة فى طلب الانفاق .

الثامن عشر : بيان المنفق عليهم وأحوال الانفاق .

التاسع عشر : بيان المعاملات فى الأموال من الربا والرهن ونحوهما .

العشرون : خاتمة السورة بالايمان بالله ورسوله ، والتكليف ، والدعاء ونهايته بالنصر .

(المقصد الاوّل)

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ✡

التفسير اللفظى

يقول تعالى (ليس البرّ) كل فعل مرضى ، وهو اسم جامع لجميع الطاعات وأعمال الخير المقرّبة الى الله الموجبة للثواب ، والمراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة ، وقوله (وآتى المال على حبه) أى على حب المال ، جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أىّ الصدقة أعظم أجرا ؟ قال أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، وقوله (ذوى القربى واليتامى) فأما ذوو القربى فايتاؤهم أفضل ، أعنى المحاويج منهم . قال صلى الله عليه وسلم : « صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوى رحمك اثنتان صدقة وصلة » وأما اليتامى فجمع يتيم وهو الذى لا أب له مع الصغر ، أى وآتى الفقراء من اليتامى (والمساكين) جمع مسكين وهو الذى أسكنته الحاجة لأنه دائم السكون الى الناس (وابن السبيل) هو المسافر سمى بذلك لملازمته الطريق (والسائلين) هم الطالبون المستطعمون (وفى الرقاب) يعنى المكاتبين ، وكذلك أن يفك الانسان الرقاب بالعتق وفداء الأسرى ، وقوله (وآتى المال) أى الزكاة المفروضة ، وما تقدم كان فى النوافل من الصدقات (والموفون بعهدهم) عطف على من آمن (والصابرين فى البأساء) منصوب على المدح ، ولم يعطف لفضل الصبر على سائر الأعمال كما قدّمنا فى قوله تعالى « وبشر الصابرين » فراجعه هناك ، والبأساء الفقر (والضرّاء) المرض ونحوه ، و (البأس) مجاهدة العدوّ (أولئك الذين صدقوا) فى الدين واتباع الحق وطلب البر (وأولئك هم المتقون) انتهى التفسير اللفظى .

ايضاح

لما ذكر الله عزّ وجل أحوال الكافرين والمنافقين ، وخبائث اليهود ، ورجس العرب المشركين ، وما أحلوا من المحرّمات ، وحرّموا مما أحلّ الله ، طفق يذكر هيئة البرّ ، وتمام الايمان ، وجماع خصال الخير ، فقال : « ليس البرّ » الخ . وورد فى أسباب التنزيل أن اليهود كانوا يلهجون ببيت المقدس والنصارى بالمشرق ، وأن المسلمين أولعوا بالكلام فى التوجه للقبلة ، وأذهلوا عما عداه ، فقال الله لهم : ليس البر أن تلهجوا بأمر وتتركوا ماعداه ، ان الانسانية كثيرة الوجوه ، متنوّعة المشارب ، فلا تقفوا فى موقف الذين قصرت أنظارهم ، وللانسان قوّة فكرية ، وصورة جسمية ، وأخلاق نفسية ، وأموال مملوكة ، فمن قصر نظره على الصلاة وهى بالجسم والروح ، أو على الايمان ، أو الأخلاق الفاضلة ، أو المعاشرة بالمعروف ، أو انفاق الأموال ، فذلك قاصر ، فالبرّ أن تجمل النفس البشرية بالمعارف ، وأهمها الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية ، وأن يسخر الجسم فى الأعمال الظاهرة كالصلاة والحج ، وأن يكون حسن العشرة ، فيعطى المال لذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وهو الضيف أو المسافر ، وأن يكون كريم الخلق فلا يخلف اذا وعد ، وكأن يصبر عند الملمات كالفقر وشدّته ، والمرض وحدّته ، والقتال وصدمته ، لافرق بين الوفاء والصبر والكرم والصلاة ، الدين أمر بالوفاء وبالكرم وبالصبر ، وهذا هو الجمال والبهاء ، وهذه الآية جمعت محاسن الدين وأموره ولذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان » هذا هو الايمان الكامل كأنه يقول : هذه الأمم من يهود وعرب يختصمون ويختلفون بلاجدوى ، فهلا نبذوا الشقاق ، ونهجوا نهج الوفاق ، وسارعوا الى البر بالعلم والعمل والصبر والاحسان ، يجب أن يذيع تعليم الصبر بجميع أنواعه : أى على العمل كالجهاد والعلم ، وعن الحرام ، وعلى البأساء والضراء ، وليكن ذلك فى أبواب كأبواب الفقه المشهورة ، ويذكر فضائل ذلك ، ويذكر أن الصبر تقوية للعزيمة ، ومن لم يمرّن على الأعمال وعلى المشاق والمصائب كان فى جميع حياته طفلا وجميع الأنبياء صبروا على أنواع كثيرة ، راجع ما كتبناه فى قوله [وبشر الصابرين] الآية ، إذ بينا هناك أن السعادة محصورة فى الصابرين فى هذه الحياة الدنيا ، فما بالك اذا كان يوم القيامة ، فاعجب للقرآن كيف جعل الصابرين منصوبا على المدح للاشارة الى ماذكرناه ، ولما كان الكمال يقابل النقص وكان للانسان قوّة غضبية وقوّة شهوية ، وهما أبدا يتسارعان فى هدم هذا البنيان كما جاء فى قصة آدم وقرّر فى قصص بنى اسرائيل والعرب أعقبه بحديث القصاص وهو :

(المقصد الثانى)

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى (ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن

عفى له من أخيه شيء) أى شيء من العفو ، واذن يكون بعض العفو كالعفو التام فى اسقاط القصاص ، وقوله (فاتباع بالمعروف) أى فليكن اتباع بالمعروف أى فلا يعنف ولى الدم فى المطالبة ، وقوله (وأداء إليه باحسان) أى وعلى القاتل أداء الدية الى ولى الدم باحسان من غير مماطلة (ذلك) الحكم المذكور (تخفيف من ربكم ورحمة) لما فيه من التسهيل كما سيأتى فى الايضاح (فمن اعتدى بعد ذلك) أى قتل بعد العفو وأخذ الدية (فله عذاب أليم) فى الآخرة ، وقوله (ولكم فى القصاص حياة) أى بقاء لأن القاتل اذا علم أنه اذا قتل قتل ترك القتل فيكون بذلك بقاؤه وبقاء عشيرته وعشيرة الذى يريد قتله ، لأنهم كانوا يقتتلون طول الحياة لو أقدم على القتل ، وقوله (ياأولى الألباب) أى ذوى العقول الكاملة ، وقوله (لعلكم تتقون) أى تنتهون عن القتل خوف القصاص . انتهى التفسير اللفظى .

الايضاح

كان فى الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء ، وكان لأحدهما طول على الآخر ، فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى ، فلما جاء الاسلام تحاكموا الى رسول الله ﷺ فأمرهم أن يتباوءوا القصاص ، من قص الأثر اذا تتبعه ، فعلى ذلك يقتل القاتل بمثل ما قتل به من سيف أو عصا أو شدخ رأس ، وهذا قول الشافعى ومالك وأحد قولين عن أحمد ، ومذهب الحنفية السيف ، وليس فى الآية من دليل على ماذهب اليه مالك والشافعى رضى الله عنهما من امتناع قتل الحر بالعبد والمسلم بالكافر ، وانما الدليل ماورد فى السنة أن لايقتل مسلم بذى عهد ، ولاحر بعبد ، وهكذا فعل الصحابة من غير نكير .

وهذه الآية أفادت التخفيف على هذه الأمة ، فلقد كان العفو عند النصارى والقصاص عند اليهود ، وكان العرب تارة يوجبون القصاص وأخرى يوجبون الدية ، ومنهم من يبطش فيقتلون فى الرجل رجالا وفى المرأة رجلا وفى العبد حرا ، فجاءت هذه الآية بوضع القسطاس فى الأرض ، فسوى الله بين الناس وجعل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، فلا يتجاوز عنه الى ماتفعله العرب الجاهلية وما كان فوق ذلك من المسلم والكافر والعبد والحر فانما هو محل الاجتهاد بين الأئمة رضوان الله عليهم ، وهكذا أفادت أن العفو عن بعض الدم موجب لسقوط القصاص ، وللولى المطالبة بالدية ، وعلى القاتل دفعها ، وعلى ولى الدم اتباع بالمعروف ومطالبة بلاعنف ، وعلى القاتل وعاقلته أداء اليه باحسان ، ولاجرم أن هذا تخفيف على الأمة ورحمة بها وفتح باب للمسامحة والمساهلة ، فلو قتل ولى الدم القاتل بعد أن أخذ الدية فله عذاب أليم فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار ، إن القصاص حياة وابقاء للأجسام والأرواح ، ألاترى أن الاضطراب ماولج فى أمة إلا أنزلها من شاهق ، وأحل بها العذاب الهون ، ولما كان الانسان بالقتل أو الموت مفارق الديار ، وعليه أن لايذر ورثته يتخبطون خبط عشواء ذكر الله حكما عاما لكل من دنت وفاته ، وحضرت منيته ، وجاءت ساعته ، فقال :

(المقصد الثالث)

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۞ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞

التفسير اللفظي

شرعت الوصية فى صدر الاسلام للوالدين والأقربين ، لما كانت عليه العرب من الايصاء للأجانب طلبا للمباهاة والمفاخرة واظهار الكرم ، ثم نزلت آية الميراث «يوصيكم الله فى أولادكم» وروى عن عمرو بن خارجة . قال كنت آخذا بزمام ناقة النبىّ ﷺ ، وهو يخطب فسمعته يقول [ان الله أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث] فنسخت الآية فى حق الوارثين ، وبقى وجوبها فى حق من لا يرث من الأقارب عند ابن عباس والحسن ومسروق وطاوس والضحاك ومسلم بن يسار ، والمذاهب المشهورة بين المسلمين على خلافه ، وعندى أن هذا وجيه لئلا تبقى الثروة فى يد وارث ويحرم من هم من أسرته ، وهذا هو الذى تسعى له الأمم الأوروبية ولقد سنّ الانكليز من نحو سنة أن يؤخذ من مال الغنى جزء للأمة لئلا يبقى المال فى يد وارث وتحرم الأمة من التمتع به ، وهذه الوصية مستحبة عند الفقهاء وعلماء الشرع الذين بيدهم زمام الأمة الآن ، ولا يسن الا اذا كان المال وفيرا والخير كثيرا .

ثم قوله فى الآية (إذا حضر أحدكم الموت) أى أسبابه وظهرت أمارته ، وقوله (إن ترك خيرا) أى مالا ، وقيل مالا كثيرا ، و(الوصية) هى التقدم إلى الغير بما يعمل به ، أو القول المبين لما يستأنف من العمل (للوالدين والأقربين) وكانت الوصية للوارث فى بدء الاسلام فنسخت بآية المواريث (بالمعروف) بالعدل فلا يفضل الغنى ولا يتجاوز الثلث (حقا على المتقين) مصدر مؤكد : أى حقّ ذلك حقا ، وقوله (فمن بدّله) أى غيره من الأوصياء والشهود (بعد ماسمعه) أى وصل اليه وتحقق عنده (فانما إثمه) أى إثم الايصاء المغير (على الذين يبدّلونه) أى على مبدّله (إنّ الله سميع) أى لما أوصى به الموصى (عليم) بتبديل المبدّل (فمن خاف من موص) أى توقع وعلم ، وقوله (جنفا) أى ميلا وجورا فى الوصية وعدولا عن الحقّ ، وقوله (أو إثما) أى ظالما (فلا إثم عليه) أى لاحرج عليه ، والمعنى إذا حضر رجل مريضا ، وهو يوصى فرآه يميل فى وصيته فلا حرج عليه أن يأمره بالعدل وينهاه عن الجنف ، وقوله (إنّ الله غفور رحيم) ان أصلح وصيته بعد الجنف والميل .

روى أن رجلا قال لعائشة رضى الله عنها انى أريد أن أوصى ، فقالت كم مالك ؟ فقال ثلاثة آلاف درهم . قالت كم عيالك ؟ قال أربعة ، قالت انما قال الله «ان ترك خيرا» ، وهذا شىء يسير فاتركه لعيالك ، والوصية مؤكدة فى الدين ، روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ماحق امرىء مسلم له شىء يوصى فيه أن يبيت ليلتين الا ووصيته مكتوبة عنده » . وقال ابن عمر مامرت علىّ ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك الا ووصيتى مكتوبة عندى ، ولا يجوز تبديل الوصية ولا تحريفها ، ولا تزيد على الثلث ، فانه هو المعروف ، ويجوز التبديل لمن رأى بين المورث والورثة جفاء ، فاذا أصلح بينهم فتبديله جائز ، ان الوصية احسان وتجاوز عن المطامع وايثار ، فكانت مما يطلبه علم الأخلاق من التعالى عن الاستخذاء للشهوات فناسب أن يعقبها الصوم وأحكامه ، والفدية من العاجز كالشيخ الهرم والمريض مرضا لايرجى برؤه ، فالصوم تهذيب وتأديب للقوة الشهوية ، وكذلك الوصية ، والفدية كلاهما ترك للحرص على المال الذى هو من أكبر الآفات ، ورذائل الأخلاق ، فنظم الله عزّ وجلّ نبذ الحرص بعد الموت ، والحرص فى الدنيا فى سمط ولزهما فى قرن ، وقبل أن نبدأ بالكلام على الصوم نذكر نبذة فيه حتى تستبين لك حقيقته اجمالا تبصرة وتذكيرا لما يأتى من الآيات .

واجبات الصوم ستة

(١) مراقبة أوّل شهر رمضان ، وذلك برؤية الهلال فان غمّ فاستكمال ثلاثين يوما من شعبان ، ومتى علم المسلم ذلك بقول عدل واحد كفى ، وهلال شوّال لايثبت الا بعدلين ، والمراد بالعلم غلبة الظنّ وان لم يقض القاضى . (١)

(٢) النية ولا بدّ لكل ليلة من نية معينة جازمة مبيتة ، فاذا نوى الفرض مطلقا ، أو الصوم مطلقا ، أو شهر رمضان دفعة واحدة ، أو بالنهار فى الفرض ، أو فى ليلة الشك لم يصح الصوم .

(٣) الامساك عن ايصال شيء الى الجوف عمدا مع ذكر الصوم فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحقنة ، وليس يفسد بالفصد ، والحجامة ، والاكتحال ، وادخال الميل فى الأذن ، والاحليل الا أن يقطر فيه مايدخل المثانة ، ولا مايصل بغير قصد من غبار طريق ، أو ذبابة تصل إلى جوفه ، أو مايسبق إلى جوفه فى المضمضة الا إذا بالغ فيها فيفطر ولا يفطر الناسى .

(٤) الامساك عن الجماع ، فان جامع ناسيا لم يفطر ، ومن احتلم أو جامع فأصبح جنبا لا يفطر ، وان طلع الفجر ، وهو مخالط أهله فنزع فى الحال صح صومه ، فان صبر فسد ولزمته الكفارة .

(٥) الامساك عن الاستمناء ، وهو إخراج المنىّ قصدا بجماع ، أو بغير جماع ، ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها مالم ينزل لكن يكره ذلك الا أن يكون شيخا أو مالكا لاربه فلا بأس بالتقبيل ، وتركه أولى ، واذا كان يخاف من التقبيل أن ينزل فقبل وسبق المنىّ أفطر لتقصيره .

(٦) الامساك عن إخراج القيء ، فالاستقاء يفسد الصوم ، وان ذرعه القيء لم يفسد صومه ، وإذا ابتلع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى .

لوازم الافطار أربعة

القضاء والكفارة والفدية وامساك بقية النهار تشبيها بالصائمين ، فأما القضاء فوجوبه عام ، فالحائض تقضى وكذا المرتد ، أما الكافر والصبى والمجنون فلا ، ولايجب التتابع فى القضاء ، وأما الكفارة فلاتجب الافى الجماع ، وأما الأكل والشرب وما عدا الجماع فلا تجب به كفارة ، والكفارة عتق رقبة ، وهذا لاوجود له الآن لمنع بيع الرقيق ، فان لم يقدر فصيام شهرين متتابعين ، فان عجز فاطعام ستين مسكينا مدّا مدّا ، وأما الفدية فتجب على الحامل ، والمرضع إذا أفطرتا خوفا على ولدهما لكل يوم مدّ حنطة لمسكين واحد مع القضاء ، والشيخ الهرم اذا لم يصم تصدّق عن كل يوم مدا ، وأما امساك بقية النهار فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه ولا يجب على الحائض اذا طهرت امساك بقية نهارها ، ولا على المسافر اذا قدم مفطرا من سفر بلغ مرحلتين ويجب الامساك اذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك ، والصوم فى السفر أفضل من الفطر الا اذا لم يطق ولا يفطر يوم يخرج اذا كان مقيما فى أوّله ، ولا يوم يقدم اذا قدم صائما .

السنن فى الصوم ست

تأخير السحور ، وتعجيل الفطر بالتمر ، أو الماء قبل الصلاة ، وتركه السواك بعد الزوال ، والجود فى شهر رمضان ، ومدارسة القرآن ، والاعتكاف فى المسجد لاسيما فى العشر الأخير ، وهذه الأحكام على مذهب الامام الشافعى ، وفى بعضها خلاف عند الأئمة تركناها خيفة السآمه .

(١) ولقد ألفت رسالة سميتها الهلال جوابا على سؤال جاء من بلاد القازان قبل الحرب العامة وسنجعلها فى ضمن الملحق لهذا التفسير ان شاء الله تعالى (المؤلف)

أسرار الصوم

الصوم ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص ، أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن الشهوة كما تقدّم تفصيله ، وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل ، وسائر الجوارح عن الآثام ، وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنيئة والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله بالكلية ، ويحصل الفطر فى هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عزّ وجلّ واليوم الآخر و بالفكر فى الدنيا الا دنيا تراد للدين ، فان ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا ، فهذا الصوم اقبال بالهمة على الله وانصراف عن غير الله ، وتلبس بمعنى قول الله « ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » انتهى الكلام فى الصوم وأسراره .

ولعلك تقول : كيف جمعت بين المتناقضات فى هذا التفسير ؟ ذلك أنك قلت فى مواضع كثيرة ان طلب العلم وحوزه والصناعات واستعمالها واجبة ، وأن المسلمين مفرطون فى ترك تلك العلوم للفرنجة حتى أخذوا ديارهم واستحلوا أموالهم ، ثم انك هنا تقول ترك ماسوى الله وعدم التفكر الا فى الله فلن يتفق الأمران للمسلم ، وهذا منك عجيب تكلف نفسك والمسلمين الجمع بين الضدين ، ولعلك أصبحت مقلدا فى الدين ومقلدا لعلماء العصر الحاضر فألفت بين متناقضين ، وهذا مستحيل .

أقول : لتتذكر أن ما كان من أمور الدنيا ضرورى للدين حافظ له موجب لبقائه يصبح دينا لا دنيا ، فجميع الصناعات واجبة وجوبا كفائيا على المسلمين ، وهكذا العلوم فالصناعات من الابرة إلى المدفع والقطار والعلوم من النحو إلى علم الفلك والطبيعة كلها واجبة ، ولعلك تقول أيضا كيف تنظم هذه الدنيا نظاما تاما كأوروبا أو نسبقها كما تقول ، والدين يقول لا تفكروا الا فى الله ، وصوموا ، وصلوا ، وقوموا الليل ، والموت يكتنفنا من كل جانب ، وكيف تنظم هذه الحياة ، ونحن لاشك تاركوها ، ان الفكر فى الآخرة ، والاستعداد لها مثبط للعزائم موجب للاعتكاف فى المساجد أو النوم والكسل حتى يأتى اليوم الموعود .

أقول : على رسلك ان الأمثال حاضرة مشاهدة « ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون » ألم تر الى الفتاة فى منزل أبيها كيف تعلم أن سعادتها انما تكون فى الحياة مع خطيبها ، وهى كل يوم تنظف وتحافظ على بيت والدها كأنها لن تفارقه أمد الحياة ، ونرى رجال الحكومات المرشحين لوظائف أرقى مما هم فيه لا يزالون يغارون على المصلحة التى هم فيها غيرة صادقة كأنهم لا يفارقونها وهم يعلمون أنهم لها تاركون ، وهذه الأسئلة انما ترد من الأمم الاسلامية المتأخرة لعدم فهم الدين الاسلامى والاقتصار على ظواهر العبارات والا فكيف كانوا يفتحون البلاد شرقا وغربا ، وهم يصومون النهار ، ويقومون الليل ويتهجدون ، وكيف كان الفرس والروم فى أبهة الملك وعظمته غارقين فى المادة والنعيم ، وكان آباؤنا صائمين مصلين متهجدين ، ثم يكسرونهم فى الحرب ويأخذون بلادهم ويسبون نساءهم ، ولقد كان فى مصر من جيوش الروم مائة ألف مقاتل فضلا عن الأمة المصرية التى كانت أكثر عددا من المصريين اليوم وما فتحها إلا اثنا عشر ألفا من آبائنا العرب ، وروى المؤرخون أن المقوقس سأل رسله الذين قابلوا عمرو بن العاص ومن معه قال : كيف رأيتموهم ؟ قالوا رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم رغبة فى الدنيا ولا نهمه ، وانما جلوسهم على الأرض ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، مايعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا الحرّ فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويتخشعون فى صلاتهم فقال عند ذلك المقوقس : لو أنهم استقبلوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد اهـ

فانظر كيف جعل الزهد فى الدنيا ، والترفع عنها ، والخشوع فى الصلاة من أسباب الحصول عليها والسيادة فيها ، وكأن الناس كلما كانت نفوسهم أقرب إلى التجرد وأرفع عن الانغماس فى المادة كانت أملك لها ، والله هو الولىّ الحميد .

(المقصد الرابع)

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَاهَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ * أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *

فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى (ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) هو مصدر صام ، والمراد صيام شهر رمضان كتابة (كما كتب) أى مثل ما كتب (على الذين من قبلكم) على الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام الى عهدكم (لعلكم تتقون) المعاصى بالصيام (أياما معدودات) موقتات بعدد معلوم ، أوقلائل فان القليل من المال يعدّ عدّا والكثير يهال هيلا ، أى صوموا أياما الى آخره (فمن كان منكم مريضا) مرضا يضرّه الصوم أو يعسر معه (أوعلى سفر) أو راكب سفر (فعدّة) أى فأفطر فعليه صيام عدد أيام فطره ، والعدّة بمعنى المعدود أى أمر أن يصوم أياما معدودة مكانها (من أيام أخر) سوى أيام مرضه وسفره (وعلى الذين يطيقونه) وعلى المطيقين للصيام ان أفطروا (فدية طعام مسكين) وسيأتى ايضاحه قريبا (فمن تطوّع خيرا) فزاد فى الفدية (فهو) أى التطوّع (خير له وأن تصوموا) أيها المطيقون (خير لكم) من الفدية وتطوّع الخير (ان كنتم تعلمون) مافى الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة اخترعوه (شهر رمضان) مبتدأ وخبره (الذى أنزل فيه القرآن) أى ابتدئ فيه انزاله ، وكان ذلك فى ليلة القدر (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) أى أنزل هاديا الى الحق وهوآيات مكشوفات مما يهدى الى الحق ويفرق بين الحق والباطل .

ايضاح هذه الآيات

نقول : ان الله عزوجل ماترك الأمم السالفة ، والأجيال البائدة بلاتهذيب وتأديب ، فأوجب عليهم أن يجتنبوا التغالى فى الشهوات والاكثار من الطعام ، فان النفوس الانسانية لها عروج الى الملإ الأعلى اذا ماعفت عن الطعام ، واقتصدت فى الشهوات ، فلم يدع الله أمة إلا أدّبها ، ولاترك جيلا إلا أنذره وحذره ، ولقد كتب على النصارى صياما ، وعلى اليهود صياما ، وقال لنا : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » المعاصى . ولما كانت الأمّة الاسلامية أمة وسطا عدولا لاتتغالى فى الشهوات فتنزل الى حضيض الحيوانية ، وتحرم من المراتب الروحية ، ولاتتغالى فى التبرّى من الأغذية فتضعف أجسامها وتذل نفوسها كما حصل للصين والهند إذ صاموا صوما دائما ، فنبذ البراهمة والبوذيون الشهوات نبذا مفرطا فغلبتهم الأمم ، وداستهم أمم الغرب ، وأذلهم الطامعون ، لذلك جعل الله عزّوجل صوم هذه الأمة أياما معدودات وهى شهر رمضان لتنال الحظين : قوّة الأجسام ، ورياضة النفوس ، وانشراح الصدور ، وأمة هذا شأنها جديرة أن تمسك بأعنة الشرق والغرب ، وتشهد على الأمم ، وتقود غيرها الى طريق الفلاح ، ومراقى النجاح ، وعلى المريض مرضا يعسر معه الصوم ، وللمسافر سفر قصر اذا أفطرا أن يصوما أياما أخر ، وعلى الذين يطوقونه أو يطيقونه فيطوقونه أى يصومونه بجهد ومشقة كما يطوّق المرء طوقا أى قلادة فى عنقه ، أو يكلفونه بمشقة ،

على هؤلاء فدية أى جزاء لما وقع من تقصير فى العبادة وهى نصف صاع من برّ أوصاع من غيره عند فقهاء العراق ، ومدّ عند فقهاء الحجاز ، أوفطور فقير وسحوره عند ابن عباس ، فمن تطوّع خيرا وبرّ الفقراء وزادفى العطاء فله ثوابه ، على أن الصوم أفضل ، لأن الصبر عليه أشد ، والتكلف فيه أشق ، فانه خير للشيخ الهرم والمريض والمسافر ، والمريض مرضا لايرجى برؤه ، وليست هذه الخيرية إلااذا قدروا ، والا فقديحرم وقد يكره وذلك بلاريب تابع أحوال الناس ، مختلف باختلافهم ، ثم قال « شهر رمضان » على البدل من قوله : « كتب عليكم الصيام » أى صيام شهر رمضان الذى فيه ابتدئ نزول القرآن حال كونه هاديا للناس باعجازه وآيات واضحات بما يهدى به من الحق ويفرق بينه وبين الباطل لما فيه من الأحكام .

ولما كان الصيام لايجب الا اذا روًى الهلال أعقبه عزّوجل بقوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) أى هلال الشهر فليصمه ، وخصصه بما بعده وهو قوله (ومن كان مريضا أوعلى سفرفعدّة من أيامأخر) ألاترى أن المريض والمسافر قد شهدا الشهر ورأيا الهلال ، فكلاهما شاهد وكلاهما مرخص له فى السفر (يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر) وما أراد الله عزّوجل الا اليسر ولم يرد العسر (ولتكملوا العدّة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون) أوجب الصيام على الشاهد لتكملوا العدّة والقضاء على المريض والمسافر لتكبروا الله وتعظموه لما هداكم لطاعته ونوعها ، وهذا الترخيص يوجب الشكر على العباد ، ولما كان الصوم سببا لعروج الأرواح الى عالم الجمال ، ولاجرم أن أوقات الصوم أقرب الأوقات لاجابة الدعاء ناسب أن يقول (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) . روى عن كعب أنه قال : قال موسى عليه السلام : « يارب أقريب أنت فأناجيك ، أم بعيد فأناديك ؟ فقال : ياموسى أنا جليس من ذكرنى ، قال : يارب فانا نكون على حالة نجلك أن نذكرك عليها من جنابة وغائط ، قال : ياموسى اذكرنى على كل حال » . فلما كان الأمر على ماذكر رغب الله تعالى فى ذكره وفى الرجوع اليه فى جميع الأحوال فأنزل هذه الآية .

[روى] أن اعرابيا جاء الى النبيّ ﷺ فقال : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله هذه الآية ، والدعاء بمعنى العبادة ، أو بمعنى الطلب ، وقوله « فليستجيبوا لى » الاستجابة والاجابة بمعنى . قال كعب الغنوى :

وداع دعايامن يجيب الىالندا ﷺ فلم يستجبه عند ذاك مجيب

واجابة العبد لله طاعته ، واجابة الله للعبد اعطاؤه مايطلبه ، وقوله « لعلهم يرشدون » فى قراءة بفتح الشين والأخرى بكسرها ، ففيها ثلاث قراءات ، يقول : ان أجابونى بطاعتى والايمان بى أجبتهم وأعطيتهم رشدهم فى مصالح دنياهم وآخرتهم ، انظرالى هيكلك وجسمك ألست ترى أن يديك تلمسان بحاسة اللمس الموادّ الصلبة ، وفك يذوق بحاسة الذوق ألطف مافى المادّة ، وأنفك يشم مايتناثرفى الهواء من ذرات المادّة وهى ألطف مما قبلها ، وأذنك تسمع أمواج الهواء الآتية من اصطكاك أعضاء الفم ، وعينيك تنظران النور الذى يتعالى عن المادة وهوألطف منها بل هوأصلها ، فانظرأليس عقلك وهوأعلىمكانا من هذه الحواس يتصل بما فوق المادة وهوالعالم الالهى الروحانى ، أرواحنامتصلة بالعالم الروحانى اتصالاعقليا لاحسيا ، معنويا لاجسميا وكما أن كل حاسة اتصلت بما أحست اتصالا يناسبها كاللمس والذوق والشم والبصر ، فكذا اتصلت النفوس بالعالم الأعلى الروحانى « وأن الى ربك المنتهى » فهذا معنى قوله تعالى « واذاسألك عبادى عنى فانى قريب » فهنا قرب معنوى لاحسى ، فليس الله مادّة ولاجسما ولا عرضا وانما هومقدّس عن المادة يتعالى عن النور ، وهذا هوالسرّ فى قوله تعالى : « قل الروح من أمر ربى » وقوله عليه الصلاة والسلام : « من عرف نفسه

عرف

عرف ربه » فعقولنا من العالم الالهى الروحى بمنزلة العين من النور ، والأذن من المسموعات ، وحاسة الشم من المشمومات ، ولكن أكثرها مغمور فى الطبيعة محاط بالمادة ، وكثيرا ماتنزل اليها المعلومات الحقيقية عن الله تعالى ، وقد تختلط معلوماتها بالأوهام فجعل العقل والمنطق ميزانا لها ، فالله عز وجل قريب من العبد ، فاذا سأله وهوموقن بالاجابة طائع فان الله يرشده ويجيب دعاءه ، ولن تصح الاجابة الااذا توجه القلب لله عز وجل توجها جازما على شريطة أن يكون بين السائل ومطلوبه مناسبة ، ولاجرم أن فى العالم مايناسب هذا . ألاترى أن المطر ينزل على الأرض ، والحديد يجذبه المغناطيس ، والبخار تجرى به الفلك فى البحر ، فمتى كان بين الطالب والمطلوب مناسبة وتوجه بقلبه توجها تاما ثم فكر بالعقل فيما يعمله ويزاوله بعد ذلك فلاجرم يأتى له مطلوبه كما فى قوله تعالى « أمّن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء » وهذا هو المعبر عنه عند كثير من علماء العصر الحاضر بقولهم [الاعتماد على النفس] وذلك أنها بتوجهها الى الله تقوى همها فتجدّ فى العمل ولاتخاف الزلل ولاتخشى الملل ، فهذا مقصود قوله تعالى : « أجيب دعوة الداع اذا دعان » ، تدعوننى فأجيب وأنا أدعوكم فأجيبونى بالطاعة والايمان ، ادعوا الله أيها الناس فى خلواتكم ، ووجهوا اليه هممكم ، ولاتقعدوا عن العمل ، واياكم أن تدعوا وأنتم كسالى ، الدعاء توجه الهمة الى الله ، والله قريب من العقول ، والأرواح لها قرب من العالم الروحى كقرب العين من الضياء ، فوجهوا هممكم اليه تزدادوا همة ، وقد قرّر العلماء أن الهمم تنقلب الى حركات فيفيض القول على اللسان والعمل على الاركان ، فنتيجة الدعاء تقوية الهمم بالاستمداد من الله ليكون العمل المترتب على الطلب أحكم وأثبت ، ولتعلموا أن الدعاء اذا لم يصحب بعمل وخالف فعل الرسول صلى الله عليه وسلم فلاريب ينزل الانسان من درجته الى مرتبة تحت الجمادية فضلا عن الحيوانية ، ألاترى أننا نرى الطيور فى جوّ السماء تغدو وتروح للعمل ، ولم نرها نامت فى أوكارها ، وطلبت أرزاقها ، وهذا الانتكاس فى المسلمين اليوم هوالسرّ فى أن دعاء الخطباء على المنابر يأتى بعكس مايدعون ، وهكذا أولئك الذين يتلون الدعوات صباحا ومساء ولاعمل لهم فليس فيه تهذيب النفس ، ولااستنشاقها نسائم الرحمات فان كان القصد ذلك فنعما هو ، فان فى ذلك الابتهال سعادة لايعرفها إلا ذائقوها ، وهناك تحسّ النفس بما لاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب الجاهلين من البشر ، ومتى وجه المرء همته الى العمل ودعا الله وعمل لمطلوبه نال مرغوبه لامحالة ، الدعاء فتح لباب الحرّية ، والاعتماد على الله ، ومنع النفس عن الذلة للمخلوق ، ويشير لتلك الحرّية قوله تعالى « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون » فكأنه يقول انهم يضاهئون أى يشابهون فى ذلك من قبلهم من قدماء المصريين والرومان والعرب الذين يدعون غير الله . فأما أنتم أيها المؤمنون فلاتدعوا إلا الله لتكونوا أحرارا ناظرين بعقولكم لامقلدين ومن يعتمد على غير الله هان عليه أن يخضع للجبابرة والملوك الظالمين ، فادعونى أستجب لكم ، ولست غائبا حتى تنادونى فى البوادى والقفار وفوق رءوس الجبال ، أنا حاضر عند أنفسكم وقلوبكم عرشى ، وفى هذا ردّ على بعض جهلة السياسيين كالذى يقول : ان المسلمين يعتقدون أن الله بعيد عنهم ، ولذلك يجأرون بالليل والنهار ، ويصرخون فى الطرقات كأنهم يبحثون عنه فلايجدونه ، ولم يعلم أن الاستحضار بالقلب يلزمه النطق باللسان لتمام الاستحضار حتى يستجاب الدعاء ويصح العمل ، ثم أخذ يبين مبدأ الصوم ونهايته ، ولقد كان المسلمون اذا أمسوا أحلّ لهم الأكل والشرب والجماع الى أن يصلوا العشاء ، ثم ان عمر رضى الله عنه باشر بعد صلاة العشاء فندم فنزلت (أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) والرفث الافصاح بما يجب أن يكنى عنه ، ويراد به هنا الجماع اطلاقا مجازيا ، والمباشرة إلزاق البشرة بالبشرة ، وهو هنا الجماع ، وقوله (هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ) أى ان كلا منكما

يشتمل على صاحبه ، وأيضا هو ستر له يمنعه من الفجور (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) أى تظلمونها بالجماع (فتاب عليكم) حين تبتم مما ارتكبتم من المحظور (وعفا عنكم) ما فعلتم قبل الرخصة (فالآن باشروهنّ) لما نسخ عنكم التحريم ، وعلى المباشر أن يطلب بقاء النوع ، فلا قصد من الشهوات إلا منافع وفضائل وماعداه فقدّمات زائلات وهوقوله (وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) معناه حتى يتبين لكم ذلك البياض الممتد فى الأفق ومامعه من غبش الليل المشبهان خيطين أبيض وأسود ، فالفجر بيان للخيط الأبيض والليل الذى حذف بدلالة الفجر عليه بيان للخيط الأسود . عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال لما نزلت « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود » ولم ينزل « من الفجر » فكان رجال اذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ولايزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله عزّوجل بعده « من الفجر » فعلموا أنه انما يعنى الليل والنهار . وروى مثله عن عدى بن حاتم إذ عمد الى عقالين أسود وأبيض وجعلهما تحت وسادته الخ ثم بعد ذلك عرّفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بين آخر وقته فقال (ثم أتموا الصيام الى الليل) ولما كان من السنة أن يعتكف الانسان فى الصوم فانه آكد من غيره وأكثر ثوابا وأعظم أجرا وأقرب زلفى من الله عزّوجل أعقبه جلّ وعلا بقوله (ولاتباشروهنّ وأنتم عاكفون فى المساجد) ولقد كان الرجل يعتكف فيخرج الى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك ، فالجماع مبطل للاعتكاف ، فالنهى فى العبادات يوجب فسادها ، ولا يكون الاعتكاف إلا فى المساجد ، وقد كان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ، ثم اعتكف أزواجه من بعده ، والجماع حرام فى الاعتكاف ومادونه مكروه . واعلم أن الاعتكاف سنة ، ولا بدّ أن يكون فى المسجد الحرام عند سيدنا علىّ كما نقل عنه ، وفى المسجد الحرام ، ومسجد المدينة عند عطاء ، وفيهما وفى بيت المقدس عند حذيفة ، وفى كل مسجد جامع عند الزهرى وفى كل مسجد له امام ومؤذن عند أبى حنيفة ، وفى سائر المساجد عند الشافعى ومالك وأحمد ، وهوفى المسجد الجامع أفضل ، وهوفى الصوم أفضل ، وقال أبوحنيفة الصوم شرط ، وأقله لحظة عند الشافعى ، ولاحدّ لأكثره ، وأقله يوم عند أبى حنيفة ومالك بشرط أن يدخل فيه قبل طلوع الفجر ، ويخرج منه بعد غروب الشمس ، والجماع كما تقدّم حرام ومبطل له ، ومادون الجماع كقبلة مكروه ، و بعضهم يجعله مفسدا للصوم ، وأما الملامسة بغير شهوة فجائزة ، ثم قال تعالى (تلك) الأحكام التى ذكرت (حدود الله) أحكامه المحدودة (فلا تقربوها) بالمخالفة والتغيير (كذلك يبين الله آياته) شرائعه (للناس لعلهم يتقون) المحارم . ولما كان الصيام والفدية والوصية تصرّفا فى مال وقمعا للقوّة الشهوية ، وهكذا الاعتكاف فانه كفّ للنفس عما هومباح بحيث يلزم المرء مسجده فلايبرحه إلا لحاجة من لحظة الى أيام ، فهوكف للنفس عن الشهوات ناسب أن يلحق به الادلاء أى الالقاء بحكومات الأموال الى الحكام فلذلك قال (ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون) أنكم مبطلون فان حكم الحاكم لايحلل حراما ولايحرّم حلالا ، ولذلك روى أن عبد الله الحضرمى ادّعى على امرئ القيس الكندى قطعة أرض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله ﷺ بأن يحلف امرؤالقيس ، فهمّ به ، فقرأ رسول الله ﷺ « ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولاينظر اليهم يوم القيامة ولايزكيهم ولهم عذاب أليم » ، فارتدع عن اليمين وسلم الأرض الى عبد الله فنزلت هذه الآية ، ولما كان الصوم لايثبت إلا بالهلال ورؤيته وقد سأل معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم رضى الله عنهما النبى ﷺ فقالا مابال الهلال يبدو دقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يستوى ثم لايزال ينقص حتى يعود كما بدأ ، وهكذا كانت الأنصار اذا

أحرموا

أحرموا لم يدخلوا دارا ولافسطاطا من بابه وإنما يدخلون أو يخرجون من فرجة و يعدّون ذلك برّا بين الله لهم الأمرين بقوله (يسألونك عن الأهلة) جمع هلال سمى به لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته (قل هى مواقيت للناس والحج) معالم يوقت بها الناس مزارعهم ومتاجرهم وصومهم وفطرهم وحجهم (وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها) وليست الطاعة والتقوى بأن تأتوا البيوت من ظهورها أى بأن تدخلوها من ظهورها أى من خلفها فى الاحرام ، فبين لهم أن هذا ليس ببرّ وإنما البرّ من اتقى المحارم والشهوات فقال (ولكن البرّ) برّ (من اتقى) ماحرّم الله كالصيد ونحوه (وأتوا البيوت) ادخلوها (من أبوابها) التى كنتم تدخلونها وتخرجون منها قبل ذلك (واتقوا الله) واخشوا الله فى الاحرام (لعلكم تفلحون) لكى تنجوا من السخط والعذاب . و يقال ان كنانة وخزاعة هم الذين كانوا يفعلون ماتقدّم من الدخول من غير الباب فكانوا يدخلونها من الخلف ومن السطح (وقاتلوا فى سبيل الله) فى طاعة الله فى الحل والحرم (الذين يقاتلونكم) يبدءونكم بالقتال (ولا تعتدوا) ولا تبتدئوا (إنّ الله لايحب المعتدين) المبتدئين بالقتال (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) من مكة ، وهذا وعد من الله بفتح مكة لهم (والفتنة) الشرك بالله وعبادة الأوثان (أشدّ) أشرّ (من القتل) فى الحرم ، أومايفتتن به الانسان من المحن كالاخراج من الوطن أصعب من القتل (ولا تقاتلوهم) ابتداء (عند المسجد الحرام) فى الحرم (حتى يقاتلوكم فيه) فى الحرم بالابتداء (فان قاتلوكم) بالابتداء (فاقتلوهم كذلك) هكذا (جزاء الكافرين) بالقتل (فان انتهوا) عن الكفر والشرك وتابوا (فان الله غفور) لمن تاب (رحيم) لمن مات على التوبة (وقاتلوهم) أى المشركين (حتى لاتكون فتنة) شرك (ويكون الدين لله) أى خالصا لله لايعبد دونه شيء (فان انتهوا) عن قتالكم وعن الشرك والكفر (فلاعدوان) فلاسبيل لكم بالقتل (إلاعلى الظالمين) المبتدئين بالقتال (الشهرالحرام) الذى دخلت فيه لقضاء العمرة (بالشهرالحرام) الذى صدوك عنه لأنه ﷺ خرج معتمرا فى ذى القعدة سنة خمس أوست من الهجرة فصده المشركون عن البيت عام الحديبية ، فصالحهم على أن ينصرف عامه و يرجع من قابله فيقضى عمرته ، وقد تمّ ذلك ، أو يقال هذا فى القتال ، أى فان بدءوكم بالقتال فى الشهرالحرام فاقتلوهم فيه فانه قصاص (والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم) بالقتل فى الحرم ، أو بمطلق القتال (فاعتدوا عليه) فقاتلوه (بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله) واخشوا الله بالابتداء (واعلموا أن الله مع المتقين) معين المتقين بالنصر . ولما كان القتال يعوزه المال قال تعالى (وأنفقوا فى سبيل الله) تصدّقوا فى رضا الله ، وهوعام فى الجهاد وغيره (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أى ولاتلقوا أنفسكم الى التهلكة ، وهذه التهلكة إما بأن تمنعوا النفقة فى سبيل الله فيقوى العدوّ عليكم فتهلكوا ، واما بأن تسرفوا فى الانفاق حتى تفتقروا ، واما أن تنهكوا فتيأسوا من روح الله فتهلكوا (وأحسنوا) الظنّ بالله كما تحسنون أعمالكم وأخلاقكم ، وكما تحسنون بالانفاق على من تلزمكم نفقته ، وكما تحسنون بأداء الفرائض (إنّ الله يحبّ المحسنين) فى جميع ماتقدم ، وقد نزل قوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله » الى ههنا فى المحرمين مع النبىّ ﷺ لقضاء العمرة بعد عام الحديبية ، ومن الاحسان بأداء الفرائض تأدية الحج فلذلك أعقبه بقوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » وهوالمقصد الخامس الآتى . انتهى التفسير اللفظى .

إيضاح

يقول الله تعالى « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » فى أعمالهم الدنيوية والعبادات لاسيما الحج « وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها » كلا « ولكنّ البرّ من اتقى » بفعل الطاعات وترك المعاصى ، وفيه إيماء الى أن السؤال عن سبب تغير الهلال وتطوّره كالدخول للبيت من غير بابه ، فالبرّ

ألا يعكس المرء فى سؤاله ، وأن يأتى الأمور من أبوابها فى الدين والدنيا ، ولما كان الصوم والاعتكاف كفاالنفس عن الشهوات ، والقتال وملاقاة الأعداء من أهمّ أنواع الصبر ناسب أن يلزا فى قرن وتنظم جوهرة الصيام ، وفلذة الجهاد فى سمط واحد ، فكلاهما صبر ، وكلاهما رفع للنفس عن حال البهيمية ، فالصوم تعالى النفس عن شهوة الطعام ، والذلة للحطام ، والجهاد رفع لها عن أن تستخذى للظالمين أو تذلّ للقاهرين ، فالصوم جهاد الآمنين ، والقتال جهاد الخائفين على الأعراض والأموال ، وعلى الناس أن يربؤا بأنفسهم عن الدنايا فلا يذلوا للشهوات كالعجماوات ولا يسلموا قيادهم لمن يغلبونهم ، بل ليفكوا قيود الذلة عنهم ويرفعوا نير العبودية عن أعناقهم ويكسروا أصفاد الذلة وأغلال الظالمين وليقاتلوا فى سبيل الله ، الانسان فى جهاد مستمر وعمل دائم ، الانسان فى الحياة محوط بالأعداء من كلّ جانب ، فمنهم من هم فى داخل جسمه كالشهوات ، ومنهم من هم خارجه كالحيوان الكاسر ، والعدوّ المهاجم ، فليبدأ بقتال عدوّه الداخلى ، فاذا فرغ منه فأحراه أن يقهر الأعداء المهاجين .

وترى الأمة الاسلامية ، لما كانت تعظم الأعمال الدينية وترعاها حق رعايتها غلبت أعداءها ، فلما تفرقت أهواؤها وخضدت شوكتها تخطفتها الأعداء من كلّ جانب ، فان الناس اذا استعبدوا لشهواتهم وذلوا لأهوائهم تفرّقت كلمتهم ، وذهبت ريحهم ، وذاق بعضهم بأس بعض ، فلا يرى العدوّ أمامه الا أشباحا فارغة كأنها خشب مسندة ، ونفوسا مائتة ، وعقولا خامدة ، فيحصدهم حصدا ، ويتخذ سيدهم عبدا ، وهذا سرّ قوله ﷺ عند رجعته من احدى الغزوات « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر جهاد النفس » وسرّه ماعلمت من أن النفوس أيام أمنها واستيثاق الناس بأخلاقهم يدعو ذلك لائتلافهم ، وما غلبة العدوّ الأثمرة الائتلاف ، ولا ائتلاف اذا تعدّدت المآرب وتفرّقت القلوب وذهبت شذر مذر ، فلذلك قال « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » الآيات ، قدكان ﷺ ممنوعا من القتال ، فلما أمكنته اليدان وصده المشركون عام الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة وصالحهم على أن ينصرف عامه ذلك ، ثم يعود من قابل فيقضى عمرته ، ثم رجع فى ذى القعدة سنة سبع فقضى عمرته ، ولما أن أزمع على عمرة القضاء وتجهز هو وأصحابه خافوا أن لاتفى قريش بما قالت وتصدّهم عن المسجد الحرام ، وقد عاهدتهم أن تخلى مكة ثلاثة أيام فكره الصحابة أن يحاربوهم فى الشهر الحرام فى البلد الحرام فى حال الاحرام ، فنزل قوله تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » واياكم أن تقتلوا الشيوخ ، والنساء ، والصبيان ، والرهبان « ولا تعتدوا » بالقتال مفاجأة ، ولا بقتال المعاهد ، ولا تمثلوا بالمقتول ، ولا تبدءوا بالقتال من غير دعوة « إنّ الله لايحبّ المعتدين » ، ثم ازداد الأمر واحتدم ونزل « واقتلوهم حيث ثقفتموهم » والثقف الحذق ، كأن من أدرك عدوّه فهو حاذق ، وهذه الآية معممة للحكم بحيث يقتلون فى حلّ وفى حرم ، فهى أشبه الآيات بآية الخمر ، فلقد حرّم شيئا فشيئا ، فهكذا هنا منع القتال ، ثم شرع للقاتلين ، ثم عمم ، وقوله « وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » أى من مكة ، وقد فعل ذلك بمن لم يسلم يوم الفتح ، ولا ريب أن التعذيب بالاخراج من الوطن أشدّ من القتل فهو عذاب واصب لازم ، والموت راحة ، فالفتنة والابتلاء باخراجهم من مكة أشدّ من قتلهم ، ثم نهاهم عن ابتدائهم بالمقاتلة عند المسجد الحرام حتى يبدءوهم بالقتال ، وقوله « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة و يكون الدين لله » أى خالصا من الشيطان « فان انتهوا » عن الشرك فلا تعتدوا على المنتهين اذلا يعتدى إلا على من اعتدى ، هذه الآية ترجع لقوله تعالى « واقتلوهم حيث ثقفتموهم » للدرجة الثالثة ، وهى تعميم القتال ، وقوله « الشهر الحرام بالشهر الحرام » الخ تأييد للدرجة الثانية ، وهى قتال المعتدى بمثل مااعتدى «فان قاتلوكم» فى الشهر الحرام ، أو البلد الحرام أو فى حال الاحرام «فاقتلوهم» فان الحرمات ، وهى مايجب أن يحافظ عليها وتحترم يجرى فيها القصاص ، ثم

لخص هذا كله بقوله ، فقال « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم » ، وهو فى المرتبة الثانية ، ولما كان القتال لا يكون بلا مال أعقبه بقوله « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » بالكف عن القتال ، أو عن الانفاق فيه ، والباء زائدة : أى ولا تلقوا أيديكم : أى أنفسكم إلى التهلكة : أى الهلاك كما تقدم فى التفسير اللفظى .

ألا ترون أن الأمة الاسلامية لما نكصت على أعقابها ، ونامت على وساد الراحة الوثير ، وتقهقرت الى الوراء ، ونامت عن جمع المال ، وانفاقه فى الجهاد ، وسبقتها الأمم أخذت تبيد وتهلك ، فهذا هو الالقاء للتهلكة وذلك هو السر فى حشد الجنود ، ورفع البنود ، ومخر السفن فى البحار ، واعداد الآلات ، والتسابق فى الميدان والتنافس فى صنع المدمرات ، وسير الطيارات الطائرات « وأحسنوا » أعمالكم وأخلاقكم كما تحسنون محاربة العدو فليس يغنى دفع العدو عن الفضائل الأخرى كما لا تغنى تلك الفضائل عن الجهاد ، وكما أنه ليس البر قاصرا على أمر القبلة والتولى اليها ، وليس البر أن تسألوا عن الأهلة ، هكذا ليس يغنى جهاد العدو عن جهاد النفس ، فليكن المسلم جامعا لصفات الكمال بعيدا عن خصال الشر وإياكم أن يغركم أنكم مجاهدون أو صائمون ، فلذلك أعقبه بمسائل الحج ، و بعض مسائل من القتال ، وقبل ذكر آيات الحج وتفسيرها نسرد أحوال الحج ليسهل عليك أيها الذكى معرفة الآيات الآتية ، ولتكون لديك صورة تعقله بها .

شروط وجوب الحج خمسة

البلوغ والاسلام والعقل والحرية والاستطاعة ، ومن وجب عليه الحج ، وجبت عليه العمرة ، والاستطاعة أن يكون صحيحا ، وأن يأمن الطريق بأن تكون خصبة آمنة بلا بحر مخطر ولا عدو قاهر ، وأن يجد نفقة ذهابه وايابه إلى وطنه ، وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته فى هذه المدة ، وأن يملك مايقضى به ديونه ، وأن يقدر على مايحمله فى السفر ، ثم ان كان معضوبا ، وكان له مال فليستأجر من يحج عنه بماله بعد فراغ الأجير من حجة الاسلام لنفسه .

شروط صحة الحج

اثنان : الوقت والاسلام ، فيصح من الصبى ، فيحرم بنفسه ان كان مميزا ، و يحرم عنه وليه ان كان صغيرا و يفعل به مايفعل فى الحج من الطواف والسعى وغيرهما ، وأما الوقت ، فهو شوال ، وذو القعدة ، وتسع من ذى الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر ، فمن أحرم بالحج فى غير هذا الوقت ، فهى عمرة ، وجميع السنة وقت العمرة .

شروط وقوعه عن حجة الاسلام

الاسلام ، والحرية ، والبلوغ ، والعقل ، والوقت .

الأركان التى لايصح الحج بدونها خمسة

الاحرام ، والطواف ، والسعى بعده ، والوقوف بعرفة ، والحلق بعده على قول ، وأركان العمرة كذلك الا الوقوف .

كيفية الحج

إذا وصل إلى الميقات المشهور الذى يحرم الناس منه يغتسل و ينوى به غسل الاحرام ويكمل الطهارة و يخلع ثيابه المخيطة و يلبس ثوبى الاحرام فيرتدى و يتزر بثوبين أبيضين وعند ذلك ينوى الاحرام بالحج أو بالعمرة قرانا أو إفرادا ويكفى مجرد النية لانعقاد الاحرام و يسن أن يقرنه بالتلبية ، ثم يدخل مكة والأفضل

أن يكون من ثنية كداء بفتح الكاف كافعل رسول الله ﷺ ثم إذا دخل المسجد الحرام فالأفضل أن يكون من باب بنى شيبة ثم يقصد الحجر الأسود و يمسه بيده اليمنى و يقبله ثم يطوف طواف القدوم ولا يعوقه عن الاسراع لذلك إلا الصلاة المكتوبة فليصلها ثم ليطف ، وليكن فى هذا الطواف وفى كل طواف مراعيا شروط الصلاة من الطهارة من الحدث والخبث فى الثوب والبدن والمكان وستر العورة فالطواف بالبيت صلاة أباح الله فيها الكلام ، فاذا أتمّ الطواف سبعا فليأت الملتزم وهو بين الحجر والباب وليتعلق بالاستار وليدع الله بما شاء ثم ليصل خلف المقام ركعتين ثم يخرج من باب الصفا ، وهو جبل فيرقى مقدار قامة الرجل فيه ثم يسعى سبع مرات بينه و بين المروة وهو يكبر و يدعو و يمشى حتى ينتهى إلى الميل الأخضر فاذا بقى بينه و بين الميل ستة أذرع أخذ فى السير السريع وهو الرمل حتى ينتهى إلى الميلين الأخضرين ثم يعود إلى الهينة فاذا انتهى إلى المروة صعدها كالصفا ، وهذه مرة واحدة فاذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان وهكذا حتى يتمّ السعى ، وقد فرغ من طواف القدوم والسعى وهما سنتان والطهارة مستحبة للسعى وليست بواجبة واذا سعى فينبغى أن لايعيد السعى بعد الوقوف ويكتفى بهذا ركنا فانه ليس من شرط السعى أن يتأخر عن الوقوف وانما ذلك شرط فى طواف الركن نعم شرط كل سعى أن يقع بعد طواف أىّ طواف كان ، إذا انتهى الحاج يوم عرفة إلى عرفات ينبغى أن لايتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف واذا وصل قبل ذلك بأيام فطاف طواف القدوم فليمكث محرما وليكن الخروج إلى منى يوم التروية والمبيت بها و بالغدوّ منها الى عرفة لاقامة فرض الوقوف بعد الزوال ، اذ وقت الوقوف من الزوال الى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر وليغتسل للوقوف فاذا زالت الشمس خطب الامام خطبة لطيفة وقعد وأخذ المؤذن فى الأذان والامام فى الخطبة الثانية ، ووصل الاقامة بالأذان وفرغ الامام مع تمام اقامة المؤذن ثم جمع بين الظهر والعصر ، فاذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فليكن بسكينة ، ووقار حتى يبلغ المزدلفة فليغتسل ثم يجمع بين المغرب والعشاء فيها ، ثم اذا انتصف الليل يتزوّد الحصى منها فليأخذ سبعين حصاة فانها قدر الحاجة ، وليسر الى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة بعد أن يكون صلى الصبح فى الغلس بها ، ثم يدفع من المشعر الحرام قبل طلوع الشمس ثم اذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فينتهى الى منى ومواضع الجمرات وهى ثلاثة فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر حتى ينتهى الى جمرة العقبة ويرمى جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقيد رمح فيرمى سبع حصيات مكبرا مستقبلا القبلة أوالجمرة ، و يقول مع كل جمرة الله أكبر ، فاذا رمى قطع التلبية والتكبير الا التكبير عقب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر الى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق ثم ليذبح الهدى ان كان معه ثم ليحلق بعد ذلك ، والمرأة تقصر الشعر ، والأصلع يستحب له امرار الموسى على رأسه ومهما حلق بعد رمى الجمرة فقد حصل له التحلل الأوّل وحلّ له كل المحظورات الا النساء والصيد .

والمحظورات فى الحج والعمرة ستة : الأوّل لبس القميص والسراويل والخف والعمامة ، وانما يلبس ازارا ورداء ونعلين ولا ينبغى أن يغطى رأسه ، وللمرأة أن تلبس كل مخيط بعد أن لاتستر وجهها بما يماسه فاحرام الرجل فى رأسه واحرامها فى وجهها ، الثانى الطيب فليجتنب كل مايعده العقلاء ، طيبا فان تطيب أولبس فعليه دم شاة ، الثالث الحلق والقلم وفيهما الفدية أعنى دم شاة ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر ، الرابع الجماع وهو مفسد قبل التحلل الأوّل وفيه بدنة أو بقرة أوسبع شياه وان كان بعد التحلل الأوّل لزمه البدنة ولم يفسد حجه ، الخامس مقدمات الجماع كالقبلة والملامسة التى تنقض الطهر مع النساء فهو محرّم وفيه شاة ، وكذا فى الاستمناء ويحرم النكاح والانكاح فيه ولاينعقد ، السادس قتل صيد البرّ أعنى مايؤكل أوهو متولد من الحرام والحلال ، فان قتل صيدا فعليه مثله من النعم يراعى فيه

التقارب ، هـذه هي المحظورات ، وقد قلنا انه يرمي جمرة العقبة قد تحلل التحلل الأوّل ولم يبق عليـه من المحظورات الا النساء والصيد ثم يفيض إلى مكة و يطوف كما وصفناه أوّلا ، وهذا الطواف طواف ركن في الحج و يسمى طواف الزيارة ، وأوّل وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر ، وأفضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له أن يؤخر إلى أيّ وقت شاء ولـكن يبقى مقيدا بعلقة الإحرام ، ولا يحل له النساء إلى أن يطوف ، فاذا طاف تمّ التحلل وحلّ الجماع وارتفع الاحرام بالـكلية ولم يبق إلا رمى أيام التشريق والمبيت بمنى وهي واجبات بعد زوال الاحرام على سبيل الاتباع للحج ، ثم بعد هـذا الطواف السعى ان لم يكن سعى بعـد طواف القدوم والا اكتفى به ، وأسباب التحلل ثلاثة : الرمى والحلق والطواف الذى هو ركن ، ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين ، والأحسن أن يرمى ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف ثم يخطب الامام خطبة وداع رسول الله ﷺ ، ومتى فرغ الحاج من طواف الركن المذكور عاد الى منى للمبيت والرمى وتسمى ليلة القرّ لأن الناس يقرون فيها غدا ولاينفرون ، فاذا أصبح اليوم الثانى من العيـد وزالت الشمس اغتسل للرمى وقصـد الجمرة الأولى التى تلى عرفة فيرمى اليها بسبع حصيات ثم يتقدم الى الجمرة الوسطى و يرمى كما رمى الأولى و يقف فى هذه وفى الأولى بعد الرمى و يكبر و يهلل و يدعو بحضور قلب ثم يتقدم الى جمرة العقبة و يرمى سبعا ثم يرجع الى منزله و يبيت تلك الليلة بمنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأوّل ، و يصبح فاذا صلى الظهر فى اليوم الثانى من أيام التشريق ورمى فى هـذا اليوم احـدى وعشرين حصاة كاليوم الذى قبله فهو مخير بين المقام بمنى و بين العود الى مكة ، فان خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شىء عليـه وان صبر الى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمى فى يوم النفر الثانى أحدا وعشرين حجرا كما سبق ، وفى ترك المبيت والرمى اراقة دم وليتصدق باللحم ، وله أن يزور البيت فى ليالى منى بشرط أن لا يبيت الا بمنى ، هذا هو الحج من أوّله الى آخره مختصرا واضحا يسر أولى النهى .

العمرة

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده فليغتسل وليلبس ثياب الاحرام كما سبق فى الحج ، ويحرم بالعمرة من ميقاتها ، وأفضل مواقيتها الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية ، و ينوى العمرة و يلبى و يصلى فى مسجد عائشة بعـد ذلك ركعتين و يدعو الله بما شاء ثم يعود الى مكة وهو يلبى ، ومتى دخل المسجد ترك التلبية ، وطاف سبعا وسعى سبعا كما تقدم ثم يحلق رأسه ، وقد تمت بهذا عمرته ، وهـذه الطريقة : أى الحج أوّلا ثم العمرة تسمى الافراد .

وهناك طريقة ثانية : وهى القران وهى أن يجمع بين الحج والعمرة ، فيقول عند الاحرام لبيك بحجة وعمرة معا فتندرج العمرة فى الحج كما يندرج الوضوء فى الغسل ويكون السعى الذى بعد طواف القدوم محسوبا منهما ولـكن الطواف الأوّل ليس بمحسوب كما تقدم فيكون طواف الركن بعد الوقوف وليس على الحاج شىء فى هذا الا شاة الا أن يكون مكيا فليس عليه شىء .

وهناك طريقة ثالثة : تسمى التمتع وهى أن يجاوز الميقات محرما بعمرة و يتحلل بمكة ، ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج وتلزمه شاة مالم تكن عمرته فى غـير أشهر الحج ومالم يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لاحرام الحج ، فاذا لم يجد الشاة فليصم ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم النحر متفرقة أومتتابعة وسبعة أيام اذا رجع الى الوطن ، والأفضل الافراد ثم التمتع ثم القران ، هذا ماأردت ذكره فى العمرة والحج وبهذا تتصوّر الأحكام والأماكن وتفسير آيات الحج ، وتفهم ماسيأتى من قوله تعالى «فمن تمتع بالعمرة الى

الحج» وقوله «فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام» وقوله « فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه » وهذه الأحكام على مذهب الشافعى ، وفى بعضها خلاف سيأتى فى تفسير الآيات

أسرار الحج وبقية أركان الاسلام

اعلم أن الانسان فى الدنيا كولد الموسر التاجر أوالملك الذى ورث الثروة عن والده ثم انه رباه فزاد هو فى تجارته وزاد نماء أمواله فالانسان خلق فى الدنيا تحيط به المحن والوصب ونكبات الدهر ، فاذا تحملها وصبر عليها وقويت همته واستجمع عزيمته ، كان ذلك قوّة عظيمة لسعادته فى الدنيا لايحس بها الصبيان ولا الحيوان فكلاهما لاصبر له لأن الصبر بالعقل وهو خاص بأهله ، ان النعيم والترف واللذات والتمتع بالطعام والشراب وتقارب الجنسين قد اشترك فيه الصبيان والحيوان مع العقلاء ، وهى مضطربة غير ثابتة ، ولاسعادة الامابناه الانسان لنفسه بنفسه ، وذلك بأن يتخذله من الحوادث درعا فيتقى إذذاك وقع الحوادث فتكون عليه هينة ، وتمر عليه أنواع الفرح والترح فلا تؤثر فى سعادته ، وهذا هو المذكور فى آية «و بشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة » وقد تقدم الكلام عليها فراجعها هناك ، وهذه أشبه بالميراث فى مثال الصبى الغنى لأنها عامّة لسائر الناس ، ثم ان الله أراد أن يزيد الانسان اسراعا فى الرقى و يعطيه أجنحة و يقوّى سيره الى العلا ، فأنزل عليه الكتب وألهمه دراسة العلوم ، ومنها مانزل بالوحى على بعض الخاصة من خلقه فأراد أن يهذبهم ، وذلك بالتخلية والتحلية فالتخلية بالجوع تارة مع ترك النساء فى الصوم وتارة بنزع ماتميل اليه النفس وماتعلق به القلب من المال بالزكاة والصدقات ، ان العاقل كلما زاد عقلا زاد معرفة بالعشيرة و بالأمّة التى هو منها فيجزع لما حلّ بقريبه وولده وأبويه وصحبه وأمّته ، فاذا صبر كان ذلك جمالا لنفسه وأجنحة يطير بها الى المعالى وههنا فى الزكاة يبذل المال للفقراء منهم فيكون مواسيا لهم فهو عند الحزن عليهم صابر وعند الغنى والثروة شاكر ويكون هو فى نفسه قد قلل العلائق التى تربطه بهذه الدنيا و باللذات فيكون زاهدا فيها فلا ينقطع فؤاده لذكر الموت ، ولا يهلع ويجزع لموت دابة أوضياع مال ، ويكون إذذاك كالحر الذى لم تستعبده هذه الدنيا ثم انه كما تخلى عن شهوة الطعام والشراب والنساء فى أيام رمضان وتخلى عما ربطه بأوثق رباط من المال هكذا يتخلى عن اللباس فى الحج ، فلا يلبس المخيط ، وانما يقتصر على ازار ورداء أبيضين كالكفن ، وقد كشف رأسه وهو مع القوم عراة تحت حرارة الشمس ، وقد خرجوا من الأهل والوطن وأنفقوا المال وتجردوا من الثياب وحرّم عليهم النساء ، هذا هو التخلية فى الزكاة والصيام والحج ، أما التحلية فان الصلاة فيها مناجاة الله عزوجلّ ، وقد توضأ الانسان ونظف ثوبه ومكانه وتوجه قلبه الى من فطره فأخذ يذكر بلسانه ، وقد أحضر فى الفؤاد أنه رحمن رحيم عمت رحمانه سائرالخلائق بتصويرهم ورزقهم واغداق النعم عليهم ، فيقول إياك نعبدو إياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم الخ ، وهو حاضر فى قلبه كأنه يراه و يشعر فى قلبه بهذه الرؤية ، وهذه هى التحلية ، فبالزكاة و بالصيام و بانفاق الأموال فى السفر للحج ، وفى الهدى وترك المخيط من الثياب والنساء تخلية عن علائق هذه الحياة القصيرة ، وأما التحلية ففى المناجاة والتوجه لله فى « إياك نعبد » وفى الاستعانة به تعالى و فى الحج ، قائلا عند الاحرام [لبيك اللهم لبيك لبيك لاشريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك لبيك وسعديك والخير كله بيديك والرغباء اليك لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد] فهذه هى التحلية ، ففى الحج تخلية عن المال وعن النساء وعن الطيب وعن حظوظ النفس بالامتثال فى السعى بين الصفا والمروة و بالطواف و برمى الجمرات التى يجهل العبد حكمتها ، فبهذا كله تخلى المرء عن حظوظه وشهواته وامتثل أمر الله وهو

تخايه ، وفى التلبية والتوجه لله تحلية بالرجوع الى من خلقنا وفطرنا وصوّرنا ، ولا تظن ان أعمال الحج خالية من الحكمة المعقولة كلا فان كل ماتوجه به العبد من قول أوعمل أدّى المقصود منه فكما أن فى أقوال الصلاة توجها بالقلب ، هكذا الطواف والسعى ورمى الجمرات توجه بالقلب ، وكما أن هناك فرقا بين فعل اللاعبين والمصارعين فى وقوفهم وانحنائهم وأعمالهم و بين الصلاة فى الركوع والقيام ، وأن الأوّل يقصد به تقوية العضلات والمسابقات وآثارها فى النفس لاتخرج عما قصدت له ، والثانية يكون فيها الخشوع والخضوع والرجوع الى الله والآثار حقيقة تكون بحسب ماوجهت به وتظهر على الجوارح والأعضاء بالتجارب والمشاهدة فى سائر نوع الانسان ، هكذا يكون الفرق بين الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمرات الثلاث و بين الأفعال التى تماثلها من عوائد الانسان ، وتكون هذه الأفعال مستحضرا بها عظمة الله تعالى والطواف ببيته الذى جعله حرما آمنا محترما حرم صيده والقتال فيه اعظاما واجلالا لصاحبه ، وهكذا يسعى بين الصفا والمروة ، وهذا السعى يضاهى تردّد العبد بفناء دار الملك جائيا ذاهبا اظهارا للخلوص فى الخدمة ورمى الجمرات كالتبرؤ من الذنوب والخطايا ، ولاجرم أن هذه الأفعال يصحبها عند القصدماجعلت له ، ولذلك نجد عند الحجاج من المسرات والابتهال وذكر الله مالا يوجد فيما يناظره من الأعمال الأخرى لنوع الانسان فكما أن الألفاظ لها أثر على حسب المدلولات ، هكذا الأفعال لها آثار على مقتضى ماجعلت له فى الشرع دينا وفى اصطلاح الناس عرفا ، ألاترى أن التحية عند بعض الامم بأن يتفل على وجه صاحبه ، وعند بعضهم بأن يضربه ، وعند بعضهم بأن ينام على الأرض منبطحا ، وعند بعضهم بأن يولى ظهره اليه وكل عمل من هذا يؤدّى المعنى الذى جعل له عرفا ، واذا لم يقم به الانسان وأخلّ به عوقب على مقتضى ذلك بالعداوة والبغضاء ، فاذا كان هذا فى عادات الناس وهم عليه يحاسبون بعضهم ، فهكذا جعل الله هذه الأعمال من الركوع والسجود والطواف والسعى والرمى قوالب وظواهر لذكر الله عزوجلّ وامتثالا لأمره واستحضارا لصفاته وجلاله وتبريا من الذنوب ومن المادة ومن الدنيا . هذا ، ولتعلم أن الحج المبرور هو الذى فيه هذه هذه المعانى الشريفة ، وعلامته أن يرجع صاحبه وقد عشق ربه وتبرأ من الدنيا وفرح بالموت قبل حاوله وأحبّ لقاء الله وأعطى كل ذى حق حقه ، وهذا سر الحديث « الحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة » . أما الصلاة والحج اللذان خلوا من هذه المعانى فان صاحبهما لاينال منهما تلك السعادة العالية اهـ

(المقصد الخامس

فى الحج و بعض أحكام القتال وغير ذلك)

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * الْحَجُّ أَشْهُرٌ

مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ
خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّٰهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوٰى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللّٰهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ
الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ
أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا
اللّٰهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي
الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً
وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللّٰهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَاذْكُرُوا
اللّٰهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ
اتَّقٰى وَاتَّقُوا اللّٰهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّٰهَ عَلٰى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلّٰى سَعٰى فِي الْأَرْضِ
لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّٰهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّٰهَ
أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللّٰهِ وَاللّٰهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللّٰهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ
وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللّٰهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ
ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * زُيِّنَ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّٰهُ
يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ
فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّٰهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا

اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ * يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

التفسير اللفظى

ولما كان الحج ، قد يمنعه العدوّ كما اتفق لرسول الله ﷺ عام الحديبية سنة ست وحصرهو وأصحابه وحبسوا عن المضىّ فيه ناسب أن يؤتى بالحج عقب الجهاد ، فقال (وأتموا الحج والعمرة لله) أى ائتوا بهما تامين مستجمعى المناسك لوجه الله تعالى فهما واجبان (فان أحصرتم) أى منعكم العدوّ ، يقال : أحصره وحصره كما يقال صده وأصده ، وليس عاما لكل مرض أوغيره كما عند الحنفية ، لقول ابن عباس رضى الله عنهما لاحصر الاحصر العدوّ ، وعليه الشافعى ومالك ، ولايلحق به غيره من كسر أوعرج أونحوهما الا اذا شرط ، لقوله عليه الصلاة والسلام لضباعة بنت الزبير حجى واشترطى وقولى : اللهمّ محلى حيث حبستنى (فما استيسر من الهدى) أى فعليكم ما استيسر من الهدى جمع هدية من بدنة ، أو بقرة ، أو شاة ، فمن أحرم بالحج أو العمرة ومنع من اتمامه لعدوّ أو غيره على قول فليتحلل منه ، وليذبح هديا ، وليحلق رأسه ، ولا يحلق رأسه حتى يبلغ الهدى محله : أى مكانه الذى يذبح فيه ، وهو حيث أحصر من حل أو حرم (ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله) والحنفية على أن محله الحرم فلايحلق رأسه ، حتى يعلم أن من أرسله بلغ الحرم بالهدى ان كان معتمرا ، ويوم النحر ان كان حاجا ، والأوّل أوجه ، لما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين فحال كفار قريش دون البيت فنحر رسول الله ﷺ وحلق رأسه ، ثم أخذ يشرح حالا أخرى لحلق الرأس غير حلق التحلل ، فقال (فمن كان منكم مريضا)

مرضا يحوجه الى الحلق (أو به أذى من رأسه) كجراحة أو قمل (ف)عليه (فدية) ان حلق (من صيام) ثلاثة أيام (أو صدقة) ثلاثة آصع على ستة مساكين (أو نسك) جمع نسيكة ، وهى الذبيحة ، لما روى أنه عليه الصلاة والسلام . قال لكعب بن عجرة « لعلك آذاك هوامك ؟ قال نعم : يارسول الله ، قال احلق وصم ثلاثة أيام ، أو تصدّق بفرق على ستة مساكين ، أو انسك شاة » والفرق ثلاثة آصع ، ثم أخذ يشرح حكما ثالثا ، وهو حكم ما اذا أحرم أوّلا بالعمرة من الميقات ، ثم تحلل منها وتمتع بالمحظورات فى الاحرام الى أن يحرم بالحج فعليه مثل ما على المحصر بدنة ، أو بقرة ، أو شاة ، وهو معنى قوله تعالى (فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى) أى فعليه ذلك ، وهو دم جبران يذبحه اذا أحرم بالحج ولا يأ كل منه ، وقال الحنفية دم نسك ، فهو كالأضحية (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج) أى فعليه صيام ثلاثة أيام فى أيام الاشتغال به بعد الاحرام ، والأحبّ أن يصوم السابع والثامن والتاسع من ذى الحجة (وسبعة إذا رجعتم) أى فرغتم من أعمال الحج سواء كان فى طريقكم أو عند أهلكم ، وهو مذهب الحنفية ، وللشافعى قول إذا رجعتم إلى أهلكم (تلك عشرة كاملة) فليست السبعة للتكثير (ذلك) الحكم المذكور (لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) بأن كانوا على مسافة قصر فأكثر من الحرم عند الشافعية ، وعند الحنفية أهل المواقيت من قرن ويلملم ، والجحفة ، وذى الحليفة ، وذات عرق ، فكل هؤلاء ومن دونهم الى مكة حاضرو المسجد الحرام ، ومن تمتع من هؤلاء وجب عليه دم ، وأما حاضرو المسجد الحرام فليس عليهم دم لأنهم ليسوا ممن يجب عليهم أن يحرموا من الميقات ، وعند الحنفية ليس لهم التمتع وان فعلوه فعليهم دم جناية (واتقوا الله واعلموا أنّ الله شديد العقاب) وهو ظاهر ، ثم قال (الحج أشهر معلومات) معروفات ، وهى شوّال ، وذو القعدة ، وتسع من ذى الحجة بليلة النحر عند الشافعية ، والعشر عند الحنفية ، وذو الحجة كله على مذهب مالك (فمن فرض فيهنّ الحج) أى أوجب على نفسه بالاحرام فيهنّ عند الشافعية ، أو بالتلبية ، أو سوق الهدى عند أبى حنيفة (فلا رفث) أى لاجماع أو لا فحش فى الكلام (ولا فسوق) لاخروج عن حدود الشرع بالسباب وارتكاب المحظورات (ولا جدال) لامراء مع الخدم والرفقة (فى الحج) أيامه : أى لايجوز ذلك (وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزوّدوا فان خير الزاد التقوى) أى وتزوّدوا لمعادكم بالتقوى فانها خير زاد ، وقيل نزلت فى أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزوّدون ويقولون نحن متوكلون ، فيكونون كلا على الناس ، فأمروا أن يتزوّدوا ويتقوا الابرام والتثقيل فى السؤال (واتقون ياأولى الألباب) وفى هذه الآية السابقة دليل على وجوب العفة ، وترك أذى الناس وعدم التثقيل عليهم فناسب أن يؤتى بعدها بما يناسبها من التكسب ، وقد كان للعرب أيام جاهليتهم تجارات ومكاسب فى سوق عكاظ ، وذى المجاز ومجنة فتأثموا أن يتجروا فيها ، فنزل قوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) أى عطاء ورزقا وربحا فى التجارة (فاذا أفضتم) أى دفعتم أنفسكم كما يفيض الماء اذا صببته بكثرة (فاذكروا الله عند المشعر الحرام) وهو جبل يقف عليه الامام ، ويسمى قزح (واذكروه كما هداكم) أى اذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة للمناسك وغيرها (وإن كنتم من قبله لمن الضالين) أى قبل هدايته لكم (ثم أفيضوا) ياقريش (من حيث أفاض الناس) أى كسائر الناس ، لامن المزدلفة وأنتم مترفعون عنهم (واستغفروا الله) من جاهليتكم فى تغيير المناسك (إنّ الله غفور رحيم . فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا) كان العرب فى الجاهلية إذا قضوا مناسكهم ذكروا مناقب آبائهم ومفاخر أجدادهم نظما ونثرا كما هو معلوم فى سوق عكاظ وغيره ، فلما جاء الاسلام أمروا فيه أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم أو كذكر ذاكر أشدّ ذكرا منهم لآبائهم ، وذلك ليعرفوا حقه عزّ وجلّ وليكونوا أمة وسطا متحدة ، فذكر الله يجمعهم ، وذكر الآباء يفرّقهم ويشتتهم ، وذلك هو التضامن

والتحابب العام ، وتوجه النفوس إلى الوحدة الدينية العامة ، والتنائى بها عن الوحدة الخاصة ، وأو بمعنى بل ، وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن هذه الآية ، قيل له قد يأتى على الرجل اليوم ولا يذكر فيه أباه ، فقال ليس كذلك ، ولكن أن تغضب لله عزّ وجلّ اذا عصى أشدّ من غضبك لوالديك إذا شتما انتهى .

ولاجرم أن هذا هو النظام العام ، والناموس الشامل ، والقانون العام الكامل (فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) كانوا فى الجاهلية يقولون : اللهمّ أعطنا ابلا ، وبقرا ، وغنما ، أو يقولون : اللهمّ ان أبى كان عظيم الفئة كبير الجفنة كثير المال ، فأعطنى مثل ماأعطيته ، وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة [ثوب من خز أوصوف معلم] ان أعطى رضى وان لم يعط سخط تعس وانتكس ، وان شيك فلا انتقش » والانتقاش اخراج الشوكة ، وشيك دخلت الشوكة فى جسمه ، وحسنة الدنيا كالصحة والعفاف ، وتوفير الخير ، والحسنة فى الآخرة الثواب والرحمة ، فدخل فى الأوّل المرأة الحسنة ، وفى الثانى الحوراء ، وكذلك العلم والعمل فى الأوّل أيضا « وقنا عذاب النار » أى احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى عذاب النار (أولئك) الذين ذكروا من الفريقين (لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) فيحاسب الناس فى لمحة ، والساعة قريب ، فليعملوا قبل أن تقوم فيحاسبهم (واذكروا الله فى أيام معدودات) أى أيام التشريق ، وهى أيام منى ، ورمى الجمار ، وسميت معدودات لقلتهن ، وهى ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، أوّلها اليوم الحادى عشر من ذى الحجة ، ويكون التكبير ادبار الصلوات وعند ذبح القرابين ، ورمى الجمار وغيرها (فمن تعجل) أى استعجل النفر (فى يومين) أى يوم القر ، والذى بعده : أى فمن نفر فى ثانى أيام التشريق بعد رمى الجمار عند الشافعية ، وقبل طلوع الفجر عند الحنفية (فلا إثم عليه) باستعجاله (ومن تأخر فلا إثم عليه) حتى رمى فى اليوم الثالث بعد الزوال عند الشافعى ، أوقبل الزوال جوازا عند الحنفية فلا إثم عليه فى التأخير ، ولقد كان الجاهلية يختلفون ، فنهم من أثم المتعجل ، ومنهم من أثم المتأخر ، والذى ذكر من الأحكام (لمن اتقى) اذلا منتفع به سواه (واتقوا الله) أيها الناس فى جميع أحوالكم وأموركم (واعلموا أنكم إليه تحشرون) .

كان الجاهلية يذكرون آباءهم فأمروا بذكر الله جلّ جلاله ، وأمر الحاج بذكر الله أيام التشريق فناسب أن يذكر من هو كالأخنس بن شريق الثقفى اذ كان حسن المنظر حلو المنطق يوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعى الاسلام ، ويقول انى أحبك ، ويحلف بالله على ذلك ، وقد خنس : أى اختفى يوم بدر بثلثمائة رجل من بنى زهرة عن قتال رسول الله ﷺ يوم بدر ، وقال : ان محمدا ابن أختكم ، فان يك كاذبا كفاكموه الناس ، وان يك صادقا كنتم أسعد الناس به ؟ قالوا : نعم مارأيت قال انى أخنس بكم فاتبعونى ، فذلك قوله تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا) أى فى شأنها من أسباب المعاش والتجارة وغيرها (ويشهد الله) على أن (مافى قلبه) موافق لكلامه (وهو ألدّ الخصام) شديد العداوة والمخاصمة (واذا تولى) أعرض أو صار واليا (سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) كما فعل الأخنس بثقيف إذ بيتهم ، وأحرق زرعهم ، وأهلك مواشيهم ، أوكما يفعل ولاة السوء بالقتل والاتلاف والظلم (والله لايحبّ الفساد) لايرضاه (واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم) الأنفة : أى حملته حمية الجاهلية الأولى على الاثم الذى يؤمر باتقائه لجاجا ، من قولك أخذته بكذا : أى حملته عليه (فحسبه جهنم) أى كفته جزاء وعقابا (ولبئس المهاد) والمهاد : الفراش ، ثم جاء بضدّه ، فقال (ومن الناس من يشرى نفسه) يبيعها (ابتغاء مرضات الله) أى يبذلها فى الجهاد طلبا لرضاه ، أوفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ذلك

أن صهيب بن سنان الرومى أخذه المشركون وعذبوه ليرتد ، فقال : انى شيخ كبير لا ينفعكم كفرى ولا يضركم ايمانى ، فخذوا مالى ودعونى ، فقبلوه منه وأتى المدينة (والله رءوف بالعباد) لأنه أرشدهم إلى مثل هذا الشراء ، ولما كانت مناسك الحج وآداب الصيام والجهاد تراد لتهذيب النفوس ، وائتلاف القلوب ، واتحاد الشعوب ، وكان فريق من الناس لايثوبون إلى رشدهم ولايرجعون عن غيهم ، وفريق اهتدى ، فالأول كالأخنس المنافق ابن شريق ، والثانى كصهيب دعا الله المسلمين كافة إلى السلم والطاعة ونبذ المشاحة والصلح والايمان بسائر الأنبياء ليتحد المتشاكسون و يتفق المختلفون ، فقال (ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم) أى استسلموا لله وأطيعوه تجلة ظاهرا وباطنا حال كونكم (كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان) بالتفرق والتفريق (انه لكم عدو مبين) ظاهر العداوة (فان زللتم) عن الدخول فى السلم (من بعد ماجاءتكم البينات) الآيات والحجج الشاهدة على أنه الحق (فاعلموا أن الله عزيز) لايعجزه الانتقام (حكيم) لاينتقم إلابحق : ألا وان هذا النوع البشرى سعادته بالصفاء والسلم ، وشقاؤه بالخلاف والشقاق ، فاذا تفرقت الأهواء وزلت القدم واتبع كل امرئ هواه جاءهم العذاب من حيث يرجون النعيم ، وحل بهم الشر حيث يرجون الخير هذا هو الناموس العام والسبيل الالهى ، ألا ترى أن الناس يعذبون بنفس شهواتهم و يذلون بأطماعهم فمن لم يطع فقد انقلبت لذاته آلاما وصارت أفراحه أحزانا كما يرى فى الفاجرين الفاسقين حين يقلب الدهر لهم ظهر المجن ، وكذلك الأمم الكاسلة المتكسة النائمة على وساد الراحة العاكفة على الشهوات يستخدمها أعداؤها بنفس هذه الصفات ، فمثل الأمم إذ ذاك كما قال الله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) أى أمره أو بأسه (فى ظلل من الغمام) السحاب الأبيض حيث يرجون الخير (والملائكة) لأنهم المسخرون للعالم القائمون بتدبيره (وقضى الأمر) تم بهلاكهم (والى الله ترجع الأمور) فجاءهم الشر حيث ينتظرون الخير ، والضر حيث ينتظرون النفع كما هى حال ذوى الشهوات والمغرورين والغافلين وأكثر أمم الشرق لاسيما المسلمين ، فاذا لم يستيقظ المسلمون وفرحوا بأموالهم وأبنائهم كان مافرحوا به عليهم شقاء و بلاء ، ثم ضرب مثلا ببنى إسرائيل إذ يقول (سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة) معجزة ظاهرة وتبيان فى التوراة على أيدى أنبيائهم شاهدات بالحق فأولوا و بدلوا وزاغوا وأتوا بأكاذيب كما يكذب جهلة الوعاظ اليوم على الأمة الاسلامية ، فوعدوهم على قليل العمل كبير الأجر ، فكان الهدى سبب الضلال والخير سبب الشر (ومن يبدل نعمة الله من بعد ماجاءته فان الله شديد العقاب) فيعاقبه أشد العقوبة لارتكابه أشد الذنوب فيجعل هلاكه بما ظن أنه حياته كما جعل آيات الكتاب الهاديات سببا للضلال . وقد فعل ذلك باليهود كما فعله أيضا بالأمة الاسلامية اليوم ، فلكم افترى الأحبار والرهبان حفظا للرياسة ؟ فسلط الله عليهم المسلمين ، هكذا كذب كثير من أهل العلم فى الأقطار الاسلامية وفسروا الأحاديث والآيات على حسب أهوائهم وأزاغوهم عن حكم القرآن ، فسلط عليهم من سخرهم ، فكان المفروح به هو المحزن ، والمطلوب هو المرهوب كالظلل من الغمام ولما كان ذلك ناتجا من الغرور بالحياة أردفه بقوله (زين للذين كفروا الحياة الدنيا و يسخرون من الذين آمنوا) كبلال وعمار وصهيب (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب) فى الدارين ولما كانت الآية السالفة دعوى للمسلمين أن يدخلوا فى السلم والحب العام والطاعة ولايتفرقوا : أتبعها بما يذكر ما كانت عليه الأمم قديما ، فلقد كانوا فى جنة السعادة ونعيم الحياة إذ (كان الناس أمة واحدة) وعاشوا قرونا كثيرة كما تشهد بذلك المكتشفات الحديثة ، وكما يرمى إليه الدين البرهمى فى الهند والبوذيون ، فهذه الأمم تروى عن أسلافها السلام العام ، وهكذا تشير أشعار هوميروس الشاعر اليونانى وغيره ، فحصل الطمع والجشع فاختلفوا (فبعث الله النبيين) وبدأ بنوح ، وكانت الأمم قبله فى هناء وسعادة (وأنزل معهم

الكتاب)

الكتاب) أى جنسه ملتبسا (بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) أى فى الحق الذى اختلفوا فيه فجاء الأمر معكوسا والوضع مقلوبا ، فجعلوا ما كان سبب الهداية للضلال وما هو الخير شرا (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم) حسدا وظلما لحرصهم على الدنيا (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا) أى للحق الذى اختلف (فيه) المختلفون (من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) فانه يدعو الناس الى الوئام والاتحاد ويرشدهم للمحبة والوداد ويذكرهم بما سلف للأمم قبل نوح ، فقد كانوا فى سعادة وراحة ، فاما ضلوا أرسل الرسل فغير العلماء واتخذوا الديانات شبكة صياد وحيلة محتال ، و ينادى الله الأمم أن ترجع سعدها وترد مجدها القديم والنعيم ، ولما كان السلم العام لم يزل بعيدا وأشرب نوع الانسان العداوة والبغضاء ، واستنبط الظلم وراش سهم الغدر : أمر الله النبى والمؤمنين أن تكون حياتهم صبرا وجهادا ليقيموا الحق حسب الطاقة .

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا * فما حيلة المضطر إلى ركوبها

فقال (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) حالهم التى هى مثل فى الشدة (مستهم البأساء والضراء) بيان لتلك الحال مستأنف (وزلزلوا) أزعجوا ازعاجا شديدا (حتى يقول الرسول والذين آمنو معه متى نصر الله) لتناهى الشدة ، و يقول بمعنى قال ، فقيل لهم تبشيرا (ألا إن نصر الله قريب) فالانسان فى الحياة مجاهد لعدوه الخارجى الظالم ، و يعوزه الثبات ولعدوه الداخلى و يعوزه الصبر وعند اشتداد الخطب يكون الفرج بغلبة الحق على الباطل فى الأمم و بارتياض النفس وراحتها فى الأخلاق ودخول دار السلام بعد الموت ، ولما كان انفاق المال أشق على النفس وأشق منه هلاكها أخذ يحرض على الانفاق والجهاد .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عمرو بن الجموح الأنصارى رضى الله عنه كان شيخا هما ذا مال ، فقال يارسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها ؟ فأجيب ببيان المنفق عليه ، وذلك قوله تعالى (و يسألونك ماذا ينفقون قل ماأنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وماتفعلوا من خير فان الله به عليم) الخير المال ، وقدم الوالدين لأنهما واجب حقهما أولا ، و يليهما الأقرب فالأقرب ثم اليتامى الخ ، و إنما كانت الاجابة ببيان المنفق عليهم ، لأن النفقة لا يعتد بها إلا اذا وقعت موقعها . قال الشاعر :

ان الصنيعة لاتعد صنيعة * حتى يصاب بها طريق المصنع

ثم أتبعه بذكر الجهاد بالنفس ، فقال (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) والنفوس البشرية إذا تعودت الخير ألفته ، فصار ملذوذا فلا سعادة إلا فى لذة النفس ورضائها (والله يعلم) ماهو خير لكم (وأنتم لاتعلمون) ولو أن الناس تركوا أنفسهم وهواها فزينت لهم الحياة الدنيا لصار المحبوب لهم نقمة عليهم كما هو مقصود الآيات السابقة .

وهكذا النفوس تحب القعود عن الغزو ، وهوشر لما فيه من طمع العدو ، لأنه اذا علم ميلكم الى الراحة والدعة والسكون قصد بلادكم ، ونزل بساحتكم ، واذا علم أن فيكم شهامة كف عنكم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ يوم الفتح « لاهجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، واذا استنفرتم فانفروا » وقال الزهرى : كتب الله القتال على الناس جاهدوا أولم يجاهدوا ، فمن غزا فبها ونعمت ، ومن قعد فهو عدة ان استعين به أعان ، وان استنفر نفر ، وان استغنى عنه قعد . قال الله تعالى « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى » ولوكان القاعد تاركا فرضا لم يعده بالحسنى اهـ

واعلم أن هذا القول أجمع ماقيل فى هذا المقام فلتكن الأمة كلها فى جهاد ، ان دخل العدوّ البلاد وجب الحرب والدفاع على كل رجل وكل امرأة ، وان لم يدخل وجب أن يجاهد كلٌّ فيما اختص به ، فالعالم والصانع والزارع كل يتقن مافى طاقته ، فلاقتال إلا بالعدّة والسلاح ، ونظام الطرق ، وترقية جميع مرافق الحياة . ثم أخذ يتم مسائل الجهاد بما روى أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية فى جمادى الآخرة قبل بدر بشهرين ليترصد عيرا لقريش فيهم عمرو بن عبد الله الحضرمى وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها تجارة الطائف ، وكان ذلك غرّة رجب ، وهم يظنونه من جمادى الآخرة ، فاحتجّ قريش على النبىّ ﷺ وقالوا استحلّ محمد الشهر الحرام شهرا يأمن فيه الخائف ، ويبذعر فيه الناس الى معايشهم ، فأجيبوا بأن القتال فى الشهر الحرام إثم كبير ، ولكن صدكم الناس عن الاسلام وكفركم به تعالى وصدكم الناس عن المسجد الحرام ، واخراجكم النبىّ ﷺ وأصحابه منه . هذه الأربعة أكبر عند الله مما فعلت السرية خطأ ، وتكون النتيجة أن ما فعلتموه من الفتنة بهذه الامور الأربعة أشدّ من ذلك القتل ، وهذا معنى قوله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) بدل اشتمال (قل قتال فيه كبير) ذنب كبير (وصدّ عن سبيل الله) وصرف عن الاسلام ومنع عنه ، أوعما يوصل العبد الى الله من الطاعات (وكفر به) أى بالله (و) صدّ (المسجد الحرام واخراج أهله منه) أى اخراج أهل المسجد الحرام منه وهو النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون (أكبر عند الله) مما فعلته السرية خطأ (والفتنة أكبر من القتل) أى ماترتكبونه من الاخراج والشرك أفظع مما ارتكبوه مما تقدم من قتل الحضرمى .

[روى] أن عطاء كان يحلف بالله مايحلّ للناس أن يغزوا فى الشهر الحرام ولاأن يقاتلوا فيه وما نسخت وجمهور العلماء على أنها منسوخة بقوله « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » و بقوله « وقاتلوا المشركين كافة » يعنى فى الأشهر الحرم وفى غيرها اه

ثم أخذ يحذرهم من الكفار لما تقرّر أن الناس مختلفون وقد فسد الزمان ، فقال (ولايزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) هذا اخبار من الله بعداوة الكفار لهم ، وأنهم لاينفكون عنها حتى يردّوهم عن دينهم ، وحتى للتعليل ، وفى المرتدّ رأيان : فالشافعى يرى أنه لايبطل عمله إلا اذا مات على ردّته ، وأبو حنيفة يرى أنه يحبط عمله وان أسلم ، واعلم أن المرتد يجب قتله وتبين زوجته ، كما لايستحق الثواب على عمله كما فصلناه ، وقوله (إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) ظاهر مما تقدم ، نزلت فى عبد الله بن جحش وأصحابه رضى الله عنهم ، وذلك أن أصحاب السرية قالوا يارسول الله هل نؤجر على وجهنا هذا ونطمع أن يكون لنا غزو فأنزل الله هذه الآية اه

ولما فرغ من الجهاد مع الأعداء أخذ يشرح النظام الداخلى ومايحفظ كيان الأمة بعد الذبّ عنها من العدوّ المهاجم و بدأ بالخمر والميسر وأحكامهما وهو :

المقصد السادس ، والسابع ، والثامن ، والتاسع

فى الكلام على الخمر والميسر ، وكيفية الانفاق ، واليتامى ، وأحكام النكاح ، والحيض

فى هذا المقام ستة أسئلة

الأول : سؤال عمرو بن الجموح المتقدم إذ أجيب ببيان المنفق عليهم .

الثانى : سؤال أهل مكة عن الشهر الحرام .

الثالث : سؤال عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وجماعة من الأنصار فى الخمر والميسر .

الرابع : سؤال عمرو بن الجموح المتقدم أيضا ، سأل فى هذا عن كيفية الانفاق كما سأل أوّلا عن المنفق عليهم .

الخامس : سؤال المسلمين عن اليتامى .

السادس : سؤال أبى الدحداح فى نفر من الصحابة عن المحيض ، والأسئلة الثلاثة الأولى بلاعطف ، والثلاثة بعدها بالعطف لافتراق أزمنة الأولى واقتراب أزمان الثانية ، ولنفسر المقاصد الأربعة فى قوله تعالى :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ✽ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ✽ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ✽ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ✽ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ✽

التفسير اللفظى

روى أنه نزل بمكة قوله تعالى « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » فأخذ المسلمون يشربونها ثم ان عمر ومعاذا فى نفر من الصحابة رضى الله عنهم ، قالوا : أفتنا يارسول الله فى الخمر فانها مذهبة للعقل ؟ فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الخمر والميسر) عن شرب الخمر وعن القمار (قل) يامحمد (فيهما إثم كبير) بعد التحريم (ومنافع للناس) قبل التحريم بالتجارة بها و بأخذ مال بغير كدّ (وإثمهما) بعد التحريم (أكبر من نفعهما) قبل التحريم ، أو وإثمهما من التخاصم والتشاتم ، وقول الفحش والزور الخ . فلما نزلت شربها قوم وتركها آخرون ، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ناسا منهم ، فشربوا ، فسكروا ، فأمّ أحدهم ، فقرأ [أعبد ماتعبدون] فنزلت « لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى » فقلّ من يشربها ، ثم دعا عتبان بن مالك بن سعد بن أبى وقاص فى نفر ، فلما سكروا افتخروا وتناشدوا ، فأنشد سعد شعرا فيه هجاء الأنصار ، فضربه أنصارى بلحى بعير فشجه ، فشكا الى رسول الله ﷺ فقال عمر رضى الله عنه : اللهم

بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت « انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » فقال عمر رضى الله عنه : انتهينا يارب . والخمر مصدر من خمره اذا ستره ، سمى به ما اتخذ من العنب والرطب ونقيع التمر والزبيب اذا اشتدّ وغلا وقذف بالزبد ، وسمى خمرا لأنه كأنه يستر العقل كما سمى سكرا لأنه يسكره أى يحجزه ، فاذا طبخ حتى ذهب ثلثاه حلّ شربه عند الحنفية ، وان أسكر حرم ، لما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه كتب الى بعض عماله : ان أرزاق المسلمين من الطلاء ماذهب ثلثاه و بقى ثلثه . وفى رواية : أما بعد فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان فان له اثنين ولكم واحد ، والطلاء الشراب المطبوخ من عصير العنب . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : حرمت الخمر بعينها قليلها وكثيرها ، والمسكر من كل شراب ، ومذهب الشافعى رضى الله عنه : ان الخمر عبارة عن عصير العنب النيء الشديد الذى قذف بالزبد ، وكذلك نقيع الزبيب والتمر ، والمتخذ من العسل والحنطة والشعير والارز والذرة ، وكل ماأسكرفهوخمر ، وأكثرعلماء الأمة الاسلامية على سدّ باب الفتنة يحرّمون القليل والكثير مطلقا ، ومال اليه متأخرو الحنفية والخمر وان أفادت الالتذاذ ، وتشجيع الجبان ، وتقوية الطبيعة أوّلا ، فكم فيها من رذائل ومضارّ مما شرحه علماء الغرب ، ولكم من رسالة فى ذمّها قرأتها ، ورواية عن طبيب درستها ؟ حتى ألحقوا بها شرب الشاى والدخان والقهوة . ولقد رأيت فى كلام [هنرى الفرنسى] فى كتابه [خواطروسوانح فى الاسلام] أن أحدّ سلاح يستأصل به الشرقيون ، وأمضى سيف يقتل به المسلمون هو الخمر وادخالها ، ولقد جرّدنا هذا السلاح على أهل الجزائر فأبت شريعتهم الاسلامية أن يتجرّعوه ، فتضاعف نسلهم ، ولو أنهم استقبلونا كما استقبلنا قوم من منافقيهم بالتهليل والترحيب وشربوها لأصبحوا أذلاء لنا كتلك القبيلة التى تشرب خمرنا وتحملت إذلالنا ، وقال [بنتام] المشرّع الانجليزى : « من محاسن الشريعة الاسلامية تحريم الخمر فان من شربها من أبناء أفريقيا آل أمرنسله للجنون ، ومن استدامها من أهل أوروبا زاغ عقله ، فليحرم شربها على الافريقيين ، وليعاقب عقابا صارما الأوروبيون ، ليكون العقاب مقدرا بمقدار الضرر »

ولقد رأيت فى كتاب لطبيب أمريكى يسمى [كيلوج] منع التداوى بالخمر ، إذ بان له أن ضرّها فى الجسم عند التداوى أكثر من نفعها بالشفاء المؤقت ، لما تفعل فى الامعاء وباقى الأحشاء من الضرّاء . ولما فشت الخمر فى بلادنا أغرم بها قوم حتى أخربت البيوت ، وأذهبت العقول ، ونحن نرقب من الله الخروج من مأزقنا ، و بعد ما كتبت هذا أخذت أقرأ ذلك الكتاب المسمى [كتاب اليد فى الطب] فرأيته كتب فى ضرر الخمر نحو (٣٠) صفحة ، وكتب فى الدخان والشاى والقهوة والكاكاو ، وشدّد النكير على الناس جميعا ، فجمعت من ملخص ترجمته خطبة مع اضافة شذرات من كتب أخرى ، وهاك نص ماجاء فى الجرائد والمجلات بلادنا التى نشرتها فى العام الماضى قبل الطبع (أى طبع الطبعة الأولى سنة ١٣٤٣ هجرية) .

ننشر اليوم خطابا ألقاه [فلان] فى المدرسة الخديوية ، وكذلك فى الكلية الأمريكية على ملأ من العلماء والأطباء وطلبة المدارس العالية المصرية لاسيما طلبة الطب فى موضوع [مطابقة الكشف الحديث لما ورد فى الحديث النبوى من أن التداوى بالخمر ضار] كما قاله أكابر الأطباء فى انجلترا وفرنسا وأمريكا ، ولم نقصد بذلك إلا ايقاظ أطبائنا وعلمائنا كيما يقوموا بما هومفروض عليهم نحو أبناء وطنهم ، كما قام غيرهم من الأمم الأخرى ، وهاهو ذا الخطاب بتمامه . قال حفظه الله :

« الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد فاليكم أيها السادة الأفاضل ، يانخبة مصر وأساطين العلم والطب ، ويازهرة الشبيبة المصرية ، أنتم قدوة الأمة وعيونها المبصرة ، وآذانها السامعة ، ورءوسها المفكرة ، أنتم قادتها وسادتها ، أنتم الرأى العام ، أوجه خطابى هذا راجيا أن تصغوا الىّ قليلا ، لأتلو عليكم

ماجاش بقلبي ، وما أملاه عليّ وجداني ، ودلّ عليه اختباري مدة الحياة في هـذا الموضوع العظيم وهو [الخمر] كما أني أشكركم على ماتفضلتم به من تلبية الدعوة لسماع خطبتي :

أيها السادة : ان الأمم اليوم قد تنبهت من غفلتها ، وقامت من سباتها ، والعلم يعدو حثيثا بالأمم الى العلا ، والانسان اليوم غـيره بالأمس ، هذه حركة فكرية عامّة للتطوّر الاجتماعي الانساني العام ، ومصر التي شهد لها التاريخ بالتقدّم على سائر الأمم أجدر أن تدلى دلوها في الدلاء ، وأن تبحث مع ذوى الآراء في الامور الهامة والمسائل العامّة ، وتحذو حذو الأمم الرافعـة للعلم حتى لا يسلقنا خلفنا بألسنة حداد ، و يقول أبناؤنا : لقد قصر آباؤنا الأوّلون ، ونام علماؤنا السابقون ، فوجب علينا أن ننقي مجتمعنا من بعض المضارّ والمصائب التي أهمها مسألة [الخمر] .

تحريم الدين للخمر

أيها السادة : حرّم القرآن الخمر تحريما قاطعا ، ولم يستثن حالا من الأحوال ، ولا أباحه ، ولا أجازه لهضم الطعام ، ولارضيه لتقوية الشهوة عليـه ، ولا لاكثار الدم في الجسم ، بل عمم التحريم فقال : « ياأيها الذين آمنوا انمـا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمـل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر و يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون »

التداوى به في الدين

اختلف الفقهاء في التداوى به ، فأباحته طائفة اذا لم يقم غيره مقامه ، وقال آخرون : الخمر لا يتداوى به ، واستدلوا بالحديث : « لم يجعل الله دواء أمتي فيما حرّم عليها » و يقول القرآن « فهل أنتم منتهون » .

المدنية الحديثة والدين

هجمت المدنيـة الحديثة في الشرق ، وأخـذت تسرع في أسباب الرقيّ ، ففشت الخمر ، وعمت الأمصار والقرى ، وشاعت بين الخاصة والعامّة ، وتبعها في ذلك أنواع الحشيش والكوكايين وغيرها ، و يقول القرآن : « رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

مطاردة المدنية الحديثة للأديان

كان أسلافنا يقيمون الحدود ، ويجلدون الشارب نحو أربعين جلدة ، فكان ذلك مخففا من سطوة الخمر ومانعا لطغيانها ، وكان الرجال لدين سطوة و بأس ، وكان الملوك والحكام أقوى معضدين للفضيلة ومنع الخمر امتثالا لقوله تعالى : « فهل أنتم منتهون » .

جاءت المدنية الحديثة بخيلها ورجلها ، وشاركتنا في الأولاد والأموال ، وهجمت علينا ، ولم يبق للدين سطوته ، فانحسر عن المدن الى القرى ، ثم انحاز الى أطراف البلاد ، وهي تطارد الدين ، ولكن المدنية بلا علم ضلال ، والعلم الناقص وبال ، والبلاهة كما قال الغزالي خير من الفطانة البتراء ، والجهلاء أفضل من الأذكياء المغرورين ، فاما الدين كله ، واما العلم كله ، ونحن أخذنا من الديانات أسماءها ، ومن العلوم قشورها ، فخسرنا الصفقتين ، وربحنا الرزيتين ، وسبقنا المتدينون ، وفاقنا من الفرنجة العلماء العاملون ، فويل ثم ويل لمن لا دين له ولا علم ، أولئك الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فحقّ علينا أن نبحث في موضوع الخمر بحثا علميا حتى نكون أتينا البيت من بابه ، وأرجعنا الأمر الى نصابه ، فالعلم اليوم هو السلاح

الذى به تصول الفضيلة ، وبه تحارب النقيصة ، فبهذا السلاح أقاتل معكم وبهمتكم جيوش الجهل بين أبناء أمّتى المصرية المحبوبة ، فلأقص عليكم أنباء ماعثرت عليه فى هذا الموضوع مرتبا على مقتضى الترتيب الزمانى وينحصر ذلك فى أربعة مباحث وهى :

(١) ما قاله علماء الاجتماع من أنه يفنى النسل ويستأصله .

(٢) ما قاله علماء التشريع من أنه يورث الجنون فى الأقطار الجنوبية .

(٣) أعمال الجمعيات المنتشرة لمنع الخمر ، وماجاء فى خطبة رئيسها فى مصر .

(٤) ماجاء فى كتب الطب الافرنجية ، وخصوصا الأمريكية ، وكيف منعوا التداوى به .

المبحث الأوّل

لقد قرأت فى كتاب [خواطر وسوانح فى الاسلام] تأليف [الكونت هنرى كاسترى الفرنسى] المطبوع فى سنة ١٨٩٨ فى ص ١٣٥ ما يأتى : « وعندى أن هجرة القبائل الى الصحراء الكبرى جنوبا من الجزائر وهم باطل كالقول بامكان مضايقتهم فينزحون عن البلاد شيئا فشيئا ، أما انقراض الأهالى بالتدريج بعد دخول التمدين الاوروبى بلادهم ، فنحن لانصدّقه إلا قليلا ، فان احتكاكهم بالمتمدينين ربما قلل وسائل العيش عندهم ، ولكن لايؤثر فى وجودهم ، بل لايزالون يتناسلون أكثر من الاوروبيين ، ونضيف الى ذلك أن المسكرات التى استعملها بعض الفاتحين لا تؤثر عند أهالى الجزائر لكونهم يمقتونها مقتا شديدا » اه

ولقد دهشت عند قراءة هذه الجملة ، وقلت ما قاله نصر بن سيار :

أرى خلل الرماد وميض نار ❊ ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكو ❊ وان الحرب أوّلها كلام
فان كانت أمية فى سبات ❊ فقل قوموا فقد حان القيام

وهنا غاية العجب ! كيف يقرأ قومى وهم غافلون : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون » وكيف يقول ذلك الفرنسى العظيم : ان الخمر آخر سلاح يقتل به الأمم المستعمرة ، وبه فناء نسلهم ، وأهل بلادى فى غفلة ساهون ، ولطالما عرضت هذه الآراء على أهل العلم والأذكياء وأقول : ألم تقرأ أمّتنا هذا الكلام ؟ أوقرءوا وهم لاينتهون ، فالمسألة موت أوحياة اه

المبحث الثانى

قال العلامة الانجليزى [نبتام] فى كتاب [أصول الشرائع] ترجمة المرحوم [أحمد فتحى زغلول باشا] تحت عنوان [الجرائم الشخصية] مانصه : « النبيذ فى الأقاليم الشمالية يجعل الانسان كالأبله ، وفى الأقاليم الجنوبية يصيره كالمجنون ، ففى الأوّل يكتفى بمعاقبة الأوّل على السكر كعمل وحشى ، وفى الثانية يجب منع ذلك بطرق أشدّ لأنه شبيه [بالتشرر] وقد حرمت ديانة محمد صلى الله عليه وسلم جميع المشروبات ، وهذه من محاسنها » انتهى كلامه .

المبحث الثالث

منذ ثمان سنين جاء إلى مصر رجل من أعضاء دار الندوة [البرلمان] للسويد والنرويج ذكر أنه رئيس جمعيات منع الخمر فى العالم ، وأنه زار جميع دول أوروبا والشرق كفرنسا ، وانجلترا ، والروسيا ، والصين واليابان [وكل الحكومات ساعدته] وأن أعضاء الجمعية العاملين يبلغ عددهم ستمائة ألف رجل ، وذكر أنه فى أمريكا حرم خمسة وأربعون مليونا من أهلها الخمرة على أنفسهم [وكان ذلك قبل الآن ، وقد حرمت فى هذه السنة تحريما عاما فى هذه البلاد] . وقال : ان ولىّ العهد لبلاد السويد ربى على أن لايشرب الخمر

ونحن

ونحن نفتخر بأنه أوّل ملك لايشرب الخمر فى أوروبا .

المبحث الرابع

كنت منذ بضع سنين عند طبيب نطاسى مصرى ، فأرانى كتابا انجليزيا مؤلفه أمريكى ، وقال ان مؤلفه يقول فيه انى لست أبحث فى منع الخمر للسكر ، فهذا فرغ منه العلماء ، وان بحثى اليوم فى مضاره الطبية ، وأن التداوى به يجلب للانسان أمراضا لاقبل له بها ، فاذن التداوى به ممنوع طبيا ، وليس فيه أدنى فائدة ، فقلت له لماذا لاترفع صوتك بهذا فى البلاد ، فقال انى إخوانى الاطباء يسلقوننى بألسنة حداد ، فقلت أليس فى أمريكا علماء محققون ، فقال بلى ، ولكن لايطاع لقصير أمر ، فلما دعيت للخطابة فى هذا الموضوع طلبت منه الكتاب ، وهو يسمى كتاب [اليد الطبى] تأليف الأستاذ [كباوج] كتب تحت عنوان [الاستعمال الطبى للخمر] من صفحة ١٧٥ إلى صفحة ٥٠٤ فلأذكر لكم جملا منه ، وعليكم أيها الأطباء ترجمة الموضوع كله والرد عليه ان رأيتم خطأ علماء أمريكا وأوروبا والافساعدوا على منعه كما منعه أعظم الأمم علما ومقاما ، وهى أمريكا .

قال المؤلف : من كان عنده أقلّ ريب أوظل للشك أن الخمر سمّ فليعتبر بما يكون عند وصوله للمعدة ، فان الغشاء المخاطى يصير محتقنا ويخرج مقدارا من المخاط ليحمى نفسه ، وترى غدد المعدة وقواها الدافعة تسرع فى اخراج ماوصل اليها بأسرع ما يكون ، أليس ذلك مزيلا لشك الشاكين ، وريب المرتابين ، فى أن الخمر من أنواع السموم . وقال الأستاذ [لبيج] انه إذا اعتدل الانسان فى شربه قوى جسمه وأكسبه نشاطا ، وقد نقض هذه القضية ثلاثة من علماء الكيمياء الفرنسيين ، وهم الأستاذ لمان ، والأستاذ بيرن ، والأستاذ دروى ، ثم الأستاذ أدوارد سميث الانجليزى ، وقد برهن الثلاثة الأوّلون على بطلان ماتقدّم بقولهم : ان الخمر تخرج من الجسم ولا أثر لها ، وزاد الأخير بقوله انه حلل الدم ، فلم يجد فيه أدنى شىء من العناصر التى يتركب منها الخمر . وقال الدكتور [ملر] الاسكوتلاندى : الخمر لايشفى شيئا . وقال الدكتور [هيجنبوتوم] أمام الجمعية الطبية البريطانية : أنا لاأعلم مرضا قط شفى بالخمر . وقال الدكتور [جونسون] الانجليزى : ان الخمر ليس ضروريا ألبتة ليستعمل دواء . وقال فى ابطال قولهم ان الخمر غذاء ، وأنه يحفظ الجسم ، أو يقوى العضلات : ماهذه القوّة ان هى الا اسم آخر من أسماء السموم ؟ فقولنا فلان نشوان طرب ثمل معناه مسموم ، وبرهن على ذلك بقوله : إذا أدخلنا الخمر ، أوأىّ سم آخر من العقاقير السامة التى تعدّ بالمئات فى الجسم ، فان جميع الاعضاء تستعد للمقاومة والمدافعة لاخراجه من الجسم ، ومن هنا كان النشاط . وقال فى نقض قولهم ان الخمرة تمنع المرض : ان الناس يتعاطون الخمر لأمراض مختلفة ، فاذا كان ماتقولون حقا فاضرار الخمرة أشدّ من تلك الامراض فتكا بالجسم ، فكيف بها إذا كانت لاتشفى منها شيئا ، فان تجارب الأطباء السابقة تثبت أنها لاتترك أثرا فى النسيج والأثر الحقيقى انما يكون فى النسيج .

وقال الدكتور [سميث الانجليزى] ردّا على الأستاذ [لبيج] ان الخمرة يخسر بسببها الجسم جزءا من الحرارة ، بل يزيد ذلك الفقد ، ومن العجيب أن سيدنا محمدا ﷺ أثبت ضرر الخمر فى الحديث الصحيح ، فقد جاء فى صحيح مسلم مع شرح الامام النووى صفحة ٣٦٤ ، أن طارق بن سويد سأل النبىّ ﷺ عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها ، فقال انى أصنعها للدواء ، فقال الرسول ﷺ [انه ليس بدواء ولكنه داء] أليس هذا الحديث الشريف مقتضى العلم الحديث . يقول الدكتور [سميث] ان الخمرة تسبب للجسم خسارة جزء من الحرارة . وقد منعت الدولة الأميركية الخمرة بتاتا بناء على أمر الأطباء ، وعلى الاكتشاف الحديث المنافى لآراء الدكتور [لبيج] ، وهذا الكشف الحديث معجزة اسلامية . وقد أثبت الدكتور [باركس]

ثم [السيرجون هيل] مفتش عموم الجيش البريطانى ، والدكتور [هنرى مارتس] وآخرون غيرهم أن الخمر لا يشفى المرض ولا ينفع الجسم . وقال فى ابطال قولهم ان الحب والفاكهة فيها سم ، ان بعض الناس يقول اذا كان فى الخمر ضرر فذلك ليس خاصا به انه من الحب ، والحب فيه قليل من السم ، فلم أكثر الاطباء من ذم الخمر مع أن السم عام فيه ، وفيما أخذ منه ؟ فأجاب عن ذلك بقوله نعم : ان الخمر من الحب ، ومن ذا يقول ان الحب فيه سم ؟ ان الحب لم يكن سما الا بعد اتلافه ، والخشب لا يكون دخانا الا بعد اتلافه ، فليس الخشب دخانا وليس الحب خمرا .

ولا جرم أن السم حدث فى الفاكهة والحب بعد اتلافهما ، فالحب لا سم فيه ، وكذلك الفاكهة ، ولقد شاعت هذه النظرية بين الجمهور ، وهى كاذبة وهل تدس الطبيعة التى أعدت لنا الحياة السم فى الدسم . كلا وقال فى ابطال قولهم ان الشرب المعتدل لا يضر ان كلمته مشتقة من كلمة لاتينية ، معناها السم ، فالشرب المعتدل يصير عادة لا يتخلى الشارب عنها ، فهو يتجرع السم قل أو كثر فويل للشار بين ، وأبطل قولهم : لا ضرر فى الخمر الصافى بقوله : ان الخمر الصافى هو سم صاف ، فاذا احتج الشارب بامثال هذا «فقد ضل ضلالا مبينا» لأنه أثبت أن الخمر سم سواء أكان نقيا ، أو مخلوطا فهو ضار للصحة مهلك للأبدان ، ثم ذم الأطباء الذين يتعاطون الخمر والمسكرات ، فقال انه من موجبات الأسف المحزن ذلك المنظر الذى تتقطع له القلوب أسى أن يخضع الانسان العالم أمام جنود الشهوات والرذائل المخزية ، ومما هو جدير بالذكر أن أولئك الأطباء الذين ينصحون بعدم شرب الخمر ويحضون عليه يصبحون هم أنفسهم مغرمين به عاكفين عليه فيكونون صرعى نصائحهم ومرامى سهامهم وقتلى علمهم وهم لا يشعرون ، أوليس من النتائج الواضحة بالدلائل الساطعة أن أحكامهم فى ذلك أوحت بها شهواتهم وقضت بها أوهامهم ، وهم عن العلم معرضون ألا ساء ما يصنعون ، وأخذ يبطل قول الشار بين ان الخمر يمحو الهم والكسل ويجعل الفقير الذى لا منزل له ولا صاحب يشعر بأنه غنى ، أوملك ، وقد أطال فى ذلك . وقال فى الرد عليه ان الانسان اذا سكر حتى أصبح لا يشعر بما هو عليه ، وفقد الاحساس ، ونسى ما هو فيه من شقاء الحياة ومتاعبها لعاجز عن الاعتبار بتلك التجارب العالية ، الرفيعة القدر الشريفة المنزلة ، والشعور الشريف الذى تسكون فيه البهجة العالية بالحياة الحقيقية ، ان الفرار من الحق جبن ، وأبطل ما يدّعيه الشار بون من قولهم : ان الخمر لا يضرنى ، ودحض حجة أولئك الذين يتعاطون المخدرات ، والمسكرات من الأفيون ، والخمر ونحوها . وقال انهم فريسة له ويأتيهم الموت من حيث لا يعلمون ، وأخذ يدحض حجة أخرى للشار بين الذين يقولون ان الخمر عادة انسانية ، وطبيعة بشرية ، وكيف لا ونحن لا نرى أمة الا شربت الخمرة ، ولا جيلا الا عاقرها ، ولا قبيلا الا كرع منها ، وهاهم أولاء الصينيون ، واليابانيون ، والشرقيون ، والغربيون ، والمسلمون ، والنصارى ، واليهود ، والمجوس ، والبوذيون كل منهم يشربها ، ومن ذا يقاوم الطبيعة ، أومن ذا يقف فى طريقها ؟ فرد عليهم قائلا ، أليس فى هذه الأمم ضالون ، وفاسقون ، وكذابون ، ومنافقون ، ومخادعون ، ولصوص خائنون فكيف يحتج الشارب بفريق السكارى مدعيا أنه طبع فى البشر ، أفلا نأسف لشيوعه ، ونأنف من وقوعه وتكاثره فى بنى الانسان انه من موجبات الحزن والأسف ، لا مما يحتج به للاعتذار ، ويصار اليه بالتقليد والاتباع ، هذه هى نبذة من آراء المؤلف كيلوج الأمريكى ، ولا ريب أن الحكومات لا تقطع أمرا حتى يثبته العلماء ويطلبه الشعب ، ولولا أمثال مؤلف هذا الكتاب مامنعت أمريكا الخمر ، ومصر أولى بذلك لأنها فى أوّل نهضتها بين الدول الاسلامية ، ولأن الخمر أضرتها كثيرا ، ولى أمل فى رجال الطب ، وعلماء الأمة أن ينصحوا الشعب بالاقلاع عن هذه العادة ، والله موفقنا الى الاصلاح ، هذه هى الخطبة ذكرتها هنا تذكرة للمؤمنين .

متناقضات الأمم وعجائب الاسلام

تأمّل أيها الذكي وتعجب كيف كانت أمريكا النصرانية أوّل من نادى بمنع الخمر وتحريمه ، ودينها لا يمنعه ولقد بلغنا لهذا العهد أن هـذه الأمّة كسبت من تحريم الخمر سعة فى الرزق و بسطة وأمنا فى البـلاد وزادت مجالس العلم وكثر الداخلون فى المعاهـد العلمية ، وقلّ القتل والسرقة وازدادت الأموال بنسبة مطردة ، هذا هو سر الاسلام وتحريمه للخمر ، ثم انظر كيف كان المسلمون الذين يحرم دينهم الخمر يعاقرونها صباحا ومساء فى مصر بلادى ، وفى الأقطار الاسلامية الأخرى ، ولم يحرم شربها فى تركيا الا بعد أن استقلت البلاد فى هذا العام فمنعوها وحرّموها وهى بلاد اسلامية ، ثم أقول : ان المسلمين تركوا العلوم الكونية ونسوها ولم تكن عنايتهم موجهة الا الى الأمور الفقهية ، ومنها تحريم الخمر ، فاذا كانت عنايتنا موجهة للحلال والحرام ، ونسينا العلوم التى فى جمال النجوم وبهجة الزرع والشجر فتأخرنا فى كل شىء وسبقنا الفرنجـة ، واختصاصنا انما هو بعلم الفقه ثم ننظر فنرى أن الخمر أوّل من منعها الفرنجة والمسلمون يكثرون منها صباحا ومساء ، فيالله ماذا جنينا وماذا عملنا ، فلا فى العلوم الكونية نجحنا ، ولا فى الحلال والحرام اتقينا ، والفرنجة سبقونا فى الأمرين ، فما فعل المسلمون اذن ، وعسى أن يكون الوقت أزف كما هو أملنا ، وأن يرجع الى هذه الأمّة مجدها ، و يبزغ قمرها ، و يظهر فضلها ، وتأخذ دورها فى العالمين .

تحريم بيع الخمر والانتفاع بها وذكر أنها نجسة

ثم اعلم أن الأمّة أجمعت على تحريم بيع الخمر والانتفاع بها وتحريم ثمنها ، وقد كانوا فى الجاهلية يصيبون الربح من ثمنها ، وفيها أيضا الفرح والطرب ، وهذه من المنافع المذكورة فى الآية فحرّمت ، والخمر نجسة العين قد حكم العلماء بنجاستها للزجر عنها .

حكم الميسر

أما الميسر : فهو القمار واشتقاقه من اليسر لأنه أخذ مال بسهولة من غير تعب ، وقد كان فى الجاهلية نوعان : أحدهما أن يخاطر الرجل على أهـله وماله ، فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله ، والثانى أنهم كانوا يذبحون جزورا ، و يجزئونها ثمانية وعشرين جزءا ثم يسهمون عليها بعشرة أقداح يقال لها الأزلام والأقلام سبعة منها ذات أنصباء : أولها الفذ بواحد وأعلاها المعلى بسبعة ومجموعها ٢٨ ، وثلاثة لا أنصباء لها وهى الوغد والمنيح والسفيح ، وأما السبعة فهى الفـذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسـبل والمعلى ، وكانوا يجمعون القداح فى خريطة يسمونها الربابة و يضعونها على يد رجل عدل عندهم يسمونه المجيل فيجيلها فى الخريطة ويخرج منها قدحا باسم رجل منهـم ، فأيهم خرج اسمه أخذ نصيبه على قدر ما يخرج من القداح وان خرج له قدح من الثلاثة التى لا أنصباء لها لم يأخذ شيئا وغرم ثمن الجزور كله ، وقيـل لا يأخذ ولا يغرم ولعلهما كيفيتان وكل ما فيه خطر فهو قمار حتى لعب الصبيان بالجوز والقمار وان كان فيه أخذ المال بسهولة فى وقت ما فان فيه خطرا وليس مكسبا طبيعيا للنوع البشرى ، وانما المكسب الطبيعى ما كان من أعمال جرت العادة بنفعها واستثمارها ، ومن عجب أن هذا النوع من الخطر عاش مع الانسان من مبدأ الخليقة حتى رأوا آثاره فى الخرابات القـديمة من العصور الذاهبة كأن هذا الانسان عشق المغالبة والمخاطرة فابرزها فى صورة القـمار غلطا والا فانه خلق ليركب كل صعب وذلول و يرقى الى العـلا ، و يغالب الطبيعة ، و يذلل المسالك و يقتحم الأخطار و يقامر على روحه وقواه ، و يقول اما هلاك واما ملك ، فالقمار رمز فقهه العالمون ، واغترّ

به الجاهلون ، حرّم الله القمار وأوجب السعي للعلا ، والقمار على الأرواح والمخاطرة بالاشباح واقتحام الأخطار هذا هو القمار المرغوب والسبيل المطلوب

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل * عفاف واقدام وحزم ونائل

وقد ابتليت الأمّة المصرية اليوم بالخمر والقمار جلبهما الأوروبيون واستتروا في المحال الممقوتة ، واستهووا العقول ، وضحكوا على الذقون ، وانتهبوا الأموال وأخلوا الديار ، وبات الشاربون على شر الأحوال ، وهم غافلون وأولئك ساهرون مستيقظون ، ومما يذكره العلماء عادة في هذا المقام النرد والشطرنج ، فأما النرد فيحرم اللعب به ، قال رسول الله ﷺ من لعب بنرد أونردشير فقد عصى الله ورسوله . أخرجه أبو داود ، وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه : النرد والشطرنج من الميسر ، ومذهب أبي حنيفة في الشطرنج أنه حرام برهن وبغير رهن ، ومذهب الشافعي أنه مباح اذا خلا الشطرنج عن الرهان واللسان عن الطغيان والهذيان والصلاة عن النسيان اهـ .

أقول : ولقد أصبح اليوم عمل كثير من الطبقة المتعلمة في بلادنا ، ولو كان العلم محبوبا لهم لكانوا به فرحين وعليه عاكفين ، فليحبب العلماء العلم للشبان باظهار الجمال والمحاسن في هذه العجائب الكونية لتصدّهم عن ضياع أوقاتهم ، وذهاب مجدهم وهم نائمون لاعبون اهـ .

ولما كان في القمار نوع من اطعام الفقراء لأن تلك الأسهم كانوا يعطونها للفقراء ويفتخرون بها ويعدون من لم يتقدم لذلك برما أي بخيلا شحيحا أعقبها الله بآية (ويسألونك ماذا ينفقون) الخ فأجيب بان الذي ينفق هو العفو : وهو ما فضل عن قدر الحاجة والتصدق عن ظهر غنى فالعفو نقيض الجهد .

روى أن رجلا أتى النبيّ ﷺ ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغانم ، فقال خذها مني صدقة فأعرض عليه الصلاة والسلام عنه حتى كرر عليه مرارا ، فقال هاتها مغضبا فخذفها حذفا لوأصابه لشجه ثم قال يأتي أحدكم بماله كله يتصدّق به ويجلس يتكفف الناس ، انما الصدقة عن ظهر غنى ، فكأن الله عزوجلّ لما منع التصدّق بطريق مجهول وغير منظم ، وهو القمار الذي فيه منفعة الفقراء ، ونخر الأغنياء كما يفعل اليوم عند فعل المبرات أمر أن يتصدّق الناس بما فضل عن حاجاتهم بطريق منظم واضح معلوم السبيل ولذلك أعقبه بقوله (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ، في الدنيا والآخرة) .

وأما مسألة اليتامى فذلك أنه لما نزل قوله تعالى «ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما» الآية اعتزلوا اليتامى ومخالطتهم فأنزل الله هذه الآية (ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ، ولوشاء الله لأعنتكم ان الله عزيز حكيم) العنت المشقة ، وحاصل الأمر يرجع الى أن المخالطة مرغوب فيها مطلوبة على شريطة ارادة اصلاحهم ، واجتناب الطمع فيما عندهم ، والله أعلم بما في القلوب ، ولوشاء الله لكلفكم مايشق عليكم وعليهم ، فلم يجز المخالطة ان الله عزيز غالب يقدر على الاعنات حكيم يحكم بما تقتضيه الحكمة ، ثم أخذ يشرح نكاح المشركين فحرم نكاح كل كافر كتابي وغيره ، وكذلك حرم نكاح كل كتابية ومشركة وخصصت الثانية بآية ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، والمراد بالعبد والأمة الرجل والمرأة لأنهما عبدا الله ، فهذا ملخص قوله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ولأمة مؤمنة) اشتركت معكم في الرأي والدين وتشابه الأخلاق والعادات الدينية (خير من مشركة ولو أعجبتكم) لأن الجمال الظاهري لاثبات لمحبته الا اذا قوى بالباطني ، فالظاهر كالزهرات والباطن كالثمرات والزهرات ذابلات (أولئك يدعون الى النار) وأنتم تدعون الى الجنة ، واختلاف المشارب داع لاختلاف النفوس ، وهو سبب الأذى ونكد العيش (والله يدعوا إلى الجنة ، والمغفرة باذنه) ولما كان

هذا

هذا القانون نظاميا خلقيا أفاد شرفه ، فقال (ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) .

ولما كانت مسألة الحيض مختصة بالنساء أعقب ماذكر بها ، فقال جلّ جلاله (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهنّ حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهنّ من حيث أمركم الله إنّ الله يحبّ التوّابين ويحبّ المتطهرين . نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدّموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين) كان الناس فى الحيض قسمين ، فاليهود كانوا يعتزلونهنّ فى كل شيء حتى فى الأكل ، وكان النصارى يجامعونهنّ ولا يبالون بالحيض ، وكانت العرب كاليهود ، فسأل أبوالدحداح وجمع من الصحابة النبي ﷺ فنزلت ، والمحيض الحيض ، يقول عزّ وجلّ : انالحيض أذى تنفرمنه النفس ويستقذره الطبع ويؤذى من يقربه فلا تجامعوا النساء فىالمحيض حتى يطهرن : إما بالاغتسال كمذهب الشافعية ، واما بانقطاع الدم فحسب كمذهب الحنفية ، وعند ذلك يحلّ الجماع فى مكان الحرث لاغيره ، وأجمع العلماء على جواز الاستمتاع بالحائض بما فوق السرة ودون الركبة ، ويحرم على الحائض الصلاة ، والصوم ، ودخول المسجد ، ومس المصحف وحمله ، وعليها قضاء الصوم دون الصلاة .

ولما كان الشرع موقظا للنفوس منبها للعقول لم يدع فرصة تمرّ الاذكر ، ولاالاجابة عن سؤال تقال الاوعظ وحذر ، فانظر كيف تسامى عن المسائل الفقهية الى المعانى الحكمية وتعالى عن الأذى والحيض بعد الاجابة إلى الحكمة التى أودعها ، والخلقة التى أبدعها ، فقال أيها الناس ماالشهوات الا آلات للتناسل وما نساؤكم الامزارع وما أنتم الازارعون فاياكم أن تكون مقاصدكم الشهوة فحسب ، وانما يراد تناسلكم ، فالشهوات مقصودة لغيرها ، وما أريد لسواه لايليق أن يزاد فيه عن الحاجة ، وليكن أشرف مقاصدكم وأهمّ أغراضكم الولد ، فما الشهوات الامقدّمات ، والمنافع نتائج ، وكما أن ثمرة الغذاء البقاء ، هكذا ثمرة الجماع بقاء النسل ، وكأنه نبه أن القصد من الطهارة والنجاسة ، وأحكام الشرع ماهو شريف من بقاء الأجسام وطهارة الأرواح .

ولما فرغ من أحوال الزواج ، وأحكام الحيض أخذ يبين أحوال الطلاق على الترتيب الطبيعى العجيب وابتدأ بذكر الحلف بالله وانه لاينبغى أن يجعل عرضة وهو :

(المقصد العاشر)

وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ *

ايضاح

(العرضة) من قول الرجل قد جعلتنى عرضة للومك ، وقال الشاعر * ولاتجعلينى عرضة للوائم *

وقوله (أن تبرّوا) تفعلوا البر فتكونوا بررة ، اعلم أن المؤمن الذى يعرف الله جلّ جلاله يعظم جلاله فىقلبه ويمتلئ هيبة لعظمته وتعظيما لقدرته فينزهه عن أن يمرّ اسمه بلسانه فى محقرات الأمور وصغائر الأشياء ، بل يتعوّد الصدق فى القول حتى يثق به الناس ويعتقدوا أنه من الصادقين ، وإذا كان من يحبّ أحدا من المخلوقين يغار عليه من أن يكون اسمه عرضة للقائلين ، فما بالك بالاله خالق السموات والأرض كيف يقرن اسمه بالأمور المحتقرات فيحلف باسمه على متاع أو فعل أو ترك ، واعلم أن من اعتاد الحلف فى صغائر الأمور

وكبائرها لا يلبث أن تصيرله عادة محكمة وجبلة راسخة ، فيسبق لسانه للحلف صدقا وكذبا حقا و باطلا ، فيستحق مقت الله وغضبه و يحتقره الناس فلا يثقون بقوله ولا أيمانه إذا حلف فيخسر رضار به وثقة الناس به ، و إذا كان أولئك الذين يكثرون القول يزدريهم الناس ، فما بالك بمن يتجشم أو عرمسالكه و يقتحم هضابه من الحلف والأيمان الصادقة والكاذبة فأولئك شر مكانا ، وأوهى مكانة ، وأنزل مرتبة ، يقول الله « ولا تطع كل حلاف مهين » ويقول عليه الصلاة والسلام [اليمين الغموس] التى تغمس صاحبها فى نار جهنم لكونها فاجرة [تترك البيوت بلاقع] أما أولئك الصادقون فى أقوالهم الذين لا يحلفون فهم بررة بتعظيم مقام الله عزّ وجلّ متقون مايخلّ بتعظيم مقامه وجلاله مصلحون بين الناس لثقة الناس بهم فتقبل حججهم لصدق أقوالهم ، وقال تعالى «واحفظوا أيمانكم» وكان العرب يمدحون الانسان على الاقلال من الحلف ، قال الشاعر :

قليل الألايا حافظ ليمينه * وان سبقت منه الألية برّت

أى لاتجعلوا الله عرضة لأيمانكم لأجل أن تكونوا بررة مصلحين بين الناس لوثوقهم بكم ، وللآية معنى آخر ، وهو أن العرضة الشيء المانع للناس من السلوك والمرور ، واعترض فلان كلام فلان جعل كلامه معارضا لكلامه : أى مانعا من تثبيته وعليه ، فالمعنى ولا تجعلوا الله عرضة ومانعا بسبب أيمانكم من (أن تبرّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) وذلك أن الرجل كانّ يحلف على ترك الخيرات من صلة الرحم ، واصلاح ذات البين ، فاذا طلب منه ذلك يقول أخاف الله ان حنثت بيمينى فيترك البرّ ليكون بارّا بيمينه ، فنزلت هذه الآية وأمر الانسان أن لا يجعل الله بسبب الحلف مانعا من تلك الخيرات والصلات والصلح بين الناس وحينئذ يحنث ويكفر عن يمينه ، وقوله (والله سميع عليم) أى يسمع أيمانكم و يعلم نياتكم من تعظيم الله والاعراض عنه ، وقوله (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) قال أبو حنيفة : اللغو أن يحلف الرجل بناء على ظنه الكاذب ، والمعنى لا يعاقبكم بما أخطأتم فيه من الأيمان ، ولكن يعاقبكم بما تعمدتم الكذب فيه (والله غفور) حيث لم يؤاخذكم باللغو (حليم) حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجدّ تربصا للتوبة .

تفصيل الكلام على ثلاثة مواضيع من الآيات السابقة

الميسر ، والطهارة ، وصون اللسان عن الحلف

الأوّل الميسر قد عرفت طريقة الميسر عند أسلافنا العرب ، وكيف كانوا يذبحون جزورا و يقسمونه ٢٨ جزءا ، ويجعلون لكل قدح منها جزءا أو أجزاء ، والقداح عشرة سبعة منها لها أنصباء ، فالأوّل ١ والثانى ٢ وهكذا إلى السابع ، وهو القدح المعلى فله ٧ ومجموعها ٢٨ وهذه القداح والسهام متى أخذت أنصباؤها من الجزور تصدقوا به على الفقراء ، ولم يكن ذلك باب ربح بل كان من باب المفاخر ومع ما فى هذا النوع من العطف على الفقراء حرمه الله تعالى ، فان المدار فى تربية الأمم على تقوية الارادة والعزيمة ، فانظر إلى ماطرأ على الأمّة الاسلامية بعد ألف وثلثمائة وأربعين سنة ، انظر كيف تنزلت أخلاق بعض الأمم الاسلامية التى نزل الفرنج بساحتها ، لقد ابتدعوا من الفنون للربح مايذيب المهج ، و يغضب الرب ، ويزرى بالشرف الرفيع والمجد المنيع ، والهمة القعساء ، وأهل الشريعة السمحاء .

ذكر بعض الميسر فى بلادنا المصرية اليوم

سباق الخيل ، رمى الحمام ، التمبرو ، يانصيب [اللوتريه]

اعلم أنى لما وصلت الى هذا المقام عند طبع التفسير أحببت أن أشاهد بنفسى بعض تلك الأماكن التى

ابتدعها الفرنجة فى مصر ليكون قولى عن مشاهدة فصاحبنى اليها فاضلان مفتشان برقبان اللعب من وزارة الداخلية ، وهما من المغرمين بالعلم الباحثين عن الحقائق فتوجهنا الى محل صيد الحمام بشبرا و يسمونه [التيرو] كلمة تليانية يوم ١٨ مارس سنة ١٩٢٣ م فوجدنا مكانا متسعا فى الفضاء عليه سور فى صدره كراسىّ للجلوس وهناك أدوات الرمى ، وترى الرماة هناك مصطفين فى مدخل المكان ، وقد كانوا فى ذلك اليوم ١٥ راميا كل منهم يحمل بندقيتـه يرمى بها ، وهناك أوراق معلقة بالحائط ، وباسم كل واحـد من هؤلاء الرماة جلة فيأتى المقامر و يختار ورقة يدفع ثمنها وتكون من الورق الخاص بمن يراه غالبا من الرماة ، ومتى أخـذت الأوراق يبتدئ الرمى .

صفة الرمى : قد كانوا من قبل يرمون الحمام المحبوس فى أقفاصه فيطيره صاحب المحل ، وهو الافرنجى ويرمى الرماة واحد بعد واحد ، فانه يطير حمامة ، فيضرب زيد و يطير أخرى ، فيضرب جرجس ، فمن كان أكثر اصابة من هؤلاء الرماة كان هو الفائز وحينئذ يكون ما اجتمع من النقود كلها مصروفا لمن أخذوا باسم هذا الفائز يقسمونه بينهم ويحرم الباقون ، ثم يعاد اللعب و يعاد سحب الورق ، وهكذا .

ولما رأى رجال الحكومة أن ضرب الحمام فيه ابادة للنوع استبدلوا به أطباقا مصنوعة من الزفت والجير والأسمنت وهناك آلة شاهـدتها ترفع تلك الأطباق للجوّ فتطـير كما يطير الحمام و يضربها أولئك الرماة كما يضربون الحمام ، وهناك محل آخر للصيد ، وهذان المكانان يكسبان فى السنة مابين ٢٠ و ٢٤ ألف جنيه ، و بيان ذلك أن المقامرين كلما وضـعوا نقودا كان لصاحب المكان منها اثنا عشر ونصف فى المائة من هـذا المبلغ والحكومة تأخذ من هذا ثلاثة ونصف فى المائة توزعها على الجمعيات الخيرية منها للمصرية نحو الثلثين وللفرنجية نحو الثلث ، ثم ان اللاعب كلما لعب دورا فقـد بعض ما معه حتى يرجع خاوى الوفاض صفر اليدين لا يملك شروى نقير ، وهؤلاء الرماة كل من فاز منهم يعطى جنيها واحدا من يد صاحب المحل و بعضهم شرقيون و بعض منهم غربيون .

(١) سباق الخيل عندنا بالبلاد المصرية

ويقرب من هذا سباق الخيل ببلادنا ذلك أن المقامرين يأخذون الورق كما تقدّم فى الرمى ، والمال المجموع يأخذ منه صاحب المحل نحو العشر ، وليس للحكومة الا مائة جنيه فى كل سباق ، وصاحب المحل الافرنجى هو الذى يعطى للفرس السابق جائزة ، فأما النقود فانها تفنى بتتابع الرهن كما مرّ فى السابق ، والذى يركب هذه الخيل فى السباق سائسوها أوغيرهم ، وليس لأصحاب الخيل من نصيب فى فضيلة الركوب بل ذلك للربح .

(٢) السبق والرمى فى الاسلام ومقارنته بما عندنا اليوم

ان فى الكتب الفقهية بابا واسعا يسمى [كتاب السبق والرمى] كما يقولون كتاب الصلاة . وقد جاء فيه ان المسابقة سـنة نبوية باجماع المسلمين لقوله تعالى « وأعـدّوا لهم ما استطعتم من قوّة » والقوّة هى الرمى ، ولقوله ﷺ [لاسبق الا فى خف ، أوحافر ، أونصل] فيسابق الناس على الخيـل والابل والفيلة وبالرمى بالسهام والرماح والأحجار والمنجنيق ، وذلك هو الذى كان معروفا عند أسلافنا المسلمين . وقال ﷺ [ارموا بنى إسماعيل فان أباكم كان راميا] وقد كانوا يتعاقدون فيما بينهم على المسابقة برهان على شرط أن يكون ذلك مما يعين على الجهاد ، ومن فاز أخذ رهن صاحبه ، وقد كان ذلك للتشويق للمعالى والتعويد على اقتحام الأخطار ونيل المجد وحفظ البلاد ، فانظر كيف غفل المصرى عن ماضيه وحاضره . وهو جاهل بما كان فى تاريخ أجداده من العزّ والأنفة والشمم . فأصبح الرامى الآن أجيرا عند صاحب المكان المعدّ للصيد ، وهو الذى يأخذ مال

الخاضرين . ثم ان المقامرين يكسب بعضهم من بعض . وليس لهم فى الرمى أدنى نصيب .

فانظر كيف جهل الرامى فصار أجيرا . وجهل المقامرين الأمرين (١) ليس له حظ فى الرمى ولا فى السبق (٢) وان صاحب المحل هو الذى يستنزف ثروتهم جميعا وهم غافلون . والذى أراه أن يجعل السباق والرمى فى كل قرية و بلدة بنظام تام برهن و بغير رهن على الطريقة الاسلامية الشريفة و يمرّن كل شاب مسلم على ذلك تقوية لجسمه وتشجيعا لحماية البلاد وحفظا للديار من اغارة الأعداء . أما هذا الذى رأيته فانه يورث البطالة والكسل مخرّب للبلاد ، مغن للفرنجة الذين هم بذلك فائزون .

(٣) النوع الثالث يانصيب اواللوتريه

وكيفيته أن يبيعوا أوراقا كل ورقة بقرش مثلا ، وهذه الأوراق ربما بلغت مئات الآلاف ، و يسمونها [نمرا] و بعد جمعها يسحبونها كما كانت تفعل العرب قبل الاسلام ، ويجعلونها فى صندوق فتخرج منها مئات تكسب كل واحدة منها جنيها واحدا مثلا ، وعشرات تكسب الواحدة منها من (١) إلى عشرة ، وآحاد تكسب كل واحدة منها عشرات الجنيهات ، وواحدة فقط تكسب مئات الجنيهات ، وأما بقية النقود ففى جيوب الفرنجة ، وقد نشروها فى بلادنا ، وأعدّها بعضهم للاحسان على فقرائهم كما عند أسلافنا حذو النعل بالنعل :

إن سباق الخيل والرمى قد مسخا مسخا فأصبحا عارا على الأمّة الاسلامية ، أصبح الرمى وسباق الخيل مرتزقا للفرنجة ، فيأخذون عشرات الألوف من جيوب المصريين ، و ياليت الأمر وقف عند ما ذكرته بل هناك محالّ فيها أنواع من القمارسرّية يلعب فيها الأغنياء وأهل الوجاهة والعظماء ، وهم كالسابقين يضيع مالهم بمئات الألوف فى يد الاورو بيين ، وهم جميعا غافلون ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، ولعمرك ماشبهتهم حين رأيتهم إلا بنعاج يجزّ صوفها ، و يؤكل لبنها وسمنها ، و يشترى البرسيم من ذلك الثمن ، يكسب زيد من المقامرين جنيها وهولم يأخذه إلا من جيوب أصحابه المصريين وصاحب المحل الافرنجى هوالفائز بثمن مايدفعون فى كل مرة من مرات اللعب ، فيبنى القصور والدور فى البلاد ، ويخرب المصرى ، و يبيع ماورث من آبائه المثرين ، واذا كان أجدادنا العرب قدكانوا يقامرون للفضل على الفقيركما فى [يانصيب] وقد حرم عليهم بل أمروا بالانفاق اختيارا ، فكيف نقامر قمارا لاحظ للفقير فيه من مالنا ؟ وإنما الحظ للأجنبى يأخذ المال ونحن غافلون ، ولم يجز فى الاسلام الرهان إلا فى السباق ، وفى الرمى على الطريقة الشريفة ، أما هذه فهى مضيعة للمال ، مخجلة للأمّة ، والمال فى يد الأجانب ، والأجانب هم الفائزون ، ليكن السبق والرمى فى سائر البلاد ، فى القرى ، وفى المدارس ، وفى الجامعات الدينية ، انها من الدين ، إن لها فى الفقه كتابا ككتاب الصلاة ، وليست لجماعة من الفرنجة يضحكون على أذقان المسلمين ، المسلمون فيها مقصرون ، ولقدأدّيت ماعلىّ ، والله هوالولىّ الحميد « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »

المسئلة الثانية : الطهارة

يقول الله عزّوجل « ولاتقربوهنّ حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهنّ من حيث أمركم الله إن الله يحبّ التوّابين ويحب المتطهرين » أى يحب التوّابين من الذنوب ويحب المتنزهين عن الفواحش والأقذار كمخالطة الحائض مخالطة خاصة .

فانظر كيف قرن التوّابين بالمتطهرين ، وجعل حب الله لهما معا ، ولم جعل التباعد عن قذر الحيض وملامسة الحوائض من موجبات حب الله تعالى ، وكيف كان للتوبة ذكرمعها ؟ فاعلم أن هذاهوالسرّ الذى عرفه علماء

الشرق قديما والغرب حديثا ، أما أهل الشرق فقد شرحه الامام الغزالى منهم أوفى شرح ، وجعل العلاقة تامّة مابين الطهارة الظاهرية والطهارة الباطنيـة ، وأن الظواهر تدعو حثيثا للبواطن ، وكلما كان الانسان شديد العناية بطهارة جسمه ونظافة ظاهره جرّ ذلك الى العناية بالباطن ، وليس المقصود من هذا أن كل من كان أنظف جسما كان أنورعقلا . كلا . والا فالعروس إذن تكون أطهر العالمين قلبا ، وانما جرت العادة أن من عجز عن الصغائر فهو عن الكبائر أعجز ، فمن أعجزه ظاهر جسمه عن النظافة والعناية فانه عن العناية بقلبه وعمارة نفسه أعجز ، ولذلك ورد « أصلحوا ظواهركم فعسى أن تصلح بواطنكم » فظواهر الجسم أقرب لنا من بواطن النفس ، واذا كان الانسان يجهل ظواهر القرآن فهوعن بواطنه أعجز ، فهكذا من لم ينظف ظاهره عجز عن نظافة باطنه ، ونظافة الباطن ونزاهته شاقة صعبة المسالك ، وعرة الطرق ، وهى المقصودة بالذات من كل عبادة وطهارة وزكاة وصلاة وحج وصيام ، كل تلك الظواهر ليس لها نهاية ولاغاية إلا جمال البواطن . وكيف تطير النفس الى العلا ، أوتظهر لها محاسن هذا العالم الجميل والقلب مشحون بالكبر والاعجاب بالنفس وبالحقد ، والحرص ، والطمع ، والتملق ، والرياء والغيظ ، والكدّ ، وضياع الوقت ، والكسل ، والاسراف فى الكلام ، وفى الخصام والجدال ، كل ذلك اسوار مانعـة ، وحصون لايقدر العلم أن يهدمها فيصل للنفس ، وجسورليس فيها منافذ لسقى أرواحنا ، وأمراض مانعات من الشهوة لتعاطى الغذاء الروحى اللذيذ ، والفاكهة التى ليست مقطوعة ولاممنوعة .

تلك الأمراض النفسية التى تغشى على القلوب منعت كثيرا من النفوس الانسانية أن تتمتع بجنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين ، جنة العارفين هى جنة العلم ، جنة الحكمة ، ومن لم يدرك تلك البهجة فى الدنيا مات وليس له حظ ان كان صالحا إلا فى الجنة المحسوسة وهوغافل ساه على قدرمانال فى الحياة .

هذا هوالذى يدور عليه كلام حكماء الاسلام وكبرائهم ، وكبار الصوفية فيهم ، وهم أهل الشرف ، وذلك أنسب بقوله تعالى : « إن الله يحبّ التوّابين ويحب المتطهرين » .

وأما ما قاله علماء الغرب فاليك منها ماقاله العلامة [بنتام] الانجليزى فى أصول الشرائع ، وقد ترجم هذا الكتاب الى كثير من اللغات الاوروبية وهو مترجم الى اللغـة العربية عن الفرنسية ، ترجمه المرحوم [أحمد فتحى باشا زغلول] . قال فى صفحة ١١ من الجزء الثانى عند الكلام على المسجونين :

النظافة والصحة

ذهبوا الى أنه يجب تطهير المسجون قبل ادخاله السجن ، وأن يحاط ذلك بصلاة أوموسيقى خشنية ليكون مؤثرا على فكره ، ثم يلبس لباسا خشنا أبيض ليضطرالى حفظه نظيفا ، ويحلق رأسه ، أو يقص قصا جيدا ، ثم ينبغى استحمامه فى أوقات معينة ، ويلزم منع التدخين وكل عادة لاتليق بمنزل نظيف ، ثم تغير الملابس فى أوقات مخصوصـة . الى أن قال : على أنه يوجد بين التنعم الجسمى واعتـدال الملكات النفسية ارتباط كثير لاحظه كثير من المؤلفين ، فان النظافة تبعد الكسل ، وتحمل المرء على التحرّز فى أفعاله ، والتمسك بالوقار فى أطواره . والرابطة بين نظافة الجسم وطهارة النفس شديدة جـدّا ، حتى ان شرائع المسلمين حثت عليها كليا وجعلتها من الواجبات الأوّلية ، فمن لم يصدّق بتلك الأديان لاينكرتأثيرها الجسمانى .

هذا ما كتبه العلامة [بنتام] المشترع الانجليزى فى كتابه [أصول القوانين] أى تلك القواعد الكلية التى من ضوئها تقتبس القوانين ، ثم يحفظها تلاميذ مدارس الحقوق ، ثم يطبقونها على الحوادث فى سائر الأمصار فهو إذن فوق واضع القانون وواضع القانون فوق القاضى . انظر أليس قوله : « ان بين نظافة الجسم واعتدال الملكات

النفسية ارتباطا ، وأن هذا الاحظه كثير من المؤلفين » هو بعينه ماذكره علماؤنا من أن نظافة الظواهر تدعو حثيثا الى نظافة البواطن التى هى المقصود الأعظم . أوليس ذلك بعينه هو قوله تعالى هنا : « إن الله يحبّ التوّابين ويحبّ المتطهرين » فذكر لفظ يحب مع التوبة وهى راجعة الى طهارة الباطن وسلامة النفس وأعاد ذكر الحب ثانيا مع الطهارة وهى تشمل الحسية والمعنوية . وقدّم الطهارة الباطنة لأنها هى المقصودة . ثم أتبعها بطهارة الجسم بحسب اللفظ لأنها وسيلة . أليس اقتران الظاهر بالباطن فى الآية هو بعينه ما قاله حكماء الاسلام فى الشرق وحكماء الشرائع والقوانين فى الغرب . هذا هو سرّ قوله تعالى : « إن الله يحبّ التوّابين ويحب المتطهرين » .

المسألة الثالثة : تنزيه الله عن الحلف باللسان

لقد ذكرنا للآية وجهين : أحدهما وهو المقصود هنا أن العرضة من قول الرجل للرجل : جعلتنى عرضة للومك . فاذا نطق لسانه بالكلام وأكثر من الحلف وجعل الله عرضة لأيمانه كذبه الناس وضاعت ثقتهم به ولم يصلح لأن يصلح بينهم ، فأما اذا ما احترس من الكلام ، وحفظ لسانه ، وصان مقامه ، وكان موقرا فى نفسه ، صار قوله حجة . وصار تقيا ، لأنه اتقى شرّ لسانه ، والغوائل التى تنشأ منه ، وأصبح وقورا يمكنه الاصلاح بين الناس . هذا هو المعنى الذى ذكرته فيما تقدّم .

أقوال علماء الشرق والغرب فيما يناسب هذه الآية

قد شرح علماء الاسلام قديما آداب النفس ، ومن أهمها آداب اللسان ، وليس كلامى الآن فى الحلّ والحرمة ، ولكن كلامى فى النتائج والفوائد الدنيوية المشاهدة على الوجوه ، وفى الأخلاق والعوائد . يقول علماؤنا كالامام الغزالى : « إن الصمت والوقار ، وغض البصر عن المحرّمات يعطى الوجه سمة الكمال ، ويكون عليه مهابة وبهاء » فان هذه الظواهر الجيلة من حسن السمت والوقار وصون اللسان تؤثر فى القلب سكوتا عن كل مالافائدة منه ، فالكلام أثر فى القلب ووقع كوقع السهام خيرا أوشرّا ، ومعلوم أن جميع الأمم تربى الجند بالحركات الدالة على اطاعة الرؤساء ، وهذا يؤثر فى العقول ، موجب للطاعة ، فان الباطن لوح الظاهر ، يكتب فيه ماعلى عليه ، ألاترى أن تعوّد الانسان على تحسين خطه زمن التعلم يولد فى النفس ملكة تدعوه الى كتابة ما خزنته النفس من تلك الرقوم على حسب ماتقبلته من الجوارح ، وهكذا الآلة الحاكية [الفونوغراف] تقبل الصوت أوّلا فيرتسم على لوحتها رسما خفيا بحفر الابرة ، ثم تعيد الصوت حاكية كما يحكى الجبل صوت من رفع صوته فى جواره . هذا بعض ماقصده علماء الاسلام أوضحته مختصرا مع التصرّف فى بعض الأمثلة . و بعد أن شرح الآداب الواجب سلوكها مع الله فى الحلف شرع عزّوجل يبين حكم الايلاء وهو نوع من الحلف :

(المقصد الحادى عشر)

أحكام الإيلاء والطلاق ، فللايلاء قوله تعالى :

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *

يقال آلى عليه اذا حلف ، وعدّى هنا بمن لتضمنه معنى البعد ، والايلاء أن يحلف الرجل أن لا يطأ زوجته

مدة

مدة تزيد على أربعة أشهر فهو مول فيتربص به أربعة أشهر فان فاء : أى رجع ووطئ فان الله غفور له إثم حنثه ان كفر عن يمينه ، وإثم ماحصل بايلائه من ضرار ، فان لم يفئ الى الوطء وذلك بعد مطالبة الزوجة وعزم الطلاق أى قصده أو تحققه بالايقاع (فانّ الله سميع) للطلاق (عليم) بالنيات والأغراض .

فان لم يفئ ولم يطلق طلق عليه الحاكم واحدة عند الشافعى وعمر وعثمان ومالك وأحمد ، وعند ابن عباس وابن مسعود وأبى حنيفة تقع طلقة بائنة متى مضت المدة ، وقال سعيد بن المسيب والزهرى تقع طلقة رجعية ، قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية اذا طلب الرجل من امرأته شيئا فأبت أن تعطيه حلف لايقربها السنة والسنتين والثلاث فيدعها وشأنها لا أيما ولاذات بعل ضرارا وتنكيلا ، وجرى عليه المسلمون فى ابتداء الاسلام فنزلت هذه الآية لترفع الظلم وليكون عدلا . ولما كان الايلاء جامعا لليمين وللطلاق جاء بينهما فكان اليمين ، ثم الايلاء ، ثم الطلاق ، فقال :

(المقصد الثانى عشر)

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ *

التفسير اللفظى

قال الله تعالى (والمطلقات) واحدة أواثنتين (يتربصن بأنفسهنّ) ينتظرن بأنفسهنّ فى العدّة فلايتزوّجن (ثلاثة قروء) جمع قرء ، وسيأتى تفصيله فى الايضاح (ولايحلّ لهنّ أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهنّ) من الولد والحيض استعجالا فى العدّة وابطالا لحق الرجعة (ان كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر) هذا وعيد شديد لتأكيد تحريم الكتمان وايجاب أداء الأمانة فى الاخبار عما فى الرحم من الحيض أوالولد (وبعولتهنّ) أى أزواج المطلقات (أحقّ بردّهنّ) الى النكاح والرجعة إليهنّ ، ولكن اذا كان الطلاق رجعيا ، وقوله (فى ذلك) أى فى زمان التربص (ان أرادوا) بالرجعة (اصلاحا) لما بينهم و بينهنّ واحسانا اليهنّ ولم يريدوا مضارتهنّ (ولهنّ مثل الذى عليهنّ) ويجب لهنّ من الحق على الرجال من النفقة ، وحسن العشرة ، وترك المضارّة مثل الذى يجب لهم عليهنّ من الأمر والنهى (بالمعروف) فى احسان الصحبة والمعاشرة (وللرجال عليهنّ درجة) فضيلة فى العقل والميراث والدية والشهادة بما عليهم من النفقة والخدمة (والله عزيز) بالنقمة لمن ترك مابين المرأة والزوج من الحق والحرمة (حكيم) فيما حكم بينهما (الطلاق مرتان) أى طلاق الرجعة مرتان (فامساك) قبل التطليقة الثالثة (بمعروف) بحسن الصحبة والمعاشرة (أوتسريح باحسان) أو يطلقها الثالثة باحسان يؤدّى حقها (ولايحلّ لكم) أيها الأزواج أوالحكام ، لأنكم الآمرون بالأخذ والايتاء عند الترافع إليكم (أن تأخذوا مما آتيتموهنّ) أعطيتموهنّ من المهر (شيئا إلا أن يخافا) يعلما الزوج والمرأة عند الخلع (ألا يقيما حدود الله) أحكام الله فيما بين المرأة والزوج (فان خفتم) علمتم (ألا يقيما حدود الله) فيما بين المرأة والزوج (فلاجناح عليهما) أى فلاجناح على الرجل فيما أخذ ولاعليها فيما أعطت (فيما افتدت به) أن يأخذ ما اشترت المرأة نفسها به من الزوج بطيبة نفسها (تلك حدود الله) أى ماحدّ من النكاح واليمين والايلاء والطلاق والخلع وغير ذلك (فلا تعتدوها) فلاتجاوزوها بالمخالفة (ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون) الضارّون أنفسهم (فان طلقها فلاتحلّ له من بعد) من بعد التطليقة الثالثة (حتى تنكح) تتزوّج (زوجا غيره) و يدخل بها الزوج الثانى (فان طلقها) الزوج الثانى (فلاجناح عليهما) على الزوج الأوّل والمرأة (أن يتراجعا) بمهر ونكاح جديد (إن ظنا) علما (أن يقيما حدود الله) أحكام الله فيما بين المرأة والزوج (وتلك حدود الله) هذه أحكام الله وفرائضه (يبينها لقوم يعلمون) يفهمون مابين لهم وقوله (واذا طلقتم النساء) الى آخر الآيات تفسيرها ظاهر فى الايضاح الآتى :

ايضاح

إن فى هذه الآيات لعظات جمة ، وفوائد عجيبة ، مزج فيها الوعظ بالأحكام ، والأخلاق بالفقه ، وههنا من الابداع فى القول ، والترغيب فى المودّة ، والترهيب من الاضرار مالانظير له ، ائتمن النساء على أرحامهنّ فأتى بالأمر بصورة الخبر كأنهنّ يتربصن ، أى ينتظرن ويرتقبن بلا وازع من خارج ، ولا آمر ، وذلك هو التربية العالية ، بحيث يكون المرء على نفسه رقيبا تسمو فيه ملكة قوّة الارادة وثبات العزيمة حتى ان المرأة لايعوزها مرشد للتربص فى الاقراء ، والقروء جمع قرء ، وهو الحيض أوالطهر ، والبعولة مصدر كالعمومة والخؤولة أى أهل بعولتهنّ ، والعضل المنع والتضييق . قال أوس بن حجر :

وليس أخوك الدائم العهد بالذى * يذمك ان ولى و يرضيك مقبلا
ولكنه النائى اذا كنت آمنا * وصاحبك الأدنى اذا الأمر أعضلا

أى ضاق ، يقول الله : على المطلقات أن ينتظرن ثلاثة قروء ، أى أطهار أوحيضات ، وعلى الأوّل جمع من

الصحابة

الصحابة كزيد بن ثابت وابن عمر وعائشة والزهرى ومالك والشافعى ، وعلى الثانى عمر وعلى وابن مسعود وابن عباس وأبوموسى وأبوالدرداء والضحاك والسدّى وأبوحنيفة رضى الله عنهم أجمعين ، وأصل القرء الوقت يقال : جاء فلان لقرئه : أى وقته ، ولاجرم أن أيام الحيض وقت وأيام الطهر وقت ، وليس الخلاف عظما بين الأئمة رضى الله عنهم فكيف والأطهار تتبعها الحيضات ، ولكن ظهور الثمرة فى أحوال قليلة ، والمذهبان الكليان متشابهان فى حفظ الأنساب ، ألاترى أن الاطهار والحيضات دالات على براءة الرحم من الولد ، وهذا فى المدخول بها من ذوات الأقراء ، فأما الكبيرة التى أيست والصغيرة ، واللائى لم يحضن فعدّتهن ثلاثة أشهر والمتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر ، وعدّة الحامل أن تضع ، فهذه الآية فى حال خاصة .

ثم أبان أن الطلاق الذى تصح الرجعة بعده مرّتان ، فاما امساك بمعروف وحسن معاشرة ، أوتسريح باحسان ، وذلك بأحد أمرين : إما أن يترك رجعتها الى تمام عدّتها ، واما أن يطلقها الثالثة ، وهنا أتى بحكم الخلع ، فقال « ولايحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئا إلا أن يخافا ألايقيما حدود الله » الآية ، ذلك أن جميلة بنت عبدالله بن أبىّ ابن سلول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : لا أنا ولاثابت ، لايجمع رأسى ورأسه شىء ، والله ما أعتبه فى دين ولاخلق ، ولكنى أكره الكفر فى الاسلام وما أطيقه بغضا ، انى رفعت جانب الخباء ، فرأيته أقبل فى عدّة من الرجال ، فاذا هوأشدّهم سوادا ، وأقصرهم قامة ، وأقبحهم وجها . فنزلت آية الخلع : فقال ﷺ : لجميلة أتردّين عليه حديقته ؟ قالت أردّها وأزيد عليها . فقال صلى الله عليه وسلم : أما الزائد فلا ، اقبل الحديقة وطلقها تطليقة . وهذه الآية خطاب للحكام وللأزواج .

يقول الله : ولايحلّ لكم أيها الحكام والأزواج أن تأخذوا مما آتيتموهنّ من المهر شيئا إلا أن يخافا ألايقيما حدود الله . إن هذه الآية جاءت تالية الطلقتين إذ جاءت بعد المرّتين ويليها طلقة ثالثة وهى قوله : « فان طلقها فلا تحلّ له من بعد » فهى فسخ عند ابن عباس وطاوس وعكرمة وأحمد واسحق وأبى ثور . وعند الشافعى فى القديم ، وطلاق عند عثمان وعلىّ وابن مسعود والحسن والشعبى والنخعى وعطاء وابن المسيب ومجاهد ومكحول والزهرى ، والشافعى فى الجديد ، وأبى حنيفة ومالك وسفيان الثورى .

اعلم أن للزوج مع المرأة بعد الطلقة الثانية أحوالا ثلاثة : (١) اما أن يراجعها (٢) واما أن لايراجعها بل يتركها حتى تنقضى عدّتها فتصير بائنا (٣) واما أن يطلقها طلقة ثالثة .

وللأولى « فامساك بمعروف » وللثانية « أوتسريح باحسان » وللثالثة « فان طلقها فلاتحلّ له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » فيكون نظم الآية هكذا « الطلاق مرّتان فامساك بمعروف أوتسريح باحسان فان طلقها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » وعلى هذا يكون الخلع الذى فصل الثالثة عن الثانية أجنبيا عنهما . وانما دعا الى ذلك أن الرجعة والخلع يستويان فى أنهما لايصحان إلا قبل الطلقة الثالثة ، أما بعدها فلايبقى شىء من ذلك ، فلهذا جاء حكم الرجعة ، وتبعه حكم الخلع ، و بعد الجميع حكم الطلقة الثالثة لأنها كالخاتمة للجميع ، ثم ان المطلقة بالثلاثة لاتحلّ لذلك الزوج إلا بخمس شرائط : أن تعتدّ منه وتعقد للثانى و يطأها ثم يطلقها ثم تعتد منه ، وتعلق بظاهر الآية فاقتصر على العقد ابن جبير كابن المسيب ، واتفق الجمهور على أنه لابدّ من الوطء ، فمنهم من جعل هذا من نفس الآية ، فان العرب تقول : نكح فلان فلانة عقد عليها ونكح زوجته أوامرأته جامعها ، والآية هنا من الثانى ، ومنهم من قال : الآية دلت على العقد وثبت الوطء بالسنة ، لما روى أن امرأة رفاعة قالت لرسول الله ﷺ : ان رفاعة طلقنى فبتّ طلاقى ، وان عبد الرحمن بن الزبير تزوّجنى . وان ما معه مثل هدبة الثوب ، فقال رسول الله ﷺ أتريدين أن ترجعى

الى رفاعة ؟ قالت نعم ، قال لا حتى تذوقى عسيلته و يذوق عسيلتك ، فالآية مطلقة قيدتها السنة « فان طلقها » الزوج الثانى « فلاجناح عليهما أن يتراجعا » الآية .

ثم أبان حكم المطلقات بعد انقضاء عدتهن ، وأمر أن لايعضلن ويمنعن من أزواجهن ، إذ روى أن معقل بن يسار عضل أخته أن ترجع الى زوجها فنزل النهى عن ذلك بقوله تعالى « فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن » الآية هذا ملخص الأحكام فى هذه الآيات .

انى عجبت لهذه الآيات ! انها آيات أحكام وقوانين شرعية وأحكام فقهية ، ولكن الناظر فيها يدهشه نظمها ، ويبهره وضعها ، الآيات مفعمة بالموعظة ، ما ذكر حكما إلا أتبعه بعظات ، ولاقال كلمة فقهية إلا أتبعها بالزاجرات ، ألم تركيف أعقب القروء الثلاثة بقوله « ولايحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن » من الحيض أوالولد ، وأعقبه بذكر الايمان بالله واليوم الآخر ، وتأمل كيف أباح الرجعة والرد فى العدة على شريطة إرادة الاصلاح ، ولم يكتف به بل سوى بين الرجال والنساء فى الحقوق فقال « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » ولم يكن للرجال إلا فضل الاشراف عليهن والانفاق ، ثم ختم المقام بذكر انه عزيز غالب يقهر من عصى من الأزواج والزوجات بكتم مافى الأرحام ، أوبالرجعة بغير ارادة الاصلاح ، وانه حكيم فى عقابه وأمره مكين ، ثم انظركيف أعقب ذكر الطلاقين بكلمتين جيلتين : المعروف أولا والاحسان ثانيا فلايمسك الرجال النساء إلا بالمعروف . ولا يسرحوهن إلا باحسان ولم يدع مجالا للزوج أوالحكام أن يأخذوا من مال المرأة بالخلع إلا اذا حصل مثل ما اتفق لجميلة . وحذرهم أن يأخذوا أكثر مما أنفق الأزواج بل جعله أقل بمن التبعيضية ، فاستيفاء المهر والزيادة عليه عند الخلع مخالف لظواهر الآيات ، وان أفتى الفقهاء بخلافه مع كراهتهم له فلقد نفذوه وكرهوه ، ولم يبح فى الآية الخلع إلا بعد شقاق وخلاف ، وكذلك ورد فى الحديث : « أيما امرأة سألت زوجها طلاقا فى غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة » ، ولم يشأ أن يدع آيات الطلاق والأحكام بعد أن ذكرها بلاتذكير ووعظ فى خواتيمها كما وعظ فى أوائلها فقال « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن » أى قارب الأجل على أحد اطلاقيه فهو للمدة كلها ولنهايتها والمراد الثانى . يقول محذرا : فاذا قارب الأجل فامسكوهن بمعروف أوسرحوهن بمعروف ، وإياكم أن ترجعوهن مضارين لتظلموهن ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولاجرم أن أولئك الذين يرجعون زوجاتهم بظواهر الشرع و يضاروهن لأشبه بمن يتخذون آيات الله هزوا ، ذلك أنهم يطلبون الباطل بالحق ، والجهل بالعلم ، فكأنهم جعلوا الآيات هزوا . ثم ذكر الناس بالنعم فقال . واذكروا نعمة الله عليكم » بالحياة والصحة والدين المنزل ، فاذا أضعتم الأيام فى التنغيص والأكدار كانت الحياة وبالا ، والعيش خبالا ، والعلم ضلالا .

ثم ختم المقال بقوله « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى » أى أنفع « لكم وأطهر » من دنس الآثام « والله يعلم » أن الحياة لاتسر ولاتنفع إلا اذا اتفق الزوجان وتبادلا الحب وعاشا قريرى العين ، فلاطلاق إلا باحسان ، ولا امساك إلا بمعروف ، ولامنع للزوجة عن زوجها اذا أحبت الرجعة اليه ، فتكون الحياة سعادة ، والموت بعدها شهادة ، والبنون قرة ، والأصهار مودة . فاذا خالفتم مارسمنا وجهلتم ماعلمنا ، وقصرتم الأمر على القوانين الفقهية ، والأحكام الشرعية ، وظننتم أن هذا هوالاسلام فأنتم أيها الناس إلا أضل من الأنعام « وأنتم لاتعلمون » العواقب ، ولاتدركون ما يكون من المصائب ، فأنا ان حذرتكم المغاضبة ، ومنعتكم المشاقة فما أردت إلا سعادة الحياة الدنيا وعقباها الآخرة ، فاذا أشقيتم الأزواج واستحللتم أموالهن بغيرحق وأرهقتموهن فى أمر فلتعيشن فى شقاق ، ولتموتن على حال أشبه بالنفاق ، لأنكم اتخذتم الآيات هزوا ، فكأنكم كفرتم بالقلوب ، وآمنتم بالألسنة ، فلست أريد منكم وثائق وشرائط ودعاوى

والقلوب منبوذة . والعقول مطروحة . وانما أريد حياتكم السعيدة فى أحوال سديدة . هذا هودين الاسلام هذا هو العلم والحكمة .

فليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن هذا هو الدين وهوالمقصد وماعداه فقشور . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

هذه الآيات تدخل فى علم الأخلاق . وحسن المعاشرة . وطلب الفضيلة . والأخلاق العالية . أوليس من العجيب أن يحذو الجنس البشرى اليوم حذو هذه الأحكام . فقد علمنا فى الأمة الأمريكية اليوم محكمة تحكم بفراق الزوجين متى يستبين أنهما لايقيمان حدود المعاشرة . وقد أخذ الناس ينسلون اليها من كل حدب حتى ضاقت أرضهم بمارحبت . وضاقت عليهم أنفسهم من ازدحام طلاب الطلاق . وشرطوا أخيرا أن لاتقام دعوة إلا لمن أقام عندهم ستة أشهر . وقد بلغنا أنهم حكموا على زوج بطلاق زوجته لأنه قذرالثياب وسخ الملابس فقد أثبتت زوجته انه لم يكن ليغتسل . أفليس العالم أخذ يقترب من الاسلام شيئا فشيئا . ألاترى أن هذه كمسألة جميلة . هذه بقبح الصورة وتلك بقذارة الجسم . وهل أجمع لهذه المعانى وغيرها من قوله تعالى : «إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله » .

يارب ان الانسان الى الآن ماعرف حقك وجهل سياسة الأزواج . وسياسة المدن . وقد عصوك فى نظام المدن فظلموا . وعصوك فى نظام البيوت ففسقوا . فأسألك اللهمّ رحمة بالأمم و بأهل المنازل انك أنت الرحمن الرحيم . اللهم اهد الانسان الى أحسن حال . ولما كانت نتيجة الزواج الولادة ولاحياة للولد بلارضاع . وقد يختلف الزوجان فى أمره أعقبه :

(المقصد الثالث عشر)

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى (والوالدات) المطلقات (يرضعن أولادهنّ حولين كاملين) سنتين كاملتين (لمن أراد أن يتمّ الرضاعة وعلى المولود له) يعنى الأب (رزقهنّ) نفقتهنّ على الرضاع (وكسوتهنّ بالمعروف) بغير اسراف (لاتكلف نفس إلا وسعها) إلا بقدر ما أعطاها الله من المال (لا تضارّ والدة بولدها) أى لا ينزع الولد من أمه بعد أن رضيت بارضاعه كما لا تكره على ارضاعه اذا قبل الصبى لبن غيرها (ولامولود له) وهو الأب (بولده) أى بأن يطرح الولد عليه بعد ما عرف أمه مضارّة له كما لا يلزم أن يعطى أم الولد أكثر مما يجب عليه لها اذا لم يرضع الولد من غير أمه (وعلى الوارث) وارث الأب اذا مات (مثل ذلك) أى مثل ما كان يجب عليه من النفقة والكسوة . والوارث نفس الصبى ان كان له مال ، فان لم يكن له مال فعلى الأم ، ولايجبر على نفقة الصبى غير الأبوين ، وبه قال مالك والشافعى . وقيل : وعلى وارث الصبى أى الذى يرثه اذا مات مثل ما كان على الأب فى حال حياته وهم إما عصبة كالجدّ والأخ والعم وابنه ، واما كل وارث له من الرجال والنساء ، وبه قال أحمد فيجبرون على نفقة الصبى كلّ على قدر سهمه . واما كل من كان ذا رحم محرم منه ، وبه قال أبو حنيفة (فان أرادا) أى الزوج والمرأة (فصالا) أى فصال الصبى عن اللبن قبل الحولين يعنى فطاما (عن تراض منهما) بتراضى الأب والأم (وتشاور بينهما (فلا جناح عليهما) زادا على الحولين أو نقصا ، وهذه توسعة بعد التحديد ، والتشاور استخراج الرأى ، من شرت العسل اذا استخرجته (وان أردتم أن تسترضعوا أولادكم) غير الأم لسبب مّا كأن تريد أمه الزواج مثلا (فلاجناح عليكم) فلاحرج على الأب والأم (اذا سلمتم ما آتيتم) اذا أنفقتم ما أعطيتم (بالمعروف) بالوجه المتعارف وبالموافقة من غير مخالفة (واتقوا الله) اخشوا الله فى الضرار والمخالفة (واعلموا أن الله بما تعملون بصير) لاتخفى عليه أعمالكم فهو يجازيكم عليها (والذين يتوفون منكم) يموتون من رجالكم (ويذرون) يتركون (أزواجا) بعد الموت (يتربصن) ينتظرن (بأنفسهنّ) فى العدّة (أربعة أشهر وعشرا) يعنى عشرة أيام (فاذا بلغن أجلهنّ) فاذا انقضت عدّتهنّ (فلاجناح عليكم) على أولياء الميت فى تركهنّ (فيما فعلن فى أنفسهنّ) من التعرّض والزينة للخطاب (بالمعروف) الذى لاينكره الشرع (والله بما تعملون خبير) عالم بالبواطن (ولاجناح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء) كأن يقال لها أنت جميلة ، أو صالحة ، أو أريد أن أتزوّج ، أو نحو ذلك ، لا أن يقال انى أريد أن أتزوّجك تصريحا (أو أكننتم فى أنفسكم) أو أضمرتم فى قلوبكم فلم تذكروه تصريحا ولاتعريضا (علم الله أنكم ستذكرونهنّ) ستذكرون نكاحهن (ولكن لاتواعدوهنّ سرّا) نكاحا أو جماعا ، عبر بالسرّ عن الوطء لأنه مما يسر ، ثم عن العقد لأنه سبب فيه (إلا أن تقولوا قولا معروفا) المستثنى منه محذوف ، أى لاتواعدوهنّ مواعدة إلا مواعدة بقول معروف كالتعريض المتقدّم (ولاتعزموا) لاتحققوا (عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) حتى تبلغ العدّة وقتها ، وسميت العدة كتابا لأنها فرضت به (واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم) مافى قلوبكم من الوفاء والخلاف على ما قلتم (فاحذروه) فاحذروا مخالفته (واعلموا أن الله غفور) لمن تاب من مخالفته (حليم) إذ لم يعجله بالعقوبة .

انتهى التفسير اللفظى .



ايضاح

في هذا المقصد ثلاثة درر

الأولى تربية الولد وارضاعه ، الثانية مدّة المتوفى عنها زوجها ، الثالثة الخطبة في العدّة

الدرة الأولى

يقول الله تعالى للرّجال والنساء : ليكن رضاع الولد حولين كاملين عند التنازع ، فان ذلك أكثر احتياطا للولد ، وعلى الأمّ ارضاعه لأن لبنها له أشهى وثديها له أوفق من غيرها كما نصّ عليه الاطباء قديما وحديثا ، فالولد بضعة منها . وقد أعد الله عزّ وجلّ لبنها له ولم يخزنه في الثدى الا والولد يتحرك في جوفها و يضطرب في رحمها فعليهنّ ارضاعه لصحته فقوله يرضعن خبر معناه الأمر : أي ليرضعن ، وذلك على سبيل الاستحباب اذا قام غيرها مقامها ولم يضره لبن الاجنبية وقبله الصبي ، فأما اذا لم توجد الاجنبية أو كانت ولم يقبل لبنها أو قبله وأضر جسمه ، فعلى الأمّ ارضاعه وجوبا ، وعلى الأب لها كسوة ونفقة على الموسع قدره وعلى المقتر قدره هذه قسمة عادلة على الأب طعام وكسوة ونفقة للبائن ولا يصح استئجار الزوجة والمعتدة عند الحنفية ، وهو وجيه ، وخالف الشافعية ، وعلى الأمّ الارضاع .

تعجب كيف أخذ عزّ وجلّ ينهى الوالدين عن إضرار ولدهما ، فقال « لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده » قرئت بالرفع والنصب والماضى ضار ، ويحتمل البناء للفاعل وللمفعول في الحالين ، والمعنى على البناء للفاعل عند النهى ، أو الخبر هكذا لا تضر والدة ولدها ، والباء زائدة ولا يضر مولود له ولده ، بين الله لكل عمله هذه ارضاع ، وهذا انفاق ، ورحمها ، فقال « لا تكلف نفس إلا وسعها » فلا المطلقة تؤمر بما لا تستطيع من الارضاع ولا نفقة لها ، ولا الوالد يكلف مالا يستطيع من النفقة ، فلما أن عرفهما ماعليهما وأنه رفع المشقة عنهما أخذ يوصيهما بولدهما وفلذة كبدهما ، وقال لكل واحد على حدته أوصيك بولدك لا تضار والدة بولدها كأن تسيء غذاءه ولا تنظف ثيابه أو تجهل الأحوال الصحية أو تكثر المشاقة والمشاحنة مع الوالد فيكدر العيش و يتنغص فيسرى الحزن والمرض في اللبن فيضر الولد ، وقال ولا يضر المولود له ولده باساءة الزوجة أوترك الانفاق أو نزعه منها وهو بها متعلق وليس يصح للزوجين أن يفطما الصبي دون الحولين إلا باستشارة وتراض بينهما .

ياعجبا لهذه الآيات أوجب الله علم الصحة ، وأوجب مبادىء التربية على النساء بقوله لا تضر والدة ولدها ، ولا جرم أن الجهل بتربية الصغار إضرار ، و إياكم أيها الساءون في أقطار المسكونة أن تظنوا إضرار الصبي قاصرا على ماير تكب من جناية ، كلا ، فالجهل بالصحة هو الذى يهدم بنيان جسمه و يقوض أركان صحته و يذيقه عذاب الآلام ويجرعه كأس الحمام .

مبادىء علم الصحة وتربية الولد واجبة وجوبا شرعيا على كل امرأة قبل زفافها ، وعلى ولاة الأمور والعلماء والأغنياء التضامن والتعاون على نشر التعليم امتثالا لما أمر الله به من احسانه للولد وترك إضراره ، علم الله حال الانسان قبل خلقه أنه جهول ضعيف ولا سبيل لصلاحه الا بالتعلم ، وقد علم الله الطيور في أوكارها بالالهام ما اضطرت إليه واحتاجته في حياتها ، ألا ترى كيف يتنزه أفراخ الطير في أعشاشها أن تذرق فيها محافظة على الصحة ، وكيف ألهم الله السخلات اذا ولدتهنّ النعجات أن لا تبغم حتى لا يسمع الذئب بغامها فيأكلها ، ثم كيف أخرجت أفراخ الأوزة عالمات بالعوم يوم يولدن وصغار العناكب عالمات بالنسج بلا تعليم ولا تدريب وسلب الانسان هذه الموهبة ومنع هذه المكرمة ، ولكنه منح العلم والحكمة وجاءت الديانات ، فقال في القرآن

« لا تضار والدة بولدها » ولقد أيقنا أن الولد قليل المواهب سريع العطب ، والأمّ الجهول لاتقوى على تقويم صحته الابالعلم لما فى النوع البشرى من الجهل العام ، فالسبيل القويم تعليم الفتيات والفتيان بعض تقويم الصحة وفى ظنى أن عشرين درسا كافيات لكل من الصنفين والافكيف يتشاور الرجل والمرأة وهما يجهلان الصحة ومبادئ التربية ، وذلك للمرأة ألزم ، فعلى رجال الأمّة أن يفكروا فى هذا فلقد سبقنا به أسلافنا أهل الأندلس ، وكان النساء هنّ القائمات بالتمريض ، وهنّ المطعمات للجدرى ، وعنهم أخذ الافرنج هذه الدروس العلية فعلموا بناتهم وربوهن تربية صحيحة « والله يهدى من يشاء » ، ولقد رأيت لهؤلاء الافرنجة فى التربية كتبا ، فكان أهمها كتابا يسمى [تربية البنات] للمرحوم [صالح بك حمدى حماد] ترجمه عن فنلون الفيلسوف الفرنسى ، وقد طبع فى بلادنا بمصر ، وعجبت كيف كان الفرنجة مخالفين لتعاليم حكمائهم مثل هذا الحكيم ، فلقد منع التبرج كتبرج الجاهلية الأولى ، وكذلك التباهى بالعلم ، وأوجب أن تعلم المرأة العبادة مع التفكر ، وحضور القلب ، والاخلاص لله ، وحرّم عليها قراءة الروايات التى فيها أبطال خياليون لم يخلقوا فى الأرض ، فتكون طلبتها رجالا فوق من تراهم ، وكثير من هذه التعاليم خالفها الفرنجة لكن على كل حال قد ارتقى رجالهم ونساؤهم فى التربيـة ، أما المسلمون فانهم قلدوهم فلم يحسنوا التقليد ولم يرجعوا إلى كتابهم المقدس ، ولقد قرأت أيام طبع هذا الكتاب من هـذا الأسبوع فى الميثاق الوطنى الاقتصادى التركى ماشرح صدرى وحمدت الله إذ رأيت فى حياتى أمة اسلامية قد ظهرت ، وقد جاء فى هذا الميثاق أن التركية تعلم ابنها وتربيه تربية عاملية صحيحة موافقة للعلم ، وهذه أوّل أمّة أخذت تنهض بعد خمود الأمم الاسلامية أجيالا طويلة وسيجعلون التربية على أساس شرقى اسلامى بالاستقلال الفكرى العقلى ، لا كالتربية الافرنجية المزوّرة التى انتشرت فى مصر و بعض بلاد الاسلام ، وأنا واثق أن الأمم الاسلامية سيتبعون الأمـة التركية فى نهوضها واستقلالها فى كل شىء .

ولما كان الميثاق المذكور قد أوجب على المرأة أن تكون تربية الولد على مقتضاه ذكرته هنا لفائدته ، فقد جاء فى الجرائد أنه قد قرّره ١١٣٥ عضوا منتدبا من طبقات مختلفة من صانع ، وزارع ، وتاجر ، وعامل فى تركيا نائبين عن الأمة فى المؤتمر الاقتصادى المنعقد فى أزمير من يوم ١٧ فبراير سنة ١٩٢٣ إلى يوم ٤ مارس برئاسة المشير كاظم قره بكر باشا ، وكان تقرير هذا الميثاق بالاجماع .

المادة الأولى : ان تركيا عنصر من عناصر السلام ، والارتقاء فى العالم مستقلة داخل حدودها القومية استقلالا لاشائبة فيه .

المادة الثانية : ان الشعب التركى قد حصل على سلطانه القومى بما ضحاه من دمائه وأرواحه ، فهو لا يتنازل عن هذا السلطان القومى بأى ثمن ، وهو ظهير الى الأبد لمجلسه وحكومته القائمتين على أساس السلطة القومية .

المادة الثالثة : ان الشعب التركى شعب معمر لايقع شىء من التخريب بيده ، وكل مساعيه مبذولة فى فى سبيل اعلاء شأن المملكة من الجهة الاقتصادية .

المادة الرابعة : ان الشعب التركى يعمل جهد الطاقة لانتاج المواد التى يستهلكها ، وهو كثير السعى وينفر من الاسراف فى الوقت والثروة والواردات الأجنبية وشعاره العمل فى النهار ، وفى الليل [إذا اقتضت الحال] لانتاج المحصولات القومية .

المادة الخامسة : ان الشعب التركى عالم بأنه جالس على خزائن الذهب ويحب غابات بلاده كحبه لأولاده ويقيم للأشجار أعيادا ويغرس غابات جديدة ويستثمر مناجمه لاستعمالها فى حاجاته القومية ويسعى لأن يعرف ثروته أكثر من معرفة غيره لها .

المادة السادسة : أن عدوّنا الاعظم هوالعقوق ، والـكذب ، والرياء ، والـكسل ، وقاعدتنا فى كل شىء أن نـكون ذوى صلابة دينية فى كل شىء بشرط الابتعاد عن التعصب ونقتبس دائما كل جـديد مفيد بسرور وابتهاج ، والشعب التركى ينفر من الدسائس التى يدسها الأعداء ضد مقدساتنا ، وأوطاننا ، وأشخاصنا وأموالنا ، ومن الواجب مقاومة ذلك مقاومة مستمرة .

المادة السابعة : الترك عشاق العلم ، والعرفان وهم يصرفون أيام حياتهم فى سبيل الاكتساب حيثما وجدوا غير أنهم أبناء وطنهم قبل كل شىء وهم يحتفون بيوم المولد باعتبار أنه عيد كتاب أيضا .

المادة الثامنة : ان أعظم ماالمازيادة نفوسنا التى نقصت أيام الحروب الـكثيرة التى توالت علينا ، والفاقة التى منينا بها ، وأن يزداد شعبنا قوّة وصحة ، والتركى يتقى الميكروبات والهواء الفاسد والأقذار و يحب الهواء الطلق النقىّ ، والشمس ، والنظافة ، و يسعى للاقتداء بأسلافه فى الفروسية ، والرماية ، والقنص ، والسـباحة وغير ذلك من الرياضات البدنية و بمقدار اهتمامه بدوابه يهتم باصلاح جنسها ونسلها .

المادة التاسعة : التركى صديق للأمم التى ليست عدوّة لدينه وقوميته وأوضاعه ، وليس هو مبغضا لرؤوس الأموال الأجنبية غير أنه لايعامـل المتاجر التى لاتخضع للغته وقانونه مع أنها موجودة فى وطنه ، وحيثما وجد التركى تجددا فى العلم والصناعة يبادر الى اقتباسه مباشرة ، ولايرغب فى كثرة الوسطاء بأى عمل من الأعمـال التى يقوم بها .

المادة العاشرة : التركى يحب السعى والعمل ، وهو ناصع الجبين ، لايحب الاحتـكارات الاقتصادية .

المادة الحادية عشرة : الترك يحب بعضهم بعضا مهما اختلفوا فى الصـناعات والطبقات والأعمال ، و إذا اتحدت أعمـالهم ومسالـكهم ، فانهم يكونون يدا واحدة فيها ، و يقومون بالسياحات بقصد التعارف ، والوقوف على أحوال الوطن .

المادة الثانية عشرة : ان المرأة التركية ، والعالم التركى يعملان لتربية الأطفال ، وفقا لقواعد هذا الميثاق الاقتصادى أزمير ٤ مارس سنة ١٩٢٣ .

و إنما ذكرته هنا برمتـه لأنهم جعلوه مما تربى المرأة ولدها على مقتضاه ، وهو أقرب للآية هنا ، فان الرجل والمرأة أمرهمـا الله ألا يضرا ولدهمـا ، ومن الضرر بالولد أن يجهل أمته ، ومصالحها ، واقتصادها ، وعدم الاسراف ، فصار أمثال هذا من الواجبات الشرعية ، أليس من النافع المفيد لصحته الهواء النقى والشمس والأعمـال الرياضية ، أليس من المفيد له حب بلاده ، واستخراج كنوزها ، وحب دينه ، والتمسك به ، كما فى هذا الميثاق ، فهـذا قوله تعالى « لاتضار والـدة بولدها ولامولود له بولده » على معنى لاتضر والـدة ولدها ولا مولود له ولده ، كما ذكره المفسرون وقوله تعالى « وعلى الوارث مثل ذلك » أى وارث الأب أووارث الصبى وهم الأقارب على تفصيل يختلف باختلاف المجتهدين ، فيكون فى مال الصبى عند الشافعى ، لأنه الوارث للأب أو كل وارث له محرم عند أحمد على حسب أسهمهم فى ميراث الصبى لومات إلى غير ذلك ، ثم قال « و إن أردتم أن تسترضعوا » المراضع « أولادكم فلا جناح عليكم » الآية ، وهو ظاهر .

الدرة الثانية

فى قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم و يذرون أزواجا » الآية

يأمر الله عزّ وجلّ المتوفى عنهنّ أزواجهنّ أن يتربصن بعدهم أربعة أشهر وعشرا ، يقال ان الجنين لايتحرك الاثلاثة ، وقد يتأخر لأربعة فاعتبر أقصى الأجلين وزيدت العشر استظهارا ، ومن عجب أمر العدّة فترى المطلقـة بثلاثة الأشهر أو بالاقراء ، والمتوفى عنها زوجها بالأشهر ، والأيام ليرينا الله عزّ وجـلّ اختلاف

الصور واتحاد المعنى ، فالمعنى براءة الرحم فى الجميع وزيدت أيام معدودات فى المتوفى عنها زوجها مراعاة للآداب ومجاملة ، فليس من حسن العشرة الاسراع بالتزوّج بعد الموت ، والاكتفاء بثلاثة أقراء فربما تزوّجت بعد شهر وأيام فحدد الله ذلك الأجل تحقيقا لبراءة الرحم ، وحثا على حسن المجاملة ، ومراعاة لحقوق الزوجية ، ويظهر لى أن المرأة لوزادت عن هذا المقدار لكان أشرف لها وأجمل وأدلّ على حسن خلقها ان كانت عفيفة حسنة السيرة « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » خصّ عموم الآية بالحامل لآية « وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ » فلتترك المرأة الزينة والطيب ودهن الرأس بكل دهن والكحل المطيب ، ويباح لها كل مااضطرت إليه ، وإذا اكتحلت بالليل فلتمسحه بالنهار ، فاذا بلغن أجلهنّ وانقضت عدّتهنّ فلا جناح على أئمة المسلمين فيما فعلن فى أنفسهنّ من التعرض للخطاب وسائر ماحرم عليهنّ للعدّة بالوجه المعروف الذى يرضاه الشرع ولاينكره العرف ولا تأباه الأخلاق .

أفادت الآية أن المسلمين متضامنون ، فعليهم كف العاصى ، وردع الفاسق إذ خاطب الناس بقوله « فلا جناح عليكم » أى فان قصرن فعليكم الجناح ، وليس ذلك قاصرا على هذا المقام ، فالمسلمون جميعا متضامنون ، فعليهم نشر العلم والفضيلة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكلّ معاقب اذا قصرهمه على نفسه وجهل مصلحة العموم .

الدرة الثالثة

فى قوله تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء » الآية

ذكر الله عدّة المتوفى عنها زوجها ، وحرّم عليها الزينة حدادا على الزوج ، ثم أباح أن يتعرضن للخطاب ويتزين بالمعروف والأدب بعد انقضاء العدّة ، فناسب أن يأمر الرجال بترك الخطبة الصريحة لئلا يعدموهنّ الصبر فى العدّة . أمر الله النساء بالحداد ، وأمر الرجال بالأدب والامتناع فلا يهيجونهنّ ولايذكرونهنّ بأمر الرجال ، وأباح رحمة بالناس التعريض ، وهو من قسم الكناية فليس من الحقيقى ولا المجازى .

ولقد روى أن سكينة بنت حنظلة تأيمت فدخل عليها [أبو جعفر محمد بن على الباقر] فى عدّتها ، فقال قد علمت قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحقّ جدّى علىّ وقدمى فى الاسلام ، فقالت سكينة : غفر الله لك أتخطبنى فى العدّة وأنت يؤخذ عنك ، فقال : انما أخبرتك بقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمّ سلمة فى عدّة زوجها أبى سلمة ، فذكر لها منزلته من الله عزّ وجلّ ، وهو متحامل على يده حتى أثر الحصير فى يده صلى الله عليه وسلم من شدّة تحامله عليها فما كانت تلك خطبة .

يقول « لاجناح عليكم » فيما كان تعريضا مثل هذا أو مكتوما فى النفس بلا تصريح ولاتعريض ، ولما كان من عادة الجهلاء إذ ذاك أن يدخل الرجل على المرأة فى عدّة الزوجية ويطلب منها السفاح أثناءها ، ثم يشهر النكاح بعد انقضاء العدّة نهوا عن ذلك الزنا ، فيكون السر الجماع ، وهو قول الشافعى ، وهكذا روى عن ابن عباس ، وقال امرؤ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى * كبرت وأن لايحسن السر أمثالى

بسباسة اسم امرأة فلم يبح الابالقول المعروف ، وهوالتعريض ، ثم قال « ولاتعزموا » أى لاتقطعوا عقدة النكاح حتى ينتهى ما كتب من العدّة .

(المقصد الرابع عشر)

المتعة وعدّة المتوفى عنها زوجها

لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ * وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

التفسير اللفظى

يقول تعالى (لاجناح عليكم) لاحرج عليكم (ان طلقتم النساء مالم تمسوهنّ) تجامعوهنّ (أوتفرضوا لهنّ فريضة) أى إلا أن تفرضوا أوحتى تفرضوا ، أى لاتبعة على المطلق من مطالبة المهر اذا كانت المطلقة غير ممسوسة ولم يسمّ لها مهرا ، فاذا كانت ممسوسة فعليه المسمى أومهرالمثل ، واذا كانت غير ممسوسة ولكن سمى لها فلها نصف المسمى (ومتعوهنّ) متعة الطلاق (على الموسع قدره) مقداره الذى يطيقه (وعلى المقتر قدره) قدرامكانه وطاقته فمتعوهنّ (متاعا) تمتيعا (بالمعروف) أى من غير ظلم ولاحيف ، حقّ ذلك (حقا على المحسنين) الى المطلقات بالتمتيع (وان طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ) تجامعوهن (وقد فرضتم لهنّ فريضة) وقد بينتم مهورهن (ف) عليكم (نصف مافرضتم) أى نصف ماسميتم من مهرهنّ (إلا أن يعفون) أى إلا أن تترك المرأة حقها على الزوج (أو يعفوا الذى بيده عقدة النكاح) أى أو يترك الزوج حقه على المرأة فيعطى مهرها كاملا (وأن تعفوا) أى وأن تتركوا حقكم أيها الأزواج والزوجات بأن يعطى الزوج المهر كاملا وأن تسقط المرأة كل مالها على الزوج (أقرب للتقوى ولاتنسوا الفضل) التفضل (بينكم) يقول للمرأة والزوج : لاتتركوا الفضل والاحسان بعضكم الى بعض (إنّ الله بما تعملون) من الفضل والاحسان (بصير) لايضيع تفضلكم واحسانكم (حافظوا على الصلوات) الخمس بوضوئها وركوعها وسجودها ومايجب فيها (والصلاة الوسطى) أى الفضلى من بين الصلوات ، وهى صلاة العصر ، وقيل الظهر ، وقيل الفجر ، وقيل المغرب ، وقيل

العشاء ، وقيل هي غير معينة كليلة القدر ، وسيأتى زيادة بيان فى الايضاح (وقوموا لله) فى الصلاة (قانتين) مطيعين خاشعين ، ذاكرين الله فى قيامكم ، قائمين بالركوع والسجود (فان خفتم) فان كان بكم خوف من عدوّ أوغيره (ف) صلوا حال كونكم (رجالا) أى راجلين وهو جمع راجل كقيام وقائم (أوركبانا) على الدواب جمع راكب : أى فصلوا مشاة على أرجلكم ، أوركبانا على دوابكم ، مستقبلى القبلة وغير مستقبليها ، وذلك فى حال المسايفة والمقاتلة فى وقت الحرب (فاذا أمنتم) أى فاذا زال خوفكم (فاذكروا الله) أى فصلوا صلاة الأمن (كما علمكم) أى ذكرا مثل ما علمكم (مالم تكونوا تعلمون) من صلاة الأمن (والذين يتوفون منكم) ياءعاشر الأزواج (ويذرون أزواجا) زوجات فليوصوا (وصية لأزواجهم) فى أموالهم متعوهنّ (متاعا) تمتيعا بالنفقة والسكنى وما تحتاج إليه ، ووصف المتاع بقوله كائنا (الى الحول غيراخراج) غيرمخرجات من بيوتهن ، والمعنى أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولا كاملا : أى ينفق عليهن من تركته ، ولايخرجن من مساكنهن : وكان ذلك مشروعا فى أوّل الاسلام ثم نسخ بآية « والذين يتوفون منكم الخ » (فان خرجن) بعد الحول (فلاجناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن) من التزين والتعرّض للخطاب (من معروف) مما ليس بمنكر شرعا (والله عزيز) بالنقمة لمن ترك ما أمر به (حكيم) فيما حكم (وللمطلقات متاع) أى نفقة العدّة (بالمعروف) حقّ (حقا على المتقين) وليس بواجب لأنه فضل على المهر على وجه الاحسان (كذلك) أى مثل ماسبق من أحكام الطلاق والعدّة (يبين الله لكم آياته) وهذا وعد من الله بأنه سيبين لعباده مايحتاجون إليه من الأحكام والدلائل الدالة على جماله وابداعه مثل ماظهر فى زماننا وجاء فى هذا التفسير وقرأه المسلمون فى أقطار الأرض فهو مصداق للوعد هنا (لعلكم تعقلون) لعلكم تفهمونها فتستعملون العقل فيها . انتهى التفسير اللفظى للمقصد الرابع عشر

فى هذا المقصد جوهرتان

الجوهرة الأولى المتعة ، والثانية اعتداد المرأة التى مات عنها زوجها إلى الحول

الجوهرة الأولى

« لاجناح عليكم » لاتبعة من مهر (ان طلقتم النساء مالم تمسوهنّ أوتفرضوا لهنّ فريضة) الآية : اذا تزوّج الرجل امرأته ولم يفرض لها مهرا ثم طلقها قبل المسيس يجب لها عليه المتعة بمنطوق الآية عند الشافعى وأبى حنيفة وأحمد ، و يستحب عند مالك ، فان سمى لها مهرا وقد طلقها قبل الدخول بها فلامتعة لها ، والمطلقة المدخول بها مفوّضة ، أومسمى لها لامتعة لها لأنها تستحق المهر كاملا وهومذهب أبى حنيفة ، وفى القديم عند الشافعى ، وفى احدى الروايتين عن أحمد ، ولها المتعة فى الجديد عند الشافعى ، وفى رواية أخرى عن أحمد مستدلين بقوله تعالى : « وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين » . قال ابن عمر : لكل مطلقة متعة إلا التى فرض لها المهر ولم يدخل بها زوجها فحسبها نصف المهر . ومن لطيف هذا المقام أن الشافعى رضى الله عنه قدّم القياس أى قياس المدخول بها مفوّضة ومسمى لها على المفهوم ، ألاترى أن مفهوم قوله : « مالم تمسوهنّ أوتفرضوا لهنّ فريضة » يقتضى أنه لايجب للمسوسة متعة فان قوله : « ومتعوهنّ » وارد على المرأة المقيدة بما ذكر ، المتعة مقدّرة بحال الزوج يسارا واعسارا لاقيد لها ولاحصر فى أمر معلوم فالعرف والمروءة هما القاضيان فى ذلك ، ألاترى إلى قوله : « ومتعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا » أى تمتيعا « بالمعروف » أى بالوجه الذى يستحسنه الشرع والمروءة ، وقد حقّ ذلك « حقا على المحسنين »

فانظر كيف جعله حقا ، وكيف مدحهم بالاحسان ، ففيه ايجاب ومدح ، فالايجاب عند المشاحنة ، والمدح تهييج للاحسان والمروءة ، ولذلك متع عبد الرحمن بن عوف زوجته جارية سوداء ، ومتع الحسن بن علىّ رضى الله عنهما زوجته بعشرة آلاف درهم ، فقالت : متاع قليل من حبيب مفارق . فأما تقدير ابن عباس لأعلاها بخادم ، ولأوسطها بثلاثة أثواب : درع وخمار وازار ، ولأقلها بشىء من الفضة أومقنعة ، أونحوذلك كمذهب الشافعى ، وتقدير أبى حنيفة لها بنصف مهر مثلها ، وتقدير أحد لها بما تجزى فيه الصلاة ، فذلك كله لاختلاف الأحوال ولأمور خاصة والا فالمروءة فى المتعة لاحدّ لها ، وللقاضى أن ينظر مايقتضيه الحال ولا يتقيد بقيد ، ألاترى كيف يقول : « متاعا بالمعروف » من المروءة والشرع ، وكيف يصفه بالمحسن ؟ وليس المعروف والمروءة خاصين بمن لها متعة ، بل المطلقة قبل الدخول التى سمى لها مهر ونصف مهرها نالت حظا من السعة فى المقدار الذى يعطيها الزوج ، ألاتراه يقول : « إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى » . يقول : لهنّ نصف المهر إلا أن يتجاوزن فيتركنه للرجل فلا يأخذن منه شيئا ، أو يعفو الرجل عن النصف الآخر وقد ساق اليها المهر كاملا وقد عفا عن حقه وهو التشطير ، ثم رغب الرجال وخاطبهم قائلا : وأن تعفوا أيها الرجال أقرب للتقوى لأنكم قوّامون عليهنّ والرجل أولى بالفضل وأحقّ بالاحسان . وعن جبير بن مطعم أنه تزوّج امرأة وطلقها قبل الدخول بها فأكمل لها الصداق وقال أنا أحقّ بالعفو ، ولما كان مثل هذا الفضل عظيما زاد فى الحضّ عليه فقال : « ولاتنسوا الفضل بينكم » بالمماحلة والمغاضبة واقامة القضايا ورفع الدعاوى وايجار المحامين ونحو ذلك « إن الله بما تعملون بصير » لايضيع فضلكم ولااحسانكم ، فاياكم أن تضيعوا أوقاتكم ومروءاتكم وشهاماتكم فى المشاجرات والمماحلات فتنسوا المعروف والمروءة والفضل ، فذلك لن ينبغى أن يكون ، ليحسن بعضكم الى بعض فلا تضيعوا المعروف بينكم بالعداوات ، ولاتتركوا الصلاة بل حافظوا عليها ، ولا يشغلنكم أمر الطلاق والمتعة والمقاضاة وأحوالكم المؤلمة بالمشاحنات والمماطلات والعداوات عن أجلّ الامور وأعلاها وأرفعها وأوفاها ، وهما شيئان : المعروف بينكم ، ورجوع الأفئدة لله فى الصلوات « حافظوا على الصلوات » كلها « والصلاة الوسطى » الفضلى ، والأفضل يسمى الأوسط ، وهى صلاة العصر لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : [شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ملأ الله بيوتهم نارا] وقال عليه الصلاة والسلام : انها الصلاة التى شغل عنها سليمان حتى توارت بالحجاب ، وانما فضلت لأن الناس مشغولون بأعمالهم من تجارة وزراعة وصناعة ، وقد خارت القوى ، وسئمت النفوس .

الصلاة راحة للنفوس الانسانية من الهمّ ، ومدعاة للسرور ، ولعروج الروح عن هذا العالم الذى ملئ نصبا وتعبا ، لابدّ للناس من أويقات يروّحون فيها أنفسهم من مآزق الحياة ، وأثقال الهموم التى تنقض ظهورهم ، وتكدّر صفاءهم ، وتحملهم الأثقال ، وفيها تحيط بهم الآلام ، فليصلوا وليقوموا لله قانتين أى خاشعين ، واياكم أن يشغلكم الخوف من حرب أو غيره ، فان خفتم فصلوا رجالا أوركبانا ، جمع راجل وراكب كقيام جمع قائم سواء أكنتم واقفين أم ماشين ، محار بين أوخائفين ، من سبع أوغيره ، فأوفوا بالركوع والسجود ، وليكن السجود أخفض من الركوع ، وصلوا مشاة على أرجلكم ، أوركبانا على دوابكم ، مستقبلى القبلة وغيرمستقبليها ومنع أبوحنيفة صلاة المشاة ، وذهب الى التأخير كما أخر ﷺ صلاة الظهر والعصر ، وقضاهن بعد غروب الشمس يوم الخندق ، واحتجّ الشافعى بهذه الآيات ، وهذا حال الخوف « فاذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم » أى ذكرا مثل ماعلمكم « مالم تكونوا تعلمون » من صلاة الأمن ، ثم رجع الى مسائل الأزواج ليختمها بعدّة المتوفى عنها زوجها فقال : « والذين يتوفون منكم » الآية وهى :

الجوهرة الثانية

قد كان رجل من أهل الطائف يقال له حكيم بن الحرث هاجر الى المدينة ومعه أبواه وامرأته ، وله أولاد فمات فرفع ذلك للنبيّ ﷺ فنزلت الآية ، فحرم المرأة من الميراث ، وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولا كاملا ، والآية تدل على مجموع الأمرين أن لها النفقة والسكنى ، وأن عدّتها سنة كاملة ، وهى مخيرة بين السكنى فى منزل زوجها و بين الخروج ، وتسقط النفقة ، ونسخت الوصية بالنفقة والسكنى بآية الميراث ، ونسخت عدّة الحول بأربعة أشهر وعشر ، ورأى الشافعى لها السكنى ولم يرها أبو حنيفة رضى الله عنهم أجمعين ، وقوله « وصية » أى فليوصوا وصية ، وقوله « متاعا » أى متعوهن متاعا ، و « الى الحول » صفة لمتاعا ، وقوله « غير اخراج » وصف مؤكد ، وقوله « فيما فعلن فى أنفسهن » أى من التزين والتعرّض للخطاب ، ولما أن ذكر أحكام المتوفى عنها زوجها أردفها بما يناسبها من أحكام المطلقات فى عدّتهن ، فقال « وللمطلقات متاع » نفقة العدّة « بالمعروف حقا على المتقين كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » ومن فسر المتعة بغير نفقة العدّة جعلها شاملة للمندوبة والواجبة ، ومنهم من أوجب المتعة لكل مطلقة ، وهذا المقام مكارم أخلاق ، فعلى المرء أن يجدّ فى الفضائل ومحاسن الأخلاق والآداب اهـ

تفصيل الكلام على قوله تعالى : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين

أمر الله بالمحافظة على الصلاة فى هذا المقام ، ويجب ذلك فى جميع شرائطها كالطهارة من الحدث والنجس فى البدن والثوب والمكان ، وبالمحافظة على ستر العورة ، واستقبال القبلة ، والعلم بدخول الوقت ، وبالمحافظة على جميع أركانها كالنية ، وتكبيرة الاحرام ، والقيام عند القدرة ، وقراءة الفاتحة ، والركوع والرفع منه ، والسجود الأوّل والثانى ، والتشهد الثانى ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فيه والسلام وهكذا مع اختلاف الأئمة فى ذلك بالزيادة والنقص ، وهكذا الاحتراس من جميع المبطلات للصلاة سواء أكان ذلك من أعمال القلوب أم من أعمال اللسان ، وأهمّ الامور فى الصلاة رعاية النية فانها هى المقصودة أصالة من الصلاة قال تعالى : [وأقم الصلاة لذكرى] .

وهنا يرد سؤال فيقال : المحافظة مفاعلة من الجانبين ، فاذا حفظ العبد صلاته فأين الطرف الآخر ؟ قالوا المعنى احفظ الصلاة ليحفظك الله ، أو لتحفظك الصلاة من المعاصى ، ومن استذلال المحن والبلايا لك ، واستدلوا بقوله تعالى : [انى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة] ومعناه كما يقول الرازى رحمه الله : انى معكم بالنصر والحفظ ان كنتم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وهذه الأدلة كثيرة فى القرآن والحديث

وهذه الأمور لا يعقلها الناس الا بالتجربة ، فاذا قام امرؤ بأمر الصلاة ، وكان حاضر القلب فى جميع الأركان ، وفى القراءة والركوع والسجود والتشهد ، وهو مع ذلك نظيف الظاهر حاضر القلب مخاطب ربه طالب منه الهداية كأنه أمامه ، وهو يناجيه ويكلمه ويحمده ، ويقول له ان كل حمد صدر من مخلوق ، فهو لك وأنت الرحمن الرحيم ، فالعبادة لك ، والاستعانة بك وحدك ، وعند الركوع يتذكر تلك العظمة ، وهكذا عند السجود ، ويقول فى التشهد ان كل تحية وكل تعظيم فانما هو لك ، ومعلوم أن الغافل الذى يقول إياك نعبد وقلبه فى حقله أوفى دكانه كاذب فى دعواه كما قال الامام الغزالى غير مصلّ ولا عابد ، وقال أيضا ان فتوى الفقهاء تسمى هذا مصليا مادام يحضر قلبه عند النية ، والفقهاء لا علاقة لهم بأمور الآخرة ولا بتهذيب النفوس ، وانما الفتوى معلقة بالظواهر ، والظاهر هنا أنه صلى فنقول : له مالنا وعليه ماعلينا وليس له فى الآخرة من نصيب ، والصلاة بلا حضور قلب جسم بلا روح ولفظ بلا معنى ، هذا ملخص ماقاله الامام الغزالى والعلماء الصالحون والحكماء المحققون .

اقول

أقول إذا قام المصلى بالصلاة على هذا الوجه وهو الحضور بالقلب فهل تحفظه من المعاصى كما تقدّم ، ومن بعض المحن والبلايا ، وهل صاحبها ينصره الله ؟ هذا السؤال له أحد جوابين : أما الأوّل فانا نقول لينظران عمل على هذا الوجه الأكمل فى نتائج حاله واذن يجد المعونة من الله . وهذا لا يطلع عليه الاهو نفسه ، واذن يكون ذلك خاصا به فلا يتعداه لغيره فلا يكون حجة عند الناس .

وأما الثانى فانا ننظر فى العلوم التى كشفها علماء أمريكا وأوروبا فى هذا المقام التى أطلعنا عليها ، وان كان لها نظير فى كتب غير مشهورة عند أسلافنا الذين ورثوا علوم الأمم فنقول :

اعلم أن النفوس الانسانية المتصرّفة فى هذا الجسد ذات قوى كثيرة ومآرب شتى وأعمال كثيرة ، والناس فريقان : فريق ترك تلك القوى فى غفلاتها تجرى تبع هواها ، فاللسان يقول مايخطر بالنفس والعين يطلق سراحها وجميع البدن حرّ فى تصرّفه لا يردعه رادع من عقل ولا دين ولا مروءة ، فهذا يصبح ضعيف الأثر خامد النفس ، أما الآخر فهو الذى حفظ هذه القوى وخزنها فى نفسه ولم يفرط فيها ، فالكلام بمقدار والنظر والسمع والعقل كل ذلك موزون بميزان فهذا قد حفظ [البطارية] الكهربائية السالبة والموجبة فى نفسه والمغناطيسية الحيوانية التى كسبها فلم يفرط فيها . واذن ببقائها تكون عونا له مساعدا وهو لا يشعر . أما الأوّل فقد تبعثرت قواه وطاحت وتفرّقت ، فهذه القوى ببقائها فى النفس تجعل لصاحبها احتراما وجذبا للأفئدة وحبا .

ولقد اطلعت لهم على تجارب يعاملونها لتلاميذهم تعويدا لهم على حصر الفكر وقوّة الارادة كأن يأمروهم بالتفكير فى أمر واحد زمنا ما أو يكرّروا كلمات بعض دقائق خاصة بالغرض الذى يطلبونه أو يحبسوا الهواء الداخل فى الرئتين زمنا ما داخلا أو خارجا ويقولون لهم إياكم والتحدث عن أنفسكم ، والفخر فى المجالس وذكر الوقائع لاظهار العواطف المختلفة وإياكم أن تعاقروا الخمر أو تجترحوا الآثام الشهوية ، فان كل كلمة ورغبة وخفة وطيش ولذة تحمل معها قوّة من المغناطيسية المودعة فى نفوسكم فاحفظوها وتعلموا كتمان الأسرار والسكوت والسكون ، ويقولون ان نتيجة هذا كله قوّة الارادة فقوّة الارادة عندهم هى كل شىء . هذا كلام علماء الجمعية النفسيه فى أمريكا ، وهذا هو الذى دوّنوه . ومن مقالهم أنهم يأمرون التلميذ أن يجلس فى حجرة وحده ويقوم ذهابا وايابا مخاطبا شخصا خياليا بكلمات ذات معنى أو غير معنى حاضرا عند كل كلمة بنبرات حسنة جازمة كأنه خطيب ، ويكون ذلك مقدار نصف ساعة ، وان كانت تلك الكلمات فى غرض خاص كانت أدعى لتحقيقه والقصد من ذلك عندهم قوّة العزيمة والارادة والهمة ، وهى كفيلة بتحقيق الأغراض ولهم فوق ذلك مالا وقت لذكره .

وأنا أقول أنا لست الآن فى مقام الاستهجان أو الاستقباح ، وانما الذى أسمعتكه من كلامهم جار نظيره فى ديننا ألم يقل الله تعالى « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » وتلك المسئولية يظن الناس أنها فى الآخرة وحدها ، والحق أنها فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى « سنعذبهم مرتين ثم يردّون إلى عذاب عظيم » والقرآن طافح بذكر عذاب الدنيا وعذاب الآخرة معا ، وهؤلاء الذين لم يحفظوا قواهم ضاعت وتبددت فضاعت مصالحهم فى الدنيا فعذبوا فيها وفى الآخرة ، وقال تعالى « أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون » وقال تعالى « إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فانظر كيف جعل الأمر راجعا إلى خسارة النفس وإلى تغيير ما بالنفس ، فالنفس وقواها رأس مال الانسان ، فاذا بذر فيها بالضحك وكثرته ، والكلام وثرثرته ، والحزن والفرح ، واللذات ضاعت قواها فلم يجده معينا « أولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » فهؤلاء الذين نسوا أنفسهم لا يقدرون على كبح جماحها ولا يحصرون عزيمتهم

يصبحون عالة على المجموع ، ولقد جاء فى الحديث مايقرب من هذا « من أصبح وهمومه همّ واحد وقاه الله الهموم كلها » أو ليس هذا كقوله تعالى « إن السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسئولا » ولقد تجد فى القرآن ذكر الهمة وعلوّها وذكر أولى العزم ، قال تعالى « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » فجعل المدار على العزيمة ، وترى الصلاة قد وجب فيها حفظ القوّة الفكرية وحصرها فى غرض واحد ، أوليس هذا هو كلّ بل أكثر مما قالته جمعية المباحث النفسية لتقوية الهمة والنصرة والسعادة . أفلا تتعجب كيف يقول الله « واستعينوا بالصبر والصلاة » وانظر كيف قرن الصبر بالصلاة التى يحضر القلب فيها ، لاصلاة أكثر المسلمين النائمين اليوم . أو لست ترى أن تمرين الأمريكيين بالخطابة فى حجرة مع حضور القلب للكلمات التى تقال لأجل علو الهمة وقوّة العزيمة هو تقليد لصلاتنا سواء أعلموا أم لم يعلموا ، أفلست أيها الذكى النبيل وأنت تقرأ هذا تتعجب معى غاية التعجب من المباحث النفسية التى جاءت مؤيدة لديننا ، بل هى لم تصل إلى جلاله وجماله ، وأن هؤلاء القوم لما حرموا من جلال الديانات التى تأخذ بمجامع عقولهم بحثوا بأنفسهم عن قواعد استنبطوها بالتجربة وأنهم لو كان عندهم ماسمعته من الآيات والأحاديث لجعلوا التعاليم على محورها ، أوليس هذا هو قوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحقّ » أفليس هذا الذى ذكرته مما أراه الله لنا فى الأنفس كما أرانا جماله فى الآفاق . أفلست ترى بعد الآن المحافظة على الصلاة بحضور القلب فى الأفعال والأقوال وخطاب الله ومناجاته مقوّية للعزيمة نافعة فى الدنيا والآخرة ، وان قوله « واستعينوا بالصبر والصلاة » له حقيقة عالية قد كشفها علماء النفس فى مجلدات وهم لا يعلمون أنها فى الاسلام ، وأن العامة ربما سعد بعضهم بهذه الصلوات وهم لايعلمون ، وأن أسلافنا الذين ملكوا البلاد شرقا وغربا وهم يزكون ويصلون كانوا على حق ، وأن المتعلمين تعلما ناقصا فى مصر ، وسائر أقطار الاسلام يجب عليهم أن يفكروا فيما قلت بعقولهم فيحفظوا المغناطيسية والقوى الحيوانية فى نفوسهم ، وان هذا الذى قلته بلسان العصر الحاضر أقرب الى أفهامهم ، أنا موقن أن الاذكياء يجيبون لما دعوتهم إليه بعقولهم لابالتقليد ، أفليس هذا يوضح ماقاله علماؤنا ، يقول هؤلاء الأمريكيون ان الفرق بين تاجرين وعالمين تشابها فى التجارة والعلم واختلفا فى العمل والشهرة ان أحدهما قوىّ الارادة تام المغناطيسية اليه اتجهت الافئدة ، والآخر ضاعت مغناطيسيته الحيوانية فلاحب له ولاجاذبية عنده ، أليس هذا كلام أكابر العلماء عندنا الذين يوجبون حضور القلب فى الصلاة أوّلا ، ثم فى سائر الأقوال والأفعال .

ايضاح

فاذا قال الله تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » فذلك لأنها علمتنا حصر الفكر والاتجاه لله وخشيته فقويت العزيمة فكانت المغناطيسية عندنا تامة ، أوليس مايفعله علماء النفس بامريكا من حصر أفكار تلاميذهم فى نقطة واحدة مابين ٥ دقائق و ١٥ دقيقة بحيث لاتميل عينه يمنة ولا يسرة ويقولون انه بحصر الفكر قوى عزيمته وبقوة العزيمة والتمرين مرارا يصير قادرا على حفظ قواه فلا يقع فى الأسراف فيها بالشهوات ، واذن يصير عضوا عاملا فى الأمة ، أفليست المحافظة على الصلاة مع حضور القلب فيها من التكبيرة إلى السلام ستنهاه عن الفحشاء والمنكر ، وتمتاز هذه عن آراء الأمريكيين من علماء النفس ، ان التفكر فى الله قد انضمّ هنا إلى حصر الفكر فبدل أن يحصر فكره فى نقطة يراها بعينه يتجه لله فينال الأمرين : حصر الفكر ، والاتجاه لله معا مع الاعتقاد الدينى ، فيكون الله فى عونه وقواه المغناطيسية كاملة تامة ، فهو مستعدّ للمساعدة ممن هم حوله بتسخير الله ، وتكون قوته النفسية موفورة ، هذا هو الذى حضرنى عند

كتابة هذا الموضوع ، فاذا كنا نرى الشبان المتعلمين فى ديارنا يقرءون هذا و بعضهم يعمل به ابتغاء الفنى من طريق حصر الفكر ، أفليس هذا بعينه فى ديننا . ولأذكر لك شذرات من أخبار آبائنا المسلمين الذين فتحوا فارس والروم وهم كانوا يصلون و يصومون ، ونحن لاصيام ولا صلاة مع أننا علماء بلغات الفرنجة وآدابهم وخمرهم ، ونحن غنيمة لهم باردة و بآدابهم معجبون ، وفى محال لهوهم وشرابهم جالسون ، ولمالنا فيها منفقون .

(١) قال صلى الله عليه وسلم ، ان العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها ، وكان يقول : انما يكتب للعبد من صلاته ماعقل منها .

(٢) روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال على المنبر ان الرجل ليشيب عارضاه فى الأسلام ، وما أكمل الله له صلاة ، قيل وكيف ذلك ؟ قال لايتم خشوعها وتواضعها واقباله على الله عز وجل فيها .

(٣) وكان مسلم بن يسار من الخاشعين فى صلاتهم ، وقد نقل عنه أنه سقطت اسطوانة فى المسجد وهو يصلى فلم يشعر .

(٤) ومثله عامر بن عبد الله الليثى كان اذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف ، وتحدث النساء فى البيت ولم يكن يسمع ذلك ولايعقله ، أليس هذا هو الذى يلتمسه علماء الجمعيات النفسية ، فى أمريكا وأوروبا لما تضعضعت دياناتهم ، وذهبت بهجتها ، أوليس هؤلاء المسلمون هم الذين فتحوا البلاد شرقا وغربا ، وهم مصلون ، ان المسلمين اليوم فى سكراتهم يعمهون ، إنى لعمرك أيها الفطن الذكى لم أذكر أعمال الجمعيات النفسية ليكون برهانا على أن ديننا حق بل لأبين للمتعلم الذى عرف بعض علوم أوروبا وعاش غافلا عما كان عليه آباؤه الأولون .

حكاية مصرية

قد كانت أمتنا المصرية فى أواسط القرن التاسع عشر ، وهو القرن الماضى ذات نهضة شريفة عالية بتأسيس [المرحوم محمد على باشا] وكان يرسل الشبان فى الارساليات إلى فرانسا ، ومعهم شيوخ ليعلموهم الصلاة والمحافظة على الدين ، وكانوا يرسلون كل أسبوع ملخصات لدروسهم ، وترسل لهم خطابات بختم الأمير يظهر رضاه عنهم ، فى كل ماظهر نبوغهم فيه ، فاتفق ذات يوم أن مراسلا لأحدى الجرائد الكبرى [وأظنها الطان] كان يجوب فى المزارع وقت الفجر لغرض مّا فلاح من بعيد شبحا ، فذهب إليه إذا هو تلميذ مصرى بجانب ماء جمد فصار ثلجا ، وكان ذلك زمن الشتاء والتلميذ يلتمس قطرات منه ليتوضأ فتعجب وسأله لم هذا ؟ فقال أتوضأ لصلاة الصبح فرجع وكتب مقالة عنوانها [مصر ستغتال أوروبا] وذكر الحادثة بتمامها ، وقال إذا كان هذا صادق العزيمة حتى يتوضأ بالثلج ، فهذه العزيمة لامثل لها فى أوروبا وهذه العزائم القوية تهدّ الجبال وتخرب المدن ، وسيكون المصريون والشرقيون ، بهذه التعاليم أقوى من أوروبا ، ويرجعون إلى مجد آبائهم الأولين ، ويهدمون مجدا بنيناه وسدّا أقمناه ، وحصنا رفعناه اه .

هذا استنتاج كتابهم فى جرائدهم ، فتطلعت أنظار أوروبا إلى تعاليم المصريين ، فاحتال قوم منهم على بعض الحكام فاشاعوا الخلاعة والفسوق ، وأغروهم باحتقار آبائهم ومجدهم ودينهم ، فخرّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتانا العذاب فى ديارنا ونحن صاغرون ، أليس هذا الكاتب الفرنسى قد لخص معنى [حافظوا على الصلوات] أوليس هذا العالم ، قد أدرك بفطنته أن مصر بأمثال هذا الشاب سترقى ، وقد تمّ ذلك بعد سنين فانها ملكت الحجاز والشام ، وكادت تطير إلى أوروبا لولا ماحلّ بها من الجهل ، إذقامت تحارب خليفة المسلمين ، أوليس كلام هذا الفرنسى عرّفنا سرّ ذكر هذه الآية وسط الحرب إذ يقول [فان خفتم فرجالا

أوركبانا] أى فصلوا راجلين أوراكبين ، وهى صلاة الخوف التى شرحها العلماء ، أفليس ذكر الصلاة هنا مع الحرب يشعر بما ذكره ذلك الفرنسى ، وقد صح ماتنبأ به ثم خمدت جذوة نار البلاد بالجهل والفسق بعد حين ، أفلا يصح بعد هذا البيان أن نقول ان الصلاة من قاموا بها نصرهم الله على أعدائهم ، وذلك بقوّة العزائم واجتماع القلوب ، لعمرى لقد وفيت لك المقام بغاية الاختصار .

وأما قوله تعالى [والصلواة الوسطى] فاعلم أن فيها قولين يرجعان إلى معنى واحد :

أولهما أن الصلاة الوسطى صلاة مجهولة لفائدة جهلها ، وهى أن المصلى يتقن كل صلاة عسى أن تكون هى الوسطى ، وذلك نظير مافى هذا العالم من الجهل الذى يثمر ثمرا لاينتجه العلم ألاترى أن من أعظم النعم أن نجهل وقت موتنا لنجدّ ونبنى ونغرس ليدوم العمران ، هكذا هنا ليجدّ المصلى فى كل صلاة .

وثانيهما أن مجموع الصلوات الخمس هى الوسطى من الطاعات ، فهى واسطة الطاعات ، فلا هى أعلاها ولا هى أدناها ، فان أعلى الطاعات ماعمس القلب من الايمان والعلم والحكمة الدينية ، وهذا أفضل من سائر العبادات ، وأدناها ما يكون من الأعمال الصغيرة كاماطة الأذى عن الطريق ، فقد جاء أن المؤمن حقا من كملت فيه شعب الايمان ، وهى بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ، رواه الشيخان هكذا على الشك من حديث أبى هريرة ، فاعلاها الايمان بالله وماعطف عليه ، وأدناها كثير من الأعمال الصالحة والصلاة من الأمور التى هى وسط بين الطرفين ، وهذه الشعب ذكرها صاحب النقاية ، وعدّها جميعها بطريق الاجتهاد ، وهذا ماأردت ذكره فى هذه الآية . ولنرجع إلى المقام الذى فيه بحثنا العام ، وهو :

(المقصد الخامس عشر)

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَاءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا

تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ٭ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ
مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ
فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ
أَنَّهُمْ مُلَاقُوا ٱللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ ٭
وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنْصُرْنَا عَلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ ٭ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ٭ تِلْكَ ءَايَاتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٭

التفسير اللفظى

قال الله تعالى (ألم تر) ألم تخبر يا محمد فى القرآن (إلى الذين خرجوا من ديارهم) من منازلهم لقتال عدوّهم (وهم ألوف) قيل ثمانية آلاف فجبنوا عن القتال (حذر الموت) مخافة القتل (فقال لهم الله موتوا) فأماتهم الله مكانهم (ثم أحياهم) بعد ثمانية أيام (إنّ الله لذو فضل) لذو منّ (على الناس) على هؤلاء لاحيائهم، وعلى غيرهم إذ يبصرون مايعتبرون به (ولكنّ أكثر الناس لايشكرون) ذلك ولا يعتبرون ولا يستبصرون، ولما بين أن الفرار من الموت غير مخلص منه أمر المسلمين بالقتال ليفوزوا بالنصر أو التوبة فقال (وقاتلوا فى سبيل الله) فى طاعة الله عدوّكم (واعلموا أن الله سميع) لما يقول المتعلل عن القتال (عليم) بنياتكم وعقوبتكم ان لم تفعلوا ما أمرتم به، ولما كان القتال لابدّ له من مال أعقبه بقوله (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) اقراضا حسنا مقرونا بالاخلاص وطيب النفس (فيضاعفه له) أى يضاعف جزاءه (أضعافا كثيرة) لا يعلم كنهها إلا الله (والله يقبض ويبسط) أى يقتر الرزق على عباده ويوسعه عليهم (وإليه ترجعون) فيجازيكم على ماقدّمتم (ألم تر الى الملأ) ألم تخبر عن الأشراف الذين يملؤن القلوب جلالة، والعيون مهابة (من بنى اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبىّ لهم) وهو يوشع أوشمعون أواشمويل (ابعث لنا ملكا) أنهض للقتال معنا أميرا نصدر فى تدبير الحرب عن رأيه (نقاتل) بأمره (فى سبيل الله) فى طاعة الله (قال هل عسيتم) أى لعلكم (ان كتب) فرض (عليكم القتال ألاتقاتلوا قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله) أى وأىّ داع لنا الى ترك القتال، وأىّ غرض لنا فيه (وقد أخرجنا من ديارنا) من منازلنا (وأبنائنا) وذلك بسبى ذرارينا (فلما كتب) أوجب (عليهم القتال تولوا) أعرضوا (إلاقليلا منهم) ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا بعدد أهل بدر (والله عليم بالظالمين) وعيد لهم على ظلمهم بترك الجهاد (وقال لهم نبيهم إنّ الله قدبعث لكم طالوت) حال كونه (ملكا) ملكه عليكم (قالوا أنى) كيف، أومن أين (يكون له الملك علينا) وليس من سبط الملك وهم أولاد [يهوذا] (ونحن أحقّ بالملك منه) لأنا من سبط الملك (ولم يؤت سعة

من المال) ليس له سعة المال لينفق على الجيش (قال) اشمويل (إنّ الله اصطفاه) اختاره بالملك (عليكم وزاده بسطة) فضيلة (فى العلم) أى فى علم الحرب والسياسة (والجسم) الطول والقوّة (والله يؤتى) يعطى (ملكه من يشاء) فى الدنيا (والله واسع) بالعطية (عليم) بمن يصطفيه للملك ، هنالك طلبوا من نبيهم آية على اصطفاء الله إياه ، فأجابهم بأن التابوت يأتيهم ؛ وهذا قوله تعالى (وقال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت) أى صندوق التوراة الذى كان موسى عليه السلام اذا قاتل العدوّ قدّمه فكانت تسكن نفوس بنى اسرائيل ولايفرّون (فيه سكينة) سكون وطمأنينة (من ربكم وبقية) هى رضاض الألواح وعصاموسى وثيابه وشىء من التوراة ، وعمامة هرون عليهما السلام (مما ترك آل موسى وآل هرون) أى مما تركه موسى وهرون ، والآل مقحم لتفخيم شأنهما (تحمله) أى التابوت : أى تسوقه (الملائكة) اليكم ، وكان فى أرض جالوت الى أن ملك الله طالوت ، فأصابهم بلاء ، فتشاءموا من التابوت ، فوضعوه على ثورين ، فساقهما الملائكة الى طالوت (إن فى ذلك) فى ردّ التابوت (لآية) علامة (لكم) أن ملكه من الله (إن كنتم مؤمنين) مصدّقين ، فلما ردّ إليهم التابوت قبلوا (فلما فصل طالوت) خرج (بالجنود) من بلده إلى جهاد العدوّ (قال ان الله مبتليكم) مختبركم : أى يعاملكم معاملة المختبر (بنهر) وهونهرفلسطين (فمن شرب منه) من النهر (فليس منى) فليس معى على عدوّى ، أوفليس من أتباعى (ومن لم يطعمه) لم يشرب منه (فانه منى إلا من اغترف غرفة بيده) هومستثنى من قوله « فمن شرب منه فليس منى » (فشربوا منه) أى فكرعوا (إلاقليلا منهم) وهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا (فلما جاوزه) أى النهر (هو) أى طالوت (والذين آمنوا معه) أى القليل (قالوا لاطاقة لنا اليوم) أى قال الكثير لاقوّة لنا (بجالوت) هوجبارمن العمالقة (وجنوده) لكثرتهم وقوّتهم (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله) يوقنون بالشهادة وهم القليل (كم) أى كثير (من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) بحكمه وتيسيره (والله مع الصابرين) بالنصر والاثابة (ولما برزوا لجالوت وجنوده) أى ظهروا لهم ودنوا منهم (قالوا ربنا أفرغ علينا) اصبب علينا (صبرا) على القتال (وثبت أقدامنا) بتقوية قلوبنا ، وإلقاء الرعب فى صدورعدوّنا (وانصرنا على القوم الكافرين) أعنا عليهم (فهزموهم) أى هزم طالوت والمؤمنون جالوت وجنوده (باذن الله) بقضائه (وقتل داود) النبى (جالوت) الكافر (وآتاه الله الملك) فى مشارق الأرض المقدّسة ومغاربها (والحكمة) والنبوّة (وعلمه مما يشاء) من صنعة الدروع ومنطق الطير (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) كما دفع بداود شرّ جالوت عن بنى اسرائيل (لفسدت الأرض) بأهلها . يقول : دفع الله بالنبيين عن المؤمنين شرّ أعدائهم ، وبالمجاهدين عن القاعدين عن الجهاد شرّ أعدائهم ، ولولا ذلك لفسدت الأرض (ولكنّ الله ذوفضل على العالمين) بازالة الفساد عنهم (تلك آيات الله) أى القصص التى اقتصها من حديث الألوف واماتتهم واحيائهم الى آخر ماتقدم من ذلك وغيره من أخبار الأمم الماضية حال كونها (نتلوها عليك بالحق) باليقين الذى لا يشك فيه أهل الكتاب (وانك لمن المرسلين) حيث تخبربها من غيرأن تعرف بقراءة كتاب ، أوسماع من أصله . انتهى التفسير اللفظى .

ايضاح

هاهنا فرغ الله عزوجلّ من اصلاح الأمّة فى أحوالها الداخلة ، وللأمّة حالان : نظام فى داخلها ، ودفاع عن بيضتها ، وقتال عن حوزتها ، ولقدمضى مايمنع الهرج فى البلاد والحرج بين العباد من الأصول الفقهية ، والأحكام الشرعية والآداب الاجتماعية ، وحفظ الأنساب ومنع العقول من سكرتها بخمرتها والأموال من ذهابها بضياعها ، فمنع القمار ، وحرّمه وحوّل مجرى الأموال إلى مايحفظ المروءة والشرف ويصون العرض

ويرضى الرب من بذله للاتى كسرت قلوبهنّ ، وشيكت أكبادهنّ بالفراق والطلاق ، ولليتامى والأقربين والمساكين ، ووجه العقول المحفوظة من الغائلة المصونة من الترف لحسن العشرة مع الزوجات والمحافظة على الأنساب ابقاء للألفة بين الناس ، وتخليصا لهم من الأرجاس ، و بعثا لهممهم وتوجيها لمجموعهم إلى ماهو نافع وجيل .

فلما أن فرغ من ذلك شرع يحث الأمة على أن تدرأ عن نفسها العاديات وتستنهض الهمم لردّ الهجمات ومهاجمة الأعداء ، وقتال الظالمين .

تعدو الذئاب على من لا كلاب له * وتتقى صولة المستأسد الحامى

وكأنه عزوجلّ يقول أيهاالناس لايصدّنكم التزاحم الداخلى ولا التصادم والمعاملات عن التفكر فى جلال الله بالصلاة ولايلهينكم مسائل الفقه كالنفقة والعدة ، وأحوال المنازل عن ملاحظة الأعداء فأصلحوا أمركم بينكم ثم ائتوا صفا « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » واذا كنتم فى الخوف ، فصلوا راجلين وراكبين ، أيقظ الأمّة فى ثنايا أحكام العدة والمتعة ، ونحو ذلك بذكر الله ، وأدمج فيها حال الخوف . يقول أيها المسلمون إياكم أن تثاقلوا إلى الأرض ، وترضوا بحياة المساكين الاذلاء ، ولتكن منكم طائفة أعدت لجهاد العدوّ ، وترصد أحواله ، وترقب أطواره ، ثم ذكر الوصية لمن مات عنها زوجها ، ثم المتعة ، وطفق يشرح حال الذين تخلفوا عن الجهاد من الألوف ، وكيف أماتهم الله ، فلم يمنعهم الفرار من الموت ، وكيف غلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة باذن الله .

وهنا نشرح لك القضيتين اللتين ذكرهما الله فى هذا المقام حضا على الجهاد على طريقة المحاورة والمساءلة ليكون أرسخ فى الذهن ، وأعون على الفهم ، وأقوم طريقا ، وأقوى قيلا ، سأل بعض الطلبة بمدرسة دار العلوم ولنرمز لهم بحروف [س و ص و ع] ، قال س : من أولئك الألوف ، وماديارهم وماقصصهم ، وما مناسبة هاته القصة للاحقتها ، وكيف أخرتا هنا ، وكيف كان قصص موسى عليه السلام ، ومنه وسلواه التى قدسيقت فى أوّل السورة ، وفى أىّ تاريخ ذلك ؟ .

اعلم أنه قيل ان قوما من بنى اسرائيل أمرهم ملكهم بقتال عدوّهم فعسكروا ، ولكن لم يكونوا بالشجعان الجحاجيح ، ولاالصناديد القماقيم ، بل استحبوا الذلة مع الراحة ، واحتجوا بالوباء الخيم ، فى أصقاع العدوّ ، فحلّ بهم ما كانوا منه خائفين ، وأخذ الموت يرهقهم والهلاك يغشاهم حين فروا على وجوههم من الموت هاربين ، فدعا عليهم ملكهم ، فماتوا فى لحظة واحدة حتى أروحت أجسادهم فحظروا عليهم حظيرة دون السباع بعد ثمانية أيام ، فلذلك قال الله تعالى « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم » أى ألم تعلم يامحمد باعلامى إياك ، وهو تعجيب ، كما تقول ألم تر إلى صنيع فلان : أى هل رأيت مثل هؤلاء « وهم ألوف » زيادة عن عشرة آلاف « حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » ذلك أن بنى اسرائيل مكثوا فى مصر عشرات من السنين وأربعمائة ، ثم خرجوا إلى الشام ، وقام الشيوخ بأمرهم نحو أربعمائة سنة ، وكان أوّل قائم بعد موسى يوشع ثم كالب ثم حزقيل ، و يقال له ابن العجوز ، و يقال له ذوالكفل ، كفل سبعين نبيا كما يقال ، فلم يقتلوا ، وحزقيل هذا هو الذى دعا الله أن يحيى هؤلاء الموتى فحيوا ، وكان مع كل كاهن سبعون شيخا من شيوخ بنى اسرائيل هو رئيسهم ، ويقال ان حزقيل النبى نفسه هو الذى ندب قومه إلى الجهاد فكرهوا وجبنوا فارسل الله عليهم الموت ، فلما كثر فيهم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت فلما رأى حزقيل ذلك دعا عليهم ، فقال : اللهم إله يعقوب و إله موسى ترى معصية عبادك فأرهم آية فى أنفسهم تدلهم على نفاذ قدرتك وأنهم لايخرجون عن قبضتك فارسل الله عليهم الموت ، ثم انه عليه السلام ، ضاق

صدره بسبب موتهم فدعا مرة أخرى فأحياهم الله .

ولقد تضمنت القصة فرارا من الطاعون وفرارا من القتال ، وكلاهما محرّم فلا يدخلن البلد الموبوء داخل ولا يخرجن منها أحد ، وذلك كما فعل عمر وهو ذاهب إلى الشام محاربا وأيد بالحديث النبوى ، فلما سمع ذلك كبر وكبر المسلمون ، وقال : فررنا من قضاء الله إلى قضاء الله ، ومنع الجيش أن يدخل الشام وهى موبوءة ، ولايجوز للناس أن يدعوا القتال لئلا يموتوا كما مات بنو اسرائيل الذين جعلهم الله عبرة لنا ، وهذا هو المهمّ من سرد القصة وليست تقصد لذاتها ، ولئن مات أولئك موت الأجسام ليموتنّ الجبناء فى الحروب موتا قهريا بيد أعدائهم ، أو أدبيا باستذلالهم وسقيهم كأس المذلة والهوان ، وما أتعس الحياة مع الهوان وما أشق الأذلاء .

ولعمرى اذا مات قوم عقوبة لهم على فرارهم فكم مات من أمم خاضعة شراذم وجوع طغى الأعداء عليهم بالبغى والعدوان ، واستنزلوهم بعد عزّ من مراتبهم ، وأودعوا سجن المذلة والصغار ، ذلك شأن الأمم الاسلامية بعد أن خضدت شوكتهم ، وسيموا الخسف وأوردوا موارد الحتف ، ثم قال الله « ان الله لذوفضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لايشكرون » إذيرفع أمّة بعد خفضها ، ويعزها بعد ذلها ، وينصرها بعد ضعفها ، ويرفع من أخلاقها بعد سقوطها ، ان فى ذكر احياء الأمّة بعد موتها لعلامة ظاهرة ، وبشارة باهرة انه لايأس من روح الله ، فاذا ماتت أمّة وحييت فما أحرى الأمم الأسلامية المائتة بالجهل أن تحيا بالعلم وهذا هو الفضل العظيم ، فليشكروا الله وليعملوا ، ولذلك أعقبه بقوله (وقاتلوا فى سبيل الله ، واعلموا أن الله سميع عليم) وليس القتال اجتماع الصفوف ، وجمع الجنود ، ورفع البنود ، وقيام الشاهد والمشهود فحسب ، كلا بل ان المال قوامه ، وعماده وأسه وبنيانه ، وكيف يصنع السلاح من مدفع وآلات جهنمية الابالمال لذلك قال « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » فلا تبخلوا بالمال لئلا تبدل الحال .

س : أرجو ان توضح هذا القصص الثانى ، ولم جاء مؤخرا عن الأوّل ؟

ج : اعلم أن قصص بنى اسرائيل ، إذ كانوا فى التيه ، وما حاولوا مع النبيّ موسى عليه السلام ، وما زاول هومعهم قد مضى فى أوّل السورة ، وقصة أولئك الذين ماتوا حين فروا فى غضون مدة الشيوخ السبعين فى أربعمائة السنة بعد خروجهم من التيه ، ولما مات حزقيل الآنف الذكر مرت سنون والأمّة الاسرائيلية فى اضطراب والبلاد فى اختلال فعظمت الأحداث فبعث الله اليهم الياس المذكور فى سورة الصافات ، ومن بعده اليسع ، ثم اضطربت الأحوال فظهر عدوّ يقال له البلتاثا وهم قوم جالوت بسكان سواحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وهم العمالقة ، وضربوا عليهم الجزية ، ولم يبق اذذاك من بيت يتوسم فيه النبوّة الاامرأة عجوز فولدت ولدا سموه اشموئيل ، وهو النبيّ ، فلما طغى جالوت والعمالقة ، قالوا لأشمويل « ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله إلى قوله والله واسع عليم » هنا ابتداء عصر جديد وحياة أخرى لبنى اسرائيل فانه بعد أن كانت حكامهم مجالس شورية تحكم أسباطهم القاطنين بالشام وغيرها ، وقد عجزت تلك الحكومة عن رد الظالمين والعمالقة الطاغين عليهم لجؤا إلى أن تكون الحكومة ملكية ليلتفوا حول راية ملكهم فابتدأ اذذاك عظمة ملكهم وضخامة مملكتهم ، وكان ما كان من أمر داود وسليمان وبناء بيت المقدس قرونا وقرونا حتى ظهر بختنصر عليهم فأجلاهم وضرب بيت المقدس وأسكنهم نواحى أصبهان ، وما والاهامن البلدان وهناك قصص أستير الفاضلة المشهورة وقصص العزير الذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها وكيف حييت قريتهم بعد موتها وردهم الى أوطانهم ملك فارسى حتى أجلاهم الروم الجلوة الكبرى .

ألا

ألا تتعجب كيف جاء قصصهم فى سورة البقرة مرتبا ترتيبا حقيقيا ، وكيف كان قصص موسى وقومه فى أوّلها أيام انقلاب حالهم من استعباد الى حرية ، ثم جاء قصص الفارين من الموت فى غضون حكومة الأشياخ السبعين ، ثم كان نبأ طالوت وجالوت وداود أيام الانقلاب ليبتدئوا دورا فيه يسعدون وبه ينصرون وهو دور الملك والعز ، أليس ذلك ذكرى للنبيّ والمسلمين وايقاظا لهم ، انكم أيها العرب ستنقلون من حال الى حال وطبقا عن طبق ، ذلك عجيب ثم كيف تراخى بعد ذلك مجىء قصص العزير بعد آيات ، أفليس من المدهش أن تحوى سورة البقرة تاريخ الاسرائيليين نحو ألف وثمانمائة سنة مرتبا مفرقا منظما متراخيا ، وأنت لو ضممتها لكانت تاريخا متلائما ذلك من أعجب ما قرأت وأبدع ما فهمت ، ولقد تبين لى فى هذا التفسير مالم أكن لأعلمه من قبل .

أرشدت القصة الى اصطفاء الملوك وماصفاتهم . قال بنو اسرائيل : ان طالوت ليس من بيت لاوى بيت النبوّة ومنه موسى وهارون ، ولا من بيت يهوذا بيت الملك ، ومنه داود وسليمان وهو من سبط بنيامين بن يعقوب فضلا عن كونه فقيرا ، ولا ملك إلا بالمال . فأجابهم بأن المال والنسب ليسا سببا فى الملك ، وانما الصفات الشخصية من العلم والقوّة البدنية والشجاعة هى المحور الذى عليه يدور رحى الملك على أن الله يؤتى ملكه من يشاء ويرفع ويخفض ويعز ويذل ، وهو واسع الفضل ، يعطى الفقير ملكا ومالا ، عليم بمن يليق بالملك من النسيب وغيره ، هذه هى الداهية الدهماء ، والطامة العمياء التى أحاطت بالمسلمين ، فأوردتهم النكال ، وألزمتهم الخسار فانهم أضحوا تحت رحمة البيوت المالكة فى أكثر المعمورة ، فأولئك ان أحسنوا حسنت أحوال الأمة ، وان أساءوا ساءت ، فقطعت هذه الآية معاذير الأمم الجاهلة ، وحتمت أن يكون الملك تابعا للعلم والقوّة والشجاعة كما كانت حال طالوت . لقد عكف المسلمون على عبادة الأنساب فذلت الأعقاب ونعق فى ديارهم البوم والعقاب ، لقد عرف هذه الحقيقة الأمريكيون حتى ولوامرة عليهم خياطا ، والفرنسيون صانعا لما رأوا من أخلاقهم وماعرفوا من آدابهم ، عرف الفرنسيون جهل المسلمين واستكانتهم وأنهم يستخذون لذوى البيوتات والشرف فعملوا بنصيحة كتابهم والسياحين منهم ، ان المسلمين تحت رحمة قوادهم من الأشراف ، وكبار الأولياء كالكتانى وماء العينين والتيجانى وشريف مراكش فأغدقوا على بعضهم النعم وغشوا على بعض العقول بالمال فال لهم الشريف المراكشى من بيت الملك والتيجانى كما يقال وساقوا هذه الأمم إلى ساحات العذاب وباحات النكال واستخذوا للفناء واستكانوا للوبال ، ذلك أنهم عن الحكمة معرضون وبالعلم جاهلون .

أقول : اللهمّ انى أحمدك على نعم لاأحصيها ، إن هذا الجزء يعاد طبعه الآن ، ولقد رأيت أهل هذه البلاد [مراكش] من أذكى أمم الاسلام عقولا ، وأشرفها نفوسا ، ولقد صادف هذا التفسير منهم أفئدة تهوى إليه وهذه الأمة سيكون لها مجد لاحدّ لمداه ، ولا عجب اذا كان الضغط يزيدها ارتقاء ونورا ، فان النضار لولا اصطهاره بالنار لم يصر حليا . وهاهنا سأل [ع] لقد طال بنا المقال فأتمم لنا قصص طالوت .

ج : قال اشمويل النبى ان علامة ملكه « أن يأتيكم التابوت » الصندوق « فيه » التوراة تسكنون اليها فهو « سكينة من ربكم » وفيه آثار موسى وهارون وآلهما من الأنبياء ، وذلك طمأنينة لكم لما فيه من آيات الله وآثار الانبياء كرضاض الألواح وعصا موسى ونحو ذلك .

كان ذلك التابوت عند العمالقة فتشاءموا به لما أصابهم من جهد البلاء فوضعوه على عجلة يجرها ثوران وضربوهما بالسوط فسعيا وهدتهما الملائكة بالالهام حتى حصلا فى ديار بنى إسرائيل واذ ذاك خرج طالوت بالجنود وهم ثمانون ألفا كما يقال ، وأخذ يبتليهم وينظر أهم ممن ينقاد للعادات أم هم أعفاء صلحاء .

لاجرم أن الأمم المغمسة فى الشهوات المترفة المنعمة أبعد عن النصر وأقرب للهلاك والذل وأحرص على الدرهم والدينار ، وأقرب الى عذاب النار ، وقتل السيف البتار ، والمدفع والبارود ، وحصد الجنود ، واهلاك الديناميت .

شأن الأمم المترفة الاستخذاء للذلة فيرأمونها ، ولن يكون فيهم ليوث خوادر ولا شجعان جحاجيح ولا صناديد قماقيم فيستذلون للأعداء و يموتون بالداء .

ضرب الله مثل ذلك بما كان من طالوت لقومه عند نهر فلسطين إذ قال لهم لاتكرعوا الماء من النهر ولا تشربوا الاغرفة باليد فمن استكثر وشرب أكثر من الغرفة اسودت شفته وغلب عليه عطشه فمن لم يذق الماء ، ومن شرب غرفة بيده بلغوا مئات مختلفا فى عددها ، فلما جاوز النهر هو والذين آمنوا معه ، وهم الذين لم يخالفوا قال المخالفون لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال أولئك الذين يظنون أنهم ملاقوا الله الخلص الذين لم يخالفوا « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » كما هو مشاهد فى سائر الأمم أن النصر تابع للعز والشجاعة والقناعة والاجتزاء بالقليل ، وسألوا الله أن يصبر قلوبهم و يثبت أقدامهم ، ثم ينصرهم على القوم الكافرين .

وأمر طالوت أن يسأل [ايشا] فى عسكره أن يأتى بولده داود فانه هو الذى يقتل جالوت فى علم الله فأحضره ، ووعده طالوت أن يزوّجه ابنته ، فلما قتله زوجه إياها بعد اللتياوالتى ، ثم حسده على حب الناس له وأضمر قتله فلم يفلح وعرف خطيئته فى هذا ، وفى مخالفة أوامر الله فى الدواب التى غنمها من الفلسطينيين وهام على وجهه فى الحال ، ثم أفتاه اشموئيل إذا حضرت روحه عجوز ، فقال له اشمويل تقدّم أنت وولدك العشرة لجهاد العدوّ وموتوا فى سبيل الله ، فكان ذلك وملك داود ، وابتدأت اذذاك عظمة بنى اسرائيل ، قال تعالى « وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء » الآية ، واعلم أنه مامن أمة تسير على أثر داود فى الصبر والقناعة والآداب الانصر قليلها على الكثير ، ألم تر الى البوير وهم قليل نصرهم الله على أمة كبيرة ذلك أنهم صبروا وقنعوا وكانوا يقرءون مزامير داود على أسماع أبنائهم و بناتهم صباح مساء ، هكذا أهل طرابلس صبروا وقنعوا فنصرهم الله مع قلة عددهم وعددهم ذلك من أعجب الأمور وقانون لن يبور انتهى .

ألم تر كيف ضرب الله مثل ذلك بالابتلاء بالشرب من النهر هكذا شأن الكتاب الكريم يضرب الأمثال للناس والله بكل شيء عليم .

س : لم يزل فى المثل غموض ، وما الفائدة الواضحة ، والحكمة الصريحة فى ابتلائهم بالشرب من النهر وما فائدتنا من هذا القول ؟

ج : امتاز القران بضرب الأمثال للمعانى الغامضة ، والأمور الشريفة ، ولما كانت أخلاق الناس خافية وأحوالهم مستورة لم يمتز الصابر من الجزع والشجاع من الجبان الابالابتلاء ، وهل الصور الظاهرة ، والملابس المتقاربة دالة على بواطن الأمور وماغاب عن الجمهور ، فلاسبيل لادراك الخفايا الانسانية الابالابتلاء والاستجلاء ، ولما كان النصر حليف الصابرين الأشاوس ، والصناديد القماقيم مزايلا للمترفين بعيدا عن المنغمسين فى الشهوات العاكفين على اللذات ابتلاهم بمسألة جزئية ليدرك طالوت طباعهم الباطنية كأنه يقول لاتعتمد الاعلى الخلص الكاملين « لايستوى الخبيث والطيب ولوأعجبك كثرة الخبيث » ولاجرم أن عشرين صابرين يغلبون مائتين ، والمائة يغلبون ألفا ، قد تبين فى الأعصر الحاضرة ان هذا واقع ومشاهد ، وهذا ايذان من الله ألا تصدّق امرأ الا بعد تجربته ولا تعتمد عليه الا بعد اختباره ، ألاترى الى ذلك الأعرابى الذى سبر اخوانه ليبتليهم أيهم أصدق مودة وأمتنهم صداقة فذبح شاة ودفنها بعد طبخها ، وتظاهر بأنه قتل فلانا ، وقال فهل لك أن تساعدنى يافلان فكلّ تولى عنه معرضا ولوى عنه كشحا . وقال مالى بهذا يدان حتى عثر على ضالته المنشودة وطلبته المحبوبة ، اذ قال أوسطهم فضلا وأقربهم زلفى : لاتخف فلا معقب لك وأنا النصير المبين ، ثم جرد سيفه وقتل غلام صاحبه ، لئلا يعلم الأمر غيرهما . فقال صاحبه لقد كنت أختبرك ، وقد عرفتك صديقا

وفيا

وفيا واستخرجا الذبيحة من مدفنها فأ كلاها هنيئا مريئا ، هكذا مسألة الشرب من النهر ليمتاز الخبيث من الطيب فى الجهاد ، والله يهدى إلى سبيل الرّشاد .

ص : هل لك أن تذكرلنا بعض حكم داود عليه السلام .

ج : قال فى المزامير لماذا تفتخر بالشر أيها الجبار ؟ رحمة الله هى كل يوم ، لسانك يخترع مفاسد كموسى مسنونة يعمل بالغش ، أحببت الشر أكثر من الخير ، الكذب أكثر من التكلم بالصدق [سلاه] أحببت كل كلام مهلك ، ولسان غش أيضا يهدمك الله إلى الأبد يخطفك و يقلعك من مسكنك و يستأصلك من أرض الأحياء [سلاه] فيرى الصديقون و يخافون وعليه يضحكون ، هون الانسان الذى لم يجعل الله حصنه ، بل اتكل على كثرة غناه واغترّ بفساده ، أما أنا فمثل زيتونة خضراء فى بيت الله توكلت على رحمة الله إلى الدهر والأبد ، أحمدك إلى الدهر لأنك فعلت وأنتظر اسمك فانه صالح قدام أتقيائك .

وقال فى المزمور الثالث والخمسين : « قال الجاهل فى قلبه ليس إله ، فسدوا ورجسوا رجاسة ليس من يعمل صلاحا ، الله من السماء أشرف على بنى البشر لينظر هل من فاهم طالب الله ، كلهم قد ارتدوا معا فسدوا ليس من يعمل صلاحا ليس ولا واحد » انتهى .

وفى المزمور الخامس والخمسين : « ألق على الربّ همك فهو يعولك ، لايدع الصدّيق يتزعزع إلى الأبد » .

وقال فى الرابع والخمسين : « اللهمّ باسمك خلصنى و بقوّتك احكم لى ، اسمع ياألله صلاتى اصغ إلى كلام فمى انتهى .

ص : نريد أن نرجع إلى الآيات .

(ج) قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكنّ الله ذوفضل على العالمين » [تقريره أن تقول] إن الله عزّوجل جعل الانسان محتاجا لغيره فلايقدرعلى القيام بجميع شؤونه فلا بدّ من الجمعية العامّة ، وكلّ لكل خادم ، هذا زارع ، وهذا حائك ، وهذا بناء ، وهذه الأنواع الثلاثة هى أصول الصناعات ، وأكثر الصناعات مقدّمات لهذه ، أومتممات لها كالنجارة والحدادة ، وهذا خباز . وهذا خياط . وهذا زجاج . وهذا مسير القطار ومجرى الكهرباء كما سيأتى بيانه عند ذكر الصناعات والعلوم الواجبة على الأمة الاسلامية فى آخر هذه السورة عند قوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وأن كل امرئ استعدّ لصناعة أوعلم يجب على أهل الحلّ والعقد أن يأمروا الحكومات أن يخصصوه بها وأن العناية والحكمة الالهية قد أوجدت لكل عمل قوما بحسب استعدادهم وماتهيئه ليه فطرهم فكأن الناس جميعا جسم واحد

ولما كان الأفراد يختصمون ، والجماعات يقتتلون ، والأمم تتحارب نصب الله فى الأرض قضاة بين الأفراد والجماعات ، وجعل دولا وممالك ليحموا المجموع ، و يمنعوا الهاجمين عليهم والمعتدين ، فهذا قوله : [ولولادفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكنّ الله ذوفضل على العالمين] بفصل الخصومات واتحاد الجماعات وصدّ الغارات .

وأما قوله [تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق] فالحق هنا أن تعتبر يامحمد أنت وأمّتك بتلك الآيات والقصص ، فكما ابتلى بنواسرائيل بالاعداء فقاتلوهم وجاء جالوت بجنوده ثم قام طالوت بجنوده بأمر نبيهم شموئيل ثم داود فنصرهم الله ، وغلب الحق على الباطل ، ونصر المؤمنون بعد ماتحملوا الشدائد ، هكذا سيكون أمرك وأمر قومك لأن هؤلاء مرسلون [وانك] أيضا [لمن المرسلين] فلابدّ من نصرك كما نصرناهم ، ولقد احتمل الأنبياء شدائد ، وقاسوا الصعاب الكثيرة كموسى وعيسى وابراهيم وداود ، فمنهم من كلم الله ، ومنهم من أيدته بروح القدس ، ومع ذلك لم يسلم أحد منهم من الشدائد والعقبات والعدوان ، فلتصبر يامحمد كما صبروا ، فلذلك أعقبه بقوله فى :

(المقصد السادس عشر)

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللّٰهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ * اللّٰهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللّٰهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

(والمقصد السابع عشر)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّٰهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّٰهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هٰذِهِ اللّٰهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّٰهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّٰهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *

ايضاح (١)

يقول الله تعالى (تلك الرسل) الذين ذكروا فى هذه السورة كداود وسليمان ، والذين لم يذكروا ليسوا فى درجة واحدة بل هم درجات بعضها فوق بعض (منهم من كلم الله) كموسى على جبل الطور ومحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج (ورفع بعضهم) كأولى العزم (درجات) كابراهيم وعيسى ونوح ، ثم خص عيسى بمزية قعساء وعزة شماء ، وفضيلة بيضاء ، من إيتاء الآيات البينات ، وتأييده بروح القدس ، تبيانا لليهود وقد حقروه ، وللنصارى وقد عبدوه ، وانزالا له فى منزلة هو بها حقيق ، ومقام به يليق ذكر الأنبياء ومراتبهم ، والمقربين وفضائلهم ، ثم أخذ يشرح أحوال الأمم التابعين فقال : ولو شاء الله ما اختلف التابعون ، لقد اختلف الأنبياء واختلفت الأمم فى الطاعات ، كان الأنبياء مختلفين درجات فى الزلفى لديه ، واختلف الناس فى آرائهم ، فمنهم من كفر ، ومنهم من آمن بعد أن سمعوا الآيات البينات ، وشاهدوا المعجزات الواضحات ، بمشيئة الله اختلفوا ، و بعلمه آمنوا وكفروا ، ثم كررها مرتين ، وعلقها بمشيئته كرتين ، فليس فى العالم إلا مراده ، ولا معقب لما أراده ، فهوالذى رتب الرسل مراتب ، وهوالذى حكم على الأتباع أن يكونوا شراذم .

هذا معنى الآيات الى قوله (ولكن الله يفعل مايريد) . وهذا تسلية للنبيّ ﷺ ولسائر الناس على مايصيبهم من حوادث الدهر . هذا ولقد أجمعت الأمة على أنه ﷺ أفضل الأنبياء وخاتمهم ، ولاحاجة إلى نقل أقوالهم وحججهم مادام الاجماع حاصلا ، ولكن لنذكر حديثا واحدا ، فنى الصحيحين عن همام بن منبه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل ابتنى بيوتا فأحسنها وأجملها وأكملها ألا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون به و يعجبهم البنيان فيقولون : ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بناؤك ؟ فقال محمد : كنت أنا تلك اللبنة »

وهذه الآيات جاءت للتوحيد والايمان بالأنبياء ، ولما كان التوحيد لاقيام له بلا عمل ، والأمور المعنوية لاقيام لها إلا بالمادة ، وايمان بلا زكاة روح بلا جسم ومعنى بلا لفظ ، وقول بلا عمل أعقبه بقوله (ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم) لاتقدرون فيه على تدارك مافرطتم فلابيع توفون به دينكم أوتفتدون بثمنه نفوسكم ، ولاأخلاء تفزعون اليهم ، ولاأصدقاء تستصرخونهم فيصرخونكم ، ولاشفعاء يشفعون لكم إلا من أذن الله لهم ، فأنفقوا الأموال فى هذه الحياة قبل الفوات لاسيما عند القتال ، فلقد يطغى الأعداء عليكم فيغتالون أموالكم ، و ينهبون متاعكم ، و يستعبدون أبناءكم . فاننا حكمنا على الناس بالقتال ، وحكمنا السيوف والنبال والديناميت ، وقلنا : لوأنا شئنا مااقتتلوا ، فالمشيئة سابقة ، والحروب لاحقة ، فاذا أبت الأمة أن تصرف أموالها فى المنافع العامة ، وترفع شؤون العامة ، فليوقنوا بضياع كيانهم ، وذهاب استقلالهم ، وتمزيق جامعتهم ، ودوسهم بالأقدام ، وطحنهم تحت رحى الاذلال ، ووطء رقابهم ، وانتزاع عقارهم ، كأكثر الممالك الاسلامية اليوم ، فلاشفعاء لهم يشفعون ، ولا أخلاء لهم يواسون ، ولامال لهم يبيعون .

(١) هذا الايضاح داخل فيه جميع التفسير اللفظى

ولقد قابلت شابا من بلاد الجزائر عند تفسير هذه الآية . فقال : ضاعت أملاكنا ، وأفل نجمنا ، وانتزعت منا أرضنا ، وأصبح خمسة الملايين عبيدا خاضعين ، وصعاليك شحاذين ، فلا صديق لهم حميم ، ولا شفيع لهم مقيم ، ولا مال لنا به نفتدى من ذلك المعتدى ، فلخص هذه الآيات شيئان : توحيد وانفاق ، وهذا اجمال سيوضح فيما يتلى من الآيات على لف ونشر بترتيب . أما التوحيد فقد أبرز له ثلاث مراتب عجيبة : ذلك أنه ابتدأه بآية الكرسى وما بعدها الى قوله « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وثنى بمحاجة ابراهيم والنمروذ ، وثلث بقصص العزير وحماره ، وابراهيم وطيره . فأما الأوّل فهو تقديس لله وتعظيم ، ووصف لعظمته وجماله وحكمته ، وعجائب صنعه فى أرضه وسمائه ، وهو بعصر الصحابة أليق ، وبالصدر الأوّل أنسب . وقد ظهرت الدولة العربية ، وفتحت الأمم الغربية والشرقية ، إذ كان إيمانهم نقيا من الجدال ، بعيدا عن الخصام والشقاق . والثانى شبيه بما حدث فى الدولة من الجدال فى التوحيد وتفرق الكلمة فى علم الكلام كالمعتزلة وأهل السنة والشيعة . والثالث أنسب بمستقبل الأمّة المجيد ، إذ ينظرون فى خلق العالم العجيب كما أمر العزير أن ينظر لحماره ، ويتدبر فى تصويره لحمه وعظامه وكبده وكلاه وحلقومه وسائر قواه ، وكما أمر الخليل عليه السلام أن يتبين الطير وقد فرّقها ، ودقائق أجزائها وقد جمعها ، فاطمأنّ قلبه لما رآه من عجائب صنع الله . هذه أحوال الاسلام فى المستقبل القريب ، ووالله ليخرجنّ فيهم فلاسفة عظام وحكماء كبار . ذلك أنهم سيرثون العلم عن سائر الأمم ، إذ يعلمون أن التشريح أهمّ علوم التوحيد كما نظر العزير فى عظام حماره ولحمه الكاسى وسيحللون العناصر الكيماوية كما حلل أمامه الطير فى البرية . فهذه العلوم أصل العلوم الدينية ، بل أشرف علوم التوحيد ، وأرقى وأدق علوم الدين .

لقد جهل أكثر المسلمين هذه الحقائق . وعما قريب سيعلمون . ولتعلمنّ نبأ ارتقائهم بعد حين . هذا ملخص ماسنذكره من مقاصد التوحيد الثلاث ومراتبه المنظمة المرتبة ترتيب أزمان الأمة الاسلامية من أزمان النبوّة الى آخر الزمان ، ولا يعلم إلا الله مداها ، ولكن هذا ما وصل اليه علمنا ، واستقرّ عليه فهمنا . إن تاريخ الماضى سيقف الآن وقفة ويبتدئ دور العلم من الآن . إنى بهذا موقن أيما ايقان كالمشاهد بالعيان

فأما الانفاق وايضاحه فسنريك ضرب أمثاله بالحبة والسنبلة والحجر والتراب والجنة والأعناب فافهم وتعجب من الترتيب ، وكيف ابتدأ بمراتب الرسل ، وجعل ذكرهم عنوان التوحيد ، ثم ثنى بالأمم واختلافهم ، وجعلهم مناط القتال ، وأصحاب الميدان والنضال ، وطلب انفاق المال ، لاصلاح داخل البلاد وخارجها ، ثم رجع إلى التوحيد فأبانه أيما تبيان ، والى الانفاق فأوضحه أيما ايضاح ، وفصله تفصيلا ، وأكثر من الأمثال ، وأخذ يفصل أنواع المعاملات فى الأموال . عجيب هذا النظام ، وبديع هذا الاتقان . ولنفصل ما أجملنا فنقول :

المرتبة الأولى

قوله تعالى : الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم له مافى السموات ومافى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولايؤده حفظهما وهو العلىّ العظيم

ورد فى فضل هذه الآية أحاديث كثيرة كقوله ﷺ لأبى المنذر : أتدرى أىّ آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قلت : الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم ، فضرب فى صدرى وقال : ليهنك العلم ياأبا المنذر . وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لكل شىء سنام وان سنام القرآن البقرة ، وفيها آية هى سيدة آى القرآن : آية الكرسى .

تأمّل فى هذا القول ، وكيف فضلها على غيرها ، وميزها على أترابها ؟ فاعلم أن القرآن فيه قصص وأحكام وأمثال ووعظ ، ووعد ووعيد ، وانذار وتبشير . وهذه السورة خاصة فيها ذكر المنافقين والكافرين ، وهنات بنى اسرائيل ، وفظائع ما ارتكبوه ، وذمهم ، وانذارهم ، ووعيدهم ، وتبكيتهم ، وذكر أمر القبلة والحج والصلاة والصيام والخمر والحيض والطلاق والجهاد والايلاء والحلف وما أشبه ذلك ، وكل ذلك يرجع الى تهذيب النفوس تارة بالذم للمخالفين ، وطورا بأدب المعاشرة مع الأزواج ، والآداب فى معاملتهن ، وآونة بالتكاليف من الحج والصيام والصلاة والصبر ، وذلك كله يرجع لأمر نفوسنا وتهذيبها وتخليها عن الرذائل بالمواعظ والصبر والمشاق ، وتهذيب النفس مقدمة لتحقيق العلم ، والعلم هو الكمال ، والمقام الأوفى ، والذروة العليا ، والسنام والمجد والشرف الأعلى ، وأشرف العلوم ما كان لأشرف المعلومات ، وأشرف المعلومات (الله) جلّ جلاله وأنه واحد لاشريك له (لاإله إلاهو) وهو (الحىّ) لم يزل بالحياة موصوفا لم تحدث له الحياة بعد موت ولا يعتريه الموت بعد حياة (القيوم) القائم بتدبير خلقه فى إيجادهم وأرزاقهم وجميع ماهم فى حاجة إليه (لاتأخذه سنة ولانوم) فالسنة أوّل النوم والنوم غشية ثقيلة تقع على القلب ، والمعنى لاتأخذه سنة فضلا عن النوم ، لما اتصف سبحانه وتعالى بالوحدانية والحياة ، وأنه قائم بتدبير كل شىء على الارتقاء فى الوصف من توحده وانفراده وحياته وقيوميته على كل شىء بالتدبير كان لامحالة يرد على النفس وارد فيقول : كم من حىّ قائم بتدبير ما يملك يعتريه النوم فينام ، فقال : « لاتأخذه سنة ولانوم » واعلم أن هذه الصفة خارجة عما اعتاده البشر من اضطرارهم للراحة بعد العمل ، والنوم بعد اليقظة ، لتستكمل الأعضاء قوّتها ، ولتأخذ الأعصاب حظها من السكون حتى تقوم بعملها على وجه يليق بها ، ولقد كان ذلك محتاجا الى التفسير عند الجهلاء وافهامهم بما يعلمونه من نفوسهم :

[روى] الطبرى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : « لاتأخذه سنة ولانوم » أن موسى عليه الصلاة والسلام سأل الملائكة : هل ينام الله ؟ فأوحى الله تعالى الى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ففعلوا ، ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما ، فجعل ينعس وينتبه وهما فى يديه فى كل يد واحدة حتى نعس نعسة فضرب إحداهما بالأخرى فكسرهما .

قال معمر : انما هو مثل ضربه الله تعالى له ، يقول : فكذلك السموات والأرض ، ولا تظن أن سيدنا موسى كان يجهل ذلك ، وانما ذلك من الله تعليم لقومه حتى يعرفوه بما يخالف ما اعتادوه من النوم ، وأنه لونام أونعس الانسان لانكسر مافى يده من القوارير .

هذا المثل يعقله العامّة والعلماء ، وهو حسن للجميع ، ولكن العلماء ينفردون بعلم ويختصون بحكمة ، ألاترى أنهم ينظرون الكواكب طالعة غاربة ، والشموس مشرقة آفلة ، والأقمار ظاهرة خافية ، جارية بالليل والنهار فوق الأفق وتحت الأفق ، والرياح تجرى بالليل والنهار ، وكذلك السحب والأنهار . وترى النبات والحيوان ينموان بالليل والنهار فلا يقفان فى نموّهما بنوم ، فانك اذا رأيت شجرة الورد وقد صارت طول ذراع فى أوّل شهر و بعد مضىّ أسبوع وجدتها أطول بمقدار ثمن قيراط فماذا تقول ؟ أتقول : ان نموّها كان بالنهار أما بالليل فلا . كلا . بل النموّ فى سائر الأوقات لكل وقت قسط منه ، وأوقات النوم عندنا أوقات يقظة عند قوم آخرين كأهل [استراليا] ولايزال فى العالم نوم ويقظة فى سائر الأحوال وليل ونهار ، بل اذا كنت قارئا ما أسلفنا من علم الفلك ظهر لك أن كل ساعة تمرّ عليك فجر عند قوم وصبح عند قوم وضحى عند آخرين وظهر وعصر ومغرب وعشاء ونصف ليل وهكذا [ليس عند ربك صباح ومساء]

هذه تفصيل حال العالم المشاهد الذى نحن فيه ، فالقارورتان اللتان أوحى الله بهما الى موسى هما السموات

والأرض ، أوالأرض والشمس ، وهما دائرتان دائما أبدا ، فلو أن الله تأخذه سنة أونوم لاصطكت السموات والأرض ببعضهما ، أولاصطكت الشمس مع الأرض ، أومع كوكب من الكواكب فاختل النظام ، وانما اختار القارورتين لأنهما أقرب تمثيل إلى الكواكب [ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا]

اذا عرفت ماقررته لك فهمت كيف أعقب الله ذلك بقوله : (له مافى السموات ومافى الأرض) فتعجب كيف أعقب نفى السنة والنوم بأنه له مافى السموات ومافى الأرض كما بيناه لك فتأمل ، واستغنى عن الاستدلال فى القرآن بقارورتى موسى بالمقصود من الذى شرحناه ، وكأن هذه الأمة يراد أن تكون أعلم الأمم والافلماذا يقول الله لموسى أمسك بالقارورتين ، ويقول لأمة محمد : له مافى السموات ومافى الأرض ، وهذا لايعقله ولا يعرفه حق معرفته إلا أصحاب الفكر الثاقب ، ولما كان الناس الذين لهم سلطان فى الارض كالملوك أومن يجرى مجراهم قد يرضون بشفاعة من يشفعون عندهم ، وذلك كأنه تنزل عن الرئاسة والعظمة والسلطان ، وكان الكفار يقولون : ان الأصنام تشفع لهم عند الله أعقبه بقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه) أى لايشفع عنده أحد إلا بأمره كما ذكرنا فيما تقدم أول السورة من شفاعة الأنبياء والعلماء والشهداء فارجع اليه ، وقد اخترنا أن تكون الشفاعة على وجه لايخل بالمقصود من الدين وهوالجد والعمل ، ونبذ التواكل والغفلة والكسل ، ومن تعدى ذلك فقد أضاع أمته ودينه ، وأذهب المقصود من نبوة سيد العالمين (يعلم مابين أيديهم وماخلفهم) مابعدهم وماقبلهم (ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) علمه أى معلوماته ، واذا لم يحيطوا بمعلوماته فهومنفرد بالعلم كما انفرد بالألوهية (وسع كرسيه) ملكه وسلطانه وقدرته أوعلمه (السموات والأرض ولا يؤده) يثقله ويشق عليه (حفظهما) أى حفظ السموات والأرض (وهوالعلى) الرفيع فوق خلقه الذى ليس فوقه شيء فيما يجب أن يوصف به من معانى الجلال والكمال (العظيم) ذوالعظمة والكبرياء : أى لاشيء أعظم منه .

واعلم أن الكرسى فى لغة العرب اسم لما يقعد عليه ، مأخوذ فى معناه من تركب الشيء بعضه على بعض ومنه الكراسة لتركب بعض أوراقها على بعض ، وهذا الكرسى ركبت خشباته بعضها على بعض ، ويقول بعض العلماء : ان الكرسى هونفس العرش ، وهوالسرير الذى يجلس عليه ، وقال آخر : الكرسى غيرالعرش ، وهو أمامه ، وهو فوق السموات السبع ودون العرش .

واعلم كما قال القفال : أن المقصود من هذا الكلام تصوير عظمة الله تعالى وكبريائه ، فقد خاطب الله الخلق فى تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه فى ملوكهم وعظمائهم ، من ذلك أنه جعل الكعبة بيتا له يطوف الناس به كما يطوفون ببيوت ملوكهم ، وأمر الناس بزيارته كما يزور الناس بيوت ملوكهم ، وذكر فى الحجر الأسود أنه يمين الله فى أرضه ، ثم جعله موضعا للتقبيل كما يقبل الناس أيدى ملوكهم ، وكذلك ماذكر فى محاسبة الناس يوم القيامة من حضور الملائكة والنبيين والشهداء ، ووضع الموازين ، فعلى هذا القياس أثبت لنفسه عرشا . فقال « الرحمن على العرش استوى » ثم وصف عرشه . فقال « وكان عرشه على الماء » ثم قال « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم » وقال « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » وقال « الذين يحملون العرش » ، ثم أثبت لنفسه كرسيا ، فقال « وسع كرسيه السموات والأرض » اذا عرفت هذا فكل ماجاء من الألفاظ الموهمة للتشبيه فى العرش والكرسى قد ورد مثلها بل أقوى منها فى الكعبة والطواف وتقبيل الحجر ، فاذا قلنا : ان المقصود معرفة عظمة الله وكبريائه مع القطع بأنه منزه عن أن يكون فى الكعبة ، فكذا الكلام فى العرش والكرسى ، هذاملخص كلام القفال ، ثم ان هذه الآية دلت على أن الله موجود واحد حى واجب الوجود لذاته قائم بنفسه مقيم لغيره لايعتريه النقص والفتور مالك الملك فى

العالمين

العالمين ذوالبطش الشديد والقهر والعظمة لايشفع عنده الا من صدر له اذن منه يعلم الجليل والقليل ، واسع الملك والقدرة وقوله (ولا يؤده) أى لا يثقله متعال عما تدركه الأفهام وتتخيله الاوهام ، عظيم لاتحيط به العقول ، ولاتدركه الأبصار ، هذه آية الكرسى ، أفلاتذكر ماقاله ﷺ لأبى المنذر وقدضرب به فى صدره [ليهنك العلم] كأنه صلى الله عليه وسلم ، يقول : ياأبا المنذر اهنأ بالعلم مشيرا بالضربة الى أن قلبه امتلأ نورا بالعلم ، وكيف يكون ذلك والقرآن كله علم فلم خصّ آية الكرسى ؟ فاعلم أن جواب هذا السؤال واضح مما قرّرته لك هناك من أن المقصود من القرآن هو العلم ، وأهمّ العلم ذات الله وصفاته وأفعاله ، فهذه الآية ذكرت صفاته سبحانه وتعالى ، فأما ماعداها من أكثر الآيات ، فلم تتعدّ الانذار ، والتبشير ، والحج ، والصلاة ، والزكاة ، وتهذيب النفوس والأخلاق ، ولعمرك ان هذه العلوم كالفقه ، وعلم القصص ، والاخبار كل ذلك مقدّمات لتحلية النفس بالعلم ليكون زينة للنفس ورقيا للمدنية وسعادة للأمة وفوزا مبينا .

بذور القرآن

ولعلك تقول : أين سعادة الأمم فى معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله ، ونحن نرى أنا نعرف ذلك ، ونحن فى أخريات الأمم ؟ أقول : على رسلك لئن عرفنا ذات الله بالتقديس والتنزيه ، وعرفنا صفاته بالكمال والجلال وأفعاله بالنظام والميزان لنكونن أرقى الأمم ، ولأوضح لك ذلك .

فأقول : لقد بذر الله فى قلوب العباد من المسلمين فى مساجدهم وصلواتهم أن يقرءوا آية الكرسى ، وآمن الرسول « والم الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم » الآيات ، وقوله [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة] الآيات ، وقوله [قل اللهمّ مالك الملك] الآيات ، وقوله [سبح لله مافى السموات ومافى الأرض وهو العزيز الحكيم] الآيات ، وقوله [هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة] الآيات ، أليست هذه الآيات يقرؤها المسلمون صباحا ومساء عقب صلواتهم ، لما جاء فى فضلها ، فقل لى : رعاك الله لم لم يقرءوا آيات غيرها ، ولم لم يقرءوا مثل [تبت يدا أبى لهب] ، أونحو قوله تعالى [وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله] ولماذا تكرّر هذه الآيات ، واختارها الصالحون والصوفية لتلاميذهم وأوصوهم بها ؟ ان ذلك لعمر الله لسرّ قد آن انكشافه ولعل هذا وقت ظهوره ، ان أولئك الاساتذة كانت تنشرح صدورهم لذلك التلقين ، ويعلمون التلاميذ ذلك الا كسير ليفتح الله عليهم بالقبول والوصول من طريق التقوى وتصفية الباطن ، ولكن الأمر عظيم ، ان ذلك أشبه بما كان عند قدماء المصريين من العلوم المطمورة ، والآثار المخبوءة ، والرموز المكتومة ، حتى جاء علماء الآثار فحلوا معمياتها ، ووقفوا على بعض جزئياتها ، وهكذا ترى علماء الاسلام اليوم يبحثون فى أسرار القرآن فلألق عليك قلا من كثر ، وقطرة من بحر الأسرار فى الدين .

فأقول : لقد استبان لك أن صفات الله ظهر بعضها فى آية الكرسى ، وترى الآيات الأخرى كذلك ، فقوله « الم الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم » وصف لله ، ولكن أعقب هذه الصفات بذكر الأفعال . فقال « هو الذى يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء » بعد قوله « إنّ الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » أوليس ذلك يدعو الى علم التشريح ، وعلم الكيمياء ، وكيف لايدعو لذلك ، وهو يقول [يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء] أليس هذا يدعو الى علم الحياة المخترع حديثا الذى يبحث فى حياة الانسان ، والحيوان ، والنبات أوليس الجنين فى الرحم مكوّنا من الدم الناجم من خلاصة الغذاء ؟ وبالتفاعل الكيماوى كوّنت هذه الأعضاء أوليس هذا العلم يشمل الحيوان والنبات ؟ ننظر نظرة أخرى فى قوله [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم] أوليس قوله [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط] يدعو الى سائر العلوم ، فان القيام بالقسط هو نفس النظام : أى نظام الفلك ،

ونظام الطبيعة .

وقد قال علماؤنا لا يعرف معنى القيام بالقسط الامن درس سائر العلوم ، كما قالوا فى قوله تعالى [ووضع الميزان] فى سورة الرحمن ، ان هذا الميزان لايعقله الاالذى درس كل علم كالطبيعة والفلك والكيمياء ، فان الذرات فى التفاعل الكيماوى لها حساب دقيق لاخطأ فيه ولاخلل ، كما ترى فى تركيب الماء من الاكسوجين والأودروجين ، وان نسبة وزن الاوكسوجين الى الاودروجين معلومة لاتتغير ، وهكذا نسبة حجم الأوّل الى الثانى ثابتة ، وهذا أمر لايستثنى منه شىء فى العالم ، كما قال تعالى [ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرّة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين] والله لقد قرأنا بعض صفحات هذا الكتاب فى الطبيعة فأيقنا بنظام جميل بديع وتحققناه وألفينا حساب الله لم يذر ذرّة الاحسبها ولا أصغر منها إلا كتبها وأودعها فى الطبيعة وألقاها الى الناس أجمعين . وقال للمسلمين هذه علومكم فادرسوها جعلتها فى القرآن لتحفظوها ويتعبد بها الصالحون ويدرس بها ماصنعت ومانظمت العلماء المفكرون والحكماء المحققون ، فان رضيتم بقشور القرآآت ، ووقفتم عند حدّ التلاوات فانكم ياعبادى فى عداد الأموات ، وان فكرتم فى مصنوعاتى ، ودرستم مخلوقاتى ، وعرفتم موازينى ، وأيقنتم بقسطاسى ، فانكم بذلك تحيون وترفعون رءوسكم بين الأمم ، وهل يقرّ لكم قرار ، أو يكون لكم اصطبار ، وأنا أنعشت الأمم حولكم فجاسوا خلال دياركم ، وأنتم عن الحكمة نائمون ، وعن التبصرة معرضون ، أولم تتفكروا فى آية [قل اللهمّ مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنك على كلّ شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحىّ من الميت وتخرج الميت من الحىّ] الآية .

أوليست هذه الآية المقروءة عقب الصلوات المختارة فيما اختاره الاساتذة الأخيار دالة على أن الملك ينقل من قوم إلى قوم ، وأنه لكل أمة يوم ، وأنا الذى أصطفى من عبادى للغلبة من أشاء كما زاد النهار تارة والليل أخرى بحساب ، وكما أخرج الحىّ من الميت ، وأخرج الميت من الحىّ ، أليس ذلك يدعو لدراسة الأفلاك والكواكب ، وعلم الحيوان ، أوليست هذه أفعالى ، أوليست صفاتى فى آية الكرسى لايظهر لكم آثارها الابأفعالى ؟ فهاهى ذه أفعالى ، و إذ أنزلت القرآن ، وقرأتموه وكررت تلك الآيات التى هى من أهمّ العلوم ، أفليس فيكم رجل رشيد ؟ ألم يقم منكم قائمون يذكرونكم أن تلك التلاوات التى سيقت للعبادات يتبعها العلم والتفكر ، أفلم يكن من رحمتى لكم أنى ألهمت أسلافكم حفظ آيات صفاتى وأفعالى لتكون ذخيرة لكم لعلكم تعقلون ، أولم تقرءوا ما كتبه العالم الهندى فى كتاب كليلة ودمنة من الحكايات الخرافية ، وأنه قيل فى أوّل ذلك الكتاب : ان الحكايات تكون تسلية للجهال وغراما للأطفال ، ولكنها حكمة للحكماء وعلم للملوك وسياسات للقوّاد العظماء ، فهل ترون ذلك فى كتاب أحد عبيدى ولاترونه فى كتابى الحق ، كتابى يتعبد به العباد ويدرسه الحكماء .

أقول هذا هو السر فى اختيار هذه الآيات وهى بذور للحكماء والعلماء ومتى شاع هذا القول بين علماء الأمّة ظهر سرّ قوله « ليظهره على الدين كله » وسر قوله « كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

هذا هو أوان اليوم الموعود للأمة الاسلامية ، هذا هو السر المصوّن والجوهر المكنون ، والجمال والنور المختبئ فى القرآن الذى أبرزه تألب الأمم الغربية على المسلمين ، فليقرءوا كل علم وليعرفوا كل فنّ ، بهذا أمر الله فى الكتاب ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . هذا ولنرجع الى الكلام الى مابعد آية الكرسى

فنقول

فنقول :

قال تعالى (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) أى تميز الايمان من الكفر بما ظهر من الآيات الواضحات أن الايمان سعادة ، وأن الكفر شقاء (فمن يكفر بالطاغوت) بالشيطان أو الأصنام أو كل ماعبد من دون الله (و يؤمن بالله) بالتوحيد وتصديق الرسل (فقد استمسك بالعروة الوثقى) طلب الامساك بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق . وهذا مستعار للتمسك بالحق من النظر الصحيح والرأى القويم (لا انفصام لها) لا انقطاع لها (والله سميع عليم . الله ولى الذين آمنوا) محبهم أومتولى أمرهم (يخرجهم) بما منحهم من التوفيق والهداية (من الظلمات الى النور) أى الهدى والايمان (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) المضلات من الشيطان والهوى والأصحاب وغيرهم (يخرجونهم من النور الى الظلمات) من نور الفطرة (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

المرتبة الثانية فى التوحيد

وهى قوله تعالى : (ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه ، الى قوله : والله لايهدى القوم الظالمين)

يقول : هل انتهى الى علمك يامحمد خبر الذى خاصم ابراهيم فى ربه وجادله ؟ وهو نمروذ ، فقال أنا أحيي بالعفو وأميت بالقتل . فقال له ابراهيم : فهل تقدر على تغيير الأفلاك وقلب نظام الشمس فى سيرها فصار الذى كفر مبهوتا وانتهى من المجادلة مقهورا . وهل يهتدى الظالمون الى الحجة البلجاء والعقيدة السهلة السمحاء .

ثم أتبعه بالمرتبة الثالثة : ونظمهافى سلكها ، ورتبها بعد تمامها ، فقال (أو كالذى مر على قرية) والكاف صلة كأنه يقول : ألم تر الى الذى حاج ، والى الذى مر على قرية ، وهو أرمياء أوعزير ، والقرية اما بيت المقدس أو إيلياء ، وقد كانت خاوية ساقطة حيطانها (على عروشها) سقوفها (قال) ذلك النبى استعظاما لأمر الله واعترافا بالقصور عن ادراك طريق الاحياء ، كيف يحيي هذه الله بعد موتها ، وقد كان من قبل ذلك سطا على بنى اسرائيل بختنصر فى جمع عظيم ، فأنزل بهم العذاب ، وأجلاهم الى بلاد العراق وفارس ، فلما أن هلك أمر بعض ملوك الفرس بارجاعهم الى بيت المقدس وتعميره وتعمير ايلياء ، فلما أن قال ذلك النبى ماقال ، رقد شاهدها خرابا بلقعا ووحوشا يبابا ، وقد كان معه عصير عنب فى ركوة وسلة تين . وهو على حماره فمات لساعته ضحوة وحيي بعد مائة سنة . وقد عمرت القرية على رأس السبعين . ونمت وزكت فى ثلاثين ، هذا معنى قوله (فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه قال) له الملك (كم لبثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك) التين (وشرابك) العصير (لم يتسنه) يتغير (وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها) نحييها أونرفعها (ثم نكسوها لحما) .

تلك الحادثة كانت أيام سقوط الدولة اليهودية ، ذلك أنهم كانوا فى مصر نحو أربعمائة عام ومكثوا فى حكم الشيوخ السبعين والكاهن نحوا من ذلك حتى كان ما كان من أمر طالوت وشموئيل وداود وسليمان فظهرت دولتهم واستفحل ملكهم ، ونفذت شوكتهم حتى ملكوا الفرات وأطراف اليمن و بعض جهات الروم ، وجاوروا ملوك الفرس ، وذلك فى نحو ستمائة سنة ، وكانوا فى تاريخهم أشبه بالعرب فى سيرهم فانهم لما وصلوا فى الفتوحات لمجاورة التتر أزالوا دولتهم فى القرن السادس ، فهكذا هؤلاء لما ملكوا الأرض المقدسة حاربهم الفلسطينيون ، وهم العماليق ، وقلبوا جمهوريتهم الى ملكية ، ثم أخذ ملكهم يزداد وعظمتهم تمتد وطودهم يشمخ ، وأوتادهم تثبت ، حتى جاوزوا الفرات ، والجزيرة ، فانقض عليهم جيرانهم ، فأذاقوهم سوء

العذاب ، ذلك تاريخهم فبدأ سلطانهم فى أوّل السورة عند ذكر موسى .

وقلب الجمهورية الى ملكية فى قصص شموئيل وطالوت وداود ، وسقوط مجدهم ، وهبوط نجمهم ، وأفول سعدهم أيام العزير ، اذقرأ لهم التوراة عن ظهر قلب .

ثم كانت خاتمة أمرهم أن اجلاهم الروم ، ذلك أنهم أى الروم قد غلبوا اليونان الذين غلبوا الفرس ، فانه لما تولى اليونانيون على ملك فارس بقائدهم اسكندر ، ورثوا ملكهم ، ومنه بيت المقدس ، ثم لما غلبت الروم اليونان ضموا اليهود اليهم ، وأجلوهم الجلاء الكبرى ، ونقلوهم الى رومة ، وما والاها من البلدان وفى أيامهم أرسل المسيح عليه السلام .

فاعجب لترتيب هذه القصص على مقتضى الزمان ، وترتيبها كترتيب التاريخ ، وأهمّ منه ماأشرنا لك من قبل عماد الأمر وقصاراه التأمل فى حكمة الله ، وانظر كيف يقول تعالى : وانظر الى حمارك وانظر الى العظام كيف ننشزها الخ فأمره بالنظر فى جسم الحمار مرتين . وقال ارجع البصر كرتين ، أوجب علم البيطرة لبيطرة الدواب والتشريح لمعرفة الأجسام للانسان والحيوان ، ثم ذكر معها جملة من العلم فى نمطها ونظمها فى سلكها فجعلهما درّتين فى تاج الحكمة والعلم ، ومصراعين لبيت الاسلام فقال (واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى) الى قوله (عزيز حكيم) لما حاج نمروذ ابراهيم ، وقال له أنا أحيى وأميت وعفا وقتل بعد قول ابراهيم الله يحيي بردّ الروح الى البدن انتقل ابراهيم الى ماتقدّم ذكره ، ثم سأل الله المعاينة ، وذلك قوله تعالى (واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى) الآية ، يقول ابراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ليصير علمى عيانا (قال) الله له (أولم تؤمن) باحيائى الموتى (قال) ابراهيم له (بلى) آمنت ولكن سألت ذلك لأزيد بصيرة وسكون قلب بضم العيان والمشاهدة للوحى والاستدلال (قال) الله له (فخذ أربعة من الطير) طاووسا وديكا وغرابا وحمامة (فصرهن اليك) أملهن اليك ، من صاره يصيره و يصوره ، وقرئ صرهن بالضم والكسر : أى اجمعهن (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) أى جزئهن ، وفرّق أجزاءهن على الجبال التى بحضرتك ، وهى أربعة (ثم ادعهن) قل لهنّ تعالين (يأتينك سعيا) ساعيات مسرعات طيرانا أومشيا (واعلم أن الله عزيز حكيم) فهو بالعزة غالب وبالحكمة منظم ومتقن .

اياك أن يلج فى صدرك أن مثل هذه الآية نزلت على النبىّ صلى الله عليه وسلم بعد قصص العزير وحماره لنسمع قصصا قضى وتاريخا خلا من غير أن نعتبر ونذكر ونفكر .

يقول الله : انظر الى حمارك ، ثم يقول : انظر الى عظامه كيف ننشزها ، ثم نكسوها لحما ، ولاجرم أن ذلك يدعو حثيثا لعلم التشريح و يتلوه الطب ، ولن يقوم للطب أساس ولا للتشريح قائمة إلا إذا درست العلوم الطبيعية من النبات والحيوان وفصائلها وأنواعها وأجناسها وأشكالها و بذورها وغير ذلك .

وتعجب كيف طلب الخليل من ربه أنه يريه احياء الموتى عيانا بعد التصديق بالاستدلال والوحى تعليما للأمة الاسلامية أن يبحثوا وتهييجا لهم أن يتذكروا ، بالله من ذا ينكر احياء الله للموتى من عجائز المسلمين والنصارى واليهود ، ومن ذا الذى يختلج فى قلبه أو يهجس فى نفسه منهم أن يقول ان الله لايحيي الموتى فضلا عن القراء والعلماء والأنبياء ، فكيف يكون حال ابراهيم صلى الله عليه وسلم .

لاجرم أن الأمر فوق مايظنه أغرار الناس وأن الايمان والسعادة وارتقاء العقول البشرية التى تتبع ارتقاء الأمم الانسانية يعوزها دراسة الأشياء المحيطة وعجائب تركيب الأجسام ونظام الحيوان وكيف يكون التحليل وكيف يكون التركيب .

وأنت اذا وقفت على بدائع تركيب المخلوقات الحية وغير الحية اعتراك الدهش وأخذتك الحيرة وغشيتك غواشى

العجب

العجب والبهر وأذهلتك أيما اذهال ولارك طرفا من علم الكيمياء لتدرك سرا من أسرارها وحكمة من علمها وقطرة من بحرها لتعجب من هذا الوجود وتدرك ما كان يرتضيه الخليل وبما اذا أراد الله بهذا القصص وما شأن الطيور وتمزيقها وتوزيعها على الجبال وسعيها طائرات ، وما شأن الحمار وعظامه ولماذا أمر العزير ، بالتأمل فى انشاز عظامه أى احيائها وبتحريك بعضها وضمه الى بعض وأنه يكسوه باللحم ؟ فأقول :

ان فى علم الكيمياء كلمتين هما المزج والاتحاد فلو أنك مزجت عشرة جرامات من الفحم بعشرة من مسحوق الكبريت كان الحاصل منهما حافظا لخواصه الأصلية حتى اننا لو نظرنا الى هذا الممزوج بمنظار اشاهدنا أجزاء سوداء لاقانون له ولاضابط ولاقاعدة ، وانما ذلك حسب الهوى كما تضع الملح فى اناء والتراب مع الملح فلا اتحاد ولا التئام ولا انتظام .

الاتحاد

أما الاتحاد فهو السرّ المصون والعلم المكنون والنظام البديع الغامض المتقاعس عن الجاهلين المترفع عن ادراك الغافلين وهذا هو سرّ الله فى أرضه ومرمى آراء الخليل والعزير والنبى ﷺ ، ومن أدركه فقد أدرك السرّ المكنون والكبريت الأحمر وكأنما ملك الدنيا بحذافيرها فان هذا هو سرّها وعجبها وبدعها ، ومن يدركه إلا الفوقة القماقم وصناديد العلم الأكابر ، ففى الاتحاد تفقد الأجسام خواصها الأصلية وطبائعها وأوصافها وأحوالها وألوانها وتتحوّل إلى شىء آخر مغاير لكل منها ، خذلك مثلا :

القطن والقمح والبرسيم

هذه نباتات كوّنت فى الأرض من هذه العناصر وهى : البوتاسا ، والصودا ، والجير ، والمغنيسيا ، وحمض الفوسفوريك ، وحمض الكبريتيك ، والسلكا ، والكاور .

عناصر	قطن	قمح	برسيم
بوتاسا	٣٥ر٥	٣١ر٥٤	٣٤ر٦
صودا	٣ر٦٤	٣ر٦٦	١١ر٤
جير	١٤ر٦٣	٣ر١٤	٢١ر٦
مغنيسيا	٨ر٧٨	١٢ر١٠	٤ر٥
حمض فوسفوريك	٨ر٣٤	٤٨ر٥٠	٥ر٣
حمض كبريتيك	٧ر٧٧	٠٠ر٠٨	٤ر٢
سلكا	٨ر٢٢	١ر٨٨	٣ر٨
كاور	٦ر٣٧	٠٠ر١٠	١٣ر٩

أنت تعرف الجير وقد دخل فى القطن بنسبة ١٥ فى المائة تقريبا وفى القمح بنسبة ٣ فى المائة وفى البرسيم ٢١ فى المائة ، وأنت تعرف الجير تراه بعينك لكنك لو حللت النبات لم تر جيرا وإنما هو نبات حوّل الجير اليه وذهبت خواصه وصار عالما جديدا .

ها أنت ذا حللت النبات ونظرته فألفيت البرسيم والقطن والقمح من مواد متحدة .

المواد والعناصر فى الثلاثة متحدة فأنت مالبست ولا أكلت ولا أكلت البهائم إلا تلك العناصر المتحدة التى فقدت خواصها ، ولعمرك ماحوّلت إلى تلك الخواص والأجسام الحادثة الجديدة إلا بتلك النسب المحفوظة ، فهذا الوزن وهذا الحساب هو الذى مكن من اعطائها أشكالها النافعة فكانت غذاء الحيوان ورداء الانسان وزينة الرجال والنساء فنحن نلبس ونتزين بما يأكله الحيوان ، ولكن السرّ المصون هو النسب فاذا حوّلت النسب حوّلت الخواص وتغيرت الأسماء .

أليس ذلك من العجب ولو أن البوتاسا صارت فى القطن ٣٦ فى المائة بدل ٣٥ر٥ فى المائة ماتركب

قطنا بل كان ممزوجا لا متحدا ولم تكن فيه خواص القطن وعلى ذلك كانت قاعدة الاتحاد .

ان اتحاد الأجسام بعضها ببعض يكون بمقادير محدودة ثابتة فى كل مركب وهو المسمى بقانون المقادير المحدودة فترى الماء مثلا مركبا من (١) أكسوجين و (٢) أودروجين ونسبة الثانى إلى الأوّل وزنا كنسبة واحد إلى ثمانية و يفقد كل منهما صفاته الخاصة وتحدث صفات لم تكن لهما وهى صفات الماء من طعم وهيئة وغير ذلك ونسبة الأول إلى الثانى حجما كنسبة (١) إلى (٢) والأكسوجين عبارة عن جسم هوائى إذا أدخلت فيه شيئا قابلا للاحتراق احترق ، أما الأودروجين فهو جسم هوائى أيضا طيار كالأوّل إنما إذا أدخلت فيه حيوانا مات حالا فهو جسم مميت ، أما الأوّل فهوجسم محرق وهذان الجسمان باتحادهما مع بعضهما تكوّن الماء الذى به حياة كل شىء ، وتعجب مما أذكره لك : وهوأنه إذا تركب جزآن من الأكسوجين مع جزءين من الأودروجين فانه يحصل منهما جسم آخر ليس بماء ، وإنما هو جسم كاو محرق يسمى (ديتوكسيد) وهو سائل محرق أكال لما يحلّ فيه ، فتعجب من هذه المركبات وكيف كان حساب الماء دقيقا ، ولما اختل الحساب جاء سائل آخر قاتل فتى كان جزآن من الأودروجين مع جزء واحد من الأكسوجين كان فيه حياة كل حىّ ، ولما صار الأكسوجين جزءين كالأودروجين صار قاتلا لكل حىّ ، وانظر الفرق بين الاحياء والاماتة تجده جزءا واحدا فقط وكيف اختار الله هذا التركيب وجعله محيطا بالأرض وهو الماء «ان الله سريع الحساب» .

ما أعجب ما ترى فى هذا المقام وما أبدع ما عرفت أيها الذكى لم اختار الله هذا التركيب أليس لأنه به الحياة ولو أنه زاد الاكسوجين جزءا واحدا لم يصلح المركب للحياة أليس ذلك دلالة على أنه محيط بكل شىء « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم » و إلا فلماذا هذا النظام والحساب والعجب العجاب اه .

وهناك قانون آخر يسمونه قانون النسب المضاعفة (إذا اتحد جسمان وتكوّن منهما جملة مركبات فاذا بقيت كمية أحدهما ثابتة فكمية الآخر تتغير على حسب نسب مضاعفة بسيطة جدّا) .

فترى الأوزوت يتحد بالأكسوجين ويكون منهما خمس مركبات .

(الأوّل) يحتوى ١٤ من الأوزوت و١٦ من الأكسوجين
(الثانى) على ١٤ من الأوزوت و١٦ فى ٢ من الأكسوجين
(الثالث) على ١٤ من الأوزوت و١٦ فى ٣ من الأكسوجين
(الرابع) على ١٤ من الأوزوت و١٦ فى ٤ من الأكسوجين
(الخامس) على ١٤ من الأوزوت و١٦ فى ٥ من الأكسوجين

فترى من ذلك أن تركيب الأجسام جار على نظام ثابت بحساب معين ونمط بديع وهو السحر الحلال وعلى ذلك سائر المركبات من نبات وحيوان وانسان وهذا معنى كونه عزّ وجلّ « سريع الحساب » وقوله « وكل شىء عنده بمقدار » وقوله « وان من شىء إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم » وقوله « إنا كل شىء خلقناه بقدر) وقوله «وما كنا عن الخلق غافلين » وقوله « ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » .

فاذا تصوّرت أن كل ١٨ جراما من الماء فيها ١٦ جراما من الأكسوجين وجرامان من الاودروجين وأنك لو زدت ذرة واحدة من أحدهما أو نقصتها لم يكن اتحاد و بقيت بخاصتها وهكذا بقية المركبات المتحدات أدركت كيف أمر الله عزّ وجلّ الخليل بالنظر فى العوالم العلوية والسفلية وكيف أمره بتحليل الطير ثم ركبه وهو ناظر إليه ليقف على سرّ التحليل والتركيب والنظام البديع وليكون ايمانه عن يقين لا برهان أو تقليد .

وهذا أهمّ المسائل وأعجبها ولو أنك راقبت النبات فى مدرستنا لرأيته يجتذب الذرات من الأرض فتتمثل بجسمه وتنقلب ورقا وزهرا وثمرا على نهج قانون الاتحاد وناموس النسب ، فاذا تفرّقت أجزاؤه وتحللت عناصره

أعيد كرة أخرى فى نبات أو حيوان بنسب محفوظة على قوانين ثابتة ، فآية الطير واضحة أمامنا صباحا ومساء كل حين ونحن عنها غافلون ، انها لضرب مثل لمانشاهده كل وقت ، فعلى قادة المسلمين أن لا يغفلوا عن هذه الحقائق وأن لاينامو عن هذه الدقائق ، وهاك جدولا جامعا لكثير من النبات المشهور النافع للانسان والحيوان وهاهو ذا .

	القطن			القمح		الشعير	
عناصر	شعر	بذرة	خشب	حب	تبن	حب	تبن
بوتاسا	٥ر٥٠	٣٢ر٣	٣٢ر٩	٣١ر٥٤	١٥ر٦٤	٢١ر٣٠	١٨ر٨٠
صودا	٣ر٦٤	٦ر٩	٥ر٤	٢ر٦٦	٩ر٥٤	٤ر٠٠	٦ر٨٠
جير	١٤ر٦٣	٥ر٦	٢٨ر٠	٣ر١٤	١٠ر٠٠	٢ر٤٠	٤ ٧٠
مغنيسيا	٨ر٧٨	١٦ر٥	٦ر٣	١٢ر١٠	٣ر٥٠	٩ر١٠	٢ر٥٠
حمض فوسفوريك	٨ر٣٤	٣١ر١	٨ر١	٤٨ر٥٠	٣ر١٠	٣٣ر٧١	١ر٦٠
حمض كبريتيك	٧ر٧٧	٢ر١	٥ر٤	٠٠ر٠٨	٤ر٧٠	٢ر١٠	٣ر٥٠
سلكا	٨ر٢٢	٠ر٣١	٥ر٩	١ر٨٨	٤١ر٩	٢٧ر٥٢	٤٣ر٠٠
كلور	٦ر٣٧	١ر٥٠	٧ر٥	٠٠ر١٠	٥ر٢٠	٠٠ر٣٠	١٧ر٣٠
اوكسيد الحديد	معدوم	معدوم	معدوم	آثار	٦ر٢٠	٠٠ر١٥	١ر٣٠

	الذرة		الفول		بطاطس	القصب		برسيم
عناصر	حب	سقيان وقوالح	حب	تبن	نوع من الكمء	ورقه وقامانه	مجرّد من قاماته	
بوتاسا	٣٧ر٩	٣٢ر٠	٤٢ر٥	٢٧ر٨	٦١ر٦	٢١ر٥	٣٤ر٣٠	٣٤ر٦
صودا	٠ر٣	٣ر٠	٣ر٣	٨ر٦	١ر٩٠١	٢ر٤٠	١ر٩٠	١١ر٤
جير	٣ر٤	٩ر٧	٦ر٠	٢١ر٥	٢ر٤	٧ر٢٥	٤ر٨٠	٢١ر٦
مغنيسيا	٧ر٥	٥ر٥	٧ر٣	٥ر٦	٥ر٠٠	٣ر٨٠	٢ر٩٠	٤ر٥
حمض فوسفوريك	٤٤ر٨	٢ر١	٣٤ر٦	٥ر١	١٧ر٦	٣ر٣٥	٤ر٨٠	٥ر٣
حمض كبريتيك	١ر٥٠	١ر٤	٣ر٥	٥ر٩	٦ر٢	٦ر٣٠	٦ر٥٠	٤ر٢
سلكا	١ر٤٠	٣٢ر٨	٠٠ر٩	٨ر٧٠	١ر٠٠	٤٤ر٨٠	٢٦ر٩٠	٣ر٨
كلور	آثار	١٠ر١	١ر٤	١١ر٥	٢ر٢	٨ر٢٠	٨ر١٠	١٣ر٩
أوكسيد الحديد	٠٠ر٤	٣ر٠	٠٠ر٤	٤ر٩	٠ر٨	١ر٩٠	٩ر٨	

تأمل هذا الجدول تجد أن مطعوم البهائم ، والآدميين ، والملابس ، والفاكهة كلها عناصر واحدة اختلفت مقاديرها ، فياعجبا كيف كانت مادة الذرة هى مادة القمح بعينها بل مادة القطن و باختلاف المقادير صار هذا ملبسا ، وهذا مطعما [إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون] حارت الافكار فى هذه الحكمة الباهرة ، فان نظرنا الى ترتيب النبات مع المعادن والحيوان ، وترتيب كل طبقة فيها وجدنا أحكاما ، وان نظرنا الى أجزاء كل شجرة من أعضائها الظاهرة من عروق وسوق وفروع وأوراق وأزهار وثمار رأينا حكمة باهرة وانها موزونة بميزان عدل ، وان نظرنا الى عناصرها التى تركبت منها رأينا مقادير مختلفة وعناصر متحدة ،

وباختلاف المقادير اختلفت الطعوم ، والأشكال ، والألوان ، والروائح ، والمقادير ، وما أشبه هذه النظم فى ترتيبها بنظام السموات ، فكما رأيت هناك جداول لها نظام خاص ، فكذلك ترى هنا جداول محكمة ، ولقد صدق فيثاغورث فى قوله : ان العالم مبنى على الأعداد والموسيقى ، ومن هذا نفهم سورة الرحمن ولنذكر آيات منها لنفهم المقصود . قال الله تعالى « الرّحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان » نعم خلق الله الانسان فيه كل نظام وترتيب ، ولما كانت الأشكال تحنّ الى أشكالها وضعت الروح ذات العلم والأدب وحب النظام والترتيب فى هذا الجسم المشاكل والمناسب لخلقها وأعربت وبينت عما استكنّ فى هذا العالم الذى هو طبعا يحكى الجسم ، فلذلك أعقبه بقوله [علمه البيان] فأبان مايقرأ على صفحات هذا الكون من العلوم واللطائف والعجائب اذ خلق العالم أوّلا مقدّمة لخلق الانسان ، وليكون دفترا له وكتابا يقرؤه فله نفع فى عقله وفائدة فى جسمه ، فخلق الانسان أوّلا فاستفاد الماديات وعلمه البيان لاستفادة العلوم منه ، ولما كان هذا الكلام مجملا ، والمجمل لايغنى عن المفصل فى التعليم شرع الرّحمن يفصله تفصيلا مظهرا آثار رحمته على أجسامنا أوّلا وعقولنا ثانيا بالخلق أوّلا والعلم ثانيا . فقال [الشمس والقمر بحسبان] ولقد أعدنا هذا الكلام مرارا واتضح لك نظام السموات على أبهج أوضاعه وترتيبه وبينا أيضا أن العالم السفلى نظامه تابع للعلوى لوصول الأثر من الثانى ، فلذلك كان له نظام بحساب متقن كمتبوعه الأوّل كما رأيت هنا ، فلذلك قال [والنجم] هو مالاساق له [والشجر يسجدان] فذكر المزارع من نبات وشجر ، وقد رأيت حسابها فأفادأنهما يسجدان ، ولقد رأيت آثار السجود فيها من اطرادها على قانون واحد لايتغير ولا يتبدل ، ولما كانت النباتات على سطح الكرة الأرضية ، وهى مستديرة والسماء محيطة بها من جميع الجوانب ومرسلة أشعتها عليها وأمطارها ورياح جوّها كانت الأرض ومزارعها ككرة طرحت بصوالجة فتلقتها هذه الحوادث الفلكية والجوّية وذكر السماء بعدها كما ذكر الشمس والقمر قبلها لتفيد الاحاطة المذكورة . فقال [والسماء رفعها] وهذه الرفعة حسية وعقلية ، أما الحسية فظاهرة ، وأما العقلية فقد علمتها من التأثيرات المختلفة بالحوادث المتناقضة فتارة تأتى ببرد ، وأخرى بحرّ ، ومرة بخصب ، وأخرى بجدب ، ولاريب أن هذا يورث خللا فى النظام ، وعدم ترتيب فى الأحكام فلا بدّ اذن من قانون تسير عليه هذه العوالم كسفينة [فى بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها] فلذلك أعقبه بقوله [ووضع الميزان] ولقد فهمت فى الجداول السابقة فى العالم العلوى والسفلى شيئا من الميزان فقس عليه كل أحوال هذا الكون فكله موزون بهذا بعينه ، ومن هنا نفهم قوله تعالى [والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كلّ شىء موزون] فلقد شاهدت الميزان فى الجداول السابقة [وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين] .

ولعلك فهمت أيضا من هذه الجداول قوله تعالى [وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون] فلقد رأيت أنه فضل القمح على الذرة فى الجدول السابق بالعناصر المقوّية للعظام كالسلكا الذى هو مواد رملية ، وحمض الفوسفوريك الذى يدخل فى تركيب عظامنا ، ومنه تصنع أعواد الكبريت ، فهاتان المادتان فى القمح أكثر منهما فى الذرة ، بخلاف الكبريت فهو فى الذرة أكثر منه فى القمح ، وهكذا بقية العناصر ، فباختلاف المقادير فضل هذا الطعام على ذلك الطعام .

قلنا ان الفصفور فى القمح أكثر ، وهو داخل فى تركيب العظام ، وهـذا مشاهد فى عظام الموتى فانك ترى أبخرة تتصاعد ، وكثيرا ماترى بالليـل نارا ساطعة ، وماهى الاتلك المـادة الفصفورية التى ذكرناها فى الأغذية وكمنت فى العظام ، قد تصاعدت فتلاقت بالمادة الحارة فى الهواء ، وهى الاكسوجين فاتقد نارا فظن العامة أنها كرامة لولى أونحو ذلك ، وقد فهمت الحقيقة ، وقس على هذين النباتين غيرهما .

ثم ان هذه المواد تدخل فى تركيب الأجسام النامية ، وتبقى الى أمد معلوم ، ثم تنحل ويذروها الهواء وترجع ثانيا ، وتدخل تركيبها كما قال تعالى ــ انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا ــ استدلال بالطبيعة على بقاء الأرواح واليه رمز ــ كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى .

ولعلك تقول الآية ، واردة فى خلقنا بعد الموت ، قلنا نعم ، وانما نحن ذكرناها على سبيل الاشارة والرمز أونحو ذلك مما ذكره علماء البيان ، بل بقاء العناصر الأرضية بعد الانحلال دليل على بقاء أرواحنا بعد الموت وكيف تبقى هذه العناصر المعتمة المظلمة الميتة وتهلك تلك الأرواح الطاهرة المنيرة الحية العالية بل كان الأجدر بالقياس أن تهلك المادة وتبقى الأرواح ، فاذا بقى الأخس فالأشرف أولى بالبقاء لأن الروح اذا كانت بسيطة كما هو اجماع الحكماء ، فكيف تفنى ؟ والفناء انما هو تفريق كما تفرق الجسم عن البدن المركب من عنصرين : روح وجسم ، ففناء الأرواح ليس يقبله العقل بالكلية فافهم .

لطيفة

من أعظم أسرار القرآن التى ظهرت فى هذا الزمان سرّ [ا ل م] فى أوّل سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله [أما بعد] فانى بينما أنا جالس بالمنزل يوم الثلاثاء ٥ شهر مارس سنة ١٩٣٢ م الموافق أواخر شهر ذى القعدة سنة ١٣٥٠ هـ إذ حضر عندى عالم من ذوى الذكاء والفطنة ، فقال بعد أن قرأ هـذا الموضوع فى الطبعة الثانية : لقد أحسنت وأجدت فى ايضاح عجائب الخلقة ، ولكن أريد أن أطلع على نفس التكوين عيانا من نفس علم الطبيعة لأن الله عزّ وجل اذا قال : « وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير » علم أن فى الامكان ظهور نفس الخلق والتكوين ووضوحه فى العالم المشاهد كما قال « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » بحيث تراه العيون ، وتؤمن القلوب بعجائب التكوين ، وتنطق الألسنة ، فيقول المشاهد هذه الجملة « أعلم أن الله على كل شيء قدير » ومعنى هذا أن الانسان يكون مشاهدا بنفسه ومعاينا لتكوين الأجنة وتدرّجها فى النموّ شيئا فشيئا كما رأى العزير تكوين حماره سواء بسواء ، وهنالك يكون الايقان بعلم الله وقدرته على كل شيء ، ويكون المطلع على هـذا ممن قال الله فيهم : « إلا من شهد بالحق » فهذه شهادة عن معاينة ، والشهادة عن معاينة شهادة بالحق . هذا ما أردت أن أسألك عنه الآن . (انتهى سؤال زائرى) .

فلما سمعت ذلك قلت : أيها الصديق : ان هذا السؤال خطر لى منذ عشرة أيام وصممت ان طالت الحياة أن أؤلف لهذا رسالة خاصة تكون فى ملحق هذا التفسير ، ولكن أوجز القول هنا ايجازا فأقول :

ان ما سألت عنه اليوم هو سرّ [ا ل م] فى أوّل هذه السورة وهى البقرة ، فقال واعجبا : وأىّ سرّ فى

[ا ل م] ؟ ان [ا ل م) فى أوّل هذه السور من الحروف التى لامعنى لها ، وسرّها عندالله لاعندنا . وهل ماليس له معنى يكون فيه سرّ عظيم عندنا بنى آدم ؟ فقلت : إى وربى انه لحقّ ، فقال : فأريد أن تكشف لى هذا السرّ ، فقلت : ان [ا ل م] فى أوّل سورة البقرة مفتاح العلوم فى مستقبل الزمان ومفتاح السياسة لأمم الاسلام ، فقال : هـذا نبأ عظيم فما هذا القول ؟ فقلت : اعلم أيها الأخ الصديق أن أذكياء القرّاء اذا ابتدءوا فى قراءة القرآن صادفتهم الفاتحة ، والفاتحة مدخل ومقدّمة لبقية القرآن ، فاذا ابتدأ يقرأ مابعدها صادفه [ا ل م] فيقول فى نفسه هذه حروف لامعنى لها ، ثم هولايزال يقرأ فى سورة البقرة وهومتربص أن يعرف سرّ [ا ل م] فما يشعر إلا وقد فوجئ بنفس هذه الحروف فى قصة الذين خرجوا من ديارهم فارّين من الموت ، وفى قصة طالوت الذى حذر جنده من كثرة شرب الماء من النهر ، وكان امتثال ذلك التحذير سببا للفوز ، ومعنى هـذا أن الأمم لاتقهر أعداءها إلا اذا هـذب أفرادها نفوسهم ، لأن الأمم أفراد مكررة ، وذلك سرّ نصف الفلسفة وهى الفلسفة العملية تهذيب الشخص والأسرة والمدينة ، وذلك فى قوله تعالى : « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذرالموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ان الله لذوفضل على الناس ولكنّ أكثر الناس لايشكرون » وفى قوله : [ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبىّ لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هـل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألاتقاتلوا قالوا ومالنا ألانقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليـلا منهم والله عليم بالظالمين] .

ثم اذا أتمّ هـذه الآية يستمرّ فى قراءته فتصادفه آية ابراهيم ونمروذ والمحاجة التى بينهما كمحاجة علماء المنطق ، و يتلو ذلك ما كان من أمر الله للعزير إذ يقول له : « وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما » ثم مسألة الطير وابراهيم ، إذ فرّق أجزاءهنّ ثم جمعت ، وقال الله له : اعلم أن الله عزيز حكيم ، فان فى هـذا المقام [ا ل م] قد ذكرت مرّتين : « ألم تر الى الذى حاجّ ابراهيم فى ربه » و « أولم تؤمن » .

ولاريب أن علوم أهل المشرق والمغرب لاتعدو أحد أمرين : إماعلوم علمية وهى العلوم الرياضية والطبيعية والالهية ، وإماعلوم عملية ، وهى تهذيب الفرد والاسرة وسياسة الأمّة ، ولما كانت العلوم العملية ظهرسرّها فيما تقدم ظهرسرّ العلوم العلمية هنا ، وذلك بمشاهدة عظام الحمار وكسوتها لحما وتفرّق أجزاء الطير واجتماعها . ولاجرم أن علم الحيوان من العلوم الطبيعية ، وهذه العلوم لانظام لها إلا بمقاييس ونظم وإحكام لايدركه إلا الدارسون والاستنتاج من ذلك كله يكون بالعلم الالهى ، إذن هنا اشارات الى العلوم العلمية المتقدمة ، وعليه يكون سرّ [ا ل م] فى هـذه السورة أنها مفتاح لعلوم الأمم شرقا وغربا مسلمة وغـير مسلمة ، فبينما القارئ يتربص ليعرف ماهو السرّ فى النطق بحروف [ا ل م] اذا به قـد ظفر بكنز علوم السياسات الانسانيـة ومعارفها ، و بعبارة أخرى ان [ا ل م] فى أوّل البقرة تشير لكل علم فى الأرض ، وهذه بلاغة لانظير لها فى بلاغات أهل الأرض ، وهذا من السرّ الذى نزل به القرآن وظهر فى هذا الزمان وحده ، إذن هذا القرآن بعد هذا البيان لم يكن لأمة دون أمة لأن هذه المعانى تصلح لأن يقرأها أهل جميع الأرض لأن نظام العلوم ونظام السياسة محتاج اليهما جميع الناس . فقال حسن حسن ، ولكنه يعوزه ايضاح أعظم من وجهين : الوجه الأوّل زيادة التفصيل لما تقدم ، الوجه الثانى ايضاح ماسألتك عنه أوّلا ولأجله سقت هذا الحديث وهو أنى أرى فى نفس الطبيعة بعينى مارآه العزير فى حماره ، فقلت : أما أوّل الأمرين فلن يتسع له هذا المقام ، وسأكتبه فى ملحق هذا التفسير بهيئة أعجب ، وأما الأمر الثانى فانى أعجله لك الآن ، وذلك أن هـذه الآيات ذكر الله فيها من

الحيوانات الفقرية الجار من ذوات الأربع والطير ، و بقى من ذوات الفقرات الانسان والزواحف والسمك .

ولما كانت الضفادع متوسطة بين السمك والزواحف ، وكان فى مشاهدة نموّ أجنتها عجب عجاب لا ينقص عن مشاهدة العزير حماره وهو يكسى لحما أردت أن أذكرها هنا إجابة لطلبك ، واغاثة لمطالب شوقك ، فسترى بيض نوع من الضفادع وهو فى قاع البركة ذات الماء الغليظ ، وستشاهد درجات نموّ الجنين فى البيض شيئا فشيئا ، وتعجب من تلك المادّة الهلامية التى تحمل ذلك البيض ، وكلما نما الجنين فى داخلها أخذت هى تكبر قليلا قليلا لترفعه من ثقل الماء الى خفة الهواء ، وقد أعدّ لذلك من الحكمة عجيبتان : عجيبة حيوانات ذرّية تتنفس بالاكسوجين وهى لاترى ، ونباتات لاترى أيضا ، وهاتان العجيبتان تؤثران فى تلك المادة انتفاخا فترتفع ارتفاعا متناسبا مع نموّ جنين الضفدعة كما ستراه موضحا ، ثم ترى بيض نوع آخر من الضفادع موضوعا بهيئة صفوف متوازية ملتئمة بالمادّة الهلامية أيضا ، فبهذه المشاهد ترى مصداق مسألة العزير فى نفس الطبيعة وستعجب كل العجب من خياشيم صغار الضفادع المشبهات خياشيم السمك ، وكيف تتنفس بها أوّلا ، ثم تخلق لها الرئة كحيوانات البرّ ، وتخلق الأعضاء بالتدريج عضوا عضوا ، فقال صاحبى هذا أمر عجب فأرجو أن أراه الآن ، فقلت :

الكلام على الحيوانات الضفدعية

الحيوانات الضفدعية هى حيوانات فقرية من ذوات الدم البارد ، و يظهر فى هذه الحيوانات طور الانتقال من الحياة المائية الى الحياة الأرضية ، وذلك باختفاء العوّامات فى الحيوانات الضفدعية ، وهى التى كانت تتمتع بها الأسماك ، وكذلك وجود الاصابع بأطرافها ، وقد علمنا أن أطراف الأسماك خلوة منها ، ولكننا نجد أن الحيوانات الضفدعية تمضى أطوارها الأولى فى الماء ، وتتنفس بالخياشيم ، وتعيش فى طورها الكامل على الارض بالقرب من المياه ، وتتنفس الهواء الجوّى بواسطة الرئة ، وتتنفس الضفادع كذلك من جلدها ، وبهذه الطريقة يمكنها البقاء ساكنة زمنا بدون تنفس رئوى .

القلب فى هذه الحيوانات مركب من ثلاث حجر : اذينين و بطين واحد ، ولهذا يتغذى جسمها بمزيج من الدم النقى وغير النقى ، الأجناس فى الضفادع مختلفة ، وتضع الاناث عددا عظيما من بيض صغير فى الماء ، ويحصل اخصاب البويضات فى الماء إذ تفرغ عليها الذكور مادّتها المنوية ، وعند مايفقس البيض يحصل بالأجنة تطوّر خاص الى أن يكمل نموّها . ومن أمثلة الحيوانات الضفدعية :

(١) الضفادع وهى التى تكون أصابعها خالية من المخالب ، وتضع بيضها بشكل كتلة هلامية .

(٢) ضفدع البرّ تنتهى بعض أصابع أرجلها بمخالب ، وتضع بيضها بشكل أحبال تربطها بالنباتات المائية الموجودة على جوانب الترع والمساقى .

(٣) السمندر : هى حيوانات ضفدعية لها ذنب طويل ، وتشبه الابراص والسحالى .

الضفدعة

تعيش الضفادع فى الأراضى الرطبة القريبة من الترع والمستنقعات ، و يغطى جسمها بجلد رطب أملس تبعا لوجود غدد به تفرز مادّة لزجة تحفظ الجلد رطبا ، وهذه المادّة سامّة بدرجة قليلة ، تثب الضفادع على الارض بقوّة أرجلها الخلفية الطويلة ، وعند ماتنزل فى المياه تعوم بواسطة الأرجل الخلفية أيضا تبعا لوجود غشاء رقيق بين أصابعها ، إذ يجعل الرجل عريضة كالمجداف .

يكثر وجود الضفادع فى الربيع والصيف ، أما فى الشتاء فيندر وجودها تبعا لاختفائها حيث تدفن نفسها

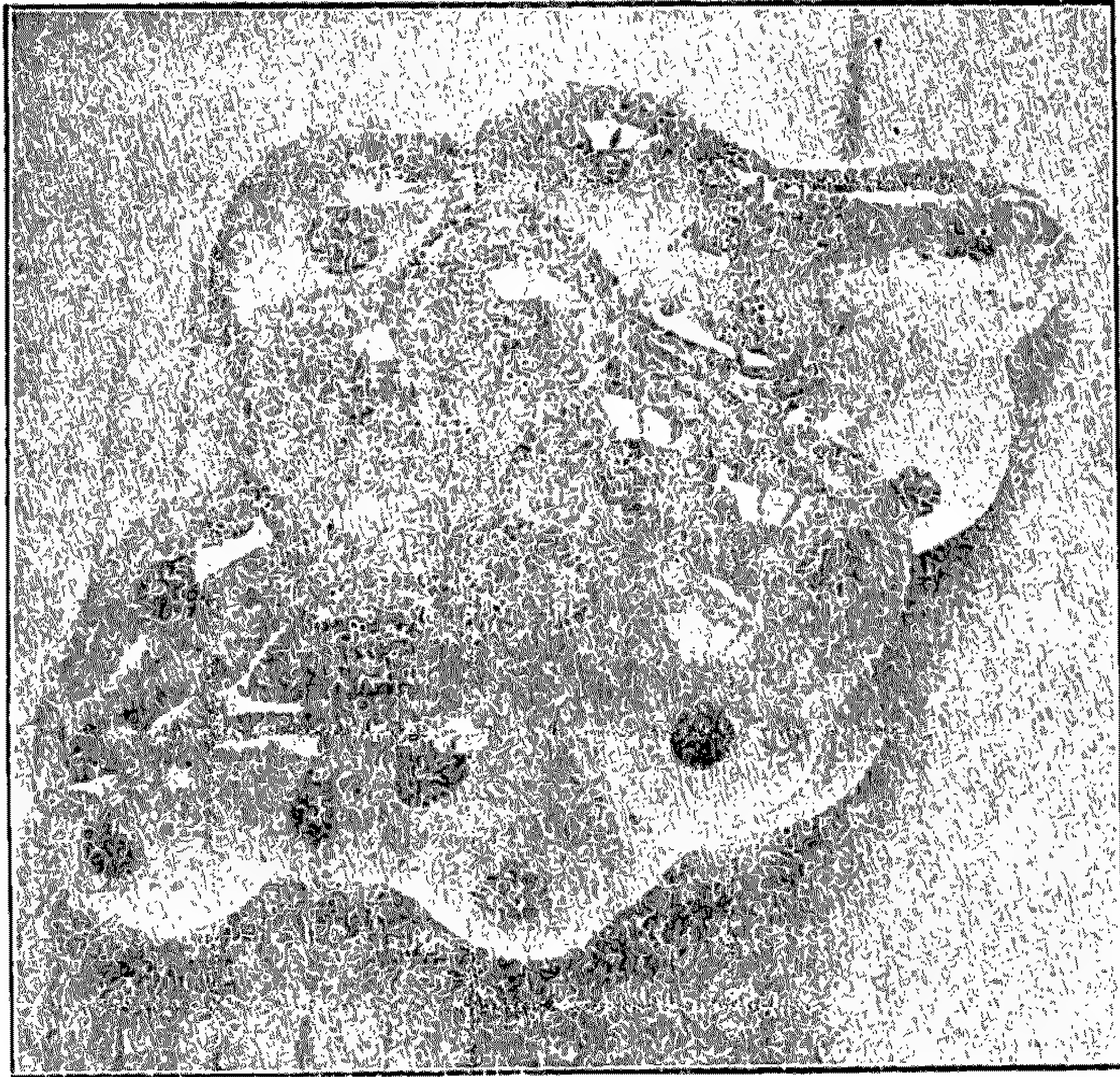
فى الطين بشواطئ الترع وتحت الاحجار وغيرها مدة هذا الفصل ، ويقال انها فى بيات شتوى ، وفى هذا الوقت تكمن الضفدعة فلا تتحرك ولا تتغذى ولا تتنفس تنفسا رئويا ، وتنشط فى أوائل الربيع ، وتجتمع معا فى حفلاتها الليلية ، وتحدث نقيقا عاليا ، وفى هذا الفصل تضع الاناث بيضها بشكل كتل هلامية ، وتفرغ الذكور عليها المواد المنوية أثناء خروجها من الانثى ، أواذا عثرت بها فتخصب البويضات .

يفقس بيض الضفادع المخصب بعد أسبوعين تقريبا وتخرج منه كائنات صغيرة متطاولة كالأسماك تسمى [بأبى ذنيبة] تعرف عند العامة بالطلب ، وهذه الكائنات تعوم فى الماء بذنبها الطويل لانها تكون عديمة الاطراف ، وتتنفس بالخياشيم ، وتتغذى بالنباتات وتنمو ، وتحصل بأبى ذنيبة تطورات تدريجية ، وذلك بأن تنمو له الاطراف الخلفية أولا ثم الاطراف الأمامية ، ثم يأخذ الذنب فى التلاشى تدريجيا ، وتبتدئ كذلك الرئتان فى النمو ، ثم تتلاشى الخياشيم ويصير التنفس إذ ذاك رئويا فتترك الضفدعة الماء وتعيش على الارض .

ويستغرق هذا التطور ثلاثة شهور تقريبا ، وعند ذلك يكون قد تم تطورها وتتغذى فى هذا الوقت بمواد حيوانية ، وتكبر فى الحجم . أما غذاؤها فهو عبارة عن القواقع [التى يكثر وجودها على شواطئ الترع] والديدان والحشرات المختلفة والذباب ، وتقتنص الضفدعة الذباب بلسانها الطويل اللزج إذ تلتصق به الذبابة بمجرد ملامسته لها اه

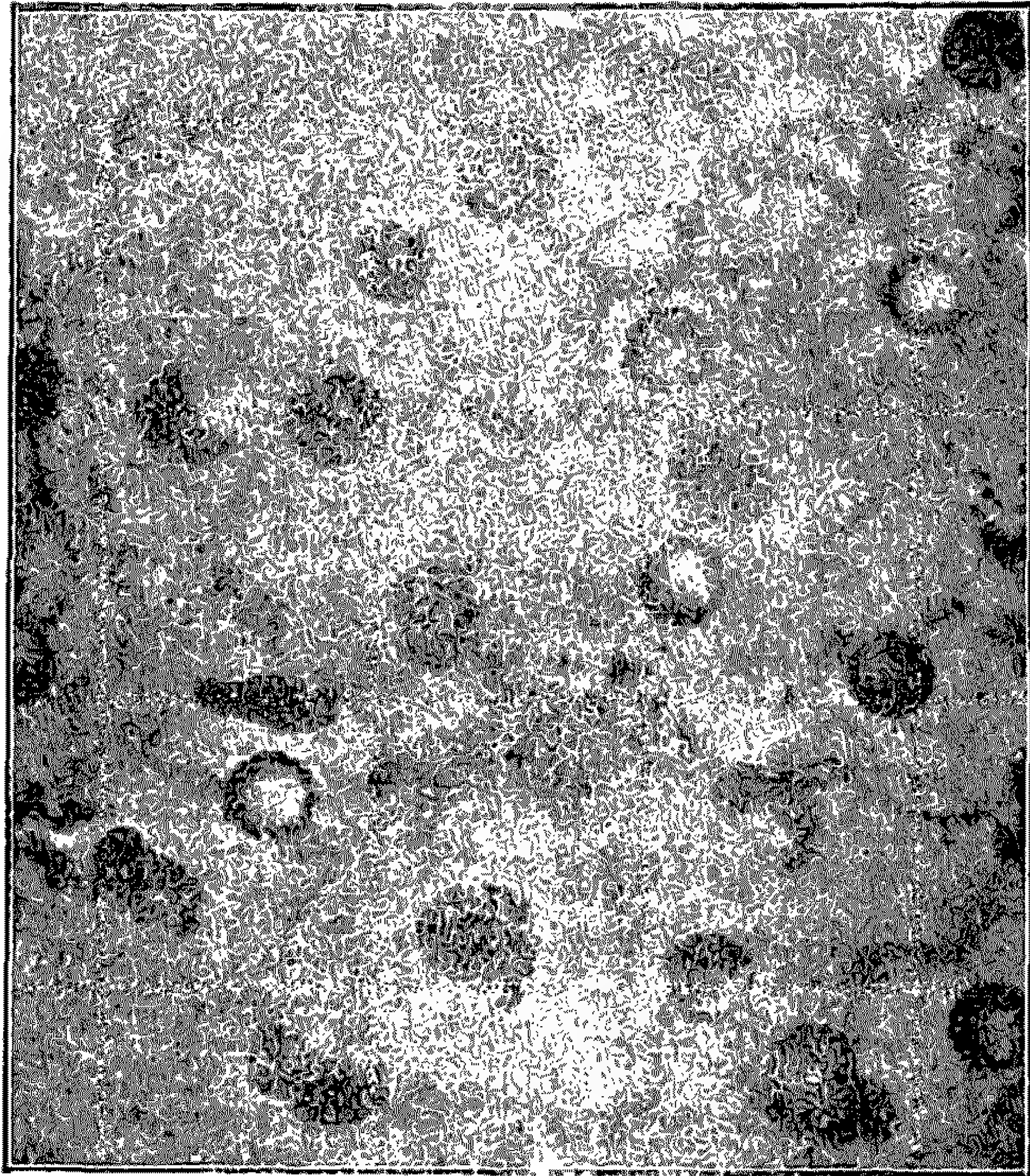
ايضاح ماتقدم بالتصوير الشمسي

وهذه صورها المختلفات الموضحات لماتقدم (انظرشكل ١)



(شكل ١ — بيض الضفادع المنادة)

الضفادع تضع بيضا مابين ألف وألفين ، وقطر البيضة الواحدة عشرالبوصة ، ويحيط بها مادة هلامية ، وهذه المادة تنتفخ شيئا فشيئا ، وتحمل ذلك البيض من قاع البرك إلى سطح الماء (انظرشكل ٢)



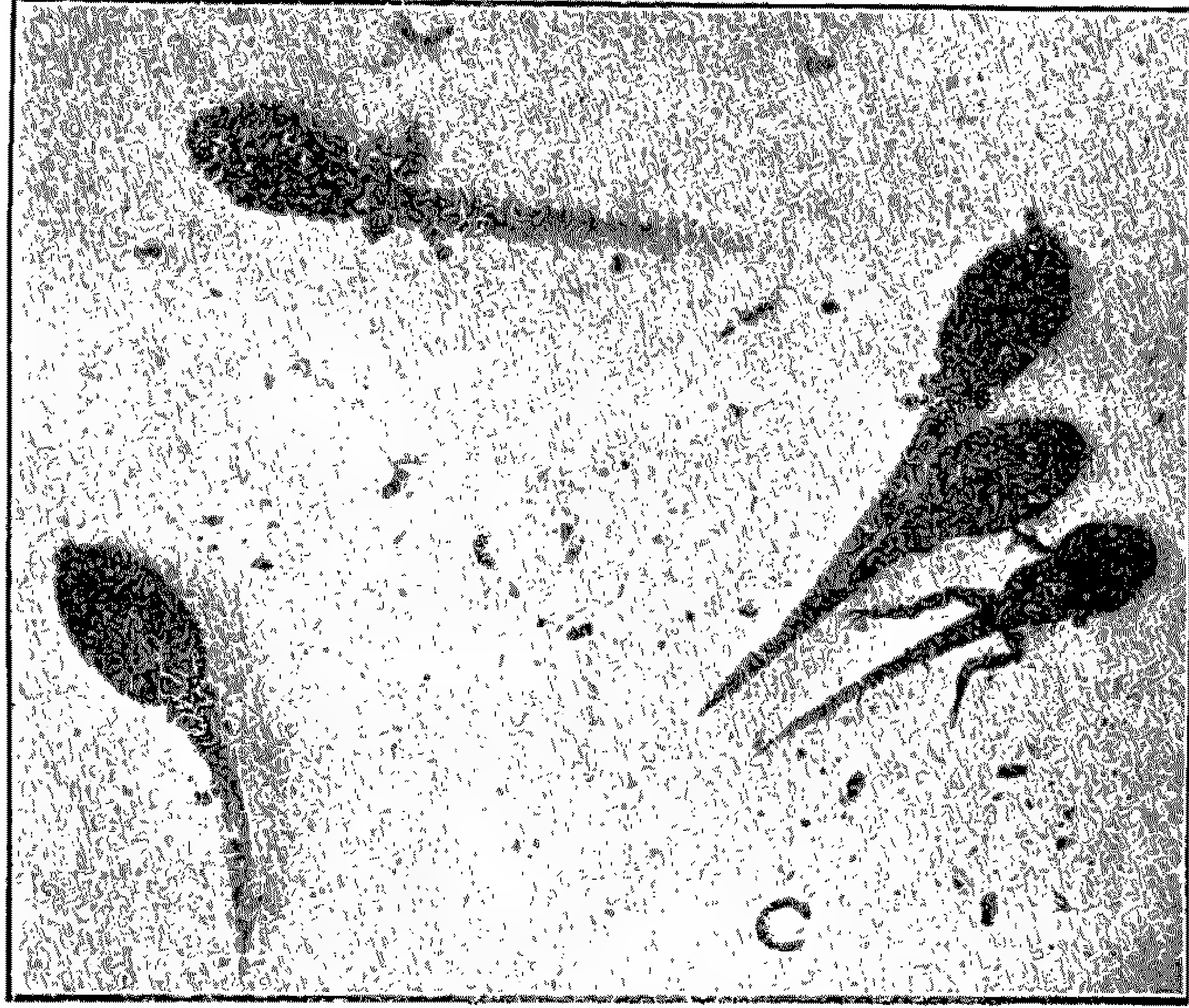
(شكل ٢أ — أبو ذنيبه وهو ذرية الضفادع)



(شكل ٣)

هاهوذا يحمل الكرة الهلامية التى تربى فيها كما كانت هى تحمله كأنها رافعة ترفعه إلى أعلى حينما يشتدّ ثقل الماء ، ولقد كانت لها فائدة أعظم ، وهى أن طعمها كريه فلا تكون الصغار عرضة لأكل الحيوان ، ومن أعجب العجب أن هذه الكرات الهلامية يتخللها نباتات ميكروسكوبية لاتراها العيون المجرّدة أى [ذرّية] يخرج منها اكسوجين ، وفيها حيوانات ميكروسكوبية لاتراها العيون ، وهذان يكفلان تحليل هذه الكرات الهلامية (انظر شكل ٣ و ٤)

[إن أباذنيبة الذى خرج من البيضة حديثا لايزال ينمو ، ولذلك لايزال فمه مقفلا ، والعينان اللتان لاتزالان تنموان فى الرأس لم تصلا الى الجلد ، وهناك فيه غدة من الأسمنت بها يلتصق أبوذنيبة فى حشائش البحر متى أراد]



(شكل ٤ ــ أبو ذنيبة الكبير)

حينما يكون أبوذنيبة ابن شهرين تظهر أعضاؤه ، وهذه الصورة الشمسية تريك الدرجات المختلفات فى ظهور الاعضاء زوجا واحدا ، فترى هذا ظهر له زوج واحد من الاعضاء ، وذلك ظهر له زوجان ، والذيل ذو العضلات وظيفته أنه أشبه بسكان السفينة [الدفة] .

وفى هذه السن لايزال [أبوذنيبة] يتنفس بواسطة خياشيمه على طريقة السمك ، وهذه الخياشيم مختفية تحت الأغشية المغطية له ، ولكن تلك الصغار مع ذلك تعلمت كيف تستعمل رئتها وتجتذب النفس من الهواء فوق سطح الماء ، فهى إذن أشبه بسمك الطين الذى يتنفس بطريقتين معا ، فهو فى الماء يتنفس بخيشومه وفى الطين يتنفس برئته . انتهى وبهذا تم الكلام على النوع الأول من الضفادع .

النوع الثانى

الضفادع المسماة بالفرنجية [تود] وبالعربية [ضفدع البر]

(انظر شكل ٥ و ٦ و ٧ و ٨)

(شكل ٥)

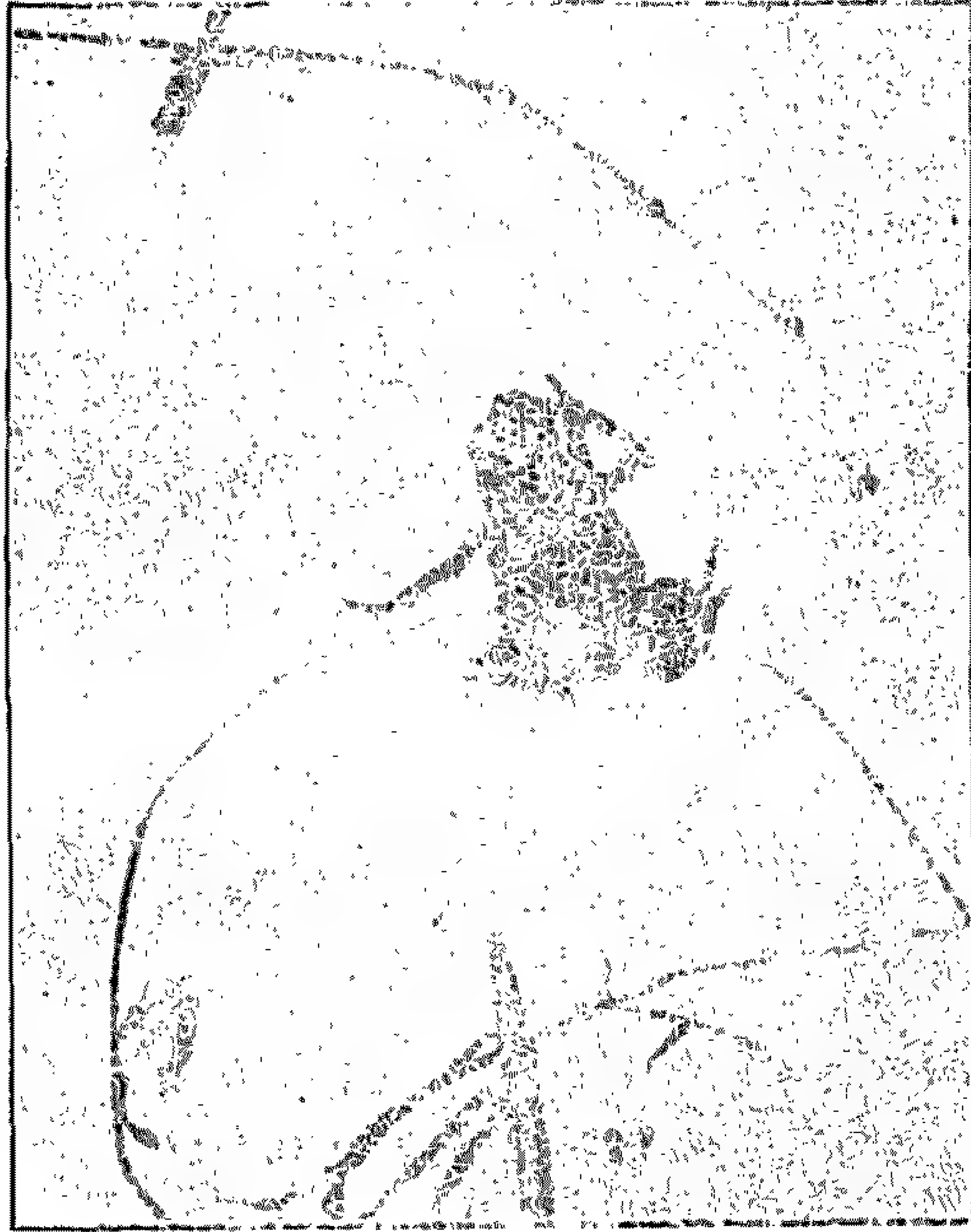


(شكل ٥)

[بيض ضفادع البرك ، وهو مكوّن من صفوف مزدوجات ، وقد لصق بكل صف خيوط هلامية تبلغ عشرة أقدام طولا]



(شكل ٦ — أبوذنيبة ارتفع الى وجه البركة)
وهذه قد خرجت من بيضها منذ ١٤ يوما



(شكل - ٧)
رسم الضفدعة التى نمت وكبر حجمها فى سن ثلاثة أشهر



(شكل ٨)
[ضفدعة تم نموها ، وقد ظهر جلدها الثخين ، وهكذا غدتها ذات السم الناقع ، موضوعة تماما خلف عينها]

وبهذا تم الكلام على النوع الثانى من الضفادع والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحبي ذلك ، ونظر هذه الصور قال : هـذا أمر جميل و بديع وعجيب ، ولـكنى أسألك ثلاثة أسئلة : أوّلا لم لم تـكتب هذه المعجزة فى الطبعة الأولى ؟ ولم تأت بأسرار الحروف إلا فى أوّل [آل عمران] ، ثانيا : كيف غاب هذا عن المسلمين ١٤ قرنا ولم يظهر إلا الآن ؟ ثالثا : بأى العلوم المعروفة يكون هذا الاعجاز؟

فقلت : أما السؤال الأوّل فانى أقول انه لم يفتح علىّ بهذه المعجزة فى الطبعة الأولى ، وأما جواب السؤال الثانى فانى أقول : ان هـذا هو الزمان اللائق لهـذه المعجزة لأمرين : الأمر الأوّل أن العلوم كثرت فى هذا الزمان الأمر الثانى : أن المسلمين اليوم أحاطت بهم الأمم وقد ملئت الأرض بالعلوم وكشف كثير من عجائب الدنيا ، فهذه المعجزة ظهرت اليوم لانهاض الأمم الاسلامية ، لأن هذا أوانه . وأنا أقول : بعد ظهور هذا السر وقراءته فى هـذا التفسير لن ينام أذكياء المسلمين ، ولن يهنأ لهم طعام ولاشراب ولاحياة إلا بالعلم وكشف حقائق هـذا الوجود ، وسيظهر فى أمم الاسلام رجال لانظير لهم فى أسلافهم ، ولافى الأمم المحيطة بهـم ، ومن يعش يره .

ألم تر أن الله جعـل فى ملوك الاسلام فى القرون المـاضـية من انتفعوا بحروف [ا ل م] لحقنت دماء المسلمين بها ، وذلك فى خبر السلطان محمود الغزنوى الشهير ، إذ بعث الى الخليفة يطلب أن يذكر اسمه فى الخطبة ببغداد ، و ينقش اسمه فى سكة الذهب والفضة ، فامتنع الخليفة من ذلك ، فبعث إليه كتابا فيه تهديد ووعيد ، قال فى جملته : « لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » ، فبعث اليه الخليفة كتابا مختوما ، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلا ألفا ممدودة وفى وسطه ل وفى آخره م والصلاة والحمد لله فحار السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم أبو بكر القهستانى ، ففكر فى ذلك وقال عندى شرحه فقال : اذكر ولك ماتريد . فقال : « بعث اليهم السلطان يهدّدهم بالفيلة فبعثوا له هذا الـكتاب وفيه (أ) و (ل) و (م) اشارة الى قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » الى آخر السورة ، فارتاع السلطان لذلك ، ووقع فى قلبه الخوف والندم ، وعاد الى أحسن الأحوال من الرضا والأدب .

اذا علمت هذا أيها الأخ فلتعلم أن القرون المـاضية كانت ممهدة لمـا كتبناه اليوم من هذا السرّ فلم تذهب تلك القرون سدى ، بل هم ممهدون لنا ، وعلينا نحن أن نعمل لمن بعدنا ، و بسبب أمثال هذه الاسرار استحق القرآن أن يقال فيه : « قل لئن اجتمعت الانس والجنّ على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لايأتون بمثله » .

وأنا أقول : من ذا يقدر من البلغاء أن يأتى بكلام فيه سرّ كسرّ (ا ل م) فى أول البقرة الذى مضت القرون والناس لايعلمون ما كنز فيها من العلوم حتى وضحت فى هذا التفسير الآن بمعاونة العلوم القديمة والحديثة

وأما الجواب على السؤال الثالث فذلك أن هذا من باب المعانى والاشارات الرمزية ، وهى من الـكناية والـكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه ، وهى أنواع كثيرة ، وقرينة هـذه الـكناية أننا فى زمان انتشار العلوم ، والـكناية من علم البيان كأنه يقال : تأمّلوا فى الآيات التى فى حيز [ا ل م] أعنى أن القارئ حينما يقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم ا ل م » فى البقرة يفكر حالا فى كل جملة تقع بعد هذه الحروف فيجد عجبا عجيبا مدهشا ! يجد « ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » وهـذه فى موضوع آية النسخ ، والنسخ أسراره تقدّمت وهى مدهشة ، ويجد : « ألم تر الى الملأ » كما تقدّم ، ويجد : « ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه » ويجد : « أولم تؤمن » فيجد إذن نفسه فى جوّ من أجواء نظام الأسرة ونظام الأمة ونظام الطبيعة .

هذا جواب ماسألتنى عنه ، فقال : لقد رأيت منه عجبا ! وشرحت صدرى ، وفتح الله لى كنزا من العلوم لم أكن لأحلم به ، فانى الآن يخيل لى أن قرّاء القرآن فى المستقبل سيكونون أعلم الأمم بنظام الأمم ، و بسرّ الـكون ، فان [ا ل م] فى أوّل البقرة التى جاءت بعد مدخل القرآن وهى الفاتحة تشير الى هذه العلوم التى

تحيط بالمسلمين وهم لا يشعرون ، ومن هذه يبحث القارئ فى كل معنى يجىء فى حيز [ا ل م] ولو كان فى غير سورة البقرة مثل : « ألم تر الى ربك كيف مدّ الظلّ » الخ وهكذا ، فهذا أعجب العجب ، فقلت له : الحمد لله رب العالمين .

تفصيل الكلام على بقاء الروح من هذه الآية

اعلم أن بقاء الروح فى الدين سمعى لابرهان عليه ، وانما للرسل معجزات تقنع تابعيهم أنهم مبلغون عن الله ، ثم بعد ذلك مايقولونه عن الله يكون مقبولا ، فكل ماجاء عن الرسل يقبله أتباعهم بلا نكير ، ولكن من الأتباع من لا يكتفى بالتقليد والسماع ويريد أن يقف على الحقائق بنفسه ، ويقول لى عقل فلم خلق ؟ هل خلق للاتباع بلا بصيرة ولافكر ، فلذلك لم يترك الدين هنا الناس فى حيرة فجعل على العامّة التقليد ، وأما الأذكياء فسبيلهم النظر ، واذا فرطوا فى نظرهم أثموا كما يأثم العامّة لوحاولوا الاستقلال بالرأى فى الدين الذى لايطيقونه ، فما نصبه الله للخاصة والأذكياء فى القرآن أمثال هذه القصة فتجد أن ابراهيم الخليل مأمور بالتحايل فذبح الطيور وفرقها ، ثم دعاها فجاءت ، واعلم أن هذا فتح باب للبرهنة على بقاء الأرواح ، والقول وان كان فى ظاهره للعامة فهو فى باطنه للخاصة .

البرهان على بقاء الأرواح

إما بالنظر العقلى ، و إما بعلم الأرواح

أما النظر العقلى فى ذلك ، ففيه طرق ثلاث

الطريقة الأولى : ماذكره ابن مسكويه فى كتابه تهذيب الأخلاق اذاستدل على بقاء الارواح بانها بسيطة قائلا : إن الروح ليست جسما ولاعرضا فى جسم ، ذلك أننا نرى أن الجسم لايقبل الاصورة واحدة ولا يكون قابلا لصور كثيرة فى آن واحد فلن يقبل التربيع وهو مثلث ولاالتخميس وهو مربع بل لايقبل صورة ويلبسها حتى يخلع الاولى ولن يقبل التثليث الااذا بطل منه التربيع هذه طبيعة الأجسام ، أما النفوس فانانراها على خلاف ذلك نرى أننا نتصور الأحمر والأخضر والأصفر والأزرق والمثلث والمدوّر والمربع والطويل والقصير والأعلى والأسفل والجميل والقبيح وكل ذلك يجتمع عند العقل مخزون فيه وفوق ذلك نعرف ونتصوّر علوما كثيرة والجسم لاطاقة له إلا بشىء واحد ومتى خلعه لبس غيره ، وأيضا نرى العقل كلما انغمس فى الماديات ابتعد عن المعقولات وكلما زهد فيها وعفّ عنها اقترب من المعقولات ، وأيضا نرى الانسان كلما زاد فى طعامه وشرابه كرهه الناس واحتقروه ، أما الذى يزيد علما فهو محبوب ، وأيضا نرى أننا اذا نظرنا بأبصارنا وهى من الآلات الجسمية الى عين الشمس حصل لها الكلال وضعفت قوّة ابصارها ، فأما إذا نظرنا بعقولنا فى المسائل العويصة فانها تكون سبيلا لقوتنا على فهم ماهو أسهل منها وذلك كله دلائل أن النفس من طبيعة تخالف المادة فهذه تقبل المختلفات والأخرى لاتقبل ، وهذه تحب الزيادة منها وهذه تكره ، وهذه اذاشغلت بما هو أقوى زادت قوّة والأخرى تضعف ، فهذه وأمثالها دلائل أنهما مختلفان فتكون النفس ليست من عالم الأجسام بل من عالم آخر بسيط غير مركب ، لأن الأجسام مركبة ، والذى يعقل ويحس فينا مخالف لها ، وانه لوكانت الروح مركبة لأمكن أن يكون جزء منها عالما والآخر جاهلا باعتبار أن المسألة قد قامت ببعضها وتركت البعض الآخر لأنها مركبة وفى هذا اجتماع النقيضين علم وجهل وهو محال ، هذا ما أذكره من أدلته فى أوّل الكتاب ، ولست أذكر هذا على أنى قائل أن هذه البراهين كلها قطعية ، وإنما ذكرتها لتعلم أيها الذكى

طريقته فى الاستدلال لمناسبة مسألة الخليل والطير وتقطيعه وأن ابن مسكويه قارن ما بين الروح والجسم وحلل تحليلا علميا ، وسترى فيما بعد التحليل الجسمى لغيره . واعلم أن طريقة ابن مسكويه أشبه بطريقة (سقراط) الفيلسوف الشهير إذ قال : ان النفس جوهر غير مرئى ، فيلزم أنه على غير طبيعة الأجسام ، لأن من طبيعة الجسم أن يكون مدركا باحدى الحواس ، و إذا كانت على غير طبيعة الجسم فهى اذن غير مركبة ، لأن التركيب من طبيعة الأجسام ، واذا كانت بسيطة فانها غير قابلة للانحلال ، لأن الانحلال يردّ المركب إلى المواد التى تركب منها ، فاذا كانت النفس بسيطة لم يتصوّر انحلالها ، وقال أيضا ان النفس هى الآمر والبدن هو المأمور ، فمن طبيعة الامور الالهية أن تكون آمرة ومتصرفة ، ومن طبيعة الأمور السفلية أن تكون مأمورة ، فالنفس إذن من الأمور الالهية وهى غير قابلة للزوال ، فهى إذا بقيت على صفائها وفطرتها من غير أن تشارك البدن فى أدناسه ، فانها تلتحق بعد الموت بموجود مثلها ، فتبقى معه سعيدة مبتهجة محرّرة من أوهامها وأخوافها وكلّ ما كان يسخرها ، ويهوّش عليها إذ كانت فى قيد الحياة ، واذا تركت ملوثة مدنسة غير معتقدة من الوجود إلا ما يؤكل و يشرب و يلبس و يدرك بالحس ، فلا يسعها إلا أن ترجع الى حياة مشابهة لطبيعتها انتهى باختصار ماذكره ابن مسكويه وما يشابهه من مقال سقراط .

الطريقة الثانية : ماذكره العلامة ابن سينا فى كتاب الاشارات مستدلا على أن النفس غير البدن بما ملخصه : ان الانسان يعلم بوجوده وان كان غافلا عن جميع أعضائه ، والمعلوم وهو ذاته مغاير لما ليس بمعلوم فتكون ذاته غير جسمه ، وهى التى يعبر عنها بلفظ أنا . ألا ترى أن الانسان لو قطعت يداه ورجلاه وسلخ جلده ، فانه لايزال يقول أنا ، فلماذا يشير ؟ أيشير إلى أعضائه الباطنة : كالقلب والكبد والطحال والرئتين كلا فان هذه لاتعرف الا بالتشريح ، وقد فرضناه غافلا عن كل هذا وعن التشريح وعن كل شيء إلا نفسه . ولقد أطال فى ذلك وتبعه شراحه فلا نطيل بما ورد من اعتراض وجواب ، وإنما أتينا بما يفيد الغرض . وعلى ذلك ثبت عنده بهذا أن المعبر عنه بأنا غير الأعضاء الظاهرة والباطنة ، بل هو شيء غير الجسم ، وهو المطلوب .

الطريقة الثالثة : طريقة ابن الطفيل فى كتابه الذى سماه [حىّ بن يقظان] فقد جعل موضوع الكتاب أن فتاة ألجئت أن تودع ولدها الحديث الولادة فى جزيرة خضراء ، فعطف على ذلك الغلام غزالة وأرضعته سنتين ، وصار هو يراها أمه و يقلدها فى بغامها وغدوّها ورواحها ، ولما ترعرع أخذ يقلد الحيوانات ، و يستتر بالورق ، و يتحلى بفروع الشجر ليظهر بالأبهة أمام الحيوانات الكاسرة ، و يستعين بالقرون فى المناطحة والمقاتلة

ولما كبرت أمه الظبية أخذ يحضر لها الفواكه من الأشجار و يعطف عليها ، وهو فى ذلك كله يقلد طوائف الحيوانات فيما هو الأحسن والأنفع ، وهو فى أثناء ذلك ينظر فى أنواع الأشجار والزرع والثمر والحب وأنواع الحيوان ، و يقارن بين نفسه و بينها ولم يفكر فى أمر الروح الا عند ما رجع مرة فرأى أمه الظبية جثة باردة ، فأخذ يحركها فلم تتحرك ، وأخذ ينظر فى عينيها وفى أذنيها عسى أن يجد فيها تلك التى كانت تعطف عليه ، ثم أخذ يشرح جثتها قائلا فى نفسه إذا لم أجد حبيبتى العاطفة علىّ فى ظواهر جسمها فعسى أن أجدها فى باطن الاحشاء ، فأخذ يشرح القلب والكبد والطحال والحالبين والمعدة والأمعاء والعروق والشرايين والرباطات والاعصاب والمخ والمخيخ والفقرات الظهرية وأعصاب الحس وأعصاب الحركة المتفرعات منها الواصلة الى سائر الجسد الموصلات جميع ما تشعر به الحواس الى المخ ، ثم تكون هناك الاوامر الصادرة الى الاعضاء جارية فى أعصاب الحركة لتسخر الاعضاء فى الطلب تارة والهرب أخرى على مقتضى الأوامر الصادرة من المخ ، فلم يجد فى جميع هذا الجسم المختلف الاعضاء والاحوال لتلك الحبيبة أثرا ، ثم لمح بعض الدم فى باطن القلب

فقال ان الحبيبة التى كانت هنا تعلقت بهذا الدم لما كان جاريا قويا ساريا فى الجسم ، ولست أرى أن الدم هو الروح كلا ، فانى أرى أن الروح كانت حاكمة عليه ، وهو القائم بايصال الغذاء إلى سائر الجسد ، ثم أراد أن يجرب هذه النظرية ، فعمد إلى حيوان وانقضّ عليه وهو يجرى واصطاده إذضربه بالقرون التى جعلها عدته ، فلما خرّ صريعا شق صدره واستخرج قلبه ، فرأى الدم حارا وله بخار لطيف ، فقال فى نفسه ان حبيبتى كانت سارية فى هذا البخار اللطيف الدموى ، وهو يسرى الى الحواس والاعضاء مع الدم ، لأن هذا البخار لطيف ، وهو قريب من العالم الروحى اذهو ذومزاج لطيف ، ثم رفع طرفه الى النجوم والشمس وقال : ان هذه الأجرام بينها و بين حبيبتى علاقة ، وان حرارة القلب تصلح لتعلق الروح بها ، ولعل هذه السموات لها مدبر ، ولعل ذلك المدبر جعل للحرارة أثرا فى الحياة ، وهكذا أخذ يفكر أفكارا فيها بعض الحقائق كما أن فيها كثيرا من الخيال الذى يبدو للناس فى أول نظرهم ، وأخذ يبحث حتى قال : لعل حبيبتى لما رأت هذا الجسم لايصلح مستقرا لها توجهت الى هذا العالم العلوى المتلألئ الجميل ، ولابدّ أن تكون هذه الروح بسيطة : أعنى لاجزء لها ، والذى لاجزء له لايفنى ، لأن الفناء يكون بتحليل الأجزاء فى المركب ، والروح لاجزء له فلا فناء له ، هناك أخذت روحه تفكر فى العالم العلوى الذى ظنّ أمه وصلت اليه ، وقال عسى أن يكون الذى أجرى هذه الكواكب قد استودعت تلك الروح عنده ، وأنه هو نفسه خير منها ، بل هو الذى ينبغى أن أسعى للقائه ، ثم نظر فقال إن هؤلاء الحيوانات اخوانى ، وهذا النبات خلقه الله لنا ، فعلىّ أن أرعى هذه المخلوقات ، و يظهر أنى خليفة ذلك الخالق عليها ، و إذن أنصر المظلوم وأنفع كل محتاج ، وتكون لى شفقة ورحمة ، لأن ذلك الذى ذهبت إليه أمى رءوف رحيم ، إنى أراه قد أكثر الماء فى الجزيرة والكلأ والفاكهة ، وجعل الحيوان آكلا النبات ، والنبات متغذيا بالعناصر ، وهو كثير الرحمة فلأقلده انه خلق أمى لأتعلم منها الحب والعطف ، وهو الرحيم فلأعطف على عباده ، ثم نظر الكواكب وعرف السموات على مقتضى ماعرفه القدماء ، ثم أخذ يخترع طريقا للعبادة ليقترب من ذلك الذى صنع السموات ، فدار على نفسه كما تدور الكواكب ظنا منه أن دورانها عبادة إلى آخر ماجاء فى ذلك الكتاب . أقول :

وانما ذكرت لك ذلك أيها الذكى لتعلم أن العلماء السابقين لم يكونوا نائمين ، بل ألفوا كتبا لايقاظ الأمة ونظروا فى العالم وضربوا الأمثال ، وكان هذا الكتاب أشبه بما جاء فى هذه الآية ، فان تحليل الطير على يد الخليل فى القرآن من النظر الى هذا العالم ، وأنا لا أقول : ان ابن الطفيل ألف الكتاب اقتباسا من الآية كلا هو ألفه بعقله وصفاء ذهنه ، وجودة قريحته ، ولكن أقول : ان مسألة الطير فى القرآن فتح لباب النظر من هذه الوجهة .

واذا كان كتاب كليلة ودمنة جاءت فيه الأمثال على لسان الحيوانات ، وكثير من الحكايات التى يتداولها المتعلمون ، وقد جعلت للعقلاء تذكرة ، وللحكماء تبصرة ، وللسوّاس فى الممالك عبرة ، وفيها من الدقة والحكمة والأخلاق والآداب مالا ينال غايته الاأولوا الألباب ، فبالاولى الكتب السماوية التى تنتشر بين العوام والخواص و يحفظها الصبيان ، فيقرءون مسألة الطير وهم فرحون ، فأما العالم فانه يرى فيها فتحا لباب النظر ومنفذا للحكمة ، ولقد جاء كتاب ابن الطفيل موافقا لما ذكرته لك ، ولقد جعل كتاب [روبنسون كروزو] وهى الرواية المشهورة الانجليزية على منوال هذا الكتاب ، ولقد انتشرت فى أوروبا ، وماسطرها مؤلفها إلا بعد ماقرأ كتاب [حىّ بن يقظان] كما قرأت ذلك فى بعض الكتب ، ولقد كان الفيلسوف [روسو] الشهير يذم الكتب وتعاليمها و يأمر الشبان أن يقرءوا هذه الرواية ومدحها مدحا كثيرا ، وقال انها تعلم الحرية الفكرية .

ولا شك أن كتاب [حىّ بن يقظان] أجلّ منها وان كانت هى منسوجة على منواله ، لأن قصة

[رو بنسون كروزوا] تعلم الاستقلال فى العمل والجد والاعتماد على النفس والمخاطرة فحسب ، وليس فيها عظيم عناية باتقان العلم ، هذا ما أردت شرحه فى الطريقة الثالثة ، الى هنا انتهت الطرق الثلاث للنظر العقلى .

وأما تحضير الأرواح فانى أحيلك على ما تقدم فى هذه السورة عند قوله تعالى « فذبحوها وما كادوا يفعلون » الى آخر الآيات ، فقد ذكرت هناك تاريخ هذا العلم فى أوروبا وأمريكا وانتشاره ، وقد طبقته على القرآن فى كتاب الأرواح ، والآن أذكر ماقلته فى هذا المقام عند وفاة المرحومة والدتى سنة ١٩١٨ وكتب فى جريدة الأخبار تذكرة لأولى العقول الشريفة .

جاء فى عدد يوم الثلاثاء ٢٨ شوّال سنة ١٣٣٦هـ ، ٦ أغسطس سنة ١٩١٨م ، ٣٠ أبيب سنة ١٦٣٤ تحت عنوان :

العلم والبدع وواجب العلماء

كتب الينا أحد الفضلاء يذكر مقال فلان فى وفاة المرحومة والدته من تجافى البدع ولزوم أوامر الدين وسنة السلف الصالح ، فرأينا أن ننشر كتاب هذا الفاضل مؤملين أن يعتبر بما فى الكتاب المذكور اخواننا المسلمون . قال حضرة الكاتب : منذ أيام توفيت والدة الشيخ طنطاوى جوهرى ببلدة كفر عوض الله حجازى بمركز الزقازيق فاجتمع أهل البلاد المجاورة لتشييع الجنازة ، وحضر الاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى وحضرة الاستاذ الشيخ عبد الحكيم القاضى بالمركز فوقف الشيخ طنطاوى مخاطبا من حضر من نساء قريته ، وقال لهنّ : معاشر السيدات أتطلبن منى أن أخاطب والدتى فى أذنها ايذانا باعلامها بحضورى فلتعلمن رعاكن الله أن أرواح الأموات لاتزال حية ، وأنها تسمع وتبصر وأن والدتى ترفرف روحها علىّ حيثما كنت اليوم إذ قت من القاهرة ولاتزال ترانى الآن .

ان علماء دينى أخبروا أن للميت علما بذلك ، ونحن بذلك موقنون ، فلتطمئن كلّ منكن على والدتى ولتعلمن أن للاموات علما ببعض أحوال الأحياء ، ومن ذلك أنهم يحزنون و يجزعون لبكاء أقاربهم عليهم فان كل امرئ إذا علم أن حبيبه يحزن لأجله و يرقّ له يودلو يخفف من لوعته و يكفكف من دمعته و يقلل من حسرته و يكشف من غمرته ، وربما يشير إلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « ان الميت ليعذب ببكاء أهله عليه » ، ولقد علمنا من بعض أهل الاطلاع المغرمين بتلك العلوم أن هذه حقيقة ناصعة كشفها العلم الحديث ، واطمأنت لها النفوس تصديقا لكلام النبوّة وتحقيقا للمعجزة النبوية .

ولقد كان ﷺ يعاهد النساء أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنّ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولا يعصينه فى معروف ، ولا يبكين على ميت ، فقالت إحداهنّ يارسول الله لا أعطيك عهدا حتى أذهب إلى فلانة فأسعدها بالبكاء كما بكت هى على قريب لى فأباح لها ذلك فقالت : أعاهدك يارسول الله ولم أبك بعدها على ميت ، ثم أتى الشيخ إلى احدى السيدات ، وقال لها : ألم ترى أن أهل مكة لايبكين على ميت ، فقالت انهنّ لايبكين بل يحنين أيديهنّ ، و يلبسن الأبيض فقال الشيخ : ان هؤلاء مسلمون ، ونحن متبعون فى ذلك عادات الجاهلية الأولى ، لماذا تبكى الواحدة منكن على أخ أو والد أو حبيب ؟ وهى فى الحقيقة تعذبه بالبكاء ، يانساء قريتى اتبعننى أهدكن سبيل الرشاد ، اتبعننى واتركن البكاء إلا ما كان من دمعة جرى بها القضاء فلا بأس ، فقالت إحداهنّ : يا ابن أختى نحن نعاهدك كما عاهد النساء النبىّ ﷺ ، فسكتن جميعا واستبشرن وفرحن وانشرحت صدورهنّ ، فقال الشيخ لهنّ : شرح الله صدوركن ، فلقد ماتت إلى الدين ، وسيكون لوالدتى ثواب بعض هذا ، فقال النساء بلسان واحد

عاهـدناك على ذلك مالم يغلب البكاء ، وكان الشيخ إذذاك يتصبب عرقا ، فقالت احداهنّ : كفى كفى فان سفرك فى الحرّ ومفاجأتك بالفاجعة ، ووقوفك بيننا كل ذلك أتعبك ، فقرّ عينا وانشرح صدرا ، واسترح انتهى المقصود منها . هذا ، ولما فرغ من الكلام على نظام التوحيد ، وماتبعه أعقبه بالكلام فى القسم الثانى ، وهو الانفاق ، وهذا هو :

(المقصد الثامن عشر)

مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَٱلْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ * وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * إِنْ تُبْدُوا ٱلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *

ايضاح قد دخل فيه التفسير اللفظى

أى (مثل) نفقة (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة) يخرج منها ساق يتشعب منها سبع شعب لكل شعب منها سنبلة فيها مائة حبة .

واعلم أن التمثيل بالحبة ليس يلزم منه وقوع الممثل به ، وقد وجد نحو ذلك فى الذرة فى العصر الحاضر وربما يكون فى القمح وفى الدخن فى الأرض المغلة (والله يضاعف) هذه المضاعفة (لمن يشاء) من المنفقين على حسب الاخلاص وكماله (والله واسع) الفضل لاضيق فيما يتفضل به (عليم) بنية المنفقين (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ماأنفقوا) بعد النفقة (منا) بان يعتد على من أحسن إليه باحسانه (ولا أذى) وهو أن يتطاول عليه بسبب ماأعطاه (لهم أجرهم عند ربهم) أى ثواب انفاقهم (ولاخوف عليهم) من بخس الأجر (ولاهم يحزنون) من فوته ، ثم أفاد أن الرد الجميل والتجاوز عن سائل الحاجة (خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى) عن انفاق بمن وأذى (حليم) عن معاجلة من من يمن و يؤذى بالعقوبة ، ثم قال (ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا) أجر (صدقاتكم بالمن والأذى كـ)ابطال المنافق (الذى) يرائى بانفاقه فمثل المرائى فى انفاقه كمثل حجر أملس (عليه تراب فأصابه) مطر عظيم القطر (فتركه صلدا) أملس نقيا من التراب (لايقدرون على شىء مما كسبوا) لاينتفعون بما فعلوا رياء ولايجدون لهم ثوابا فيه (والله لايهدى القوم الكافرين) إلى الخير ، ثم قال (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ، وتثبيتا من أنفسهم) أى تحقيقا للجزاء صادرا من أصل أنفسهم ، والجنة البستان ، والربوة الموضع المرتفع وشجره يكون أحسن منظرا ، وأذكى ثمرا ، والوابل المطر العظيم القطر ، و (آتت أكلها ضعفين) أى آتت مثلى ما كانت تثمر بسبب الوابل ، فالضعف هنا المثل ، والطل المطر الصغير القطر . والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله ، وان كانت تتفاوت قلة وكثرة كما أن الجنة تؤتى ثمرها ضعفين سواء أكان المطر وابلا أوطلا لجودة تربتها وحسن منبتها (والله بما تعملون بصير) هذا تحذير من الرياء ، وترغيب فى صفة الاخلاص ، وقوله (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت) الاعصار ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كالعمود . شبه حال المرائين فى الانفاق بحال رجل له جنة فيها النخيل والأعناب وجميع الثمرات ، والأنهار تجرى من تحتها ، وقد أصابه الكبر ، وذريته ضعفاء صغار لاقدرة لهم على الكسب

فأصاب هـذه الجنة اعصار فيـه نار فاحترقت ، فهكذا المرائى قد ينفق الأموال الكثيرة العظيمة بلا نية صادقة ، فاذا جاء يوم القيامة ، وهو فى أشدّ الحاجة إلى الثواب ، وليس له ولىّ ولا نصير ولا شفيع لم ينل الثواب وحرم منه فى حال هو أحوج فيها إليه (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) ، ثم قال (يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا) تيمموا تقصدوا (الخبيث) الردىء (ولستم بآخذيه) أى وحالكم أنكم لا تأخذونه فى حقوقكم لرداءته (الا أن تغمضوا فيه) أى تسامحوا

يقول الله للمؤمنين : أنفقوا من طيبات مكاسبكم ، ومن الذى أخرجنا لكم من الأرض فانه خلقنا أنبتناه لكم وسخرنا الهواء والشمس والكواكب والماء والأرض و بعض الحشرات والدواب فى تنمية المزارع فليس لكم فيها الا أقل الاعمال ، فكيف تبخلون بها على عبادى ؟ فانا المخرج من الأرض ، وأنا المنمى للزرع وأنا الآمر بالانفاق ، هـذا هو الذى يحويه قوله « ومما أخرجنا لكم من الأرض » ثم قال ولا تقصدوا الردىء منه تنفقون كأن تعطوا الفقير الحشف وتصطفوا جيد التمر لكم ، وعن ابن عباس رضى الله عنـه ، كانوا يتصـدّقون بحشف التمر وشراره ، فنهوا عن ذلك فهلا عاملتم اخوانكم بما تعاملون به أنفسكم ولستم بآخذيه الاعلى طريق المسامحة (واعلموا أن الله غنىّ) عن انفاقكم ، وانما يأمركم به لتخرجوا من التعلق بحب المال الذى يهلككم ويحببكم فى هـذه الدار فتجزعوا عند فراقها (حميد) بقبول ماتنفقون واثابتكم عليه ، ثم قال تعالى (الشيطان يعـدكم الفقر) فى الانفاق و يغريكم بالبخل ، والعرب تسمى البخيل فاحشا (والله يعدكم) فى الانفاق (مغفرة) ذنوبكم (والله واسع) الفضل لمن أنفق (عليم) بانفاقه (يؤتى الحكمة) تحقيق العلم واتقان العمل (من يشاء ومن يؤت الحكمة ، فقـد أوتى خيرا كثيرا) فانه خير الدارين (وما يذكر) ومايتعظ بما قص من الآيات (الا أولوا الألباب) ذووالعقول الخالصـة من شوائب الوهـم والركون إلى متابعة الهوى (وما أنفقتم من نفقة) قليلة أوكثيرة سرّا أوعـلانية فى حق أو باطل (أونذرتم من نذر فان الله يعلمه) فيجازيكم عليه (وماللظالمين) الذين ينفقون فى المعاصى و ينذرون فيها أو يمنعون الصدقات (من أنصار) ، ثم قال تعالى (ان تبدوا الصـدقات فنعماهى) أى فنعم شيئا ابداؤها (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم و يكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير) ترغيب فى الاسرار ، والاسرار فى صدقة التطوّع أفضل من العلانية ، وكذلك صدقة الرجل الذى لم يعرف بالمال ، أما صدقة الفرض من غيره فاظهارها أفضل ، وعن ابن عباس صدقة السر فى التطوّع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا .

ولقد كان المسلمون يتصدّقون على فقراء أهل المدينة ، فلما كثر المسلمون نهى رسول الله ﷺ عن التصدّق على المشركين كى تحملهم الحاجة إلى الدخول فى الاسلام لحرصه ﷺ على اسلامهم ، فنزل (ليس عليك هداهم) أى ليس عليك هداية من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لاجل أن يدخلوا فى الأسلام فحينئذ تتصدّق عليهم فأعلمه الله تعالى أنه انما بعث بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله باذنه ، فأما كونهم مهتدين فليس ذلك عليه (ولكن الله يهدى من يشاء) أى يهدى من يشاء هداية توفيق ، وأما هداية البيان فعليك فلما نزلت هـذه الآية أعطوهم وتصدّقوا عليهـم (وما تنفقوا من خير) مال (فلأنفسكم) فهو لأنفسكم (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) أى لاتنفقوا إلا ابتغاء وجه الله (وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم) أى ثوابه أضعافا مضاعفة (وأنتم لاتظلمون) لاتنقصون ثواب عملكم بالنفقة ، اعمدوا (للفقراء الذين أحصروا) أحصرهم الجهاد (فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض) أى لايستطيعون ذهابا فيها للكسب لاشتغالهم

بالجهاد

بالجهاد (يحسبهم الجاهل) بحالهم (أغنياء من التعفف) أى من أجل التعفف (تعرفهم بسيماهم) من الضعف ورثاثة الحال (لايسألون الناس الحافا) الحاحا . ونزل فى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه حين تصدّق بأربعين ألف دينار: عشرة بالليل وعشرة بالنهار وعشرة سرّا وعشرة علانية ، وقيل فى أميرالمؤمنين علىّ رضى الله عنه ، لم يملك الاأربعة دراهم فتصدّق بدرهم ليلا و بدرهم نهارا و بدرهم سرّا و بدرهم علانية (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّا وعلانية ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون) انتهى التفسير اللفظى .

مباحث هذه الآيات ثلاثة

(١) تلخيص هذه الآيات التى فيها أمثال المنفقين والانفاق (٢) علاقة هـذه الآيات بالحال الحاضرة وكيف قامت الاشتراكية فى العالم الانسانى ، وارتجت الأرض بسبب الأحوال المالية ، وكيف كان القرآن يدعو إلى العطف والمحبة العامّة ، وأن المسلمين أسرة واحدة والمال بينهم بمودّة ومحبة ، وما الذى يجب فيه الصدقة من المال (٣) أفضل عبادة المسلم التفكر فى الرياض والحقول والسموات .

المبحث الاول تلخيص الأمثال المذكورة فى الانفاق والمنفقين

هاهنا أربعة أمثال : مثل الحبة والسنبلات ، ومثل الحجر والتراب ، ومثل الحديقة ، ومثل البستان الذى احترق لما أصابته نار ، هذه أمثال ضربت لحال المنافقين والمخلصين .

يقول فى أوّلها ، وهو مثل الحبة والسنبلة : ياأيها الناس انما أموالكم كحبات ، فاذا أنفقتموها فى النفع العام ، وهو سبيل الله كتعليم أبناء الأمّة أخذ المتعلمون يزدادون بنسبة المضاعفات المطردة ، ونما عددهم وكان ثوابكم يوم القيامة تبعا لهذه النسبة أبدا وأمدا ، هكذا فى الصناعات والزراعات والسياسات ، وكل عمل تعملونه يزداد ثوابه بازدياد نموّه وارتقاء نتائجه ، فأما مثل الحجر والتراب فقد شبه المرائين ، وقد أنفقوا بمن وضعوا التراب على الحجر فعصفت به الرياح ، وذرته السافيات ، وطيرته الذاريات ، فلا نبات به يقوم ولاخير منه يرتجى ، فأما ثالث الأمثال فذلك مثل الجنة النابتة أشجارها بربوة فآتت أكلها ضعفين فان لم تغث بوابل فطلّ ، فهى أبدا مثمرة مزهرة ناضرة ، وذلك مثل المخلصين ، فأما رابع الأمثال فهو تهويل لحال القوم الذين يراءون ولايخلصون ، فهو أشد من الثانى اذشبه المرائى بصاحب جنة ذات أشجار ونخيل وقد أصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء ورجا خيرها فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت ، فهو بانفاقه الجمّ من المال يرجو عزة قعساء ، وفضلا واسعا ، فلما أن حرم من الاخلاص هدم بنيانه .

ولقد يكون الانسان فاضلا سابحا فى بحار الحكمة فيتخبطه الشيطان فيغويه فيضل سواء السبيل بعدأن غرس الحكمة وطفق يجنى ثمارها فانقضت صاعقة الشهوات فأذهبت الثمرات .

مطالب هذا القسم

لقد أدركت ماسلكه الله فى أوّل القسمين ، وهو التوحيد ، وقد فصله ثلاثة أقسام وحشر فى آخرها علوم الطبيعيات والتحليل والتركيب والصناعات ، فأما هـذا القسم فقدازدان بسبع جواهر نضرات و يواقيت باهرات ، وهى التعالى عن الرياء والايذاء وخوف الفقر بوعيد الشيطان ، وانفاق الخبيث واتباع الحكمة والانفاق على مدى الأيام والأحوال سرّا وجهرا ليلا ونهارا ، و بيان المنفق عليهم .

(١) فأما ترك الرياء فذلك واضح فى الأمثال المضروبة كمافهمت ، وأما الباقى فهو يقول :

(٢) أيها الناس إياكم أن تبطلوا الصدقات بالمنّ على المساكين وأذى الطالبين

(٣) وإياكم أن يخيفكم الشيطان بوعيده ويزعجكم بتهديده فيخيفكم من الفقر ويأمركم بكنز الأموال

(٤) والانفاق من الحكمة العملية

فالحكمة علم وعمل فمن أوتيها فقد نال الخيرات ورزق أعظم الثمرات ، وهل يذكر الا أولوا الألباب ألا وان الله يعلم صدقاتكم المعطاة ونذوركم المعقودة ، فأوفوا النذور .

(٥) ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون فانكم لاتأخذونه الا مغمضين ولاتقبلونه الا كارهين فعاملوا بما تحبون أن تعاملوا به .

(٦) فأعلنوا الصدقات وأخفوها ، فانها فى الحالين محمودة مطلوبة ، ولا يصدنكم الشيطان فتقولوا لاننفق خيفة الرياء ، فان ذلك ضلال مبين .

(٧) فأما سابعها فهم المنفق عليهم : كأهل الصفة ، وهم نحو أربعمائة من فقراء المهاجرين منعهم الجهاد فى سبيل الله ، وطلب العلم لايستطيعون ذهابا فى الأرض للكسب لانكبابهم على طلب العلم والغزو (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لايسألون الناس الحافا) أى الحاحا ، يقال أحفى فضل لحافه : أى أعطانى من فضل ماعنده .

المبحث الثانى

اعلم أن مسألة المال اليوم هى الشغل الشاغل للنوع الانسانى ، وترى الحرب الكبرى التى قلبت وجه الأرض لم يكن لها سبب الا المال ، فالنوع الانسانى بعد أن استعبده الملوك ، وقد خضدت شوكتهم وضعفت سلطتهم ، وأصبح الأمر شورى فى أغلب الممالك جاء له دور المال ، وصار هو الذى به تقوم الممالك وتقعد وله وحده قامت الحرب الحاضرة ، وانتهى ملك دولة القياصرة ببلاد الروس ، وقسمت الأرض على الفلاحين ، وأصبح البلشفية يأمرون الناس جميعا بالعمل وزلزت رؤوس الأموال زلزالها .

فانظر فى آيات القرآن كيف أمر بالانفاق وحضّ عليه وعلى الاخلاص فيه . البلشفية لايهمهم الاخلاص وإنما أخذوا الأرض نهبا من أربابها ، والقرآن يقول : ليكن المسلم مخلصا فى انفاقه شاعرا أن المال مال الله وأن الأرض لله ، وهو الذى أخرج النبات وأنماه وأثمره ، فليعطه للفقير اخلاصا لله لاخوفا من السيف ، فماذا يطلب القرآن ؟ يطلب مطلبا فوق ماتقوله البلشفية ، ولأقص عليك ماذكره الأمام الغزالى فى الاحياء :

قال : ان شرط تمام الوفاء بإفراد المعبود بالعبودية فى الشهادتين أن لايبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد ، فان المحبة لاتقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى ، وإنما يمتحن به درجة المحب بمفارقة المحبوب ، والأموال محبوبة عند الخلائق لانها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون من الموت ، والامتحان بأمرين : بذل النفس فى سبيل الله ، وبذل المال ، ولقد انقسم الناس فى بذل الأموال ثلاث فرق :

الفريق الأوّل : نزلوا عن جميع أموالهم ولم يدخروا دينارا ولادرهما وأنفوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم ، قيل لبعضهم : كم يجب من الزكاة فى مائتى درهم ؟ قال أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع ، ولهذا تصدق أبو بكر رضى الله عنه بجميع ماله ، وعمر رضى الله عنه بشطر ماله ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال مثله . وقال لأبى بكر رضى الله عنه ما أبقيت لاهلك ؟ قال الله ورسوله . فقال صلى الله عليه وسلم : بينكما مابين كلمتيكما .

الفريق الثانى : الممسكون أموالهم ، ولكن ينفقون الزكاة وغيرها ، وليس الانفاق خاصا بما جاء فى كتب الفقه بما سابينه قريبا كلا ، بل يجب اعانة المحتاج وذوى القربى وما أشبه ذلك غيرمافى الزكاة . وهذا مذهب النخعى والشعبى وعطاء ومجاهد ، فهؤلاء يوجبون صرف المال فى وجوه البر ، وفى مواسم الخيرات . ويحرم عندهم التنعم ، وما فضل عن مقدار الحاجة يصرف ، ويستدلون بقوله تعالى «ومما رزقناهم ينفقون» وقوله « وأنفقوا مما رزقناكم » قيل للشعبى هل فى المال حق سوى الزكاة ؟ قال نعم أماسمعت قوله عزّوجلّ « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى » الخ .

الفريق الثالث : أن يقتصر على أداء الزكاة المفروضة ، وهذا أقلّ المراتب . وهذا ملخص ماقاله الغزالى

ماقاله العلماء فى الزكاة الواجبة

زكاة النعم

ولا تجب هذه الزكاة ولا غيرها الا على مسلم حرّ . وزكاة النعم [الابل والبقر والغنم] تجب إذا كانت سائمة : أى ليست معلوفة ، بل ترعى فى المراعى المباحة ، فأما إذا ظهرت الكلفة فى مؤنتها بان علفت وقتا وسيمت وقتا ، أو علفت دائما فلا زكاة فيها ولابدّ أن يحول عليها الحول فى ملك المالك ، ويشترط أن يكون مطلق التصرف فى ماله ولابدّ أن يكون نصابا ، والنصاب فى الابل أقله خمس وفيها جذعة من الضأن والجذعة هى التى تكون فى السنة الثانية ، أوثنية من المعز وهى التى بلغت السنة الثالثة ، وفى عشر شاتان ، وفى خمسة عشر ثلاث شياه ، وفى عشرين أربع شياه ، وفى خمس وعشرين بنت مخاض من الابل ، وهى التى فى السنة الثانية ، وهكذا :

وأما البقر فلاشئ فيه حتى يبلغ ثلاثين ففيها تبيع ، وهوالذى فى السنة الثانية ، ثم فى أربعين مسنة ، وهى التى فى السنة الثالثة ، ثم فى ستين تبيعان ، واستقر الحساب بعد ذلك ، ففى كل أربعين مسنة ، وفى كل ثلاثين تبيع .

وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أوثنية من المعز ، ثم لاشئ فيهاحتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ، ففيها شاتان إلى مائتى شاة وواحدة ففيها ثلاث شياه إلى أربعمائة ففيها أربع شياه ، ثم استقر الحساب فى كل مائة شاة .

زكاة الركاز والمعادن

الركاز دفين الجاهلية ، وقدوجد فى أرض لم يجر عليها ملك لمسلم ، فعلى واجده فى الذهب والفضة الخمس ، أما المعدن ففيه ربع العشر ولا يكون إلا فى الذهب والفضة .

زكاة الذهب والفضة

وتكون الزكاة فى الذهب والفضة إذا ملكهما الانسان حولا كاملا ، وكان الذهب عشرين مثقالا ، وكانت الفضة مائتى درهم وفيها ربع العشر ، وهو نصف مثقال فى الذهب ، وخمسة دراهم فى الفضة .

زكاة التجارة

وزكاة التجارة كزكاة النقدين ، وإنما ينعقد الحول من وقت ملك النقد الذى به اشترى البضاعة ، وتقوّم عروض التجارة عند آخر الحول بما اشتريت به . وقال داود الظاهرى : لاتجب الزكاة بحكم التجارة

فى العروض إلا أن ينوى به التجارة فى حال تملكه .

الزكاة فى الزرع

أوجب أبو حنيفة الزكاة فى كل مايقصد من نبات الأرض كالفواكه والبقول والخضراوات كالبطيخ والقثاء والخيار ونحو ذلك .

وجمهور العلماء أوجبوا الزكاة فى النخيل والكروم ، وفى كل مايقتات به ويدخر من الحبوب ، ويجب اخراج العشر فيما سقى بالمطر والأنهار والعيون ، ونصف العشر فيما سقى بنضح أو سانية ، والسانية هى التى يسقى عليها سواء أكانت من إبل أو بقر أو غنم .

ولايجب العشر فى الثمار والزروع حتى تبلغ خمسة أوسق ، والوسق ستون صاعا . وقال أبو حنيفة : يجب العشر فى كل قليل وكثير من الثمار والزروع . وأجمع المسلمون على أن الزكاة لاتصرف إلا للمسلمين وهم المذكورون فى [سورة التوبة] . وجوّز أبو حنيفة صرف صدقة الفطر الى أهل الذمة ، وخالفه سائر العلماء ، وأما قوله تعالى : « وماتنفقون إلا ابتغاء وجه الله » التى وردت فى التصدّق على المشركين كما تقدم فانما هى فى التطوّع لافى الزكاة المفروضة ، فصدقة التطوّع تصرف لفقراء المسلمين وفقراء أهل الذمة .

صدقة الفطر

هى واجبة على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليلته صاع مما يقتات ، ويخرجه من جنس قوته ، أومن أفضل منه ، ويجب على المسلم فطرة زوجته ومماليكه وأولاده ، وكل قريب تجب نفقته عليه من الآباء والأمهات والأولاد اه

هذه هى الزكاة ، وهذه آراء العلماء فى الانفاق ، فانظر كيف أوجب بعضهم صرف جميع المال ، وبعضهم أوجب صرف مافضل عن الحاجة ، وهذان المذهبان الاسلاميان أعلى مايتصوّره العقل البشرى ، والانسانية اليوم يعوزها عقول ترقى المدارك البشرية حتى يرى العالم والطبيب والمهندس وعالم الدين أن الناس اخوته ، فليبذل نفسه لهم وجميع أعماله .

فعلى الناس أن يبذلوا مواهبهم فى سبيل المنفعة العامّة ، ويستخرجوا جميعا خيرات الأرض ، وخيرات الصناعة والزراعة ، فاذا عجز أحدهم ، وهو مجدّ فى عمله عن قوته وجب اعانته ، وليكن ذلك بصدق واخلاص وليكن الآخذ مجتهدا لا كاسلا نائما ، والاحزم ، وهذه التعاليم ان أظهرت فى الاسلام نكون أرقى أمة فى الارض . أوليس من العجائب أن يقوم [تولستوى الروسى] الشهير فعرض أرضه على المزارعين وهى تعدّ بعشرات الآلاف من الفدادين . كيف يظهر فى أوروبا نابغون فى العلم وفى الاحسان ، والمسلمون نائمون . اللهم ارفع شأن علمائها وعقلائها حتى يرفعوا مستواها ، انك أنت السميع العليم .

المبحث الثالث

أفضل عبادة المسلم التفكير فى الرياض والحقول والبساتين

من لى بأن يسمع المسلمون صوتى فى أقاصى البلاد ، من لى بان ينظر أبناء العرب والترك وأهل الهند والصين والجاويون والسودانيون مقاصد القرآن ، ووجهته التى تربى العقول والنفوس ، وترفع مستوى الانسان الى مصاف الملائكة ، وأن يكون المسلمون خلفاء لله على عباده رحماء ، لاضعفاء جبناء ، لا تتخطفهم الأمم

من

من كل جانب . انظروا أيها الاخوان ماجاء فى القرآن من الأدلة وأنواع التشبيهات تروها نحو المشاهدات المحسة وعلوم الطبيعة :

(١) فان أمر بالعبادة قال فى سورة البقرة : « الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » ووصف انزال الماء ، واحياء الحقول والبساتين والثمر والحب والكلأ .

(٢) وان استدل على التوحيد قال فى سورة البقرة : « إن فى خلق السموات والأرض » الآية ، وأخذ يشرح اختلاف الليل والنهار ، وسير الفلك فى البحر ، والسحاب والمطر والنبات .

(٣) وان طلب منا الشكر قال : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » فليكن الشكر على تسخير البحر والسمك والدر والمرجان والسفن الجاريات فيه .

(٤) وان ذكر الحكمة والحكماء والعلم والعلماء قال : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء » فجعل الخشية والعلم يرجعان للنظر فى الألوان والأشكال فى الانسان والحيوان والجبال والدواب ، فانظر كيف نام المسلمون .

(٥) وان ذكر اليوم الآخر واستدل على البعث قال : « يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة » يذكر خلق الانسان من تراب يصير نباتا وحيوانا بالزرع والتغذية منه فيكون دما فلحما أوورقا وثمرا لتغذية الحيوان بالزرع ، والزرع يغتذى من عناصر الأرض وهو التراب ، ثم يكون نطفة فعلقة فمضغة قطعة متجمدة بمقدار ما يمضغ الناس فى الفم من اللقمة وهكذا ، وذلك هو علم الأجنة ، ولقد ظهر هذا العلم فى المدارس العالية فى جميع العالم .

(٦) وان حرض على الانفاق فى المنافع العامة قال يصف زيادة الحسنات للمنفق بازدياد الحب فى السنابل : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل » .

(٧) وان ذم النفاق مثل بالليل وظلمته ، والنار وايقادها ، وسرعة ذهاب نورها .

(٨) وان مثل الكفر جعله كالظلمات ، أو القرآن جعله كالمطر ، أو الوعيد جعله كالرعد ، أو الحجج جعلها كالبرق .

(٩) أو العدل جعله كالنظام العام فى قوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »

(١٠) أو الرياء جعله كالحجر عليه تراب فأصابته ريح شديدة أطارته .

(١١) أو ذكر الاخلاص جعله كالجنات سقاها الغيث .

(١٢) أو التخويف من عواقب الرياء ذكر الحدائق فيها النخيل والأعناب أصابها الزعازع والرياح العاتية فيها نار فاحترقت وصاحب الحديقة أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء .

(١٣) وان ذكر انقلاب الدول والممالك مثل بالليل والنهار إذ قال : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار » الآية .

ففى هذه المشاهدات مظاهر العبادة ، وأدلة التوحيد ، ومطالب الشكر ، ومبادئ الحكمة ، وموجبات

الخشية ، ودلائل البعث والقيامة ، ومثال ازدياد الحسنات ، ومشابهات النفاق ، ومايناسب الكفر ، وما يوافق العدل ، ومايوضح الرياء ، وما يشرح الاخلاص ، وما يبين انقلاب الدول . ذلك هو الذى اتجهت إليه وجهة القرآن .

عجبا لأمة نام عنها علماؤها ، وقتلها وعاظها ، أمة الاسلام هى الأمة التى أمرت أن تكون المزارع درسها والحدائق علمها ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والأنهار آياتها .

أيظن المسلمون أن تلك الأمثال والتشبيهات جاءت عبثا ؟ ياقوم أليس الاعراض عن المشاهدات الطبيعية أشبه شىء بكفر النعمة ؟ أليس ذلك تحويلا لوجهة النظر العامية .

أيها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها : إن ربكم واحد ودينكم النظر فى صنعه وعجائبه وجماله وحكمته وأنواره وشموسه وأقماره وأضوائه وبهائه ، أفلا تسمعون ؟ أفلا تبصرون ؟ جاء لكم حكماء وعلماء كابن سينا والفارابى والغزالى والرازى ، وأسمعوكم ما أقول اليوم ، فأبيتم وقلتم انكم كافرون .

جاء ابن رشد بالأندلس ، وقال أيها المسلمون : علم التوحيد مبناه هذه العجائب والبدائع ، فانظروا فى السهل والجبل والبرّ والبحر والشمس والقمر ، فانظروا فى حسابها وعجائبها ، فكذبتموه وكفرتموه ، وطرده أهل الأندلس ، و بصقوا فى وجهه ، فمات طريدا وحيدا ذليلا ، ثم حمل علمه اليهود والنصارى ، فارتقت أوروبا بعلمه فى ثلثمائة سنة بعد موته من أوّل القرن السابع الى أواخر القرن التاسع الهجرى ثم انقضوا على المسلمين فأفنوهم أجمعين ، وذلك جزاء القوم الجاهلين .

أيها المسلمون : أفكلما جاءكم عالم بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . أيها المسلمون آن الأوان ، و بهذا الكتاب وأمثاله سيستيقظ المسلمون سريعا ، وسيجىء جيل لم تشهد الأرض مثله ، وينظرون فى هذه العوالم التى زوّقها الله وزينها للناظرين ، وجعلها بهجة العارفين ، وحكمة العالمين .

أيها المسلمون : هذا هو علم التوحيد ، علم التوحيد فى الحقل والجبل والزرع والشجر والثمر والقمر لا فى الكتب المصنفة المشهورة ، هى والله مبعدة عن حكمة الله ومعرفة آياته هى مجلبة للشك ، ان القرآن أمركم بالنظر فى جمال صنعة الله ، ودقائق حكمته ، وجمال بهجته ، ذلك هو القرآن ، اتبعوا ما أرشد إليه فوالله ليذبغنّ فى هذه الأمة نابغون يكونون بهجة الدنيا وزينة العالمين ، وليكوننّ أهدى الامم وأعلمهم بما فى الكون ، هم خلفاء الله فى أرضه هم المسلمون الصادقون ، ولن يكون ذلك بقراءة الكتب المشهورة ، لقد كنت أيام مجاورتى بالجامع الأزهر أردت قراءة [العقائد النسفية] مع المرحوم صديقى الشيخ محمد جابر بعد أن أتممنا سنى الدراسة ولم نجد من العلماء من يقرؤها كما هو المطلوب ، فكنا نقرأ آراء الخيالى وعبد الحكيم اللذين كتبا عليها ونحن مبتهجون بتلك العلوم . و بينما أنا نائم إذ رأيت كأنى على شاطئ بحر وكأن هناك سمكا فى الماء بقرب الساحل ونور النجوم لامع على جلد السمك فسمعت قائلا يقول : «لم يظهر من القرآن فى هذا الكتاب إلا كما ظهر من الفلك على جرم السمك » اه

حكاية

جاء إلى مصر منذ سنين المرحوم الأستاذ السيد حسين الخياط ، مع الأستاذ الصوفى الشيخ الجربى ، والأستاذ السيد حسين كان مدرسا بمكة ، فلما سلم علىّ قال : إنى قرأت الشريعة والتصوّف ، ولكن قراءة كتاب نظام العالم والأمم فتحت لى بابا كان موصدا ، وقد أرسله الىّ أحد تلاميذى من أسرة العطاس بناحية جاوه ، ولما قرأته تعجبت من هذه الدنيا وغرائبها ، ورأيتك تقول : ان الماء قد حلل أمامك الى عنصرين

الاوكسوجين

الأوكسوجين والأودروجين ، وأن هناك نظاما بديعا وحسابا متقنا بحيث يكون الأوكسوجين ثمانية أضعاف الايدروجين ، وأن هذه النسبة لو أخطأت لبطل التركيب ولم يكن ماء ، ولطالما كنت أقول : هل رأى المؤلف هذه العجائب بعينه ؟ ومن لى بان أذهب الى مصر فأرى المؤلف وأسمع منه ذلك ، فأنت المؤلف فهل هو حق ؟ قلت نعم أنا رأيته بعينى وأنا تلميذ بدار العلوم ، ثم توجهت معه اليها والى غيرها من المدارس الثانوية وشاهد العملية بعينه ، فقال :

ماشاء الله يامصر قد خدمت الاسلام ! فقلت له : ان مصر لاتزال طفلة فى هذا الموضوع وعلمها قليل جدّا بالنسبة لأوروبا ، ومما قاله لى وهو سبب مساق الحكاية : أنا الآن صدّقت كلام الشيخ الشعرانى إذ قال : ان الاسلام فى أوّل أمره يكون شريعة ، ثم فى آخر الزمان يكون حقيقة ، فقلت وما فهمت فى هذا ؟ فقال الشريعة هى الأحكام الشرعية المعروفة فى الاسلام ، والحقيقة هى الأنفس والآفاق : أى معرفة علوم النفس والنظر فى هذه العجائب التى نشرحهما من شمس وقمر ونبات ، وهذه الكتب وأمثالها ستجعل وجهة الاسلام من الآن هذه الحقائق فى الأنفس والآفاق

مقارنة الاسلام بالنصرانية وعلوم أوروبا

اللورد افبرى الذى كان معاصرا لنا من كتاب الانجليز وعظمائهم أخذ فى كتابه محاسن الطبيعة فى التمهيد الذى فى أوّل الكتاب يصف القمر والنجوم والشمس وبهجتها فى طلوعها وغروبها ، وينقل عن العالم كنسلى أنه كان يحب البوادى ، وهو مغرم بجمال الطبيعة ، ويقول انه كان يؤنسه الحصى والنحل والزهر ويتأمل فى الغياض والأجمات ، وهو يحاول فكّ الرموز والطلاسم فى سفر الكائنات ، وينقل عن العلامة كبلر أنه كان يقول : ماأحوج الانسان الى أن يرسل طرفه ، ويتأمل فى العوالم العلوية والسفلية عوالم المجد والجمال ، وبعد ماسرد كثيرا من ذلك صرّح أن ذلك من قرائحهم لامن دينهم ، وأن دينهم كان عقبة أخرتهم الى الوراء إذ قال : ان الطوارئ التى حدثت فى الذى ورثناه من الدين قد صرفت عقولنا وحواسنا وعواطفنا عن جمال الطبيعة ، ثم سرد فوق ذلك معتقدات اليونان وأجداده هو من الانجليز والأوروبيين من أن للغابات وللأنهر آلهة تحكمها ، وأن فى الماء جنا تخيفهم وتزعجهم ، وأن هناك أرواحا تغضب عليهم ويخافون من الجبال والغابات والبحار والبحيرات لتوهمهم أن الأرواح الخبيثة تسكنها العفاريت والغيلان والجنّ والشياطين والسحرة ، ثم قال : ولما بزغت شمس العلم تمزقت تلك الحجب فأصبح العلماء يبتهجون بتلك المحاسن ثم قال : ان الأرياف مواطن الجمال ، وهى السحر الحلال اهـ مختصرا

ها هى ذه أوروبا ، وهذه عقائدها الدينية والوراثية ، والقوم هم أنفسهم حلوا هذا الوثاق وخرجوا من سجن الخرافات واستنشقوا نسيم الحرّية فى الحقول ونظروا فى السموات والأرض ، أولست ترى أيها الذكىّ أن دين الاسلام الذى شرحت لك مقاصده فى هذا التفسير وفى هذه المقالة أيضا قد أطلق عقول المسلمين من يوم البعثة النبوية وكشف لهم الغطاء عن السماء والارض وأراهم الشجر والثمر والحب والزهر والفاكهة والأب ، وقال : أى عبادى هذه أرضى وسمواتى وجناتى وأعنابى ونخيلى وجبالى وفواكهى وحيتانى فى البحر ودرّى ومرجانى وجمالى باهر ظاهر تجليت عليكم بشمسى وبقمرى وبنورى وبنجومى فماذا جرى أيها الذكىّ ؟ هبّ المسلمون فى القرون الأولى ، ثم ناموا نومة أهل الكهف ، ولما ظهر الأوروبيون وبهروا قالوا لنا اننا كشفنا الغطاء عن الأرض والسماء ونظرنا كل يابسة وخضراء ، فنقول حقا كان ذلك ونحن نيام ، وهذا دليل على أن نبينا آخر الأنبياء ودينه هو الباقى إلى آخر الزمان ، لأنه لاعفريت يمنعنا عن هذا الجمال ، ولا شيطان يخيفنا فى البحار ، ولا غول يهزّ رأسه فى الظلمات ، بل ان علومكم هى مقتضى ديننا ، ونحن وان كنا نمنا قرونا كثيرة سنبحث

أبحاثكم وتقرأ علومكم ونعاونكم فيها عليكم ، لأنكم قرأتموها مفكرين ، ونحن نقرؤها للعقل وللدين ، فيكون شوقنا أعظم وعلماؤنا أكبر ومدنيتنا أعظم ، أنتم بالنظر فى الكون خالفتم كتابكم ، ونحن بالنظر فيه وافقنا ديننا وطابقنا بذلك معتقدنا ، وقد قال الله « ليظهره على الدين كله » ، وظهوره سيكون بهذه النظرات وارتقاؤه بهذه الآيات « ان فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » اه

تذييل

لقد كان أهل الشرق كالمصريين وأهل الهند قديما مغرمين بالنظر فى العجائب والبدائع والتفكر فى ابداع الخالق ، فلذلك عشقوا جمال هذه المشاهدات فأثرت فى قلوبهم وأحيت نفوسهم وأيقظت عقولهم ، فزينوا الدنيا بعلومهم ، وزوّقوها بصناعاتهم ، وهذا بتأثير أنبيائهم وحكمائهم الذين عشقوا هذا الجمال ودوّنوه فى الكتب وعلموه للشعوب ، فان الجمال فى المخلوقات يرتسم فى النفوس ، وهى تبرزه علما وصناعة ، وذلك كما ترى فيما وجد منقوشا باللغة المصرية القديمة بتل العمارنة ، وقد نقله الى اللغة الألمانية والفرنسية علماؤهم وترجم إلى العربية ، وتاريخ تدوينها فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وهو نشيد دينى

(١) وصف الشمس الممثلة لعظمة الله : أنت العالم بأسرار الحياة تظهر بجمالك فى آفاق السماء ، تشرق شمسك فى الارجاء فتملأ الأرض بجمالك ، أنت الجميل العظيم البهى الذى تسطع أنواره على وجه الأرض وتحيط أشعته بكل أقطارك التى خلقتها وملكتها بحبك مهما بعدت عنا فأشعتك مالئة الأرض كلها .

(٢) وصف الليل : حينما تغرب شمسك يظهر المساء وينتشر الظلام فى الأرض كلها وينام الناس فى بيوتهم ويندرجون تحت غطائهم ، وتسكن حواسهم عن الحركة فلا يسمعون ولا يبصرون ، أنت الذى تحفظ لهم أرواحهم وأموالهم وأمتعتهم وهم فى مضاجعهم غافلون ، ويرخى الليل ستوره فتخرج الأسود من عرنها والحيات من أوكارها وتسكن الطبيعة كلها .

(٣) النهار والانسان : تظهر عظمة شمسك فى الأفق صباحا فتملأ أشعتها أرجاء الأرض كلها . يطلع النهار وينجلى الظلام فتفرح الناس بظهوره ويستيقظون ويتوضئون ويرتدون ملابسهم ويرفعون أيديهم إلى السماء متوسلين اليك ثم يذهبون الى أشغالهم .

(٤) النهار والحيوان : متى أشرقت شمسك فى الأفق تستقر المواشى فى مرعاها ، وتزدهى الأشجار والنباتات وترفرف الطيور تمجيدا لك وتنبعث الحيوانات على قوائمها .

(٥) الماء : اذا أشرقت شمسك فى الافلاك سبحت فى بحارها الافلاك ، وتمرح فى لججها الأسماك ، وتتلألأ أشعتك على صفحات الماء فما أبدعك وما أسماك .

(٦) أنت الذى خلقت نطفة الأنام وصوّرت منها الأجنة فى الأرحام وحفظتهم ووقيتهم الآلام ورفقت بهم فى الرضاع والفطام ووضعت لهم الحنان فى قلوب الأمّهات والآباء ، فوفرت عليهم العويل والبكاء ووهبت الحياة لسائر المخلوقات ، وأطلقت ألسنتهم بالكلام على اختلاف اللغات ، ومنحتهم مايحتاجون من قوت ومعاش ومن غطاء وفراش ، أنت الذى تهب النسمة للفرخ داخل البيضة وتحييه ، فيصيح ويمشى عند خروجه منها تفضلا منك ، خلقت الأرض والسموات وأبدعت جميع المخلوقات ، وأعمالك لاتحصى ، واحسانك لا يستقصى ،

أنت الذى خلقت البلاد الأجنبية وسوريا وايثيوبيا ووادى النيل ، وخلقت كلا منها فى مواقعها وسخرت لها حاجاتها ومنافعها ، وخصصت لكل انسان خاصياته ، وحددت له أيام حياته . أنت الذى خلقت الشعوب مختلفة الاجناس واللغات والألوان والصفات .

أنت الذى خلقت النيل لحياة أبنائه ، وأنعشتهم بعذوبة مائه . أنت الذى تسوق الأرزاق للبلدان القاصية وتنزل

الأمطار

الأمطار على جبالها هامية فتنحدرا لمياه الى الحقول والبلاد لخصبها وترويتها ، ما أجلك يارب الأزل ، وما أجمل أوامرك العالية .

أنت الذى قسمت السنة فصولا لمصالح خلقك ونظام حياتهم ، قد ارتفعت فى علوّ سمائك لتبرز منها أشعة شمسك ، وترى منها ملكوتك ، أنت وحدك الذى تشرق شمسك الحية المضيئة البارزة أشعتها ، قد خلقت الارض لعبادك ، ومتى أشرقت علينا شمسك شخص الناس إلى جمالك [هـذا] هو الذى كان يناجى به قدماء المصريين ربهم [والقرآن كله طافح بذكر الشمس والقمر والكواكب والنبات والحيوان والأمم ، واختلاف الألوان والألسن] فعلى المسلمون أن يفكروا و يبتهجوا بجماله .

هذا ، ولما انتهى الكلام على هذا المقصد شرعنا فى تفسير المقصد التاسع عشر فى بعض المعاملات فى الأموال ، وهى الربا والدين والرهن .

(المقصد التاسع عشر)

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ☆ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ☆ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ☆ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ☆ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ☆ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ☆ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ☆ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلاَ تَسْأَمُوا أَنْ

تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *

ايضاح داخل فيه التفسير اللفظى

وصف الله المتعاملين بالربا بأنهم يقومون من قبورهم يوم القيامة كما يقوم الذى يضربه الشيطان ضربا على غير اتساق بسبب الجنون اتباعا لزعم العرب وأسلوبهم فى التعبير عن حال المصروع ، وإنما ذلك لأنهم سوّوا بين البيع والربا والله أحل البيع وحرّم الربا . قال تعالى : (فمن جاءه موعظة من ربه) فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهى عن الربا (فله ماسلف) فلا يؤاخذ بما مضى منه (وأمره الى الله) يحكم فى شانه يوم القيامة (ومن عاد) الى الربا مستحلا (فأولئك أصحاب النارهم فيها خالدون) لأنهم بالاستحلال صاروا كافرين (يمحق الله الربا) يذهب ببركته ويهلك المال الذى يدخل فيه (ويربى الصدقات) ينمى ويزيد المال الذى أخرجت منه .

الربا قسمان : ربا فضل كما إذا باع ذهبا بذهب وفضة بفضة وحنطة بحنطة ، فذلك ممنوع فيه النسيئة والتفاضل ، فأما فضة بذهب فالتفاضل جائز على شريطة المقابضة والافهو ربا النسيئة ، والفضل والنسيئة ممنوعان ولقد فصله علماء الشريعة الغرّاء ، ومن عجب أن الربا الشائع فى الأمم اليوم قسم ألحق بما فصله علماؤنا . وهو اللاحق بالقرض ، وهو قرض جرّ منفعة .

ان المسألة التى هى عقدة العقد واحدى الكبر ، وهى الربا قد هزهزت الأمم هزهزة ، وستكون من نتائجها الهزاهز والمحن على الأمم جمعاء ، ألم تر كيف كان الاستعباد منوطا بثلاث ، ملك جائر ، ورئيس دينى ظالم ومثر شحيح طامع ، هؤلاء هم الفجرة الاشرار الظلمة ، فأما الملوك الظالمون فقد قال الله فيهم « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها » كما يشاهد فى بلاد الجزائر ومراكش وتونس وأمثالها من الأمم التى دوّخها الفاتحون ، وظلمها الملوك القاهرون ، وأما الرؤساء الضالون ، ففيهم قال الله تحذيرا لتابعيهم ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ـ أى مشرّعين مستبدين بالشرائع لا يعطون أمتهم الا ماتهواه أنفسهم كما روى أن عدىّ بن حاتم قال للنبى ﷺ لما نزل « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ما كنا نعبدهم يارسول الله قال « أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم ؟ قال نعم . قال هو ذاك » .

فأما القسم الثالث وهم أولو الحرص من الأغنياء والمستبدين من ذوى الثروة والجاه ، فقد قال الله فيهم (فان لم تفعلوا فأذنوا) أى أعلموا (بحرب من الله ورسوله) أوفأعلموا غيركم بحرب من الله ورسوله فى الدنيا .

وذلك الحرب اما شرعى كما نص عليه المفسرون من محاربة ذى الشوكة المرابى إذا لم يتب أوحبسه وسجنه وتعزيره ان لم يكن ذا شوكة ، واما أن يعامل يوم القيامة معاملة المحارب ، فيعذب ويلقى فى النار كأنه كان

يحارب

يحارب الله ورسوله ، واما بما يستأصل الأمم و يدهورها و يزيلها من الوجود كهذه الأمم الحاضرة ، فانك ترى الاشتراكيين يودون قلب النظام الحالى فى الحكومات إذ عاءوا أن الظلم واقع ماله من دافع على الفقراء والضعفاء من الأمم القوية وعلى كافة رجال الامم الضعيفة ، ذلك بتحكم أرباب الاموال فى نفوس الملوك والعظماء ، فيكون الحرب والقتال كبضاعة يبيعونها وسلعة يزجونها ، و بما يتحكم أرباب الأموال المرابون فى العملة الضعاف ، و بذلك أصبحت حياة الأمم وعرة خطرة مشتعلة الافئدة بنار الحرب ، وما موقدها فى أفئدة الفقراء إلا أصحاب المال بنيران الذهب الوهاج المتقدة فى حطب العمال ، فالفقراء بها يسجرون ، والاغنياء بنورها يفرحون ، وستكشف الحال ، و يصبح المنعم بها شقيا ، والمسجور بها منعما ، ستصير برداوسلاما على الفقراء ، ونارا وسعيرا على الأغنياء ، إذا اصطدمت القوّتان ، واقتتلت الطائفتان ، أخذ المظلومون حقهم من الظالمين فى هذه الحياة ، فمابالك إذاوقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، فهنالك الجزاء الأوفى ، وأن الى ربك المنتهى .

كما أن الزناعاقبت عليه الشرائع السماوية ، فاما أهمل الناس ذلك عوقبوا بذلك الداء القتال ، وهو المسمى [الافرنجى] فى بلادنا و يسمونه [الزهرى] وهو يشوّه الجسم و يضعفه ، وهو يعذب المريض عذابا لايطاق هكذا الربا لما أهمل الناس أمر الديانات فى تحريمه جرعت الأمم غصص الاضطرابات من الاشتراكيين والحروب وهـذا الحكم يشمل سائر الأمم والاجناس والممالك ، فأما ذلك الذى أكل الربا من أبناء جنسه واستبدّ به ووقفه على نفسه ، وقد أصبح الفقراء فيها جاهلين معذبين ، والاغنياء ممتعين منعمين ، فان مايلحق الأمة من فقر وأذى وجهل فاضح فانه لاجرم بأولئك الأغنياء لاحق فلا سبيل لسعادة امرئ مالم يعم السعد بلاده . والا فكيف يتمتع بخادمه ويهنأ بصديقه وصاحبه ، و يأكل الثمرات و يعلم بنيه و بناته ، فانفاق الأموال من الأغنياء عناية بالجوع وسعادة للمجموع ، ولاعزّ لامرئ إلا إذا أحاط السعد بأمته ، فانما هى موسيقى ذات فروع ، وهو أحد فروعها ، ان الانسان مدنى بالطبع ، لهذا السر « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » أى يذهب الله بركته ويهلك المال الذى يدخل فيه ، و يضاعف ثواب الصدقات و يبارك فيما أخرجت منه ، وعنه عليه الصلاة والسلام « ان الله يقبل الصدقة فيربيها كما يربى أحدكم مهره » ، وعنه عليه الصلاة والسلام « مانقصت زكاة من مال قط » (والله لايحب) لايرضى (كل كفار) مصرّ على تحليل المحرمات (أثيم) منهمك فى ارتكاب الاثم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم) من مستقبل (ولا هم يحزنون) على فائت (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا) اتركوا بقايا ماشرطتموه على الناس فى معاملات الربا (ان كنتم مؤمنين) بقلوبكم ، يروى أنه كان لثقيف مال على بعض قريش ، فطالبوهم عند حلول الأجل بالمال والربا ، فنزلت (فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) أى فاعلموا بها ، من أذن بالشئ إذا علم به ، فيقاتل المرابى بعد أن يستتاب حتى يفىء الى أمر الله كالباغى . ولما نزلت هـذه الآية قالت ثقيف لايدلنا بحرب الله ورسوله (وان تبتم) من أن ترابوا (فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون) فلا تأخذون الزيادة ولا يماطلكم المدين ولاينقص مالكم (وان كان ذوعسرة) واذاوقع غريم معسر (فنظرة) فالحكم نظرة (إلى ميسرة) فلينتظر الدائن مدينه إلى أن يأتى اليسر من الله والفرج للمدين (وان تصدّقوا) على المدين بالابراء من الدين (خير لكم ان كنتم تعلمون) مافيه من الأجر والذكر الجميل والقدوة الحسنة والسعادة النفسية (واتقوا يوما ترجعون فيه) الآية معناها ظاهر .

[تنبيه] ولقد كنت كتبت ماتقدم وأنا مدرس بدار العلوم قبل الحرب العامة الكبرى بنحو ثلاث سنين كما تقدم و بقى التفسير حتى هذه السنة ١٩٢٣ وابتدئ بطبعه ، وقد حصلت الحرب من سنة ١٩١٤

وكان الصلح سنة ١٩١٨ ولايزال الناس فى هرج ومرج والأمم كلها فى اضطراب واختلاط فحقق الله عزوجل ماجاء فى كتابه ، وكانت الحرب وظهرت دولة [البلشفية] وهى التى قضت على دولة الروسيا وعلى الاستئثار بالسلطة والمال ، ولست أقول : انى أعرف كل شىء عنها أوأحرض عليها ، وانما أقول : ان وعد الله حق ، والحرب التى ذكرها الله فى القرآن من أجل المال قد قامت وذلك قوله : فأذنوا بحرب من الله ورسوله .

موازنة آراء علماء الأسلام في الربا بآراء الاشتراكيين

يقول علماؤنا رحمهم الله فى قوله تعالى (وأحلّ الله البيع وحرّم الربا) ان هذه الآية من المجمل الذى يرجع فى بيانه إلى الحديث الشريف فان قوله : وأحلّ الله البيع يفيد جواز جميع البيوع سواء أكانت فيما هو من جملة مافيه الربا أم من غيره ، وقوله : وحرّم الربا يقتضى تحريم جميع البيوع سواء أكان فيما فيه التفاضل فى النقد والنسيئة أم فى غيره لأن كل بيع يقصد به الزيادة ولامعنى للربا فى اللغة إلا الزيادة فيرجع فى هذا المجمل إلى الحديث الشريف ، وقد ورد فى الحديث بيان مافيه الربا ، وهو ستة أشياء الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح .

والربا قسمان ربا النسيئة ، وربا النقد ، ويقال له ربا الفضل : أعطى زيد عمرا عشرة دنانير إلى شهرين مثلا ليأخذ ١١ دينارا ، وهكذا البر والشعير ونحوهما ، فهذا هو ربا النسيئة .

وهكذا اذا أعطاه ١٠ دنانير فى الحال بما يوازنها من الذهب بان كان حليا وزاد عليها زيادة ما ، وكان ذلك فى الحال فهذا ربا النقد ، ومثل ذلك ماإذا أعطاه برًّا أوشعيرا مثلا عشرة أرادب وأخذ منه أحد عشر بان كان هذا رديئا ، وكان الأوّل جيدا مثلا ، وكان فى الحال فذلك يقال له ربا النقد .

فأما اذا اختلف الجنس بان أعطى ذهبا بفضة أوقمحا بشعير ، فذلك جائز فيه التفاضل نقدا يدا بيد ، ولم تكن العرب تعرف من معنى الربا إلا ربا النسيئة ، وهو المتعارف اليوم ، وهو الذى قاله ابن عباس ولم ير غيره ، ذلك أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوا كل شهر قدرا معينا ويكون رأس المال باقيا ، ثم اذا حلّ الدين طالبوا المديون برأس المال فان تعذر عليه الأداء زادوا فى الحق والأجل ، فهذا هو الربا الذى كانوا يتعاملون به فى الجاهلية ، فحمله ابن عباس عليه ، ولكن الحديث أثبت غيره ، ويكون محصل الصور ثلاثة بيع مطعوم مثلا بدراهم أودنانير يجوز نقدا ونسيئة ، بيع دراهم بدنانير يجوز التفاضل فيه لكن يكون نقدا وكذلك الشعير مثلا بالبر ، فاذا أعطاه أردبا بأردبين جاز بشرط أن يكون حالا ، فأما الذهب بالذهب والفضة بالفضة والشعير بالشعير ، فلايجوز الامثلا بمثل نقدا ، هذا ملخص ماجاء فى الربا .

ولما كان هذا المقام يحتاج إلى بيان الحكمة التى حرّم لأجلها الربا والى بيان تحديده والأصناف التى حرّم فيها وجب أن نبين ذلك على ماقاله العلماء ، فان الله عزوجل لما قال العرب : انما البيع مثل الربا لأن كلا منهما يقصد به الفائدة فكيف يباح أحدهما ولا يباح الآخر ، وترجيح أحدهما على الآخر تحكم أجاب سبحانه بقوله : وأحلّ الله البيع وحرّم الربا ، وترك الأمر ولم يبين إلا الحكم وحده تاركا لعقولنا التفصيل مع الوقوف عند النص ، فلنبين الحكمة التى قالوها أوّلا ثم نتبع ذلك بما يكون فيه الربا ثم نذكر مذاهب الاشتراكية .

حكمة تحريم الربا ورأى الامام الغزالى

ولقد رأيت للامام الغزالى هنا قولا مفصلا أختصره لك مع الفائدة فأقول : قال : ان الذهب والفضة لايقصدان لذاتهما وانما هما وسيلتان إلى التبادل ، فاذا كان عند امرئ جل وعند آخر زعفران وكلّ

منهما

منهما يريد أن يعرف ما المقدار الذى يستحقه الآخر فى مقابلة ماعنده وكان هذان النقدان حكمين فيقال : هذا الجمل يساوى ٢٠ دينارا ، وهذا الزعفران يساوى عشرين دينارا ، وشيئان يساويان شيئا واحدا يكونان متساويين ، وهذان الحاكمان من اتجر فيهما وحبسهما فقد ظلم وكأنه حبس القاضى الذى يقضى بين الناس فيعطل مصالحهم .

وهكذا المطعومات لايجوز أن تجعل سلعا تباع وتشترى قصدا و بالذات فان فعل ذلك أصبحت مقيدة فى أيدى الناس ، وكان الاحتكار والاضرار بالناس ، والناس فى حاجة إليه والحاجة إلى الطعام شديدة ، فينبغى أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ولايعامل على الأطعمة إلا مستغن عنها إذ من معه طعام فلم لا يأكله ان كان محتاجا ، ولم يجعله بضاعة تجارة وان جعله تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا إليه نعم بائع البر بالتمر معذور اذ أحدهما لا يسدّ مسد الآخر ، هذا ملخص ماقاله الامام الغزالى .

وأنت ترى أن هذا القول وان كان حسنا لا يكفى لمعرفة الحكمة ، فلنذكر ما قاله غيره . قال بعضهم : « انما حرّم الربا لأنه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب ، وذلك لأن صاحب الدراهم اذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقدا كان أونسيئة خفّ عليه اكتساب وجه المعيشة ، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة ، وذلك يفضى إلى انقطاع منافع الخلق ، ومن المعلوم أن مصالح العالم لاتنتظم الابالتجارات والحرف والصناعات والعمارات » .

وقال آخر : « ان الغالب أن المقرض يكون غنيا والمستقرض يكون فقيرا فالقول بتجويز عقد الربا تمكين للغنى من أن يأخذ من مال الفقير الضعيف مالا زائدا وذلك غير جائز » هذا أهمّ ماقاله علماؤنا فى حكمة التحريم .

ما الأصناف التي يحرم فيها الربا ؟

تقدم القول ان تلك الأصناف ستة ولكن هذه الستة لايعلم الناس لم خصصت ؟ وهنا أخذ العلماء يبحثون ، فأما الشافعى رضى الله عنه فقال : هذا يدل على أن المقصود بالربا هو الطعم والنقد لأن الحديث انما ورد فى النقدين والمطعومات فلنحمله على كل مطعوم قياسا على ماذكر فى الحديث ، وقال أبوحنيفة كلا فان المدار على التقدير وهذه الأشياء مقدرة ، أمافى الدراهم والدنانير فالوزن ، وأما الأشياء الأربعة فالكيل مع اتحاد الجنس فى الجميع ، فكأن أبا حنيفة راعى تلك الأشياء من حيث انها مقدرة فقاس عليها كل مقدر بكيل أووزن كالقطن والنحاس والجص والنورة .

وقال آخرون كالامام مالك : ان المدار على القوت لأن هذه الأربعة من الاقوات فيقاس عليها غيرها ، ومذهب الشافعى المتقدم يدخل فيه الثمار والفواكه والبقول والأدوية مكيلة كانت أوموزونة .

وقال آخرون كابن الماجشون : ان كل ماينتفع به ففيه الربا ، وهذا أعم الاقوال عند علماء الاسلام .

واعلم أن هذا القول يناسب الحكمة التى قدمناها عن بعضهم ، وهى أن المرابى قد أخذ مالا بلا مقابل ولاجرم أن من أخذ الزيادة فى مكيل أوموزون أوغيرهما من حيوان أونبات أومعادن أوأرض فقد أخذ من الناس مالا بلا منفعة تعود على نوع الانسان فما الذى ناله الناس منه حتى أخذه ، ان الزارع والتاجر والصانع يبرزون للناس ماينفعهم فما الذى عمله المرابى الجالس على كرسيه ، وغيره يخرج من الأرض أو يصنع أو ينقل البضاعة من بلد إلى بلد و يأخذ فى مقابل ذلك ثمنا يزيد على الثمن الأصلى ، أما هذا فلم يفعل شيئا ، وهذه الحكمة لاتفرق بين مكيل وموزون ومعدود ، وهذا هو الأقرب للعقل وللواقع .

ولما اضطربت أقوال علماء الاسلام فيما ورد عن صاحب شريعتنا ﷺ لعدم تحديده تحديدا تاما قال ابن عمر خرج رسول الله ﷺ من الدنيا وماسألناه عن الربا ، ومقصود ابن عمر أن هذه الآية من المجملات

ثم جاء الامام الغزالى فى مقام آخر وأبان أن كل هذه المعاملات والشروط والحدود والقوانين والعقود انما جعلت لأجل قصور الناس وعقولهم الضعيفة وحرصهم ، والا فالناس جميعا متضامنون ، ويجب أن ينال كل حظه من العمل ومن المال ولايدّخر أحد شيئا بل يعين كل واحد أخاه بما زاد عن مقدار مايحتاج إليه ، وهذا القول أشبه من بعض الوجوه بأقوال الاشتراكية فى زماننا . قال :

« من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه وفى عباد الله من يحتاج اليه فهوظالم وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله ، وانما سبيل الله طاعته ، وزاد الخلق فى طاعته أموال الدنيا إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم ، نعم لايدخل هذا فى فتاوى الفقهاء لأن مقادير الحاجات خفية ، والنفوس فى استشعار الفقر فى الاستقبال مختلفة ، وأواخر الأعمار غير معلومة ، فتكليف العوام ذلك يجرى مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكون عن كل كلام غير مهمّ وهم بحكم نقصانهم لايطيقونه ، فتركنا الاعتراض عليهم فى اللعب واللهو ، واباحتنا ذلك إياهم لاتدل على أن اللعب واللهو حقّ فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار فى الانفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لاتدل على أنه غاية الحق ، وقدأشار القرآن إليه إذ قال تعالى : « ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » بل الحق الذى لا كدورة فيه والعدل الذى لاظلم فيه أن لايأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب ، فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان الى حضرة الملك الديان ، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهوظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التى بها عرف أن ماسوى زاد الراكب وبال عليه فى الدنيا والآخرة ، فمن فهم حكمة الله فى جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك يحتاج الى مجلدات اهـ

فهاأنذا ذكرت لك مسألة الربا فى الاسلام ، فانظر كيف كان ابن عباس يقصره على الربا المعروف الآن فى سائر الأمم وعند الجاهلية ؟ وهو ربا النسيئة وانظر كيف جاء فى الحديث شموله لستة أشياء فى النقدين وفى المطعوم ، ثم كيف توسع العلماء فى القياس من مطعوم الى قوت الى كل ما يكال ويوزن الى كل ماينتفع به ؟ وكيف كانت الحكمة ؟ وهى تعطيل طائفة من الناس عن العمل مطابقة لأعمّ الأقوال وهو القول الاخير ، ثم انظر كيف أبان الامام الغزالى ماهو أوسع من ذلك ؟ وجعل الناس أطفالا جهالا ، وأن تلك الشروط والقوانين ماجعلت إلا تلبية لعقولهم الضعيفة ، ونفوسهم السخيفة ، والا فالناس كلهم اخوان ، فليعط كل منهم الآخر مايزيد عن حاجته ، ولعمرى ان الاشتراكية المسماة بالبلشفية فى البلاد الروسية عجزت عما وصل اليه الامام الغزالى إذ أرادت نزع الملكية العامّة فعجزت ، وأمرت أن تعطى لكل امرىء مقدارا معلوما من الأرض كبلاد الصين فان الملك هناك محدّد لايجوز لأحد الزيادة عن الحدّ المعلوم فيه ، هذا ماأردت ذكره فى مذاهب الاسلام ، فلأذكر آراء الاشتراكية :

آراء المذاهب الاشتراكية

وكيف كانت أبحاثهم قريبة مما ذكره علماء الاسلام

أبنا لك فيما مضى كيف ابتدأ دين الاسلام بتحريم الربا ، وكيف كان رأى ابن عباس أنه لاربا إلا فى النسيئة وهو المتعارف الآن ، ثم جاء الحديث بستة أشياء ، ثم أوسع ذلك علماء الاسلام الى أن جعلوه فى كل

ماكان مالا مادام من جنسه سواء أكانت الزيادة فى النقد أم فى النسيئة ، واذا اختلف الجنس فلنبع كما نشاء فنبيع التمر بالشعير ونزيد كما نشاء كالذهب والفضة ، والى هنا وقف جوادبحثهم ، ومنتهى نظرهم ، ولكنهم من جهة أخرى جعلوا أن هذا كله انما هولأجل الضرورة فى أخلاق الناس وحرصهم وجشعهم ، وهنا وصلوا الى غاية من الكرم والتسامح حتى جعلوا أن ما يملكه زيد يجب أن يتصدق على الناس بما فضل عن حاجته منه والا كان عبدا بخيلا حريصا فلا يكنز الانسان ذهبا ولافضة ولاطعاما ، بل كل مافضل فهوللمستحق ، وأنت ترى كلام الامام الغزالى فيما تقدم ، ولكن الحق أن هذا القول لايجوز الأخذ به على علاته ، فان لكل انسان قوّة وقدرة واستطاعة لابدّ من ابرازها إلى الوجود ، وهذه المكارم التى ذكروها يجب أن تبحث بحثا مدققا لئلا يعطى الناس المجدّون ماهم الى من تكاسلوا عن العمل ، هذا خطرعظيم ولتعلم أن هذا مذكور فى ثنايا الكتب وليس هذا محل تفصيلها .

ولما كان الاسلام قد أشرب هذه المكارم شاعت الأوقاف وجعلت لذوى الحاجة ، وترى أن الأوقاف فى بلادنا المصرية تبلغ عشر الأملاك العامّة ، ولعمرى ان ذلك من آثار هذه المكارم الاسلامية العامة ، ومن آثارها الزكاة والصدقات العامّة الواردة فى الشرع ، وأكبر مصيبة اسلامية أن يعطى شيء من ذلك الى من لم يقم بما يستطيع من العمل ، فأما أولئك الذين لايعملون ويأخذون من الصدقات والأوقاف وهم نائمون بلاعلم ولافضل فأولئك عالة على الأمة ومصيبة على الاسلام ، وقد آن أن أفصل لك آراء الاشتراكية فأقول : يقولون : ان مصادر الأرزاق أربعة :

(١) عمل العامل .
(٢) الأرض التى نعمل فيها .
(٣) رأس المال .
(٤) مدير المعمل أوصاحب المشروع .

ويقولون : ان المال كل ما فضل عن حاجتك من طعام أومصنوع أوغيرهما ، فالغلة والحصير والمسكن والأرض التى لاتحتاج اليها تسمى عندهم مالا لأنك تقدر أن تبادل بها ، أما الدراهم والدنانير فقد قالوا فيهما ماقاله علماؤنا كالامام الغزالى ، وهى انها واسطة للتبادل وتسهيل المعاملات ، بل قالوا هم انها لاتسمى عندهم مالا لأنها لاتنفع فى طعام ولاشراب ولامسكن ، ويقولون : انما جاءت من مستلزمات الحضارة والنظام ، ومتى كانت الفوضى سقطت قيمة التعامل بهما وأضحى من عنده قدح شعير خيرا ممن عنده قنطار ذهب ، ولقد سلكوا فى التبادل الطريق التى سلكها علماء الاسلام ، فذكروا كيف يضطر الفقير أن يأخذ من الغنى أردبا قمحا بأردب ونصف بعد سنة ، وكيف يأخذ عشرجنيهات بأحد عشرجنيها بعد زمن مّا ، وبرهنوا أن ذلك ضارّ بالمجموع الانسانى ، وأن ذلك المرابى يصبح سيدا لم يعمل عملا للمجموع ويصبح السادة الأغنياء مترفين منعمين والعبيد الأذلاء العمال فى فقرمدقع مع الأشغال الشاقة ، فانظركيف اتفق فى التعليل وفى التحريم علماء الاسلام وعلماء الاشتراكيين ، ولكن الاشتراكيون تمادوا فى الأمر الى حدّ بعيد جدا ، فأخذوا ينظرون فى أمر العمل وأمر المال ، وصاروا يقولون : ان الغنى الذى عنده مايزيد عن قوته من الحنطة ومايزيد عما يلزمه من الأرض يتعالى على العامل فى المصانع وعلى الفلاح فى الأرض ويقول : لكل منهما أنا عنك غنىّ ويمكننى أن أستعمل غيرك ، فيعمل الطرفان عنده بأقلّ القيمة ، وكلما زاد العمال والمزارعون بوفرة العمران ازداد أولئك الأغنياء ثروة وأصبحوا ملوك المال والناس لهم عبيد ، وكلما زادوا ثروة زاد الفلاحون والعمال فقرا وذلا ، فأما أولئك فلاعمل لهم إلا الزخرف والزينة والاسراف والبذخ .

وممـا زاد الطين بلة الآلات الحديثة المخترعة التى أغنت عن العمال ، فالآلة تعمل مايعمله آلاف من العمال فيصبحون عاطلين ، و يفيض المـال فيضا على صاحب رأس المـال ، فالاشتراكيون يريدون أن تـكون الأعمال العامّة فى المصانع وفى الأرض وفى التجارة فى يد الحـكومات والناس يعملون فيها كأسرة واحـدة كل على مقدار طاقته ، أما ديننا الاسلامى فقدوضع بذور العدل والنظام بمسألة الصدقات والأوقاف ، وحب الرحمة والشفقة والرأفة والبرّ ، وحرم على الناس السؤال و بذل الوجه ، ولـكن الأمة فى العصور الأخيرة تغافلت عن وضع الأمور فى مواضعها ، فـكثير من الأوقاف تصرف الى من لايستحق ، وهذا مخالف للدين ، ولآية الصدقات التى جعلتها للفقراء والمساكين والعاملين عليها الخ .

هذا ما أردت ذكره فى هذا المقام ، وسيأتى فى هذه الأمة من يفـكرون لنظامها على مقتضى الشريعة الغرّاء ، و ينظمون أوقافها وأعمـالهـا نظاما ينطبق على روح الشريعة ، ولا نـكون مجموعا غير منظم . وقد قال الله فينا : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنـكر » .

الـكلام على الدّين والرهن

ولمـا حرّم الله الربا أحلّ السلم وهو البيع لأجل ، وسنّ أن يكتب فقال : (ياأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه) ويتخير المتداينان كاتبا يكتب بالسوية لايزيد ولاينقص (ولايأب كاتب أن يكتب كما علمه الله) فمن منّ الله عليـه بنعمة فشـكرها صرفها فيما خلقت له والـكتابة نعمة وشـكرها إجابة من التمسوها ، وذلك سنة أو واجب عينا أوكفاية أقوال لـكلّ من أربابها وجهة ، وأقرب الأقوال أن ذلك سنة ، ولن يصح الوجوب إلا اذا تعين خطر كبير ولم يكن الامن دعى لهـا والله أعلم .

واذن (فليكتب وليملل) ه (الذى عليه الحق وليتق) المملى (الله ربه) ولا ينقص منه شيئا (فان كان الذى عليه الحق) ناقص العقل مبذرا (أوضعيفا) كصبي أوشيخ (أولا يستطيع أن يملّ هو) لخرس أوجهل باللغة (فليملل) قيمه ان كان صبيا أومختلّ العقل ، أووكيله ، أو مترجمه ان كان غـير مستطيع (واستشهدوا شهيدين) من الرجال المسلمين أورجلا وامرأتين فى الأموال خاصة عندالشافعى ، وفيما عدا الحدود والقصاص عند أبى حنيفة وليـكن الشهود عدولا ، ولم يكتف بالواحدة فضمّ لهـا الأخرى لتذكّر إحداهما الأخرى . وحرىّ بالشهداء أن يجيبوا اذا دعوا لتحملها ندبا أووجوبا عينيا أوكفائيا على ماتقدم (ولا تسأموا) أى تملوا كسلا (أن تـكتبوه صغيرا أوكبيرا إلى أجله) فان (ذلـكم) أكثر قسطا عندالله وأثبت للشهادة ، وأقرب الى أن لاتشـكوا إلا اذا كانت تجارة حاضرة تديرونها بينـكم من مبايعة بدين أوعين بأن تتعاطوها بينـكم يدا بيد أى إلا أن تتبايعوا يدا بيد فلا بأس أن لاتـكتبوا (وأشهدوا اذا تبايعتم) أىّ بيع ، ولا ينبغى للمتبايعين أن يضرا الـكاتب والشاهد فلا يكلفانهما الخروج عن مهمّ لهما ، أولا يمنعان جعل الـكاتب ومئونة مجىء الشهيد كما لا ينبغى للـكاتب والشاهد ترك الاجابة والتحريف والتغيير ، فاذا كـنتم مسافرين (ولم تجدوا كاتبا فـ)ليكن الاستيثاق بـ(رهان مقبوضة) فان كان الأمانة ووثق كل بأخيه (فليؤدّ الذى اؤتمن أمانته وليتقّ الله ربه) فى الخيانة وانـكار الحق (ولا تـكتموا الشهادة) أيها الشهود أوالمدينون ، فالمرء مطالب بالشهادة على نفسه (ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بمـا تعملون عليم) تهديد .

الـكلام على قوله تعالى : واتقوا الله و يعلمـكم الله

أى اتقوه فى مخالفة أوامره ونواهيـه الدينية ، و يعلمـكم أحكامه المتضمنة لمصالحـكم . يقول الله : ليس تعليمى لـكم خاصا بالصلاة والزكاة وما أشبهها ، إن الدين لايقوم إلا بمصالح الدنيا ، وأنا عليم بهما فلتقوموا

بالأمرين

بالأمرين ، وهذا باب واسع لفروض الكفايات التى سأشرحها فى آخر السورة ، وأن المسلمين يعذبون فى الدنيا والآخرة اذا لم يقوموا بقسطهم فى نظام الأرض وسعادة الأمم لأن الله بكل شئ عليم ، ومن علمه يعلمنا مصالح الدين والدنيا فاذا نقصنا أحدهما خرّ الآخر صريعا ، فالمسلمون اليوم لما جهلوا أمر الدنيا نقص الدين وخسروا الدارين ، وقد آن أن يرجعوا الى رشدهم و يقرءوا العلوم و يعرفوا الصناعة ، وأنت أيها الفطن خبير بما ورد فى العلم من الأحاديث والآيات فلا نطيل بذكره فاقرأه فى البخارى وفى الاحياء ، والله يهدى الى الرشاد .

(المقصد المتمم للعشرين)

لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *

التفسير اللفظى

قال الله تعالى (لله مافى السموات وما فى الأرض) فهو العالم بما فيهما ، ولاجرم أن أخلاق العباد وأعمالهم مكتوبة لديه ، معلومة عنده ، مخزونة فى الأفئدة فـ(ان تبدوا مافى أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله) فكفى بنفسك عليك أيها الانسان حسيبا (فيغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء والله على كل شئ قدير) وهذه الأحكام والشرائع فى القرآن (آمن الرسول) بها (والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) يقولون (لا نفرّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا) أجبنا قولك (وأطعنا) أمرك اغفر لنا (غفرانك ربنا واليك المصير) المرجع ، لم يحمل الله أحدا فوق طاقته و(لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) فمن آتاه الله مالا ، أوحباه ثروة ، أوأناله قوّة ، أو أورثه علما ، أومنحه فطنة ، فليشكر الله على نعمته برفد اخوانه ، وليكن لهم شمسا تضئ (لها ما كسبت) من الخير (وعليها ما اكتسبت) من الشرّ (ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا) تركنا أمرا من أوامرك سهوا (أوأخطأنا) من تفريط وقلة مبالاة ، وهذا دليل على جواز المؤاخذة فى النسيان والخطأ خلافا للمعتزلة ، ولولا جواز المؤاخذة عليهما لم يكن للسؤال معنى (ربنا ولاتحمل علينا إصرا) عبئا يأصر حامله أى يحبسه مكانه لثقله استعير للتكليف الشاقّ (كما حملته على الذين من قبلنا) كاليهود والنصارى (ربنا ولاتحملنا مالاطاقة لنا به) من العقوبات النازلة بمن قبلنا (واعف عنا) امح سيئاتنا (واغفرلنا) واستر ذنوبنا ، والأوّل للكبائر ، والثانى للصغائر (وارحمنا) بذلك (أنت مولانا) ناصرنا ومتولى أمورنا (فانصرنا على القوم الكافرين) فمن حق المولى أن ينصر من تولى أمره . انتهى التفسير اللفظى .

ايضاح

ههنا يحسن الكلام على قوله تعالى « وان تبدوا مافى أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله » الآية بايضاح فنقول : قوله تعالى « وان تبدوا مافى أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله » يفيد أننا معاشرالآدميين محاسبون بما رسم فى صدورنا ، وما قام بأفئدتنا ، فتارة يغفر لنا وتارة نعذب على ذلك ؛ و بيانه أن أرواحنا أشبه بلوح محفوظ يرسم فيه مايرد عليه من الحواس الخمس ، وما يقوم به من فكر ، فاذا مات الانسان ظهرت له صورته الحقيقية ، واطلع على جميع ما كان يتصوّره فى الحياة من خير وشرّ وعزم وكسل وتتجلى له نفسه تجليا واضحا كأنها خريطة فيها رسوم مختلفة فينفر من الصور القبيحة فيها و يفرح بالصور الجميلة ، قال تعالى « يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها و بينه أمدا بعيدا و يحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » وقال تعالى : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » فجعل النفس هى المحاسبة لأنها هى المطلعة على عوراتها وقبائحها ، وتفكر أيها الفطن كيف نألم فى الدنيا اذا اطلع أحد على ما أضمرنا من عمل قبيح ، أونوينا من نية سيئة ، ونحن نكتم أعمالنا ومانوينا ، فاذا نشرت هذه الأعمال دفعة واحدة واطلع عليها من كنا نحاذر فكيف تكون حالنا ؟ ذلك هوالخزى العظيم .

وتأمّل فى قصة مريم كيف تقول لما اطلع قومها على أنها ولدت من غير زوج : « ياليتنى متّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا » وكيف يقول الله تعالى : « ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا » فالكافر يتمنى لو يكون ترابا ، ومريم تمنى لو تكون نسيا منسيا ، فأما مريم فالخزى الذى يلحقها من قومها ، وقدعرفت هى وأهل بيتها بالطهارة والشرف ، فالخزى والعار على مقدار المظهر : وهكذا الكافر رأى علمه جهلا ، وصالح العمل قبيحا ، فيريد أن يتوارى بالحجاب فلايجد لذلك سبيلا ، قال تعالى : « لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون » ، وقال : « ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى » .

واعلم أن نفس الانسان تسع جميع هذه الصور من أوّل الحياة الى آخرها كما يرتسم فى الهواء جميع صور الأشياء فتصل الى أعيننا ، ورسمها فيها أشبه برسم الصور فى المرآة فانها ترسم فيها بحالة لطيفة فى الطبقة الأثيرية ، والنفس تقبل من الصورعلى هذا النمط مالايتناهى ، ولذلك ترانا نتذكر حوادث وعلوما كثيرة مخزونة فى نفوسنا ، وهذه الصور لاتنسى عند النفس وانما نسيانها فى الحياة الدنيا لضعفنا هنا قال تعالى : « أحصاه الله ونسوه » واذا أحصى الله أعمالنا عنده فقد أودعها فى نفوسنا لنقرأها قراءة حقيقية ، والله تعالى يحاسبنا على تلك الصور ويكون الغفران والعذاب .

فكل حركة وكل فكر فى النفس يدوّن فيها و يظهر لنا بعد الموت ، فليحاذر المرء فالحياة قصيرة .

على نفسه فليبك من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولا سهم

وأما قوله تعالى « آمن الرسول » الخ فاعلم أن هذا ختام السورة المشتمل على ملخص مافيها ، و بيانه أن السورة جاء فيها أمران : وهما الايمان والعمل ، فالايمان فى أوّلها إذ قال « الذين يؤمنون بالغيب » الخ ثم ذكر المنافقين والكافرين وأتى بأدلة الألوهية وذمّ اليهود وعدد فضائحهم ، لأن مقالاتهم كانت مناقضة لايمان المؤمنين ، وهذا فى الجزء الأوّل من السورة ، وأما الجزء الثانى فانه أبان فيه الصلاة والصيام والحج وأعمال البرّ من الصبر والاخلاص والصدق والتقوى ومعاملة النساء وصيانة اللسان عن الحلف ، ثم ذكر الجهاد والمحافظة على البلاد ، وفضيلة الانفاق . وترك الربا ، وكيفية المعاملة ، فرجع الأمر إلى اثنين [ايمان وعمل] فالايمان فى قوله « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون » الخ ، والعمل فى قوله « وقالوا سمعنا

وأطعنا غفرانك ربنا » فانظر كيف كانت الخاتمة على ترتيب السورة ، ثم تعجب أيضا فى ترتيب الايمان بالله والملائكة والكتب والرسل ، ذلك أن الله أشرق نوره على الملائكة ، وأشرق منهم على الأنبياء ، فالملائكة واسطة . قال تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أومن وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء » الخ ، فالله كالشمس والملائكة كالقمر ، ونور الشمس المشرق على القمر أشبه بالوحى الصادر من الله للأنبياء بواسطة الملائكة ، وهنا سؤال ، وهو أن يقال : أيهم أفضل الملائكة أم الأنبياء ؟

وقد اختلف العلماء فى ذلك اختلافا كثيرا لافائدة فيه إذ لاأثر له فى العقول ولافى رقىّ المتعلمين . فمن الناس من يقول : الأنبياء أفضل من الملائكة ، ومنهم من يقول : الملائكة أفضل من الأنبياء ، وهؤلاء أفضل من الملائكة الأرضيين ، ويقولون : النبى أفضل من غيره من الناس ، ومن الصوفية من ينازع فى تفضيل سائر الأنبياء على سائر الناس ، بل يفضلون بعض التفضيل .

ثم اعلم أن الأحوال ثلاثة : ماضية وحالية ومستقبلة ، فقوله « آمن الرسول » الخ اشارة إلى المبدأ ، وقوله « سمعنا وأطعنا » اشارة الى الحال . وقوله « غفرانك ربنا وإليك المصير » اشارة إلى المستقبل ، وهذه الجمل أليق بأواخر الكلام كما هنا ، فتعجب .

وقوله تعالى « غفرانك » أى اغفر غفرانك ، روى فى الحديث الصحيح « ان الله مائة جزء من الرحمة قسم جزءا واحدا منها على الملائكة والجن والأنس وجميع الحيوانات ، فبها يتراحمون وادخر تسعة وتسعين جزءا ليوم القيامة » فهذا الحديث يفيد أن هذا العالم المادى لانسبة بينه وبين ذلك العالم الذى تجلى الله فيه على عباده وظهرت رحمته بأجلى مظهرها . وفى الحديث أن النبى ﷺ قال « انه ليغان على قلبى وانى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » ويقول العلماء : ان كل ماعامله العبد مهما عظم فى جانب كبرياء الله عزوجل ضئيل قاصر ، فلذلك كان ﷺ يستغفر من كل مقام يصل اليه ، لأن كل مقام دون مقام الجلال الالهى .

قال الله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت » من خير « وعليها ما اكتسبت » من شر الى قوله « لاتؤاخذنا » أى لاتعاقبنا ، والاصر الثقل ، والطاقة اسم من الاطاقة ، والعفو أن يسقط عنه العقاب ، والمغفرة أن يستر عليه جرمه صونا له من عذاب التخجيل والفضيحة ، والرحمة نعيم الجنة ، وقوله « أنت مولانا » يراد به أن يستغرق العبد فى جلال الله وجماله ، ويفرح بهذا الاستغراق وهو منتهى اللذات فهذه مراتب أربعة : مرتبة ترتيبا حقا ، سقوط عقاب جسمى بالعفو وستر الذنب بالمغفرة فلا يفتضح ، ونعيم الجنان والاستغراق فى الجمال الالهى .

واعلم أن كل امرئ مسئول عما يطيقه من الأعمال ، فأف لمن كان ذكى الفؤاد سليم العقل قوى البنية ثم ينام عن الأعمال النافعة لأمته ، وعنده قدرة تفوق غيره ، وكيف ينام القادر بعلم أو بمال أو بقوة بدنية كيف ينام عن مساعدة المجموع ، الله يقول : لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، وبهذا أدعو جميع الاذكياء والعلماء والأغنياء وأقول : فياحسرة على من عنده علم أن يصبر ويسكت ، بل لينشره ، وياحسرة على من هو قادر على عمل أو نصيحة أن يذر الناس يتخبطون ولا ينصحهم ، وياحسرة على من عنده مال أن يذر الأمة الجاهلة فلا يسعى لرقيها بالطرق الشريفة العالية ، وليس معنى قولى أنه يعطى المال للقادرين على العمل ، وإنما يسعى لهم فى عمل الشركات وينمى رأس المال ليكون أداة صالحة للعاملين من أبناء الأمة فى الصناعة والتجارة مع الأجر المناسب والكسب اللائق ، فياويل من ضاعت حياته وهو غافل عما حوله . الطاقة متفاوتة ، فمن الناس من يطيق نفع نفسه فقط ، ومن الناس من يقدر على اسعاد أسرته ، ومنهم من يقدر على إرشاد أهل بلدته ، ومنهم من يقدر على ارشاد أمته ، ومنهم من يقدر على هداية جميع الأمم ، وكل من قدر على شىء من ذلك وغفل عنه أوأهمله اعتراه عند الموت من الآلام مالايطاق وندم ، ولات ساعة مندم ، وربما عذب زيد على ترك عمل لا يعذب عليه خالد ،

لأن هذا عذاب دائم ، فبه كان يترقى إلى العلا فى تلك الساحات العالية ، فاذا فاز غيره وهو خائب ، وقد أمكنه ذلك تحسر حسرة لامردّ لها ، وندم ندامة الكسعى « ولات حين مناص » .

واعلم أن هذه الندامة دائمة ، والحسرة ملازمة ، والعذاب واقع ، فياحسرة على امرئ قدر على بذل معروف وبخل به ، ويا حسرة على من قدر على نفع الناس ونام عنه ، ان المقام مقام ارتقاء فى الحياة الأخرى والارتقاء بالاعمال والأعمال بالامكان ، فمن أمكنه وفرط ندم على أنه لم يرتق فى تلك الساحات العالية ، وليس يدرك ماقلناه اليوم إلا ذو بصيرة وعقل مشرق « والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » .

اختلاف العقول وواجب الحكومات الاسلامية

اعلم أيدك الله أن عقول الناس مختلفة اختلاف ألوانهم وأشكالها ، فترى أن الجنس الأبيض من نوع الانسان اتفقوا بياضا واختلفوا فيه بحيث لا يتساوى بياض عمرو ببياض خالد ، وترى لكلّ عينين وأنفا وحاجبين وفما ، وقد اختلفوا اختلافا حقيقيا بحيث لا يتشابه وجهان على ظهر البسيطة ، هكذا عقولهم ، فهم وان اتحدوا فيها قد اختلفوا فى قابليتها وكل له استعداد يناسبه ، وفى العقول من الكنوز ما ان مفاتحه ليعوزها رجال ذوو علم يضعون كلا فى المقام الذى استعدّ له ، ولقد جعل الله الأرض مختلفة البقاع ، ولاتقبل من النبات الاعلى مقدار استعدادها ، وكذلك النبات ، كل له مقام معلوم ، فمن النبات مالاينبت إلا تحت الماء كقصب السكر والأرز والنيلوفر وأنواع من العكرش ، ومنها ماينبت على وجه الصخر كخضراء الدمن وهكذا ، ثم ان النباتات التى فيها أعضاء التناسل غير مجتمعة فى زهرة واحدة يكون سلطانها فى المناطق المحترقة بين المدارين ، واطالما دهش السياح بتلك المظاهر الجيلة ، وتأملوا تلك المراعى البهيجة فيها قطائع الأنعام سارحة هائمة لايقودها قائد ولا يسوقها سائق ، والنباتات التى فيها تلك الاعضاء مجتمعة فى زهرة واحدة يكون سلطانها فى المناطق المعتدلة والنباتات التى أعضاء التناسل فيها خفية يكون سلطانها فى المناطق الباردة .

ولقد خصص الله كل أرض بعدد من النبات فتجد فى بلاد فرانسا ٨٣٠ جنسا ، وفى النمسا ٦٠١ وفى [لابونيا] ٣٠٠ ، وفى مصر ٤٣٠ وفى غيانه ٦٠٠ ، وفى جزائر الخالدات ٢١٢ .

جدول لذكر الأجناس والأنواع فى بعض الأماكن

	أجناس	أنواع
فرانسا	٨٣٠	٦٠٠٠
نمسا	٦٠١	٤١٠٠
لابونيا	٣٠٠	١١٠٠
بلاد البربر : أى المغاربة	٥٠٠	١٦٠٠
مصر	٤٣٠	١١٠٠
غيانه	٦٠٠	١٢٠٠
أسلنده	٢١٠	٢٥٠
جتيك	٥٠٠	١٤٠٠
ترستان السكونا	٥٥	١١٣
كنرى (من جزائر الخالدات)	٢١٢	٣٧١
هيلانه	٣٥	١٦

وترى أن الحكمة خصصت لكل مايحتاج إليه ، فقلّ الهواء وكان الماء أقلّ منه والحبوب أقلّ من الماء والجواهر والمعادن أقل من الطعام ، ثم الجواهر النفيسة أقل من الجميع ، ثم ان الراديوم ذا القوّة المدهشة الذى ظهر حديثا نادر جدّا فى الطبيعة ، هكذا نقول : ان الله جعل نوع الأنسان منه من خصهم الله بحسب فطرهم إلى العمل الجسمى وهم الأكثرون ، وهذه الفئة طبقات بعضها فوق بعض ، وكل من كان أدقّ فكرا كان أقلّ وجودا كما نشاهد فى ذوى الصناعات الدقيقة ، و يليهم العلماء والحكماء ، ثم الأنبياء ، وهم أندر كالراديوم فى المعادن ، قضت الحكمة أن يكون لكل شيء قدر ، وأن تكون العقول مختلفة كما اختلفت المشاهدات .

فكما أناط الله بالهواء سائر الحيوان والنبات للتنفس فى جميع الأوقات ، و بالماء كل حىّ وقتا دون وقت و بالقوت فى أقلّ من ذلك ، و بالدواء أدنى من ذلك وجعل المعادن أقل من القوت طلبا ، ولم يجعل من الراديوم دراهم ولا من الذهب محاريث ولا من الحديد أقواتا ولا من الحنطة بحارا ولا من الماء جوّا يحيط بالكرة ولا من الهواء جوّا يصل إلى كرة الشمس بل جعله إلى حدّ فوقنا .

هكذا رتب عقول الناس على هذا النمط ، فلم يكثر من الأنبياء حتى يملؤا القرى ، ولا من ذوى الصوت الجميل والصور الفاتنة لئلا يفتتن بهم الناس ، ولا جعل فى كل قرية حكيما فيلسوفا ، ولا أكثر من الأذكياء المفرطين فى الذكاء ، ولم يقلل من ذوى الأجسام القوية لئلا تضيع الأعمال ، وانما كنز فى النفوس وفى العقول مواهب مقدرة بمقدار الحاجة ، ثم بعد أن رتب ذلك عملا قال على لسان رسوله « لايكلف الله نفسا إلاوسعها » ليطابق قوله فعله ، فذكر الوسع ، وذكر التكليف ، وجعله منوطا بالوسع ، وقال فى آية أخرى «قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » فرأينا لكل مخلوق عملا يخصه ، ورأينا الاختلاف فى الموجودات وفى الجدول السابق فى النبات ، فقلنا . لقد صدق قوله تعالى فعله « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » بل كل شيء عنده بمقدار .

هذه أشياء يراها الناس ولكنهم لايفكرون ، فيقسمون العلوم على مقدار العقول كما وزع النبات على مناطق الأرض .

الله قد سهل هنا للناس ليفقهوا فجعل الجبال الشاهقة التى بين المدارين العالية رءوسها عن السحاب جامعة لجميع خصائص الأرض كلها ، فلما كانت مخزنا للمياه جعلت مخزنا للعلوم والحكم المنقوشة على ظاهرها ، فترى أن جميع مناطق الأرض واضحة فى آن واحد على مهابط هماليا والجبال المسماة [كرد ليير] فان أعلى الجبل يمثل القطبين .

وأوسطه يمثل المناطق المعتدلة ، وأسفله يمثل المناطق الحارة ، وكل منطقة ينبت فيها ماخاقت له ، فانظر كيف أوضح الله للناس طرائق الاستعداد بتوزيع النبات على المناطق ، ثم أعطاهم درسا أسهل ، فرسم الجبل على مثال الأرض ، ولما جهلوا هذا كله ، قال لهم على لسان رسوله بألفاظ يفهمونها «لا يكلف الله نفسا إلاوسعها». يقول الله : أنا قلت لكم فى هذه السورة « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها و بث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » وأبنت لكم أن النظر فى الأرض ونحوها يفيدكم تعقلا ، فاذا عجزتم فهاهو ذا رسولى أقول على لسانه : « لاتكلف نفس إلا وسعها » فكما لاينبت فى المناطق الباردة بكثرة النباتات التى أعضاء التناسل فيها غير مجتمعة فى زهرة ، هكذا لاينبت العلم الرياضى أوالطبيعى فى عقول خامدة ونفوس كاسلة ، فكم خزنت لكم فى عقول الناشئين فى القرى والبلدان

من نفائس وذخائر كما خزنت فى الجبال الذهب والنحاس والحديد ، ودفنت فى الأرض الفحم والماس فغرائز العقول أى استعدادها يكفل لكم كل ماتطلبون ، وهل تظنون أنى أبينها لكم أكثر من ذلك .

ضربت لكم الأمثال فى المناطق ونباتها ، والجبال ورسومها ونقوشها ، ولما عجزتم أسمعتكم هذه المعانى بألفاظ كما أسمع العميان ، فماذا بعد ذلك إلا أن تنظروا بأنفسكم انى آليت بعظمتى وجلالى أن لا أنزل نعمة إلا بقدر « وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

نظام الحيوان على منهج حواس الانسان ومنافعه

ألم تروا ياعبادى أنى جعلت الحيوان مخصصا على المنهج الذى سلكته فى خلقكم ، ألم أقل لكم فى كتابى « وآتاكم من كل ماسألتموه » ولقد أعطيتكم كل ماسألتم بقدر ونظام .

ألم تروا الى حواسكم الخمس ، وهى السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، ان لها لمطالب فخلقت الطيور المغردة الحسنة الصوت المفرح السارّ اللذيذ لتمتع أسماعكم بجميل النغمات ، وخلقت أمثال الطاووس وسائر الحيوانات والطيور الجميلة ، والصور البديعة ، والعجائب المفصلة فى أنواعها ، وأجناسها تمتيعا لأبصاركم وبهجة ، ومن ذلك الدرّ والمرجان جعلتهما لذة للناظرين ، وخلقت غزال المسك تأخذون من نوافجه ألذ ماشمّ من الروائح إجابة لسؤالكم ان أحببتم لذة فيما تشمون وخلقت لكم اللبن والسمن والجبن واللحم فى حيوان البرّ والبحر لتذوقوا لذتها ولتغتذوا بألبانها غذاء متاعا إلى حين ، ومن ألذها العسل الذى به تتداوون وتتفكهون « وما كنا عن الخلق غافلين » .

وخلقت لكم الحرير الناعم الملمس لتتمتع به حاسة اللمس التى بها طلبتم أن أسعدها بلذتها وجعلت ذلك فتنة لكم غالية الثمن ، أخرجه الدود فكان زينة لكم وبهجة للامسين ، وكسوتكم بما طلبتم للدفء من جلود الأنعام وأشعارها وأوبارها وجعلتها أثاثا لكم ومتاعا إلى حين ، وجعلت منها أحذيتكم وبيوتا تحملونها من بلد الى بلد آخر ، كل ذلك وقاية لأجسامكم أن يهلكها الحرّ والبرد بما تحسون بحواس اللمس فتهلكون .

أى عبادى : ألم تروا كيف قسمت الحيوان قسمة صادقة على حواسكم الخمس ومطالبكم التى تطلبها حواسكم وهل تظنون أنى أقرّب الغافلين عن حق التائهين النائمين ؟ كلا وعزتى وجلالى لاينال عهدى الظالمين ، انظروا ماذا فى السموات والارض أعطكم على مقدار ماتعلمون « وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » فاذا أردتم ياعبادى أن تنالوا نعمتى فابحثوا فى العقول عن استعدادها كما بحثتم فى الجبال عن معادنها ، وفى النبات عن منابتها ، وفى الحيوان عن مناسباتها من حواسكم ، وليهتمّ أهل الحلّ والعقد بتعليم الشعب كله رجالا ونساء ، وليقوّوا أجسامهم بالرياضات الجسمية ، ثم ليصدقوا فى اختبارهم وامتحانهم ، ثم ليجعلوا كل طالب خاصا بما هو أميل إليه ، وإياكم أن تحيدوا عن هذا فانه ظلم مبين .

وهل رأيتمونى أنبت [النيلوفر] فى الصخر أو الأرز فى الجبل ؟ ألم أضع كل نبات فى مكانه اللائق له ، وكل حيوان فى منطقته ؟ وفى حال تناسب منافعكم موزعا عليها بحساب ، كل هذا لأريكم كيف تستخرجون كنوز العقول وهى أثمن ماخلقت لكم وأعزّ وأجل ، فشمروا عن ساعد الجدّ ، وجدّوا حتى تظهر لكم أنوارى التى كمنت فى النفوس الانسانية فى رجالكم ونسائكم ، ألم تقرءوا قولى : « والله أنبتكم من الأرض نباتا » فهذا بعض سرّه المصون .

هذا ولتعلم أيها الفطن أن علماءنا رحمهم الله قد نبهوا الناس لذلك فأوجبوا على ذوى الاستعداد للفقه مثلا أن يجدّوا فيه لنفع الأمة ، فجعلوا الاستعداد سبب الوجوب ، فلنسر على منوالهم ، ولتكن لنا عقول وأسماع وأبصار ، ولنفصل الصناعات والعلوم الواجبة على المسلمين .

الكلام عَلَى العلوم الواجب أكثرها أو كلها عَلَى المسلمين فى هذا الزمان

العلوم الواجبة على قسمين : فرض عين ، وفرض كفاية ، ففرض العين هوما يجب على كل مسلم و يعاقب عليه اذا تركه ، و يثاب عليه اذا أدّاه ، وفرض الكفاية ما يجب على مجموع الأمّة بحيث يعاقبون عليه جميعا اذا تركوه ، فاذا قام فى الأمّة رجال به سقط عنهم الطلب ، فالواجب العينى كمعرفة الامور العامّة فى الصلاة والصوم وكذا الحج ، وكمعرفة ترك الغيبة والنميمة ، وكبرّ الوالدين وما أشبه ذلك ، وأما فرض الكفاية فمثل سائر العلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك والعلوم الطبيعية من المعادن والنبات والحيوان والانسان وكالضوء والمغناطيسية والحرارة والكهرباء ، كذلك جميع العلوم الشرعية من الكتاب والسنة والاجماع والقياس المسماة [علم الاصول] وكالفروع ، وهوعلم الفقه الذى يقوم به العلماء لنظام الدنيا وهم الفقهاء ، وهذه الفروع دنيوية وكالفروع الأخروية من الأخلاق فى التصوّف ، وكالمقدّمات من اللغة والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والخط والاملاء والانشاء ، وكالمتممات من علوم القراءات ومخارج الحروف وتفسير القرآن وكمصطلح الحديث ، فاذن العلوم الدينية أصول وفروع ومقدّمات ومتممات ، ألا وان المشتغل بالمقدّمات من النحو والصرف وهو لم ينل بعد الفضائل الدينية ، والكمالات الاسلامية أشبه بمن له آلات الزراعة وهى كاملة كالمحراث والفأس ثم تركها ولم يشق بها الأرض ، ولم يستنبت بها نباتا فهذا مغرور ، فالآلات الزراعية من المحاريث والعجلات الدارسات السائرات بالبخار ، والمخرجات للماء لاتغنى عن اخراج الزرع ، وهكذا العلوم اللسانية من النحو والصرف والمعانى وغيرها ان هى إلا مقدّمات لعلم الدين .

الصناعات الواجبة كلها أو جلها على المسلمين

هذه الصناعات إما أن تكون حاصلة :

(١) فى الماء كالملاحين والسقائين والروّائين والشرابين والسباحين .

(٢) واما أن تكون حاصلة فى التراب كحفار الآبار والقنى والأنهار والقبور والمعادن وكل من ينقل التراب و يقلع الأحجار .

(٣) واما أن تكون حاصلة فى النار كصناعة النفاطين والوقادين والمشعلين .

(٤) واما حاصلة فى الهواء كالزمّارين والبوّاقين والنفاخين .

(٥) واما حاصلة فى الماء والتراب معا كالفخارين والقدوريين وضرّابى اللبن وكل من يبلّ التراب .

(٦) واما حاصلة فى أحد المعادن كالحدادين والرصاصين والزجاجين والصوّاغين .

(٧) واما حاصلة فى النبات نحو الكتانين ومن يعمل القنب والورق .

(٨) واما حاصلة فى ورق الأشجار وحب النبات والحشائش ، أوزهر النبات ونوره ، والعروق والقشور ، كصناعة الدقاقين والعصارين والبزارين والشيرجيين .

(٩) واما حاصلة فى الحيوان مثل صناعة الصيادين ورعاة الغنم والبقر وسياسة الدواب والبياطرة وأصحاب الطيور ومن شاكلهم .

(١٠) واما حاصلة فى أحد الأجسام الحيوانية كاللحم والعظم والجلد والشعر والصوف والقرن كصناعة القصابين والشوائين والطباخين والدباغين والأساكفة والجزارين والسيوريين والحذائين .

(١١) واما حاصلة فى مقادير الأجسام مثل الوزانين والكيالين والذراعين .

(١٢) واما حاصلة فى قيمة الأشياء كالصيارفة والدلالين والمقوّمين .

(١٣) واما حاصلة فى أجساد الناس كالطب وصناعة المزينين .
(١٤) واما حاصلة فى نفوس الناس وهى قسمان : عملية كمثل ماتقدم وعلمية مثل المنطق والعلوم الرياضية والطبيعية والالهية .

الصنائع كلها ترجع لأمور ثلاثة : الغذاء والكساء والبناء
وكلها ترجع الى واحدة وهى حياة الانسان

اعلم أن الله خلق النبات والحيوان والانسان وجعلها درجات بعضها فوق بعض ، فالذى يكون أرفع شأنا منها نجده أكثر احتياجا ، وكلما قلت الحاجة كان أنزل ، مثال ذلك النبات فما كان منه كالحشائش ينبت فى الطل والندى ، وفى سائر الأرض بلا تعهد ولافلاحة ، وترى أمثال القمح والقطن يعوزها العمال والحفظ والسقى وترى الناس يزيلون الحشائش التى مازرعوها ، وهكذا نرى مايزاول الناس زرعه كالقثاء والعنب ، فالأول له من العمل بمقدار ثمره ، والثانى أرفع ثمرا ، وأبقى أثرا ، وأشرف مقاما ، فكان أحوج الى العناية ، فهكذا الحيوان أرفع من النبات لأنه يسعى لرزقه والنبات لايسعى اليه ، وله حواس تهديه ، والنبات غنىّ عنها ، فأما الانسان فانه أكثر حاجة وأعظم شرفا ، فانظر كيف سعى لغذائه كالحيوان وزاد افتقارا عنه الى الكساء والى عناية أشدّ بالمساكن ، فعلى مقدار ارتقائه كان احتياجه ، وأهمّ حاجاته هذه الثلاث :

الغذاء والكساء والبناء

أما الغذاء فيكون من حب النبات وثمر الشجر وغيرها فكانت الحراثة والغرس واثارة الأرض وحفر الأنهار وصناعة الحدادين والنجارين لصنع الآلات ، ثم صناعة المعادن واستخراجها ، وهذه هى الصناعات التى تتقدم الحراثة ، ومنها صناعة البخار والكهرباء والبترول لتدور تلك الآلات الساقية والحارثة ، ويتقدم ذلك صناعات كثيرة ، وهناك صناعات متممة للحب كالطحن والدق والعصر والخبز

أما الكساء فان الانسان لما احتاج الى ماتستغنى عنه البهائم من اللباس إذ خلق عاريا وهنّ كاسيات اتخذ اللباس بصناعة الحياكة وهى لاتتمّ إلا بالغزل ، وهو بالندف ، والندف يتقدّمه الحلج ، وهذه مقدّمات على الحياكة ، والحياكة تتلوها الخياطة والرفو والطرز ، أما البناء فان الانسان يستكنّ فيه من الحرّ والبرد والسباع ويخزن فيه القوت ، فتتقدّمه صناعات كالنجارة والحدادة وماشا كلها .

وهناك صناعات جعلت للزينة كصناعات الديباج والحرير والعطر ، فهذه خلاصة ما يحتاجه الانسان فى هذه الحياة .

قواعد الشريعة الاسلامية فى هذه الصناعات

واعلم كما قاله العلامة السيوطى فى كتابه « اتمام الدراية لقراء النقاية » أن قواعد الشرع أن الوازع الطبيعى يغنى عن الوازع الشرعى [مثاله] شرب البول حرام ، وكذلك الخمر ، ورتب الحدّ على الثانى دون الأول لنفرة النفوس منه ، فوكلت الى طباعها ، والوالد والولد مشتركان فى الحق ، وبالغ الله فى كتابه العزيز فى الوصية بالوالدين فى مواضع دون الولد وكولا الى الطبع لأنه يقضى بالشفقة عليه ضرورة ، هذه القاعدة نطبقها الآن على مايحتاج له المسلمون فنقول :

قد استبان لك أن جميع العلوم والصناعات يقصد منها حياة الانسان وتهذيبه ورقيه ، والصناعات ترجع الى مقصودة بالذات وهى الثلاث المذكورة ، والى مقدّمات لها ومتممات ، وبعدها تكون صناعات الزينة ،

فعلى رجال الحل والعقد فى الأمة الاسلامية أن لايتركوا صناعة ولاعلما إلا خصصوا لها أناسا ، وليكن ذلك بحسب الاستعداد الجسمى والعقلى ، فيوضع كل امرئ فى مركزه الذى خلق له ، وأن الله قسم العلوم والصناعات على العقول كما قسم الذكورة والأنوثة بالعدل بين الناس .

وههنا يرد سؤال فيقال : لقد ذكرت العلوم الشرعية والفلسفية والصناعات ، وجعلتها فروض كفايات ، وكيف ساغ لك ذلك ؟ وكيف تقرن علم الفقه والتفسير والحديث بالفلسفة وعلم الكيمياء والضوء ؟

أقول : ان هذه كلها فروض كفايات وان كانت متفاضلة فى الشرف فان شرف العلم قد يكون لمتانة الدليل وصدقه كالهندسة ، وقد يكون للحاجة اليه وعمومها وان كان ظنى الدلالة كالطب ، واما لجلال موضوعه وعظمته كالعلم بالله وملائكته ورسله ، وكذلك شرف الصناعات .

(١) إما لعموم الحاجة إليها كالحياكة والبناء والحراثة .

(٢) واما من جهة الصنعة نفسها كمثل من يعملون آلات الرصد مثل الاسطرلاب ، ومثل صناعات من يصنعون الساعات التى تعرف الزمن فان شرف هذه فى صنعتها ، فاذا صنع الاسطرلاب من نحاس كانت قيمته عظيمة جدا تساوى عشرات الجنيهات أومئات منها ، ولكن النحاس الذى فيه الصنعة يباع بدراهم معدودة .

(٣) واما من جهة عموم نفعها مع تساوى الناس فيها غنيهم وفقيرهم ، صغيرهم وكبيرهم ، كصناعة الزبالين والسمادين ، فان هؤلاء لو تركوا المدينة أسبوعا واحدا لامتلأت المدينة من السرقين والسماد فينغص عيش أهلها .

الوازع الطبيعى والوازع الشرعى

اعلم أن الله عز وجل سلط على الناس الحر والبرد ، والسباع ، والأعداء ، والسارقين ، فاضطروا فى البادية أن يتخذوا البيوت ، وينسجوا الشعر والوبر ، وسلط سبحانه الجوع على الناس ، فكان الجوع للغذاء والحر والبرد ونحوهما للكساء ، والحيوان الكاسر والأعداء وحوادث الجو للبناء . ان الله عز وجل لما رفع قيمة الانسان عن الحيوان والنبات كلفه الاستقلال فى حياته ، وألزمه أن يسعى لسعادته ، وبدأ ذلك بتلك الغرائز التى سلطها من الجوع والعطش والاحساس بالحر والبرد والخوف من السباع ، وكلما تقدم الانسان فى مدنيته ازدادت حاجاته ، فلقد كان يكفيه فى الفطرة الفاكهة غذاء ، وورق الشجر وجلود الحيوان كساء ، والمغارات مساكن .

إن الغرائز الكامنة فيه بمساعدة العقل ألزمته أن يتخذ ذلك بلاحكومة نظامية ، ولامدارس ولاعلوم ، ولايجب عليه فوق ذلك شئ بحسب المعاش الدنيوى .

فلما أن اجتمعت الناس فى المدن حدثت لهم أحوال واستجدت لهم شؤون وجاءت واجبات فكانت الصناعات المتقدمة وغيرها ، وربما عدت بالمئات لاسيما فى هذا الزمان ، ألاترى أن السفر الذى كان يكفى أن يقال انه على جمل أوحمار أو بغل أوسفينة أصبح الآن ذاشعب كثيرة من الطرق الحديدية والآلات البخارية والسفن العظيمة الجارية كأنها مدينة والغواصات والطيارات ، وكل هذه تحتاج إلى الأسلاك البرقية [التلغرافية] والبرق الذى لاسلك له و إلى علم المغناطيس والكهرباء ، ونحو ذلك .

و بعد أن كان يكفى الوازع الطبيعى فى تربية المرأة لولدها أن تغذيه باللبن كالحيوان حدث اليوم حادث المدنية الذى به فسد الهواء فى المدن وازدحم الناس ، وضاعت الأخلاق فوجب التعليم والتهذيب ، وقراءة العلوم ومعرفة الصناعات وصار الفرد مكلفا بشؤون خاصة على مقدار طاقته .

وليس يجوز لأولى الحل والعقد فى الأسلام أن يتركوا الأمة وشأنها ، بل عليهم أن يجعلوا طوائف فى العلوم والصناعات بمقدار فلا تزيد طائفة عن حاجة الأمّة كما هو حاصل الآن ، فبلادنا المصرية مسكينة تجهل الصناعات المستحدثة فى أوروبا ولا تعرف الا القليل ، وهى عالة عليها فيها ، ولاترى فيها كثيرا الا علوم القضاء والمحاماة ، وعلم الفقه الاسلامى ، والأمّة الآن كبقية الأمم الاسلامية متروكة سبهللا ، فالمتعلمون فى مدارس الحقوق والقضاء والمعاهد الدينية كثيرون جدّا ، يزيدون عن حاجات الأمّة المسكينة الفقيرة فى سائر العلوم ماعدا هذين العلمين ، ويجب أن يتعلم كل ذى علم شرعى أوعقلى بعض الصناعات كالنجارة والحدادة والكهرباء تقوية لبدنه وتكميلا لأمور حياته وحفظا لمروءته اذا لم يجد وظيفة ، وليكن تعليم السبق والرمى من أهمّ مقاصد جميع المتعلمين .

الفرض العيني الواجب على كل مسلم

ولعلك تقول : أليس علم الفقه واجبا على جميع المسلمين ؟ فلماذا تجعله فرض كفاية كعلم الكهرباء ، وعلم النحو وصناعة البخار وسير القطار .

أقول : ندع اختلاف العلماء فى الواجب العينى فانهم لم يتفقوا ، فعلماء التوحيد يقولون : الواجب العينى علمهم وعلماء الفقه يوجبون علمهم ، والمفسرون علمهم ، والمحدّثون علمهم والصوفية علمهم ، وقال أبو طالب المكى : علم حديث بنى الاسلام على خمس الخ ، والحق أن الواجب على كل امرئ حفظ ذاته وحفظ عقله ودينه ، فحفظ الذات كفت فيه الغريزة ، فاذا ترك اللباس آذاه الحر والبرد ، واذا ترك المسكن تعرض للهلاك ، واذا رأينا من لم يحافظ على نفسه أرغمناه ، وأوجبنا عليه حفظها كمن يسكر أو يريد قتل نفسه ، والمكلف به المرء اعتقاد وفعل وترك ، فالاعتقاد هو الايمان بالله ورسوله و بقواعد الاسلام ، وأن يقوم بفعل الطاعات و يجتنب المحرمات ، فأما علم الفقه الذى هو الشغل الشاغل لعظماء الاسلام فقد قال الامام الغزالى فيه : ان أحكام الجراحات والحدود والغرامات ، وفصل الخصومات ، وماأشبه ذلك انما هى قانون السياسة وضبط الجمهور الذين يتنازعون بحكم شهواتهم ، فالفقيه معلم السلطان ومرشده إلى قانون سياسة الخلق ، وهذه فى الحقيقة حراسة للدنيا والدنيا بها يتمّ الدين ، فالفقه الذى عند الأمّة الاسلامية انما هو القانون والقانون لحفظ البلاد والعباد ، و بحفظ هؤلاء يتمّ الدين .

وليس يمتاز عما تقدّم فى الفقه أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج والحلال والحرام ، فكل هذا نظر الفقيه فيه دنيوى لاأخروى لأنه يحكم بصحة الصلاة ظاهرا ، وكذا الزكاة والحج والاسلام ، وهذه كلها لانفع لها فى الآخرة الابالاخلاص والتوجه لله ، فالصلاة لانفع فيها ولافائدة اذا كان قلب الانسان مشتغلا بما أهمه ، والفقيه يقول انها صحيحة والله يعلم انها باطلة « ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » .

بيان قصور التعليم بالمدارس المصرية فى زماننا

وان الشاب يخرج من المدارس مغمض العين ناعس الطرف فلا يرى نجما ولاشجرا ولامعدنا الاقليلا منهم

قد ذكرت لك فى الباب السابق أن علم الفقه لضبط السياسة فى البلاد ، وقلت : انأ كثر المتعلمين من مصر مجدّون فى هذا العلم ، ألاترى إلى الجامع الأزهر الذى تعلمت فيه ، و إلى فروعه فى دمياط ورشيد والزقازيق والاسكندرية وأسيوط ، وفيه الآلاف المؤلفة من الطلاب ، وإلى مدرسة القضاء الشرعى ، و إلى مدرسة الحقوق التى هى تبع للحكومة ، و إلى مدرسة الحقوق الليلية التى أقامها أهل فرانسا فى بلادنا وغيرها ،

فهل

فهل لهذه المدارس كلها الامطلب واحد هو سياسة الجمهور ، و بعبارة أخرى ان علم الفقة الاسلامى وأصوله الذى يراد لأجل الافتاء والقضاء قد شاركه القانون الفرنسى وأصوله واصبحا عاملين يقرآن ، وانكب عليهما الطلاب للغرض الذى كان يسعى له طلاب المال والجاه ، والأمة المصرية اليوم مسكينة فقيرة فى العلوم والصناعات ، أما فى الصناعات فظاهر لأنا عالة على أوروبا حتى ان نساءنا من كانت منهنّ غنية فالماشطة لها امرأة فرنجية والخائطة افرنجية والخادمة افرنجية والمرضع الافرنجية ، وهذه صناعات يحرم على الأمة أن تكون خالية منها فيعذب المسلمون قاطبة على تركها .

وأما العلوم فاننا فيها فقراء ، ألا ترى أن علم الحيوان ، وعلم النبات ، وعلم المعادن ، وعلم الفلك مفقودات فى المدارس الثانوية ، وقد كانت هذه فى مدارسنا فى أواخر القرن الماضى فى النظام الذى سنه [محمد على باشا] ومن بعده أن المدارس الثانوية هى المدارس التى تعطى الشاب صورة العلوم العامة ، وهذه مفقودة فى البلاد الاقليلا ، نعم يقرءون الحساب والهندسة والجبر وبعض الطبيعة كاحوال المادة الثلاثة : الصلبة والسائلة والغازية ، وخواصها العامة كالحيز وعدم التدخل إلى آخره ، وكالقوى المحركة والروافع والحرارة والمغناطيسية والكهربائية الساكنة والمتحركة ثم علم الحيل [الميكانيكا] ولكن هذه لاتغنى عن علم الحيوان والانسان والنبات والمعدن ، يعيش الشاب و يموت وهو يجهل النجوم وعجائب الفلك ويجهل نبات مصر وحيوانها ومعادنها ويجهل تاريخ المصريين والسودانيين وأهل العراق وأهل الحجاز والعرب وماأصلهم وماتاريخهم ، ومن أين نزحوا كل ذلك مجهول فى الاسلام فى وقتنا الحاضر ، أما الاوروبيون فهم يعلمون أبناءهم مايحتاجون إليه مما يناسب أحوالهم .

فالمسلمون جميعا يجهلون صناعة الحرب التى ارتقت فيها أوروبا وصناعات البريد والحراثة وغيرها من فروع الحياة الاقليلا عرفه بعض مواطنينا من المصريين ، ولكن الجهل لايزال مخيما فى البلاد كما خيم فى سائر البلاد الاسلامية ، ثم المتعلمون عندنا مجدّون فى علم الحقوق وعلم الفقه كما قدمنا ، وهذا الانكباب من جهة ، وترك العلوم والصناعات الأخرى حرام على أولى الحل والعقد بل عليهم أن يعملوا بقوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الاوسعها » ويخصصوا كل طائفة بعلم أوصناعة ، أما ترك الأمة سبهللا هملا فهو حرام نعاقب عليه فى الدنيا بالخزى ، ودوس الفرنج لنا بجهلنا وفى الآخرة بجهنم وبئس القرار .

أيها المسلمون : أيها المصريون : ان التلاميذ فى مدارسكم أعينهم فى غطاء ، انهم يقرءون ، ولكن ماذا يقرءون ؟ يقرءون شذرات من العلوم كالكيمياء والمغناطيس والضوء وأمثالها ، يقرءونها وهم متكلفون يقرءونها بايجاز ، تلك مقدمات الصناعات والمقدمات غير النتائج ، تلك نتف من العلوم « لاتسمن ولاتغنى من جوع » لايعرفون الجمال ، لايدرسون محاسن الطبيعة ، لايقرءون نظام النبات ، ولاأنواع الحيوان ، ولابهاء الدنيا ، ولاجمال النجوم ، ولابهجة هذه المناظر ، لايقرءون العلم بلذة وفرح ، ولايدرسونه بانشراح ومسرة .

حكاية

منذ ١٣ سنة قال لى ثلاثة من تلاميذ المدرسة الخديوية كانوا قد سافروا إلى أروبا : اننا نحن الثلاثة كنا نظهر اهتماما بجمال الزهر ، وبهاء الزرع ، وجمال الشجر ، فقال أستاذنا [الذى كان ناظرا لمدرسة الحقوق فى مصر وتشاجر مع مستشار المعارف الانجليزى لحرمان التلاميذ من الفلسفة فى التجهيزى قبل دخول مدرسة الحقوق ثم غادر البلاد وصار ملجأ للتلاميذ المصريين فى مدارس الحقوق بفرانسا] .

مالى أراكم تعشقون الزهر وتحبون الجمال ، ولم أرهذا فى التلاميذ المصريين ؟ فقلنا له : اننا حضرنا فى

سنة ١٩٠٧ م على مدرّس كان يعطينا مواضيع الانشاء كلها فى جمال الطبيعة فمشقناها ، فقال لنا : لماذا حضرتم الى أوروبا ؟ اذا ظهر فى أمة من يحببها فى الجمال ارتقت سريعا ؛ ومثل هؤلاء ثمر كلياتهم ، وهؤلاء يفتحون عيون شعبهم ويوقظونه فى زمن قريب . انتهى

أيها المسلمون : أيها المصريون : دينكم يدعو للجمال وفهم الطبيعة ، دين قدماء المصريين كما قدّمت فى هذا التفسير يعشق فى جمال السماء والأرض كما فى النشيد الدينى المتقدم ، أوروبا تقدّس الجمال فى العوالم ، فالقرآن وجميع الديانات والأمم تدرس جمال هذا العالم ، ونحن نجتزئ بالقشور الى يوم النشور ، أغمض أبناؤنا أجفانهم ، غطوا أعينهم وناموا ، لم يدرسوا ماحولهم ، نعم درسوا فى كراسة العلم ، وهى وحدها التى أقفلت أجفانه ، وأنامته وكرهته فى العلم ، ليدرس النبات والحيوان والنجوم بصفة تشوّق الطالب الى الدرس ، وترفع نفسه الى مستوى الحكمة والعلم ، وبهجة الأنوار القدسية ؛ ذلك هو الصراط المستقيم .

ولعمرك ان من يدرس فى التجهيزى أحوال المادة الثلاثة : الصلبة والسائلة والبخارية ، وخواصها العامة كالقصور الذاتى والحيز ، وكونها لها مسامّ ، وخواصها الخاصة كالقابلية للطرق والسحب والاستعداد للتجزئة فى المعادن ، وكذلك القوى التى تحرّك الأجسام والروافع والضغط الجوّى والحرارة والمغناطيسية والكهربائية والميكانيكا والضوء وقوانينه ؛ ان الذين يدرسون هذه وهم بعد لم يستكملوا هذه العلوم فى صناعة من الصناعات وأيضا لم يقرءوا علم الحيوان والنبات وغيرها ، ان هؤلاء يكونون أشبه بمن قرأ الصرف والنحو وهو لم يتضلع من النثر والنظم العربيين ، ويعيش حافظا نظريات لاتفيده فى الحياة كمثل الذى حفظ الميراث والدعاوى والبينات وسائر أبواب الفقه ، ولم يكن له فيه عمل مّا ثم هو يجهل مافى القرآن من الاشارات للعلوم والاطلاع على الحكمة ، فهذا ومن قبله من الذين حبطت أعمالهم فلا يقام لهم فى الدنيا وزن : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » فالتلميذ الذى يحمل الشهادة الثانوية لايقدر على مهنة يشتغل بها وهو مغرور بشهادته ، والحق أنه قد خرج أعزل لاسلاح له إلا تلك الورقة الكاذبة فلا يمكنه الاكتساب بما علم ، بل هو تعلم التوكل على الناس ، فلابدّ من قلب التعليم فى مصر وفى المعاهد رأسا على عقب نظاما وشهادات وعلوما وتلقينا ، والله هو الولىّ الحميد .

قال الامام الغزالى فى الاحياء : « ولو سألت الفقيه عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج الى شىء منها ، وان احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ، ويكفيه مؤونة التعب فيها ، فلا يزال يتعب فيها ليلا ونهارا فى حفظه ودرسه ، ويغفل عما هو مهمّ فى الدين ، واذا روجع فيه قال : اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض كفاية ، ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه ، والفطن يعلم أنه لوكان غرضه أداء حقّ الأمر فى فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين ، بل قدّم عليه كثيرا من فروض الكفايات ، فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ، ولايجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ، ثم لانرى أحدا يشتغل به ، ويتهاترون على علم الفقه ، لاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع ، فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قام به جماعة واهمال مالاقائم به ، هل لهذا سبب ؟ إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به الى الأوقاف والوصايا ، وحيازة مال الأيتام ، وتقلد القضاء والحكومة ، والتقدّم به على الأقران ، والتسلط به على الأعداء ، هيهات هيهات قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء ، فالله تعالى المستعان واليه الملاذ فى أن يعيذنا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن ، ويضحك الشيطان » انتهى المقصود منه .

وأنا أقول : أيها الامام قد مضى نحو ٩٠٠ تسعمائة سنة بعد تأليفك هذا الكتاب والمسلمون نائمون

جاهلون

جاهلون ، ومصر التي ظهرت في طليعة البلاد الاسلامية لاتزال كالعهد الذي تركت الاسلام عليه ، فيها معاهد العلم الديني لايزالون في هذا التلبيس وتبعهم رجال المدارس الذين لايحلو لهم الامدارس الحقوق ومدرسة القضاء الشرعي ، كل هذا للظهور وتولى الحكم والمحاماة ، أما الصناعات والعلوم الأخرى فهي منبوذة الاقليلا فليس عندنا مبرزون فيها ، أما أوروبا فقد قهرتنا بآلاتها القاتلة والحارثة والطاحنة وسبقونا في الاقتصاد والسياسة ثم ان المدارس عندنا تعليمها لفظي لايعشق الشبان في العلم والبحث فهو تعليم خال من الروح ، ولذلك سقطت الأمة في هاوية الاحتلال الأجنبي .

الواجب على المجالس الشورية أو النائبة عن الأمة

الواجب عليها أن تقلب التعليم قلبا تاما في المعاهد الدينية والمعاهد الدنيوية وتدخل فيها التهذيب وكل مايرغب في حب العلم وحب البلاد ومعرفة أحوال الأمم الاقتصادية في السوق ، وهكذا علم الأخلاق وعلم الحيوان والنبات والمعدن وما أشبه ذلك ، وليس يجوز أن يكون التعليم بلا ضابط وانما يكون على مقتضى الاستعداد المذكور في قوله تعالى « لايكلف الله نفسا الا وسعها »

هل في الاسلام نابغون ؟

ولعلك تقول كيف تذم التعليم في الاسلام وفي مصر وفيها نبوغ ظاهر لذي عينين :

أقول : على رسلك ان هؤلاء النابغين في الأزهر والمدارس انما جاء من استعدادهم ومن دراساتهم الخاصة وبيئاتهم ، أما مستوى التعليم فانه ناقص ، وأهم من هذا أنه غير منظم لم ينظر فيه إلى ماتحتاج اليه الأمة ، الامام الغزالي يقول لنا : ان البلاد مشحونة بأهل الفقه وهي خالية من الاطباء ويندد على المسلمين ويقول قد ذهب الدين وضاع لماذا ضاع ؟ ضاع لأن البلاد ليس فيها من يقومون بجميع المطالب للأمة .

وأنا أقول ياضياع المسلمين اليوم ؛ ياضيعة الاسلام ، أيها الامام المسلمون لايزالون كما تركتهم فأهل الفقه وحفاظ القرآن يملؤن البلاد وكذلك المحامون والقضاة ، أما علماء الكيمياء والطبيعة والضوء والكهرباء والسكك الحديدية والبرق وعلماء المعادن وعلماء الحشرات وعلماء السياسات فان هؤلاء في أوروبا وليسوا عندنا وأنت أيها الامام تقول : ان الدين ضاع ، وأنا أقول لك : ان كثيرا من أهل بلادي لايعلمون أن هذا من الدين ولايعترفون بأن ديننا يحرم علينا ترك الصناعات الحربية الحديثة وصناعة الطرق الحديدية وصناعات المعادن ولايتصوراً كثر الناس أن ذلك فرض كفرض علم الفقه الذي به يكون القضاء ، وأقول فوق ذلك : قد أخبرني عالم صيني أن علماء الاسلام هناك ظنوا أن العلوم العصرية مخالفة للقرآن فتأخروا عن أهل الصين المتبعين للدين الوثني فأصبح الاسلام في زماننا مانعا من العلم في نظرهم ، والمسلمون هناك يبلغون سبعين مليونا ، ولقد جاءني مرة أمير يقال له جمال الدين من الهند ومعه فتوى يسأل فيها عن علم الجغرافيا والتاريخ ، فأجبته بأن العلوم كلها فرض كفاية ، وقال لي : ان علماء بلدي حرموا هذه العلوم وقابلني في هذا العام عالم تونسي فقال : ان بعض العلماء يقولون لايجب شيء غير علم الفقه ؛ أما النظر في العالم العلوي فيكفي أن ينظر الانسان بعينيه وهكذا الاسلام اليوم أضعف منه في كل زمان .

وأنا أطالب كل من وقع هذا في يديه أن يبحث في هذا الموضوع ويفكر بعقله ويستخرج العلوم الواجبة على المسلمين ويرفعها لولاة الأمور فانه ظهر بهذا القول أن علم الدين ليس خاصا بالفقه ، بل العلوم كلها والصناعات أصبحت فروعا لشجرة واحدة هي الحياة الانسانية ؛ وكل ماعندنا الآن خطأ نشأ من عادات قديمة

راسخة ، فليقلب التعليم فى المعاهد الدينية على حسب ماقلناه وكذلك فى المدارس العصرية وليكن للأمة حال جديدة ، فهذه الحال لايجوز بقاؤها وليدرس هذا الموضوع دراسة تامة ، فالاسلام وأمة الاسلام اليوم فى خطر ، ولامنجى من الخطر الا بماذكرنا وباتباع قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الاوسعها »

الأوقاف الاسلامية والمعاهد الدينية

اذا تقرر أن فروض الكفاية تشمل العلوم والصناعات ، وأن المعاهد الدينية الاسلامية يدرس فيها علوم النحو والصرف والمعانى وأمثالها وعلوم أخرى من أصول الدين والفقه وكذا الحساب والهندسة والنظر فى الكون ، أفلا ينبغى أن ينظر فى أمر الشهادة النهائية ، و يقال ان هذه العلوم كلها فروض كفاية لافرق بين علوم الدنيا والدين ، فاذا نظر رجال الحل والعقد فى المجالس النيابية فى أمر ما تحتاج اليه الأمة من العلوم والصناعات ثم قرروا أن يكون فى تلك المعاهد شهادات عالية أيضا للهندسة وأخرى للطب ، وللصناعات الشريفة باعتبار أنها فروض كفايات وان كثرة المتعلمين فى البلاد فى نوع واحد غير مفيدة كما قاله أسلافنا اذا حصل ذلك فانى أراه يوافق الدين ، بل أقول فوق ذلك : ان مخالفة هذا تنافى الدين لما قرره الامام الغزالى من النداء بالويل والثبور ومخالفة الدين بسبب كثرة الفقهاء وقلة الأطباء ، الله الله عباد الله اتقوا الله فى دينكم وأمتكم وليكن لطلاب المعاهد الدينية حياة أسعد من هذه وأرقى منها بتنوّع شهاداتهم مع أنهم منسوبون للدين ، فمن أخذ الشهادة بالطب لا يكون أقلّ ممن أخذها بالفقه لأنهما معا درسا هذا الفن ولكن أحدهما اختصّ بالطب والآخر استمر بحسب استعداده فى الفقه وهكذا الهندسة ويكون تخصيصهم بحسب استعدادهم بالامتحان ، ثم ينظر أهل الحلّ والعقد فى الأوقاف وتنظم نظاما تاما فلا تبقى مبعثرة كما هى الآن ويحرم الانفاق على العاطلين و يعرض مافيها على أهل الحلّ والعقد و ينظر العقلاء فيها بعقولهم فيما يطلبه حال الأمة ، ثم يستعرضون آراء المذاهب كلها من حنفية وشافعية وحنبلية ومالكية وزيدية وغيرها و يأخذون من أقوالهم بما هو الأصلح للبلاد من حيث نظام الأوقاف واعماؤها ومن حيث الانفاق على معاهد التعليم وأن يكون المتخرجون منها نافعين فى نظام الأمة تبع قانون معلوم ونظام مسنون ، لا بالهوى والعادة ويكون ذلك بمقتضى قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الاوسعها » أما أنا فقد كتبت مافى وسعى وهذا أنا به مكلف وهذه بذرة سينميها العلماء و يسقى زرعها العقلاء و يعمل بها النوّاب النبلاء .

انتهى تفسير سورة البقرة مساء الجمعة ١٣ ابريل سنة ١٩٢٣ م ، ٢٦ شعبان سنة ١٣٤١ هـ بمنزلنا بشارع زين العابدين رضى الله عنه آمين

(تمّ بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الأوّل من كتاب « الجواهر » فى تفسير القرآن الكريم ويليه الجزء الثانى : وأوّله تفسير سورة آل عمران)

(يقول

﴿ يقول الفقير اليه تعالى (ابراهيم بن حسن الانبابى) خادم العلم الشريف ورئيس لجنة التصحيح بمطبعة الشيخ الجليل (مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر) ﴾

حمدا لمن كشف لذوى البصائر مخدّرات آى التنزيل ، وأشهدهم مكنون أسرار التأويل ، وأخرج بهم من الجهالة ومتعهم بنعيم المعرفه ، وأمدّهم من أبحر فيوضات أنوار أسراره المؤتلفه ، وصلاة وسلاما على أجلّ مبعوث بأفضل كتاب الى خير أمه ، سيدنا محمد وآله وصحبه ومن انتهج دينه القويم وأمّه

[و بعد] فلما كان كتاب ربنا جلت عظمته بحر معارف لايتناهى ، و ينبوع حكم لايحيط بعلمها الامن أبدعها وسوّاها ، وكان العارفون من العلماء الألباء ، لايحيطون بشىء من علمه الا بما شاء ، وقد اغترف كلّ بقدر مبلغ علمه ، ومنتهى وسعه ، أهلّ من بينهم الاجلّ الأمجد ، والملاذ الأفخم الأوحد ، الفيلسوف المحقق ، والجهبذ المدقق ، الشيخ « طنطاوى جوهرى » ذوالفيوضات الربانيه ، والمواهب اللدنيه ، « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » ولله درّه : لقد اغترف من بحار أنوار معالى التنزيل بالقدح المعلى ، وأتى بما لم يسبق به من كل أوضح أجلى ، وضمنه بدائع حكم الموجودات وغرائب غرائز المكوّنات .

فالى الأمة الاسلامية أزف هذا السفر الكريم والكتاب العظيم [بعد اعادة طبعه للمرة الثانية بادخال تحسينات جمة ، منها تكميل التفسير اللفظى لبعض الآيات ، واستدراك أشياء ، ووضع بعض صور شمسية هامة ، رأى فضيلة المؤلف ضرورة إثباتها ، وما أوجدته سنة رقىّ الطباعة من التقدّم الفنى وجودة الورق الخ] لتقف على حقائق الأشياء ، فتخرج من ورطة الجهالة الشنعاء ، وتتحلى بحلى المعارف ، وتستظلّ بظل تبيانها الوارف ، وتحوز فضلها بين الأمم . وذلك بالمطبعة المذكورة أعلاه ، ووافق تمام طبعه أوائل محرّم الحرام سنة ١٣٥١ هجريه على صاحبها أفضل الصلاة وأتمّ التحيه آمين



الخطأ والصواب

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بالانتباه ، وهـذا جدول بما عثرنا عليـه من ذلك ، وهاهوذا :

صفحة	س	خطأ	صواب
٦	١٢	بِعَنْرَسِهَا	بِغَرْسِهَا
١٣	٣٣	من الشمس وضوؤه بالنسبة لضوئها	مرة وضوء الشمس بالنسبة لضوئها
١٩	١٨	التشبه بالله	حب الله
٣١	٢٣	كثيرا	كثير
٢٣	٨	فالقرْاةُ	فالقرْاةِ
٣٥	٢٩	أبكا	أبكى
٣٦	١٨	وكم	وكأين
٣٦	٢٠	كقوله عليه الصلاة والسلام	كما فى هذه الحكمة
٣٨	٣٣	البلاعة	البلاهة
٤١	٢٣	المشهور	المشهورة
٤٣	٢	انما	
٤٦	٢٢	عليه	عليك
٦٤	٢٨	وتحوط الملوك العلماء والشعب بالجيوش	وتحيط بالملوك والعلماء الشعب والجيوش
٧٨	٢٣	فى هذه الكتاب	فى هذا الكتاب
٨٠	٦	والمراد باليهود والنصارى إلى قوله إلى أسفل	
٩٢	٢	فيتخذون للشهوات	فيستخذون للشهوات
١٠٢	٢٢	فى كتبهم	وفى كتبهم
١٢٠	١٤	والتحريف	والتخريف
١٣١	٢١	أصبحوا	ليصبحن
١٥٨	١٣	الأمراء	الاراء
٢٠٦	٢١	ماقبلته	ماتقبلته

تمت

فهرس

فهرس

الجزء الأول

من كتاب

الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

مع الراهب فى [دير طورسينا] ، وردّ المؤلف على كلامه واستحسانها ذلك كله ، وضرب مثل الأنبياء وأتباعهم بقائد جيش الترك إذ قام معه قومه ، وصدّوا عدوّهم ، ولم يتكلوا على القائد وحده ، فهكذا الأنبياء وأممهم ، و بمثل هذا تتمّ شفاعتهم لهم ، والعلماء يشفعون ، والشهداء على هذا القياس .

٧١ تفضيل بنى اسرائيل .

٧٢ « و إذ فرقنا بكم البحر » الخ ، والتفسير اللفظى لذلك . آيات التوراة فى سفر الخروج ، فى خروج بنى اسرائيل من مصر .

٧٣ سفر الخروج ووصف ماآكل بنى اسرائيل فى التيه .

٧٣ « وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى » الخ ، والتفسير اللفظى لذلك .

٧٤ « و إذ استسقى موسى لقومه » الآيات .

٧٥ التفسير اللفظى لهذا المقصد .

٧٦ إيضاح الكلام فى قوله تعالى : « اهبطوا مصرا فانّ لكم ماسألتم » وأن أهل المدن يذلون وأهل البادية قانعون أعفاء ، فهم أقرب الى الفضائل ولذلك يقتلون المتمدينين ، وذكر تاريخ العرب والرومان و بنى اسرائيل ، وانهم لما تنعموا داستهم الأمم البدوية والفرنجة ، اليوم قد استعدّوا لهذا الدور كمن قبلهم ، ثم ما الذى يفعله المسلمون لاتقاء هذا الخطر ، فليقللوا من الشهوات ، وليمرّنوا الأجسام ، وليحفظوا العقول ، وليأكلوا من الطعام مالا يكثر تركيبه ، وأن يكونوا أعفاء قانعين ، فاذا انغمسوا فى النعيم أذلتهم الأمم ، ذكر الفوائد الطبية فى هذا .

٨٠ « إن الذين آمنوا والذين هادوا » .

٨٠ قصة البقرة ، حكاية اليتيم البارّ بأمه صاحب البقرة .

٨٢ الأمم الضعيفة تقلد الغالبة فى أخلاقها وتقاليدها كما قلد بنواسرائيل المصريين فعبدوا عجلهم فأمروا بذبح البقرة ليعلموا أنها لاتعبد ، حكمة تخصيص الحجر بضربه بالعصا ، ليدل على أن الأحجار تنفجر منها المياه بسبب اختصاص الثلج بأنه يكبر اذا برد ، فالجاهل يكتفى بعصا موسى ، والعالم يعرف العصا الالهية ، ونبع العيون بعظم حجم الثلج ، وعجائب السحاب والماء ، وأن فى هذه السورة عجائب من علم تحضير الأرواح فى هذا المقام ، وتحريم الربا ، وتحريم الخمر ، والتنويم المغناطيسى ، وأن الحرب الماضية كانت لرءوس الأموال ، وهكذا قصة صموئيل ، والعجوز التى أحضرت روح صموئيل النبى ، وأخبرت طالوت بأنه سيقتل غدا ، وعلم تحضير الأرواح وتاريخه فى أمريكا وأوروبا ، وانتشاره السريع ، وانه مقتضى قوله تعالى : «كذلك يحيى الله الموتى و يريكم آياته » فهذه هى آيات الله فى ذلك ، الروحانية فى فرنسا وألمانيا وايطاليا والبلجيك واسبانيا والبرتغال ، وخطاب خمسة عشر ألف أمريكى لمجلس النوّاب الأمريكى فى علم تحضير الأرواح ، الملايين الذين اتبعوا هذا المذهب من الفلاسفة والأطباء وغيرهم .

٨٩ مراتب التصديق أربعة : العقل ، التصوّف ، احضار الأرواح ، الايمان .

٩٠ « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم » الآيات ، والتفسير اللفظى لذلك .

٩١ لكل أمة ثلاث طوائف : كبراء ، أمّيون ، ذوولسن ماكرون .

٩٢ « و إذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل » الآيات ، ترتيب حال الأمة الى ثلاث مراتب : سعادة ، واضطراب الهلاك والذهاب ، وهذه الأحوال الثلاثة على ترتيب الآيات .

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة